

إِعْرَاقُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَبَيِّنَاتُهُ

رَأَيْفُ الْأَسَانِدِ
مُحْيِي الدِّينِ الدَّرَوِيشِ
الْمَجْلَدُ الرَّابِعُ

لِلْمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ - لِلْمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ - لِلْمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ - لِلْمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ

دَارُ ابْنِ كَثِيرٍ
لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالْمُزَيِّنِ
بِغَزَّيْنِ - بَيْرُوتَ

الْإِسْلَامِيَّةُ
لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالْمُزَيِّنِ
بِغَزَّيْنِ - بَيْرُوتَ

إِنَّمَا أَتَى بِالْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا
وَبِيَّاهُ

جَمْعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة السابعة

١٤٢٠م - ١٩٩٩م

طبعة منقحة ومصححة ومفهّسة

(تضييد جديد)

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من دار اليمامة ودار ابن كثير، دمشق - بيروت



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - حادة ابن سينا - بقاء الجبالي
ص.ب: ٣١١ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت - برج أبي حيدر - خلف د.بوس الأصلي - بقاء الحديفة
ص.ب: ١١٣ / ٦٣١٨ - تلفاكس: ٠١٨١٧٨٥٧ - ٠٣٢٠٤٤٥٩



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - برمكة - جانب الهجره والجوازات
ص.ب: ٣٧٧ - هاتف: ٢١٢٢٠٥٩ - فاكس: ٢١٢٣٢٤٥
بيروت - برج أبي حيدر - خلف د.بوس الأصلي - بقاء الحديفة
ص.ب: ١١٣ / ٥٤٨٨ - هاتف: ٠١٧٠٢٩٥٩ - ٠٣٨٥٣٥٨٦

أَعْرَابُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَبَيِّنَاتُهُ

تأليف الأستاذ

محيي الدين الإدريش

المجلد الرابع

الجزء الثالث عشر - الجزء الرابع عشر - الجزء الخامس عشر - الجزء السادس عشر

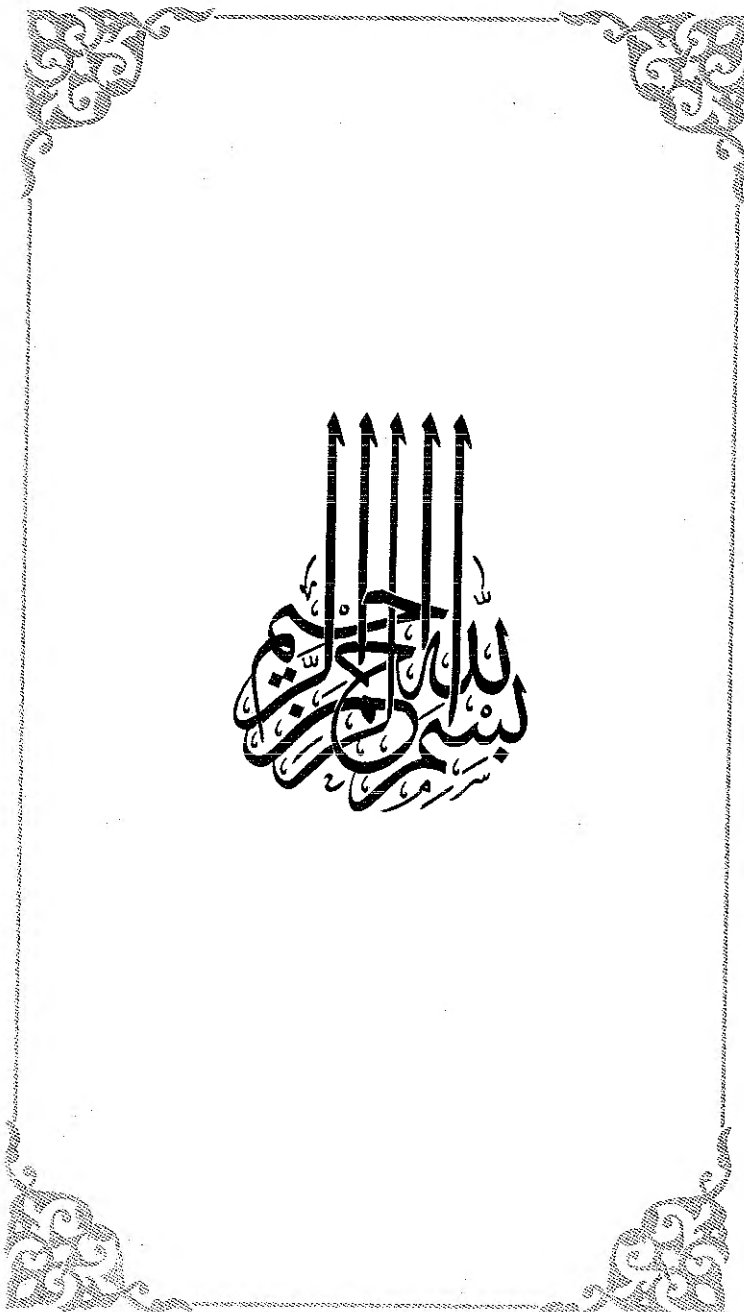
دار ابن كثير

دمشق - بيروت

دار اليمامة

دمشق - بيروت

دار الإرساد للسُّون الجامعية
مصر - سورية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٥٤) قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَاجِرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٧﴾

○ الإعراب:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي﴾ عطف على ما تقدم، وقال الملك فعل وفاعل، وجملة اتوني به مقول القول، وأستخلصه فعل مضارع مجزوم؛ لأنه وقع جواباً للأمر، والاستخلاص: خلوص الشيء من شوائب الشركة، وقال ذلك لما كان يوسف نفيساً، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ الفاء عاطفة على محذوف يمكن تقديره بما تتساقق معه مجريات القصة وحوادثها، أي: فجاء الرسول يوسف، وقال أجب الملك، فقام مودعاً أهل السجن داعياً لهم؛ لأنه كان مثابتهم، وموضع ثقتهم، ثم لبس ثيابه، ودخل على الملك، فلما... الخ، ولما ظرفية حينية، أو رابطة، وكلمه فعل وفاعل مستتر ومفعول به، وجملة قال جواب لما لا محل لها، وإن واسمها، والظرف متعلق بمحذوف حال، ولدينا متعلق بمكين، ومكين خبر إن، وأمين خبر ثان ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ اجعلني فعل أمر، والنون للوقاية، والفاعل مستتر تقديره: أنت، والياء مفعول به، وعلى خزائن الأرض جار ومجرور متعلقان بالمفعول الثاني، أي: قيماً على خزائن الأرض، وإن واسمها، وحفيظ خبرها، وعليم خبرها الثاني ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ كذلك نعت لمصدر محذوف، أي: ومثل ذلك التمكين الظاهر مكنا ليوسف، ومكنا فعل وفاعل، واللام متعلقة بمكنا، ومفعول مكنا محذوف، أي: الأمور، وفي الأرض حال، وجملة يتبوا جملة

حالية من يوسف، ومنها جار ومجرور متعلقان بيبسوا، وحيث ظرف ليبسوا، أو مفعول به له، وجملة يشاء في محل جر بإضافة الظرف إليها، ولا بد من الإشارة إلى تنمة القصة؛ التي اقتضى سياق الكلام حذفها، أي: فولاه مكان العزيز، ثم هلك قطفير عزيز مصر فزوج الملك يوسف امرأة العزيز بعد هلاكه، وكانت مفاجأة تجمع بين المتعة والدهشة حين دخل عليها يوسف، وقال لها: أليس هذا خيراً ممّا تريدان، قالت: أيها الصديق لا تلمني، فإني كنت امرأة غريرة، حسناء، بلهاء، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت بالمشابة التي أنت عليها من الوسامة والجمال، فغلبتني نفسي، وعصمك الله إلى آخر تلك القصة الرائعة؛ التي استوفت جميع عناصر القصة، ثم استولى على مقاليد الأمور، ودان له القريب والبعيد ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الجملة استثنائية، مسوقة إلى التصرف العادل؛ الذي اختص الله تعالى به نفسه، ونصيب فعل مضارع مرفوع، والفاعل نحن، وبرحمتنا متعلقان بنصيب، ومن مفعول به، وجملة نشاء صلة، ولا نضيع عطف على نصيب، وأجر المحسنين مفعول به ﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ اللام لام الابتداء، وأجر مبتدأ، والآخرة مضاف إليه، وخير خبر أجر، وللذين متعلقان بخير، وجملة آمنوا صلة، وكانوا كان واسمها، وجملة يتقون خبرها.

* الفوائد:

نسج أرباب السير حوادث حول هذه القصة الرائعة من نسج الخيال، ولقّوا روايات يبدو عليها البطلان لتفاهتها وركاكتها، أو لإحالتها ومنافاتها للعقل، فعلى المرء أن يمحس تلك الروايات البادية التلفيق، ويشجب الأخذ بها والتوريك على نقلة هذه الزيادات بالبهت، وذلك شأن المبطلة من كل طائفة.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ٥٨ ﴿وَلَمَّا

جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْدِيَّ أَوْ فِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَوِّدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ اجْعَلُوا يَضْعَفَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا أُنْقَلِبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

○ الإعراب:

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ الكلام معطوف على كلام سابق يفهم من سياق القصة، أي: أصابت يعقوب وأولاده ضائقة، وهم في فلسطين، فقال لهم يعقوب: بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام، فتجهزوا إليه، واقتصدوه لتشتروا ما نحن بحاجة إليه من الطعام، فخرجوا حتى قدموا مصر... إلى آخر القصة. وجاء إخوة يوسف فعل وفاعل، ولم ينصرف يوسف للعلمية والعجمة، فدخلوا عليه عطف على جاء أخوة يوسف ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَمْ يُنْكِرُونَ ﴾ الفاء عاطفة، وعرفهم فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والواو للحال، وهم مبتدأ، وله متعلقان بمنكرون، ومنكرون خبر، أي: لم يعرفوه لطول العهد ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْدِيَّ ﴾ الواو عاطفة، والكلام معطوف على مقدر يفهم من سياق الحوار، أي: لما وصلوا إليه قال لهم: لعلكم جئتم عيوناً تنظرون عورة بلادي، قالوا: معاذ الله! نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد، فجئنا نمتار فاستوضح منهم عن أمرهم، فقال: نحن أخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صديق نبي اسمه يعقوب، وكنا اثني عشر، فهلك منا واحد، قال: أنتم الآن عشرة، فأين الأخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك؛ لأنه شقيقه، قال: فأتوني به، أي: بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، واتركوا أحلكم عندي رهينة حتى تأتوني به... إلى آخره، ولما حينية، أو رابطة، وجهزهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به، وبجهازهم متعلقان بجهزهم، وقال: جملة لا محل لها؛ لأنها جواب لما، وجملة أتوني مقول القول، وهو فعل

أمر وفاعل ومفعول به، وبأخ جار ومجرور متعلقان به، ولكم صفة لأخ، ومن أييكم صفة ثانية ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ الهمزة للاستفهام، ولا نافية، وترون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي ترون، وجملة أوفي الكيل خبر إن، والواو عاطفة، وأنا مبتدأ، وخير المنزّلين خبر، أي: وأنا للضيف خير المضيفين ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ الفاء عاطفة، وإن شرطية، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وتأتوني مجزوم بلم، وهو فعل الشرط، والفاء رابطة، ولا نافية للجنس، وكيل اسمها، ولكم خبرها، وعندني ظرف متعلق بمحذوف حال، والواو عاطفة، ولا ناهية، وتقربون فعل مضارع مجزوم بلا، وعلامة جزمه حذف النون، هذه النون نون الوقاية، وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً، ويحتمل أن تكون لا نافية، وتقربون مجزوم نسقاً على محل قوله: فلا كيل لكم، وهو الجزم؛ لأنه جواب الشرط، كأنه قيل: فإن لم تأتوني تحرموا، ولا تقربوا ﴿قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ جمل سنراود مقول القول، وعنه متعلقان بنراود، وقد تقدمت معاني المراودة قريباً، فجدد به عهداً، وأباه مفعول به، وإنا من عطف الجمل، وإن واسمها، واللام المرحلة، وفاعلون خبر إنا ﴿وَقَالَ لِفَتَايَنِهِ أَجْعَلُوا بُضْعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ لفتيانه متعلقان بقال، وجملة اجعلوا مقول القول، وبضاعتهم مفعول به، وفي رحالهم في موضع المفعول الثاني، وقد اختلف في معنى جعل البضاعة في الرحال، وأقرب الأقوال أنه أراد حملهم على الرجوع إليه أن يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم، فتحملهم على الرجوع، وهو يعلم أن ديانتهم لا تحل لهم إمساكها، فيرجعون لأجلها ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل واسمها، وجملة يعرفونها خبر لعل، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن، وجملة انقلبوا مضافة للظرف، والجواب محذوف، أي: فلعلهم يرجعون، وإلى أهلهم جار ومجرور متعلقان بانقلبوا، ولعل واسمها، وجملة يرجعون خبرها.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَنَحْفِظُونَ ﴾ (١٣) قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفِظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ (١٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (١٦) وَقَالَ يَبْنَىٰ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (١٧)

○ الإعراب:

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ الفاء حرف عطف، ولما حينية، أو رابطة، ورجعوا فعل وفاعل، وإلى أبيهم متعلقان برجعوا، وجملة قالوا لا محل لها، ويا حرف نداء، وأبانا منادى مضاف، ومنع فعل ماض مبني للمجهول، ومنا متعلقان بمنع، والكيل نائب فاعل، وهم يشيرون إلى قول يوسف، فإن لم تأتوني به، فلا كيل لكم عندي ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَنَحْفِظُونَ ﴾ الفاء الفصيحة، وأرسل فعل أمر، ومعنا متعلقان بأرسل، وآخانا مفعول به، ونكتل مضارع مجزوم في جواب الطلب، وإنا: إن واسمها، وله متعلقان بحافظون، واللام المرحلية، وحافظون خبر إن ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، كما تقدم نظائر ذلك في مواضع كثيرة. هل حرف استفهام، وآمنكم فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول، وعليه متعلقان بآمنكم، وإلا أداة حصر، كما آمنتكم: الكاف نعت لمصدر محذوف،

وما مصدرية، يريد: إنكم قلتم في يوسف ﴿وَأَنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ كما تقولونه في أخيه بنيامين، ثم ختمتم بضمانكم، فكيف آمنكم؟! وعلى أخيه جار ومجرور متعلقان بأمنتكم، ومن قبل حال، أي: من قبل هذا الزمان ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ الفاء الفصيحة، والله مبتدأ، وخير خبر، وحافظاً تمييز، أو حال، وهو مبتدأ، وأرحم الراحمين خبر، والمعنى: فتوكل على الله، ودفع إليهم بنيامين ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا يَضَعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ لما حينية، أو رابطة، وفتحوا متاعهم فعل وفاعل ومفعول به، ووجدوا بضاعتهم فعل وفاعل ومفعول به، وجملة ردت إليهم في محل نصب مفعول وجدوا الثاني ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ قالوا فعل وفاعل، ويا أبانا منادى مضاف، وما اسم استفهام في محل نصب مفعول مقدم لنبغي، أي: أي شيء نبغي، ونطلب من الكرامة؟! هذه أموالنا ردت إلينا، وقال الزجاج: يحتمل أن تكون نافية، أي: ما بقي لنا ما نطلب، ويحتمل أيضاً أن تكون نبغي من البغي، أي: ما افترينا فكذبنا على هذا الملك ﴿هَكَذَا يَضَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ هذه مبتدأ، وبضاعتنا خبر، وجملة ردت إلينا حالية، ويجوز إعراب بضاعتنا بدل من هذه، وجملة ردت إلينا خبر، والجملة مستأنفة مسوقة لإيضاح قولهم: ما نبغي ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ الواو عاطفة على محذوف، أي: نستظهر بها، ونستعين، ونمير أهلنا، وأهلنا مفعول به، ونحفظ أخانا جملة منسوقة على ما قبلها، ونزداد جملة منسوقة أيضاً، وكيل بغير مفعول به لنزداد ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ذلك مبتدأ، وكيل خبر، ويسير صفة، أي: أن كيل البعير الذي نزداده هين على الملك؛ لأنه قد أحسن إلينا، وأكرمنا أكثر من ذلك ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ لن حرف نفي ونصب واستقبال، وأرسله مضارع منصوب بلن، ومعكم ظرف متعلق بأرسله، وحتى حرف غاية وجر، وتؤتوني فعل مضارع منصوب بأن مضمرة، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به أول، وموثقاً مفعول به ثان، ومن الله صفة، وجعل الحلف بالله موثقاً؛ لأن الحلف به مما تؤكد به العهود ﴿لَأَأْتِيَنَّ بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ اللام واقعة في جواب القسم المدلول عليه بقوله موثقاً، وتأتني

مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، والياء مفعول به، والنون المشددة للتوكيد، والنون الثالثة نون الوقاية، وقد تقدمت لهذا الإعراب نظائر، وإلا أداة استثناء، وأن وما في حيزها استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لتأتني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم، فهو حال، أو استثناء مفرغ من أعم العلل، أي: لا تمتنعون من الإتيان لعله من العلة إلا علة الإحاطة بكم، وتقول العرب: أحيط بفلان: إذا هلك، أو أشفى على الهلاك. وعبرة أبي حيان: وهذا الاستثناء من المفعول من أجله مراعى في قوله لتأتني، وإن كان مثبتاً معنى النفي؛ لأن المعنى: لا تمتنعون من الإتيان به لشيء من الأشياء إلا لأن يحاط بكم، ومثاله من المثبت في اللفظ، ومعناه النفي؛ قولهم: أنشدك الله إلا فعلت، أي: ما أنشدك إلا الفعل، ولا يجوز أن يكون مستثنى من الأحوال مقدراً بالمصدر الواقع حالاً، وإن كان صريح المصدر قد يقع حالاً، فيكون التقدير: لتأتني به على كل حال، إلا إحاطة بكم، أي: محاطاً بكم؛ لأنهم نصُّوا على أن «أن» الناصبة للفعل لا تقع حالاً، وإن كانت مقدرة بالمصدر الذي قد يقع بنفسه حالاً، فإن جعلت أن، والفعل واقعة موقع المصدر الواقع ظرف زمان، ويكون التقدير لتأتني به في كل وقت إلا إحاطة بكم، أي: وقت إحاطة، قلت: منع ذلك ابن الأنباري، فقال ما معناه: يجوز: خروجنا صياح الديك، أي: وقت صياح الديك، ولا يجوز: خروجنا أن يصيح الديك، ولا: ما يصيح الديك، وإن كانت أن وما مصدريتين، وإنما يقع ظرفاً بالمصدر المصريح بلفظه. وأجاز ابن جني أن تقع ظرفاً، كما يقع صريح المصدر، فأجاز في قول تأبط شرّاً:

وقالوا لها لا تنكحيه فإنه لأول نصل أن يُلاقى مجمعا

وقول أبي ذؤيب الهذلي:

وتالله ما إن شهلة أم واحد بأوجد مني أن يهان صغيرها

أن يكون أن يلاقى، تقديره: وقت لقائه الجمع، وأن يكون أن يهان،

تقديره: وقت إهانة صغيرها، فعلى ما أجازته ابن جني يجوز أن تخرج الآية وتبقى لتأنيني به على ظاهره من الإثبات، ولا يقدر فيه معنى النفي ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ الفاء عاطفة، ولما تقدمت، وآتوه فعل وفاعل ومفعول به أول، وموثقهم مفعول به ثان، والله مبتدأ، وعلى ما نقول متعلقان بوكيل، ووكيل خبر الله ﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ﴾ يا حرف نداء، وبني منادى مضاف، وعلامة نصبه الياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ولا ناهية، وتدخلوا فعل مضارع مجزوم بلا، ومن باب جار ومجرور متعلقان بتدخلوا، وواحد صفة. خشي عليهم أن يلفتوا الأنظار بدخولهم جملة واحدة، فيعانوا، أو يصيبهم سوء ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وادخلوا فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، ومن أبواب متعلقان بادخلوا، ومتفرقة صفة، وما أغني: ما نافية، وأغني فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: أنا، وعنكم متعلقان بأغني، ومن الله حال، ومن حرف جر زائد، وشيء مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ إن نافية، والحكم مبتدأ، وإلا أداة حصر، والله خبر، وعليه جار ومجرور متعلقان بتوكلت، وعليه عطف جملة على جملة، وفليتوكل: اللام لام الأمر، ويتوكل فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، والمتوكلون فاعل.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا جَهَرَهُمْ بِجَهَارِهِمْ جَعَلَ السَّكَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٢١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ

وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧١﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٢﴾

☆ اللفظة:

(الحاجة): الأدب واللبانة، وهي ترجع في اشتقاقها إلى فكرة واحدة، هي الإقامة على الشيء والتشبث به، ذلك أن صاحب الحاجة كلف بها، ملازم للفكر فيها، مقيم على تنجزها، والأصل في (الحاج) أنه شجر له شوك، وما كانت هذه سبيله، فهو متشبث بالأشياء، كما يقول ابن جني في «الخصائص» فأى شيء مر عليه اعتقله، وتشبث به، فسميت الحاجة به تشبيهاً بالشجرة ذات الشوك، أي: أنا مقيم عليها متمسك بقضائها كهذه الشجرة في اجتذابها ما مرّ بها، وقرب منها، والحوجاء منها، ومنها تصرف الفعل احتاج يحتاج احتياجاً، واحوج يحوج، وحاج يحوج، فهو حائج.

والأرب من الأربة، وهي: العقدة، وعقد مؤرّب: مشدد، والحاجة معقودة بنفس الإنسان، مترددة على فكره، واللبانة من قولهم: تلبّن بالمكان؛ إذا أقام به ولزمه، وهذا هو المعنى عينه.

وهذا بحث جليل، يؤدي إذا تعورف إلى معرفة معاني الكلمات، وتصوّر مدلولاتها، وقد ذكر الزّجاج في أماليه عن ابن الأعرابي: أن العشقة شجرة يقال لها اللبابة، تخضر، ثم تدق، ثم تصفر، ومن ذلك اشتقاق العاشق. وفي اللغة: عشق به كفرح، لصق به، والعشق: عشق المحب بمحبوبه، أو هو إفراط الحب، وشدة التعلق به، فأصل المعنى المادي ظاهر، انقلب إلى معنوي عريق الصلة بينه وبين المشتقات. وأورد الزجاج أيضاً أن أصل المغازلة من الإدارة والقتل؛ لأنه إدارة عن أمر، ومنه سمي المغزل لاستدارته وسرعته في دورانه، وسمي الغزال غزلاً لسرعته، وسميت الشمس غزاة لاستدارتها وسرعتها، وأورد التعليل في الإدارة عن الأمر بقوله: ويقال: غازل الكلب الظبي؛ إذا عدا في أثره فلحقه وظفر به،

ثم عدل عنه، ومنه مغازلة النساء قال: كأنها يلاعبها الرجل فتطمعه في نفسها، فإذا رام تقبيلها انصرفت. ثم إن الغزالة قد تكون مؤنث الغزال أيضاً، وقد ورد في كلام العرب نظماً ونثراً قديماً وحديثاً، وأنكره الصفي في «شرح لامية العجم» وقال: لم يسمع إلا بمعنى الشمس، وقد ردّه الدماميني، وأورد له شواهد كثيرة، ولولا صحته لم تقع التورية في مثل قول الشاعر في العقاب:

ترى الطيرَ والوحش في كفِّها ومنقارها ذا عظامٍ مزاله
فلو أمكن الشمس من خوفها إذا طلعت ما تسمّت غزاله

والموغل في تتبع العلاقات القائمة بين المفردات يقع منها على مذهب طريف، وسر عميق في نشأة اللغة، وتشقق الكلام فيها، وفي هذا الكتاب يبدو لك العجب العجيب من هذه الأسرار.

﴿السَّقَايَة﴾: مشربة يسقى بها، وهي الصواع الآتي ذكره، وكان يشرب فيه الملك، فيسمى سقاية باعتبار أول حالة، ثم صاعاً باعتبار آخر أمره؛ لأن الصاع آلة الكيل، وقيل: كانت إناء مستطيلاً يشبه المكوك؛ وقيل: هي المكوك الفارسي؛ الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم، وقيل: كانت من فضة مموهة بالذهب، وقيل: كانت من ذهب، وقيل: كانت مرصعة بالجواهر.

﴿رَحْلٍ﴾: الرَّحْل - بفتح الراء المشدّدة - ما يجعل على ظهر البعير كالسرج، والمراد به هنا: مكان ركوبه.

﴿أَلْعِيرُ﴾: بكسر العين: الإبل التي يحمل عليها؛ لأنها تعير، أي: تذهب وتجيء، وقيل: قافلة الحمير، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة: عير، كأنها جمع عير، والمراد أصحاب العير، كما سيأتي في باب: البلاغة.

﴿صُوعًا﴾: الصُّوع - بضم الصاد المشدودة - والصَّاع لغتان، معناهما واحد، وهو: المكيال، وقد تقدم أنه هو السقاية، وإنما اتخذ هذا الإناء مكيالاً لعزة ما يكال به في ذلك الوقت.

(السارق): هو من يسرق المتاع من الأحرار، وللعرب في لغتهم تفصيل حول السارقين، فإذا كان يقطع الطريق على القوافل فهو لص وقرضوب، فإذا كان يسرق الإبل فهو خارب، أو الغنم فهو أحمص، والحميص: الشاة المسروقة، فإذا كان يسرق الدراهم بين أصابعه فهو قفاف، فإذا كان يشق عنها الجيوب فهو طرّار، فإذا كان تخصص بالتلصص والخبث والفسق فهو طمل، فإذا كان يسرق ويزني ويؤذي الناس فهو داعر، فإذا كان خبيثاً منكراً فهو عفر وعفرية نفرية، فإذا كان أخبث اللصوص فهو عمروط، فإذا كان يدل للصوص ويندس لهم فهو شص، فإذا كان يأكل ويشرب معهم، ويحفظ متاعهم، ولا يسرق معهم فهو ليف.

هذا؛ واللص بثلاث اللام، وفرق بعض اللغويين بينها فقال:

إغلاق باب ستر فعلٍ لَصَّ وسارقٌ بالحركاتِ لِصَّ
جمع الأُلصَّ من رجال لُصَّ منضمٌ أضراس فكنْ ذا خبر

○ الإعراب:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ لما ظرفية حينية، أو رابطة، ومن حرف جر، وحيث ظرف مبني على الضم في محل جر بمن، والجار والمجرور متعلقان بدخلوا، والمعنى متفرقين، وجملة أمرهم أبوهم مضافة للظرف ﴿مَا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الجملة جواب لما، وقيل الجواب هو آوى إليه أخاه، قال أبو البقاء: وهو جواب لما الأولى والثانية، وما نافية، وكان فعل ماض ناقص، واسمها ضمير التفرق المدلول عليه بالكلام السابق، وعنهم متعلقان بيغني، ومن الله حال، ومن حرف جر زائد، وشيء مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ استثناء منقطع على معنى: ولكن حاجة في نفس يعقوب قضاها، وهي حده عليهم، وفي نفس صفة، ويعقوب مضاف إليه، وجملة قضاها صفة لحاجة ﴿وَلَئِنْ لَدُّوْا عَلَيْنَا لَمَّا عَلَمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ الواو للحال، وإن واسمها، واللام المرحلة، وذو علم خبر إن، وجملة علمناه صلة، ولكن الواو حالية أيضاً، ولكن واسمها، وجملة لا يعلمون خبر ﴿١٠٢﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخَاهُ ﴿١٠٣﴾ تقدم إعرابها، وأخاه مفعول آوى، والجمله جواب لما الأولى والثانية ﴿١٠٤﴾ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ إن واسمها، وأنا مبتدأ، وأخوك خبر، والجمله خبر إن، والجمله مستأنفة، وهكذا كل ما اقتضى جواباً، وذكر جوابه، ثم جاءت بعده قال: فهي مستأنفة، والفاء الفصيحة، ولا ناهية، وتبتئس مضارع مجزوم بلا، وبما متعلقان بتبتئس، وجمله كانوا صلة، وجمله يعملون خبر كانوا ﴿١٠٦﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴿١٠٧﴾ الفاء عاطفة، للدلالة على رغبتهم الحثيثة بالسفر، ولما ظرفية، أو رابطة، وجهزهم فعل وفاعل ومفعول به، وبجهازهم جار ومجرور متعلقان بجهزهم، وجمله جعل السقاية في رحل أخيه، لا محل لها، وفي رحل متعلقان بجعل ﴿١٠٨﴾ ثُمَّ أَذِنَ مَوْذَنٌ أَيْتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿١٠٩﴾ ثم حرف عطف وتراخ، وأذن مؤذن فعل وفاعل، أي: نادى منادٍ، وعطف بشم للإشارة إلى إمهال يوسف إياهم حتى انطلقوا، وأيتها منادى محذوف منه حرف النداء، وهو نكرة مقصودة مبني على الضم، والهاء للتنبيه، والعير بدل من أيتها، وإن واسمها، واللام المرحلة، وسارقون خبرها ﴿١١٠﴾ قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿١١١﴾ الواو للحال بتقدير: قد، وعليهم متعلقان بأقبلوا، وماذا اسم استفهام مفعول مقدم لتفقدون، أو ما اسم استفهام، وذا: اسم موصول خبر، وجمله تفقدون صلة، وقد تقدم القول في ماذا ﴿١١٢﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ ﴿١١٣﴾ جملة نفقد صواع الملك مقول القول ﴿١١٤﴾ وَلَمِنَ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿١١٥﴾ الواو عاطفة، ولمن خبر مقدم، وجمله جاء به صلة، وحمل بغير مبتدأ مؤخر، والواو عاطفة، وأنا مبتدأ، وبه متعلقان بزعيم، وزعيم، أي: كفيل، خبر ﴿١١٦﴾ قَالُوا تَأَلَّوْا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿١١٧﴾ التاء حرف جر وقسم، والله لفظ الجلالة مجرورة بتاء القسم، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره: نقسم، واللام واقعة في

جواب القسم، أو هو تأكيد للقسم الأول، وقد حرف تحقيق، وعلمتم فعل وفاعل، وما نافية، وجئنا فعل وفاعل، ولنفسد اللام للتعليل، والفاعل مستتر تقديره: نحن، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بنفسد، وما كنا: ما نافية، وكان واسمها، وسارقين خبرها، وأقسموا بالتاء من حروف القسم لما فيها من معنى التعجب غالباً، كأنهم عجبوا من رميهم بهذا الأمر، ولا تدخل التاء في القسم إلا على لفظ الله من بين أسمائه تعالى، لا تقول: تالرحمن، ولا تالرحيم، ولكن حكي عن العرب دخولها على الرب، وعلى الرحمن، وعلى حياتك، قالوا: ترب الكعبة، وتالرحمن، وتحياتك.

□ البلاغة:

في قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ مجاز مرسل علاقته المجاورة، والمراد أصحاب العير، كما ورد في الحديث: «يا خيل الله اركبي» وفي العير سؤال جرى في مجلس سيف الدولة بن حمدان، وكان السائل ابن خالويه، والمسؤول المتنبّي، قال ابن خالويه: والبعير أيضاً الحمار، وهو صرف نادر، ألقيته على المتنبّي بين يدي سيف الدولة، وكانت فيه خنزوانة وعنجهية، فاضطرب، فقلت: المراد بالبعير في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ الحمار، وذلك أن يعقوب وأخوه يوسف عليهم السلام كانوا بأرض كنعان، وليس هناك إبل، وإنما كانوا يمتارون على الحمير، وكذلك ذكره مقاتل بن سليمان في تفسيره.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ أَسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي

نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾
 قَالُوا يَتَّخِذُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا
 ظَلَمْنَا لَمْ نَعْلَمْوْا ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا أَسْتَيْسُّوْا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا
 أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ
 أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾

☆ اللغة:

﴿ كِدْنَا ﴾: الكيد في الأصل: الحيلة والخديعة، وذلك في حق الله تعالى محال، وقد تقدم أن أمثال هذه الألفاظ الموهمة في حق الله تعالى تحمل على نهايات الأغراض لا على بداياتها، فالكيد: السعي في الحيلة والخديعة ونهايته إيقاع الإنسان من حيث لا يشعر في أمر مكروره، ولا سبيل له إلى دفعه، فالكيد بالنسبة لله تعالى محمولٌ على هذا المعنى وقال ابن الأعرابي: الكيد: التدبير بالباطل وبالحق، فعلى هذا يكون المعنى: كذلك دبرنا ليوسف. وعبرة ابن الخشاب: ولكاد: استعمال آخر تكون فيه بمعنى أراد، وعلى ذلك أنشد أبو الحسن «الأخفش» وغيره:

كَادَتْ وَكَدَتْ وَتَلَكَ خَيْرٌ إِرَادَةٍ لَوْ عَادَ مِنْ عَصْرِ الشَّيْبَةِ مَا مَضَى

وحملوا عليه قوله سبحانه: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أي: أردنا.

﴿ أَسْتَيْسُّوْا ﴾: يئسوا، وزيادة السين والتاء للمبالغة، نحو: عجب واستعجب، وسخر واستسخر.

﴿ خَلَصُوا ﴾: اعتزلوا، وانفردوا عن الناس خالصين، لا يخالطهم أحد.

﴿ نَجِيًّا ﴾: النجى فعيل بمعنى مفاعل، كالعشير والخليط بمعنى المعاشر والمخالط، كقوله تعالى: ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ أي: مناجياً، وهذا الاستعمال يفرد مطلقاً يقال: هم خليطك وعشيرك، أي: مخالطوك ومعاشروك، وإما

لأنه على صفة فعيل بمنزلة صديق وبابه ، فوحد لأنه بزنة المصادر كالصهيل والوحيد والذميل ، وإما لأنه مصدر بمعنى التناجي كما قيل النجوى بمعناه .

○ الإعراب:

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ الفاء الفصيحة ، وما اسم استفهام مبتدأ ، وجزاؤه خبر ، والضمير للصواع ، أي : فما جزاء سرقة ، أو الضمير للسارق ، وإن شرطية ، وكنتم فعل الشرط ، وكاذبين خبر كان ، وجواب إن محذوف دل عليه ما قبله ، أي : فما جزاء سرقة الصواع ، أو السارق ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ جزاؤه مبتدأ ، ومن شرطية ، أو موصولة مبتدأ ثان ، ووجد صلة ، أو فعل الشرط ، وفي رحله متعلقان بوجد ، والفاء رابطة على الوجهين ، وهو مبتدأ ، وجزاؤه خبر ، وجملة فهو جزاؤه خبر من ، ومن وما في حيزها خبر المبتدأ الأول ، والضمير على هذا الإعراب يعود على السارق ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ ، والهاء تعود على المسروق ، ومن وجد في رحله خبره ، ومن بمعنى الذي ، والتقدير : وجزاء الصواع الذي وجد في رحله ، ويجوز أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف ، أي : المسؤول عنه جزاؤه ، أي : استرقاقه جزاؤه ، وكانت تلك شريعة آل يعقوب ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ كذلك نعت لمصدر محذوف ، أي : نجزي الظالمين جزاء كذلك الجزاء ، والظالمين مفعول به ، أي : فهو كذلك في شريعتنا المقررة بيننا ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ الفاء عاطفة ، وبدأ فعل ماض ، وفاعله مستتر ، تقديره : هو ، وبأوعيتهم جار ومجرور متعلقان ببداً ، وقبل ظرف زمان متعلق بمحذوف حال ، ووعاء أخيه مضافان ، وثم حرف عطف ، واستخرجها فعل وفاعل مستتر ومفعول به ، والهاء تعود على الصواع ؛ لأن فيه التذكير والتأنيث ، أو على السقاية ؛ لأن الصواع يحمل معناها ، ومن وعاء أخيه متعلقان باستخرجها ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أي : مثل ذلك الكيد كدنا ليوسف ، فالكاف نعت لمصدر محذوف كما تقدم ، وليوسف متعلقان بكدنا ﴿ مَا كَانَ

لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴿٧٤﴾ ما نافية، وكان فعل ماض ناقص، واسمها مستتر، واللام للجحود، ويأخذ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، واللام ومجرورها في موضع الخبر، وأخاه مفعول به، وفي دين حال ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الاستثناء منقطع؛ إذ الأخذ بدين الملك لا يشمل المراد بقوله إلا أن يشاء الله؛ لأنه أخذه بشريعة يعقوب، أو الاستثناء متصل من أعم الأحوال، أي: إلا حال مشيئته وإذنه بذلك، وإرادته له، وجملة ما كان ليأخذ أخاه... الخ تعليل لما صنعه الله من الكيد ليوسف، أو تفسير له، وعلى كل لا محل لها ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ درجات منصوب على الظرفية، ومن مفعول به، وجملة نشاء صلة، وفوق الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، وكل ذي علم مضافان، وعليم مبتدأ مؤخر ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ إن شرطية، ويسرق فعل الشرط، والفاء رابطة لاقتران الجواب بقد، وسرق أخ فعل وفاعل، والجملة في محل جزم جواب الشرط، وله صفة، ومن قبل حال، قالوا ذلك متصلين من التهمة التي تثبت عليهم، مبرئين لساحتهم، يعنون: أن هذه الفعلة ليست ببعيدة من بنيامين، فإن أخاه الذي هلك كان سارقاً أيضاً، ونحن لسنا على طريقتهما؛ لأنهما من أم أخرى. ويروي المؤرخون أن يوسف كان قد سرق لأبي أمه صنماً، مما استفاض ذكره في المطولات، والأولى ما حكاه الزجاج أنه قال: كذبوا عليه فيما نسبوه إليه. ونقول: ما هذه الكذبة بأول كذباتهم ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ الفاء عاطفة، وأسرها فعل ومفعول به، والهاء تعود للكلمة الآتية، وهي أنتم شر مكاناً، فهو إضمار على شريطة التفسير، ويوسف فاعل، وفي نفسه متعلقان بأسرها، ولم يبدها عطف على أسرها، ولهم متعلقان ببدها ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَّكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أنتم مبتدأ، وشر خبر، ومكاناً تمييز، وجملة أنتم شر مكاناً بدل من الهاء، ويجوز أن يعود الضمير، أي: الهاء على الحجة، فيكون المعنى فأسر يوسف في نفسه الحجة عليهم في ادعائهم عليه السرقة، ولم يبدها لهم، وقال: أنتم شر مكاناً، والله مبتدأ،

وأعلم خبره، وبما متعلقان بأعلم، وجملة تصفون صلة ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يا حرف نداء، وأيها منادى نكرة مقصودة، والهاء للتنبيه، والعزیز بدل، وإن حرف مشبه بالفعل، وله خبرها المقدم، وشيخاً اسمها المؤخر، وكبيراً صفة ﴿فَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ﴾ إِنَّا نَزَّلَكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ ﴿الفاء الفصيحة، وخذ فعل أمر، وفاعل مستتر تقديره أنت، وأحدنا مفعول به، ومكانه ظرف مكان متعلق بخذ، وإن واسمها، وجملة نراك خبرها، ومن المحسنين متعلق بنراك على أنه مفعول ثان ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْدَهُ﴾ معاذ الله نصب على المصدر بفعل محذوف، أي: نعوذ بالله معاذاً، وأن نأخذ: أن وما في حيزه منصوب بنزع الخافض، متعلق بنعوذ، وإلا أداة حصر، ومن مفعول نأخذ، وجملة وجدنا صلة، ومتاعنا مفعول وجدنا، وعنده متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني لوجدنا، أي: كائناً عنده ﴿إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوسَى﴾ إن واسمها وإذن جواب وجزاء، واللام المزحلقة، وظالمون خبر إنا ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ حَكَاةً بِحِيَاةٍ﴾ لما ظرفية حينية، أو رابطة، واستيسوا فعل وفاعل، ومنه متعلقان باستيسوا، وخلصوا فعل وفاعل، ونجياً حال من فاعل خلصوا، أي: اعتزلوا هذه الحالة متناجين، وإنما أفردت الحال، وصاحبها جمع؛ لأن النجي يفرد مطلقاً كما تقدم في باب: اللغة ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وتعلموا مضارع مجزوم بلم، وأن وما في حيزها سد مسد مفعولي تعلموا، وأن واسمها، وجملة قد أخذ خبر، وعليكم متعلقان بأخذ، وموثقاً مفعول به، ومن الله صفة لموثقاً ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ في إعراب هذا الكلام وجوه أظهرها: أن من قبل خبر مقدم، وبني قبل على الضم لانقطاعه عن الإضافة لفظاً لا معنى، أي: ومن قبل هذا، وما مصدرية، وهي مع مدخولها مبتدأ مؤخر، ومعناه: ووقع من قبل هذا تفريطكم، وفي يوسف متعلقان بفرطتم. ويجوز أن تكون ما موصولة بمعنى: ومن قبل هذا الذي فرطتموه في يوسف من الجناية العظيمة، ومحل

الموصول الرفع على الابتداء أيضاً، ويجوز أن تكون ما صلة، أي: زائدة لتحسين اللفظ، فمن متعلقة بالفعل، وهو: فرطتم، وقد رجح أبو حيان هذا الوجه. قال ابن هشام: وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطُتُمْ فِي يُوسُفَ﴾: ما إما زائدة، فمن متعلقة بفرطتم، وإما مصدرية، فقليل: هي وصلتها رفع بالابتداء، وخبره من قبل، وردّ بأن الغايات لا تقع أخباراً، ولا صلات، ولا صفات، ولا أحوالاً، نصّ على ذلك سيبويه وجماعة من المحققين. ويشكل عليهم: ﴿كَيْفَ كَانَ عَنَقِبُهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ وقيل: نصب عطفاً على أن وصلتها، أي: ألم تعلموا أخذ أبيكم الموثق وتفريطكم، ويلزم على هذا الإعراب الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف، وهو ممتنع.

هذا ما قاله ابن هشام، وهو جميل، غير أننا لا نسلم به بأن الفصل ممنوع كما ذكر، بل هو جائز كما ذكره ابن مالك، وتمسك بعضهم لجوازه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ وأجاب ابن هشام عن هذا الاعتراض في حواشي التسهيل بأن التقدير: ويأمركم إذا حكمتكم، فهو عطف جمل.

والواو في قوله: ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ للحال على كل حال، فالمعنى: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله، والحال: أنكم فرطتم في يوسف من قبل.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيَ أَبِي﴾ الفاء عاطفة على مقدر، أي: سألقي في مصر ولن أبرحها، ولن حرف نفي ونصب واستقبال، وأبرح فعل مضارع منصوب بلن، ومعناه: أفارق، فهي تامة، وفاعل أبرح مستتر تقديره: أنا، والأرض مفعول به، وحتى يأذن حرف غاية وجر، ويأذن فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، ولي متعلقان بيأذن، وأبي فاعل ﴿أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أو حرف عطف، ويحكم معطوف على يأذن، ويجوز أن ينصب بأن مضمرة في جواب النفي، والله فاعل، ولي متعلقان بيحكم، وهو مبتدأ، وخير الحاكمين خبر.

﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسئِلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبِضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

☆ اللغة:

﴿ كَظِيمٌ ﴾: أي: مكظوم، ممتلىء من الحزن، ممسك عليه، لا يبثه. قال قتادة: هو الذي يردد حزنه في جوفه، ولم يقل إلا خيراً. وفي «المصباح»: كظمت الغيظ كظماً، من باب: ضرب، وكظوماً: أمسكت على ما في نفسك منه على صفح أو غيظ. وقال الزمخشري: فعيل بمعنى مفعول، بدليل قوله: وهو مكظوم، ومن كظم السقاء؛ إذا شده على ملئه والكظم - بفتح الظاء -: مخرج النفس يقال: أخذ بكظامه. وأصل هذه المادة كما تقول معاجم اللغة من: كظم البعير جرّته: ازدردتها، وكفّ عن الاجترار، وباتت الإبل كُظوماً وكواظم، وحفروا كظامه وكظيمة وكظائم، وفي الحديث: «أتى كظامه قوم فتوضأ» وهي القفير، يُحفر من بئر إلى بئر، والسقاية، والحوض. قال طرفة:

يَشْرَبْنَ مِنْ فَضْلَةِ الْعُقَارِ كَمَا اسْتُـ تَوَجَّرَ مَاءَ الْكَظِيمَةِ الشُّرْبُ

جمع شروب. ومن المجاز: كظم الغيظ وعلى الغيظ، وهو كاظم، وكظمه الغيظ والغم: أخذ بنفسه، فهو كظيم ومكظوم.

﴿ حَرْصًا ﴾: في «المصباح»: حرض حرصاً، من باب: تعب، أشرف على الهلاك، فهو حرض ويستوي فيه الواحد وغيره، أي: المشى والمجموع والمذكر والمؤنث.

○ الإعراب:

﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يٰٓأَبَايَا إِنَّكَ سَرَقْتَ ﴾ ارجعوا فعل أمر وفاعل، وإلى أبيكم متعلقان بارجعوا، فقولوا عطف على ارجعوا، ويا أبانا منادى مضاف، وإن واسمها، وجملة سرق خبرها ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ الواو حرف عطف، وما نافية، وشهدنا فعل وفاعل، وإلا أداة حصر، وبما متعلقان بشهدنا، وجملة علمنا صلة، وما عطف أيضاً، وما نافية، وكان واسمها، وللغيب متعلقان بحافظين، وحافظين خبر كنا ﴿ وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ الواو عاطفة، وسأل فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، والقرية مفعول به، وسؤال القرية يعني سؤال أهلها، كما يأتي في باب: البلاغة، والتي صفة، وجملة كنا صلة، وكان واسمها، وفيها خبرها ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴾ والغير عطف على القرية، والتي صفة، وجملة أقبلنا صلة، وفيها متعلقان بأقبلنا، وإنا عطف، وإن واسمها، واللام المزعجة، وصادقون خبرها ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ قال مرتب على محذوف، أي: فرجعوا فقال، وبـ حرف إضراب وسولت فعل ماض، والتاء للتأنيث، ولكم جار ومجرور متعلقان بسولت، وأنفسكم فاعل، وأمرأ مفعول به ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ الفاء عاطفة، وصبر خبر لمبتدأ محذوف، أي: صبري، وجميل نعت، وعسى من أفعال الرجاء، والله اسمها، وإن وما في حيزها خبرها، وبهم متعلقان بياأيني، وجمع لأن المفقودين صاروا ثلاثة، وهم: يوسف وبنيامين وكبير الأخوة الذي أثر الإقامة بمصر، وجميعاً حال، وإن واسمها، وهو ضمير فصل، أو مبتدأ، والعليم الحكيم خبران لأن، أو للضمير، والجملة خبر إن ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ

يَتَأَسَّفَنَّ عَلَى يُوسُفَ ﴿١﴾ وتولى الواو عاطفة، وتولى فعل ماضٍ، أي: أعرض عنهم، وعنهم متعلقان بتولى، وقال عطف على تولى، ويا حرف نداء، وأسفاً منادى مضاف لياء المتكلم المنقلبة ألفاً، والأصل: يا أسفي، وقد تقدم بحث المنادى المضاف لياء المتكلم، وعلى يوسف متعلقان بالأسف، وخص يوسف بالذكر للدلالة على تماذي الأسف عليه، وأن الرزء به كان ولا يزال غصاً طرياً، وأن رزاه بأخويه جدد حزنه عليه؛ لأنه قاعدة أحزانه ومصائبه على حد قول ابن الرومي في رثاء ابنه الأوسط:

أرى أخويك الباقيين كليهما يكونان للأحزان أورى من الزند

ولعل ابن الرومي رمق هذه البلاغة العالية.

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وabiضت عيناه فعل وفاعل، وإذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين، وقلبتة إلى بياض، ومن الحزن جار ومجرور متعلقان بabiضت، فهو الفاء عاطفة، وهو مبتدأ، وكظيم خبره ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ قالوا فعل وفاعل، والتاء تاء القسم، ولفظ الجلالة مجرور بتاء القسم، والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم، وتفتأ: أي: لا تفتأ من أخوات كان، واسمها مستتر تقديره: أنت، وجملة تذكر خبرها، ويوسف مفعول به، وحتى حرف غاية وجر، وتكون منصوب بأن مضمرة بعد حتى، وحرصاً خبر تكون، واسم تكون مستتر تقديره: أنت، وأو حرف عطف، وتكون فعل مضارع ناقص، واسمها أنت، ومن الهالكين خبرها ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ إنما كافة ومكفوفة، وأشكو بـي فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، وحزني عطف على بـي، وإلى الله متعلقان بأشكو، والـبـث: ما يرد على الإنسان من الأشياء التي يعظم حزن صاحبها بها، حتى لا يقدر على إخفائها، كذا قال أهل اللغة، وهو مأخوذ من بثته، أي: فرقته، فسميت المصيبة بـثاً مجازاً، قال ذو الرمة:

وقفت على رُبِّعٍ لميَّةٍ ناقتي فما زلتُ أبكي عنده وأخاطبُه

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أُبْتُهُ تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَأَعْبُهُ
﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَأَعْلَمُ عَطْفَ عَلَى أَشْكَو، وَمِنَ اللَّهِ
مُتَعَلِّقَانِ بِأَعْلَمُ، أَي: أَعْلَمُ مِنْ صَنْعِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَحَسَنَ ظَنِّي بِهِ،
وَمَا مَفْعُولُ بِهِ، وَجُمْلَةٌ لَا تَعْلَمُونَ صَلَةً.

□ البلاغة:

(١) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَّالِ الْقَرْيَةَ﴾ مُجَازٌ مَرْسَلٌ، إِذِ الْمَرَادُ أَهْلُهَا،
وَالْعِلَاقَةُ الْمَحَلِّيَّةُ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ لِهَذَا الْمَجَازِ، وَأَرَادَ بِالْقَرْيَةِ
مِصْرَ، أَي: أَرْسَلَ إِلَى أَهْلِهَا فَاسْأَلَهُمْ عَنْ تَفَاصِيلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَكَذَلِكَ
قَوْلُهُ: ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أَي: أَصْحَابَ الْعِيرِ.

(٢) فِي قَوْلِهِ: ﴿تَأَلَّاهُ تَفْتَوًّا تَذَكُّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ فَنَ
أَصِيلٌ فِي الْبَلَاغَةِ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى: «اتِّتْلَافُ اللَّفْظِ مَعَ الْمَعْنَى» وَهُوَ نِسْمَةٌ
الْحَيَاةِ فِي الْفَنِّ، وَعَمُودُهُ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ، وَيَتَلَخَّصُ بِأَنْ تَكُونَ أَلْفَاظُ الْمَعْنَى
الْمَرَادِ مُتَلَائِمَةً بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ، لَيْسَ فِيهَا لَفْظَةٌ نَابِيَّةٌ، أَوْ قَلْقَةٌ عَنْ أَخَوَاتِهَا،
بَحِثْ يُمْكِنُ اسْتِبْدَالُهَا، وَلَا بَدَّ مِنْ مَلَا حِظَةِ أَشْيَاءٍ ثَلَاثَةٌ فِي هَذَا الصَّدَدِ
وَهِيَ:

أ - اخْتِيَارُ الْأَلْفَاظِ الْمَفْرَدَةِ، وَحُكْمُ ذَلِكَ حُكْمُ اللَّالِيءِ الْمُبَدَّدَةِ فَإِنَّهَا
تَتَخَيَّرُ وَتَتَنَقَّى قَبْلَ النِّظْمِ.

ب - نِظْمُ كُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ اخْتِهَا الْمَشْكَلَةِ لَهَا.

ج - الْغَرَضُ الْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ، وَهَذَا
الْمَوْضُوعُ جَمُّ الشُّعَابِ، دَقِيقُ الْمَسْلُكِ، يَضِلُّ عَنْهُ الْكَثِيرُونَ؛ إِلَّا مَنْ أَشْرَقَتْ
نَفْسُهُمْ بِضِيَاءِ الْمَعْرِفَةِ وَالْيَقِينِ، وَسُنُورِدَ أَمْثَلَةٌ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ نَتَنَاوَلَ الْآيَةَ، فَمِنْ
ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ فَاسْتَعْمَلَ الْجَوْفَ فِي الْأُولَى، وَاسْتَعْمَلَ
الْبَطْنَ فِي الثَّانِيَةِ، وَلَمْ يَسْتَعْمَلَ الْجَوْفَ مَوْضِعَ الْبَطْنِ وَلَا الْبَطْنَ مَوْضِعَ

الجوف، واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عدد واحد، ووزنهما واحد أيضاً، ولو استعمل هذه موضع تلك لكان الكلام نافراً قلقاً، وعلى هذا ورد قول الأعرج من أبيات الحماسة:

نحنُ بنو الموتِ إذا الموتُ نزل لا عار بالموت إذا حمَّ الأجل
الموتُ أحلى عندنا من العسل

وقال أبو الطيب المتنبي:

إذا شئتُ حَفَّتْ بي على كُلِّ سابعٍ رِجَالٌ كأنَّ الموتَ في فَمِهَا شَهِدُ

فهاتان لفظتان هما العسل والشهد، وكلاهما حسن مستعمل، لا يشك في حسنه واستعماله؛ وقد وردت لفظة العسل في القرآن دون لفظة الشهد؛ لأنها أحسن منها، ومع هذا فإن لفظة الشهد وردت في بيت أبي الطيب، فجاءت أحسن من لفظة العسل في بيت الأعرج.

ويجمل بنا لإيضاح هذا الفن، وإظهار خصائصه الرفيعة، اقتباس فصل ممتع لابن الأثير في كتابه: «المثل السائر» قال: وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل لأحدهم: إن هذه اللفظة حسنة، وهذه قبيحة، أنكر ذلك، وقال: كل الألفاظ حسن، والواضع لم يضع إلا حسناً، ومن يبلغ جهله إلى الغصن ولفظة العسلوج، وبين لفظة المدامة ولفظة الإسفنت وبين لفظة السيف ولفظة الخنشليل، وبين لفظة الأسد ولفظة الفدوكس، فلا ينبغي أن يخاطب، ولا يجاب بجواب، بل يترك شأنه، كما قيل: اتركوا الجاهل ولو ألقى الجعر في رحله، وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد، شوهاء الخلق، ذات عين محمرة، وشفة غليظة كأنها كلوة، وشعر ققط كأنه زيبية، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة، ذات خد أسيل، وطرف كحيل، ومبسم كأنما نظم من أقاح، وطرة كأنها ليل على صباح، فإذا كان إنسان من سقم النظر أن يسوي بين هذه الصورة وهذه، فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوي بين هذه الألفاظ وهذه؛ ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام.

أقسام الألفاظ: والواقع أن الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منها مواضع يحسن استعمالها فيه، فالجزل يستعمل في مواقف الشدة، وقوارع التهديد والتخويف، والرقيق يستعمل في وصف تباريح الأشواق، ولوعة الفراق، والآية التي نحن بصدددها من أروع الأمثلة على ذلك؛ فإنه سبحانه لما أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها وهي التاء، لأن الواو والباء أكثر دوراناً على الألسنة منها، أتى سبحانه بأغرب صيغ الأفعال الناقصة التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها، وهي تفتأ، وحذف منها حرف النفي زيادة في الإغراب، ولأن المقام لا يلتبث بالإثبات، على حد قول امرئ القيس:

فقلت: يمينُ الله أبرحُ قاعداً

ولو قطعوا رأسي لذيكَ وأوصالي

وكذلك لفظ «حرضاً» أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك، فاقتضى حسن النظم وحسن الوضع فيه أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة، والاستعمال، توخياً لحسن الجوار، ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع، وتتناسب في النظم، وسيأتي المزيد من هذه الملاءمة فيما يأتي.

(٣) الجناس: وهو اشتراك اللفظتين في الاشتقاق، وقد وقع جميلاً جداً في قوله: ﴿يَكْأَسْفَى عَلَى يَوْسُفَ﴾.

* الفوائد:

(١) اشترط النحاة في إعمال زال ماضي يزال، لا يزول، وفتىء، وبرح، وانفك، أن يتقدمها نفي، أو نهي، أو دعاء بـ «لا»، خاصة في الماضي، أو بلن في المضارع، وإنما اشترطوا فيها ذلك، لأنها بمعنى النفي، فإذا دخل عليها النفي انقلبت إثباتاً، فمعنى ما زال زيد قائماً هو قائم فيما مضى، وقد يحذف حرف النفي كما تقدم في الإعراب، وكالآية

الكريمة: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾ على أن حذف النافي لا ينقاس إلا بثلاثة شروط، وهي كونه مضارعاً، وكونه جواب قسم، وكون النافي «لا». ومن أمثلة النفي بعد الاسم قوله:

غَيْرُ مُنْفَكِّ أَسِيرَ هَوًى كُلُّ وَإِنْ لَيْسَ يَعْتَبَرُ

ومن أمثلة النفي بالفعل الموضوع للنفي قوله:

لَيْسَ يَنْفَكُّ ذَا غِنًى وَاعْتِزَّازٍ كُلُّ ذِي عِفَّةٍ مُقِلُّ قَنُوعٍ

ومن أمثلة النفي بالفعل العارض للنفي قوله:

قَلَمَّا يَبْرِحُ اللَّيْبُ إِلَى مَا يُورِثُ الْحَمْدَ دَاعِياً أَوْ مُجِيباً

فإن قلما خلع منه بمعنى التقليل، وصير بمعنى ما النافية.

ومن أمثلة النفي بالفعل المستلزم للنفي قولهم: أبيت أزال استغفر الله، أي: لا أزال، ووجهه: أن من أبى شيئاً لم يفعله، والإباء مستلزم للنفي.

ومثال النهي قوله:

صَاحِ شَمْرُ وَلَا تَزَلْ ذَاكِرَ الْمَوْتِ فَتَسِيَّانَهُ ضَالَّالٌ مُبِينٌ

ومثال الدعاء قول ذي الرُّمَّة:

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيِّ عَلَى الْبَلَى

وَلَا زَالَ مِنْهَا لِجَزَعَائِكَ الْقَطْرُ

(٢) لمحة عن فعل الأمر:

الأمر ينقسم إلى قسمين: لغوي، وهو: طلب إيجاد الفاعل من الفعل في الخارج على سبيل الاستعلاء، وقيل: اقتضاء فعل غير كفٍ على جهة الاستعلاء، والمراد بالاقتضاء: ما يقوم بالنفس من الطلب؛ لأنه الأمر في الحقيقة، وتسمية الصيغة به مجاز، وقيل: غير كفٍ ليقع الاحتراز من النهي على جهة الاستعلاء؛ ليقع الاحتراز من الدعاء، وأورد على طرده كف؛ لأنه اقتضاء فعل غير كف، فلا يكون هذا أمراً، لكنه أمر، فلا يكون مطرداً، وعلى عكسه لا تكف؛ لأنه اقتضاء فعل غير كف، فيكون أمراً لكنه ليس بأمر

فلا يكون منعكساً. وصناعي، وهو: ما حصل به ذلك، أي: طلب إيجاد الفعل، والذي حصل به ذلك هو الصيغة التي يطلب بها الفعل من الفاعل، وفعل الأمر بني على السكون؛ لأنه الأصل في البناء، وصيغته مأخوذة من المضارع، فإذا أردت أن تصوغ فعل أمر حذف حرف المضارعة، ونظرت إلى ما يليه، فإن كان متحركاً صغت مثال الأمر على صيغته، وحركته، فتقول مثلاً من يشمر: شمر، ومن يدحرج: دحرج، ومن يشب: شب، ومن يصل: صل، وإن كان الذي يلي حرف المضارعة ساكناً اجتلبت له همزة وصل؛ ليتوصل إلى النطق بأول الفعل ساكناً، فتقول مثلاً من يضرب: اضرب، ومن مثل ينطلق: انطلق، ومن مثل يستخرج: استخرج؛ لأن الابتداء بالسكان في النطق مستحيل. وما أحسن قول السراج الوراق:

يا ساكناً قلبي ذكرتُك قبله أرايتَ قلبي مَن بدا بالسَّاكِن
وجعلته وَقفاً عليك وقد غدا متحرِّكاً بخلاف قلبِ الآمن

وبذا جرى الإعراب في نحو الهوى

فإليك مَعذرتي فلستُ بلاحن

وسواء كان الفعل ثلاثياً، أو خماسياً، أو سداسياً، وشذ من هذه القاعدة فعلان، فلا تدخل عليهما همزة، وهما: خذ وكل، وجوز في فعلين إلحاق الهمزة وحذفها، وهما مر، وسل، وقد نطق القرآن بهما، قال تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ وتقول: مره بكذا، واؤمره بكذا، فأما حركة الهمزة المجتلبة، فإن كان الماضي رباعياً فإنها مفتوحة في الأمر، تقول من أكرم: أكرم، وإذا كان ثالث المضارع مضموماً، فإنها مضمومة في الأمر، تقول في الأمر من قتل: اقتل، وما عدا ذلك فهي مكسورة.

(٣) الكلام على «بل»:

بل: حرف عطف للإضراب عن الأول، وإثبات الحكم للثاني، سواء كان ذلك الحكم إيجاباً أو سلباً، واعلم أن للإضراب معنيين، أحدهما: إبطال الأول والرجوع عنه، إما لغلط أو نسيان، تقول في الإيجاب: قام زيد

بل عمرو، وتقول في النفي: ما قام زيد بل عمرو، كأنك أردت الإخبار عن عمرو فغلطت، وسبق لسانك إلى ذكر زيد، فأتيت ببِل مضرِباً عن زيد، ومثبِتاً ذلك الحكم لعمرو، والآخر إبطاله لانتهاه مدة ذلك الحكم، وعلى ذلك يأتي في الكتاب العزيز نحو قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ كأنه انتهت القصة الأولى فأخذ في قصة أخرى، وكذلك قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ثم قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ولم يرد أن الأول لم يكن، ومما ورد في ذلك شعراً قول رؤبة ابن العجاج:

قلتُ لزير لم تصله مريمه هل تعرفُ الربعَ المحيلَ أرسمه
عفتُ عوافيه وطالَ قدمه بل بلد ملء الفجاجِ قتمه

والزَّير - بكسر الزاي -: الرجل الذي يخالط النساء، ويمازهن بغير شر أو به، ومريم، أي: سميرته وفي القاموس: المريم التي تحب محادثة الرجال ولا تفجر، قال الشاعر:

وزائرة ليلاً كما لاحَ بارقُ

تضوُّع منها للبكاءِ عير

فقلتُ لها: أهلاً وسهلاً أمريم؟

فقالت: نعم، من أنت؟ قلتُ لها زير

﴿يَبْقَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرْجَلَةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٨٩) قَالُوا أَيْ نَآئِكَ لَأَنْتَ يُّوسُفُ قَالَ أَنَا يُّوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَبَصِيرَاتِ اللَّهِ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٠) قَالُوا تَأَلَّاهُ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ (٩١) قَالَ لَا

تَرْيَبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

اللمعة:

﴿فَتَحَسَّسُوا﴾: التحسّس: طلب الخير بالحاسة، وهو قريب من التجسس الذي بالجيم، وقيل: إن التحسس بالحاء يكون في الخير، وبالجيم يكون في الشر، ومنه الجاسوس، وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس، ولهذه المادة خواص عجيبة، فهي تتناول جميع خواص الناس، وهواجس نفوسهم، وتشير إلى إحداث التأثير في الأشياء، يقال: حسه يحسه، من باب: نصر، قتله واستأصله، وحسّ الدابة: نفض التراب عنها بالمحسة، وحسّ البرد الزرع أحرقه، وحسّ اللحم: جعله على الجمر، وحسّ النار: ردّها على خبز الملة، والشواء من نواحيه لينضج، وحسّ يحس حساً، من باب: تعب الشيء وبالشيء: علمه، وشعر به، وأدركه، وحسّ يحس، من بابي: تعب وجلس بالخير: أيقن به، وحسّ لفلان: رقب له، وتحسّس: تسمع وتبصر، وتحسّس الخبر: سعى في إدراكه، وتحسّس الشيء: تعرّفه وتطلّبه بالحاسة، وتحسّس منه: تخبر خبره، والحاسة مؤنث الحاس، والقوة النفسانية المدركة، والحواس الخمس هي: السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس. وحواسّ الأرض خمس وهي: البزء، والبرء، والريح، والجراد، والمواشي، أخذت من حسّ الزرع، يقال: مرت بالقوم حواسّ، أي: سنون شداد، والحسيس: الصوت الخفي، والحركة، والقتيل، وحساس الحمى بالكسر: مسّها، وأول ما يبدأ منها، والحسي: ما يدرك بالحس الظاهر، وضده العقلي. أما مادة جس فتشابهها مشابهة غريبة، يقال: جسّه يجسه من باب: نصر، واجتسّه: مسه بيده ليتعرفه، وجسّ الأرض: وطئها، وجسه بعينه: أحدّ النظر إليه ليتبينه، وجسّ وتجسّس واجتسّ الأخبار والأمور: بحث عنها، والجاس وجمعه جواسيس، والجساس: الذي يأتي بالأخبار، وجواسّ الإنسان هي حواسه الخمس، والواحدة جاسة، والمجسّ

والمجسّة: موضع اللمس، قال دوقلة:

ولهاهن بضّ ملاذهنّ رابي المجسّة حشوه وقد

وفلان ضيق المجسّ والمجسة، أي: غير رحب الصدر، والمجسة أيضاً هي: الموضع الذي يجسّه الطبيب.

﴿مُزِحَلَةٌ﴾: أي: بضاعة مدفوعة، يدفعها كل تاجر رغبة عنها، واحتقاراً لها، من أزجيته: إذا دفعته وطرده، والريح تزجي السحاب، وفي «المصباح»: زجّيته بالثقل دفعته برفق، والريح تزجي السحاب: تسوقه سوقاً رقيقاً. يقال: أزجاه بوزن أرضاه، وزجّاه بالثقل كزّكاه، وفي القاموس: زجّاه: ساقه ودفعه.

﴿تَثْرِيْبٌ﴾: عتب، وفي المصباح: ثرب عليه يثرب، من باب: ضرب، عتب ولام، وبالمضارع بياء الغيبة سمي رجل من العمالقة، وهو الذي بنى مدينة النبي ﷺ، فسُمّيت المدينة باسمه، وقاله السهيلي: وتثرب بالتشديد مبالغة وتكثير، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ﴾ والثرب وازن فلس: شحم رقيق على الكرش والأمعاء. وقال الرازي: التثريب: التعبير والاستقصاء في اللوم. وقال الزمخشري: وأصل التثريب من الثرب، وهو: الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه: إزالة الثرب، كما أن التجليد والتقرّيع إزالة الجلد والقرع؛ لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجف؛ الذي ليس بعده، فضرب مثلاً للتقرّيع؛ الذي يمزق الأعراض، ويذهب بماء الوجوه.

○ الإعراب:

﴿يَبْنِيْ اَذْهَبُوْا فَتَحَسَّسُوْا مِنْ يُوسُفَ وَآخِيْهِ﴾ يا بني: تقدّم إعرابها، واذهبوا فعل أمر وفاعل، والفاء عاطفة، وتحسسوا فعل أمر وفاعل، ومن يوسف متعلقان بتحسسوا، وأخيه عطف على يوسف ﴿وَلَا تَأْيِسُّوْا مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ﴾ الواو عاطفة، ولا ناهية، وتيسسوا مجزوم بلا، والواو فاعل، ومن روح الله

جار ومجرور متعلقان به، وسيأتي بحث هذه الاستعارة في باب: البلاغة ﴿إِنَّهُمْ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ إن واسمها، وجملة لا يئس خبرها، ومن روح الله متعلقان بئس، وإلا أداة حصر، والقوم فاعل، والكافرون صفة ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ فيه حذف واختصار، تقديره: فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر؛ فلما... الخ، والفاء عاطفة، ولما ظرفية حينية، أو رابطة، ودخلوا فعل وفاعل، وعليه متعلقان بدخلوا ﴿قَالُوا يَتَّيَّهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا اضْطُرُّ﴾ جملة قالوا لا محل لها، ويا أيها العزيز نداء تقدم إعرابه، والعزيز بدل من أي، ومسنا فعل ومفعول به، وأهلنا عطف على نا، أو مفعول معه، والضرب فاعل ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ﴾ الواو عاطفة، وجئنا فعل وفاعل، وببضاعة متعلقان بجئنا، ومزجاة صفة، فأوف الفاء عاطفة، وأوف فعل أمر، ولنا متعلقان بأوف، والكيل مفعول به ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ وتصدق عطف على فأوف، وعلينا متعلقان بتصدق، وإن واسمها، وجملة يجزي خبرها، والمتصدقين مفعول به ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ هل حرف استفهام، وعلمتم فعل وفاعل، وما اسم موصول مفعول به، ويجوز أن تكون مصدرية، أي: فعلكم بيوسف، والجار والمجرور متعلقان بفعلتم، وأخيه عطف على يوسف، وإذ ظرف متعلق بفعلتم، أي: فعلتم ذلك الوقت جهلكم، وأنتم مبتدأ، وجاهلون خبر، والجملة الاسمية مضاف إليها الظرف، والاستفهام يفيد التعظيم والتهويل، أي: أن الأمر الذي ارتكبتموه كان بمثابة لا يقدم عليه فيها أحد، ولكنكم أقدمتم غير أبيهين للعواقب، ولا عارفين بما يؤول إليه أمر يوسف من الخلاص من الجب، ثم ولاية الملك، وسيأتي نص كتاب يعقوب الذي قدموه إليه في باب: الفوائد ﴿قَالُوا أَوَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ قالوا فعل وفاعل، أنك الهمزة للاستفهام التقريري، وإن واسمها، واللام المرحلة، وأنت مبتدأ، ويوسف خبر، والجملة خبر إن، ويجوز أن يكون الضمير، وهو أنت فصلاً، وقد تقدم ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أنا مبتدأ، ويوسف خبر،

وأظهر الاسم فقال أنا يوسف تعظيماً؛ لما وقع به من ظلم أخوته، كأنه قال: أنا المظلوم المستحلّ منه المحرّم المراد قتله، وهذا مبتدأ، وأخي خبر، وقد حرف تحقيق، ومنّ فعل ماضٍ، والله فاعل، وعلينا متعلقان بمنّ، والجملة حالية ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إن واسمها، وهو ضمير الشأن والحال، ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ، ويتق فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ويصبر عطف عليه، فإنه: الفاء رابطة للجواب، وإن واسمها، وجملة لا يضيع خبرها، وأجر المحسنين مفعول به، وجملة الشرط وجوابه خبر إن ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا﴾ التاء تاء القسم، ولفظ الجلالة مجرور بها والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره: نقسم، واللام جواب القسم، وقد حرف تحقيق، وأثرك الله فعل ومفعول به وفاعل، وعلينا متعلقان بآثرك ﴿وَأِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ الواو عاطفة، وإن مخففة من الثقيلة مهملة، وكان واسمها، واللام الفارقة، وخاطئين خبر كنا ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ جملة لا تثريب مقول القول، ولا نافية للجنس، وتثريب اسمها، وعليكم خبرها، واليوم ظرف متعلق بمحذوف خبر ثان، أو بمتعلق الخبر، وهو عليكم، وعلى كل فالوقف عليه، ولا يجوز تعليق الظرف بالمصدر، وهو التثريب؛ لأنه يصير شبيهاً بالمضاف، ومتى كان كذلك أعرب ونون، نحو: لا خيراً من زيد عندك، والعجب من الزمخشري إذ أجاز تعليق الظرف بالتثريب، وهي زلة، لا أدري كيف وقع فيها؟ ومن جهة ثانية فصل بينه وبين معموله، على حدّ قوله بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ويجوز تعليق الظرف بالفعل الذي بعده ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ جملة دعائية بمثابة التعليل، ويغفر الله فعل وفاعل، ولكم متعلقان بيغفر، وهو مبتدأ، وأرحم الراحمين خبر.

□ البلاغة:

استعارة الروح للرحمة، وإيضاحه: أن الروح مصدر بمعنى الرحمة،

وأصله: استراحة القلب من غمه، والمعنى: لا تقنطوا من راحة تأتيكم من الله.

❖ الفوائد:

روى التاريخ إن إخوة يوسف لما قالوا ليوسف: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ وتضرعوا إليه، ارفضت عيناه، وقيل: أدوا إليه كتاب يعقوب إليه، وهذا نصه، نشبته لما فيه من عاطفة مضطربة، وإحساس فياض:

من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق، ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر، أما بعد:

فإنّا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي إلى النار ليحرق، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فوضعت المدينة في قفاه ليذبح، ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن، وكان أحبّ أولادي إليّ، فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطّخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناى من بكائي عليه، ثم كان لي ابن، وكان أخاه من أمه، وكنت أتسلى به، فذهبوا به، ثم رجعوا، فقالوا: إنه سرق، وإنك حبسته، وإنّا أهل بيت لا نسرق، ولا نلد سارقاً، فإن رددته إليّ، وإلا دعوت عليك دعوة تبلغ السابع من ولدك، والسلام.

فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتماسك، وعيل صبره. وعلى افتراض عدم صحة هذا الكتاب، فنفحة العاطفة تدعو لإثباته.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُوفِي بِأَهْلِيكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٩٣ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ ٩٤ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ ٩٥ ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٩٦ ﴿قَالُوا يَتَّابَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ٩٧ ﴿قَالَ

سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى
يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ
أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتْ هَذَا تَآوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ
جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ
أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

☆ اللغة:

﴿فَصَلَّتِ الْعِيرُ﴾: خرجت من عريش مصر، يقال: فصل من البلد
فصولاً: إذا انفصل منه، وجاوز حيطانه. وفي «المختار»: وفصل من
الناحية: خرج، وبابه: جلس، وللفاء والصاد فاء وعيناً للكلمة سر غريب:
إنهما تدلان على الخروج والمزايلة، يقال: فصّ من كذا فصّاً، وافتصّ كذا
من كذا: انتزعه وافتززه، وبابه: ضرب، وفصّ الجرح يفص من باب:
ضرب أيضاً: سال بما فيه، وفصّ العرق: رشح، وفصّ الولد: بكى،
وفصصت الشيء من الشيء فانفصّ، أي: فصلته فانفصل، وفصح يفصح،
من باب: فتح الصبح فلاناً بان له، وغلبه ضوؤه، وفُصح يفصح فصاحة، من
باب: ظُرف، جادت لغته، وحسن منطقته، فهو فصيح. والفصاحة:
مصدر: البيان، وخلوص الكلام من التعقيد، ويوصف بها المتكلم والكلام
والكلمة، وفصح يفصح، من باب: فتح، فصحاء عن الأمر: تغاى عنه وهو
يعلمه، فكأنه خرج عن عهده، وألقى عنه تبعاته، وفصد يفصد، من باب:
ضرب، فصدأ المريض: شق عرقه، وفصد له عطاء: قطعه له، وافتصد
العرق: شقه، وفي المثل: «لم يحرم من فصد له» أي: لم يخب من نال

بعض حاجته، وفصع التمرة يفصعها، من باب: فتح، عصرها بأصبعيه حتى تنقشر، وفصع عمامته عن رأسه: حسرهما، وفصع الشيء: دلكه بأصبعيه ليلين، فينفتح عما فيه. وفصم يفصم فصماً، من باب: ضرب الدمج ونحوه: كسره من غير أن تنفرق كسره، وفصم الشيء: قطعه، وفصم البيت - بالبناء للمجهول - : انهدم. وكانت عروة قد فصمت، وفصى يفصي، من باب: ضرب الشيء فصياً: نزعه وأزاله، وفصى اللحم من، أو عن، العظم تفصية: خلصه منه، وأبانه عنه. وتفصى الرجل من الديون: خرج منها. وهذا من الأسرار التي تميزت بها لغتنا الشريفة.

﴿تَفْنِدُونَ﴾ : التفنيد: النسبة إلى الفند، وهو الخرف، وإنكار العقل من هرم، يقال: شيخ مفند، ولا يقال: عجوز مفندة، لأنها لم تكن في شببتها ذات رأي فتفند في كبرها، وفي «المختار»: الفند - بفتحين -: الكذب، وهو أيضاً: ضعف الرأي من الهرم، والفعل منه أفند، والتفنيد: اللوم، وتضعيف الرأي. وفي القاموس: الفند - بالتحريك -: الخرق، وإنكار العقل لهرم أو مرض، والخطأ في القول، والرأي، والكذب، كالإفناد، ولا تقل: عجوز مفندة لأنها لم تكن ذات رأي أبداً، وقال دعبل:

ما أَكْثَرَ النَّاسَ لَا بَلْ ما أَقَلَّهُمْ اللهُ يَعْلَمُ أَيَّ لِمَ أَقَلَّ فَنَدَا
إِنِّي لأَغْمِضُ عَيْنِي ثُمَّ أَفْتَحُهَا على كثيرٍ ولكن لا أَرَى أَحَدًا

﴿الْبَدْوِ﴾ : البادية والبدو هو: البسيط من الأرض، يبدو الشخص فيه من بعد، يعني: يظهر، والبدو خلاف الحضرة، والبادية خلاف الحاضرة، وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية فسكنوا البادية. وفي القاموس والتاج: البدو والبادية والبدواة: الصحراء، والجمع: باديات وبواد، والبدو أيضاً سكان البادية من القبائل العربية الرحّل، وهم ينقسمون إلى عدة قبائل، والنسبة إلى البدو بدوي بسكون الدال، وبدوي بفتحها، والأنثى بدوية، والجمع بدويّ. وفي «الأساس»: لقد بدوت يا فلان، أي: نزلت البادية، وصرت بدوياً، وما لك والبدواة؟ وتبدّى الحضري، ويقال: أين

الناس؟ فتقول: قد بدوا، أي: خرجوا إلى البدو، وكانت لهم غنيمات يبدون إليها. وقال الأصمعي: الحضارة والبداءة - بالفتح - وقال أبو زيد: بالكسر، والحضارة: الإقامة في الحضر، والبداءة: الإقامة في البدو، وللمتنبى مقايضة بين الحضارة والبداءة جميلة، نثبتها فيما يلي:

كَمْ زُورَةٌ لَكَ فِي الْأَعْرَابِ خَافِيَةٌ
أَذْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زُورَةِ الذِّيبِ
أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي
وَأُنْثِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي
قَدْ وَافَقُوا الْوَحْشَ فِي سُكْنَى مَرَاتِعِهَا
وَخَالَفُوهَا بِتَقْوِيضٍ وَتَطْنِيْبِ

يقول في هذا البيت واصفاً حياة البدو: أنهم يسكنون البدو، فهم يجرون مجرى الوحوش في حلولها المراتع، إلا أنهم لهم خيام يحطونها، وينصبونها في الرحيل، وفي الإقامة، والوحش لا خيام لها، فقد خالفوها في هذا. ثم استرسل في وصفه:

مَا أَوْجَهُ الْحَضَرِ الْمُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ
كَأَوْجِهِ الْبَدَوِيَّاتِ الرَّعَائِبِ
حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ
وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ
أَيْسَنَ الْمَعِيزُ مِنَ الْأَرَامِ نَاطِرَةٌ
وَعَيْرَ نَاطِرَةٍ فِي الْحُسْنِ وَالطَّيْبِ
أَفْدِي ظِبَاءَ فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا
مَضْغَ الْكَلَامِ وَلَا صَنْغَ الْحَوَاجِبِ
وَلَا بَرَزْنَ مِنَ الْحَمَامِ مَائِلَةً
أَوْرَاكُهُنَّ صَقِيلَاتِ الْعَرَاقِبِ

يريد بظباء الفلاة: نساء العرب، وأنهن فصيحيات، لا يمصغن الكلام،

ولا يصبغن حواجبهن كعادة نساء الحضرة، وهو يريد أن حسنهن بغير تطرية ولا تصنع، ولا دخول حمام، بل هو خلقة فيهن.

﴿نَزَعَ﴾: أفسد بيننا وأغرى، وأصله من: نخس الرائض الدابة وحملها على الجري، يقال: نزغه ونسغه؛ إذا نخسه: وفي «المختار»: نزغ الشيطان بينهم: أفسد، وبابه: قطع.

○ الإعراب:

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ لا بد من تقدير محذوف يمهّد لقوله: وذلك أنه سألهم عن أبيه فقالوا: ذهبت عيناه، فقال: اذهبوا بقميصي، واذهبوا فعل أمر وفاعل، وبقميصي يجوز أن يتعلق باذهبوا، فتكون الباء للتعديّة، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف حال، أي: اذهبوا معكم قميصي، وهذا نعت، أو بدل، أو عطف بيان، فألقوه: الفاء عاطفة، وألقوه فعل وفاعل ومفعول به، وعلى وجه أبي متعلقان بألقوه، ويأت فعل مضارع مجزوم؛ لأنه جواب الأمر، والفاعل مستتر تقديره: هو، وبصيراً حال، واختار الزمخشري أن يكون خبراً لآيات على تضمينه معنى: يصير بصيراً، ويشهد له: «فارتد بصيراً» ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وائتوني عطف على اذهبوا، وبأهلكم متعلقان بائتوني، وأجمعين تأكيد للأهل، أي: بنسائكم وأولادكم ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ لما ظرفية، أو رابطة، وفصلت العير فعل وفاعل، وأن واسمها، واللام المزحلقة، وجملة أجد خبر إن، وريح يوسف مفعول به، ولولا حرف امتناع لوجود، وأن وما في حيزها مبتدأ خبره محذوف، وحذفت ياء المتكلم من تفندون للتخفيف، ولمراعاة الفواصل، أما تقدير الخبر لولا تفنيدكم موجود، وجواب لولا محذوف، أي: لصدقتموني ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ التاء تاء القسم، والله ومجرور بتاء القسم، والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم، وإن واسمها، واللام المزحلقة، وفي ضلالك خبر إن، والقديم صفة ﴿فَلَمَّا

أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا ﴿٩٣﴾ لما ظرفية حينية، أو رابطة، وأن
 زائدة، وسيأتي بحث مفيد عنها في باب: الفوائد. وجاء البشير فعل
 وفاعل، وجملة ألقاه لا محل لها، والهاء مفعول به، وعلى وجهه متعلقان
 بألقاه، فارتد: الفاء عاطفة، وارتد فعل ماض فاعله هو، وبصيراً حال، أو
 ارتد فعل ماض ناقص يعمل عمل صار، وبصيراً خبرها ﴿٩٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ
 إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ولم حرف نفي
 وقلب وجزم، وأقل مضارع مجزوم بلم، والفاعل مستتر، تقديره: أنا،
 ولكم متعلقان بأقل، وإن واسمها، وجملة أعلم خبرها، ومن الله جار
 ومجرور متعلقان بأعلم، وما موصول مفعول به، وجملة لا تعلمون صلة
 ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ يا أبانا منادى مضاف، واستغفر
 فعل أمر، وفاعله مستتر، تقديره: أنت، ولنا متعلقان باستغفر، وذنوبنا
 مفعول به، وإن واسمها، وجملة كنا خاطئين خبر إنا، وكان واسمها،
 وخاطئين خبرها ﴿٩٨﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٩﴾
 جملة سوف استغفر مقول القول، ولكم متعلقان باستغفر، وربى مفعول به،
 وإن واسمها، وهو مبتدأ، أو ضمير فصل، والغفور الرحيم خبران لأن، أو
 لهو، والجملة الاسمية خبر إن ﴿١٠٠﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴿١٠١﴾
 عطف على محذوف، تقديره: ثم توجهوا إلى مصر، وخرج يوسف
 وحاشيته لاستقبالهم، ودخلوا فعل وفاعل، وعلى يوسف متعلقان بدخلوا،
 وجملة آوى لا محل لها، وإليه متعلقان بأوى، وأبويه مفعول به، والظاهر
 أن دخولهم عليه كان في مضرب له في ضاحية البلد، ولذلك عطف ﴿١٠٢﴾ وَقَالَ
 ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وادخلوا مصر فعل وفاعل ومفعول به، وإن
 شرطية، وشاء فعل الشرط، والجواب محذوف لدلالة الكلام عليه، وجملة
 الشرط اعتراضية بين الحال وصاحبها، فأمنين حال من الواو ﴿١٠٤﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ
 عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴿١٠٥﴾ ورفع أبويه فعل وفاعل مستتر ومفعول به، وعلى
 العرش متعلقان برفع، وخرّوا فعل وفاعل، وله متعلقان بخرّوا، وسجداً
 حال ﴿١٠٦﴾ وَقَالَ يَتَكَبَّ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ ﴿١٠٧﴾ يا أبت تقدم إعرابها، وهذا

مبتدأ، وتأويل خبر، ورؤياي مضاف إليه، ومن قبل حال ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ قد حرف تحقيق، وجعلها ربي فعل وفاعل، وحقاً مفعول ثان، والجملة حال مقدرة، أو مقارنة ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ الواو عاطفة، وقد حرف تحقيق، وأحسن فعل ماض، وبني متعلقان بأحسن، وأحسن أصله أن يتعدى بإلى، وقد يتعدى بالباء كما يقال: أساء إليه، وبه، قال كثير:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ لِعِزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ

قال ابن هشام: معناها الغاية، أي: إليّ، وقيل: ضمّن أحسن معنى لطف، فعداه بالباء، كما تقول: لطف الله بك، فالباء حينئذ للإلصاق؛ لأن اللطف ملتصق وقائم بالمتكلم، والتضمين شائع، وهو: إشراب الكلمة معنى آخر، وإذ متعلق بأحسن أيضاً، وجملة أخرجني مضافة، والفاعل مستتر، والياء مفعول به، ومن السجن جار ومجرور متعلقان بأخرجني ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ بكم متعلقان بجاء، ومن البدو: متعلق به أيضاً، ومن بعد حال، وأن وما في حيزها مضافة للظرف، والشيطان فاعل نزغ، وبينني ظرف متعلق بنزغ، وبين عطف على الظرف الأول، وإخوتي مضاف إلى بين ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ إن واسمها وخبرها، ولما متعلقان بلطيف، أي: لطيف التدبير لأجله رفيق، وجملة يشاء صلة، وإن واسمها، وهو ضمير فصل، أو مبتدأ، والعليم الحكيم خبران لإن، أو لهو، وقد تقدمت له نظائر ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ رب منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة، وحرف النداء محذوف، وقد حرف تحقيق، وآتيتني فعل وفاعل ومفعول به، ومن الملك: من تبيضية، وهي ومجرورها صفة لمفعول به محذوف، أي: آتيتني شيئاً عظيماً من الملك، وقيل: تبينية، فتتعلق بآتيتني، وعلمتني عطف على آتيتني، ومن تأويل الأحاديث متعلقان بعلمتني ﴿فَاطْرَ السَّمَكَاةِ وَالْأَرْضِ﴾ يجوز أن يكون نعتاً

لرب، أو بدلاً منه، ويجوز أن يكون منادى، وحرف النداء محذوف، ولعله أولى، والسموات مضاف إليه ﴿أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أنت مبتدأ، وولي خبر، وفي الدنيا حال، والآخرة عطف على الدنيا ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ فعل دعاء، والنون للوقاية، والياء مفعول به، ومسلماً حال، وألحقني عطف على توفني، وبالصالحين متعلقان بألحقني.

* الفوائد:

﴿أَنْ﴾ حرف مصدر يَنْصِبُ المضارع، ويؤول مع ما في حيزه بمصدر يعرب حسب موقعه، وتكون مخففة من أن، فتقع بعد فعل اليقين والظن وما شابهه، ومفسرة، وهي: التي تقع بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه، نحو: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ﴾ وزائدة للتوكيد كآلآية: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾. قال ابن هشام: ولا معنى لأن الزائدة غير التوكيد كسائر الزوائد. وقال ابن الأثير في «المثل السائر»: وأما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ فإنه إذا نظر في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته منذ ألقوه في الجب، وإلى أن جاء البشير إلى أبيه عليه السلام وجد أنه كان ثم إبطاء بعيد، وقد اختلف المفسرون في طول تلك المدة، ولو لم يكن ثم مدة بعيدة، وأمد متطاوّل، لما جيء بأن بعد لما، وقبل الفعل، بل كانت تكون الآية: فلما جاء البشير ألقاه على وجهه، وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة، لأنها ليست من شأنهم.

هذا؛ وقد ردّ الصلاح الصفدي على ابن الأثير فقال: قلت: هذا من جنابة إعجاب المرء بعقله، ألا تراه كيف يتصور الخطأ صواباً، ثم أخذ يتبجح أنه ظفر بما لم يكن عند النحاة، ولو أنه نظر إلى هذه الفاء عقيب ماذا وردت؟ هل هي عقيب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَذْهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ﴾ والآيات المتعلقة بواقعة إلقاءه في الجب، أو وردت عقيب قوله تعالى: ﴿أَذْهَبُوا بِمِصْرِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَيْ يَأْتِ بِصِيرًا وَأَتَوْفٍ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ

تَقْنِدُونَ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ عَمٍ الْقَدِيمِ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴿١٠٤﴾ لعلم ابن الأثير أنه لا تراخي بين هذين البعدين، ولا مدة مديدة؛ لأن المدة إنما كانت بقدر المسافة التي توجه فيها البشير من مصر، إلى أن وصل إلى أرض كنعان، وهي مقام يعقوب عليه السلام، وقدر مسافة ما بين ذلك اثنا عشر يوماً وما حولها، ولهذا قال النحاة: إنها هنا زائدة، ولابن الأثير من هذه الشناعات على النحاة وغيرهم أشياء أوجب عنها في كتابي.

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ ﴿١٠٥﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٩﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٠﴾

☆ اللغة:

﴿ حَرَصْتَ ﴾: في «المصباح»: حرص عليه حرصاً، من باب: ضرب؛ إذا اجتهد، والاسم الحرص - بالكسر - وحرص على الدنيا، من باب: ضرب، وحرص حرصاً، من باب: تعب، لغة: إذا رغب رغبة مذمومة. وقال علماء اللغة: وحرص على الشيء، وهو حريص من قوم حراص، وما أحرصك على الدنيا، والحرص شؤم، ولا حرس الله من حرص، وحرص القصَّارُ الثوب: شقّه، وبثوبك حرصة، وأصابته حارصة، وهي من الشجاج التي شقت الجلد، وحما محَرَّص: مكدَّح، وانهلت الحارصة والحريصة، وهي: السحابة الشديدة وقع المطر، وتحرص وجه الأرض، قال الحُوَيْدرة:

ظَلَمَ الْبَطَاحَ بِهَا انْهَالًا حَرِيصَةً فَصَفَا نُّطَافُهَا بِهَا بَعِيدَ الْمُقْلَعِ
ورأيت العرب حريصة على وقع الحريصة .

﴿ غَشِيَّةٌ ﴾ : نقمة تغشاهم ، وقيل : ما يغمرهم من العذاب ، ويجللهم .
وفي « القاموس » و « التاج » : الغاشية مؤنث الغاشي ، والغطاء ، والجمع
غواش ، والداهية ، والقيامة ، وداء في الجوف ، وغاشية فلان : خدمه
وزواره .

○ الإعراب :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ ذلك اسم إشارة في محل رفع مبتدأ ،
ومن أنباء الغيب خبره ، وجملة نوحيه إليك حال ، ويجوز أن تكون في محل
رفع خبراً ثانياً ، وفي هذه الآية الكريمة دليل لا يقبل الريب على نبوة
محمد ﷺ ؛ لأنه كان أمياً لم يقرأ الكتب ، ولم يلق العلماء ، ولم يسافر إلى غير
بلده الذي نشأ فيه ، ومع ذلك أتى بهذه القصة الطويلة مستجمعة شرائط
القصة وخصائصها ؛ التي ابتدعت ذكرها العصور الحديثة ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ الواو عاطفة ، وكنت : كان واسمها ، ولديهم ظرف
مكان متعلق بمحذوف خبر كنت ، وإذ ظرف متعلق بما تعلق به الظرف ،
أي : بالاستقرار المحذوف ، وجملة أجمعوا مضافة للظرف ، والواو للحال ،
وهم مبتدأ ، وجملة يمكرون خبر ، والجملة حالية ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ
حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ الواو عاطفة ، وما نافية حجازية بذلك زيادة الباء في
خبرها ، وأكثر الناس اسمها ، والواو اعتراضية ، ولو شرطية ، وحرصت فعل
وفاعل ، والجملة معترضة بين ما الحجازية وخبرها ، وسيأتي في باب : الفوائد
بحث مسهب عن الجملة الاعتراضية ، والباء حرف جر زائد ، ومؤمنين مجرور
بالباء لفظاً في محل نصب خبر لما ، وجواب لو محذوف ، أي : لم يؤمنوا ﴿ وَمَا
تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ الواو عاطفة ، وما نافية ،
وتسألهم فعل مضارع ، وفاعل مستتر ، والهاء مفعول به ، وعليه حال ؛ لأنه
كان في الأصل صفة لأجر ، والضمير يعود على القرآن ، ومن حرف جر زائد ،

وأجر مجرور بمن لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به، وإن نافية، وهو مبتدأ، وإلا أداة حصر، وذكر خبر هو، وللعالمين صفة لذكر ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم القول مسهباً في كآين وكم الخبريتين، وهي في محل رفع مبتدأ، ومن آية تمييز مجرور بمن، وفي السموات والأرض صفة لآية ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ جملة يمرون خبر لمبتدأ، وهو كآين، وعليها متعلقان بيمرون، وهم: الواو حالية، وهم مبتدأ، وعنهما متعلقان بمعرضون، ومعرضون خبرهم، والجملة الاسمية حالية، ويجوز أن يكون في السموات والأرض خبراً لكآين، وجملة يمرون صفة لآية ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ الواو عاطفة، وما نافية، ويؤمن أكثرهم فعل مضارع وفاعل، وبالله متعلقان بيوؤمن، وإلا أداة حصر، والواو حالية، وهم مبتدأ، ومشركون خبر، والجملة نصب على الحال ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، وفيه معنى التوبيخ والتهديد، والفاء عاطفة، وأمنوا فعل وفاعل، وأن تأتيهم المصدر المؤول مفعول أمنوا، والهاء مفعول تأتي، وغاشية فاعل تأتي، ومن عذاب الله صفة لغاشية ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أو تأتيهم عطف على تأتيهم السابقة، والساعة فاعل تأتيهم، وبغتة حال، والواو حالية، وهم مبتدأ، وجملة لا يشعرون خبر، والجملة نصب على الحال.

□ البلاغة:

(١) في قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ الآية فن يسمى في علم البيان بالاحتجاج النظري، وبعضهم يسميه المذهب الكلامي، وهو: أن يلزم الخصم ما هو لازم لهذا الاحتجاج، وقد تقدم بحثه، وفيه تهكم مرير بهم؛ لأنه قد علم كل أحد أن محمداً ﷺ ما كان معهم، فإذا أخبر به، وقصه هذا القصص البديع، لم تقع شبهة في أنه ليس منه.

(٢) في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فن الاعتراض، وقد تقدم ذكره وتحديده، ونزيد هنا ما يتعلق ببحث بلاغي

طريف، وهو: أن الاعتراض ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: لا يأتي في الكلام إلا لفائدة، وهو جار مجرى التوكيد.

والآخر: أن يأتي في الكلام لغير فائدة، فإما أن يكون دخوله فيه كخروجه منه، وإما أن يؤثر في تأليفه نقصاً، وفي معناه فساداً.

فالقسم الأول كهذه الآية.

وفائدة الاعتراض من وجهين:

أولهما: تصوير حرصه ﷺ على إيمان قومه، وهدايتهم، وتهالكه على ردعهم عن غيهم، وحرهم عن مظان الخطأ، ومواطن الضلال، واستهدافه للأذى في سبيل هذا الحرص، مع علمه بعدم جدوى ذلك، واستحالة إقلاعهم عما هم فيه.

وثاني الوجهين: تصوير لجأهم، وجحود عقليتهم، وإصرارهم على الغي؛ الذي هم فيه شارعون، وبه آخذون، وعنادهم ومكابرتهم فيما لا تجدي معه الحجج والبراهين الثابتة المنيرة.

والقرآن الكريم حافل بهذا القسم، وسيرد عليك في مواضعه إن شاء الله، وقد أوردنا طائفة من الشعر الجيد الذي زاده الاعتراض رقة وحلاوة. وما أجمل قول ابن المعذب السعدي:

فلو سألت سراة الحيّ سلمى على أن قد تلوّن بي زماني
لخبرها ذوو أحسابٍ قومي وأعدائي فكلّ قد بلاني

وهذا اعتراض بين لو وجوابها، وهو من فائق الاعتراض ونادره، وتقديره: فلو سألت سراة الحي سلمى لخبرها ذوو أحساب قومي وأعدائي. وفائدة قوله: «على أن قد تلوّن بي زماني» أي: أنهم يخبرون عني على تلوّن الزمان بي، يريد: تنقل حالاته من خير وشر، وليس من عجمه على الزمان، وأبان عن جوهره كغيره ممن لم يعجمه، ولم يبين عنه.

أما القسم الثاني، وهو: الذي يأتي في الكلام لغير فائدة، فهو ضربان:

الأول: يكون دخوله في الكلام كخروجه منه، لا يكتسب به حسناً ولا قبحاً، فمن ذلك قول النابغة الذبياني يرثي النعمان بن المنذر:
يقولُ رجالٌ يُجْهَلُونَ خَلِيقَتِي لَعَلَّ زِياداً - لا أبا لك - غَافِلُ

فقوله: لا أبا لك من الاعتراض؛ الذي لا فائدة فيه إلا إقامة الوزن، وليس مؤثراً فيه حسناً ولا قبحاً. ومثله قول زهير بن أبي سلمى:
سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ

ثمانينَ حَوَلاً - لا أبا لك - يَسْأَمُ

والثاني: وهو الذي يؤثر في الكلام نقصاً، وفي المعنى فساداً، وسنورد أمثلة منه ليتفادها العاقل، فمن ذلك قول بعضهم:
فقد، والشك، بيّن لي عناء

بوشك فراقهم صرّد يصيح

فإنه قدم «بوشك فراقهم» وهو معمول «يصيح» ويصيح صفة لصرد، وذلك قبيح، ألا ترى أنه لا يجوز أن يقال: هذا من موضع كذا رجل ورد اليوم، وإنما يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل، فكما لا يجوز تقديم الصفة على موصوفها، فكذلك لا يجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها، وفيه بعد ذلك من رديء الاعتراض الفصل بين «قد» والفعل الذي هو بيّن، وذلك قبيح جداً؛ لقوة اتصال «قد» بما تدخل عليه من الأفعال، حتى إنهم يعدونها بمثابة الجزء من الفعل، ولذلك أدخلت عليه لام القسم المراد بها تأكيد الفعل، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ هذا؛ وفي البيت عيب ثالث وهو الفصل بين المبتدأ الذي هو الشك وبين الخبر الذي هو عناء، بقوله «بين لي». وعيب رابع، وهو: الفصل بين الفعل الذي هو بيّن وبين فاعله الذي هو صرد، بخبر المبتدأ؛ الذي هو عناء، فجاء معنى البيت، كما تراه، كأنه صورة مشوهة قد نقلت أعضاؤها بعضها إلى مكان بعض.

ومن هذا الضرب قول الآخر:

نَظَرْتُ وَشَخْصِي مَطْلَعِ الشَّمْسِ ظِلُّهُ

إلى الغربِ حتى ظلَّه الشمس قد عَقَلُ

أراد: نظرت مطلع الشمس، وشخصي ظلّه إلى الغروب حتى عقل الشمس، أي: حاذاها، وعلى هذا التقدير فقد فصل بمطلع الشمس بين المبتدأ الذي هو شخصي وبين خبره الجملة، وهو قوله «ظلّه إلى الغرب»، وأغلظ من ذلك وأسمح أنه فصل بين الفعل وفاعله بأجنبي، وهذا مما يبدو السكوت خيراً منه.

وحيث تكلمنا على الاعتراض من الناحية البلاغية الفنية، فلا ندحة لنا عن أن نتناوله من ناحيته النحوية، فقد قرر النحاة أنه يقع في مواضع:

(١) بين الفاعل ومرفوعه، كقول بعضهم:

شَجَاكَ أَظُنُّ رُبْعُ الظَّاعِنِينَ ولم تعباً بعِذْلِ العاذِلِينَ

فشجاك فعل ماض وفاعله ربع الظاعنين، وفصل بينهما بجملة أظن، وقد أفادت هذه الجملة المعارضة التقوية؛ لأنه حين يقال: شجاك ربع الظاعنين، يحتمل أن ذلك مظنون، أو متوهم، فأخبر أنه مظنون، على أنه يحتمل في هذا البيت نصب ربع على أنه مفعول أول لأظن، وجملة شجاك مفعوله الثاني، وتقديره: أظن ربع الظاعنين شجاك.

(٢) بين الفعل ومفعوله المنصوب، كقول الشاعر:

وَبُدِّلْتُ، وَالْدَّهْرُ ذُو تَبَدُّلٍ، هيفاً دبوراً بالصِّبَا وَالشَّمَالِ

فبدلت فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود على الريح، والدهر ذو تبدل معترضة، وهيفاً مفعول بدلت، أي: ريحاً هيفاً، ومعناها حارة، وبالصبا داخل على المتروك، كما هي القاعدة في الباء التي تقع بعد بدل، والصبا: الريح التي تهب من المشرق عند استواء الليل والنهار، والشمال: هي الريح التي تأتي من ناحية القطب.

(٣) بين المبتدأ وخبره، كقوله:

وفيهنَّ، والأَيَّامُ يعثرنَ بالفتى نوادِبُ لا يَمْلَلْنَهُ ونَوَائِحُ
فقد فصل بين فيهن، وهو خبر مقدم، ونوادب وهو مبتدأ مؤخر،
بجملة: والأَيَّامُ يعثرن بالفتى.

(٤) وبين ما أصله المبتدأ والخبر، كقول عوف بن محلم:
إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلَّغَتْهَا قد أحوجت سَمْعِي إلى ترجمان
فقوله: وبُلَّغَتْهَا، جملة دعائية اعترضت بين اسم إن وخبرها، وأصلهما
مبتدأ وخبر.

(٥) بين الشرط وجوابه، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا
النَّارَ﴾ وقد تقدم إعرابها.

(٦) بين القسم وجوابه، كقول النابغة:
لَعَمْرِي وما عمري عليَّ بهيِّنٍ لقد نطقت بطلاً عليَّ الأقارغُ
فقد اعترض بجملة «وما عمري علي بهين» بين القسم وجوابه.

(٧) بين الموصوف وصفته، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفَسَّخُوا وَتَوَلَّوْا عَظِيمًا﴾
فقد اعترض بجملة «لو تعلمون» بين الموصوف وهو قسم، وصفته وهو
عظيم.

(٨) بين الموصول وصلته، كقول الشاعر:
وَإِنِّي لَرَامٍ نَظْرَةً قَبْلَ التِّي لَعَلِّي - وَإِنْ شَطَطَتْ نَوَاهَا - أَزُورُهَا
فاعترض بين التي وصلتها، وهي أزورها بلعلي، وخبر لعل محذوف،
أي: لعلني أفعل ذلك.

(٩) بين حرف التنفيس والفعل، كقول زهير:
وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء
وهذا الاعتراض في أثناء اعتراض آخر، فإن سوف وما بعدها اعتراض
بين أدري وجملة الاستفهام.

(١٠) بين حرف النفي ومنفيه، كقوله :

فلا - وأبي دهماء - زالت عزيزة على قومها ما دام للزند قاذح
وهناك مواضع أخرى ضربنا عنها صفحاً لندرة وقوعها، ويمكن الرجوع
إليها في المطولات.

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا
أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ
الْقَرْيَةِ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ
وَوَطَّنُوا أُنْتَهَمُ قَدْ كَذَبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ
الْمُجْرِمِينَ ﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا
يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

☆ اللفظة:

﴿ سَبِيلِي ﴾: السبيل: الطريق، أو ما وضح منها، يذكر ويؤنث،
والجمع سبيل، وسبيل، وأسبيل، وأسيلة، وسبول، وابن السبيل: المسافر،
وسبيل الله: الجهاد، وطلب العلم، والحج، وكل ما أمر الله به من الخير.
ويقال: ليس لك علي سبيل، أي: حجة تعتل بها، وليس علي في كذا سبيل،
أي: حرج. ويقول المولدون: ما على المحسن سبيل، أي: معارضة. وسبيلنا
أن نفعل كذا، أي: نحن جديرون بفعله.

○ الإعراب:

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ هذه مبتدأ،

وسبيلي خبر، وجملة أدعو الله تفسير للسبيل، وإلى الله متعلقان بأدعو، ويجوز أن تكون الجملة حالية من الياء، والأول أولى، وعلى بصيرة متعلقان بأدعو، أو بمحذوف حال من فاعل أدعو، وأنا تأكيد لفاعل أدعو المستتر، ومن اتبعني عطف على فاعل أدعو المستتر، ويجوز أن يكون من مبتدأ، وخبره محذوف، أي: ومن اتبعني يدعو أيضاً، ويجوز أن يكون أنا مبتدأ مؤخرًا، وعلى بصيرة خبراً مقدماً، ومن اتبعني عطفًا على أنا ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وسبحان مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: وأصبح سبحان الله، وما: الواو حرف عطف، وما نافية حجازية، وأنا اسمها، ومن المشركين خبرها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ ما نافية، أرسلنا فعل وفاعل، ومن قبلك حال، وإلا أداة حصر، ورجالاً مفعول به، وجملة نوحى إليهم صفة، ومن أهل القرى صفة ثانية لرجالاً ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء عاطفة على محذوف، وقد تقدم تقريره، ولم حرف نفي وقلب وجزم، ويسيروا فعل مضارع مجزوم بلم، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بيسيروا ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الفاء عاطفة، أو سببية، وينظروا فعل مضارع، إما مجزوم نسقاً على يسيروا، أو منصوب بأن مضمرة في جواب النفي، وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان مقدماً، وعاقبة اسم كان، والذين مضاف لعاقبة، ومن قبلهم متعلقان بمحذوف صلة الموصول ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفْلاً تَعْقِلُونَ﴾ الواو حالية، واللام لام الابتداء، ودار مبتدأ، والآخرة مضاف إليه؛ من إضافة الشيء إلى نفسه؛ لأن المراد بالدار الجنة، وهي نفس الآخرة واختار الزمخشري والبيضاوي أن يكون التقدير: ولدار الساعة الآخرة، أو الحال الآخرة، فليس في الكلام على ذلك إضافة الشيء إلى نفسه. وخير خبر دار، وللذين متعلقان بخير، وجملة اتقوا صلة، أفلا تعقلون تقدم إعرابه ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ حتى حرف غاية، وهي متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام، كأنه قيل: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً، فتراخى نصرهم حتى إذا استيسوا من النصر، ولا يلزم أن

يكون الله وعدهم بالنصر في الدنيا، بل كانوا يظنون ذلك، ويرجونه لا عن إخبار ووحى، وهذا خير ما قيل في هذه الآية؛ التي اضطربت فيها أقوال العلماء والمفسرين والمعربين فيها اضطراباً شديداً، وسياق الآية يرشد إليه، وظنوا عطف على استيئسوا، وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي ظنوا، وكذبوا بالبناء للمجهول، أي: ظنت الأمم أن الرسل أخلفوا ما وعدوا به من النصر، وجملة كذبوا خبر أنهم ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ جملة جاءهم لا محل لها لأنهم جواب إذا، وجاءهم نصرنا فعل ومفعول به وفاعل، والفاء عاطفة، ونجي بالبناء للمجهول عطف على جاءهم، ومن نائب فاعل، ونشاء صلة ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْفَٰئِرِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الواو عاطفة، ولا نافية، ويرد بالبناء للمجهول، وبأسنا نائب فاعل، وعن القوم متعلقان ببرد، والمجرمين صفة ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ اللام جواب قسم محذوف، وقد حرف تحقيق، وفي قصصهم خبر مقدم، وعبرة مبتدأ مؤخر، ولأولي صفة لعبرة، والألباب مضاف إليه، وسيرد في باب: البلاغة مغزى هذه العبرة ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ ما نافية، وكان فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر يعود على القرآن، وحديثاً خبرها، وجملة يفترى صفة لحديثاً ﴿وَلَكِنَّ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الواو حرف عطف، ولكن مخففة مهملة، وتصديق عطف على حديثاً، وهو أولى من تقدير: كان، وقد تقدم مثل هذا في سورة يونس، والذي مضاف إليه، والظرف صلة، وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة: معطوفان على تصديق، ولقوم صفة، وجملة يؤمنون صفة لقوم.

□ البلاغة:

في سورة يوسف نفحة من القصص الرائع الذي استوفى شرائط القصة؛ كما انتهت إليه أبحاث النقاد في العصر الحديث؛ مما يؤخذ من مظانه الكثيرة. وقد امتازت هذه القصة على تسلسل حوادثها، وكثرة فنونها، وتنوع فصولها بالإيجاز، وقد ألمعنا إليه فيما تقدم، ونزيده بسطاً هنا، فنقول:

(١) تقسيم الإيجاز:

يأتي الإيجاز على قسمين:

١ - قسم طويل ، ٢ - وقسم قصير .

والطويل: طوله بالنسبة للقصير منه لاغيره من الكلام، كما جاءت قصص القرآن كلها، وأحسن ما جاء منها في هذا الباب قصة يوسف، فإنها جاءت على الطريقتين في سورة واحدة من قوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَحَرُّوا لَهُ سُجْدًا ﴾ وجاءت على الطريقة المختصرة في قوله على لسان يوسف: ﴿ يَتَأْتٍ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ فذكر تعالى القصة أولاً على طريق البسط مفصلة لمن لم يشارك في طريق علمها، وذكرها تعالى أخيراً مختصرة ليعلمها مفصلة من لم يكن يعلمها، حتى إذا جاءت مجملتها علم الإشارات فيها، وابتدأها بقوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ثم أنهاها بقوله: ﴿ لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ووجه الاعتبار بقصصهم هو أن هذه القصص إنما سجلت لحصول العبرة منها، ومعرفة الحكمة والمغزى.

(٢) اختلاف صيغة اللفظة:

وفي قوله تعالى: ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ فن يطلق عليه القدامى الاسم الأنف الذكر، وهو من البيان بمثابة القلب من الإنسان، وهو يدق إلا على من صفت قرائحهم، واستغزرت ملكة الفصاحة فيهم، ونعني باختلاف صيغة اللفظة: نقلها من هيئة إلى هيئة، كنقلها من وزن إلى وزن آخر، أو نقلها من صيغة الاسم إلى صيغة الفعل، أو بالعكس، أو كنقلها من الماضي إلى المستقبل، أو بالعكس، أو من الواحد إلى التثنية أو الجمع، أو إلى النسب إلى غير ذلك انتقل قبحها، فصار حسناً، وحسنها فصار قبحاً، وسنورد أمثلة مترتبة على نسق الترتيب الذي أوردناه، فمن نقل اللفظة من صيغة إلى أخرى لفظة «خود»

عبارة عن المرأة الناعمة، وإذا نقلت إلى صيغة الفعل قيل خوّد على وزن فَعَّلَ، ومعناها: أسرع. يقال: خوّد البعير إذا أسرع، فهي على صيغة الاسم حسنة رائعة، وإذا جاءت على صيغة الفعل لم تكن مستحسنة، كقول أبي تمام من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن عبد الكريم:

وإلى بني عبد الكريم تواهقتُ ترك النعام رأى الظلام فخوّدًا
فهي ثقيلة سمجة كما ترى، على أن ثقلها وسماجتها يخفان عندما تنقل من الحقيقة إلى المجاز، كقول رجل من بني أسد:

أقولُ لنفسي حين خوّد رأها رويدك لما تشفقي حين مُشَفَّق
رويدك حتّى تنظري عمّ ينجلي غيابة هذا البارقي المتألق
والرأى، النعام، والمراد به هنا أن نفسه فرت وفزعت، وشبه ذلك بإسراع النعام في فراره وفرعه، ولما أورده على حكم المجاز خف عنه بعض ضح القبح الذي على لفظة خوّد، وهي يدرك بالذوق السليم، ولا ضابط له، ولا يخفى ما بين هذه اللفظة في إيرادها هنا وإيرادها في بيت أبي تمام، فإنها وردت في بيت أبي تمام قبيحة سمجة، ووردت هنا متوسطة. أما نقل الفعل من صيغة إلى صيغة، فمثاله لفظة «ودع» وهي فعل ماض ثلاثي، لا ثقل بها، وليست حروفها متنافرة، ومع ذلك أحجم العرب عن استعمالها بصيغة الماضي لسماجتها، فإذا نقلت إلى المستقبل أو الأمر كانت حسنة فصيحة، أما الأمر فكقوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ ولم تأت في القرآن إلا كذلك، وأما نقلها إلى صيغة المستقبل، فكقول أبي الطيب المتنبّي:

تَشَقُّكُمْ بِقَنَاهَا كُلُّ سَلْهَبَةٍ والضربُ يأخذُ منكم فوقَ ما يدعُ
فهي هنا غاية في الفصاحة، ولهذا أمت العرب ماضي يدع ويذر، وقد استسمجوا قول أبي العتاهية مع حسن معناه:

أَثَرُوا فلم يُدْخِلُوا قُبُورَهُمْ شَيْئاً مِنَ الثَّرْوَةِ الَّتِي جَمَعُوا
وكانَ ما قَدَّمُوا لأنفُسِهِمْ أعْظَمَ نَفْعاً مِنَ الَّذِي ودَعُوا
أما النقل من الأفراد إلى التثنية والجمع، فمثاله الآية التي نحن بصدددها،

وذلك أن لفظة «اللب» الذي هو العقل، لا لفظة اللب الذي تحت القشر، فإنها لا تحسن في الاستعمال إلا مجموعة، وكذلك وردت هنا، وفي أكثر من موضع من القرآن الكريم، وقد تستعمل مفردة، ولكن شريطة أن تكون مضافة أو مضافاً إليها، فأما كونها مضافة، فكقول النبي ﷺ في ذكر النساء: «ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الحازم من إحدكن يا معشر النساء» وأما كونها مضافاً إليها، فكقول جرير:

إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ

قَتَلْنَاهُمْ لَمْ يُحْيَيْنَ قَتْلَانَا

يَصْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ

وَهُنَّ أضعفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنْسَانَا

وهذا أمر يكاد يذهل المبين، اسمع إلى كلمة الصوف، وهي مفردة، تجدها سمجة في الاستعمال، وقد استعملها أبو تمام، فجاءت غثة، وزاد في غثائها أنها جاءت مجازية في نسبتها إلى الزمان، حيث يقول:

كَانُوا بُرُودَ زَمَانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا فَكَأَنَّمَا لَيْسَ الزَّمَانُ الصُّوفَا

ولكنها وردت في القرآن الكريم مجموعة، فإذا هي مرقصة مطربة، قال تعالى: ﴿جَعَلْ لَكُم مِّنْ يُؤْتِيكُم سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَاتًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

ولم يمنع العرب جمع المصادر إلا لهذا السبب، والمدار في ذلك على الذوق السليم والجرس الموسيقي؛ الذي لا يكتبه حسنه، ولا يوصف، وقد استعمل عنتره المصدر مجموعاً، فجاء سمجاً مردولاً، قال:

فَإِنْ يَبْرَأْ فَلَمْ أَنْفُثْ عَلَيْهِ وَإِنْ يُفْقَدْ فَحَقَّ لَهُ الْفُقُودُ

فقوله الفُقُود جمع مصدر، من قولك: فقد يفقد فقداً، واستعمال مثل هذه اللفظة غير سائغ، وهذا كله مردّه الذوق السليم، ويرحم الله فولتير القائل: ذوقك أستاذك.

وما دمنا قد وصلنا إلى هذه المرحلة من التحليل الأدبي، فلا بد لنا من أن نشير إلى كتاب رائع هو «معاني القرآن» للفراء، ومنهج الكتاب يقوم على الأمور التالية:

ينهج الكتاب نهجاً مبتكراً، فهو يتعرض لآيات كل سورة بالترتيب، فلا يقتصر على الغريب، بل يتجاوزه إلى إيضاح الجانِبِ النحوي والإعراب في الآية، وينتهي إلى النظرية العامة فيبين قواعدها، وأصولها، وأدلتها، وأسبابها، ومُسَبِّحاتها، ثم يتكلم عن التشبيه، والمثل، والكناية، والمجاز بصورة عامة، ثم يتناول الاستعارة أحد قسمي المجاز والالتفات. على أن الجديد كل الجدة في كتاب الفراء أنه لاحظ النسق الصوتي، والترابط بين الكلمات، وانسجام النغم، وتوافق الفواصل في آخر الآيات، فيجيز حذف أواخر الكلمات موافقة لرؤوس الآيات، مع موافقة ذلك لكلام العرب، مثل قوله عز وجل، ﴿وَأَنبِئْ إِذْ يَسِرُّ﴾ وقد قرأ القراء «يسري» بإثبات الياء، «ويسر» بحذفها، وحذفها أحب إليّ لمشاكلتها لرؤوس الآيات، والعرب قد تحذف الياء، وتكتفي بكسر ما قبلها، أنشدني:

كَفَّاكَ كَفَّ مَا تَلِيْقُ دِرْهَمًا

جُودًا وَأُخْرَى تُعْطِ بِالسَّيْفِ الدِّمًا

وأنشدني الآخر:

لَيْسَ تُخْفَى يَسَارَتِي قَدَرَ يَوْمٍ وَلَقَدْ تُخْفِ شَيْمَتِي إِعْسَارِي

وقوله ﴿يَطْعُونَهَا﴾ أراد بطغيانها، إلا أن الطغوى أشكل برؤوس الآيات فاختر لذلك، ألا ترى أنه قال: ﴿وَأَخْرَجُوا دَعْوَتَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ومعناه آخر دعائهم، وكذلك: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ دعواهم فيها هذا، ﴿وَمَا قَلَى﴾ يريد ما قلاك، فألقيت الكاف، كما تقول: قد أعطيتك وأحسن، معناه: وأحسن إليك، فيكتفى بالياء الأولى من إعادة الأخرى، ولأن رؤوس الآيات بالياء، فاجتمع ذلك فيه. إلى أن يقول الفراء: وقوله عز وجل

فأغنى فأوى يريد به : فأغنك وآواك، جرى على طرح الياء لمشكلة رؤوس الآيات .

ويجيز الفراء في كتابه الممتع «معاني القرآن» إضافة المصدر إلى صاحبه، مثل ما في قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ قال: فأضيف المصدر إلى صاحبه، وأنت قائل في الكلام: لأعطيتك عطيتك وأنت تريد عطية، وكان قربه من الجواز موافقة رؤوس الآيات التي جاء بعدها .

وعلى هذا النحو وضع الفراء أمامنا قواعد عامة للتغيرات؛ التي يمكن أن تطرأ على الكلمات، والتي قد يعتمد إليها القرآن أحياناً؛ للتوافق الموسيقي في نظمه، وصلة تلك التغيرات بما يطرأ على القافية في الشعر لإقامة الوزن، ولا يفتأ الفراء يشير إلى أن القرآن في عدوله عن لفظ إلى آخر، أو تعديله الألفاظ، لا يخرج عن أساليب العرب وفنون القول عندهم، وخاصة في الشعر، وهو الكلام الموزون الذي يشابه ما في نظمه من توافق وانسجام ما يراعيه أسلوب القرآن، هذا؛ وسيرد من كتاب الفراء في مواضع متفرقة من هذا الكتاب، ما تميز به هذا السفر الجليل في مواضع متعددة من البيان .

ويرى الجاحظ في كتابه «نظم القرآن» الذي ألفه للفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله؛ الذي لم يطبع - مع الأسف - بل فقد مع ما فقد من الكتب في محنة بغداد التي أوقعها بها هولاء، ولم تقع إلا نبذ منه مبثوثة في كتب الجاحظ المطبوعة الأخرى، يرى أن التنزيل قد أولى اللفظ عناية خاصة، فاختاره بدقة ليدل على المعاني بدقة، وقد يشترك لفظان في المعنى، لكن أحدهما أدق من الآخر في الدلالة عليه، ولنظم القرآن براعته في تنزيل اللفظ منزلته في الموضع الذي أريد له، ويمتاز بروعته أيضاً في الاختيار، ومراعاة الفروق بين الألفاظ، فلا يأتي بالألفاظ المترادفة دالاً على معنى واحد، إنما للدلالة على معان مختلفة، وبقدر الدقة في إصابة المعنى يكون الفرق بين ألفاظ الناس في كلامهم وألفاظ القرآن، ويقول في هذا الصدد: وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تعالى لم يذكر في القرآن

الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في مواضع الانتقام والأمة، وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل أرضين، ألا ترى أنه لا تجمع الأرض على أرضين ولا السمع أسماعاً، والجاري على أفواه العامة غير ذلك لا يتفقدون من الألفاظ إلا ما هو أحق بالذكر، وأولى بالاستعمال، وقد زعم بعض القراء أنه لم يرد ذكر النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج.

وتعرض الجاحظ لما جرى عليه نظم القرآن من نغم، وموسيقى، ووزن خاص رتيب مكون من وحدات مترابطة منسجمة، وكم كنا نتمنى لو بقي هذا الكتاب؛ لنستمع بما فيه من أبحاث، ولكننا سنحاول جمع ما تفرق منه في هذا الكتاب، فقد تصدى لوزن القرآن، وتكلم كثيراً لينفي عنه وزن الشعر، يقول في هذا الصدد: ويدخل على من طعن في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ وزعم أنه شعر، لأنه في تقدير مستفعلن مفاعِلن، فيقال له: اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعلن مستفعلن كثيراً، ومستفعلن فاعِلن، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً، ولو أن رجلاً من الباعة صاح: من يشتري باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات، وكيف يكون هذا شعراً، وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهياً في جميع الكلام، وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً، وهذا قريب، والجواب فيه سهل، والحمد لله.

ويرى ابن قتيبة في كتابه «مشكل القرآن» أن النغم الموسيقي، والنظم، والتوقيع الداخلي في الآيات، هي إحدى الخصائص التي يقوم عليها إعجاز القرآن، فهو حلو النغم، رتيب الوقع، حبيب الجرس إلى النفوس، لا تمله

الآذان لما ينساب في عباراته وخلال لفظه من الموسيقى الخافتة، ولا تتعثر فيه الألسنة لسلاستها، وفي هذا الصدد يقول ابن قتيبة: وجعله متلوّاً على طول التلاوة ومسموعاً لا تمجه الآذان، وغضّاً لا يخلق على كثرة الرد.

ونختم هذا المبحث، على أن نعود إليه في مكان آخر، بكلمة وردت في القرآن جميلة جداً، ووردت في الشعر، فكانت باردة، وهي كلمة يؤذي، فقد قال أبو الطيب:

تَلَذُّ لَهُ الْمَرْوَةُ وَهِيَ تُؤْذِي وَمَنْ يَعْشَقُ يَلْذُّ لَهُ الْغَرَامُ

وهذا البيت جميل شريف المعنى، إلا أن لفظة تؤذي قد جاءت فيه غثة باردة، بينما وردت في القرآن بالغة الروعة بادية الكمال وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِجَدِثٍ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تُؤْذُونَ النَّبِيَّ فَيَسْتَعْجِلُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعْجِلُ مِنَ الْحَقِّ﴾ ويبدو لنا أنها وردت في بيت أبي الطيب منقطعة، ألا ترى أنه قال: تلذ له المروءة وهي تؤذي. ثم قال: ومن يعشق يلذ له الغرام؛ فجاء بكلام مستأنف، وهذا باب طويل المدار في سبر غوره، واكتناه حسنه على الذوق السليم، والطبع الرهيف.

هذا؛ ولا مندوحة عن الإشارة إلى أن أكثر القصص التي وردت في القرآن الكريم من قصص الأنبياء في جهادهم؛ لتبليغ رسالتهم، ونشر دعوتهم، ومقاومة خصومهم من ذوي السلطان؛ الذين أنكروهم، وحالوا بينهم وبين هداية أقوامهم.

وإذا روجعت قصص القرآن الكريم مراجعة دقيقة، تبين للناظر في مضامينها أن عبرتها الأولى دروس ينتفع بها الهداة، ودعاة الإصلاح؛ إذ كان من فرائض الإسلام الاجتماعية أن يندب من الأمة طائفة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

من تلك الدروس أن الجهلاء ينقادون للأمر والسطوة، ولا ينقادون للحجة والدليل، ويريدون من صاحب الدعوة كما جاء في قصة نوح أن يكون ملكاً، أو تكون عنده خزائن الله، ويقولون له: ﴿قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرَ جِدَلَنَا

فَأَنبَأْنِي مَا تَعَدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٠٨﴾ .

ومن تلك الدروس أن أصحاب السادة في الأمة يكرهون التغيير، ويتشبثون بالقديم، ويأخذون على النبي أن يتبعه أناس من غير ذوي السيادة والجاه: ﴿ مَا نَزَّلْنَا إِلَّا بَشَرَ مِثْلَنَا وَمَا نَزَّلْنَاكَ إِلَّا لِّذِيكَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كٰذِبِينَ ﴾ .

ومن تلك الدروس أن الجمود على التقاليد الموروثة أكبر آفات العقل البشري؛ لأنها تعطل تفكيره، وتركه في حكم الآلة التي تسير على نهج واحد في آثار الآباء والأجداد، مع اختلاف الزمن، وتبدل الأحوال .

على أن في القرآن الكريم قصصاً شتى من غير قصص الدعوة، أو قصص الجهاد في تبليغ الرسالة، ولكنها تراد كذلك لعبرتها، ولا تراد لأخبارها التاريخية، ومنها قصة يوسف التي نحن بصدددها، فهي قصة إنسان قد تبرز من طفولته بآفات الطبائع البشرية، من: حسد الأخوة، إلى غواية المرأة، إلى ظلم السجن، إلى تكاليف الولاية، وتدبير المصالح في إبان الشدة والمجاعة .



سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١
 اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ
 الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ
 رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ٢ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْاسٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ
 جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٣
 وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ
 يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٤﴾

☆ اللفظة:

﴿عَمَدٍ﴾ = بفتحتين - وقد اضطربت أقوال علماء اللغة، فقال بعضهم:
 هو جمع عماد على غير قياس، والقياس أن يجمع على عمد بضم العين

والميم، وقيل: إن عمداً جمع عماد في المعنى، أي: أنه اسم جمع لا جمع صناعي، والذي في «القاموس» و«التاج»: العمود: ما يقوم عليه البيت وغيره، وقضيب الحديد، وجمعه أعمدة، وعمد، وعمُد. وقال بعضهم: والعَمَد جمع عمود، ولم يأت في كلام العرب على هذا الوزن إلا أحرف أربعة: أديم وأدم، وعمود وعمد، وأفق وأفق، وإهاب وأهب، وزاد الفراء خامساً: قضيم وقَضَم، يعني: الصكاك، والجلود.

﴿صِنَوَانٍ﴾: الصنو - بكسر الصاد وفتحها وضمها - نخلة لها رأسان، وأصلهما واحد، والاثنتان صِنوان، والجمع صِنوان بكسر الصاد فيهما. وفي «المختار»: إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد فكل واحدة منهن صنو، والاثنتان صِنوان، والجمع صِنوان. أي: فهو معرب. وفي «الأساس»: شجر صِنوان: من أصل واحد، وكل واحد صنو، ومن المجاز: هو شقيقه وصنوه. قال:

أتركني وأنتَ أخي وصِنوي فيا للناسِ للأمرِ العجيبِ

وركيَّانِ صِنوان: متقاربتان، وتصغيره: صُنِيٌّ. قالت ليلى الأخيلية:

أنايغَ لم تنبُغَ ولم تكِ أوْلاً وكنتِ صُنِيّاً بَيْنَ صُدَيْنِ مجهلا

أي: ركيماً مجهولاً بين جبلتين. وقال بعض اللغويين: والصنو: الفرع، يجمعه وفرعاً آخر أصل واحد، والمثل. وفي الحديث: «عم الرجل صنو أبيه» أي: مثله، أو لأنهما يجمعهما أصل واحد. والنخيل والنخل بمعنى واحد، والواحدة نخلة، قال:

ألاً يا نخلةً من ذات عرقٍ عليك ورحمة الله السَّلام

وعبارة أبي حيان:

الصنو: الفرع، يجمعه وآخر أصل واحد، وأصله: المثل. ومنه قيل للعم: صنو، وجمعه في لغة الحجاز صِنوان، بكسر الصاد، كقنو وقنوان، وبضمها في لغة تميم وقيس، كذئب وذؤبان، ويقال: صَنوان - بفتح الصاد - وهو اسم جمع، لا جمع تكسير؛ لأنه ليس من أبنيته. وقال: ونظير هذه

الكلمة: قنو وقنوان، ولا يوجد لهما ثالث.

﴿الْأَكْلُ﴾: بضم الكاف وسكونها. وفي «المصباح»: الأكل - بضميتين وإسكان الثاني للتخفيف -: المأكول.

○ الإعراب:

﴿الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ المر: تقدم إعرابها والقول فيها، وفي أوائل السور عموماً، واسم الإشارة مبتدأ، وآيات الكتاب خبر ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الواو عاطفة من عطف الجمل على الجمل، والذي مبتدأ، وجملة أنزل إليك صلة ومن ربك جار ومجرور متعلقان بأنزل أيضاً والحق خبر الذي، ولكن الواو حالية، ولكن حرف استدراك ونصب، وأكثر الناس اسمها، وجملة لا يؤمنون خبرها ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الله مبتدأ، والذي خبره، ويجوز أن يكون صفة، والخبر سيأتي، وجملة رفع السموات صلة، وبغير عمد هذا الجار والمجرور في محل نصب على الحال من السموات، أي: رفعها خالية من عمد، وجملة ترونها فيها وجهان: أولهما: أن تكون مستأنفة، ويكون الضمير عائداً على النون، أو نصباً على الحال من السموات، أي: مرئية لكم، ويجوز أن تكون صفة لعمد إذا كان الضمير عائداً إليها، والجملة كلها مستأنفة، مسوقة للشروع في ذكر دلائل العالم العلوي؛ تمهيداً لذكر دلائل العالم السفلي ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي، واستوى فعل ماض، وفاعل مستتر، وعلى العرش متعلقان باستوى، وسخر الشمس والقمر عطف على استوى، وكل مبتدأ، وتقدم الكلام في تسويغ الابتداء به، وجملة يجري خبر، ولأجل متعلقان بيجري، ومسمى صفة ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ الجملة مستأنفة، أو خبر لله على ما تقدم، ويدبر الأمر فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، ويفصل الآيات عطف، ولعل واسمها، وبلقاء ربكم متعلقان بتوقنون، وجملة توقنون خبر لعلكم ﴿وَهُوَ

الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴿١﴾ هو مبتدأ، والذي خبره، وجملة مَدَّ الأرض صلة، وجعل عطف على مَدَّ، وفيها متعلقان بجعل، ورواسي مفعول به، وأنهاراً عطف عليه ﴿٢﴾ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴿٣﴾ يجوز في هذا الجار والمجرور أن يتعلق بجعل بعده، والتقدير: وجعل فيها زوجين اثنين من كل الثمرات، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من اثنين؛ لأنه في الأصل صفة له، ويجوز أن يتم الكلام عند قوله من كل الثمرات، فيتعلق بجعل الأولى، والتقدير: أنه جعل في الأرض كذا وكذا، ومن كل الثمرات ويكون جعل الثاني مستأنفاً، وفيها متعلقان بجعل على كل حال، وزوجين مفعول جعل، واثنين صفة لزوجين ﴿٤﴾ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ ﴿٥﴾ الجملة مستأنفة، أو حال من فاعل الأفعال قبلها، والفاعل ليغشي مستتر، والليل مفعول أول، والنهار مفعول ثان، والمعنى يلبسه مكانه، فيصير أسود مدلهماً بعد ما كان أبيض منيراً، والأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي، ولذلك جعلناه المفعول الأول، وإن كان الكلام يحتمل الثاني ﴿٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧﴾ إن وخبرها المقدم، ولآيات اللام المزحلقة للتأكيد، وآيات اسم إن المؤخر، ولقوم صفة لآيات، وجملة يتفكرون صفة لقوم ﴿٨﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴿٩﴾ الواو عاطفة، وفي الأرض خبر مقدم، وقطع مبتدأ مؤخر، ومتجاورات صفة لقطع، أي: بقاع مختلفة متباينة مع كونها متجاورة ﴿١٠﴾ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴿١١﴾ وجنات عطف على قطع، ومن أعناب صفة وزرع ونخيل معطوفان أيضاً، وصنوان صفة لنخيل، وغير عطف، وصنوان مضاف إليه ﴿١٢﴾ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴿١٣﴾ جملة يسقى صفة لجنات وما بعدها، وبماء متعلقان يُسْقَى، وواحد صفة لماء، ونفضل بعضها فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، وعلى بعض متعلقان بنفضل، وفي الأكل حال من بعضها، أي: نفضل بعضها مأكولاً، أو: وفيه الأكل، ويجوز أن يتعلق بنفضل؛ لأنه ظرف له ﴿١٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ تقدم إعراب مثلتها قريباً.

□ البلاغة:

(١) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استعارة مكنية، أو تخيلية، حسب تعريف الأقدمين لها، فالمستعار الاستواء، والمستعار منه كل جسم مستو، والمستعار له الحق سبحانه؛ ليتخيل السامع عند سماع لفظ هذه الاستعارة مَلِكًا فرغ من ترتيب ممالكه، وتشديد ملكه، وجميع ما تحتاج إليه رعاياه وجنده من عمارة بلاده، وتدبير أحوال عبادته، استوى على سرير ملكه استواء عظمة، فيقيس السامع ما غاب عن حسه من أمر الإلهية على ما هي متخيلة، ولها لا يقع ذكر الاستواء على العرش إلا بعد الفراغ من خلق السموات والأرض وما بينهما، وإن لم يكن ثمة سرير منصوب، ولا جلوس محسوس، ولا استواء، على ما يدل عليه الظاهر من تعريف هيئة مخصوصة.

(٢) وفي قوله تعالى: ﴿يَغْيِرُ عَمَدٍ تَرْوَنَهَا﴾ فن رفيع تقدم ذكره، وهو: نفي الشيء بإيجابه، أي: رفع السموات خالية من العمدة، فالوجه انتفاء العمدة والرؤية جميعاً، فلا رؤية ولا عمدة.

وقد أثارَت هذه الآية في النفس موضوع غزو القمر، وكيف ارتاد الإنسان الفضاء، ورأى عجائب صنع الله، وشهد الأرض معلقة، والقمر معلقاً، وكذلك الكواكب، والنجوم الأخرى معلقان بغير سناد يسندها، ولا عمدة تقوم عليها، مصداقاً لقول الله: ﴿يَغْيِرُ عَمَدٍ تَرْوَنَهَا﴾

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ لَمْ يَلَفْ خَلَقِ جَدِيدٌ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١٠ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ

أَلَمْ تُكَلِّمُوا وَلَدَكُمْ لَمَّا طَغَى الْمَاءُ إِنَّمَا يَنْتَظِرُ الْبَاقِيَ
الْعِقَابُ ﴿١٠﴾

☆ اللفظة:

﴿أَلَمْ تُكَلِّمُوا﴾: جمع مثلة - بفتح الميم وضم الشاء - وفي «القاموس»: المثلة العقوبة، وما أصاب القرون الماضية من العذاب، وهي عبر يعتبر بها، وشرحها الزمخشري شرحاً لطيفاً فقال: المثلة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة. وقال غيره: المثلة: نقمة تنزل بالإنسان، فيجعل مثلاً يرتدع غيره به. وقال ابن الأنباري: المثلة كسمرة، العقوبة التي تبقى في المعاقب شيئاً بتغيير بعض خلقه، من قولهم: مثل فلان بفلان؛ إذا شان خلقه بقطع أنفه، وسمل عينيه، وبقر بطنه.

○ الإعراب:

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ الواو استئنافية، وإن شرطية، وتعجب فعل الشرط، وفاعله مستتر تقديره: أنت يا محمد، والفاء رابطة، وعجب خبر مقدم، وقولهم مبتدأ مؤخر، وجملة فعجب قولهم في محل جزم جواب الشرط الجازم ﴿أَءَاذًا كُنَّا تَرْبَاءً نَأْتِي خَلْقَ جَدِيدٍ﴾ هذه الجملة مقول للقول، ولك أن تعربها بدلاً منه، والهمزة للاستفهام الإنكاري، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه ومتعلق بجوابه، وهو مدلول قوله «أئنا لفي خلق جديد» والتقدير: نبعث، أو نحشر. واختار أبو حيان أن تكون إذا متمحضة للظرف، وليس فيها معنى للشرط، فالعامل فيها محذوف يفسره ما يدل عليه الجملة الثانية، وتقريره: أنبعث، أو أنحشر، وكنا كان واسمها وترباً خبرها، أئنا الهمزة للاستفهام الإنكاري، وأن واسمها، واللام المرحلة، وفي خلق خبر إن، وجديد صفة لخلق ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أولئك مبتدأ، والذين خبره، وجملة كفروا صلة، ويربهم متعلقان بكفروا ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ الواو عاطفة، وأولئك مبتدأ،

والأغلال مبتدأ ثان، وفي أعناقهم خبر الأغلال، والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول، والأغلال جمع غل، وهو: طوق من حديد يُجعل في العنق ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الواو عاطفة أيضاً، وأولئك مبتدأ، وأصحاب النار خبره، وهم مبتدأ، وفيها متعلقان بخالدون، وخالدون خبرهم، وجملة هم فيها خالدون خبر ثان لأولئك، أو حال ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الواو عاطفة، ويستعجلونك فعل وفاعل ومفعول به، وبالسَّيِّئَةِ متعلقان يستعجلونك؛ لأنه ظرف للاستعجال ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُثَلَّثُ﴾ الواو للحال، وقد حرف تحقيق، وخلت فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة للالتقاء الساكنين، ومن قبلهم متعلقان بخلت، والمثلاث فاعل خلت ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ الواو للحال أيضاً، وإن واسمها، واللام المزحلقة، وذو مغفرة خبر إن، وللناس جار ومجرور متعلقان بمغفرة، وعلى ظلمهم حال من الناس، والعامل فيها مغفرة؛ لأنه العامل في صاحبها، والمعنى: ظالمين لأنفسهم، ومعنى على هنا المصاحبة، أي: ك: مع ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الواو عاطفة، وإن واسمها، واللام المزحلقة، وشديد العقاب خبرها.

* الفوائد:

في هذه الآية فن من فنون العرب في كلامهم، وهو القلب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ﴾ لأن الأعناق هي التي تكون في الأغلال، ولا عكس، ومنه قول رؤبة:

وَمَهْمَهُ مُغَبَّرَةٌ أَرْجَاؤُهُ كَأَنَّ لَوْنَ أَرْضِهِ سَمَاؤُهُ

أي: كأن لون سمائه لون أرضه، فعكس التشبيه مبالغة، وحذف المضاف.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ

قَوْمٍ هَادٍ ۖ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ
وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۚ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۚ
سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَن أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَن هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ
بِالنَّهَارِ ۚ لَهُمُ مَعْقِبَتٌ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّن أَمْرِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بَأْنَفُسِهِمْ ۚ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم
مِّن دُونِهِ مِن وَّالٍ ۚ ﴿١١﴾

☆ اللغة:

﴿الْأَرْحَامُ﴾: جمع رحم - بفتح الراء وكسر الحاء، وبكسر الراء
وسكون الحاء -: مستودع الجنين في أحشاء الحبلَى، وهي مؤنثة، والرحم
أيضاً القرابة، والمراد هنا الأول.

﴿وَسَارِبٌ﴾: ذاهب في سربه - بالفتح - أي: في طريقه ووجهه. يقال:
سرب في الأرض سروباً وفي «المصباح»: سرب في الأرض سروباً، من
باب: قعد، ذهب، وسرب الماء سروباً: جرى، وسرب المال سرباً: رعي
نهاراً بغير راع، فهو سارب: وسرب تسمية بالمصدر، والسرب أيضاً:
الطريق، ومنه يقال: خل سربه، أي: طريقه. والسرب - بالكسر -:
النفس، وهو واسع السرب، أي: رخي البال. ويقال: واسع الصدر، بطيء
الغضب. والسَّرْب - بفتحيتين -: بيت في الأرض لا منفذ له، وهو الوكر.

﴿مُعَقَّبَتٌ﴾: فيها احتمالان: أحدهما أن يكون جمع معقبة، بمعنى
معقب، والتاء للمبالغة، كعلامة، ونسابة، أي: ملك معقب، ثم جمع هذا
كعلامات، ونسابات. والثاني أن يكون جمع معقبة، صفة لجماعة، ثم
جمع هذا الوصف، كجمل وجمال وجماليات. وقال الزمخشري: وقيل:
المعقبات: الحرس والجلالوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه،
وتقديره: من أمر الله، أي: من قضاياه ونوازله، أو على التهكم به.

○ الإعراب:

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ الواو استئنافية، ويقول الذين فعل وفاعل، وعدل عن الإضمار إلى الموصول ذماً لهم بكفرهم بآيات الله، وجملة كفروا صلة، ولولا حرف تحضيض بمعنى هلا، وأنزل فعل ماض مبني للمجهول، وعليه متعلقان بأنزل، وآية نائب فاعل، ومن ربه صفة لآية ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ إنما كافة ومكفوفة، وأنت مبتدأ، ومنذر خبر، ولكل خبر مقدم، وقوم مضاف إليه، وهاد مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ﴾ الله مبتدأ، وجملة يعلم خبر، وفاعل يعلم مستتر تقديره: هو، وما تحتمل ثلاثة أوجه متساوية: أحدها: أن تكون موصولة في محل نصب مفعول يعلم، وجملة تحمِل كل أنثى صلة، والعائد محذوف، أي: تحمله. والثاني: أن تكون مصدرية، وهي مع مدخولها مفعول يعلم، فالجملة بعدها لا محل لها، ولا حاجة إلى العائد. والثالث: أن تكون استفهامية إما مبتدأ، وجملة تحمِل خبر، والجملة معلقة للعلم، وإما مفعول مقدم لتحمل ﴿ وَمَا يَفِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ عطف على الجملة السابقة، وتسري على «ما» الأوجه المتقدمة، وغاض وزاد يستعملان متعديين ولازمين، ومعنى غيض الأرحام وازديادها أفاض فيه المفسرون، وخلاصته: أن المراد به غذاء الولد في الرحم، فإذا خرج الدم نقص الغذاء، فينقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد وينمو، وقيل: ما يتعلق بمدة الحمل. والرجوع لمعرفة التفاصيل إلى المطولات أولى ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ كل مبتدأ، وشيء مضاف إليه، وعنده ظرف متعلق بمحذوف صفة لشيء، أو لكل، وبمقدار خبر، والمراد بالعندية: العلم بكمية كل شيء وكيفيته على الوجه المفصل المبين، أو العلم بوقت كل شيء وحالته المعينة ﴿ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ عالم الغيب خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو، والغيب مضاف إليه، والشهادة عطف، والكبير خبر ثان للمبتدأ المحذوف، والمتعال خبر

ثالث، ورسمت بغير ياء؛ لأنها رأس آية، ولولا ذلك لكان الجيد إثباتها ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ يجوز في سواء أن تكون خبراً مقدماً، ومنكم حال من ضميره، ومن موصول مبتدأ مؤخر، وهو في الأصل مصدر بمعنى مستو، وقد تقدم القول فيه في البقرة، ويجوز أن تكون مبتدأ، ومنكم صفة، ومن خبر، وجملة أسر القول صلة، أي: أخفاه في نفسه، ومن جهر به عطف على من أسر القول ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِالْأَيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ومن عطف على من السابقة، وهو مبتدأ، ومستخف خبر، والجملة الاسمية صلة، وبالليل جار ومجرور متعلقان بمستخف، وسارب عطف على مستخف، وبالنهار متعلقان بسارب، وقياس الكلام: ومن هو سارب، والسر فيه أن الموصول حذف، وصلته باقية، والمعنى: ومن هو مستخف بالليل، ومن هو سارب بالنهار، وحذف الموصول المعطوف، وبقاء صلته، شائع؛ خصوصاً وقد تكرر الموصول في الآية ثلاثاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَذْرَى مَا يُفْعَلُ فِي وَلَا يَكْمُرُ﴾ الأصل: ولا ما يفعل بكم، وإلا كان حرف النفي دخيلاً في غير موضعه؛ لأن الجملة الثانية لو قدرت داخله في صلة الأول بواسطة العاطف لم يكن للنهي موقع، وإنما صحب في الأول الموصول لا الصلة، ومنه قوله حسان:

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ

أي: ومن يمدحه وينصره سواء.

﴿لَمْ تُعْقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ له خبر مقدم، والضمير مردود على «من»؛ كأنه قيل: لمن أسر ومن جهر ومن استخفى ومن سرب معقبات، ومعقبات مبتدأ مؤخر، ومن بين يديه صفة لمعقبات، أو متعلقان بمعقبات نفسها، ومن خلفه عطف على من بين يديه، وجملة يحفظونه صفة لمعقبات أيضاً، ومن أمر الله متعلقان يحفظونه، وتقدم القول في المراد بالمعقبات في باب: اللغة، ومعنى يحفظونه من أمر الله، أي: مما أمر هو به؛ لأنهم لا يقدر أن يدفعوا أمر الله، قال ابن الأنباري:

وفي هذا قول آخر، وهو أن من بمعنى الباء، أي: يحفظونه بأمر الله، وقيل: إن من بمعنى عن، أي: يحفظونه عن أمر الله، بمعنى: من عند الله لا من عند أنفسهم، كقوله: ﴿أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ﴾ أي: عن جوع. وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب، وقيل: يحفظونه من الجن، واختار ابن جرير أن المعقبات: المواكب بين أيدي الأمراء، على معنى أن ذلك لا يدفع عنه القضاء.

وعبارة الفراء: في هذا قولان: أحدهما: أنه على التقديم والتأخير، تقديره: له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، والثاني: أن كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ إن واسمها، وجملة لا يغير خبرها، وفاعل يغير عائد على الله، وما موصول مفعول يغير، ويقوم صلة، وحتى حرف غاية وجر، ويغيروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، وما مفعول به، وبأنفسهم صلة ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُمْ﴾ الواو عاطفة، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه منصوب بجوابه، وجملة أَرَادَ الله مضاف إليها، ويقوم متعلقان بأَرَادَ، والفاء رابطة، ولا نافية للجنس، ومرد اسمها، وله خبرها ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ﴾ من والي الواو عاطفة، وما نافية، ولهم خبر مقدم، ومن دونه حال، ومن زائدة، ووال مجرور لفظاً مرفوع محلاً؛ لأنه مبتدأ مؤخر.

□ البلاغة:

(١) الطباق في قوله: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي: ما تنقص وتزيد.

(٢) المبالغة أو الإفراط في الصفة على اختلاف في التسمية، والأولى لقدامة، أو الثانية لابن المعتز، والناس على تسمية قدامة، وعرفها قدامة فقال: هي أن يذكر المتكلم حالاً لو وقف عندها لأجزأت، فلا يقف عندها

حتى يزيد في معنى كلامه ما يكون أبلغ في معنى قصده، وهي أقسام عديدة: نوردها مختصرة فيما يلي:

آ- المبالغة في الصفة المعدولة عن الجارية بمعنى المبالغة، وقد جاءت على ستة أمثلة: فعلان كرحمن، عدل عن راحم للمبالغة، كما تقدم في البسمة، ولا يوصف به إلا الله تعالى، ولم تنعت العرب به أحداً في جاهلية ولا إسلام إلا مسيلمة الكذاب، نعتوه به، فقال شاعرهم:

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أباً فأنت غيث الورى لا زلت رحمانا
فأما الرحمن فلم يوصف به إلا الله .

وفعال كقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ .

وفعول: كغفور، وشكور، وودود.

وفعيل: كعليم، وحكيم، وسميع.

ومفعّل: كمدعس - كمنبر -: الرمح يدعس به، أي: يطعن، كما في «تاج العروس».

ومفعّال: كمطعام، ومقدام.

ب - ما جاء بالصيغة العامة موضع الخاصة، كقولك: أتاني الناس كلهم، ولم يكن أذاك إلا واحد منهم، أردت تعظيمه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّي الضَّارُّونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فوعدهم سبحانه بجزاء غير مقدر؛ لإخراج العبارة مخرجاً عاماً؛ لتردد الأذهان في مقدار الثواب.

ج - إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ فجعل مجيء آياته مجيئاً له سبحانه.

د - إخراج الممكن من الشرط إلى الممتنع؛ ليمتنع وقوع المشروط؛ كقوله تعالى في سورة الأعراف، وقد تقدم: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَوْءِ الْخِيَاطِ﴾ .

هـ - ما جرى مجرى الحقيقة وقد كان مجازاً، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَآ

بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿١٠﴾ فَإِنْ اقتران هذه الجملة بيكاد يصرفها إلى الحقيقة ، فانقلبت من الامتناع إلى الإمكان .

وهذه مبالغة ظاهرة في جميع هذه الأقسام على أن هناك مبالغة مدمجة ، وهي قوله تعالى في الآية التي نحن بصدددها وهي : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ فَإِنْ مبالغة هذه الآية جاءت مدمجة في المقابلة .

وسياتي مزيد من المبالغة وأقسامها في مواضع متفرقة من هذا الكتاب .

□ الفوائد :

يكاد المفسرون يجمعون على أن هذه الآية تدل على أنه إذا عاش قوم في نعمة فإن الله لا يغيرها عنهم ؛ إلا إذا عصوا ربهم ، وظلم بعضهم بعضاً ، ولازم هذا التفسير أن النعمة تدوم وتزداد بالشكر والطاعة ، وأنها تزول بالجحود والطغيان ، وكان وما زال في النفس شيء من هذا التفسير لأمر :

أولها : أننا نرى المحتكرين والمستثمرين كلما نشطوا في الطغيان والسلب والنهب ، كثرت أموالهم ، وربت .

وثانيها : أن هذا التفسير يتنافى مع قول الله تعالى في الآية الثالثة والثلاثين من سورة الزخرف : ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لُتُفْقًا مِنْ فَضْلِهِ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ ١٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ١٤ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ١٥ إِذْنِ فَالسَّعَةِ فِي الرِّزْقِ لَا تَدُلُّ عَلَى رِضَا اللَّهِ ، كما أن الضيق لا يشعر بغضبه ؛ لأنه لا يجزي الشاكرين بالذهب والفضة ، ولا يعاقب العاصين بالحرمان منهما بل الأمر بالعكس ، فقد جاء في القرآن الكريم أن الله يعاقب الجاحدين بكثرة الأموال : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

وثالثها: أنه متناف مع ما هو ماثور ومتعالم من أن المؤمن مبتلى وممتحن .

ولعل خير تفسير تتحمله الآية هو أن يقال: إن المرء الذي يثور أولاً على نفسه فيصلحها، إنما هو المصلح الحقيقي، وعلى ما ورث من تقاليد ونظم ربما كانت فاسدة، أو على ما أفسده الزمان فيصلحه هو، الذي يصح أن يكون معنياً بهذه الآية التي تكمن فيها روح الشجاعة والثورة على فساد العادات والتقاليد، وفساد العقائد والمبادئ، وعلى الفقر والجهل، وعلى الاستعمار والإقطاع، كما تكمن فيها روح الثورة على الذين يبنون قصوراً من عرق الكادحين، ويعدون سيارات من دموع المنكوبين .

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۚ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ۚ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغِهِ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۚ ﴾

☆ اللفظة:

﴿ السَّحَابَ ﴾: الغيم المنسحب في الهواء، والسحاب: اسم جنس واحده سحابة، فلذلك وصف بالجمع، وهو الثقال: جمع ثقيلة، ويفهم من كلام صاحب القاموس أنه جمع سحابة، قال: والسحابة: الغيم، والجمع سحاب، وسحائب، وسحب .

﴿ الْمِحَالِ ﴾: المماحلة، وهي: شدة المماكرة والمكايدة، ومنه: تمحل لكذا؛ إذا تكلف استعمال الحيلة، واجتهد فيه . ومحل بفلان إذا كاده، وسعى به إلى السلطان .؟ ومنه الحديث: «ولا تجعله علينا ما حلاً مصداقاً» .

وقال الأعشى :

فَرَعَ نَبْعٌ يَهْشُ فِي غُصْنِ الْمَجْدِ دَغْزِيرِ النَّدى شَدِيدِ الْمَحَالِ
ولعل أصله المحل بمعنى القحط ، وقيل : فعل من المحل بمعنى القوة ،
فالميم أصلية ، وقيل : أصله مفعول من الحول ، أو الحيلة ، أعل على غير
قياس . وفي «القاموس» : والمحال ككتاب الكيد ، وروم الأمر بالحيل ،
والتدبير ، والقدرة ، والجدال ، والعذاب ، والعقاب ، والعداوة ،
والمعاداة ، كالماحلة ، والقوة ، والشدة ، والهلاك ، والإهلاك ، ومحل به
مثلث الحاء محلاً ومحالاً : كاده بسعاية إلى السلطان ، وماحله مباحلة
ومحالاً : قاواه حتى يتبين أيهما أشد . وفي «الأساس» : وماحله كايده ، وهو
شديد المحال ، ورجل متماحل : فاحش الطول ، وبلد متماحل : بعيد ، قال
يصف فرساً :

مِنَ الْمُسْبِطَرَاتِ الْجِيَادِ طِمْرَةٌ
لَجُوجٌ هَوَاهَا السَّبْسَبُ الْمُتَمَاحِلُ

وقال آخر يصف بعيراً :

بَعِيدٌ مِنَ الْحَادِي إِذَا مَا تَدَفَّعَتْ

بَنَاتُ الصُّوَى فِي السَّبْسَبِ الْمُتَمَاحِلِ

وقال الزجاج يقال : ما حلته محالاً : إذا قوته حتى يتبين أيكما أشد ،
وقال ابن قتيبة : أي : شديد الكيد ، وأصله : من الحيلة ، جعل الميم كميم
المكان ، وأصله من الكون . قال الأزهري : غلط ابن قتيبة أن الميم فيه
زائدة ، بل هي أصلية ، وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسور
فهي أصلية ، مثل مهاد ، وملاك ، ومراس .

○ الإعراب :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ هو
مبتدأ ، والذي خبره ، ويريكُم البرق فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعولاه ،

والجملة صلة، وخوفاً وطمعاً اختلف في نصبهما، ف قيل : على المصدرية، أي : لتخافوا خوفاً، ولتطعموا طمعاً. وقيل : هما حالان من الكاف في يريكم، أي : حال كونكم خائفين وطامعين، ويجوز أن يكونا مفعولاً لهما. واختاره أبو البقاء، ومنعه الزمخشري، ونص عبارته : لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما؛ لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلن، إلا على تقدير حذف المضاف، أي : إرادة خوف وطمع، أو على معنى إخافة وإطماعاً، ويجوز أن يكونا متصيين على الحال من البرق، كأنه في نفسه خوف وطمع، أو على ذا خوف وذا طمع، أو من المخاطبين، أي : خائفين وطامعين، ومعنى الخوف والطمع أن وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق ويطمع في الغيث، قال أبو الطيب :

فَتَى كَالسَّحَابِ الْجُونِ يُخْشَى وَيُزْتَجَى

يُرْجَى الْحَيَا مِنْهَا وَتُخْشَى الصَّوَاعِقُ

على أن منع الزمخشري فيه تعسف، ويمكن أن يكونا مفعولاً لهما، على أن المفعول له في مثل هذا الفعل فاعل في المعنى؛ لأنه إذا أراهم فقد رأوا، والأصل : وهو الذي يريكم البرق فترونه خوفاً وطمعاً، أي : ترقبونه وتترأونه تارة لأجل الخوف، وتارة لأجل الطمع. وينشئ السحاب عطف، والسحاب مفعول به، والثقال صفة للسحاب ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ عطف على ما تقدم، ويسبح الرعد فعل مضارع وفاعل، وبحمده في موضع نصب على الحال، وفي هذه الباء خلاف ترى بحثاً عنه في باب الفوائد، والملائكة عطف على الرعد، أي : ويسبح الملائكة من هيئته وإجلاله، فهو متعلق بيسبح، ولك أن تنصبه على الحال، أي : هائبين وخائفين ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ويرسل الصواعق عطف على ما تقدم فيصيب عطف أيضاً، وبها متعلقان بيصيب، ومن مفعول به ليصيب، وجملة يشاء صلة ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ الواو استئنافية أو حالية وهم مبتدأ وجملة يجادلون خبر،

وفي الله متعلقان بيجادلون، والواو حالية، وهو مبتدأ، وشديد المحال : خبره، والجملة حالية ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ له خبر مقدم، ودعوة الحق مبتدأ مؤخر، وهي من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: لدعوة الحق المطابقة للواقع ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ والذين مبتدأ، وجملة يدعون صلة، والضمير في يدعون عائد على الكفار، والعائد على الذين محذوف، أي: يدعونهم ويؤيده قراءة من قرأ تدعون بالتاء في تدعون، وقيل: الذين، أي: الكفار الذين يدعون، ومفعول يدعون محذوف، أي: يدعون الأصنام، والعائد على الذين الواو في يدعون، والواو في «ولا يستجيبون» عائد في هذا القول على مفعول يدعون المحذوف، وعلى القول الأول على الذين، ومن دونه حال، وجملة لا يستجيبون خبر، ولهم متعلقان يستجيبون، وكذلك بشيء ﴿إِلَّا كَبَسُطَ كَفْتَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغٍ﴾ إلا أداة حصر، وكباسط متعلق بمحذوف نعت لمصدر محذوف، أي: إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه، وكفيه مضاف لباسط، وإلى الماء جار ومجرور متعلقان بباسط، وليبلغ اللام للتعليل، ويبلغ مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بباسط، وفاه مفعول به، وعلامة نصبه الألف؛ لأنه من الأسماء الخمسة، وفاعل يبلغ ضمير الماء، والواو حالية، وما نافية حجازية، وهو اسمها، واختلف في هذا الضمير فقيل: إنه ضمير الماء، والهاء في «ببالغه» للفم، وقيل: إنه ضمير الفم، والهاء في ببالغه للماء، وقيل: إنه ضمير لباسط، والهاء في «ببالغه» للماء، و«ببالغه»: الباء حرف جر زائد، وبالغه مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه خبر ما ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ الواو حالية، أو استثنائية، وما نافية، ودعاء الكافرين مبتدأ، وإلا أداة حصر، وفي ضلال خبر.

□ البلاغة:

(١) في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أُنْفُسَكُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فن رائع من فنون البلاغة، وهو: «صحة الأقسام» ويمكن تحديده بأنه عبارة عن

استيفاء المعنى من جميع أقسامه ووجوهه، بحيث لا يغادر المتكلم منها شيئاً، ففي الآية المذكورة استوفي قسمي رؤية البرق، إذ ليس فيها إلا الخوف من الصواعق، والطمع في الأمطار، كما ألمعنا في الإعراب، ولا ثالث لهذين القسمين، ولكن مجرد استيفاء الأقسام لا يعتبر بياناً، بل هناك أمر أبعد من ذلك، وأدق، وأبعد منالاً، وهذا الأمر هو تقديم ما هو أولى بالذكر، وأجدر بالتقديم، وفي الآية قدم الخوف على الطمع إذ كانت الصواعق يجوز وقوعها من أول برقة، ولا يحصل المطر إلا بعد تواتر الإبراق؛ لأن تواتره لا يكاد يخلف، ولهذا كانت العرب تعد سبعين برقة وتتجمع فلا تخطيء الغيث والكلأ، وقد رمق أبو الطيب سماء هذه البلاغة العالية فقال:

وَقَدْ أَرَدُ الْمِيَاهَ بِغَيْرِ هَادٍ سِوَى عَدِّي لَهَا بَرْقَ الْغَمَامِ

يقول: لا أحتاج في ورود الماء إلى دليل يدلني سوى أن أعد برق الغمام، فأتبعه كعادة العرب في عدّها بروق الغمام، قال ابن السكيت: العرب إذا عدت مئة برقة لم تشك في أنها ماطرة قد سقت، فتتبعها على الثقة بالمطر. وقال ابن الأعرابي في «النوادر»: العرب كانوا إذا لاح البرق عدوا سبعين برقة، فإذا كملت وثقوا بأنه برق ماطر، فرحلوا يطلبون موضع الغيث، وأنشد عمر بن الأعرور:

سقى الله جيراناً حمدت جوارهم

كراماً إذا عُذُّوا وفوقَ كرام

يعذُّون برقَ المزن في كلِّ مهمه

فما رزقهم إلا بروقَ غمام

ولما كان الأمر المخوف من البرق يجوز وقوعه من أول برقة واحدة، أتى ذكر الخوف في الآية مقدماً أولاً؛ لكون الواحد أول العدد، ولما كان الأمر المطمع من البروق إنما يقع بعد عدد من الأبراق، أتى ذكر الطمع تالياً، لكونه لا يقع إلا في أثناء العدد، وليكون الطمع ناسخاً للخوف، كمجيء الرخاء

بعد الشدة، والفرج بعد الكربة، والمسرة بعد الحزن، فيكون ذلك أحلى موقعاً في القلوب، ويشهد لهذا التفسير قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ فجاء معنى الآية على ما جاء رحمة من الله سبحانه بخلقه، وبشرى لعباده.

المؤاخاة بين المعاني والمؤاخاة بين المباني:

وحيث وصلنا إلى هذا المدى من ترتيب الأقسام، يجدر بنا أن نتحدث عن المؤاخاة بين المعاني والمؤاخاة بين المباني، وأنها سرّ البيان ونسمة الروح فيه، وقد أخذوا على أبي الطيب قوله على أنه آية في الحسن والروعة:

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرَدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمٍ

فإن المقابلة الصحيحة بين المحب والمبغض، لا بين المحب والمجرم، وليس كل من أجرم إليك كان مبغضاً لك.

وروى أبو الفرج في الأغاني أنه اجتمع نصيبٌ والكميت وذو الرمة فأنشد

الكميت:

أَمْ هَلْ ظَعَائِنَ بِالْعِلْيَاءِ رَافِعَةٌ

وإن تكاملَ فيها الدَّلُّ والشَّنْبُ

فعقد نصيب واحدة، فقال له الكميت: ماذا تحصي؟ قال: خطأك، فإنك تباعدت في القول، أين الدل من الشنب؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة:

لَمِيَاءُ فِي شَفْتَيْهَا حُوءٌ لَعَسَ

وَفِي اللَّثَاثِ وَفِي أُنْيَابِهَا شَنْبُ

وهذا موضع دقيق - كما قلنا - يتورط فيه أرباب النظم والنثر كثيراً، وهو مظنة الغلط؛ لأنه يحتاج إلى شفاف طبع، وثقوب نظر. وقد وقع الخطأ لأبي نواس في قوله في وصف الديك، وهي أرجوزة سنوردها في باب: الفوائد لملاحظتها وندرتها؛ ولأن الدواوين الموجودة بين أيدينا أوردتها خطأ، قال:

لَهُ اعْتِدَالٌ وَانْتِصَابٌ قَدْ وَجَلَدُهُ يَشْبَهُ وَشْيَ الْبَرْدِ

كَأَنَّهُا هُذَابٌ فِي الْفَرْنَدِ محدودب الظهر كريم الجد
فإن ذكر الظهر من جملة الخلق والجد من النسب، وكان ينبغي أن يذكر مع
الظهر ما يقرب منه، ويؤاخيه أيضاً، وسيرد من أمثلة هذا الفن في كتابنا الشيء
الكثير.

(٢) وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ
كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ تشبيه تمثيلي رائع، فقد شبه دعوة الكفار
للآلهة ليستجيبوا لهم، ثم صمم الآلهة وجودها وعدم استجابتها، وهذا هو
المشبه المركب بمن يبسط كفيه إلى الماء ليلبغ فاه، وهو بعيد عنه، ثم يبالغ في
الدعوة، ويحملة الهوس على الرجاء من الماء أن يستجيب، وهو جماد
لا يشعر، فهذا هو المشبه به. وقيل: شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم
بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه، فبسطها ناشراً أصابعه، فلم تلق كفاه منه
شيئاً، ولم يبلغ طلبته وشربته.

وقال أبو عبيدة: أي: كالقابض على الماء ليس على شيء. قال: والعرب
تضرب المثل في الساعي فيما لا يدركه بالقابض على الماء، وأنشد سيبويه:

فأصبحت فيما كان بيني وبينها

من الودّ مثل القابض الماء باليد

وقال آخر:

وإني وإياكم وشوقاً إليكم كقابض ماء لم تطعه أنامله

وقال آخر:

ومن يأمّن الدنيا يكن مثل قابضٍ على الماء خائنه فروج الأصابع

* الفوائد:

(١) خلاف حول الباء:

اختلف النحاة والمعرّبون في الباء من قوله تعالى: ﴿وَيَسِيحُ الرّعدُ
بِحَمْدِهِ﴾ فقليل: هي للمصاحبة، أو الملابس، أو باء الحال، أي: يسبحه

حامداً له، أي: ينزهه عما لا يليق به، ويثبت له ما يليق به، وضابط هذه الباء أن يغني عنها، وعن مصحوبها الحال، كما رأيت. أو يحسن في موضعها «مع». وقيل: هي للاستعانة، أي: يسبحه بما حمد به نفسه، فيكون الحمد مضافاً إلى الفاعل، أما في الأولى فهو مضاف إلى المفعول ومن العجيب أن ابن خالويه النحوي أعربها في كتابه: «إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم» عند إعرابه: ﴿فَسَيَحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أعربها زائدة، ولا أدري كيف استساغ ذلك ومواضع زيادة الباء معروفة، وهي هنا ليست واحدة منها.

سبحانك اللهم وبحمدك:

قال ابن هشام في «مغني اللبيب»: واختلف في «سبحانك اللهم وبحمدك» فقيل: جملة واحدة، وليس مراد المغني الخلاف في الباء، بل في الواو، على أن الواو زائدة، وقيل: جملتان على أنها عاطفة، ومتعلق الباء محذوف، أي: بحمدك سبحتك لا بحولي وقوتي، يريد: أنه مما أقيم فيه المسبب مقام السبب.

٢ - قصيدة أبي نواس في وصف الديك:

وعدنك بإثبات أرجوزة أبي نواس في وصف الديك، وبرأ بالوعد تثبتها كما رأينا، وخلافاً لما وردت عليه في الدواوين:

أُنْعَتْ دِيكاً مِنْ دُيُوكِ الْهِنْدِ	أَحْسَنَ مِنْ طَاوُوسِ قَطْرِ الْمَهْدِي
أَسْجَعُ مِنْ عَادِي عَرِينِ الْأَسَدِ	تَرَى الدَّجَاجَ حَوْلَهُ كَالْجُنْدِ
يَقْعِينُ مِنْهُ خَيْفَةً لِلْسُّفْدِ	لَهُ سِقَاعُ كَدُويِّ الرَّعْدِ
مَنْقَارُهُ كَالْمَعُولِ الْمُحَدِّ	يَقْهَرُ مَا نَاقَرَهُ بِالتَّقْدِ
عَيْنَاهُ مِنْهُ فِي الْقَفَا وَالْخَدِّ	ذُو هَامَةٍ وَعَنْقُ كَالْوَرْدِ
وَجِلْدُهُ تَشْبَهُ وَشِي الْبَرْدِ	ظَاهِرُهَا زَفُّ شَدِيدِ الْوَقْدِ
كَأَنَّهُ الْهَدَّابُ فِي الْفَرْنِ	مُضْمَرُ الْخَلْقِ عَمِيمِ الْقَدِّ
لَهُ اعْتِدَالٌ وَانْتِصَابٌ قَدْ	مَحْدُودُ الظَّهْرِ كَرِيمِ الْجَدِّ

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١٥﴾
 قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ
 نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا
 لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝١٦
 أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ
 عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيقَةٍ أَوْ مَتَعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ
 فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝١٧
 لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا
 الْهَادُونَ ۝١٨﴾

☆ النِّقَاطُ:

﴿بِالْغُدُوِّ﴾ جمع غُدوة - بضم الغين - وتجمع أيضاً على غُدَى، والغداة بفتح الغين، وتجمع على غدوات والغدِية، وتجمع على غدايات وغديات: البكرة، أو ما بين الفجر وطلوع الشمس.

﴿وَالْآصَالِ﴾ جمع الأصيل، وهو: الوقت بين العصر والمغرب، ويجمع أيضاً على أصال، وأصائل، وأصل، وأصلان.

﴿احْتَمَلَ﴾: أي: حمل، فافتعل بمعنى المجرد، أو هو بمعنى المطاوع، كما يفهم من عبارة «الأساس»: وحملت الشيء، وحملني غيره، فاحتملته، وتحملته. ومن المجاز: حَمَلْتُ أدلاله عليّ واحتملته، قال:

أَدَلَّتْ فَلَمْ أَحْمِلْ وَقَالَتْ فَلَمْ أُجِبْ

لَعَمْرُ أَبِيهَا إِنَّنِي لَطَلُّومٌ

﴿زَبَدًا﴾: الزبد: وضر الغليان، والوضر - بفتحيتين وبالضاد المعجمة -: وسخ الدسم ونحوه، وعبارة الخازن: الزبد ما يعلو على وجه الماء عند الزيادة كالحب، وكذلك ما يعلو على القدر عند غليانها. والمعنى: فاحتمل السيل الذي حدث من ذلك الماء زبدًا رايياً، أي: عالياً مرتفعاً فوق الماء طافياً عليها. وفي «القاموس»: الزبد ما يعلو على وجه الماء ونحوه من الرغوة، ومن معانيه: الحبث، ومنه المثل: «صَرَخَ المخض عن الزبد» يعنون بالزبد رغبة اللبن، يضرب للصدق يحصل بعد الخبر المظنون.

﴿جُفَاءً﴾ قال ابن الأنباري: الجفاء: المتفرق، يقال: جفأت الريح السحاب، أي: قطعتة ومزقتة، وقيل: الجفاء ما يرمي به السيل، يقال: جفأت القدر بزبدها تجفأ من باب: قطع، وجفأ السيل بزبده، وأجفل باللام، وفي همزة جفاء وجهان: أظهرهما: أنها أصل لوجودها في تصاريق هذه المادة، والثاني: أنها بدل من واو. وقال في «الأساس»: ذهب الزبد جفاء، أي: مدفوعاً مرمياً به قد جفأ الوادي إلى جنباته، ويقال: جفأت القدر بزبدها، ومرّ جفاء من العسكر إلى البيات، أي: جماعة معتزة من معظمه، وتقول: سامه جفاء، ونبذه جفاء: إذا عزله عن صحبته.

وحكى أبو عبيدة أنه سمع روبة يقرأ جفلاً، قال أبو عبيدة يقال: أجفلت القدر؛ إذا قذفت بزبدها، وأجفلت الريح السحاب؛ إذا قطعتة. قال أبو حاتم: لا يقرأ بقراءة روبة؛ لأنه كان يأكل الفأر.

○ الإعراب:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ الواو استئنافية، والجملة مستأنفة، ومسوقة لبيان انقياد الخلائق جميعها، والكائنات بأسرها للقوة الخالقة المدبرة، والتصرف على مشيئته في الحركة والسكون والامتداد والزوال، أو الفناء والتخلص، والله متعلقان بيسجد، ومن فاعل يسجد وفي السموات والأرض صلة من وطوعاً وكرهاً نصب على الحال، أي: طائعين

وكارهمين، أو على المصدرية، أي: انقياد طوع وانقياد كره ﴿وَضَلَّاهُمْ بِأَفْئِدَتِهِمْ﴾ والواو عاطفة، وظلالهم عطف على من، وبالغدو والآصال متعلقان بيسجد ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾ قل فعل أمر، وفاعله أنت، والجملة بعده مقول القول، ومن اسم استفهام مبتدأ، ورب السموات والأرض خبر، وقل فعل أمر، والله خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو الله، أو مبتدأ، والخبر محذوف، أي: لله رب السموات والأرض ﴿قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَعًا وَلَا ضَرًّا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري التهكمي، والفاء عاطفة على محذوف، كأن في الكلام تقدير أبين الهمزة والفاء، تقديره: قل أقررتم بالجواب المذكور فاتخذتم، وقد تقرر هذا كثيراً، واتخذتم فعل وفاعل، ومن دونه حال؛ لأنه كان في الأصل صفة لأولياء، وأولياء مفعول به، وجملة لا يملكون صفة، ولأنفسهم حال، أو بالنفع والضرر على أنهما مصدران، ونفعاً مفعول به، ولا ضراً عطف عليه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ هل حرف استفهام بمعنى النفي، أي: لا يستويان، ويستوي الأعمى فعل مضارع وفاعل، وأم حرف عطف، وهل تستوي الظلمات، والنور عطف على الجملة السابقة، ولك أن تجعل أم منقطعة بمعنى بل ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أم المنقطعة، وجعلوا فعل وفاعل، والله حال؛ لأنه كان صفة، لشركاء، وشركاء مفعول به، أو لله مفعول به ثان لجعلوا، وجملة خلقوا صفة، والكاف مع مدخولها نعت لمفعول محذوف، أي: خلقوا خلقاً مثل خلقه، والفاء حرف عطف، وتشابه الخلق فعل ماض وفاعل وعليهم متعلقان بتشابه ﴿قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الله مبتدأ، وخالق كل شيء خبر، وهو مبتدأ، والواحد خبر، والقهار خبر ثان ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا﴾ الجملة مستأنفة، مسوقة لضرب مثل لتقدير ما تقدم، وأنزل فعل ماض، وفاعله مستتر تقديره: هو أي الله تعالى، ومن السماء جار ومجرور متعلقان بأنزل، وماء مفعول به، والفاء حرف عطف، وسالت أودية فعل وفاعل، وبقدرها متعلقان بسالت، أو بمحذوف صفة لأودية أي: بمقدار ما يملؤها، وسيأتي

مزيد بحث عنه في باب: البلاغة ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ﴾ الفاء عاطفة، واحتتمل السيل فعل ماض وفاعل، وزبداً مفعول احتمل لأنه بمعنى حمل، ورابياً صفة لزبداء، أي: طافياً على وجهه وعالياً عليه، ومما الواو عاطفة لتعطف مثلاً آخر على المثل الأول، ومما خبر مقدم، وجملة يوقدون صلة، وعليه متعلقان بيقودون، وفي النار حال، وابتغاء حلية مفعول لأجله على الأصح، وقيل مصدر بمعنى الحال، أي: مبتغين حلية، وليس ثمة مانع من ذلك، وأو حرف عطف، ومتاع معطوف على حلية، وزبد مبتدأ مؤخر، ومثله صفة، أي: مثل زبد السيل، وهو وضره الذي ينفيه كير الحداد ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ كذلك نعت لمصدر محذوف، أي: مثل ذلك المذكور من الأمور الأربعة مثلين للحق ومثلين للباطل، فالأولان الماء والجوهر، والآخران الزبد والوضر، ويضرب الله الحق فعل مضارع ومفعول به، والباطل عطف على الحق ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ الفاء عاطفة للتفريع، وأما حرف شرط وتفصيل، والزبد مبتدأ، والفاء رابطة، وجملة يذهب خبر، وجفاء حال ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ الواو عاطفة، وأما حرف شرط وتفصيل، وما موصول مبتدأ، وجملة ينفع الناس صلة، والفاء رابطة، وجملة يمحث في الأرض خبر ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ تقدم إعرابه ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ اختلفت آراء المعربين في إعراب هذه الآية، ونرى أن هنالك وجهين هما أولى نوردهما، فالأول: للذين خبر مقدم، وجملة استجابوا صلة، ولربهم متعلقان باستجابوا، والحسنى مبتدأ مؤخر، والثاني: للذين متعلقان بيضرب في الآية السابقة، والحسنى صفة لمصدر محذوف، أي: الاستجابة الحسنى ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلُ مَعِهِمْ لَأَفْتَدَوْا بِهِ﴾ ويتمشى على هذه الآية الإعرابان المتقدمان، فلك أن تجعل الذين مبتدأ، فيكون الكلام مستأنفاً، وخبره لو وما في حيزها، ولك أن تعطفها نسقاً على الذين السابقة، وجملة لم يستجيبوا صلة، وله متعلقان يستجيبوا، ولو شرطية، وأن وما في حيزها فاعل لفعل محذوف، وقد تقدم، ولهم خبر إن وما اسمها، وفي

الأرض صلبة، وجميعاً حال، ومثله عطف، ومعه ظرف متعلق بمحذوف حال، أي: كائناً معه، لافتدوا اللام واقعة في جواب لو، وافتدوا فعل ماض، والواو فاعل، وبه متعلقان بافتدوا ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ لِلْمُكَادِرِ أُولَئِكَ مِيزَانًا﴾ أولئك مبتدأ، ولهم خبر مقدم، وسوء الحساب مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية خبر أولئك، ومأواهم مبتدأ، وجهنم خبر مأواهم، وبس فعل ماض جامد لإنشاء الذم، والمهاد فاعل، والمخصوص بالذم محذوف، أي: مهادهم، أوهي.

□ البلاغة:

(١) استعارة السجود للانقياد والخضوع، وهما من خصائص العقلاء للكائنات العاقلة وغير العاقلة والطوع الناشئ عن اختيار، وهو الصادر عن الإنسان والكره الناشئ عن غير اختيار، وهو الصادر عن الجماد، ومعنى انقياد الظلال: مطاوعتها لما يراد منها كطولها، وقصرها، وامتدادها، وتقلصها.

ولأبي حيان كلام لطيف نبته فيما يلي دفعاً للأوهام قال: وكون الظلال يراد بها الأشخاص، كما قال بعضهم ضعيف وأضعف منه قول ابن الأنباري: أنه تعالى جعل للظلال عقولاً تسجد بها وتخضع بها، كما جعل للجبال أفهاماً حتى خاطبت وخوطبت؛ لأن الجبل لا يمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة، وأما الظل فعرض لا يتصور قيام الحياة به.

(٢) التهكم، والفرق بينه وبين الهزل الذي يراد به الجد أن التهكم ظاهره جد وباطنه هزل؛ لمجيئه على سبيل الاستهزاء والسخرية، هذا على ما تعارفناه بيننا والهزل الذي يراد به الجد ظاهره هزل وباطنه جد، وفي قوله تعالى: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ في سياق الإنكار تهكم بهم؛ لأن غير الله لا يخلق خلقاً البتة لا بطريق المشابهة والمساواة، ولا بطريق الانحطاط والقصور، فقد كان يكفي في الإنكار عليهم أن الشركاء التي اتخذوها

لا تخلق مطلقاً، ولكن جاء قوله تعالى كخلقه تهكماً يزيد الإنكار تأكيداً، وقد أسلفنا القول في التهكم، وأوردنا أبياتاً لابن الرومي وغيره فيه، ونرى من المفيد أن نتحدث قليلاً عن نقيضه، وهو الهزل المراد به الجدّ، وهو أن يقصد المتكلم مدح شيء أو ذمه، فيخرج ذلك المقصود مخرج الهزل المعجب والمجون المطرب، وخير مثال عليه قول أبي نصر بن أبي الفتح كشاجم:

صديقٌ لنا من أبدع النَّاسِ في البخل
وأفضلهم فيه وليس بذِي فضل
دعاني كما يدعو الصَّدِيقُ صديقه
فجئت كما يأتي إلى مثله مثلي
فلما جلسنا للطَّعام رأيتُه
يرى أنه من بعضِ أعضائه كلي
ويغتاظُ أحياناً ويشتمُّ عبده
وأعلم أنَّ الشتمَ والغِيظَ من أجلي
فأقبلتُ أَسْتَلُّ الغداءَ مخافةً
والحَظَّ عَيْنِيهِ رَقِيبٌ على فعلي
أمدُّ يدي سرّاً لأَسْرِقَ لقمَةً
فيلحظني شزراً فأعْبَثَ بالبقْلِ
إلى أن جئتُ كفي لحتفي جناية
وذلك أنَّ الجوعَ أَعْدَمَنِي عقلي
فجرت يدي للحين رجل دجاجة
فجرت كما جرَّت يدي رجلها رجلي
وقدم من بعد الطَّعام حلاوة
فلم أستطعُ منها أمر ولا أحلي

وقمْتُ لو أني كنت بيّت نية

ربحتُ ثواب الصَّوم من عدم الأكل

(٣) المثل: تقدم القول في «المثل السائر» ونقول هنا: إن كتاب الله الكريم طافح بالأمثال، وفي قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ مثلاًن ضربهما الله للحق وأهله والباطل وحزبه، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء، فتسيل به أودية الناس، فتخصو صب، وتخضر، وتبت، وتزدهر، ويتنفعون بأنواع المنافع، وبالجواهر التي يصوغون منها الحلي، والآلات التي تضيء عليهم القوة والهيبة والجمال والبأس الشديد، وإن ذلك كله ماكث في الأرض لا تخلق له جدة، ولا تذبل منه نضارة، وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله، ووشك زواله، وانسلاخه عن المنافع بزبد السيل الطافي؛ الذي تقحمة العين، وينبوعه البصر لعدم جدواه، وبالوضر الذي يطفو فوق الجوهر إذا أذيب، وقد انطوت تحت هذا المثل الرائع أنواع من البلاغة، نوردها باختصار:

أ- تنكير الأودية؛ لأن المطر لا يأتي إلا على طريق التناوب بين البقاع.

ب- الاحتراس بقوله: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي: بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار، وإلا فلو طما واستحال سيلاً لاجتاح الأخضر واليابس، ولأهلك الحرث والنسل.

ج- تعريف السيل؛ لأنه قد فهم من الفعل قبله، وهو قوله تعالى: ﴿فَسَالَتْ﴾ وهو لو ذكر لكان نكرة، فلما أعيد أعيد معرفة نحو: رأيت رجلاً فأكرمت الرجل، وهكذا تطرد القاعدة في النكرة إذا أعيدت.

د- مراعاة النظير في ألفاظ الماء، والسيل، والزبد، والربو، وفي ألفاظ النار، والجوهر، والفلزات المعدنية، والإيقاد، والحلية، والمتاع.

هـ - اللف والنشر الموشى في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ إلى آخر الآية.

واعلم أن وجه المماثلة بين الزبدین في الزبد؛ الذي يحمله السيل والزبد؛ الذي يعلو الأجسام المنطوقة أن تراب الأرض لما خالط الماء، وحمله معه، صار زبدًا رايياً فوقه، وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى يذوب من الأجسام المنطوقة، فإن أصله من المعادن التي تنبت في الأرض، فيخالطها التراب، فإذا أذيت صار ذلك التراب؛ الذي خالطها خبثاً مرتفعاً فوقها.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أَوَّلُوا
الْأَلْبَابِ ١٩ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ لَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ٢٠ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ
بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ٢١ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ
رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ
أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ٢٢ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ٢٣ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى
الدَّارِ ٢٤﴾

○ الإعراب:

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ أفمن تقدم القول في هذا التركيب كثيراً، ونعيده للفائدة فالهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء مؤخره من تقديم، أو عاطفة على محذوف هو مدخول الهمزة، والتقدير: أيستوي المؤمن والكافر أفمن يعلم. ومن مبتدأ، وجملة يعلم صلة، ولك في أنما وجهان أن تجعلها كافة ومكفوفة، فأنزل فعل ماض مبني للمجهول، وإليك حال، ومن ربك متعلقان بأنزل، والحق نائب فاعل، ولك أن تفصل ما، فتعرب أن حرفاً مشبهاً للفعل، وما: اسمها، والحق خبرها، وأن وما في

حيزها على الوجهين سدت مسد مفعولي يعلم، والكاف اسم بمعنى مثل خبر من، وهو مبتدأ، وأعمى خبر، والجملة الاسمية صلة من ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ إنما كافة ومكفوفة، ويتذكر فعل مضارع، وأولوا فاعله، وهو مرفوع، وعلامة رفعه الواو؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والألباب مضاف إليه ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ الذين مبتدأ، وخبره سيأتي فيما بعد، وهو قوله: «أولئك لهم عقبي الدار» ولك أن تعربه بدلاً من أولي الألباب تفادياً؛ لطول الفصل بين الابتداء والخبر، وجملة يؤفون صلة وبعهد الله متعلقان بيوفون، ولا ينقضون الميثاق عطف على الجملة السابقة، وستأتي سبع صفات أخرى لهم، فتكون صفاتهم ثمانية ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ والذين عطف على الذين، وجملة يصلون صلة، وما مفعول به، وجملة أمر الله صلة، ومفعول أمر محذوف، والتقدير: ما أمرهم، وبه متعلقان بأمر وأن، وما في حيزها بدل من الضمير المجرور، وهو الهاء، أي: بوصله ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ ويخشون عطف على يصلون، ويخشون فعل مضارع وفاعل، وربهم مفعول به، ويخافون عطف على يخشون، وسوء الحساب مفعول به ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ والذين عطف على الذين السابقة، وصبروا صلة، وابتغاء وجه ربهم مفعول لأجله، وقال بعضهم: «والذين صبروا» قيل: هو كلام مستأنف، وقيل: معطوف على ما قبله، والتعبير عنه بلفظ المضي للتنبيه على أنه ينبغي تحقيقه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وأقاموا الصلاة عطف، وهي فعل وفاعل ومفعول به، وأنفقوا عطف على أقاموا، ومما متعلقان بأنفقوا، وجملة رزقناهم صلة، وهي فعل وفاعل ومفعول به، وسراً وعلانية منصوبان بنزع الخافض، أو هما مصدران في موضع الحال، واختار هذا أبو البقاء، أي: في السر والعلانية، ويجوز نصبهما على الحال، أي: مسرين ومعلنين ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ عطف على ما تقدم، وبها تكتمل أوصافهم الثمانية، وبالحسنة متعلقان بيدرؤون، والسيئة مفعول به ليدرؤون ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ أولئك مبتدأ، ولهم خبر مقدم، وعقبى الدار مبتدأ مؤخر، وجملة لهم عقبى

الدار خبر أولئك، والجملة كلها خبر الذين الأولى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ جنات عدن بدل من عقبى الدار، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي جنات، أو مبتدأ، وجملة يدخلونها خبر، وعلى الأولين تكون الجملة حالية.

ومن عطف على الواو في يدخلونها، ولا حاجة لتقدير ضمير، كما فعل بعض المعربين لوجود الفصل بالضمير المنصوب، ولك أن تعربها مفعولاً معه، والواو واو المعية، وجملة صلح صلة، ومن آبائهم حال، وما بعده عطف عليه ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ الواو حالية، والملائكة مبتدأ، وجملة يدخلون خبر، وعليهم متعلقان بیدخلون، ومن كل باب متعلقان بیدخلون أيضاً ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ سلام مبتدأ، وعليكم خبر، وساغ الابتداء به لما فيه من معنى الدعاء، والجملة مقول قول محذوف في موضع نصب على الحال، أي: قائلين، وبما صبرتم الباء حرف جر، وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر مجرور بالباء، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف، تقديره: هذا بما صبرتم، أي: هذا بسبب صبركم، فهما خبر لمبتدأ محذوف، أو متعلق بسلام، أي: نسلم عليكم، ونكرمكم بصبركم، وعن النبي ﷺ أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول، فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار». والفاء الفصيحة، ونعم فعل ماض جامد لإنشاء المدح، وعقبى الدار فاعل نعم، والمخصوص بالمدح محذوف، أي: هي.

□ البلاغة:

في قوله تعالى: ﴿صَبْرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فن الاحتراس، وقد تقدم فقد انتفى بقوله ابتغاء وجه ربهم أن يكون صبرهم ناشئاً عن حب الجاه والشهرة، أو ليقال ما أصبره، وأحملة للنوازل، وأوقره عند الزلازل لثلاث يشمت به الأعداء، كقول أبي ذؤيب:

وتجلّدي للشّامتين أريهم أنّي لريبِ الدّهر لا أتزعزعُ

ولا اعتقاداً منهم بأن الأمر مقدور، ولا مفر منه، ولا طائل من الهلع،
ولا مرد للفائت، ولا دافع لقضاء الله، كقوله:

ما إن جزعْتُ ولا هلعْتُ ولا يردُّ بكاي زندا

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ٢٥﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ٢٦ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصِفُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ٢٧ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ٢٨ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَثَابٍ ٢٩﴾

☆ اللفظة:

﴿طُوبَى﴾: مصدر من الطيب كبشرى ورجعى وزلفى، فالمصدر قد يجيء على وزن فعلى، وأصله يائي، فهي طيبى، قلبت الياء واواً لوقوعها ساكنة إثر ضمة، كما قلبت في موقن وموسر من اليقين واليسر، ومعنى طوبى لك أصبت خيراً طيباً، ومحلهما النصب أو الرفع، كقولك: طيباً لك، وطيب لك، وسلاماً لك، وسلام لك، وفي «القاموس»: الطوبى مؤنث الأطيب والغبطة، والسعادة، والخير، والخيرة، وجمع طيبة، وهذا من نواذر الجموع.

○ الإعراب:

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الذين مبتدأ، وجملة يَنْقُضُونَ صلة، والواو فاعل، وعهد الله مفعول به، ومن بعد ميثاقه حال ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ تقدم إعراب نظيرتها ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ عطف على الجمل السابقة ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أولئك مبتدأ، وخبره لهم اللعنة، وقد تقدم إعراب نظيرتها، وجملة أولئك لهم اللعنة خبر الذين، ولهم

سوء الدار عطف على لهم اللعنة ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ الله مبتدأ،
وجملة يبسط الرزق خبر، ولن متعلقان ببسط، وجملة يشاء صلة، ويقدر
عطف على يشاء ﴿وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الواو استئنافية، وجملة فرحوا مستأنفة،
مسوقة لبيان قبح أفعالهم مع ما أفاضه عليهم من رزق ونعم سواغ، وبالحياة
جار ومجرور متعلقان بفرحوا، والدنيا صفة للحياة ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ
إِلَّا مَتَعٌ﴾ الواو حالية، وما نافية، والحياة مبتدأ، والدنيا صفة، وفي الآخرة
حال على حذف مضاف، أي: في جنب الآخرة، والتقدير: وما الحياة الدنيا
كائنة في جنب الآخرة، و«في» هذه للمقايسة، وهي الداخلة بين مفضول
سابق وفاضل لاحق، ولا يجوز أن تكون «في» للظرفية؛ لأن الحياة الدنيا
لا تكون في الآخرة، وإلا أداة حصر، ومتاع خبر ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ
عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الواو عاطفة ليتساقق الارتباط بين قولهم وما كانوا عليه
من ضلال، ويقول الذين: فعل مضارع وفاعل، وجملة كفروا صلة، ولولا
حرف تخضيض بمثابة هلا، وأنزل فعل ماض مبني للمجهول، وعليه متعلقان
بأنزل، والضمير يعود على النبي محمد ﷺ، وآية نائب فاعل، ومن ربه صفة
﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ﴾ إن واسمها، وجملة يضل
خبرها، ومن مفعول به، وجملة يشاء صلة، ويهدي عطف على يضل، وإليه
متعلقان بيهدي، ومن مفعول به، وجملة أناب صلة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الذين بدل، وجملة آمنوا
صلة، أو الذين مبتدأ خبره الذين آمنوا، والأول أولى، وتطمئن عدل عن
الماضي إلى المضارع لإفادة التجدد، وسيأتي مزيد بحث عنه في باب: البلاغة،
وقلوبهم فاعل تطمئن، وبذكر الله متعلقان بتطمئن، والقلوب فاعل
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ الذين مبتدأ، أو
خبر الذين الأولى، وجملة آمنوا صلة، وعملوا الصالحات عطف على الصلة،
وطوبى مبتدأ، ولهم خبر، وساغ الابتداء بها لما فيها من معنى الدعاء، وقيل:
طوبى خبر لمبتدأ محذوف، واللام في لهم للبيان، مثل: : سقياً لك، ورعياً
لك، أو مفعول لفعل محذوف، أي: أصبت خيراً طيباً، وقرىء: «وحسن

مآب» بالنصب والرفع، ولك أن تعربها مفعولاً مطلقاً كما قدمنا على قراءة من نصب حسن؛ لظهور حركة الإعراب عليها، والأول أولى؛ لأن الجمهور قرأ بالرفع، ولأبي البقاء وهم فيها إذ أجاز إعرابها حالاً مقدرة، ولا أدري ما هو مبرره، وحسن: عطف على طوبى، ومآب مضاف إليه.

□ البلاغة:

في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾ فن رفيع من فنون البلاغة، وقد سبق ذكره، ونعيد الآن ما يتعلق بهذه الآية فقد عدل عن عطف الماضي، فلم يقل: واطمأنت قلوبهم؛ لسر من الأسرار يدق إلا على العارفين بأسرار هذه اللغة الشريفة، ذلك أن من خصائص الفعل المضارع أنه قد لا يلاحظ فيه زمان معين من حال، أو استقبال، وهما الزمانان اللذان يحتملهما المضارع، فلا يدل إلا على مجرد الاستمرار، ومنه هذه الآية، أي: أن المؤمنين تطمئن قلوبهم بصورة مطردة مهما تتالت المحن وتعاقبت الأرزاء، وحدثت المفاجأة، فكأنما أعدوا لكل محنة صبراً، ولكل رزء اطمئناناً جديداً، فتدبر هذه الملاحظة؛ فإنها عمود الجمال وسره.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۚ وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سِيرَتٍ فِي الْجِبَالِ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِيَ بِهِ الْمَوْتُ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۚ﴾

☆ اللغة:

﴿يَأْتِئِ﴾ قال الزمخشري: ومعنى أفلم يئش: أفلم يعلم، قيل: هي لغة

قوم من النخع، وقيل: إنما استعمل اليأس بمعنى العلم؛ لأن اليأس عن الشيء عالم بأنه لا يكون، كما استعمل الرجاء في معنى الخوف والنسيان في معنى الترك، قال سحيم بن وثيل الرياحي:

أقول لهم بالشُّعْبِ إِذْ يَنْسِرُونَنِي

أَلَمْ تَيَأْسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَم؟

وفي «المختار»: اليأس: القنوط، وقد يئس من الشيء، من باب: فهم، وفيه لغة أخرى يئس يئس بالكسر فيهما، وهو شاذ، ويئس أيضاً بمعنى علم في لغة النخع، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْيَسِ الَّذِينَ آمَنُوا؟﴾.

﴿قَارَعَةٌ﴾: داهية تفرعهم بصنوف البلاء. وفي «المختار»: قرع الباب، من باب: قطع، والقارعة: الشديدة من شدائد الدهر، وهي الداهية.

○ الإعراب:

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ الكاف في محل نصب كنظائرها، أي: مثل ذلك الإرسال أرسلناك إرسالاً له شأن، وقد تقدمت نظائرها كثيراً، وأرسلناك فعل وفاعل ومفعول به، وفي أمة متعلقان بأرسلناك، وجملة قد خلت صفة لأمم، ومن قبلها حال لأنه كان صفة لأمم، وأمم فاعل ﴿لِتَتْلَوْا عَلَيْهِمْ أَلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لتتلو اللام للتعليل، وتتلو مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بتتلو، والفاعل أنت، وعليهم متعلقان بتتلو، والذي مفعول به، وجملة أوحينا إليك صلة ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الواو للحال، أي: وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن، والجار والمجرور متعلقان بيكفرون، ولا مانع من جعلها استئنافية كما قال بعضهم ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هو ربي مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية مقول القول، ولا إله إلا هو تقدم القول فيها مفصلاً في البقرة، فجدد به عهداً ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ عليه متعلقان بتوكلت، وإليه خبر مقدم، ومتاب مبتدأ مؤخر ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِيَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ الواو استئنافية، والجملة

مستأنفة، مسوقة للرد على من طلبوا من رسول الله أن يسير الجبال بقرآنه عن مكة حتى تتسع لهم، ويبعث لهم آباءهم ليشهدوا بنبوته، ولو شرطية، وإن حرف مشبه بالفعل وقرآناً اسمها، وجملة سيرت خبر إن، وبه متعلقان بسيرت، والجبال نائب فاعل، وأو حرف عطف، وقطعت به الأرض معطوفة، وكذلك أو كلم به الموتى، وجواب لو محذوف، كما تقول لمن تهدده: لو أني قمت إليك، وتترك الجواب، والمعنى: لو أن قرآناً سيرت به الجبال عن مقارها، أو قطعت به الأرض حتى تتصدع وتتهافت، أو كلم به الموتى فتسمع وتجب لما آمنوا، وقدره أبو حيان: لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير، ونهاية في الإنذار والتخويف. وسيأتي مزيد بحث عن هذا الحذف في باب: البلاغة ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل حرف إضراب، والله خبر مقدم، والأمر مبتدأ مؤخر، وجميعاً حال، وهو عطف للإضراب عما تضمنته لو من معنى النفي، أي: بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه متعنتين ﴿أَفَلَمْ يَأْتِسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ الهمزة للاستفهام والتقرير، ولم حرف نفي وقلب وجزم، ويئس مضارع مجزوم بلم، والذين فاعل، وجملة آمنوا صلة، وأن مخففة من الثقيلة لتقدم معنى العلم عليها، واسمها ضمير الشأن، ولو حرف شرط، ويشاء فعل مضارع، والله فاعل، واللام رابطة، وجملة هدى الناس جواب لو لا محل لها، وجميعاً حال، وجملة الشرط، وجوابه خبر إن ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ الواو عاطفة، ولا يزال فعل مضارع ناقص، والذين اسمها، وجملة كفروا صلة، وجملة تصيبهم خبر لا تزال، وبما صنعوا متعلقان بتصيبهم، أي: بسبب صنعهم، فالباء سببية، وما مصدرية، وقارعة فاعل تصيبهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ﴾ أو حرف عطف، وتحل عطف على تصيبهم، والفاعل هي، أي: من القارعة، وقريباً ظرف مكان، أي: مكاناً قريباً من دارهم، ومن دارهم متعلقان بقريباً، فيتطير عليهم شرارها، وتطوح بهم ويلاتها، وقيل: إن الفاعل لتحل يعود إلى المخاطب، وهو الرسول ﷺ، أي: تحل أنت بجيشك قريباً من دارهم كما حل بالحديبية، وقد أتى فتح مكة، والأول أظهر وأولى

﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ حتى حرف غاية وجر، ويأتي مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، ووعد الله فاعل، والمراد بوعده النصر المحتوم، وإن واسمها، وجملة لا يخلف خبرها، والميعاد مفعول به.

□ البلاغة:

في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ إلى آخر الآية إيجاز عجيب، فقد حذف الجواب كما تقدم، واختلف العربون والمفسرون في تقديره، وقد قدرناه في الإعراب: لما آمنوا، وقد اختار الزمخشري هذا التقدير، ولكنه جعله مرجوحاً، وقد الأرجح بقوله: «لكان هذا القرآن» لكونه غاية في التذكير، ونهاية في الإنذار، وهو تقدير لا بأس به، وإن كان الأول أقرب إلى سياق الحديث، وأؤكد في تقرير المعنى، وحذف جواب «لو» شائع في كلامهم، ومن أمثله في الشعر قول أبي تمام في قصيدته البائية التي يمدح بها المعتصم عند فتحه عمورية:

لَوْ يَعْلَمُ الْكُفْرُ مِنْ أَعْصُرٍ كَمَثَتْ

لَهُ الْمَنِيَّةُ بَيْنَ السُّمْرِ وَالْقُضْبِ

فإن جواب لو محذوف، تقديره: لأخذ أهبتة، ولأعد للأمر عدته أو لما أقدم على ما أقدم عليه من اجترأ، كما تدل عليه قصة المرأة الهاشمية التي سبها أحد العلوج فصرخت: وامعتصماه!

وعبارة ابن هشام: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ الآية أي: لما آمنوا به، بدليل: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ والنحويون يقدرون: لكان هذا القرآن وما قدرته أظهر.

أي: للدليل المذكور، وفيه: أن ما قدره أيضاً دل عليه قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ فلم يتبين كون تقديره أظهر من تقديرهم، واعلم أن كلاً من الوجهين، ودليل كل واحد، ذكره الزمخشري، فلم يقدر المصنف شيئاً انفرد به عن غيره، خلافاً لما

يشعر به قوله : وما قدرته أظهر . هذا ؛ وقد أطلق الباقلاني على هذه الآية فن الإشارة ، وعرفه : بأنه اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة وقال بعضهم في وصف البلاغة : «المحة دالة» وهو بعينه تعريف الإيجاز .

﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۚ ﴾ ٣٢ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيِّظُهُمْ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ۚ ۚ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ۚ ﴾

☆ اللفظة:

﴿ فَأَمَلَيْتُ ﴾ : الإملاء : أن يترك مدة طويلة من الزمن في دعة وأمن . وفي القاموس وشرحه : أملى الله فلاناً : أطال عمره ؛ أطاله ومتع به ، وأملى الله الظالم وله : أمهله . وقال : والإملاء مصدر ، والإمهال ، والتأخير ، وما يملئ من الأقوال ، والملي : الطويل من الزمان ، يقال : انتظرتة ملياً ، أي : زمناً طويلاً ، ومر ملي من الليل وهو : ما بين أوله إلى ثلثه ، وقيل : هو قطعة منه لم تحد .

﴿ أَشَقُّ ﴾ : أشد منه ، اسم تفضيل ، من شق يشق ، من باب : نصر ، مشقة ، وشق الأمر : اشتد وصعب .

○ الإعراب:

﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ الواو عاطفة ؛ ليتساق الكلام ، وللتمهيد إلى تسلية النبي ﷺ ، واللام موطئة للقسم ، وقد حرف تحقيق ، واستهزى فعل ماض مبني للمجهول ، وبرسل سد مسدّ نائب الفاعل ، ومن قبلك صفة لرسل ﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ الفاء للعطف ،

وأملت فعل وفاعل، وللذين متعلقان بأملت، وجملة كفروا صلة، وثم حرف عطف، وأخذتهم فعل وفاعل ومفعول به، فكيف: الفاء عاطفة، وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر لكان مقدم، وكان فعل ماض ناقص، وعقابي اسمها، وحذفت الياء لمراعاة الفواصل ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، وجوابه محذوف، تقديره: لا، كما سيأتي. والفاء عاطفة على محذوف، وقد تقدم تقديره، ومن اسم موصول مبتدأ، وهو مبتدأ ثان، وقائم خبر المبتدأ الثاني، والجملة الاسمية صلة الموصول، وعلى كل متعلقان بقائم، والباء حرف جر بمعنى مع، وما موصول مجرور بالباء، أو مصدرية، وهي مع مدخولها مجرورة بالباء، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال، وخبر من محذوف، تقديره: كمن ليس كذلك من شركائهم التي لا تضر ولا تنفع، وقد دل عليه قوله فيما بعد: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ وجواب الاستفهام «لا» كما قدرناه ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ الواو للاستئناف، والجملة مستأنفة، مسوقة للدلالة على خبر من المحذوف كما تقدم، وهذا أحسن الأقوال فيها، وجعلها أبو البقاء عاطفة، وجعلها غيره حالية، وجعلوا فعل وفاعل، والله متعلقان بمحذوف مفعول ثان، أو بمحذوف حال، وشركاء مفعول جعلوا الأول إن كانت جعل بمعنى صير ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ سموهم فعل أمر للتعجيز، وهو فعل وفاعل ومفعول به، وأم هي المنقطعة، وتنبئونه فعل مضارع حذفت منه همزة الاستفهام، والتقدير: أتنبئونه، وهو فعل وفاعل ومفعول به، وبما متعلقان بتنبئونه، وجملة لا يعلم صلة، ومفعول يعلم محذوف، أي: يعلمه، وفي الأرض حال، والمراد نفي أن يكون له شركاء، كما سيأتي في باب: البلاغة، وإلا لتناولهم علمه ﴿أَمْ يَظَاهِرُونَ الْقَوْلَ﴾ أم المنقطعة أيضاً، وهي بمعنى بل، ويظاهر متعلقان بتنبئونه، أي: من غير حقيقة واعتبار معنى، ومن القول صفة لظاهر ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ بل حرف إضراب وعطف، وزين فعل ماضي مبني للمجهول، وللذين متعلقان بزین، وكفروا

صلة، ومكرهم نائب فاعل ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(١) الواو عاطفة، وصدوا فعل وفاعل^(١)، وعن السبيل متعلقان بصدوا، ومن الواو استئنافية، ومن شرطية في محل نصب مفعول به مقدم ليضلل، ويضلل فعل الشرط، والله فاعل، فما: الفاء رابطة لجواب الشرط، وما نافية حجازية وله خبرها المقدم ومن حرف جر زائد، وهاد اسم ما محلاً مجرور بما لفظاً ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لهم خبر مقدم، وعذاب مبتدأ مؤخر، وفي الحياة صفة لعذاب، والدنيا صفة للحياة ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ الواو عاطفة، أو حالية، واللام للابتداء، والآخرة مضاف إليه، وأشق خبر عذاب، وما لهم من الله من واق: تقدم إعرابها.

□ البلاغة:

انطوت الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ...﴾ إلى آخر الآية على فنون عديدة من البلاغة؛ لأنها وردت في معرض الاحتجاج عليهم في إشرأفهم بالله، ندرجها فيما يلي:

(١) الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ﴾ وحذف خبره تصريحاً في التوبيخ والزرية عليهم، على القياس الفاسد لفقد الجهة الجامعة لهما، وهذا ما يسميه علماء البيان: الإضمار على شريطة التفسير، وهو أن يحذف من صدر الكلام ما يؤتى به في آخره؛ فيكون الآخر دليلاً على الأول، وهو على ثلاثة أضرب:

أ - أن يأتي عن طريق الاستفهام، فتذكر الجملة الأولى دون الثانية، كآية التي نحن بصدددها، وكقوله تعالى أيضاً: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ تقدير الآية: أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه، ويدل على المحذوف قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

(١) كذا في الأصل، والصحيح: فعل مبني للمجهول ونائب فاعل.

ب- أن يرد على حد النفي والإثبات، كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا﴾ تقديره: لا يستوي منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل، ومن أنفق من بعده وقاتل.

ج - أن يرد على غير هذين الوجهين، فلا يكون استفهاماً ولا نفيًا، وإثباتاً، كقول أبي تمام:

تَجَنَّبَ الْآثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامٌ

ففي صدر البيت إضمار مفسر في عجزه، وتقديره: أنه يتجنب الآثام، فيكون قد أتى بحسنة، ثم يخاف تلك الحسنة، فكأنما حسناته آثام، والبيت بعد مأخوذ بطرف خفي من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمَ قُلُوبِهِمْ وَجِلَّةٌ﴾.

(٢) وضع المظهر موضع المضمَر، للتنبيه على أنهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد، لا يشاركه أحد في اسمه، وذلك في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾.

(٣) التعجيز في قوله: ﴿قُلْ سَمُّهُمْ﴾ أي: عَيَّنوا أسماءهم، فقولوا: فلان وفلان، فهو إنكار لوجودها على وجه برهاني، كما تقول: إن كان الذي تدعيه موجوداً فسمِّه؛ لأن المراد بالاسم العلم.

(٤) نفي الشيء بإيجابه أو عكس الظاهر، وقد تقدم بحث هذا الفن، وهو من متطرفات علم البيان، وهو في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَتْلُونَهُ إِيمًا لَا يَعْلَمُ﴾ وحقيقة هذا النفي أنهم ليسوا بشركاء، وأن الله لا يعلمهم كذلك؛ لأنهم - في الواقع - ليسوا كذلك؛ وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله، إلا أنها مربوبة حادثه، لا آلهة معبودة، ولكن مجيء النفي على هذه السنن المتلو بديع لا تكاد تكتنه بلاغته وعبارته، ومن طريفه قول علي بن أبي طالب في وصف مجلس رسول الله ﷺ: لا تتنى فلتاته. أي: لا تذاع سقطاته، فظاهر هذا اللفظ أنه كان ثم فلتات، غير أنها لا تذاع، وليس المراد ذلك، بل المراد أنه لم يكن ثم فلتات فتشني.

(٥) الاستدراج بقوله: ﴿أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ليحثهم على التفكير

دون القول المجرد من الفكر كقوله في مكان آخر: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ وهذا الاحتجاج من أعجب الأساليب وأقواها.

(٦) التدرج في كل من الإضرابات بأم المنقطعة وبـ «بل» على اللطف وجهه.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

○ الإعراب:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ مثل الجنة مبتدأ، وخبره محذوف على مذهب سيبويه، أي: فيما قصصناه عليكم مثل الجنة، أي: صفتها التي هي مثل في الغرابة، وقد تقدمت مقتطفات من كلام سيبويه في مثل هذا التركيب. وقال الزجاج: معناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار على حذف الموصوف تمثيلاً لما غاب عنا بما نشاهد. والتي صفة للجنة، ووعد المتقون فعل ماض مبني للمجهول، ونائب فاعل، وجملة تجري من تحتها الأنهار تفسير للمحذوف على رأي سيبويه، فهي نصب على الحال، وكذلك جملة أكلها دائم، وأكلها مبتدأ، ودائم خبر، وظلها مبتدأ حذف خبره، دل عليه ما قبله، أي: دائم، وتلك مبتدأ، وعقبي خبر، والذين مضاف إليه، وجملة اتقوا صلة ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ عقبى مبتدأ، والنار خبر، أو بالعكس؛ لمناسبة الأول، ولعله أولى

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتُبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ والذين مبتدأ، وجملة آتيناهم صلة، والكتاب مفعول آتيناهم الثاني، وجملة يفرحون خبر الذين، وبما متعلقان بيفرحون، وجملة أنزل إليك صلة، وسر الفرح موافقته لما ورد عندهم.

﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ الواو عاطفة، ومن الأحزاب خبر مقدم، ومن مبتدأ مؤخر، وجملة ينكر صلة، وبعضه مفعول به، وسيرد في باب: الفوائد كتاب الصلح يوم الحديبية ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ إنما كافة ومكفوفة، وأمرت فعل ماض مبني للمجهول، والتاء نائب فاعل، وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض، أي: بأن أعبد الله، والجار والمجرور متعلقان بأمرت ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِهِ إِلَهًا ادْعُوا إِلَيْهِ مَنَابٍ﴾ ولا أشرك عطف على أن أعبد، وبه متعلقان بأشرك، وإليه متعلقان بأدعو، وإليه الثانية خبر مقدم، ومآب مبتدأ مؤخر، وعلامة رفعه الضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة لمراعاة الفواصل، أي: وإليه مآبي، أي: مرجعي ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف، أي: ومثل ذلك الإنزال أنزلناه، وأنزلناه فعل وفاعل ومفعول به، وحكمًا عربيًا حالان، أي: حاكمًا بين الناس عربيًا، أي: بلغة العرب، ولما كان القرآن سببًا للحكم جعل نفس الحكم، وقد تقدمت له نظائر ﴿وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ اللام موطئة للقسم، وإن شرطية، واتبعت فعل وفاعل، وهو في محل جزم فعل الشرط، وأهواءهم مفعول به، وبعد ظرف متعلق باتبعت، وما موصول مضاف إليه، وجملة جاءك صلة، ومن العلم حال ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ما نافية حجازية، أو تميمية، ولك خبر مقدم، ومن الله حال؛ لأنه كان في الأصل صفة، ومن زائدة، وولي اسم ما، أو مبتدأ، ولا واق عطف عليه، وجملة مالك لا محل لها؛ لأنها جواب القسم، ولذلك لم تقترن بالفاء، وجواب الشرط محذوف دلًا عليه جواب القسم؛ وفقًا للقاعدة في اجتماع الشرط والقسم.

* الفوائد:

لما كتب رسول الله ﷺ كتاب الصلح يوم الحديبية، كتب فيه بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة - يعنون: مسيلمة الكذاب - فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ وإنما قال: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُكْرِبُ بَعْضَهُ﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون الله، وينكرون الرحمن، وقيل: لأنهم كانوا لا ينكرون الأفاضيل وبعض الأحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم، وكانوا ينكرون نعت رسول الله وغير ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِشَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ٣٨ ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ٣٩ ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ٤٠ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ٤١ ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ﴾ ٤٢ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ٤٣

☆ اللفظة:

﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾: أصله: الذي يرتد إليه، فكل كائن مكتوب فيه، والأُم: أصل الشيء، والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الأصل للشيء: أُمًّا له، ومنه: أُمُّ الرأس للدماغ، وأُمُّ القرى لمكة.

﴿مُعَقَّبٌ﴾: المعقب في الأصل هو: الذي يتعقب الشيء بالإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق معقب؛ لأنه يتعقب غريمه بالطلب، والمعقب: هو الذي يكر على الشيء فيبطله.

○ الإعراب:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ الواو للاستئناف، والجملة مستأنفة، مسوقة لإبطال الشبهات التي كانوا يوردونها لإبطال النبوة، وقد أنهاها المفسرون إلى ست شبهات، ويمكن الرجوع إليها في المطولات، واللام موطئة للقسم، وقد حرف تحقيق، وأرسلنا فعل وفاعل، ورسلاً مفعول به، ومن قبلك متعلقان بأرسلنا ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمُ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ وجعلنا فعل وفاعل ولهم في موضع المفعول الثاني، وأزواجاً هو المفعول الأول، وذرية عطف على أزواجاً، وهذا إبطال للشبهة الأولى من شبهاتهم، وهي قولهم: لو كان رسولاً من عند الله لما اشتغل بالنسوة، ولما انهمك في تعدد الزوجات، ولا انصرف إلى النسك والزهادة، فأجاب: بأن الرسل الذين سبقوك كانت لهم زوجات كثيرة، فلم يقدح ذلك في نبوتهم. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الواو عاطفة، وكان فعل ماض ناقص، ولرسول خبر كان المقدم، وأن وما في حيزها اسمها المؤخر، وبآية جار ومجرور متعلقان بآتي، وإلا أداة حصر، وبإذن الله استثناء من أعم الأحوال، فالجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل خبر مقدم، وأجل مضاف إليه، وكتاب مبتدأ مؤخر ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يمحو الله فعل مضارع وفاعل، وما مفعول به، وجملة يشاء صلة، ويثبت عطف على يمحو، وعنده الظرف خبر مقدم، وأم مبتدأ مؤخر، والكتاب مضاف، وهذا رد على شبهة ثانية كانوا يوردونها تعطيلاً وإرجافاً، وهي: أن محمداً يأمر أصحابه اليوم بأمر كاستقبال بيت المقدس، ثم يأمرهم في الغد بخلافه كاستقبال الكعبة، فرد عليهم مفنداً شبهتهم؛ بأنه سبحانه إنما شرع الشرائع كلها لإصلاح أحوالهم، ورأب صدوعهم، واختيار الأنفع لهم، ولكنهم معطلة لا يأبهون لإصلاح أمورهم، ومقتضيات أحوالهم ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ الواو عاطفة، وإن الشرطية أدغمت بما الزائدة، ونرينك فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله

بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم فعل الشرط، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والكاف مفعول به، وبعض مفعول به ثان، والذي مضاف إليه، وجملة نعدهم صلة الذي، وأو حرف عطف، ونتوفيك عطف على نرينك، ويقدر المعربون جواب الشرط محذوفاً، أي: فذلك كافيك، ودليل صدقك، ويعربون الفاء في قوله «فإنما» للتعليل لهذا المحذوف، ولا داعي لهذا التكلف، بل الأسهل أن يكون قوله: «فإنما» هو الجواب، وتقدير الكلام: ومهما يكن من أمر، وكيفما دارت الأحوال، وإن أريناك مصارعهم، وأنزلنا بهم ما أوعدناهم به من عذاب، أو توفيناك قبل أن ترى شيئاً من ذلك، فما يترتب عليك، وليس قصارك إلا تبليغ الرسالة فحسب. وإنما كافة ومكفوفة، وعليك خبر مقدم، والبلاغ مبتدأ مؤخر، وعلينا خبر مقدم، والحساب مبتدأ مؤخر ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، والواو عاطفة على محذوف - كما تقدم - تقديره: أنكروا نزول ما أوعدناهم، وشكوا في ذلك، وامتروا فيه، ألم ينظروا في ذلك؟ ألم يروا؟ ألم تكن لهم في تلك المشاهد الكافية، والدلائل الوافية، عبرة لهم؟ ولم حرف نفي وقلب وجزم، وأن واسمها سدت مسد مفعولي يروا، وجملة نأتي خبر أن، وفاعل نأتي مستتر تقديره: نحن، والأرض مفعول به، وجملة ننقصها من أطرافها حالية من فاعل نأتي، أو من مفعوله، أي: نفتحها أرضاً بعد أرض، بما ينقص من أطراف المشركين، ويزيد في أطراف المؤمنين ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ لفظ الجلالة مبتدأ، وجملة يحكم خبر ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا نافية للجنس، ومعقب اسمها المبني على الفتح، ولحكمه خبر لا، وهو الواو عاطفة، وهو مبتدأ، وسريع الحساب خبر هو، وجملة لا معقب لحكمه حال أيضاً من فاعل نأتي على الالتفات؛ كأنه قيل: والله يحكم نافذاً حكمه، وستأتي الفائدة من الالتفات في باب: البلاغة ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ الواو استئنافية، وقد حرف تحقيق، وجملة مكر الذين من قبلهم استئنافية، مسوقة لتسليته ﷺ، وقد مر بحث إسناد المكر إلى الله كثيراً فخرج عليه، فله المكر الفاء عاطفة على محذوف، بمثابة التعليل، أي: فلا تأبه

لمكرهم، ولا تحش ضيراً منه، فحذف هذا اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من التعليل، والله خبر مقدم، والمكر مبتدأ مؤخر، وجميعاً حال، وشتان بين مكرهم ومكره ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ الجملة تفسير لقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ ويعلم فعل مضارع، وفاعله مستتر، وتقديره: هو، وما مفعول به، وجملة تكسب صلة، وكل نفس فاعل ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عَقَّبَى الدَّارِ﴾ السين للاستقبال، ويعلم الكفار - وفي قراءة الكافر - فعل وفاعل، ولن: اللام حرف جر، ومن اسم استفهام في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، وعقبى الدار مبتدأ مؤخر ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا﴾ الجملة مستأنفة، مسوقة لإجمال الشبهات الست التي أوردوها، والتي تنتهي في اعتقادهم إلى هذه النتيجة، وهي إبطال رسالته ﷺ، وجملة لست مرسلًا مقول قولهم، وهو مجمل شبهاتهم، وليس واسمها وخبرها ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ كفى فعل ماض، تقدم بحثه مستوفى، وبالله الباء حرف جر زائد، ولفظ الجلالة مجرور لفظاً مرفوع محلاً، وشهيداً تمييز، وبينى وبينكم ظرفان متعلقان بشهيداً، ومن: عطف على الله، وعنده الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، وعلم الكتاب مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة من.

□ البلاغة:

(١) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ التفات بليغ، وقد سبق ذكر الالتفات مشفوعاً بالأمثلة والشواهد، ونزيده هنا بسطاً بصد ما يتعلق بالآية، فنقول: الرجوع عن خطاب النفس إلى الغيبة في الآية، وبناء الحكم على الاسم الجليل ينطوي على أعظم الأسرار وأبهرها، فإنه لما أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة المشوبة بالتحذير، كان لا بد أن يتوجه إليهم بالخطاب ليريم مكان القوة والعظمة لديه، عاد إلى تصوير الفخامة والمهابة، وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة التي هي السبب في إتيان الأرض، وانتقاص أطرافها، وإدالة الأمر من

قوم لقوم، ونقل السيطرة من الظالمين بالأمس إلى المظلومين، ومن الغالين بالأمس إلى المغلوبين، وهذه الفخمية لا تتأتى إلا بإيراد الكلام في معرض الغيبة، فقال ملتفتاً: والله يحكم في خلقه بما يشاء لا راد لحكمه، ثم أردف ذلك بقوله: ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ ولا مبطل لمشيئته، وثلاث بقوله: ﴿وَهُوَ سَكِرٌ بِالْحِسَابِ﴾ فكل شيء محسوب لديه، وعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا، وستأتي شواهد بديعة من هذا الفن الرفيع.

(٢) الاستخدام:

وفي قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُوهُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فن رفيع من فنون البلاغة أطلق عليه علماء هذا الفن اسم: «فن الاستخدام» وعرفوه بتعريفات لا تخلو من غموض، وسنحاول بسط ما أجملوه، فأما تعريفه كما أورده ابن أبي الإصبع وابن منقذ وصاحب «نهاية الأرب» فهو: أن يأتي المتكلم بلفظة لها محملان، ثم يأتي بلفظتين تتوسط تلك اللفظة بينهما، وتستخدم كل لفظة منهما أحد محملي اللفظة المتوسطة، ففي الآية المذكورة لفظة «كتاب» تحمل الأمد المحتوم؛ بدليل قوله تعالى في البقرة: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ أي: حتى يبلغ الكتاب أمده، أي: أمد العدة. وأجله: منتهاه، والكتاب: المكتوب، وقد توسطت لفظة كتاب بين لفظتي «أجل» و«يمحو»، فاستخدمت لفظة أجل أحد مفهوميها، وهو الأمد، واستخدمت لفظة يمحو مفهومها الآخر، وهو المكتوب، فيكون التقدير على ذلك: لكل حد مؤقت مكتوب يمحي ويثبت.

وهناك تعريف آخر يتمشى على طريقة صاحب «الإيضاح» ومشى عليه كثير من الناس، وهو: أن الاستخدام: إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، فتريد بذلك اللفظ أحد المعنيين، ثم تعيد عليه ضميراً تريد به المعنى الآخر، أو تعيد عليه إن شئت ضميرين، تريد بأحدهما أحد المعنيين، وبالأخر المعنى الآخر. ومثال هذا النوع قول القائل:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَاباً

فلفظة السماء يراد بها المطر، وهو أحد المعنيين، والضمير في «رعيناه» يراد به المعنى الآخر، وهو النبات. وأما شاهد الضميرين فمثاله قول البحري:

فسقى الغصا والساكنيه وإن هم

شَبَّوه بين جَوانحي وضُلوعي

فإن لفظة الغصا محتملة: الموضع، والشجر، والسقيا صالحة لكل منهما فلما قال: «والساكنيه» أحد معنيي اللفظة، وهو الموضع بدلالة القرينة عليه، ولما قال «شَبَّوه» استعمل المعنى الآخر، وهو: الشجر، بدلالة القرينة عليه، وقد أورد الشيخ عز الدين الموصلي في شرح بديعته نقداً حسناً لبیت البحري، فقد قال: شرط علماء البديع أن يكون اشتراك لفظة الاستخدام اشتراكاً أصلياً، والنظر هنا في اشتراك لفظة الغصا، فإنه ليس بأصلي لأن أحد المعنيين منقول من الآخر، والغصا في الحقيقة: الشجر، وسموا الوادي غصا لكثرة نبتة فيه، وقالوا: جمر الغصا لقوة ناره، فكلٌّ منقول من أصل واحد.

ومن الاستخدام قول أبي العلاء في داليته الشهيرة:

قصد الدَّهر من أبي حمزة الأواب مولى حَجا وخدن اقتصاد

وفقيها أفكاره شدن للنعمان ما لم يشده شعرُ زياد

فالنعمان يحتمل هنا أبا حنيفة - رحمه الله - ويحتمل النعمان بن المنذر. وقد أراد أبو العلاء بلفظ النعمان أبا حنيفة؛ بدليل قوله «وفقيهاً» وأراد بالضمير المحذوف النعمان بن المنذر ملك الحيرة بدليل زياد، وهو التابعة، وكان معروفاً بمدح النعمان بن المنذر، وقد انتقدوه أيضاً، لأن ضمير يشده لم يعد على واحد منهما؛ لأن شرط الضمير في الاستخدام أن يكون عائداً على اللفظة المشتركة ليستخدم بها معناها الآخر؛ كما قال البحري في «شَبَّوه» فهذا الضمير عائد على الغصا، وهذا قد جعل الضمير في يشده غير عائد على اللفظة المشتركة التي هي النعمان، فصار طيب الذكر الذي يشيده زياد لا يعلم لمن هو: لأن الضمير لا يعود على النعمان.

سُورَةُ اِبْرٰهِيْمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝۱﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝۲﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝۳﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝۴﴾

○ الإعراب:

﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أَلر: تقدم إعرابها، وكتاب خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا كتاب، وجملة «أنزلناه» صفة، وإليك متعلقان بأنزلناه، واللام لام التعليل، وتخرج فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنت،

والناس مفعول به، ومن الظلمات متعلقان بتخرج، وإلى النور متعلقان بتخرج أيضاً ﴿يَا ذَن رَّبِّهْم إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بإذن متعلقان بمحذوف حال، أي: حال كونك مأذوناً من ربك، وربهم مضاف إليه، وإلى صراط بدل من قوله إلى النور بإعادة العامل، والعزیز مضاف إليه، والحميد صفة ﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلَمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ﴾ الله بالجر بدل، أو عطف بيان للعزیز الحميد، وقرئ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو الله المتصف بملك ما في السموات وما في الأرض، والذي صفته، وله خبر مقدم، وما مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الذي، وفي السموات صلة ما، وما في الأرض عطف على ما في السموات ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ويل مبتدأ، سوغ الابتداء به قصد الدعاء على الكافرين، وسيأتي مزيد بحث عن هذه الكلمة في باب الفوائد، والجملة دعائية لا محل لها، وللکافرين خبر، ومن عذاب نعت لويل، أو متعلقان بويل، فعلى الأول تكون من بيانية، وعلى الثاني تكون للتعدية، وشديد صفة. وفي تفسير أبي السعود: ومن عذاب شديد متعلقان بويل، على معنى يولولون، ويضجون منه، قائلين: يا ويلاه، كقوله: ﴿دَعُوا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ ومنع أبو حيان تعليقها بويل قال: «ومن عذاب شديد» في موضع الصفة لويل، ولا يضير الفصل بالخبر بين الصفة والموصوف، ولا يجوز أن يكون متعلقاً بويل لأنه مصدر، ولا يجوز الفصل بين المصدر وما يتعلق به الخبر ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ الذين نعت للكافرين، أو مبتدأ خبره جملة أولئك في ضلال بعيد الآتية؛ أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم الذين يستحبون، وجميع هذه الأوجه متساوية في الأرجحية، فلذلك ذكرناها، وجملة يستحبون صلة، والحياة مفعول به، والدنيا صفة، وعلى الآخرة متعلقان يستحبون؛ لأنها بمعنى الإيثار والاختيار، وهي استفعال من المحبة؛ لأن المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من الآخر ﴿وَيَصُدُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ويصدون عطف على يستحبون، وعن سبيل الله جار ومجرور متعلقان يصدون، ويبغونها عطف على يصدون، ويبغون فعل

وفاعل، والهاء نصب بنزع الخافض، أي: ييغون لها، وعوجاً مفعول به ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ اسم الإشارة مبتدأ، وفي ضلال خبره، وبعيد صفة لضلال، وفي جعل الضلال ظرفاً فن بلاغي سنعرض له في باب: البلاغة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ الواو استئنافية، والجملة مستأنفة لبيان وسيلة المخاطبة؛ التي يضطلع بها كل رسول لأمرته، وما نافية، وأرسلنا فعل وفاعل، ومن زائدة، ورسول مجرور لفظاً منصوب على المفعولية محلاً، وإلا أداة حصر، وبلسان قومه حال، أي: متلبساً بلسان قومه، فهو استثناء من أعم الأحوال، وليبين اللام للتعليل، ويبين مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، ولهم متعلقان بيبين ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ الفاء استئنافية، ويضل مرفوع على الاستئناف، ولا يجوز عطفه على يبين كما يتوهم؛ لأن المعطوف كالمعطوف عليه في المعنى، والرسول أرسلت للبيان لا للإضلال، قال الفراء: إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر، فإن لم يكن النسق مشاكلاً للأول فالرفع على الاستئناف هو الوجه، على أن الزجاج قال: ولو قرئ بنبضه على أن اللام لام العاقبة جاز. ويضل الله فعل مضارع وفاعل، ومن مفعول به، ويشاء صلة، ويهدي من يشاء عطف على يضل الله من يشاء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هو مبتدأ، والعزير خبر أول، والحكيم خبر ثان.

□ البلاغة:

انطوت هذه الآيات الأربع على فنون من البلاغة، نوجزها فيما يلي:

(١) الظلمات والنور استعارتان تصريحيتان للضلال والهدى، وقد تقدم نظائرها، فلا حاجة للإعادة.

(٢) في إسناد البعد إلى الضلال مجاز عقلي؛ لأن البعد في الحقيقة للضلال؛ لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، كما تقول: جد جده، وداهية دهياء.

(٣) في جعل الضلال ظرفاً مجازاً أيضاً؛ كأنه قد أحاط بهم، وجلبهم بسواده، فهم منغمسون فيه إلى الأذقان يتخبطون في متاهاته، ويتعسفون في ظلماته.

(٤) في جعل اللسان لغة مجاز علاقته السببية؛ لأنه آلة النطق؛ لأن معنى بلسان قومه: بلغة قومه، واللسن واللسان، كالريش والرياش، وسيأتي في باب الفوائد تفصيل مسهب عن لغة القرآن واللهجات السبع التي قرىء بها. ووحد اللسان لأن المراد اللغة، وقد قيل: في هذه الآية إشكال؛ لأن النبي ﷺ أرسل إلى الناس جميعاً، ولغاتهم متباينة، وألسنتهم مختلفة. وأجيب بأنه إن كان ﷺ مرسلأ إلى الناس كافة، لكن لما كان قومه العرب، وكانوا أخص به، وأقرب إليه، كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم، ويوضحونه حتى يصير فاهماً له كفهمهم إياه، ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم، وبينه رسول الله ﷺ لكل قوم بلسانهم، لكان ذلك مظنة للاختلاف، وفتحاً لباب التنازع على مصراعيه؛ لأن كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها، وربما كان أيضاً مفضياً إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التي يقع فيها المتعصبون.

(٥) الطباق بين يضل ويهدي، وجميع هذه الفنون تقدم بحثها في مظانها.

* الفوائد:

في هذه الآيات من الفوائد ما يستوعب الأجلاد، ولكننا جرياً على نهج الكتاب سنجتزئ بما لا بد من ذكره فيما يلي:

(١) (ويل):

كلمة وعيد وتهديد، وهي نقيض الوأل، أي: النجاة، اسم بمعنى الهلاك، إلا أنه لا يشتق منه فعل، إنما يقال: ويلاً له، فينصب نصب المصادر، ثم يرفع رفعها لإفادة معنى الثبات، فيقال: ويل له، كسلام عليك.

وفي «المختار»: الوائل: الملجأ، وقد وأل إليه، أي: لجأ، وبابه: وعد، ووؤلاً بوزن وجود، وويل زيد وويحه منصوبان على المصدرية، وقيل: ويل كلمة عذاب، وويح كلمة ترحم.

(٢) لغة القرآن ورأي الدكتور طه حسين:

لغة القرآن: علم قائم بذاته، ويظهر أن الحديث الشريف: «نزل القرآن على سبعة أحرف» كان سبباً في نشوء هذا العلم من علوم القرآن، وأحدث الدراسات فيه وأقومها ما قرره الدكتور طه حسين في كتابه: «الأدب الجاهلي» وفيما يلي خلاصة هذا البحث القيم:

يثبت الدكتور طه أن هنالك خلافاً جوهرياً بين اللغة التي يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد، وينتهي من إثبات ذلك إلى القول بأن القدماء والمحدثين مضطربون في تحديد ما ينبغي أن يفهم من لفظ العرب، وفي تحديد ما ينبغي أن يفهم من لفظ اللغة العربية، وهذا الاضطراب ليس من شأنه أن يعين على التحقيق العلمي، ثم يمضي الأستاذ في ذكر الفروق بين لغة عرب الجنوب وعرب الشمال، ويورد بعض النصوص التي كشفها الأستاذ جويدي من اللغة الحميرية، وكيف أنها تختلف اختلافات كثيرة جداً عن اللغة الحجازية القرشية التي نعرفها، ومثال هذا النص الذي يقول: وهبم واخهو بنو كلبت هقنيو إلى مقه ذهرن ذن فرنذن حجن وقههمو بمسألهمو وسعدهمو نعمتم. ومعناها: وهاب (اسم رجل) وأخوه بنو كلب أعطوا المقه (اسم إله في هران) هذا اللوح؛ لأنه أجابهم عن سؤالهم، وسلمهم، وساعدهم بنعمته. ويمضي في هذا البحث الطويل إلى أن يقول: إن القرآن الذي تلي بلغة واحدة ولهجة واحدة هي لغة قريش ولهجتها، لم يكذب يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته، وتعددت اللهجات فيه، وتباينت تبايناً كثيراً، حير القراء والعلماء المتأخرين في ضبطه وتحقيقه، وأقاموا له علماً، أو علوماً خاصة، ولسنا نشير هنا إلى هذه القراءات التي تختلف فيما بينها اختلافاً كثيراً في ضبط الحركات، سواء أكانت

حركة بنية ، أو حركة إعراب ، لسنا نشير إلى اختلاق القراء في نصب الطير في الآية : ﴿يَجِبَالٌ أَوِيٍّ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ أو رفعها ، ولا إلى اختلافهم في ضم الفاء ، أو فتحها ، في الآية : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إنما نشير إلى اختلاف آخر في القراءات يقبله العقل ، ويسیغه النقل ، وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها ، لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبي وعشيرته من قريش ، فقرأته كما كانت تتكلم ، فأملت حيث لم تكن تميل ، وقصرت حيث لم تكن تقصر ، وسكنت حيث لم تكن تسكن ، وأدغمت ، أو أخفت ، أو نقلت حيث لم تكن تدغم ، ولا تخفي ، ولا تنقل .

وقفة لا بد منها :

وهنا وقفة لا بد منها ، ذلك : أن قوماً من رجال الدين فهموا أن هذه القراءات السبع متواترة عن النبي ، نزل بها جبريل على قلبه ، فمنكرها كافر في غير شك ولا ريبه ، ولم يوفقوا إلى دليل يستدلون به على ما يقولون سوى ما روي في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال : «أنزل القرآن على سبعة أحرف» والحق أن هذه القراءات السبع ليست من الوحي في قليل ولا كثير ، وليس منكرها كافراً ، ولا فاسقاً ، ولا مغتصباً في دينه ، وإنما قراءات مصدرها اللهجات واختلافها ، للناس أن يجادلوا فيها ، وأن ينكروا بعضها ، ويقبلوا بعضها ، وقد جادلوا فيها بالفعل ، وتمازوا ، وخطأ فيها بعضهم بعضاً ، ولم نعرف أن أحداً من المسلمين كفر أحداً لشيء من هذا ، وليست هذه القراءات بالأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها ، وإنما هي شيء وهذه الأحرف شيء آخر ، فالأحرف جمع حرف ، والحرف : اللغة ، فمعنى أنزل القرآن على سبعة أحرف أنه أنزل على سبع لغات مختلفة في لفظها ومادتها ، يفسر ذلك قول ابن مسعود : إنما هو كقولك : هلم ، وتعال ، وأقبل . ويفسر ذلك قول أنس في الآية : «إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأصوب قبلاً» أصوب وأقوم وأهدى واحد ، ويفسر ذلك قراءة ابن مسعود «ما ينظرون إلا زقية

واحدة» مكان «ما ينظرون إلا صيحة واحدة».

الأحرف غير القراءات:

الأحرف إذن اللغات التي تختلف فيما بينها لفظاً ومادة، فأما هذه القراءات التي تختلف في القصر والمد، وفي الحركة والسكون، وفي النقل والإثبات، وفي حركات الإعراب، فليست من الأحرف في شيء؛ لأنها اختلاف في الصورة والشكل، لا في المادة واللفظ، وقد وافق المسلمون على أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، أي: على سبع لغات مختلفة في ألفاظها ومادتها، وافق المسلمون على أن أصحاب النبي تماروا في هذه الأحرف السبعة، كلُّ يقرأ على الحرف الذي سمعه من النبي، فاشتد الخلاف والمراد في ذلك، حتى كادت الفتنة تقع بين الناس، ولا سيما في جيوش المسلمين التي كانت تغزو وترابط في الثغور بعيدة عن مهبط الوحي، ومستقر الخلافة، فرفع الأمر إلى الخليفة عثمان - رضي الله عنه - فجزع له، وأشفق على المسلمين أن يقع بينهم مثل ما وقع بين النصارى من الاختلاف في نص القرآن، كما اختلفوا في نص الإنجيل، فجمع لهم المصحف، وأذاعه في الأمصار، وأمر بما عداه من المصاحف، فمحي محواً، وعلى هذا محيت الأحرف الستة، ولم يبق إلا حرف واحد هو هذا الحرف الذي نقرؤه في مصحف عثمان، وهو حرف قريش، وهو الحرف الذي اختلفت لهجات القراء فيه، فمد بعضهم، وقصر بعضهم، وفخّم فريق، ورقّق فريق، ونقل طائفة وأثبتت طائفة، ثم أورد الدكتور طه ما ورد في الجزء الأول من تفسير ابن جرير الطبري لتأييد رأيه.

خلاصة قول الطبري:

قال ابن جرير ما ملخصه: إن قوماً من العلماء ذهبوا إلى أن الأحرف السبعة هي سبعة معان، جملتها: الأمر، والنهي، والوعد، والوعيد، والجدل، والقصص، والمثل. ولكنه يعارض هذا ويقول: إن الأحرف السبعة هي سبع لغات من لغات أحياء من قبائل العرب مختلفة الألسن، وذكر أن أصحاب رسول الله تماروا في تلاوة بعض القرآن، فاختلفوا في قراءته دون

تأويله، وأنكر بعض قراءه بعض مع دعوى كل قارئ قراءة منهم أن رسول الله أقرأه ما قرأه بالصفة التي قرأ، ثم احتكموا إلى رسول الله، فكان من حكم رسول الله بينهم أن صوب قراءة كل قارئ منهم على خلاف قراءة أصحابه الذين نازعوه فيها، وأمر كل امرئ منهم أن يقرأ كما علم، حتى خالط قلب بعضهم الشك في الإسلام لما رأى من تصويب رسول الله قراءة كل منهم على اختلافها، ثم جللاه الله ببيان رسول الله له أن القرآن أنزل على سبعة أحرف.

وعرض الطبري لنقطة هامة، وهي الرد على سؤال المستفسرين: فما بال الأحرف الأخر الستة غير موجودة، وقد أقرأهن رسول الله أصحابه، وأمر بالقراءة بهن، وأنزلهن الله من عنده على نبيه؟ أنسخت فرفعت؟ فما الدلالة على نسخها ورفعها؟ أم نسيتهن الأمة؟ فذلك تضييع ما قد أمروا بحفظه، أم ما القصة في ذلك؟ وأجاب ابن جرير على هذه الأسئلة المخرجة جواباً بارعاً فقال: لم تنسخ الأحرف الستة فترفع، ولا ضيعتها الأمة وهي مأمورة بحفظها، ولكن الأمة أمرت بحفظ القرآن، وخيرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف السبعة شاءت، وضرب لها مثلاً في الفقه: إذا حنث موسر في يمين فله أن يختار كفارة من ثلاث كفارات: إما بعتي، أو إطعام، أو كسوة، فكذلك الأمة أمرت بحفظ القرآن وقراءته، وخيرت في قراءته بأي الأحرف السبعة شاءت قرأت، ولعلة من العلل أوجب عليها الثبات على حرف واحد قراءته بحرف واحد، ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية، ولم تحظر قراءته بجميع حروفه على قارئه بما أذن له في قراءته به.

رأي السيوطي في «الإتقان»:

أما السيوطي فقد أكد في كتابه «الإتقان» صحة الحديث بشهادة واحد وعشرين صحابياً ذكره، ثم أراد عثمان بن عفان أن يستوثق من صحته فطلب من المسلمين، وهم مجتمعون في المسجد، أن يقف منهم من سمع هذا الحديث، فوقف من في المسجد كلهم، فقال: وأنا أشهد معهم، وانتقل السيوطي إلى بحث الأقوال التي قيلت في هذا الحديث، فإذا هي نحو أربعين

قولاً، وبدأ فأضاف إشكالاً إلى الإشكالات الموجودة في هذا الموضوع، فقال : إنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد، بل المراد : التيسير، والتسهيل، والسعة، ولفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة في الآحاد كما يطلق السبعون في العشرات، ولكنه ردّ هذا القول بأن في القرآن آيات كثيرة تقرأ على أكثر من سبعة أوجه، ومنها ما يقرأ على أقل، ومنها ما تغيرت حركته ولم يتغير معناه ولا صورته (مادة اللفظ). ومنها ما ذكره الطبري من اختلاف الألفاظ واتفاق المعاني، وذكر الطحاوي أن ذلك كان رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد، لعدم علمهم بالكتابة، والضبط، وإتقان الخط، ثم نسخ بزوال العذر، وتيسر الكتابة والحفظ، وضرب مثلاً لهذا أن عبد الله بن مسعود كان يعلم رجلاً القرآن فتلا عليه ﴿طَعَامُ الْأَثِيرِ﴾ فقال الرجل : طعام الشيم، فردّها عليه، فلم يستقم لسانه بها، فقال : أتستطيع أن تقول طعام الفاجر؟ قال : نعم، قال : فافعل.

وقول آخر ذهب إليه الكثير من العلماء، مثل أبي عبيد وثعلب والزهري، وهو : إن الأحرف السبعة هي لغات سبع، فلما قيل لهم : إن لغات العرب أكثر من سبع، أجابوا : إن المراد هو أفصحها.

ولأبي عبيد رأي قيم، وهو : أن في القرآن سبع لغات متفرقة فيه، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن وغيرهم، أي : أن في القرآن ألفاظاً وجمالاً مما كانت تعرف هذه القبيلة وهذه القبيلة.

ومضى السيوطي يعرض طائفة أخرى من الأقوال لا أهمية لها، ثم أنهى كلامه بقوله : لقد ظن كثير من العوام أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع، وهو جهل قبيح.

خلاصة وافية :

ويطول بنا البحث إن رحنا نتقصى ما قيل في هذا الصدد، أو نبحت

الأصول التي تمتد إليها اللغة العربية، فيإمكان القارىء أن يرجع إليها في الكتب المؤلفة بهذا الشأن، وحسبنا أن نقول الآن: إن القرآن نزل باللغة العربية القرشية؛ التي ذابت فيها اللغات الأخرى ولغات القبائل المجاورة بنوع خاص، وقد فهم الصحابة القرآن إجمالاً، ولكن ألفاظاً غير قليلة استغلقت عليهم، بل إن بعضها لا يزال مستغلماً علينا اليوم، بالرغم من أن وسيلة العلم ببعض اللغات القديمة قد توفرت لدينا، وقدروي أن عمر بن الخطاب لم يفهم كلمة «أباً» من قوله «وفاكهة وأباً» وله العذر فهي كلمة حبشية. وروي عن ابن عباس أن أعرابيين اختصما لديه في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها وعارضه الثاني، قال ابن عباس: ففهمت حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وروي عن ابن عباس أيضاً أنه لم يكن يفهم معنى الآية: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ حتى سمع فتاة من اليمن - بنت ذي يزن - تنادي زوجها: أفتحك، تقصد: أحاكمك.

وقد ذكر ابن النقيب في «خصائص القرآن» أن القرآن احتوى على جميع لغات العرب، وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير، وقد سبق أن أوردنا هذا القول ومن الألفاظ غير العربية التي فطن الأقدمون إلى وجودها في القرآن ما يأتي:

إستبرق: يونانية. مشكاة: الكوة بالحبشية. ابلعي ماءك: هندية أو حبشية. منسأة: عصا بالنبطية. الأرائك: حبشية أب: حبشية. إصر أي: عهد: نبطية. أخلد: عبرية. أبواب: المسيح بالحبشية. أسفار: سريانية، أو نبطية. بطائنها: أي ظواهرها بالقبطية. أليم: موجد. قالوا زنجية، أو عبرية. تنور: فارسية. الأداة: الموقن بالحبشية. جهنم: يونانية أو فارسية. حصب: بمعنى حطب في الزنجية. حواريون: أي: غسالون: بالحبشية. دينار: فارسية. دري: أي مضيء: بالحبشية. رهواً: سهلاً بالسريانية. السجل: الكتاب بالحبشية. سجيل: فارسية. الرس: أي البئر: باليونانية. سندس: فارسية وهندية سرياً: قيل سريانية، أو نبطية، أو يونانية. الطاغوت:

الكاهن بالحبشية. غساق: المتن البارد بالتركية. الصراط: الطريق بلغة الروم
 الفردوس: البستان بالرومية عدن: الكروم بالسريانية. القسطاس: الميزان
 بالفارسية. غيض: أي: نقص، بالحبشية. كافور: بالفارسية. القسط:
 العدل بالفارسية. اليم: البحر بالسريانية والقبطية. قسورة: الأسد
 بالحبشية. ناشئة الليل: بالحبشية. كفلين: ضعفين بالحبشية. وزر: الملجأ
 بالنبطية. كوَّرت: أي: غورت، بالفارسية. هيت لك: بالقبطية. مرقوم:
 مكتوب بالعبرية. ياقوت: بالفارسية. مناص: فرار بالنبطية. يحور: يرجع
 بالحبشية. المهل: الزيت بلسان البربر. يعهد: أي ينضج بالبربرية. هوناً:
 بالسريانية. الفوم: الخنطة بالعبرية.

وقد أورد السيوطي في «الإتقان» هذه الألفاظ وغيرها، كما أورد مئات
 الألفاظ وردت في القرآن بغير لغة الحجاز، ومنها لغات اليمن، وقد نص على
 كثير من الألفاظ الحميرية بالذات، فقد ذكر مثلاً أن أسطوراً بلغة حمير تعني
 الكتاب، وعلى هذا يفهم قوله: ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٌ﴾. وذكر أن اللهوتعني المرأة
 بلغة اليمن، وعلى هذا تفهم الآية: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا﴾ ترى ما الذي يمنع
 وقد صح لدينا أن أمر الألفاظ القرآنية والمصادر العديدة التي جاءت منها، أن
 تكون الأحرف السبعة هي هذه اللغات العديدة التي ذابت في لغة قريش،
 والتي علم النبي بعضها والتي تضمنتها ألفاظ القرآن؟!

إننا نرجح مبدئياً، وليس لدينا وسائل الجزم النهائي، أن هذا هو الصواب
 في شأن الأحرف السبعة، فهي تشير إلى ألفاظ كثيرة من لغات عدة استعملها
 القرآن منها: الفارسية، واليونانية، والآرامية، والكلدانية، والحبشية،
 والحميرية، والعبرية، والسريانية، والمصرية، وكلها أضيفت إلى لغة قريش،
 فقوت من شأنها، وأزالت الركاقة والغثاثة التي كانت موجودة في لغة القبائل
 الأخرى؛ التي كانت تفد إلى الحج، وهي التي تلتزم حروفاً بدل حروف، مثل
 إبدال كاف المؤنث شيناً، فيقولون: كتابش بدل كتابك، وعليه قوله:

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولكن عظم السَّاقِ منش دقيق

وأصله :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولكن عَظَمَ السَّاقَ منك دقيق
وهي قبيلة قيس . ومثل الذين لا يستطيعون النطق بالسين ، فيستبدلون
بها تاء ، فالناس عندهم النات ، وهم قبيلة تميم .

خلا القرآن من هذه اللهجات الكثيرة ، والتزم الإعراب في أواخر
الكلمات جميعاً . ولم يكن ملتزماً في كثير من اللغات الأخرى ، وعرف النبي
وهو متلقي الوحي ، ومعلم القرآن الأول تفسير ما أنزل عليه كله ، وما سأله
عنه أصحابه كان يخبرهم به ، ولعلمهم كانوا يتحاشون سؤاله في كثير من
الألفاظ ، بدليل جهلهم بها بعد وفاته ، ونهيه عن التكلف والتعمق ، أي :
البحث في معنى كل لفظ ، والتنقيب وراءه ، وليس هذا الذي نقوله في أمر
ألفاظ القرآن ، وإنما هي الأحرف السبعة قولاً شاذاً لم يقل به أحد ، وإنما قال
به كثيرون منهم : أبو عبيد القاسم بن سلام ، وثعلب ، وأبو حاتم
السجستاني ، وغيرهم .

وإذا فمن الخطأ كل الخطأ أن نقول : أن قرأنا نزل ليكون معجزة نبي ، ثم
نقول : إنا قادرون على أن نبدل لفظاً مكان لفظ ؛ لأن لدينا الكثير من الألفاظ ،
أي : المترادفات . استمع إلى هذه الآية : ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظُرُونَ ﴾ ثم نقرأها
على الأحرف التي يقول عنها هكذا «للذين آمنوا أمهلونا» أو «للذين آمنوا
ارقبونا» ولنترك للقارئ أن يدقق النظر قليلاً ، وبطيل التفكير ليرى هل يتفق
معنى هذه التعابير كلها ، وهل يبقى لها مكانها من الإعجاز وهي بهذه
الصورة ؟ واسمع إلى الآية الأخرى : ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأَوْفِيهِ ﴾ و«كلما أضاء
لهم مروا فيه» و«كلما أضاء لهم سعوا فيه» من يقل أن مشى وسعى ومرّ
متساوية في الاستعمال ، فهو جاهل كل الجهل ، خابط في عشواء من الضلال .

الأحرف السبعة ، إذن ، شيء آخر غير هذه التعديلات والتبديلات ،
وأدنى إلى الصواب في توضيحها ما ذكرناه من تضمن القرآن الكثير من
الألفاظ الأعجمية التي دخلت إليه ، وإلى لغة قريش من الشعوب المحيطة بشبه

الجزيرة، وسيأتي مزيد بيان لهذا البحث الجليل؛ الذي طال قليلاً، ولم يكن من شرط الكتاب.

ونذكر بهذه المناسبة أن المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد وضع كتابيه: «أبو الأنبياء: الخليل إبراهيم» و«الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين» وتصدى فيهما لقضية لغة خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وردّ على المنحرفين الذين يريدون أن ينحرفوا ببحوثهم في اتجاه معين مسبوق بتخطيط ينسلخ بسببه العرب عن صلتهم بالخليل، وأثبت صلة إبراهيم الوثيقة بالعروبة في وقت مبكر يقع بين القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، ونرى تتميماً لبحثه الرفيع أن نورد حديثاً ساقه الإمام البخاري في صحيحه، ورواه بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وقد استوعب هذا الحديث صفحات عدة من هذا السفر العظيم، نوجز تلخيصه، وتحديد موضوعاته، فيما يأتي:

(١) تحدّث عن الشخصيات الطاهرة التي نزلت بمكة وقت كان ليس بها أحد ولا ماء، وهم: الخليل إبراهيم، وهاجر، وابنها الرضيع إسماعيل.

(٢) نبع زمزم لهاجر وولدها.

(٣) قدوم بطن عربي جرهمي، واستئذانه هاجر في السماح له بالإقامة في مكة راضين بشرطها - أن لا حق لهم في الماء - واستقدموا أهلاً لهم، وقد شب إسماعيل عليه السلام بينهم، وتزوج منهم مرتين.

(٤) زيارات ثلاث للخليل إلى مكة لوديعته عدا الأولى التي قدم فيها بأهله إليها، وكان آخرها تلك الزيارة مع ولده، وأمر فأذن في الناس بالحج.

وهذا الحديث يعطي حقائق موضوعية هامة توضح بعض ما غاب عن التاريخ في منهجه الحديث:

أولها: بيانه الواضح عن مبدأ تاريخ العمران في مكة.

ثانيهما: يوضح حلقة مفقودة لدى المؤرخين عن ممالك الإسماعيليين في شمال الجزيرة العربية.

ثالثهما: لغة الخليل، فقد زار الخليل مكة أربع زيارات، وتزوج إسماعيل امرأتين من جرهم، وكان يخاطبهما ويحاورهما بالعربية حتماً دون مترجم، فصح ما قاله العقاد، ولسنا نقول أنه تحدث بالعربية التي هي عربيتنا، أعني لغة القرآن الكريم، لكنها عربية زمانه الوثيقة الصلة أصولاً وفروعاً بعربية القرآن الكريم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۚ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۚ﴾

☆ اللغة:

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يذيقونكم، وأصله من سام السلعة يسوم سوماً وسواماً: عَرَضَها وذكر ثمنها، وسام المشتري السلعة: طلب بيعها، أو ثمنها، وسامت الماشية: خرجت إلى المرعى، وسامه الأمر: كلفه إياه، وسامه خسفاً: أذله، قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملكُ سامَ الناسَ خَسْفاً أبينا أن نقرَّ الذَّلَّ فينا

وسام الطير على الشيء: حام عليه، وسامت الريح: مرّت واستمرت، وسام ناقته على الخوض: عرضها عليه.

ومن المجاز: سمت المرأة المعانقة: أردتها منها، وعرضتها عليها. وللسين مع الواو فاء وعيناً خاصة عجيبة، أنهما تفيدان الكلمة معنى الإحاطة

بالشيء، والهيمنة عليه، وشموله، وتغطيته؛ لأن المحيط بالأشياء شامل لها مهيمن عليها؛ فالسوء: القبح، وهو يحيط بصاحبه ويلفه، كما يحيط بمن يمتد إليهم ويصيبهم، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ وفلان يحيط الحسنى بالسوءى، وهذا مما ساءك وناءك ومما يسوءك وينوءك، قال الجاحظ: هو من السوء: البرص، وقال أبو زبيد:

لَمْ يَهَبْ حُرْمَةَ النَّدِيمِ وَحُقَّتْ يَا لِقَوْمِي لِلْسَّوْءِ السَّوْءُ

وسوّج وسيّج الكرم ونحوه، أو على الكرم: عمل عليه سياجاً يحوطه ويصونه، والسيّاج - بكسر السين -: الحائط وما أحيط به على كرم ونحوه، وجمع السياج: سياجات وأسوجة وسوّج، وعملت سفينة نوح من ساج، وهي خُشْبُ سود رزان لا تكاد الأرض تبليها، ولبسوا السيجان، وهي: الطيالة المدورة الواسعة، والساحة: فضاء بين دور الحي يحيط بها لا بناء فيه ولا سقف، وجمعه ساح وسوح وساحات، ويقولون: احمر اللُّوحُ، واغبرّت الشُّوح؛ إذا وقع الجذب، وقال أبو ذؤيب:

وَكَانَ سَيَّانَ أَلَّا يَسْرَحُوا نَعْمًا

أَوْ يَسْرَحُوهُ بِهَا وَاغْبَرَّتِ الشُّوحُ

وساخت قوائم الدابة في الأرض، وهذه أرض تسوخ بها الأقدام، وساخت بهم الأرض، وساد قومه يسودهم؛ كأنما أحاطهم بنعمته وغلبته، وساده، أي: غلبه عند المغالبة، والسواد: خلاف البياض، وهو لون يحيط بالجسم، أو بالشيء، والسواد: الشخص. سواد البلدة: ما حولها من الريف والقرى. ومنه سواد العراق: لما بين البصرة والكوفة، ولما حولهما من القرى. وقد أبدع شوقي في قوله:

قَفْ تَمَهَّلْ وَخُذْ أَمَانًا لِقَلْبِي مِنْ عُيُونِ الْمَهَا وَرَاءِ السَّوَادِ

والأسود معروف، والأسود: الحية العظيمة السوداء، وهي المعروفة بالحنش، وفلان أسود الكبد، أي: عدو، وهم سود الأكباد، أي: أعداء، والسوداء والسويداء عند الأطباء، خلط مقره في الطحال مرض الما ليخوليا،

وهو فساد الفكر في حزن، وسوداء القلب وسويداؤه: حبته، وساوره: وثب عليه، وله سورة في الحرب، وتسورت الحائط، والسور: حائط يطوف بالمدينة، ويحيط بها، وسورة الخمر وسوارها: حذتها، والسوار: حلية كالطوق تلبسه المرأة في زندها، وهو بكسر السين وضمها، ويقال: الإِسوار، والوالي يسوس الرعية، ويسوس أمرهم، وشوَّس فلانٌ أمرَ قومه بالبناء للمجهول، قال الخطيئة:

لَقَدْ شَوَّسَتْ أَمْرَ بَنِيكَ حَتَّى تَرَكَتَهُمْ أَدَقَّ مِنَ الطَّحِينِ

والسياسة: استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل أو الآجل، ولا جرم من يسوس القوم: يحيط بأموارهم، وساطه يسوطه سوطاً: ضربه بالسوط، ولا يضرب إلا من هيمن على الآخر وعليه، والساعة: الوقت المعلوم، وهو يحيط بالموجودات جميعها، فلا يند عنها شيء، وساغ الشراب: سهل، فكأنه غالب لا يقف شيء في طريقه، وساف الشيء: شمه وفيه معنى الإحاطة والهيمنة، وسوّفه: مطله، وقال له مرة بعد مرة، وكم مسافة هذه الأرض، والمسافة: تحيط بما يمتلكه صاحب الأرض، وبينهم مساوف جمع مسافة، وقال ذو الرُّمَّة:

فَقَامَ إِلَى حَرْفٍ طَوَّاهَا بِطَيَّةٍ بِهَا كُلُّ لَمَاعٍ بَعِيدِ الْمَسَاوِفِ

وساق النعم فانسقت، والسوق معروفة، تحيط بما يعرض فيها من شخوص وبضائع وأمتعة، وساك يسوك سوكة: ذلك، وسوّل الشيطان له أمراً: غلبه على أمره فزين له الشر، وسوّى بين الناس: ساوى بينهم، وسويت المعوج فاستوى، والرحمن على العرش استوى، أي: استولى، ورآه في سواء المكان: في وسطه، وسوي الرجل: استقام أمره، ولا يستقيم الأمر إلا لمن غلب، وهما سواء، وهم سواسية في الشر، وهذا من عجيب أمر هذه اللغة.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾: يستبقون.

○ الإعراب:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ جملة مستأنفة، مسوقة لل شروع في تفصيل ما أجمله عن الرسل في قوله تعالى: «وما أرسلنا من رسول»، واللام جواب قسم محذوف، وأرسلنا فعل وفاعل، وموسى مفعول به، وبآياتنا متعلقان بمحذوف حال، أي: مصحوباً بآياتنا ومعززاً بها ﴿أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أن مفسرة، والضابط لها موجود، وهو أن يتقدما جملة فيها معنى القول دون حروفه، وأرسلنا فيه معنى قلنا، أي: قلنا له أخرج، ويجوز أن تكون أن المصدرية الناصبة للفعل، وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر؛ لأن الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر، وهو الفعل، والأمر وغيره سواء في الفعلية، وتكون مع مدخولها منصوبة بنزع الخافض، والتقدير: بأن أخرج قومك، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف منصوب على الحال، أي: قائلين له أخرج قومك، وعلى هذا يكون إعرابها تفسيرية أقل عناء ما دام التقديران يرتدان إلى أصل واحد. وقومك مفعول به لأخرج، ومن الظلمات إلى النور متعلقان بأخرج ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّنَّمَا اللَّهُ﴾ الواو عاطفة، وذكرهم فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به، وبأيام الله متعلقان بذكرهم، وسترى بحثاً مفيداً عن قوله أيام الله في باب الفوائد ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن حرف مشبه بالفعل، وفي ذلك خبرها المقدم، واللام المرحلة للتوكيد، وآيات اسم إن المؤخر، ولكل صفة، وصبار مضاف إليه، وشكور صفة لصبار ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الظرف متعلق بمحذوف يفسره ما بعده، وهو اذكروا، أي: اذكر، وجملة قال موسى مضاف إليها الظرف، ولقومه متعلقان بقال، واذكروا فعل أمر، والواو فاعل، ونعمة الله مفعول به، وعليكم متعلقان بمحذوف حال، أي: كائنة عليكم ﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الظرف متعلق بنعمة الله إذا كانت بمعنى الإنعام، أي: إنعامه ذلك الوقت، ويجوز أن تكون بدلاً من النعمة؛ لأن النعمة تشتمل على النجاة، فيكون بدل اشتمال،

ومن آل فرعون جار ومجرور متعلقان بأنجاكم ﴿يَسْؤُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبْحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أحوال ثلاثة من آل فرعون، أو من ضمير المخاطبين ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ الواو عاطفة، وفي ذلكم خبر مقدم، وبلاء مبتدأ مؤخر، ومن ربكم صفة بلاء، وعظيم صفة ثانية.

* الفوائد:

(أيام الله) هي - كما في القاموس - نعمه، ويوم أيمم: شديد، وآخر يوم في الشهر. وفي «المختار»: وربما عبروا عن الشدة باليوم. وهذا من باب المجاز العقلي، ووجهه: أن العرب تتجوز بنسبة الحدث إلى الزمان مجازاً فتضيفه إليه، كقولهم: نهاره صائم وليله قائم، ومكر الليل، ويترجح تفسير أيام الله ببلائه ونعمائه، وجنح الزمخشري إلى تفسير أيام الله بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود. قال: ومنه: أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار، ويوم الفجار، وغيرها، وقد عبر عنها عمرو بن كلثوم بقوله:

وأيام لنا غرطوال عصينا الملك فيها أن ندينا

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُكُمْ لِمَن شَكَّرْتُمْ لَا زَيْدَنَّاكُمْ وَلَمِنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ٦ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٧ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ٨ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنتُمْ إِلَّا

بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ
 ۞ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ ۞ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِيرَكَ
 عَلَىٰ مَا أَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۞

☆ اللغة:

﴿تَأَذَّنَ﴾ : أذن، ونظير تأذن توعد وأوعد، وتفضل وأفضل، ولا بد في تفعل زيادة معنى ليس في أفعل؛ لما في التفعل من التكلف والمبالغة.

○ الإعراب:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وإذ عطف على نعمة الله عليكم، كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم، ويجوز عطفه على «إذ أنجاكم»، وجملة تأذن مضاف إليها الظرف، وربكم فاعل تأذن، وجملة «لئن شكرتم» مقول قول محذوف، أو أجري تأذن مجرى قال؛ لأنه ضرب من القول، فلا حاجة لتقدير القول، واللام موطئة للقسم، وإن شرطية، وشكرتم فعل الشرط، ولأزيدنكم اللام جواب القسم، وجملة لأزيدنكم لا محل لها؛ لأنها جواب القسم، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، وفاقاً للقاعدة ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ جملة معطوفة على نظيرتها، وجواب القسم محذوف، ولكنه مدلول عليه ضمناً بقوله: «إن عذابي لشديد» أي: لأعذبنكم، وإنما حذفه هنا، وأظهره في مقام الشكران؛ لأن من عادة الله - وهو الكريم - أن يصرح بالوعد، ويعرض بالوعيد، وإن واسمها وخبرها ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيدٌ﴾ وقال موسى فعل وفاعل، وجملة «إن تكفروا» مقول القول، وإن شرطية، وتكفروا فعل الشرط، والواو فاعل،

وأنتم تأكيد للواو، ومن عطف على الواو، وفي الأرض صلة من، وجميعاً حال، والفاء رابطة، وإن واسمها، واللام المرحلة، وحيد خبرها ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ولم حرف نفي وقلب وجزم، ويأت فعل مضارع مجزوم بلم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، والكاف معقول به، ونبأ فاعل، والذين مضاف إليه، ومن قبلكم صفة ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ قوم بدل من الذين، ونوح مضاف إليه، وعاد وثمود معطوفان، والذين من بعدهم مبتدأ، وجملة لا يعلمهم إلا الله خبر، والجملة الاسمية معترضة بين المفسر وهو نبأ الذين من قبلكم وتفسيره وهو: «جاءتهم رسلهم بالبينات»، ويجوز أن تكون والذين من بعدهم عطف على ما قبله، وهو قوم نوح، أو الذين من قبلكم، وقوله: «لا يعلمهم إلا الله» معترضة ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جملة مستأنفة، أو خبر ثان للذين، ورسلهم فاعل، وبالبينات متعلقان بجاءتهم ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ الفاء عاطفة، وردوا فعل وفاعل، وأيديهم مفعول به، وفي أفواههم متعلقان بردوا، أو بمحذوف حال، وسيأتي بحث عن هذا التعبير في باب: البلاغة، وقالوا عطف على ردوا، وإن واسمها وجملة كفرنا خبر، وبما متعلقان بكفرنا، وجملة أُرسلتم صلة، وبه متعلقان بأرسلتم ﴿وَإِنَّا لَنَحْيِ شَكَّكُمْ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وإنا عطف على إنا السابقة، وإن واسمها، واللام المرحلة، وفي شك خبر، ومما متعلقان بشك، أو صفة له، وجملة تدعوننا صلة، وإليه متعلقان بتدعوننا، ومريب صفة لشك ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ جملة مستأنفة، مبنية على سؤال مقدر يقتضيه المقام، كأنه قيل: فماذا قالت رسلهم؟ فأجيب بأنهم قالوا منكرين، فالهمزة الاستفهامية للإنكار من مقلتهم الحمقاء، وفي خبر مقدم، وشك مبتدأ مؤخر، وقيل شك فاعل أفي الله؛ لاعتماده على الاستفهام، ورَّجَّحه النحاة القدامى وجميع المعربين؛ لئلا يلزم على الوجه الأول الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي، وهو المبتدأ، بخلاف الفاعل الذي هو كالجزء من رافعه، والحق أن هذا كله لا أساس له،

والوجه هو الأول ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾
 فاطر صفة لله، أو بدل منه، وجملة يدعوكم حالية، أي: حالة كونه يدعوكم
 إلى الإيمان بإرساله إيانا، واللام للتعليل، ويغفر فعل مضارع منصوب بأن
 مضمرة بعد لام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بيدعوكم، ومن ذنوبكم
 متعلقان بيغفر، وهي بمعنى التبعيض، قال في «الكشاف»: فإن قلت ما معنى
 التبعيض في قوله «من ذنوبكم» قلت: ما علمته جاء إلا هكذا في خطاب
 الكافرين لثلاث يسوي بينهم وبين المؤمنين. وقال الرازي: أما قول صاحب
 الكشاف: المراد تمييز خطاب المؤمن من خطاب الكافر، فهو من باب
 الطامات؛ لأن هذا التبعيض إن حصل فلا حاجة إلى ذكر الجواب، وإن لم
 يحصل كان هذا الكلام فاسداً. وقال بعضهم: هي للبدل، أي: بدل عقوبة
 ذنوبكم، ويحتمل أن يضمن يغفر معنى يخلص، أي: يخلصكم من ذنوبكم،
 واختار أبو عبيدة زيادتها تبعاً للأخفش؛ الذي يميز زيادتها في الموجب.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ويؤخركم عطف على يغفر، وإلى أجل
 متعلقان بيؤخركم، ومسمى نعت لأجل ﴿قَالُوا إِنَّا نَسْتَعِزُّ إِلَّا بِشَرِّ مِثْلِنَا﴾ إن
 نافية، وأنتم مبتدأ، وإلا أداة حصر، وبشر خبر، ومثلنا صفة ﴿تُرِيدُونَ أَن
 تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ جملة تريدون صفة ثانية لبشر، أو تكون
 مستأنفة، وتريدون فعل وفاعل، وأن وما في حيزها مفعول تريدون، وعمّا
 متعلقان بتصدونا، وجملة كان صلة، وجملة يعبد خبر كان، وآباؤنا فاعل يعبد
 ﴿فَأَنۢتُونَا بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ الفاء الفصيحة، واثتونا فعل أمر وفاعل ومفعول
 به، وبسلطان متعلقان باثتونا، ومبين صفة ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ
 مِّثْلُكُمْ﴾ قالت لهم رسلهم فعل وفاعل، ولهم متعلقان بقالت، وإن
 نافية، ونحن مبتدأ، وإلا أداة حصر، وبشر خبر، ومثلكم صفة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ
 يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الواو حالية، أو عاطفة، ولكن واسمها، وجملة
 يمين خبرها، وعلى من متعلقان يمين، وجملة يشاء صلة، ومن عباده حال
 ﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الواو عاطفة، وكان فعل
 ماض ناقص، ولنا خبر كان المقدم، وأن ومدخولها في تأويل مصدر اسم كان

المؤخر، وبسلطان متعلقان بنأتيكم، وإلا أداة حصر، ويأذن الله حال، أي: متلبساً بإذن الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الواو عاطفة، وعلى الله متعلقان بمتوكل، والفاء عاطفة أيضاً، واللام لام الأمر، ويتوكل فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، والمؤمنون فاعل يتوكل ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ الواو عاطفة، وما استفهامية، والاستفهام هنا معناه النفي، أي: لا مانع لنا، ولا عذر نتشبه بأهدابه، وهو في محل رفع مبتدأ، ولنا الخبر، وإن وما في حيزها في موضع نصب على الحال، أي: الجار والمجرور فهو منصوب بنزع الخافض، والواو للحال، وقد حرف تحقيق، وهذان فعل وفاعل مستتر ومفعول به، وسبلنا نصب بنزع الخافض، والمعنى: والحال أنه قد هدانا وفعل بنا ما يوجب التوكل ويستدعيه، حيث هدانا سبلنا، أي: أرشد كلاً منا سبيله ومنهاجه ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ الواو عاطفة، واللام جواب قسم محذوف، ونصبرن: فعل مضارع مبني على الفتح، وعلى ما: على: حرف جر، وما: مصدرية، وآذيتمونا فعل وفاعل ومفعول، والواو للإشباع، ويجوز أن تكون ما موصولة، أي: على الذي آذيتمونا به ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ تقدم إعرابها، وكرر الأمر بالتوكل؛ لأن الأول لاستحداث التوكل، والثاني لإثباته.

□ البلاغة:

رد الأيدي في الأفواه بقوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ وعض الأنامل، وحرق الإرم: كناية عن الغيظ، والضجر عند حدوث ما لا تهواه النفس وتريده. قال أبو عبيدة: هو ضرب مثل، أي: لم يؤمنوا ولم يجيبوا، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد ردّ يده في فيه، وهكذا قال الأخفش، واعترض ذلك القتيبي، فقال: لم يسمع أحد من العرب يقول: رد يده في فيه؛ إذا ترك ما أمر به. وقيل: المراد برد الأيدي في الأفواه هنا الضحك والاستهزاء، كمن غلبه الضحك، فوضع يده على فيه، وقيل: إن المراد بالأيدي والأفواه غير الجارحتين، فقيل: المراد بالأيدي

النعم، ومعناه: ردوا مالو قبلوه لكان نعمة عليهم، يقال: لفلان عندي يدٌ، أي: نعمة، والمراد بالأفواه: تكذيبهم الرسل، والمعنى: كذبوا بأفواههم، وردوا قولهم، وهناك أقوال أخرى ضربنا عنها صفحاً؛ لأن أقوى الوجوه هو الأول؛ لأن إقناطهم الرسل من الإيمان قولاً وفعلاً بوضع اليد في الفم هو المناسب؛ لحسدهم في الكفر، وتصدير العبارة بالحرف المؤكد، ومواجهة الرسل بضمير الخطاب، وإعادة ذلك مبالغة في التأكيد دلّ على قنوطهم بالمرّة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَشَأْلُكُمْ الظَّالِمِينَ ۚ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۚ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۚ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۚ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۚ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۚ﴾

☆ اللفظة:

(عاد): لها معان كثيرة، وهي هنا بمعنى صار، فتلحق بها، وتعمل عملها، ويقال: عاد إلي من فلان مكروه، أي: صار منه إلي. ومن معانيها: عادته يعود عوداً: صرفه. وعاد السائل: رده، وعاد فلاناً بالمعروف: صنعه معه. ومن معانيها: عادته عوداً: صيره عادة، وكذلك عاد يعود عوداً وعوداً وعوداً وعوداً وعوداً المريض: زاره، فهو عائد. وفي القاموس: عاد يعود الشيء عوداً وعوداً: بدأه وباشره ثانياً، قيل: ومنه المثل: «العود أحمد».

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾: استنصروا الله على أعدائهم، كقوله تعالى: ﴿إِنْ

تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴿١٣﴾ وقيل: استحكموا الله، وسألوه القضاء بينهم، من الفتاحة، وهو الحكومة، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾. وفي القاموس: والفتح كالفتاحة بضم الفاء وكسرها: الحكم بين الخصمين.

﴿صَكِيدٍ﴾: هو ما يسيل من جلود أهل النار.

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾: يتكلف جرعه، أي: ابتلاعه. وفي الأساس: جرعت الماء واجترعته بمرة، وتجرعته شيئاً بعد شيء، وما سقاني إلا جرعة وجرعة وجُرْعاً، وبتنا بالأجرع وبالجرعاء، ونزلوا بالأجارع، وهي: أرضون حزنة يعلوها رمل.

﴿يُسَيِّغُهُ﴾: من أساغ الطعام أو الشراب: سهل دخوله في الحلق.

○ الإعراب:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا﴾ قال الذين فعل وفاعل، وجملة كفروا صلة، ولرسولهم جار ومجرور متعلقان بقال، واللام موطئة للقسم، ونخرجنكم فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ومن أرضنا متعلقان بنخرجنكم، والجملة مقول القول ﴿أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أو حرف عطف بمعنى إلا، وسيأتي مزيد بحث عن أو في باب الفوائد. ولنعودن عطف على نخرجنكم، غير أن الفعل هنا معروب لعدم مباشرة نون التوكيد له، وهو مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة، وقد تقدم له نظائر، وفي ملتنا متعلقان بتعودن، أو خبرها ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الفاء عاطفة، وأوحى إليهم ربهم فعل وفاعل، ولنهلكن اللام جواب للقسم المحذوف، ونهلكن الظالمين فعل مضارع مبني على الفتح، وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة لا محل لها من الإعراب؛ لأنها مفسرة ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الواو عاطفة، ونسكننكم فعل

مضارع مبني على الفتح وفاعل ومفعول به، والأرض نصب بنزع الخافض، أو مفعول به على السعة، وقد تقدم القول في دخل وسكن ونحوهما، ومن بعدهم حال ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ذلك مبتدأ، ولمن خبر، وجملة خاف صلة، وفاعله مستتر تقديره هو ومقامي مفعول به، وهو مصدر مضاف للفاعل، أي: قيامي عليه بالحفظ، أو اسم مكان، قال الزجاج: مكان وقوفه بين يدي للحساب، وخاف فعل ماض أيضاً، ووعد مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة لمراعاة الفواصل ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ واستفتحوا فعل ماض، والواو فاعل، والضمير يعود على الرسل، أي: واستنصروا الله على أعدائهم، وقيل: يعود على الكفار، أي: واستفتح الكفار على الرسل، والأولى أنه يعود على كلا الفريقين؛ لأن كلا من الجانبين يلتمس النصر على صاحبه، فالواو استئنافية، والجملة مستأنفة، وخاب كل جبار فعل وفاعل، وعنيد صفة لجبار، ومعنى خاب هلك أو خسر، والعنيد: المعاند للحق، والمجانِب له، وهو مأخوذ من العند، وهو الناحية، أي: أخذ في ناحيته معرضاً، قال الشاعر:

إِذَا نَزَلْتُ فَاجْعَلُونِي وَسْطًا إِنِّي كَبِيرٌ لَا أُطِيقُ الْعُنْدَا

وقال الزجاج: العنيد: الذي يعدل عن القصد ﴿مَنْ وَرَّاهُ جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ من ورائه خبر مقدم، وجهنم مبتدأ مؤخر، ومعنى من ورائه: من بين يديه، أي: من أمامه وخلفه، والجملة صفة ثانية لجبار، ويسقى الواو عاطفة على مقدر جواباً عن سؤال سائل، وكأنه قيل: فماذا يكون إذن؟ قيل: يلقي فيها ويسقى. ويسقى فعل مضارع مبني للمجهول، ومن ماء متعلقان بيسقى، وصديد بدل من ماء، أو عطف بيان له، كأنه قال: ويسقى من ماء، ثم أراد أن يبين ما أبهمه فأردف بقوله: «صديد» لأن الصديد هو الماء، ولكنه السائل من جلود أهل النار خاصة قال أبو حيان: وقال ابن عطية: هو نعت لماء، كما تقول: هذا خاتم حديد، وليس بماء، ولكنه لما كان بدل الماء في

العرف عندنا، يعني: أطلق عليه ماء، وقيل: هو نعت على إسقاط أداة التشبيه، كما تقول: مررت برجل أسد، التقدير: مثل صديد، فعلى قول ابن عطية هو نفس الصديد، وليس بماء حقيقة، وعلى هذا القول لا يكون صديداً، ولكنه ما يشبه الصديد. وقال الزمخشري: صديد عطف بيان لماء، قال: ويسقى من ماء فأبهمه إبهاماً، ثم بينه بقوله صديد. والبصريون لا يميزون عطف البيان في النكرات، وأجازوه الكوفيون، وتبعهم الفارسي، فأعرب زيتونة عطف بيان لشجرة مباركة. وجملة «يسقى» معطوفة على محذوف، تقديره: من ورائه جهنم يلقي فيها ما يلقي من ماء شديد يتميز عن عذابها بما هو أشد وأبلغ في الإيلام ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ الجملة صفة لماء، ويتجرعه فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ولا بأس بجعل الجملة مستأنفة، مسوقة للرد على سؤال، كأنه قيل: فماذا يفعل به؟ فقيل: يتجرعه، أي: يتكلف جرعه مرة بعد مرة؛ إطفاء لسورة العطش، وحرارة الغليل، ولا: الواو عاطفة، ولا نافية، ويكاد من أفعال المقاربة، واسمها مستتر تقديره: هو، وجملة يسيغه خبر، وسيأتي مزيد من بحث هذا التركيب العجيب في باب: البلاغة ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ الواو عاطفة، ويأتيه الموت فعل وفاعل مؤخر ومفعول مقدم، أي: أسباب الموت كأنها تظاهرت عليه، فهي تأتيه من كل مكان، والجار والمجرور في موضع نصب على الحال، أي: تأتيه محيطة به من جميع جهاته ﴿وَمَا هُوَ بِمِصْرٍ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ الواو للحال، وما نافية حجازية، وهو اسمها، والباء حرف جر زائد، وميت مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه خبر ما، ومن ورائه خبر مقدم، وعذاب مبتدأ مؤخر، وغلظ صفة لعذاب ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ مثل الذين مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه، تقديره: وفيما يقص عليكم مثل، وقد تقدمت نظائره، وجملة «كفروا برههم» صلة، وأعمالهم مبتدأ، والكاف بمعنى مثل خبر، أو هي حرف مع مجرورها في محل رفع خبر، والجملة مستأنفة للإجابة على سؤال مقدر نشأ عن تقدير المثل، كأنه قال: وما ذلك المثل؟ فقيل: أعمالهم كرماد،

ويجوز أن يكون مثل مبتدأ، وأعمالهم مبتدأ ثانياً، وكرماد خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول. وقد رد أبو حيان هذا الوجه بقوله: وهو لا يجوز؛ لأن الجملة الواقعة خبراً عن المبتدأ الذي هو مثل عارية من رابط، يعود على المثل، وليست نفس المبتدأ في المعنى، فلا تحتاج إلى رابط، ويجوز - وهو وجه جميل - أن يكون مثل مبتدأ، وأعمالهم بدل اشتمال منه، وكرماد خبر مثل وأعمالهم معاً، وجملة اشتدت به الريح صفة لرماد، وفي يوم عاصف حال من الريح ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ الجملة حالية من فاعل كفروا، ويقدرّون فعل وفاعل، ومما كسبوا حال؛ لأنه كان في الأصل صفة لشيء، وقد تقدم عليه، وعلى شيء متعلقان بيقدرون، وجملة كسبوا صلة، وذلك مبتدأ، وهو مبتدأ ثان، والضلال خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول، والبعيد صفة.

□ البلاغة:

في هذه الآيات أفانين متعددة من البلاغة، نوردّها فيما يلي:

- (١) في ألفاظ الآيات الواردة مورد التهديد والوعيد مراعاة النظير، وقد تقدم بحثه، فجميع ألفاظها متضافرة على التعبير عن المخيف القارع للقلوب.
- (٢) في قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيقُهُ﴾ فنون عديدة فيما يلي أهمها:

أ- الاستقصاء، وهو أن يتناول المتكلم معنى فيستقصيه، أي: يأتي بجميع عوارضه ولوازمه بعد أن يستقصي جميع أوصافه الذاتية؛ بحيث لا يترك لمن يتناوله بعده فيه مقالاً يقوله، فقد استقصى المعنى الذي أراده في الآية، وهو كراهية الصيد الذي يشربه بأنه يتجرعه، وفيه احتمالات: أولها: أنه مطاوع جرعه بالتشديد، نحو: علمته فتعلم، وثانيهما: أنه للتكلف، وقد اخترناه في الإعراب، أي: يتكلف جرعه. ولم يذكر الزمخشري غيره. وثالثها: أنه دال على المهلة، نحو: تفهمته، أي: يتناوله شيئاً فشيئاً بالجرع، كما يتفهم شيئاً

فشيئاً بالتفهيم . ورابعها : أنه بمعنى جرعه المجرد . وفي جميع هذه الأحوال استقصى غاية ما يمكن أن يتناوله شارب الماء .

ب - المبالغة في قوله : ﴿ وَلَا يَكَادُ ﴾ فدخل فعل يكاد للمبالغة ، يعني : ولا يقارب أن يسيغه ، فكيف تكون الإساغة ؟ كقوله : ﴿ لَمْ يَكْدِرْنَهَا ﴾ أي : لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها .

ج - ذكر الموت ، وأراد أسبابه ، وهذا مجاز .

د - وصف العذاب بالغلظة كناية عن قوته واتصاله ؛ لأن الغلظة تستوجب القوة ، وتستدعي أن يكون متصلاً تتصل به الأزمنة كلها ، فلا انفصال بينها .

هـ - الغلو : بذكر كاد ، وهذا يطرد في كل كلام تستعمل فيه أداة المقاربة ، كقول الفرزدق :

يكادُ يمسكهُ عرفان راحتهِ ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
وقد أفرط أبو العلاء في استعمالها ، قال :

تكاد قسيه من غير رام تمكن في سيفهم النبالة
تكاد سوابق حملته تغني تجد إلى رقابهم أنسلالة
تكاد سوابق حملته تغني عن الأقدار صوناً وإبتدالة
سرى برق المعرة بعد وهن فبات براحة يصف الكلالا
شجا ركباً وأفراساً وإبللاً وزاد فكاد أن يشجو الرحالا

ولابن خفاجة الأندلسي ، وكاد هنا مرقصة :

وأهيف قام يسعى والسكر يعطف قده
وقد ترثح غصناً وحمر الكأس ورده
وألهب السكر خدّاً أورى به الوجد زنده
فكاد يشرب نفسي وكدت أشرب خده

وكل هذا من الغلو المقبول ؛ لأنه مقترن بالأداة ، ويزداد حسنه إذا تضمن نوعاً حسناً من التخييل ، كقول المتنبي :

عَقَدَتْ سَنَابِهَا عَلَيْهِ عَثِرًا لَوْ تَبَتَّغِي عَنْقاً عَلَيْهِ أَمَكْنَا
ولأبي العلاء في صفة السيف :

يَذِيبُ الرَّعْبُ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ فَلَوْلَا الْغَمْدُ يُمْسِكُهُ لَسَالَا
وقال في وصف الخيل :

ولما لم يسابقهن شيءٌ من الحيوانِ سابقنِ الظَّلَالَا
أما الغلو غير المقبول ، فهو نوعان : نوع يستسيغه الفن ، كقول المتنبي :
وَلَوْ قَلَمٌ أَلْقَيْتُ فِي شَقِّ رَأْسِهِ
مِنْ الشَّقْمِ مَا غَيَّرْتُ مِنْ خَطِّ كَاتِبٍ

وقول أبي نواس :

وَأَخَفَتْ أَهْلَ الشُّرْكِ حَتَّى أَنَّهُ لَتَخَافَكَ التُّطْفُ الْتِي لَمْ تُخْلَقْ

و - التتميم : وقد تحدثنا عنه أيضاً ، ونبينه هنا فنقول : التتميم أنواع ثلاثة : تتميم النقص ، وتتميم الاحتياط ، وتتميم المبالغة ، فقد قال : يتجرعه ، ولو قال : جرعه ، لما أفاد المعنى الذي أراده ؛ لأن جرع الماء لا يشير إلى معنى الكراهية ، ولكنه عندما أتى بالتاء على صيغة التفعّل أفهم أنه يتكلف شربه تكلفاً ، وأنه يعاني من جراء شربه ما لا يأتي الوصف عليه من تقزز وكراهية ، ثم احتاط للأمر لأنه قد يوهّم بأنه تكلف شربه ، ثم هان عليه الأمر بعد ذلك ، فأتى بالكيدودة ، أي : أنه تكلف شربه ، وهو لا يكاد يشربه ، ولو اكتفى بالكيدودة لصح المعنى دون مبالغة ، ولكن عندما جاءت يسيغه أفهم أنه لا يسيغه ، بل يغص به ، فيشر به بعد اللتيا والتي جرعة غب جرعة ، فيطول عذابه ؛ تارة بالحرارة ، وتارة بالعطش .

(٣) التشبيه التمثيلي بقوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ فالمشبه مركب ، وهو الذين كفروا وأعمالهم الصالحة التي يقومون بها في حياتهم كصلة يرفدون بها المحتاج ، وصدقة يجبرون بها المكسور ، وعلم يعم نفعه العباد ، والمشبه به الرماد ، وهو :

ما سحقت النار من الأجرام، واشتداد الريح، واليوم العاصف، ووجه الشبه أن الريح العاصف تطير الرماد، وتفرق أجزاءه؛ بحيث لا يبقى له أثر، فكذا كفهم أبطل أعمالهم، وأحبطها، بحيث لا يبقى لها أثر.

(٤) المجاز العقلي في إسناد العصف لليوم، كقولهم: نهاره صائم وليله قائم، شبهت صنائعهم الحميدة، ومكارمهم المجيدة، وما كانوا ينتدبون له من إغاثة الملهوف، وعق الرقاب، وفك العاني، واقتداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف، وغير ذلك، شبهت هذه الصنائع في حبوطها، وذهابها هباء منثوراً، لبنائها على غير أساس من معرفة الله، والإيمان به، برماد طيرته الريح في اليوم الذين أسند إليه العصف.

(٥) وصف الضلال بالبعد، تقدم القول فيه قريباً، فجدد به عهداً.

* الفوائد:

«أو» حرف عطف، وله معان، نوردها فيما يلي:

أ- الشك نحو: ﴿لَيْشَأَيَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

ب- الإبهام، نحو: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ والشاهد في أو الأولى.

ج- الإباحة، وهي الواقعة قبل ما يجوز فيه الجمع نحو: جالس العلماء أو الزهاد.

د- التخيير، وهي الواقعة قبل ما يمتنع فيه الجمع، نحو: تزوج هنداً أو أختها، وسر ماشياً أو راكباً.

هـ- مطلق الجمع، كالواو، كقوله:

وقد زعمت ليلى بأنّي فاجرٌ لنفسي تُقاها أو عليها فُجُورُها

وقد أنكرها بعضهم هنا، وقال: هي للإبهام، أي: إنها تعلم اتصافها بالأمرين، وقصدت الإبهام على السامع، وهذا مردود؛ لأن كون التقى

لِلنَّفْسِ وَالْفَجْورِ عَلَيْهَا أَمْرَانِ مَجْتَمِعَانِ فِي الْوَاقِعِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ ومن ورودها لمطلق الجمع قول جرير :

جاءَ الخِلافةُ أو كانتْ لَهُ قَدْرًا كما أتى رَبُّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ
وقول النابغة المشهور في معلقته :

قَالَتْ أَلَّا لَيْتَمَا هَذَا الْحَمَامُ لَنَا إِلَى حَمَامَتَيْنَا أَوْ نِصْفُهُ فَقَدِرَ

وعلى هذا المعنى حمل بعض العلماء أو في قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ وفيها أقوال أخرى ، سترد في مكانها إن شاء الله .

و- الإضراب كـ «بل» ، واشترط سيبويه لإجازة تلك شرطين : تقدم نفي أو نهي ، وإعادة العامل ، نحو : ما قام زيد ، وما قام عمرو ، واستشهد بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْعَمُ مِنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ ولم يشترط غير سيبويه هذين الشرطين ، واستشهدوا بقول جرير :

كَانُوا ثَمَانِينَ أَوْ زَادُوا ثَمَانِيَةً لَوْلَا رَجَاؤُكَ قَدْ قَتَلْتُ أَوْلَادِي

وقيل : هي المقصودة بقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ فقال الفراء : الإخبار الأول بحسب ما يظهر للناس ؛ ليندفع الاعتراض بأنه كيف يجوز الإضراب مع كونه عالمًا بعددهم ، وأنهم يزيدون فهو إخبار منه تعالى بناء على ما يحزر الناس من غير تحقيق ، ثم أخذ في التحقيق مضرِباً عما يغلط فيه الناس ، بناء على ظاهر الحزر ، وسيأتي المزيد من هذا البحث القيم عند الكلام على هذه الآية .

ز - التقسيم ، نحو : الكلمة اسم أو فعل أو حرف ، وسماء بعضهم التفريق ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ وهو أولى من التعبير بالتقسيم ؛ لأن استعمال الواو في التقسيم أجود .

ح - أن تكون بمعنى إلا في الاستثناء ، وهذه ينتصب المضارع بعدها بإضمار أن ، كقول زياد الأعجم :

وَكُنْتُ إِذَا غَمَزْتُ قَنَاءَ قَوْمٍ كَسَرْتُ كُعُوبَهَا أَوْ تَسْتَقِيمَا

وهذه الآية منها، ولكن امتنع النصب؛ لدخول اللام الدالة على الحال، فيمتنع تقدير أن الدالة على الاستقبال؛ لثلاث تحصيل المنافاة.

ط - أن تكون بمعنى إلى، وهي كالتي قبلها في انتصاب المضارع بعدها بأن مضمرة، كقوله:

لَأَسْتَسْهَلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أَدْرِكَ الْمُنَى

فما انقادت الآمال إلا لصابر

ي - أن تكون للتقريب، نحو: ما أدري أسلم أو ودّع. قال الحريري في «درّة الغواص»: إنهم لا يفرقون بين قولهم: لا أدري أين أقيم أو أذن، وقولهم: أدري أقيم أم أذن، والفرق بينهما أنك إذا نطقت بأم كنت شاكاً فيما أتى به من الإقامة والأذان، وإذا أتيت بأو فقد حققت أنه أتى بالأمرين، إلا أنه لسرعة وقرب ما بينهما صار بمنزلة من لمن يقيم ولم يؤذن.

ك - الشرطية نحو: لأضربنه عاش أو مات، أي: إن عاش بعد الضرب وإن مات.

ل - التبعض، ذكره بعضهم، واستشهد بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وهذا محض تكلف.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۚ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سُوءًا عَلَىٰ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ۚ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ۚ

إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

☆ اللغة:

﴿مَحِصٍ﴾: منجى ومهرب، والمحيص يجوز أن يكون مصدراً كالمنجيب والمشيّب، ومكاناً كالبيت والمصيف. وفي المختار: حاص عنه: عدل وحاد، وبابه: باع، وحيوصاً ومحيصاً ومحاصاً وحيصاناً بفتح الياء، يقال: ما عنه محيص، أي: محيد ومهرب، والانحياص مثله. ومن أقوالهم: وقع في حيص بيص: في اختلاط لا مخرج منه، وفتنة تموج بأهلها، وهما اسمان ركبا اسماً واحداً، وبنيا بناء خمسة عشر، والذي أوجب بناءهما تقدير الواو فيهما، فالحيص: التأخر والهرب، والبوص مأخوذ من قولهم باص ييوص، أي: فات، وسبق؛ لأنه إذا وقع الاختلاط والفتنة، فمنهم فائت، ومنهم هارب، وكان القياس يقضي أن يقال حيص بوص، إلا أنهم أتبعوا الثاني الأول، وفيها لغات كثيرة أشهرها: حَيْصَ بَيْصَ بفتح الحاء والباء وفتح آخرهما على البناء، كما تقدم، أنشد الأصمعي لأمية بن أبي عائذ الهذلي:

قد كنتُ خَرَّاجاً ولُوجاً صَيْرَفاً لم تَلْتَحِصْنِي حَيْصَ بَيْصَ لِحَاصٍ

وقالوا: حيص بيص بكسر أولهما وفتح آخرهما، وبعضهم يبينهما على الكسر، كما تكسر الأصوات، نحو: غاقٍ غاقٍ، وهناك لغات أخرى أضربنا عن ذكرها.

﴿يُصْرِخُكُمْ﴾: بمغيثكم. وفي المصباح: صرخ يصرخ، من باب: قتل، صراخاً، فهو صارخ، وصرىخ: إذا صاح وصرخ، فهو صارخ؛ إذا استغاث، واستصرخته فأصرخني: استغثت به فأغاثني، فهو صرىخ، أي: مغيث ومصرخ على القياس. وهو المغيث والمستغيث، فهو من أسماء الأضداد، كما في الصحاح. قال ابن الأعرابي: المستغيث والمصرخ: المغيث.

○ الإعراب:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الهمزة للاستفهام

التقريري، ولم حرف نفى وقلب وجزم، وتر فعل مضارع مجزوم بلم، وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي تر، والسموات مفعول خلق، وقيل: مفعول مطلق. وسترى بحثاً شيقاً في باب: الفوائد. وبالحق متعلقان بخلق، أو بمحذوف حال، فالباء للسببية على الأول، وللمصاحبة على الثاني ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إن شرطية، ويشأ فعل الشرط، ويذهبكم جواب الشرط، والكاف مفعول به، ويأت عطف على يذهبكم، وبخلق متعلقان ببيأت، وجديد صفة ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بَعِزٌّ﴾ الواو عاطفة، أو حالية، وما نافية حجازية، وذلك اسمها، وعلى الله جار ومجرور متعلقان بعزیز، والباء حرف جر زائد، وعزیز مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه خبر ما ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ الواو استئنافية، والجملة مستأنفة لتقرير بعثهم من القبور، وعبر عنه بصيغة الماضي، وإن كان معناه الاستقبال؛ لأن كل ما أخبر الله عنه فهو حق وصدق، كائن لا محالة، فصار كأنه قد حصل، ودخل في حيز الوجود، وبرزوا فعل وفاعل، والله متعلقان ببرزوا، وجميعاً حال ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ الفاء عاطفة، وقال الضعفاء فعل وفاعل، وللذين متعلقان بقال، وجملة استكبروا صلة، وجملة إنا مقول القول، وإن واسمها، وجملة كنا خبرها، وكان واسمها، ولكم متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان في الأصل صفة له، ثم تقدمت، وتبعاً خبر كنا، وهو جمع تابع، كقولهم: خادم وخدم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الفاء عاطفة، وهل حرف استفهام، وأنتم مبتدأ، ومغنون خبر، وعنا متعلقان بمغنون، ومن عذاب الله حال، ومن الثانية زائدة، وشيء مفعول به محلاً مجرور بمن لفظاً، وهذا أولى الأعراب الكثيرة ﴿قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهَ لَهْدَيْنَاكُمْ سُوءًا عَلَىٰ نَحْنُ أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ قالوا فعل وفاعل، ولو حرف امتناع، وهداانا الله: فعل ومفعول به وفاعل، لهديناكم: اللام واقعة في جواب الشرط، وهديناكم: فعل وفاعل، ومفعول به، سواء خبر مقدم، وأجزعنا مبتدأ مؤخر؛ لأنه في تأويل مصدر؛ لأن الهمزة للتسوية، والفعل بعدها يؤول بمصدر، وأم حرف عطف متصلة، وصبرنا عطف على جزعنا

﴿ مَا لَنَا مِنْ مَّحِصٍ ﴾ مانافية حجازية، ولنا خبر مقدم، ومن حرف جر زائد، ومحيص مجرور لفظاً اسم ما محلاً ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ الواو عاطفة، وقال الشيطان فعل وفاعل، ولما ظرفية حينية، أو رابطة، وقضي الأمر فعل ونائب فاعل والجملة مضافة للما، أو لا محل لها، وإن واسمها، وجملة وعدكم خبرها، ووعد مفعول مطلق، والحق مضاف إليه، وجملة إن الله مقول القول، وهو من كلام إبليس قاله رداً على أهل النار؛ الذين أخذوا يلومونه ويقرعونه ﴿ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ لا بد من تقدير محذوف، أي: فصدقكم، ووعدتكم عطف على وعدكم، فأخلفتكم عطف على وعدتكم، وهو فعل وفاعل ومفعول به ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ الواو عاطفة، وما نافية، وكان فعل ماض ناقص، ولي خبرها المقدم، وعليكم متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان في الأصل صفة لسلطان، ومن حرف جر وسلطان مجرور لفظاً، واسم كان محلاً، وإلا أداة استثناء، وأن وما في حيزها مستثنى؛ لأن الاستثناء المنقطع يجب نصبه، ولو كان الكلام غير موجب، ولأن الدعاء ليس من جنس السلطان، فاستجبتكم عطف على دعوتكم، ولي متعلقان باستجبتكم ﴿ فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوْأَ أَنْفُسِكُمْ ﴾ الفاء الفصيحة، كأنه قيل: إن علمتم أنكم أسرعتم في إجابتي فأنتم الملومون، ولا ناهية، وتلوموني مضارع مجزوم بلا الناهية، والواو فاعل، والنون للوقاية، والياء مفعول به، ولوموا فعل أمر وفاعل، وأنفسكم مفعول به ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتَ بِمُصْرِخِي ﴾ مانافية حجازية، وأنا: اسمها، وبمصرخكم الباء حرف جر زائد، ومصرخكم خبر ما محلاً، وما أنتم بمصرخي عطف على مثيلتها، وأصل بمصرخي بمصرخين لي، جمع مصرخ، فياء الجمع ساكنة، وياء الإضافة ساكنة كذلك، فحذفت اللام للتخفيف، والنون للإضافة، فالتقى ساكنان، وهما الياءان، فأدغمت ياء الجمع في ياء الإضافة، ثم حركت ياء الإضافة بالفتح طلباً للخفة، وتخلصاً من توالي ثلاث كسرات ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ إن واسمها، وجملة كفرت خبرها، والباء حرف جر وما مصدرية

مؤولة مع أشركتموني بمصدر مجرور بالباء، والجار والمجرور متعلقان بكفرت، أي: كفرت بإشراككم إياي، ويجوز أن تكون موصولة، والأول أولى كما قررنا، والياء مفعول أشركتموني، ومن قبل متعلقان بأشركتموني، وسيأتي في باب: البلاغة معنى إشراكهم إياه مع الله تعالى ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إن واسمها، ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر، وأليم صفة، والجملة الاسمية خبر إن.

□ البلاغة:

في قوله تعالى: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾ استعارة تصريحية، شبه الطاعة بالإشراك، ونزلها منزلته؛ لأنهم كانوا يطيعونه في أعمال الشر، كما يطاع الله في أعمال الخير، أو لأنهم لما أشركوا الأصنام ونحوها باتباعهم له في ذلك، فكأنهم أشركوه؛ لأنه هو الذي كان يزين لهم عبادة الأوثان، ثم حذف المشبه، وابقى المشبه به، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

وبوضوح هذه الاستعارة يتضح أن الشيطان قام لهم في هذا اليوم مقاماً يقسم ظهورهم، ويقطع قلوبهم، فقد أوضح لهم:

أولاً - أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة، ومعارضة لوعده الحق من الله سبحانه.

ثانياً - أنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد، ولم يف لهم بشيء منها.

ثالثاً - أوضح لهم أنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول، ولا ينفق على عقل عاقل؛ لعدم الحجة؛ التي لا بد للعاقل منها في قبول قول غيره.

رابعاً - أوضح لهم أنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان الخالية من أي شيء؛ مما يتمسك به العقلاء.

خامساً - ثم نعى عليهم ما وقعوا فيه، ودفع لومهم له، وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم؛ لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت؛ الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى مسكة من عقل.

سادساً - أوضح لهم أنه لا نصر عنده، ولا إغاثة، ولا يستطيع لهم نفعاً، ولا يدفع عنهم ضرراً، بل هو مثلهم في الوقوع في البلية، والعجز عن الخلوص من هذه المحنة .

سابعاً - ثم صرح لهم بأنه قد كفر بما اعتقدوه، وأثبتوه له، فتضاعفت عليهم الحسرات، وتوالت عليهم المصائب .

وإذا كانت جملة: ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ من تنمة كلامه، كما ذهب إليه بعض المفسرين، فهو نوع ثامن من كلامه الذي خاطبهم به .
* الفوائد :

إعراب : خلق الله السموات :

هذا بحث شيق، وإن يكن لا حقيقة له، فقد اعترض عبد القاهر الجرجاني على إعراب خلق الله السموات والعالم ونحوهما، إذ قال : العالم هنا مصدر لا مفعول به ؛ لأن المفعول به هو الذي كان موجوداً، أو أثر فيه الفاعل شيئاً آخر بفعله، والمصدر هو الذي لم يكن موجوداً، بل كان عدماً محضاً، والفاعل موجدته ومخرجه من العدم إلى الوجود بفعله، والعالم في قولنا : خلق الله العالم كذلك، فكان مصدراً . واعتراض عليه بأنه لو كان مصدراً لكان نفس الخلق، ولا يجوز أن يكون ذلك لوجهين :

أحدهما : أننا نعلم العالم مع الشك في كونه مخلوقاً لله تعالى إلى أن نعلم ذلك بدليل منفصل، فالعالم على هذا معلوم، وكونه مخلوقاً له تعالى غير معلوم لتوقفه على الدليل، والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم، فكان الخلق غير العالم .

والوجه الثاني : أن الله تعالى يوصف بالخلق، فلو كان الخلق العالم، لكان الله موصوفاً بالعالم، وهو لا يجوز ؛ لأنه يلزم من ذلك وصف القديم بالحادث، أو قدم العالم، وهذه حذقة لا طائل تحتها .

والحق أن الذي أورده عبد القاهر الجرجاني طائش من أساسه ؛ لأن الكلام إنما هو في اصطلاح النحاة، وهذا المصطلح إنما هو فيما يعرض لأواخر

الكلم من الرفع والنصب والجر ؛ لاتصاف الكلمة بالفاعلية تارة، وبالمفعولية تارة، وبالإضافة تارة أخرى، إلى غير ذلك، فإذا قلنا: خلق الله السموات والأرض، قلنا، هذه الكلمات المركبة، المسموعة نسميها في اصطلاحنا فعلاً وفاعلاً ومفعولاً به، فرفعنا اسم الله تعالى على أنه فاعل، ونصبنا السموات والأرض على المفعولية؛ لوقوع فعل الفاعل عليها، ولا يلزمنا من هذه العبارة التي أوقفناها على هذه الألفاظ أن يكون المعنى في الأصل قد وقع وتجدد؛ لأنّ الألفاظ أدلة على المعاني، والدليل غير المدلول، ولأن الاسم غير المسمى، وإلا لزم احتراق فم من تلفظ بالنار، ولزم إذا قلنا: أعدم الله العالم، وأقام القيامة، وأمات زيداً، أن يكون هذا كله قد وقع الآن، وتجدد، ونحن نجد هذا باطلاً.

ونعتقد أن الإمام عبد القاهر كان يعتقد بطلان ما أورده، وإنما أورده مغالطة، وإظهاراً للصناعة البحث ليس غير.

ناصب المفعول به:

وهنا لا بد من إيراد بحث دقيق، وهو: ما هو ناصب المفعول به؟ مذهب سيبويه أنه الفعل، ولذلك تعددت المفاعيل بحسب اقتضاء الفعل؛ لأن الفعل إن اقتضى مفعولاً نصبه، أو اثنين نصبهما، أو ثلاثة نصبها. وقال ابن هشام: إنه الفاعل؛ لأنه الذي أثر فيه في المعنى، فيؤثر فيه في اللفظ.

أقول: وهذا ليس بشيء؛ لأن الفاعل يضمّر، والمضمّر لا يعمل في المظهر، ولأنهم قسموا الفعل إلى لازم ومتعدّد، فدل على أن العمل له. أما الفراء فاختر أن يكون الفعل والفاعل هما اللذين نصب المفعول، قياساً على الابتداء والخبر، وهو خلاف لا طائل تحته، وإنما أوردنا هذه المباحث النظرية؛ لأنها مصقلة للذهن، ورياضة له، ويرد على الجميع قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾ (١٩) يَتِيمًا... ﴿إِذْ لَا فَاعِل وَلَا فَعْل هُنَا، والكلام في هذا لا يتسع له هذا المقام.

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۖ﴾ وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۖ﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۖ﴾

○ الإعراب:

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بعد أن شرح أحوال الكفار الأشقياء، شرع في شرح أحوال المؤمنين السعداء. وأدخل فعل ماض مبني للمجهول، والذين نائب فاعل، وجملة آمنوا صلة، وعملوا عطف على آمنوا، وهي فعل وفاعل، والصالحات مفعول به، وجنات مفعول به ثان على السعة، وجملة تجري من تحتها الأنهار صفة لجنات ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ بإذن جار ومجرور متعلقان بأدخل، وربهم مضاف لإذن، وتحيتهم مبتدأ، وفيها حال، وسلام خبر تحيتهم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وتر مضارع مجزوم بلم، وفاعله مستتر تقديره: أنت، وكيف اسم استفهام في محل نصب على الحال، وضرب الله مثلاً فعل وفاعل ومفعول به، والحال من المفعول به ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ كلمة بدل من مثلاً، أو منصوبة بفعل محذوف، أي: جعل كلمة طيبة، أو بتضمين ضرب معنى جعل، فيكون مفعولاً به ثانياً، وكشجرة: خبر لمبتدأ محذوف بمعنى: هي كشجرة طيبة، وطيبة صفة

لشجرة، وأصلها مبتدأ، وثابت خبر، والجملة صفة ثانية لشجرة، وفرعها في السماء عطف على أصلها ثابت، ويجوز أن يكون قوله كشجرة صفة ثانية لكلمة طيبة ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ الجملة صفة ثالثة لشجرة، وتؤتي فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: هي، وأكلها مفعول به، وكل حين ظرف متعلق بتؤتي، وسيأتي حديث عن الشجرة الطيبة، وإذن ربها متعلقان بتؤتي، أو بمحذوف حال، أي: متلبسة بإذن ربها ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويضرب الله الأمثال فعل مضارع وفاعل ومفعول به، وللناس متعلقان بيضرب، ولعل واسمها، وجملة يتذكرون خبرها ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ ومثل مبتدأ، وكلمة مضاف إليه، وخبيثة صفة، وكشجرة خبر مثل، وخبيثة صفة، وجملة اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ صفة ثانية لشجرة، وجملة مالها من قرار صفة ثالثة لشجرة، وما نافية حجازية، أو تيمية، ولها خبر مقدم، ومن زائدة، وقرار مبتدأ مؤخر، أو اسم ما مؤخر ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ جملة مستأنفة، مسوقة لتقرير حالة كل من المرادين بالمثلين المتقدمين، ويثبت فعل مضارع، والله فاعل، والذين مفعول به، وجملة آمنوا صلة، وبالقول متعلقان يثبت، والثابت نعت للقول، وفي الحياة الدنيا حال ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ويضل الله الظالمين فعل وفاعل ومفعول به، ويفعل الله ما يشاء فعل وفاعل ومفعول به، وجملة يشاء صلة.

□ البلاغة:

(١) التشبيه التمثيلي في تشبيه الكلمة الطيبة الموصوفة بثلاث صفات، وهي: إيتاء الأكل كل حين، أي: من وقت أن تؤكل إلى حين انصرامها، قال الربيع بن أنس: هي النخلة؛ لأن ثمرها يؤكل أبداً ليلاً ونهاراً، وصيفاً وشتاء، فيؤكل منها الجمار، والطلع، والبلح، والبسر، والمنصف، والرطب، وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى حين الطري الرطب، فأكلها

دائم في كل وقت . وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم : «إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ماهي؟» فوقع الناس في شجر البوادي، وكنتُ صبياً، فوقع في قلبي أنها النخلة، فهبتُ رسول الله أن أقولها، وأنا أصغر القوم، وروي : فمنعني منها مكان عمر، واستحييت، فقال لي عمر : يا بني ! لو كنت قلتها لكانت أحب إلي من حمر النعم . ووجه الشبه في تمثيل الإيمان بالشجرة أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء : تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان، فوجود الصفات الثلاث في جانب المشبه به حسية، بينما هي في جانب المشبه معنوية .

(٢) التشبيه التمثيلي أيضاً في تشبيه الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة غير الثابتة ؛ كأنها اجتثت، أو كأنها ملقاة على وجه الأرض، فلا تغوص إلى الأرض، بل عروقتها في وجه الأرض، ولا غصون لها تمتد صعوداً إلى السماء، وهذا معنى قوله : ﴿ مَا لَهُا مِنْ قَرَارٍ ﴾ .

(٣) المجاز العقلي في قوله : ﴿ تُؤْتِي أَكْلَهَا ﴾ ففعل الإيتاء مسند إلى غير فاعله الحقيقي ؛ لأن النخلة لا تؤتي الأكل، على حد قول الصلتان العبدى :

أشباب الصغير وأفنى الكبيـر سر كثر الغداة ومرّ العشي

فالمجاز وقع في إثبات الشيب فعلاً لكر الغداة ومرّ العشي، وهو في الحقيقة فعل الله تعالى .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۚ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۚ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَهُمْ يُؤْتُونَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ ۚ ﴾

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٢٨﴾

☆ اللغة:

﴿الْبَوَارِ﴾: الهلاك. وفي المصباح: بار الشيء يبور بوراً - بالضم -: هلك، وبار الشيء بوراً: كسد على الاستعارة؛ لأنه إذا ترك صار غير منتفع فأشبه الهالك من هذا الوجه، وفي القاموس والتاج «البور - بفتح الباء -: الأرض قبل أن تصلح للزرع، أو التي تجم سنة لتزرع من قابل، والاختبار كالابتيار والهلاك، وأباره الله، وكساد السوق كالبور فيهما، وجمع بائر وبالضم: الرجل الفاسد والهلاك لا خير فيه، يستوي فيه الاثنان والجمع والمؤنث، وما بار من الأرض فلم يعمر كالبائر والبائرة. وفي الأساس: فلان له نُورُه وعليك بُورُه، أي: هلاكه. وقومٌ بورٌ. وأحلُّوا دارَ البوارِ، ونزلت بَوَارٍ على الكُفَّارِ. قال أبو مُكَيْتٍ الأَسَدِيُّ:

قَتَلْتُ فَكَانَ تَظَالُمًا وَتَبَاغِيًا إِنَّ التَّظَالُمَ فِي الصَّدِيقِ بَوَارٍ
لَوْ كَانَ أَوَّلَ مَا أَتَيْتَ تَهَارَشْتُ أَوْلَادُ عُرْجَ عَلَيْكَ عِنْدَ وَجَارٍ

جعلها علماً للضَّباع فاجتمع التعريف والتأنيث. ومن المجاز: بارت البيعات: كَسَدَتْ، وسوق بائرة. وبارت الأيم: إذا لم يُرْغَب فيها. وكان رسول الله ﷺ يتعوذ من بَوَارِ الأيم. وبارت الأرض إذا لم تُزْرَعْ، وأرض بوار، وأرضون بُور.

﴿يَصَلَوْنَهَا﴾: يدخلونها. وفي المصباح: صلي بالنار وصلبها صلياً، من باب: تعب: وجد حرّها، والصلاء وازن كتاب: حرّ النار، وصليت اللحم أصليه، من باب: رمى؛ إذا شويته.

﴿خَلَّلُ﴾ مخالة، أي: صداقة، كذا فسرها الزمخشري والجلال وغيرهما، وهو يقتضي أنها مفرد. وفي القرطبي: أنه جمع خُلَّة بالضم، مثله قلة وقلال، وفي الأساس ما يؤيد أنه مفرد قال: هو خليلي وخِلِّي وخُلتي، وهم أخلائي وخِلاني، وبيننا خلة قديمة، وخاللته مُحَالَّة وخِلالاً. وما يؤيد أنه جمع قال: وهذه خلة صالحة، وفيه خلل حسنة.

○ الإعراب:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ الهمزة للاستفهام التعجبي، أي: ألا تعجب من صنيع هؤلاء الكفرة؛ الذي لا يصدر عن له أدنى إدراك. ولم حرف نفي وقلب وجزم، وإلى الذين متعلقان بتر، وجملة بدلوا صلة، ونعمة الله مفعول به ثان؛ لأنه هو الذي يدخل عليه حرف الجر أي: بنعمة الله، وكفراً هو المفعول الأول. قال أبو حيان: وزعم الحوفي وأبو البقاء أن كفراً هو مفعول ثان لبدلوا، وليس بصحيح؛ لأن «بدل» من أخوات «اختار» فالذي يباشره حرف الجر هو المفعول الثاني، والذي يصل إليه الفعل بنفسه لا بواسطة حرف الجر، هو المفعول الأول. وأحلوا عطف على بدلوا، وقومهم مفعول به أول، ودار البوار مفعول به ثان ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ﴾ جهنم بدل، أو عطف بيان من دار البوار، أو ينصبه بفعل محذوف يفسره ما بعده، أي: يصلون جهنم، وجملة يصلونها حالية على الأول، وتفسيرية على الثانية، والواو حالية، وبس القرار فعل وفاعل، والمخصوص بالذم محذوف، أي: هي ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الواو عاطفة، وجعلوا فعل وفاعل، والله في محل نصب مفعول به ثان لجعلوا، وأنداداً مفعول به أول، ولك أن تعلق لله بمحذوف حال، وليضلوا: قيل اللام للعاقبة، أو الصيرورة، وقيل: هي على بابها من التعليل، ولكن ليس ذلك غرضاً حقيقاً لهم من اتخاذ الأنداد، ولكن لما كان ذلك نتيجة له شبه بالغرض، وأدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية، ويضلوا منصوب بأن مضمرة بعد لام العاقبة، أو لام

التعليل، والواو فاعل، وعن سبيله متعلقان بيبضلوا ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ قل فعل أمر، وجملة تمتعوا مقول القول، وتمتعوا فعل أمر وفاعله، فإن: الفاء للتعليل، وإن واسمها، وإلى النار خبرها ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ اتفق أكثر المعربين على أن مقول القول محذوف يدل عليه جوابه، أي: قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا، وسيرد على هذا القول ما اعترض به بعضهم، وذلك في باب: البلاغة. والذين صفة لعبادي، وجملة آمنوا صلة، وقيموا مجزوم في جواب الأمر، أي: إن قلت لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا... الخ يقيموا الصلاة وينفقوا، وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا بمعنى لقيموا ولينفقوا، فهما مجزومان بلام الأمر، ويكون هذا هو المقول، وسيرد في باب: البلاغة بحث طريف بهذا الصدد، والصلاة مفعول به.

وعبارة ابن هشام في «المغني»: والجمهور على أن الجزم في الآية - أي: قل لعبادي - مثله في قولك: اتتني أكرمك. وقد اختلف في ذلك على ثلاثة أقوال:

(١) أحدها للخليل وسيبويه أنه بنفس الطلب لما تضمنه من معنى إن الشرطية، كما أن أسماء الشرط إنما جازمت لذلك.

(٢) والثاني للسيرافي والفارسي أنه بالطلب لنيابته مناب الجازم؛ الذي هو الشرط المقدر، كما أن النصب بضرباً في قولك: ضرباً زيداً، لنيابته عن أضرب، لا لتضمنه معناه.

(٣) والثالث للجمهور أنه بشرط مقدر بعد الطلب، وهذا أرجح من الأول؛ لأن الحذف والتضمين، وإن اشتركا في أنهما خلاف الأصل، لكن في التضمين تغيير معنى الأصل، ولا كذلك الحذف، وأيضاً فإن تضمين الفعل معنى الحرف إما غير واقع، أو غير كثير. ومن الثاني؛ لأن نائب الشيء يؤدي معناه، والطلب لا يؤدي معنى الشرط. وأبطل ابن مالك بالآية أن يكون الجزم في جواب شرط مقدر؛ لأن تقديره يستلزم أن لا يتخلف أحد من المقول له ذلك عن الامتثال، لكن التخلف واقع، وأجاب ابنه بأن الحكم مسند إليهم

على سبيل الاجمال، لا إلى كل فرد، فيحتمل أن الأصل يقيم أكثرهم، ثم حذف المضاف، وأنيب عنه المضاف إليه، فارتفع، واتصل بالفعل، وباحتمال أنه ليس المراد بالعباد الموصوفين بالإيمان مطلقاً، بل المخلصين منهم، وكل مؤمن مخلص، قال له الرسول: أقم الصلاة، أقامها، وقال المبرد: التقدير قل لهم أقيموا يقيموا، والجزم في جواب أقيموا المقدر، لا في جواب قل، ويرده أن الجواب لا بد أن يخالف المجاب، إما في الفعل والفاعل، نحو: ائتني أكرمك، أو في الفعل نحو: أسلم تدخل الجنة، أو في الفاعل: قم أقم، ولا يجوز أن يتوافقا فيهما. وأيضاً فإن الأمر المقدر للمواجهة وقيموا للغيبة، وقيل: يقيموا مبني لحلوله محل أقيموا، وهو مبني، وليس بشيء. وزعم الكوفيون وأبو الحسن أن لام الطلب حذفت حذفاً مستمراً في نحو قم وأقعد، وأن الأصل: لتقم ولتقعد، فحذفت اللام للتخفيف، وتبعها حرف المضارعة، وبقولهم: أقول؛ لأن الأمر معنى فحقه أن يؤدي بالحرف، ولأنه أخو النهي ولم يدل عليه إلا بالحرف، ولأن الفعل إنما وضع لتقييد الحدث بالزمان المحصل، وكونه أمراً، أو خبراً خارج عن مقصوده، ولأنهم قد نطقوا بذلك الأصل، كقوله: لتقم أنت يا بن خير قريش.

﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وينفقوا عطف على يقيموا، ومما رزقناهم متعلقان بينفقوا، وسراً وعلانية منصوبان على الحال، أي: ذوي سر وذوي علانية، بمعنى مسرين ومعلنين، أو على المصدر، أي: إنفاق سر وعلانية، أو على الظرفية، أي: وقتي سر وعلانية، أو بنزع الخافض، أي: في سر وعلانية ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ من قبل متعلقان بينفقوا، وأن وما في حيزها مصدر مضاف لقبل، ويوم فاعل يأتي، ولا نافية للجنس، أهملت لتكرارها كما في: لا حول ولا قوة، وقد تقدمت الأوجه فيها، وبيع مبتدأ، وفيه خبر، ولا خلال عطف على «لا بيع» ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الله مبتدأ، والذي خبره، وخلق صلة، والسموات والأرض

مفعوله ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ وأنزل عطف على خلق، والفاعل مستتر وهو الله، ومن السماء: متعلقان بأنزل، وماء: مفعول به، فأخرج: عطف على أنزل، وبه جار ومجرور متعلقان بأخرج، ومن الثمرات حال؛ لأنه تقدم على موصوفه، وهو رزقاً، ورزقاً مفعول به، ولكم صفة لرزقاً ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ﴾ وسخر لكم الفلك عطف على ما تقدم، ولتجري اللام للتعليل، وتجري منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وفي البحر متعلقان بتجري، وبأمره حال ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾ عطف على ما تقدم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ وسخر لكم الليل والنهار عطف أيضاً، ودائبن حال من الشمس والقمر، فلما اتفقا لفظاً ومعنى ثنياً، ولا يضر اختلافهما في التذكير والتأنيث ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَآسَأَلْتُمُوهُ﴾ وأتاكم عطف أيضاً، وهو فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ومن كل متعلقان بأتاكم، وما موصول مضاف لكل، وسألتموه صلة، ويجوز أن تكون ما مصدرية ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ الواو عاطفة، وإن شرطية، وتعدوا فعل الشرط، والواو فاعل، ونعمة الله مفعول تعدوا، ولا نافية، وتحصوها جواب إن ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ جملة مستأنفة، مسوقة للتأكيد على جحود الإنسان الظالم لآلاء الله ونعمه، متغافل عن شكرها، وإن واسمها، واللام المرحلقة، وظلوم خبر إن الأول، وكفار خبر إن الثاني.

□ البلاغة:

في هذه الآيات من التهديد، والوعيد، والإرعاد، والإبراق ما فيها، وسنورد خصائصها بصورة متعاقبة:

فأولها: التعجب الوارد بصيغة الاستفهام من أعمالهم؛ التي لا تمت إلى الحلم بصلة، فقد بدلوا نفس النعمة كفرًا، وجنوا على أنفسهم وعلى قومهم.

وثانيهما: الاستعارة في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ولم يكن ذلك

غرضاً لهم ، ولكنه شبه به ؛ لأنه نتيجة محتومة لاتخاذ الأنداد ، فهي استعارة
تصريحية تبعية .

وثالثهما : حذف المقول من قوله : ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الخ . وقد رد
الحدائق على هذا الإعراب بقوله : وفي هذا الإعراب نظر ؛ لأن الجواب حينئذ
يكون خبراً من الله تعالى بأنه : إن قال لهم هذا القول امثلوا مقتضاه ، فأقاموا
الصلاة ، وأنفقوا ، لكنهم قد قيل لهم فلم يمتثل كثير منهم . وخبر الله يحل عن
الخلف ، وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين على العدول عن هذا
الوجه من الإعراب ، مع تبادره فيما ذكر بادي الرأي ، ويمكن تصحيحه
بحمل العام على الغالب لا على الاستغراق ، ويقوى بوجهين لطيفين :

أحدهما : أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالإيمان الحق المنوه بإيمانه عند
الأمر ، كهذه الآية وغيرها ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ ﴾ و ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْصُرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ .

والثاني : تكرر مجيئه للموصوفين ، بأنهم عباد الله المشرفون بإضافتهم إلى
اسم الله تعالى ، وقد قالوا : إن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز إلا مدحة
للمؤمنين ، وخصوصاً إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشفيع ، والحاصل أن
المأمور في هذه الآية من هو بصدد الامتثال ، وفي حيز المسارعة للطاعة ، فالخبر
في أمثالهم حق وصدق إما على العموم إن أريد ، أو على الغالب .

ورابعها : التأكيد الذي جعل الخبر إنكارياً بقوله : ﴿ إِنَّكَ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ
كَفَّارٌ ﴾ فقد اشتملت هذه الآية على أربعة تأكيدات أولها : «إن» ، وثانيها :
«اللام المزحلقة» ، أو لام التأكيد» ، وصيغة «ظلم» ، وصيغة «كفار» .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ
الْأَصْنَامَ ۚ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا ۚ مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي
فَإِنَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ۚ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكِلُ عَلَى ذِي زُرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ

الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ
مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى
اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ
إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن
ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴿٤١﴾

☆ اللفظة:

﴿وَأَجْنُبْنِي﴾ : أهل الحجاز يقولون : جنبني شره بالتشديد، وأهل نجد :
جنبني وأجنبني، والمعنى : أدمننا، وثبتنا على اجتناب عبادتها، ويقال : جنبه
الشر، وأجنبه إياه، ثلاثياً ورباعياً، وهي لغة نجد وجنبه إياه مشدداً، وهي
لغة الحجاز، وهو المنع، وأصله من الجانب، وقال الراغب : وقوله تعالى :
«واجنبني وبني» من جنبته عن كذا، أي : أبعدته منه . وقيل : من جنبت
الفرس، وكأنه سأل أن يبعده عن جانب الشراك باللطاف منه وأسباب خفية،
وأن نعبد على حذف حرف الجر، أي : عن أن نعبد . وفي القاموس : والجَنَب
محركة : أن يجنب فرساً إلى فرسه في السباق، فإذا فتر المركوب تحول إلى
المجنوب . وفي المصباح : وجنبت الرجل الشر جنوباً، من باب : قعد، أبعدته
عنه، وجنبته بالثقل مبالغة . وفي المختار : وجنبه الشيء، من باب : نصر،
وجنبه الشيء تجنبياً بمعنى، أي : نحاه عنه، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ
أَنْ نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ وقال أبو علي : ويقال : جنبت فلاناً الخير، أي : نحيت
عنه وجنبته أيضاً بالثقل . قال أبو نصر : والتخفيف أجود، قال الله تعالى :
﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ .

﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ : تميل، وتحن، وتطير شوقاً نحوهم، وأصله : أن يتعدى
باللام، وإنما تعدى بإلى ؛ لأنه تضمن معنى تميل . قال في الأساس : وهوى
إلى الجبل، وهوى الجبل : صعد هُويّاً، قال أبو بكر الهذلي يصف تأبط شراً :

وَإِذَا رَمِيتَ بِهِ الْفَجَاحَ رَأَيْتَهُ يَهْوِي مَخَارِمَهَا هُوِيَّ الْأَجْدَلِ
 أي: إذا قذفته في نواحي الأمكنة المتشعبة رأيتَه يهوي مخارمها، أي: يسرع في
 سلوك مسالكها الضيقة كهوي الأجدل، وهو: الصقر، أي: كإسراعه في
 الطيران.

○ الإعراب:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ إذ ظرف زمان لما مضى
 متعلق باذكر، وجملة قال مضاف إليها الظرف، وإبراهيم فاعل، ورب منادى
 محذوف منه حرف النداء مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، واجعل فعل
 دعاء، وفاعله مستتر تقديره: أنت، وهذا مفعوله الأول، والبلد بدل من اسم
 الإشارة، وآمنًا مفعول به ثانٍ ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ واجنبني فعل
 دعاء، والنون للوقاية، والياء مفعوله، وبني عطف على الياء، أو مفعول
 معه، وأن نعبد: أن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض كما
 قال الراغب، أي: عن أن نعبد، والجار والمجرور متعلقان باجنبني،
 والأصنام مفعول به لنعبد ﴿رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ رب منادى
 محذوف منه حرف النداء، وقد تقدم نظيره، وإن واسمها، وجملة أضللن خبر
 إن، والضمير يعود على الأصنام، والمراد بالدعاء طلب الثبات والدوام على
 ذلك، وكثيراً مفعول به، ومن الناس صفة لكثيراً، وجملة إنهن تعليلية لقوله:
 واجنبني ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ الفاء عاطفة، ومن اسم شرط جازم مبتدأ،
 وتبعني فعل ماضٍ في محل جزم فعل الشرط، والنون للوقاية، والياء مفعول
 به؛ فإنه الفاء رابطة لجواب الشرط، وإن واسمها، ومني خبرها، والجملة في
 محل جزم جواب الشرط والفعل، وجوابه خبر من ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ
 رَّحِيمٌ﴾ جملة معطوفة على نظيرتها ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ
 عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ تكرر النداء لتأكيد الابتهاال والتضرع، وإن واسمها،
 وجملة أسكنت خبرها، ومن ذريتي متعلقان بمحذوف صفة لمفعول أسكنت
 المحذوف، أي: أسكنت ذرية من ذريتي، ومن للتبعض، بواد جار ومجرور

متعلقان بأسكنت، وغير صفة لواد، وذو مضاف لغير، وزرع مضاف لذي، وعند بيتك الظرف صفة لواد، والمحرم صفة لبيتك، وسيأتي تفصيل هذا الإسكان في باب الفوائد ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ كرر نداء ربنا تأكيداً للابتهاال. وليقيموا: اللام لام التعليل، وهي متعلقة بأسكنت، أي: أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفع ومرتق؛ ليقموا الصلاة عند بيتك المحرم، أي: العظيم الحرمه، ويعمره بذكرك وعبادتك ﴿فَأَجْعَلْ أَفْعِدَّةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ الفاء الفصيحة، واجعل أفئدة فعل دعاء ومفعول به، ومن الناس صفة لأفئدة، أي: قلوباً، وجملة تهوي مفعول به ثان لاجعل، وإليه متعلقان بتهوي ﴿وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ وارزقهم عطف على اجعل، ومن الثمرات متعلقان بارزقهم، أي: بعض الثمرات، فمن للتبعيض، ولعل واسمها، وجملة يشكرون خبرها ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ﴾ تكرير النداء لتكرير الابتهاال، ودليل التضرع، واللياذ بالله تعالى. وإن واسمها، وجملة تعلم خبرها، وما مفعول تعلم، وجملة نخفي صلة، وما نعلن عطف على ما نخفي ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى تصديقاً لإبراهيم أو من كلام إبراهيم، وما نافية، ويخفي فعل مضارع، وعلى الله جار ومجرور متعلقان بيخفي، ومن زائدة، وشيء مجرور بمن لفظاً فاعل محلاً، وفي الأرض صفة لشيء، ولا في السماء عطف على في الأرض ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ الحمد مبتدأ، والله خبر، والذي نعت لله، وجملة وهب صلة، ولي متعلقان بوهب، وعلى الكبر في محل نصب حال، وعلى بمعنى مع، كقول الشاعر:

إِنِّي عَلَى مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي أَعْلَمُ مِنْ حَيْثُ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ

وإسماعيل مفعول به، وإسحاق عطف عليه ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ إن واسمها، واللام المرحقة، وسميع الدعاء خبرها، والجملة تعليل لقوله «وهب لي على الكبر» ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ اجعلني فعل دعاء، والياء مفعوله الأول، ومقيم الصلاة مفعوله الثاني، أي: مستمراً عليها ﴿وَمِنْ

ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿ ومن ذريتي عطف على ياء المتكلم، أي: واجعل بعض ذريتي مقيم الصلاة، وهذا الجار في الحقيقة صفة لذلك المفعول المحذوف، أي: وبعضاً من ذريتي وربنا منادى، وتقبل عطف على ما تقدم، ودعائي مفعول به، وحذفت الياء مراعاة للفواصل ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ اغفر فعل دعاء، ولي متعلقان باغفر، ولو الولدي وللمؤمنين عطف على لي، ويوم ظرف زمان متعلق بمحذوف حال، أي: حال كون الغفران في ذلك اليوم العصيب، وسيأتي مزيد بحث حول قيام الحساب في باب: البلاغة.

□ البلاغة:

هذه الآيات مجموعة رائعة من الابتهالات؛ التي تغرق نفس المؤمن في سبحاتها، وتذوب في بحراناها الجميل، وقد انطوت على مجموعة من الفنون البلاغية، نوجزها فيما يلي:

(١) المجاز العقلي في إسناد الإضلال للأصنام، وهي: جمادات، أو مجاز مرسل، والعلاقة هي السببية؛ لأنها سبب الإضلال.

(٢) الطباق بصورة متعددة، كقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ و﴿ وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾.

(٣) الاستعارة في قوله: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ أي: يثبت، وهو مستعار من قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها ونحوه، ولك أن تجعله مجازاً مرسلًا علاقته المحلية، مثل: «واسأل القرية».

* الفوائد:

قصة إسكان إبراهيم ذريته:

روى التاريخ أن هاجر كانت جارية لسارة، فوهبتها لإبراهيم، فولدت منه إسماعيل، فغارت سارة منهما؛ لأنها لم تكن قد ولدت قط، فأنشدته الله أن يخرجها من عندها، فأمره الله تعالى بالوحي أن ينقلها إلى أرض مكة، فأتى

من الشام، ووضعها في مكة، ورجع من يومه، فتبعته هاجر، فقالت: أين تذهب وتتركني بهذا الوادي؛ الذي ليس به إنس ولا شيء؟! فلم يلتفت، فقالت: الله أمرك بذلك؟ قال: نعم، فقالت: إذن لا يضيعني.

ثم رجعت فانطلق إبراهيم، ثم رفع يديه إلى السماء، وتلا الابتهالات التي عبر الله عنها بآياته الرائعة، وترك عندها جراباً من تمر وسقاء من ماء، فلما نفذ الماء عطشت هي وابنها، فجاء جبريل، وضرب موضع زمزم بعقبه، أو جناحه، فخرج الماء، فجعلت تشرب منه، فمكثوا كذلك حتى مرت بهم قبيلة من جرهم؛ كانوا ذاهبين إلى الشام، فعطشوا، فرأوا الماء عندها، فقالوا لها: تأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم، وأرسلوا إلى أهلهم، فنزلوا معهم، فلما شب إسماعيل تعلم منهم العربية، وكان أنفسهم، وأعجبهم، فزوجوه امرأة منهم، وماتت أمه بعد ما تزوج... إلى آخر هذه القصة؛ التي تحتاج إلى القلم المبدع ليحكى منها المسرحية الخالدة.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ٤١ ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ ٤٢ ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ ٤٣ ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْتَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ ٤٤ ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ ٤٥ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رَسُولَهُ﴾ ٤٦ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ٤٧ ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ٤٨ ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ

يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَّايِلُهُمْ مِّن قِطْرَانٍ وَتَعَثَّى وَجُوهَهُمْ
النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا
بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ﴿٥٢﴾

☆ اللفظة:

﴿مُهْطِعِينَ﴾: مسرعين إلى الداعي، وقيل: الإهطاع: أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف، وفي المختار: اهطع الرجل؛ إذا مدّ عنقه، وصوّب رأسه، وأهطع في عدوه: أسرع. وفي الأساس: بعير مهطع في عنقه تصويب، وقيل: هو المسرع، وقد أهطع في سيره واستهطع، وقال: تَعَبَّدَنِي نِمْرُ بْنُ سَعْدٍ وَقَدْ أُرَى وَنِمْرُ بْنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ وَمُهْطِعٌ وقال آخر يصف ثوراً: بمستهطع رَسْلٍ كَأَنَّ زَمَامَهُ

يَقِيدُومَ رَعْنٍ مِّنْ رُّضَامٍ مُّتَّعٍ

﴿مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ﴾: الإقناع: رفع الرأس، وإدامة النظر من غير التفات إلى غيره. وفي القاموس: وأقنعه: أرضاه، ورأسه: نصبه ورفعته، أو لا يلتفت يمينا ولا شمالاً، وجعل طرفه موازياً. وقيل: الإقناع من الأضداد يكون رفعاً وخفضاً، «مقنعي رؤوسهم»: رافعيها.

(الطرف): في الأصل مصدر، والطرف أيضاً: تحريك الجفن، قال

جرير:

إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا
يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهَنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنْسَانَا

﴿مُقَرَّنِينَ﴾: قرن بعضهم مع بعض: أقرنت أيديهم إلى أرجلهم مغلولين.

﴿الْأَصْفَادِ﴾: القيود، وقيل: الأغلال، وأنشد لسلامة بن جندل:

وزيد الخليل قد لاقى صفادا بعضُ بساعدٍ وبعضُ ساق

وهو جمع صَفَدَ، يقال: صفده يصفده صفداً، من باب: ضرب، قيده وصَفَّده، مشدداً للتكثير. ومن أقوالهم: «الصَّفَدُ صَفْدٌ» أي: العطاء قيد، ومن المجاز: صَفَّدته بكلامي تصفيداً إذا غلبته، وقال عمرو ابن كلثوم:
فآبوا بالنَّهَابِ وبالسَّبايا وأبنا بالملوكِ مُصَفِّدِينَا

﴿قَطِرَانٍ﴾: القطران فيه ثلاث لغات: قطران بفتح القاف وكسر الطاء، وقطران بزنة سكران، وقطران بكسر القاف وسكون الطاء بزنة سرحان، وهو: ما يتحلب من شجر يسمى الأهل، فيطبخ فتهناً به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحرّه وحدّته، والجلد، وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون، متن الرياح، فتطلى به جلود أهل النار، حتى يعود طلاؤه لهم كالسرايل، وهي القمص ليجتمع عليهم لدع القطران، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، وتنن الرياح. وفي المنجد: القَطْرَان والقَطْرَان والقَطِرَان: سيال دهني يتخذ من بعض الأشجار كالصنوبر والأرز.

○ الإعراب:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ الواو استئنافية، ولا ناهية، وتحسبن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وهو في محل جزم بلا الناهية، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنت، ولفظ الجلالة مفعول به أول، وغافلاً مفعول به ثان، وعما متعلقان بغافلاً، وجملة يعمل الظالمون صلة ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ الجملة مستأنفة أيضاً مسوقة لتعليل النهي السابق، وإنما كافة ومكفوفة، ويؤخرهم فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، وليوم متعلق بيؤخرهم، وجملة تشخص صفة ليوم، وفيه متعلقان بتشخص، والأبصار فاعل، والمعنى: لا تستقر في أماكنها من هول ما ترى ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ مهطعين ومقنعي رؤوسهم حالان من المضاف المحذوف؛ إذ التقدير أصحاب الأبصار، أو تكون الأبصار دلت على

أصحابها، فجاءت الحال من المدلول عليه، وجملة لا يرتد إليهم طرفهم حال
 ثالثة من الضمير في مقنعي رؤوسهم، ويجوز أن تكون مستأنفة، وأفئدتهم
 الواو للحال أيضاً، وأفئدتهم هواء مبتدأ وخبر، والجملة حال رابعة، ويجوز
 أن تكون الواو استئنافية، والجملة مستأنفة ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾
 وأنذر عطف على قوله: ولا تحسبن، والناس مفعول به أول، ويوم مفعول به
 ثان، لا مفعول فيه كما يتوهم للوهلة الأولى، على حذف المضاف، أي:
 أنذرهم أهواله وعظائمه، إذ لا إنذار في ذلك اليوم، وإنما الإنذار يقع في
 الدنيا، وجملة يأتيهم العذاب مضافة للظرف، ويأتيهم فعل ومفعول به،
 والعذاب فاعل مؤخر ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتَكَ
 وَنَسْتَجِيبُ الرُّسُلَ﴾ الفاء عاطفة، ويقول عطف على يأتيهم، والذين فاعل،
 وجملة ظلموا صلة، وربنا منادى مضاف، وأخرنا فعل وفاعل مستتر ومفعول
 به، وإلى أجل متعلقان بأخرنا، وقريب صفة، ونحب جزم لأنه جواب
 الطلب، والفاعل مستتر تقديره: نحن، ودعوتك مفعول به ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا
 أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي التقريري،
 والواو عاطفة ولم حرف نفي وقلب وجزم، وتكونوا مضارع ناقص مجزوم
 بلم، والواو اسمها، والجملة مقول القول محذوف، أي: فيقال لهم هذا
 القول توبيخاً وتقريعاً، وجملة أقسمتم خبر تكونوا، وما نافية حجازية، أو
 تيمية، ولكم خبر مقدم، ومن حرف جر زائد، وزوال اسم ما، أو مبتدأ
 مؤخر محلاً مجرور بمن لفظاً، والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم، وجاءت
 بلفظ الخطاب مراعاة لقوله: أقسمتم ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 أَنْفُسَهُمْ﴾ وسكنتم عطف على أقسمتم، وهو فعل وفاعل، وفي مساكن جار
 ومجرور متعلقان بسكنتم، والذين مضاف لمساكن، وجملة ظلموا صلة،
 وأنفسهم مفعول به ﴿وَبَيَّنَّا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ
 الْأَمْثَالَ﴾ وتبين عطف على ما تقدم، والفاعل مقدر على منطوق الجملة،
 أي: حالهم، وذلك بالأخبار والمشاهدة، ولكم متعلقان بتبين، وكيف
 مفعول مطلق، أي: أي فعل فعلنا بهم، ولك أن تعربها حالاً، ولا يصح أن

تكون فاعلاً لتبين؛ لأن اسم الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، وله الصدارة، وفعلنا فعل وفاعل، وبهم متعلقان بفعلنا، وضربنا: لك أن تعطفه على تبين، ولك أن تجعله مستأنفاً، وضربنا فعل وفاعل، والأمثال مفعول به، ولكم متعلقان بضربنا ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ الواو عاطفة، وقد حرف تحقيق، ومكروا فعل وفاعل ومكرهم مفعول مطلق، والواو حالية، وعند الله ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، ومكرهم مبتدأ مؤخر، والهاء مضاف إليه، وهي إما هاء الفاعل فيكون المعنى: ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر أعظم، ويجوز: وإن نافية، وكان فعل ماض ناقص، ومكرهم اسمها، واللام لام الجحود الذي يستحقونه يأتيهم من حيث لا يشعرون، والأول أولى لتلاؤمه مع هاء مكرهم الأولى ﴿وإن كان مَكْرُهُمْ لَيَتَزَوَّلُ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ الواو عاطفة، وإن نافية، وكان فعل ماض ناقص مكرهم اسمها، واللام لام الجحود، وتزول فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، والجار والمجرور خبر كان، ومنه متعلقان بتزول، والجبال فاعل، والمعنى: ولن تزول الجبال بمكرهم، وسيأتي معنى ضرب المثل بالجبال في باب: البلاغة ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ خَائِفًا وَّعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ عطف تفريعي على: ولا تحسبن، ولا ناهية، وتحسبن مجزوم محلاً بلا الناهية، ولفظ الجلالة مفعول به، ومخلف مفعول ثانٍ لتحسبن، وهو اسم فاعل، ووعدته مضاف إلى مخلف، وهو المفعول الثاني لمخلف، ورسله هو المفعول الأول لمخلف، والأصل مخلف رسله وعده، ولكنه قدم الوعد لأهميته، وإيذاناً منه بأنه لا يخلف الوعد أصلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ إن واسمها وخبرها، وذو انتقام خبر ثانٍ لها ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ يوم الظرف بدل من يوم يأتيهم العذاب، أو متعلق بمحذوف، أي: اذكر يوم، وجملة تبدل مضاف إليها الظرف، وتبدل فعل مضارع مبني للمجهول والأرض نائب فاعل، وغير الأرض مفعول تبدل الثاني، والسموات عطف على الأرض، أي: تتغير معالمها على حد قوله:

وما النَّاسُ بالنَّاسِ الَّذِينَ عَهِدْتَهُمْ

وَلَا الدَّارُ بِالْأَرْضِ الَّتِي كُنْتَ تَعْلَمُ

وفي المطولات أحاديث وأقوال عن تبدل الأرض والسموات، لا بأس بالرجوع إليها ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ عطف على تبدل، فهو ماض بمعنى المضارع، والله متعلقان ببرزوا، والواحد القهار صفتان لله ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ عطف على تبدل أيضاً، والمجرمين مفعول به، والرؤية هنا بصرية، أي: تراهم رؤية العين، ويومئذ ظرف أضيف إليه ظرف، وهو متعلق بتراهم، ومقرنين حال من المجرمين، وفي الأصفاد جار ومجرور متعلقان بمقرنين، أو بمحذوف حال ﴿سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ﴾ الجملة حال ثانية، أو جملة مستأنفة، وسراويلهم مبتدأ، ومن قطران خبره ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ عطف على الجملة الحالية، وتغشى فعل مضارع، ووجوههم مفعول به مقدم، والنار فاعل مؤخر ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ اللام لام التعليل، ويجزي فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجار والمجرور متعلقان ببرزوا، والله فاعل، وكل نفس مفعول به، وما كسبت ما مفعول به ثان، وجملة كسبت صلة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إن واسمها وخبرها، والجملة تعليلية لا محل لها ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ هذا مبتدأ، وبلاغ خبر، وللناس صفة، ولينذروا معطوف على محذوف، أي: لينصحووا ويحذروا، وبه متعلقان بينذروا ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ الْأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ وليعلموا عطف على لينذروا، وإنما كافة ومكفوفة، وقد سدت مسد مفعولي يعلموا، وهو مبتدأ، وإله خبر، وواحد صفة، وليذكر عطف على ما تقدم، وأولو الأبواب فاعل.

□ البلاغة:

الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْوَلَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ فقد شبه بقوله لتزول منه الجبال مكرهم لتفاقمه، وشدته، وافتتانهم فيه، وبلوغهم الغاية منه. وشبه شريعته وآياته وما أنزله على نبيه من تعاليم سامية،

وحجج بيته، شبهها بالجبال في رسوخها وتمكنها من نفوس المؤمنين بها، المتشبثين بأهدابها، وهي من أرقى الاستعارات وأجملها، وترداد روعتها بأن صدور المكر المعد لإزالة الجبال صادر عن قوم جوف لا جدوى فيه، ولا قوة لهم، وهم في تقلبهم وخفتهم أشبه بالهواء، إذ قال قبل ذلك: ﴿وَأَفْعِدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ والهواء الخلاء والخواء الذي لم تشغله الأجرام، فوصف به القلب، فقيل: قلب هواء إذا كان قزوقة، جباناً، لا قوة في قلبه، ولا جرأة، ويقال للأحمق أيضاً: قلبه هواء، قال زهير بن أبي سلمى يصف ناقته:

كَأَنَّ الرَّجُلَ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ مِنَ الظُّلْمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءٌ

الصعل: المنجرد شعر الرأس، والصغير الرأس. والظلمان: جمع ظليم، وهو ذكر النعام، والجؤجؤ: الصدر، وجعل صدره فارغاً ليكون أسرع في السير إلى طعامه، والنعام مثل في الجبن، والخوف، والحمق. وقال حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان قبل إسلامه:

أَلَا أَبْلُغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي	فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَخْبٍ هَوَاءٌ
بَأَنَّ سَيْوَفَنَا تَرَكْتَ عَيْدًا	وَعَبْدَ الدَّارِ سَادَتَهَا الْإِمَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ	وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفٍّ	فَشُرُّكُمْ مَا خَيْرُكُمْ مَا الْفِدَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ	وَيَمْدَحْهُ وَيَنْصُرْهُ سَوَاءٌ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي	لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

والمجوف والنخب والهواء: خالي الجوف، أو فارغ القلب من العقل والشجاعة، وقد رموق شوقي في العصر الحديث هذا المعنى، فاقتبسه لوصف الغيد العذاري بقوله:

فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي قُلُوبِ الْعَذَارَى فَالْعَذَارَى قُلُوبُهُنَّ هَوَاءٌ

※ الفوائد:

معنى تبدل الأرض غير الأرض:

ننقل لك خلاصة كلام الإمام الرازي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية لأهميته، ثم نعقب على هذا الكلام بكلمات لا تقل عنه أهمية.

قال الرازي:

اعلم أن التبديل يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون الأرض باقية، وتبدل صفتها بصفة أخرى، والثاني: أن تغنى الذات، وتحدث ذات ثانية. والدليل على أن إطلاق التبديل لإرادة التغيير في الصفة جائز، أنه يقال: بدلت الحلقة خاتماً إذا أنت سويتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾. ويقال: بدلت قميصي جبة، أي: نقلت العين من صفة إلى صفة أخرى. ويقال: تبدل زيد إذا تغيرت أحواله، أما ذكر التبديل عند وقوع المبدل في الذات فكقولك: بدلت الدرهم دنانير، ومنه قوله تعالى: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ وقوله: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ﴾ فإذا عرفت أن اللفظ محتمل لكل واحد من هذين المفهومين، ففي الآية قولان:

الأول: المراد تبديل الصفة لا تبديل الذات. . . . وقوله ﴿وَالسَّمَوَاتِ﴾ أي: وتبدل السموات بانتثار كواكبها، وانفطارها، وتكوير شمسها، وخسوف قمرها، وكورها، فتارة تكون كالمهل، وتارة تكون كالدهان.

القول الثاني: أن المراد تبديل الذات. قال ابن مسعود: تبدل بأرض كالفضة البيضاء النقية، لم يسفك فيها دم، ولم تعمل عليها خطيئة. انتهى كلام الرازي.

وقد علل الفيلسوف الشيخ علاء الدين ابن النفيس في رسالته التي عارض بها رسالة حي بن يقظان لابن الطفيل خراب هذه الدار، وفساد هذا العالم، وظهور الآيات، فقال ما معناه ملخصاً: وإذا قد ثبت أن ميل الشمس إلى الشمال والجنوب يتناقض دائماً، فإذا بطل هذا الميل، أو قرب منه، صارت الشمس دائمة المسامطة لخط الاستواء، أو ما يقرب منه، فلذلك تحدث حرارة

شديدة جداً، ويحدث في البقاع التي لها عرض بعيد برد مفرط، فتفسد
الأمزجة، وتضعف القلوب، ويكثر موت الفجأة، وتسوء الأخلاق، فتفسد
المعاملات، وتكثر الشرور والمخاصمات، وتكثر الحروب والفتن، ويتقدم
الأشرار، وتفسد الأذهان، وبفسادها تبعد الناس عن قبول العلوم والحكمة.
إلى أن يقول: وإذا دام فقدان ميل الشمس مدة أفرط الخروج عن الاعتدال،
حتى أفسد الأمزجة الحيوانية والنباتية، وكان من ذلك القيامة. انتهى كلام
ابن النفيس.



سُورَةُ الْحَجَرِ

ترتيبها ١٥ آياتها ٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ
كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَا كُفُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا
يَسْتَخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا
بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا
مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي
شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾

○ الإعراب:

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ الر تقدم إعرابها، وتلك مبتدأ،
وآيات الكتاب خبر، وقرآن عطف على الكتاب، ومبين صفة للقرآن، وساغ

عطف قرآن على الكتاب، وإن كان المراد واحداً للتعدد اللفظي والتغاير فيه، ولزيادة صفة في المعطوف وهي مبين وجميل قول البيضاوي: تنكير القرآن للتفخيم، وكذا تعريف الكتاب. ﴿رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ربما: كافة ومكفوفة، قال أبو حيان: ولما كانت «رب» عند الأكثرين لا تدخل على مستقبل، تأولوا يود في معنى ود، لما كان المستقبل في إخبار الله لتحقق وقوعه كالماضي، فكأنه قيل: ود، وليس ذلك بلازم، بل قد تدخل على المستقبل، لكنه قليل بالنسبة إلى دخولها على الماضي، ومما وردت فيه للمستقبل قول هند أم معاوية:

يَا رَبَّ قَائِلَةٍ غَدًا يَا لَهْفَ أُمِّ مُعَاوِيَةَ

وقول جحدر:

فَإِنْ أَهْلَكَ فَرُبَّ فَتًى سِيكِي عَلَيَّ مُهَذَّبٍ رَخِصِ الْبَنَانِ

وسياتي قول مسهب فيها في باب الفوائد، ويود الذين فعل مضارع وفاعل، وجملة كفروا صلة، ولو مصدرية لوقوعها بعد يود، وهي مع مدخولها في تأويل مصدر هو المفعول للودادة، والمعنى يودون كونهم مسلمين، ويجوز أن تكون لو امتناعية، ويكون جوابها محذوفاً تقديره: لو كانوا مسلمين لسروا بذلك؛ إذ تخلصوا مما هم فيه، ومفعول يود على هذا التقدير، أي: ربما يود الذين كفروا النجاة ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ذرهم فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، وقد تقدم أن هذا الأمر وأمر دع لا يستعمل لهما ماضٍ إلا قليلاً، بل يستعمل منهما المضارع، نحو: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ ويأكلوا جواب مجزوم على أنه جواب الأمر، ويتمتعوا عطف على يأكلوا، وكذلك يلهمهم الأمل، والأمل فاعل، فسوف الفاء الفصيحة، وسوف حرف استقبال، ويعلمون فعل وفاعل، والمفعول محذوف، أي: عاقبة أمرهم وسوء صنيعهم ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ الواو استئنافية، وما نافية، وأهلكنا فعل وفاعل ومن حرف جر زائد، وقرية مجرور لفظاً ومنصوب محلاً على المفعولية، وإلا

أداة حصر، والواو حالية، ولها خبر مقدم، وكتاب مبتدأ مؤخر، ومعلوم صفة للكتاب، والجملة حالية، وقيل: الواو زائدة، واختار الزمخشري وجهاً آخر، وهو: أن تكون جملة لها كتاب معلوم صفة لقرية، قال: والقياس أن لا تتوسط الواو بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب وعليه ثوب. وسيأتي مزيد بحث عن هذا التركيب في باب الفوائد. ﴿مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ ما نافية، وتسبق فعل مضارع، ومن حرف جر زائد، وأمة فاعل تسبق محلاً، وهي مجرورة لفظاً، وأجلها مفعول به، وما يستأخرون عطف على ما تسبق، وحمل على لفظ أمة أجلها فأفرد وأنث، وعلى معناها قوله «وما يستأخرون» فجمع وذكر ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ الواو استئنافية، وقالوا فعل وفاعل، وجملة يا أيها الذي نزل الخ مقول القول، ويا حرف نداء، وأي منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب، والهاء للتنبيه، والذي بدل من أي: وجملة نزل صلة، وعليه متعلقان بنزل، والذكر نائب فاعل، وإن واسمها، واللام المرحقة، ومجنون خبر إن ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لوما حرف تحضيض ك: هلا، وتكون حرف امتناع لوجود، والفرق بينهما أن التحضيضية لا يليها إلا الفعل ظاهراً أو مضمراً، والامتناعية لا يليها إلا الأسماء، وقد تقدم بسط ذلك، وسيأتي مزيد من بحث لوما. وتأتينا فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، وبالملائكة متعلقان بتأتينا، وإن شرطية، وكنت: كان واسمها، ومن الصادقين خبرها، وجواب إن محذوف تقديره: آتيتنا بالملائكة ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ كلام مستأنف، مسوق للرد على دعواهم، وفيه لف ونشر مشوش، وسيأتي حكمه في باب البلاغة. وما نافية، ونزل فعل مضارع فاعله مستتر، تقديره: نحن، والملائكة مفعول به. وإلا أداة حصر، وبالحق حال، أي: متلبساً بالحق، فالباء للملابسة، ويجوز تعليقه بنزل، وجعله الزمخشري نعتاً لمصدر محذوف، أي: إلا تنزلاً متلبساً بالحق، والجميع جائز،

والواو عاطفة، وما نافية، وكانوا: كان واسمها، وإذن حرف جواب وجزاء مهمل، ومنظرين خبر كان ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَكَافِتُونَ﴾ إن واسمها، ونحن تأكيد لاسم إن، أو ضمير فصل لا محل له، وجملة نزلنا خبر إن، وإنا عطف، وله متعلقان بحافظون، واللام المرحقة، وحافظون خبر إنا ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، وأرسلنا فعل وفاعل، ومن قبلك صفة للمفعول به المحذوف، المفهوم من منطوق الإرسال، أي: رسلاً من قبلك، وفي شيع الأولين نعت آخر للمفعول المحذوف، والشيع جمعة شيعة، وهي الفرقة المتفقة على طريق ومذهب ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الواو عاطفة، وما نافية، ويأتيهم فعل ومفعول به، ومن حرف جر زائد، ورسول مجرور لفظاً مرفوع محلاً على الفاعلية، وإلا أداة حصر، وكانوا: كان واسمها، وبه متعلقان يستهزئون، وجملة يستهزئون خبر كانوا، وجملة كانوا به يستهزئون حال، أو صفة لرسول. قال الزمخشري: وما يأتيهم حكاية حال ماضية؛ لأن «ما» لا تدخل على مضارع إلا وهو في موضع الحال، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال. وهذا الذي ذكره الزمخشري هو قول الأكثر، من: أن «ما» تخلص المضارع للحال، وتعينه له، وذهب غيره إلى أن ما يكثر دخولها على المضارع مراداً به الحال، وتدخل عليه مراداً به الاستقبال، وأنشد على ذلك قول أبي ذؤيب:

أُودِي بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً عند الرُّقَادِ وَعَبْرَةً مَا تُقْلَعُ

وقول الأعشى يمدح الرسول ﷺ:

لَهُ نَافِلَاتٌ مَا يَغِبُّ نَوَالُهَا وليسَ عطاءُ اليومِ مانِعُهُ غداً

□ البلاغة:

(١) التعبير بالضد: في قوله: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾

اختلف علماء البلاغة في المراد بهذا التعبير، وقد قرر النحاة أن ربما لا تدخل إلا على الماضي. وما المراد بمعنى التقليل الذي تفيدته رب؟ وقد أجيب عن الأول بأن المترقب في إخبار الله تعالى بمثابة الماضي المقطوع به في تحققه، فكأنه

قيل: ربما ود، وأجيب عن الثاني بأن هذا مذهب وارد على سنن العرب، في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما يفعل، ولا يشكون في ندامته، ولا يقصدون تقليله، والعقلاء يتحرزون من التعرض من المظنون، كما يتحرزون من المتيقن الثابت. وهذا الجواب جميل، ولكن الأجل منه أن يقال: إن العرب تعبر عن المعنى بما يؤدي عكس مقصوده، ومنه قول أبي الطيب المتنبي:

وَلَجُذْتُ حَتَّى كِدْتُ تَبْخُلُ حَائِلًا

لِلْمُتَّهَى وَمِنَ الشُّرُورِ بُكَاءُ

وقد سبقت الإشارة إلى هذا الفن الجميل، وكلا هذين الوجهين يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها، والعمدة في ذلك على سياق الكلام.

(٢) الف والنشر المشوش: وقد تقدم ذكر هذا الفن، وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَا نُزِّلَ . . . ﴾ رداً على مقالتهم الثانية، وهي: ﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ ﴾ أما رده على مقالتهم الأولى، وهي: ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ فهو قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴾ ثم أردف ذلك بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ إلى آخر الآية، أي: أن هذا ديدنهم، وديدن الجاهلية مع جميع الأنبياء، فلا تبتئس، واقتد بمن قبلك، وتأس بهم.

* الفوائد:

(١) (رب) ويقال: رُبت، وربما، وربتما، وقد تخفف حرف جر للتقليل، أو للتكثير، حسبما يستفاد من سياق الكلام، ولا يدخل إلا على نكرة، وهو في حكم الزائد، فلا يتعلق بشيء، نحو: رب جهل رفع، وإذا لحقته «ما» كفته عن العمل، فيجوز دخوله على الأفعال والمعارف، فتقول: ربما أقبل الخليل، وربما الخليل مقبل، وقد يبقى على عمله كقوله: «ربما ضربة بسيف صقيل» وتكف بما، فتدخل حينئذ على الاسم والفعل، وتصير كحرف الابتداء يقع بعدها الجملة من الفعل والفاعل، كقوله:

رُبَمَا تَجْزَعُ الْنفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ لَهُ فُزْجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ

والمبتدأ والخبر، كقول أبي دؤاد الإيادي :

رُبَمَا الْجَامِلُ الْمُؤَبَّلُ فِيهِمْ وَعَنَاجِيحُ بَيْنَهُنَّ الْمَهَارُ

وتخلفها الواو، كقول امرئ القيس :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ

عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَتَلَي

كما تخلفها الفاء، كقول امرئ القيس أيضاً :

فَمِثْلُكَ حُبْلَى قَدْ طَرَقَتْ وَمُزْضِعُ

فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مُحَوِّلِ

هذا؛ ورب في الآية معناها التكرير، كما قال الشاعر :

رُبَّ رَفِيدٍ هَرَقَتْهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ مَ وَأَسْرَى مِنْ مَعْشَرٍ أَقْيَالِ

أما علة دخوله على النكرة واختصاصها بها؛ لأن النكرة تدل على الشيوع، فيجوز فيها التقليل لقبولها التقليل، والتكثير لقبولها التكثير، وأما المعرفة فمعلومة المقدار لا تحتل تقليلًا ولا تكثيرًا، ولكنها قد تدخل في السعة على المضمر، كما تدخل على المظهر مثل دخول الكاف في الضرورة، كقول العجاج :

كُلُّ الذَّنَابَاتِ شِمَالًا كَثِبَا وَأُمُّ أَوْعَالٍ كَهَا أَوْ أَقْرَبَا

إلا أن الضمير بعد رب يلزم الأفراد والتذكير والتفسير بتمييز يأتي بعده، نحو: ربه رجلاً عرفته، وربه امرأة لقيها. وقال ابن النحاس: اختلف في الضمير العائد إلى النكرة هل هو معرفة أو نكرة؟ فإن قلنا بأن ضمير النكرة نكرة، وبه قال السيرافي والزخشي وجماعة، فلا إشكال في دخول رب على الضمير؛ لأنه لما أبهم من جهة تقديمه على المفسر من جهة وقوعه للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ واحد، وشاع من جهة تفسيره بالنكرة صار فيه من الإبهام والشيوع ما قارب به النكرة، فجاز دخول رب عليه. وقال الشيخ ابن

النحاس: لا بد للمخفوض بها، أو بما ناب منها من الصفة أولاً، فمن الناس من قال منهم بعدم اللزوم. ومنهم من قال باللزوم، كأبي علي الرخشي وابن عصفور، واحتجوا لذلك بأن الصفة في النكرة للتخصيص، فهي تفيد الموصوف قليلاً، فيوافق المعنى المقصود في أن رب للتقليل. وقال الشيخ بهاء الدين أيضاً: إنما جاز: رب رجل وأخيه، ولم يجز: رب أخيه؛ لأن الثواني يجوز فيها ما لم يجز في الأوائل من قبل أنه إذا كان ثانياً يكون ما قبله قد وفى الموضوع حقه فيما يقتضيه، فجاز التوسع في ثاني الأمر، بخلاف ما إذا أتينا بالتوسع في أول الأمر، فإننا حينئذ لا نعطي الموضوع شيئاً مما يستحقه، هذا إذا لم نقل: إن المضاف إلى ضمير النكرة نكرة، فإن قلنا أنه نكرة، كان الجواز أسوغ. قال: ولا يكون العامل فيها إلا بمعنى المضي، كقولك: رب رجل جواد لقيته، أو أنا لاق، أو هو ملقى، ولا تقول: رب رجل جواد سألقى، أو لألقين؛ لأن التقليل في الماضي شائع، ولا كذلك في المستقبل؛ لأنه لم يعلم فيتحقق تقليله. قال: وتلزم أبدأ الصدر لشبهها بحرف النفي من جهة مقارنة التقليل للنفي؛ لأن النفي إعدام الشيء، وتقليله تقريب من إعدامه، ولأن العرب استعملوا القليل في موضع النفي، قال الشاعر:

قلما يبرح المطيعُ هواه كلفاً ذا صبايةٍ وجنون

معناه: ما يبرح المطيع هواه كلفاً.

وهناك أبحاث تتعلق برب لا يتسع لها صدر هذه الفوائد.

(٢) واو الحال أيضاً: مما توهم فيه النحاة اشتراطهم في واو الحال: عدم اقترانها بإلا الإيجابية، ومن العجيب أن يتورط في هذا الوهم ابن هشام في شرحه لألفية ابن مالك، ويشايعه في وهمه الشيخ خالد الأزهرى، فإن ذلك ثابت في فصيح الكلام، وهو هذه الآية: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ وقول الشاعر كما قال شارح «اللب»:

نعم امرأً هَرِمَ لم تعرْ نائبةً إلا وكان لمُرْتَاعٍ بها وزراً

وكان الزمخشري شايع القائلين بعدم الجواز فجعل الجملة صفة والواو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف .

(٣) لوما : لوما ولولا لهما وجهان أحدهما أن يدلّا على امتناع جوابهما لوجود تاليهما فيختصان بالجمال الاسمية ، وإلى ذلك أشار ابن مالك بقوله في الخلاصة :

لَوْلَا وَلَوْمَا يَلْزَمَانِ الْإِثْبَادَا إِذَا امْتِنَاعًا بِوُجُودٍ عَقْدَا
نحو قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ وقول الشاعر :
لَوْمَا الْإِصَاحَةُ لِلْوُشَاةِ لَكَانَ لِي

مَنْ بَعْدِ سُخْطِكَ فِي رِضَاكَ رَجَاءُ
والوجه الثاني أن يدلّا على التحضيض ، فيختصان بالجمال الفعلية ، نحو :
﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ ﴾ .

﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۖ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ
الْأَوَّلِينَ ۚ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ ۚ لَقَالُوا إِنَّمَا
شِكْرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۚ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا
لِلنَّظَرِ ۚ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۚ إِلَّا مَن أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ
شَهَابٌ مُّبِينٌ ۚ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ
مَّوْزُونٍ ۚ وَجَعَلْنَا لَكُم فِيهَا مَعِيشَ ۚ وَمَن لَّسْتُمْ لَكُم بِرَازِقِينَ ۚ ﴾

☆ اللغة :

﴿ نَسْلُكُكُمْ ﴾ : ندخله ، يقال : سلكت الخيط في الإبرة ، وأسلكته ؛ إذا
أدخلته فيها . وفي المختار : السلك - بالكسر - : الخيط ، وبالفتح مصدر سلك
الشيء في الشيء فانسلك ، أي : أدخله فيه فدخل ، وبابه : نصر . قال الله
تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ واسلك لغة فيه . وفي القاموس

وغيره: سلك يسلك - بضم اللام في المضارع - سلكاً وسلوكاً المكان: دخل فيه، والطريق: سار فيه متبعاً إياه، وأسلك الشيء في الشيء: أدخله فيه، كما يسلك الخيط في الإبرة، وسلكه المكان وأسلكه المكان وفيه وعليه: أدخله فيه.

﴿سُكِّرَتْ﴾: حيرت، أو حبست من الأبصار، أو سدت، يقال: سكرت النهر سكرأً، من باب: قتل، سدده. والسكر بالكسر: ما يسد به. وفي القاموس وشرحه وغيرهما: سكر يسكر الإناء سكرأً، من باب: قتل: ملاء، والنهر: جعل له سداً، والباب: سدده، وسكرت الريح سُكُوراً وسكراناً: سكنت، والحر: فتر. وشكر وشُكِّرَ بصره: تحير وحبس عن النظر، وسكر يسكر من باب: علم، الحوض: امتلاً، وسكر الرجل عليه: اغتاط وغضب، وسكر سكرأً، وسُكراً وسُكُراً وسُكْراناً من الشراب، نقيض صحا، فهو سكر وسكران، هي سكرة وسُكْرَى وسكرانة، والجمع سُكْرَى وسُكَارَى وسُكَارَى. وللسين مع الكاف إذا وقعتا فاء وعيناً للفعل معنى التأثير في الشيء، وإحداث الأثر فيه، يقال: سكب الماء: سفحه وصبه، وماء ودم أسكوب. قالت جنوب أخت عمرو ذي الكلب:

وَالطَّاعِنِ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءَ يَتَّبِعُهَا مُثْعَنٍ جِرٍّ مِنْ دَمِ الْأَجْوَفِ أُسْكُوبُ

وهذا أمر سَكَبَ وَسَنَّةَ سَكَبَ: حتم، قال لقيط بن زرارة لأخيه معبد، وقد طلب إليه حين أسر أن يفديه بمئتين من الإبل: ما أنا بمنط (أي: بمعط) عنك شيئاً يكون على أهل بيتك سنة سكباً، ويدرب له الناس بنا درباً. وسكت الرجل: أصابته علة منعه من الكلام، ورجل سَكُوت وساكوت وسُكَّيت، وبه سُكَّات: إذا كان طويل السكوت من علة، وللجُبلى صرخة ثم سكتة، ومن المجاز ضربته حتى أسكت حركته، والسَّكْتَةُ: داء معروف تتعطل به الأعضاء عن الحس والحركة إلا التنفس، والسَّكْتَةُ: ما تبقى في الوعاء، وما تسكت به الصبي أو غيره. والسُّكَّات: داء يمنع من الحيات، والسكَّات من الحيات: ما يلدغ قبل أن يُشْعَرَ به. وسكع يسكع، من بابي:

فهم وفتح، سَكْعاً وسَكْعاً: مشى على غير هدى لتأثره، وفلان يتسكع: لا يدري أين يتوجه من أرض الله، وتسكع في الظلمة خبط فيها، قال:
 أَيَادِي بِيضاً بَيَّضَتْ وَجْهَ مَطْلَبِي
 وقد كُنْتُ فِي ظُلُمَائِهِ أَتَسَكَّعُ

وسئل بعض العرب عن قوله تعالى: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فقال: في عمهم يتسكعون، وهو إسكاف بكسر الهمزة من الأسكافة، وهو الخراز، وقيل: كل صانع، وما وطئت أُسْكُفَةً بابه، وما تسكفت بابه، ووالله لا أتسكف له بيتاً، ومن المجاز: وقفت الدمعة على أسكفة عينه، أي: على جفنها الأسفل، وسكّ الباب: سده بالحديد، وسكّ البئر: حفرها، وسكّ أذنيه: اضطلمهما، وسكّ التّعام ما في بطنه: رمى به رقيقاً. يقال: ما سكّ سمعي مثل ذلك الكلام، أي: ما دخل، وضرب هذا الدرهم في سكة فلان، وشقّ الأرض بالسّكة، وله سكة من نخل، وهو يسكن سكة بني فلان، وهي: الزقاق الواسع، ومن المجاز: استكت مسامعه: صمت، قال النابغة:
 أَنَايَ أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَتُكَّ لُمْتَنِي وَتَلَكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ

وسكن المتحرك وأسكنته وسكنته، وتناسبت حركاته وسكناته، وسكنوا الدار، وسكنوا فيها، وأسكنتهم الدار، وأسكنتهم فيها، ومن المجاز: سكنت نفسي بعد الاضطراب، وعلمته علماً سكنت إليه النفس، ومالي سكن، أي: من أسكن إليه من امرأة أو حميم، قال أبو الطيب:

بِمَ التَّعَلُّلُ لَا أَهْلٌ وَلَا وَطَنٌ وَلَا نَدِيمٌ وَلَا كَأْسٌ وَلَا سَكَنٌ

وعليه سكيئة ووقار ودعة، ولهم ضرب يزيل الهام عن سكناته، قال النابغة:

بِضَرْبٍ يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ سَكَنَاتِهِ

وَطَعْنٍ كَأَيِّزَاغِ الْمَخَاضِ الضَّوَارِبِ

وهذا - كما يبدو - أشبه بأن يكون مقصوداً، ولكن لغتنا ولدت مع الإلهام متمشية مع خواطر النفوس وهواجسها.

﴿بُرُوجًا﴾: جمع برج، وبروج السماء اثنا عشر - كما كانوا يقولون - وهي الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. قالوا: وهي منازل الكواكب السبعة السيارة: المريخ وله الحمل والعقرب، والزهرة ولها الثور والميزان، وعطارد (ويمنع من الصرف لصيغة منتهى الجموع) وله الجوزاء والسنبلة، والقمر وله السرطان، والشمس ولها الأسد، والمشتري وله القوس والحوت، وزحل (ويمنع من الصرف للعلمية والعدل كعمر) وله الجدي والدلو، ولم نورد هذه الأسماء على سبيل التحقيق العلمي، فقد بدل العلم الكثير من هذه المعلومات الابتدائية، واكتشف ما لم يكن يدور بالخلد والحسبان، ولكننا أوردناها للفوائد اللغوية فقط.

﴿أَسْرَقَ﴾: خطفه وسرقه، وسارقه النظر مثله، واسترق الكاتب بعض المحاسبات: إذا لم يبرزه.

﴿شَهَابٌ﴾: الشهاب: كل مضيء متولد من النار، وما يرى كأنه كوكب انقضى، والكوكب عموماً والسنان لما فيه من البريق، والجمع شهب، قال أبو تمام وجانس:

وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ سَاطِعَةٌ

بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

﴿مَعِيشٌ﴾: جمع معيشة، وهي ما يعيش به الإنسان مدة حياته من المطاعم والمشارب والملابس، هي بياء صريحة بخلاف الشمائل والخبائث، وذلك لأن البياء في معاش أصلية في المفرد، والمد في المفرد لا يقلب همزاً في الجمع إلا إذا كان زائداً في المفرد، كما قال ابن مالك في الخلاصة:

وَالْمَدَّ زَيْدٌ ثَالِثاً فِي الْوَاحِدِ هَمْزاً يُرَى فِي مِثْلِ كَالْقَلَانِدِ

○ الإعراب:

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكاف نعت لمصدر محذوف، أي:

مثل ذلك الإدخال ندخله في قلوب المجرمين، ونسلكه فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، وفي قلوب المجرمين متعلقان بنسلكه ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وقد خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿الجملة في محل نصب على الحال، ويجوز أن تكون مفسرة لقوله نسلكه فلا محل لها، ويؤمنون فعل مضارع، وفاعل، وبه جار ومجرور متعلقان بيؤمنون، وقد: الواو حالية، وقد حرف تحقيق، وخلت سنة الأولين فعل وفاعل، والجملة حالية، ويجوز أن تكون الواو استئنافية، والجملة مستأنفة، أي: مضت سنة الله في إهلاكهم وتعذيبهم ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ الواو عاطفة، ولو امتناعية شرطية، وفتحنا فعل وفاعل، وعليهم متعلقان بفتحنا، وباباً مفعول به، ومن السماء صفة لباباً، والفاء عاطفة، وظل واسمها، وسيأتي في باب البلاغة ذكر الضمير في يعرجون، وفيه متعلقان بيعرجون، وجملة يعرجون خبر ظل ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ اللام واقعة في جواب لو، وقالوا فعل وفاعل، وإنما كافة ومكفوفة، وسكرت أبصارنا فعل وفاعل، والجملة لا محل لها؛ لأنها جواب لو، وجملة إنما سكرت أبصارنا مفعول القول، وجملة نحن قوم مسحورون تابعة لجملة سكرت أبصارنا، وبل حرف إضراب، ونحن مبتدأ، وقوم خبر، ومسحورون صفة ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ الواو عاطفة، واللام جواب القسم المحذوف، وقد حرف تحقيق، وجعلنا فعل وفاعل، وإذا كان بمعنى خلقنا كان قوله في السماء متعلقاً به، وإذا كان بمعنى صيرنا فيكون مفعوله الأول بروجاً، والجار والمجرور في محل نصب هو المفعول الثاني، وزيناها فعل وفاعل ومفعول به، وللناظرين متعلقان بزيناها ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ الواو عاطفة، وحفظناها فعل وفاعل ومفعول به، ومن كل شيطان رجيم جار ومجرور متعلقان بحفظناها، ورجيم صفة لشيطان ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعُهُ﴾ شهابٌ مُّبينٌ ﴿إلا أداة استثناء، ومن اسم موصول في موضع نصب على الاستثناء المتصل إن فسر الحفظ بمعنى المنع، أي: منع الشياطين من التعرض لها على الإطلاق، والوقوف على ما فيها في الجملة، أو الاستثناء المنقطع إن فسر بالمنع

من دخولها والتصرف فيها . والفاء عاطفة ، وأتبعه فعل ماض ومفعول به ، وشهاب فاعل ، ومبين صفة ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ والأرض نصب على الاشتغال ، أي : مفعول به لفعل محذوف يفسره ما بعده ، ومددناها فعل وفاعل ومفعول به ، وألقينا فعل وفاعل ، وفيها متعلقان بألقينا ، ورواسي مفعول به ، أي : جبلاً ثابتة لئلا تميد بأهلها ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ وأنبتنا عطف على ما قبله ، وفيها متعلقان بأنبتنا ، ومن كل شيء صفة للمفعول به المحذوف ، أي : نباتاً من كل شيء ، وموزون صفة ، أي : معلوم مقداره ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَكُمْ لِمِ بَرَزَقِينَ ﴾ وجعلنا عطف على ما تقدم ، ولكم متعلقان بجعلنا ، أو في موضوع المفعول الثاني ، وفيها حال ، ومعاش مفعول جعلنا ، ومن الموصول عطف على معاش ، أو على محل لكم ، كأنه قيل : وجعلنا لكم فيها معاش ، وجعلنا لكم من لستم له برازقين ، أو وجعلنا لكم فيها معاش ولمن لستم له برازقين ، وأراد بهم : العيال ، والخدم ، والحشم ، والدواب . وقدره الزجاج منصوباً بفعل محذوف مقدر تقديره : وأغنينا من لستم له برازقين ، ويجوز قطع الواو فتكون ابتدائية ، ومن مبتدأ خبره محذوف تقديره : ومن لستم له برازقين جعلنا له فيها معاش .

□ البلاغة:

في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ، وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ مُسْحُورُونَ ﴾ تشبيه تمثيلي للعناد المستحوذ عليهم ، واللدد الراسخ في صدورهم ، وتفصيل ذلك أن الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم ، وأدخله في سويداءاتها ، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدقين ، فكذب به هؤلاء ، وصدق به هؤلاء ، كل على علم وبيئة ، ليهلك من هلك عن بيئة ، ويحيا من حي عن بيئة ، ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز ، كما فهمها من آمن ، فأعلمهم الله تعالى من الآن ، وهم في مهلة وإمكان : أنهم ما كفروا إلا على علم معاندين باغين ،

ليكون أدحض لأية حجة يختلقونها، وأنفى لكل ادّعاء يخرصون به، ولذلك عقبه الله تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا﴾ ... الخ، أي: إن هؤلاء فهموا القرآن حق الفهم، واكتنوها أسرارها، وسبروا أغوار معجزاته، وعلموا وجوه إعجازه، وولج ذلك إلى قرارات نفوسهم، ووقر في أسماعهم، ولكنهم قوم ديدنهم العناد، وشيبتهم اللجاج والمكابرة، حتى لو سلك بهم أوضح السبل وأدعاها إلى الإيمان بضرورة العيان والمشاهدة، وذلك بأن يفتح لهم باباً في السماء يعرج ويعرج بهم، حتى يدخلوا منه نهاراً، وقد أشار ذلك بقوله «ظلوا» لأن الظلول إنما يكون نهاراً، ولقالوا بعد ذلك الإيضاح العظيم المكشوف: إنما سكرت أبصارنا، وسحرنا محمد، وما هذه إلا خيالات مموهة، لا حقائق تحتها، فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم في التكذيب من عدم سماع، ووعي، ووصول إلى القلوب، وفهم كما فهم غيرهم من المصدقين؛ لأن شأنهم الاستمرار في اللدد، والعناد، والمكابرة، واللجاج، فإذا انتقلنا إلى التفصيل قلنا في هذا التشبيه التمثيلي:

(١) التتميم، وقد مر سابقاً، وذلك بعرض مختلف مجالي المشاهدة والاعتبار.

(٢) الاحتراس بكلمة ظلوا، خشية أن يكون عروجهم في الظلام، فيتعللوا به على عدم الاهتداء.

(٣) سكر الأبصار على طريق الاستعارة المكنية التبعية.

(٤) وفي كلمتي الحصر والإضراب دلالة على البت بأن ما يروونه لا حقيقة له، بل هو باطل خيل إليهم بنوع من السحر حسب ادعائهم، وإيضاح ذلك أنهم قالوا: «إنما» وهي تفيد الحصر في المذكور آخرأً، فيكون الحصر في الأبصار لا في التسكير، فكأنهم قالوا: سكرت أبصارنا لا عقولنا، ونحن وإن كنا نتخيل بأبصارنا هذه الأشياء، لكننا نعلم بعقولنا أن الحال بخلافه، أي: لا حقيقة له ثم قالوا: «بل» كأنهم أضربوا عن الحصر في الأبصار،

وقالوا: بل جاوز ذلك إلى عقولنا بسحر صنعه لنا.

وهذه الآيات من الروائع التي يقف البيان أمامها مدعناً.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا
الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَزَائِنٍ ٢٢ وَإِنَّا
لَنَحْنُ مُخِيٌّ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ٢٣ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا
الْمُتَخَذِينَ ٢٤ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٢٥﴾

☆ اللغة:

﴿لَوَاقِحَ﴾ : حوامل ؛ لأنها تحمل السحاب وتثيره، وفيها قولان:

أحدهما: أنها جمع لاقح إذا جاءت بخير من إنشاء سحاب ماطر، كما
قيل للتي لا تأتي بخير: ربح عقيم.

والثاني: أنها بمعنى الملاقح، هي الإناث التي في بطونها أولادها، قال:

لِيُبِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيعُ الطَّوَائِفُ

يريد المطاوح، جمع: مطيحة، وفعله لقح، يقال: لقحت تلقح، من
باب: تعب، لقحاً ولقحاً ولقاحاً الناقة ونحوها: قبلت اللقاح، أو حملت
فهي لاقح ولقوح، ولقحت الحرب: هاجت بعد سكون، ولقحت المرأة:
حملت.

وفيما يلي أقوال كبار اللغويين:

قال أبو عبيدة: اللواقح: جمع ملقح؛ لأنه من ألقح يلقح، فهو ملقح،
فجمعه ملاقح، فحذفت الميم تخفيفاً، يقال: ألقحت الريح السحاب، كما
يقال: ألقح الفحل الأنثى.

وقال الأزهري: اللواقح: جمع لاقح، يقال: لقحت الريح؛ إذا حملت

الماء، فهي حوامل؛ لأنها تحمل السحاب، كقولك: ألقحت الناقة فلقحت؛ إذا حملت الجنين في بطنها، فشبهت الريح بها.

وقال الفراء: اللواقح: جمع لاقح على النسب، كلا بن، وتامر، أي: ذات لقاح.

وفي المختار: ألقح الفحل الناقة والريح السحاب، ورياح لواقح، ولا تقل ملاقح.

○ الإعراب:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ إن نافية، ومن شيء: من زائدة في المبتدأ، وإلا أداء حصر، وعندنا الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، وخزائنه مبتدأ مؤخر، والجملة خبر شيء ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ الواو عاطفة، وما نافية، وننزله فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، وإلا أداة حصر، وبقدر حال من المفعول، أي: متلبساً بقدر، ولك أن تعلقه بننزله، ومعلوم صفة لقدر ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ وأرسلنا الرياح فعل وفاعل ومفعول به، ولواقح حال مقدرة من الرياح ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ فأنزلنا: الفاء عاطفة، وأنزلنا عطف على أرسلنا، ومن السماء جار ومجرور متعلقان بأنزلنا، وماء مفعول به، فأسقيناكموه: الفاء عاطفة، وأسقى فعل ماض، ونا فاعل، والكاف مفعول به أول، والميم علامة جمع الذكور، والواو لإشباع ضمة الميم، والهاء مفعول به ثان، وما: الواو للحال، وما نافية حجازية، وأنتم اسمها، وله متعلقان بخازنين، والباء حرف جر زائد، وخازنين خبر ما محلاً مجرور بالباء لفظاً ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ الواو عاطفة، وإن واسمها، واللام المزحلقة، ونحن مبتدأ، وجملة نحوي خبره، ويجوز أن تكون نحن تأكيداً لنا، ولا يجوز أن تكون فصلاً؛ لأنها لم تقع بين اسمين، ونحن مبتدأ، والوارثون خبر ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ﴾ الواو عاطفة، واللام جواب للقسمة المحذوف، وقد حرف تحقيق، وعلمنا فعل وفاعل، والمستقدمين

مفعول به، ومنكم حال، ولقد علمنا المستأخرين عطف ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وإن ربك: إن واسمها، وهو مبتدأ، وجملة يحشرهم خبر، والجملة الاسمية خبر إن، وإن واسمها، وحكيم خبر أول، وعليم خبر ثان.

□ البلاغة:

(١) الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ فقد شبه ما ينتفع به العباد جميعاً لا المطر وحده، كما قال بعضهم بالخزائن التي تودع فيها المكونات والمخبات لإخراج كل شيء، بحسب ما اقتضته الحكمة الإلهية، ومصالح العباد الحيوية.

(٢) الاستعارة المكنية في تشبيه الرياح باللواقح، وهي النوق؛ لتوليد المطر، مما أفاض الحديث في بسطه، ولا يتنافى مع هذه الاستعارة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ٢٦ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ٢٧ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدِينَ ٢٩ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُودًا ٣٠ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ٣١ قَالَ يَبْنَئُ إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ٣٢ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ٣٣ قَالَ فَأَخْرِجْهَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ٣٧ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ٤٠ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ

لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٦﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٢٧﴾

☆ اللفظة:

(الصلصال): الطين اليابس الذي يصلصل، وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار، قالوا: إذا توهمت في صوته مدأ فهو صليل، وإن توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة. وقيل: هو تضعيف صل إذا أتن، وقيل: الصلصال: طين يابس إذا نقر سمع له صوت، أي: صلصلة، وهو بمعنى المصلصل، كالزلال بمعنى المزلزل، ويكون فعلاً أيضاً مصدراً نحو الزلزال، وفي وزن هذا النوع، أي: ما كررت فاؤه وعينه خلاف، فقيل: وزنه فففع كررت الفاء والعين، ولا لام للكلمة، وهو قول الفراء، وهو غلط؛ لأن أقل الأصول ثلاثة فاء وعين ولا م، وقد عدل عنه الفراء، فقال: إن وزنه فعفل، وقيل: إن أصله فعّل بتشديد العين، وأصله: صلّل، فلما اجتمع ثلاثة أمثال أبدل الثاني من جنس فاء الكلمة. وخصّ بعضهم هذا الخلاف بما إذا لم يختل المعنى بسقوط الثالث، نحو: للمم، وككب، فإنك تقول فيهما: لم، وكب، فلو لم يصح المعنى بسقوطه، نحو: سمس، فلا خلاف في أصالة الجميع. وقيل: إن وزنه فعلل بتكرير اللام، فقلبت الأولى منهما من جنس فاء الكلمة. وفي القاموس: الصلصال: الطين اليابس؛ الذي يصل من نفسه، أي: يصوت. ويقال: صلصل صلصلة الحلي أو اللجام: صوت، والرعد: صفا صوته، والجرس: رجع صوته، وصلصل فلاناً: تهدده. هذا؛ وقد جاءت الزيادة رابعة بعد اللام الأولى في أسماء صالحة العدة، تقارب عشرة أبنية، من ذلك:

فعليل، وذلك في الاسم والصفة، فالاسم: قنديل، وبرطيل، والصفة: شنظير، وهميم، فالقنديل معروف، والبرطيل: حجر طويل قدر الذراع، والشنظير: السبيء الخلق، والهميم: الذي يردّد ويهمهم، ويقال: حمار هميم، أي: في صوته ترديد من الهمهمة.

ومن ذلك فعلول، في الاسم والصفة، فالاسم: عُصفور، وزُنُبور،

والصفة: سرحوب، وقرضوب، فالعصفور والزنبور معروفان،
السرحوب: الطويل، والقرضوب: الفقير، وهو من أسماء السيف، وربما
قليل للص: قرضوب.

ومن ذلك فُعْلِيل، بضم الفاء وسكون العين وفتح اللام الأولى، قالوا في
الصفة: غرنيق، وهو: الرفيع السيد، والغرنيق: من طيور الماء طويل العنق،
قال الجوهري: إذا وصف به الرجال قيل: غرنيق بكسر الغين، وغُرنيق
بالضم، والجمع غَرَانِق - بالفتح - وغرانيق.

ومن ذلك: فِعْلُول، جاء في الاسم والصفة، والاسم: فردوس،
وحرذون، والصفة: علطوس، فالفردوس هو: البستان، والحرذون: دويبة
كالقطاة، والعلطوس: الناقة الفارهة.

ومن ذلك: فَعْلُول، في الاسم والصفة، فالاسم: قَرْبُوس، وزَرْجُون،
والصفة: قرقوس، وحلكوك، فالقربوس للسرّج معروف، والزرجون:
الخمرة؛ سميت بذلك للونها، وأصلها بالفارسية: زركون (الزر الذهب،
والكون اللون) وقال أبو عمرو الجرمي: هو صبغ أحمر.

ومن ذلك فَعْلُول بفتح الفاء والعين وسكون اللام وفتح اللام، قالوا:
كنهور وبلهور، والكنهور: السحاب العظيم، والبلهور: من ملوك الهند،
يقال لكل ملك عظيم منهم بلهور، ولا نعلمه اسماً.

ومن ذلك فَعْلَال، ولا يكون إلا في الكلام المضاعف من ذوات الأربعة،
يكون اسماً وصفة، فالاسم: الزلزال، والحثاث، والصفة: الصلصال،
والقسقاس، فالزلزال مصدر كالزلزلة، والحثاث بمعنى الحثثة،
والصلصال: الطين الحر، خلط بالرمّل فصار يتصلصل إذا جف، فإن طبخ
فهو الفخار، والقسقاس: الدليل الهادي، وقد جاء حرف واحد على فعال
غير مضاعف، قالوا: ناقة بها خزعال، وهو: سوء مشي من داء.

ومن ذلك: فِعْلَال، بكسر الفاء، يكون اسماً وصفة، فالاسم نحو:

سربال، وحملاق، والصفة: سرداح، وهلباج، والسربال: القميص،
والحملاق: ما تغطيه الأجفان من العين، والسرداح: الأرض الواسعة،
والهلباج: الكثير العيوب.

ومن ذلك: فَعَلَّ بفتح الفاء والعين وتضعيف اللام الأولى، يكون اسماً
وصفة، فالاسم: شفلح، وهمرّجة، والصفة: العدبس، والعملس،
فالشفلح: ثمر معين، وقد يكون صفة بمعنى الغليظ الشفة، والهمرّجة:
الاختلاط، يقال: همرجت عليه الخبر، أي: خلطته، والعدبس: الضخم،
والعملس: الخفيف، وقيل للذئب: عملس، قال الشنفرى:

ولي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سِيْدٌ عَمَلَسٌ
وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جِيَالٌ

ومن ذلك: فُعَلِّل، بضم الفاء والعين، وهو قليل، قالوا: الصفرق،
والزمرد، وهما اسمان، فالصفرق: نبت، والزمرد من الجوهر معروف.

﴿حَمَإٍ﴾: الحمأ: الطين الأسود المتغير الرائحة من طول مكثه، ويقال:
الحمأة.

﴿مَسْنُونٍ﴾: متن، من سنتت الحجر على الحجر؛ إذا حككته به، فإن
ما يسيل بينهما يكون متناً، ويسمى سنياً، وقيل: المصبوب المفرغ، أي:
أفرغ صورة إنسان، كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة في أمثلتها. وقد امتاز
فعل سنّ بكثرة معانيه، حتى ليكاد المرء يذهل، يقال: سن يسن السكين، من
باب: نصر، أحذّه وشحذّه، ويقال: هذا مما يسنك على الطعام، أي:
يشحذك على أكله، ويشهيه إليك، وسن الرمح: ركب فيه السنان، وسن
الأسنان: سوكلها، وسن العقدة: حلها، وسن الإبل: ساقها سوقاً سريعاً،
وسن الرجل: طعنه بالسنان، وعضه بأسنانه، وكسر أسنانه، ومدحه،
وأطراه، وسن الأمر: بينه وسهله وأجراه، وسن الطريقة: سارفيها، وسن
عليهم السنة: وضعها، وسن الطين: عمله فخاراً، وسن الشيء: صورّه،
وسن الماء أو التراب: صبّه برفق، وسنت العين الدمع: صبته، وسن الأمير

رعيته، أحسن سياستها، يقال: سن فلان طريقاً من الخير، أي: ابتداً أمراً من البر لم يعرفه قومه، وهذا من أعاجيب لغتنا الشريفة.

﴿وَالْجَانُّ﴾: الجنُّ كآدم للناس.

﴿السَّمُومُ﴾: نار الحر الشديد النافذ من المسام، وقيل: هي نار لا دخان لها، تنفذ في المسام، قيل: السموم: ما يقتل من إفراط الحر من شمس، أو ريح، أو نار؛ لأنها تدخل في المسام، وهي الثقوب فتقتل، وتجمع على سمائم.

﴿رَجِيمٌ﴾ مطرود. وفي المصباح: الرَّجَم - بفتحين -: الحجارة، والرجم: القبر، سُمِّيَ بذلك لما يجتمع عليه من الحجارة، ورجمته رجماً، من باب: قتل، ضربته بالرجم. وفي القاموس: الرجم: اللعن، والشتم، والطرد، والهجران. والمرجوم: المطرود الملعون، ولعنه الله: طرده وأبعده. قال الشماخ:

وماء قد وَرَدَتْ لِرَوْضٍ أَرَوَى عليه الطَّيْرُ كالوَرَقِ اللَّجِينِ
ذَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَنَفَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذَّبِّ كَالرَّجْلِ اللَّعِينِ

○ الإعراب:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ الواو استئنافية، واللام جواب للقسم المحذوف، وقد حرف تحقيق، وخلقنا الإنسان فعل وفاعل ومفعول به، ومن صلصال جار ومجرور متعلقان بخلقنا، ومن حمأ يجوز أن يكون صفة لصلصال، وأن يكون بدلاً من قوله «من صلصال» بإعادة الجار، ومسنون صفة لحمأ ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ والجان نصب على الاشتغال، وخلقناه فعل وفاعل ومفعول به، ومن قبل متعلقان بمحذوف بحذوف حال، ومن نار السموم متعلقان بخلقناه ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ الظرف متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، وجملة قال ربك مضافة للظرف، وللملائكة متعلقان بقال، وإن واسمها،

وخالق خبرها، وبشراً مفعول به لخالق، ومن صلصال من حمأ مسنون تقدم إعرابها ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾ الفاء عاطفة، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة سويته مضافة للظرف، ونفخت عطف على سويته، وفيه متعلقان بنفخت، ومن روحي صفة لمفعول محذوف، أي: روحاً من روحي، والمراد: الإحياء، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، فقعوا: الفاء رابطة لجواب إذا، وقعوا فعل أمر، والواو فاعل، وله متعلقان بساجدين، وساجدين حال ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ الفاء عاطفة على محذوف، أي: فخلقه، وسواه ونفخ فيه من روحه فسجد الملائكة، وكلهم وأجمعون تأكيدان لزيادة تمكين المعنى وترسيخه في الذهن، وسئل المبرد عن هذه الآية فقال: لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم، فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال، فظهر أنهم بأسرهم سجدوا، ثم عند هذا بقي احتمال، وهو أنهم هل سجدوا دفعة واحدة، أو سجد كل واحد في وقت؟ فلما قال أجمعون ظهر أنهم جميعاً سجدوا دفعة واحدة ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ تقدم القول في هذا الاستثناء أنه متصل؛ إما لأنه كان جنياً مغموراً بألوف الملائكة، فعُدّ منهم تغليياً، وإما لأنه منهم حقيقة، ويجوز أن يكون منقطعاً، فيتصل به ما بعده، أي: لكن إبليس أبى أن يكون معهم، وأبى فعل ماض، وأن يكون مصدر مؤول منصوب على المفعولية لأبى، واسم يكون مستتر تقديره هو، أي: إبليس، ومع ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر يكون، والساجدين مضاف إليه ﴿قَالَ يَتَابِلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ يا حرف نداء، وإبليس منادى مفرد علم، وما اسم استفهام للتوبيخ مبتدأ، ولك خبر، وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض، والجار والمجرور في محل نصب على الحال، أي: مالك غير كائن مع الساجدين، وأن لا تكون مع الساجدين تقدم إعرابها ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ لم حرف نفي وقلب وجزم، وأكن مضارع مجزوم بلم، واسمها مستتر تقديره: أنا، واللام لام الجحود، وهي لتأكيد النفي، وأسجد فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعدها، والجار والمجرور خبر أكن،

ولبشر متعلقان بأسجد، وجملة خلقته صفة لبشر، ومن صلصال من حمأ مسنون، تقدم إعرابها ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَچِيمٌ﴾ الفاء الفصيحة؛ لأنها جواب شرط مقدر، أي: إن تماديت وعصيت فاخرج، ومنها متعلقان باخرج، والفاء تعليلية، وإن واسمها وخبرها، والجملة لا محل لها ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ الواو عاطفة، وإن حرف مشبه بالفعل للتوكيد، وعليك خبر إن المقدم، واللعنة اسمها المؤخر، وإلى يوم الدين حال، أي: مستقرة إلى تلك الغاية ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُون﴾ رب منادى محذوف منه حرف النداء، وهو مضاف إلى ياء المتكلم، والفاء الفصيحة لأنها وقعت في جواب شرط مقدر، أي: إن قضيت علي بهذا الجزاء فأنظرنني، أي: أمهلني، وإلى يوم متعلقان بأنظرنني، ويبعثون مضارع مبني للمجهول، والواو نائب فاعل، وجملة يبعثون مضاف إليها، وإنما طلب الانظار إلى يوم الذي فيه يبعثون؛ ليجد مندوحة وفسحة في الإغواء، ونجاة عند الموت، إذ لا موت بعد وقت البعث، فأجابه إلى الأول دون الثاني، أي: انظر إلى آخر أيام التكليف كما سيأتي ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ الفاء عاطفة، وإن واسمها، ومن المنظرين خبرها ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ إلى يوم جار ومجرور متعلقان بالمنظرين، والوقت مضاف إليه، والمعلوم صفة ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ رب منادى كما تقدم، وبما الباء للقسم، وما مصدرية، أي: أقسم بإغوائك إياي، وجملة لأزينن جواب القسم، وقد تقدم نظيره في الأعراف، وقيل الباء للسببية، وكلاهما جائز، لأزينن اللام جواب القسم، أو هي موطئة للقسم إن كانت الباء سببية، وأزينن فعل مضارع مبني على الفتح، ولهم متعلقان بأزينن، وفي الأرض حال، ولأغوينهم عطف على لأزينن، وأجمعين تأكيد للضمير ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ إلا أداة استثناء، وعبادك مستثنى، والمخلصين صفة، ومنهم حال ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ هذا مبتدأ، وصراط خبر، وعلي متعلقان بمحذوف صفة، أي: حق، ومستقيم صفة ثانية، أي: هذا طريق حق علي أن أراعيه، ولا أتجاوز، وهو: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ فالجملة

تفسيرية للصراط المستقيم؛ الذي أوجبت على نفسي التزامه، وإن واسمها، وجملة ليس خبر، ولك خبر ليس المقدم، وعليهم حال لأنه كان صفة لسلطان، وسلطان اسم ليس المؤخر.

قال ابن هشام: قول كثير من النحويين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ﴾ إنه دليل على جواز استثناء الأكثر من الأقل، والصواب: أن المراد بالعباد المخلصون لا عموم المملوكين، وأن الاستثناء منقطع بدليل سقوطه في الآية (٦٥) سورة الإسراء: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾. وتعقبه الدماميني بقوله: اختياره لكون الاستثناء منقطعاً مقدوح فيه بأنه ارتكاب لخلاف الأصل، من غير ضرورة لإمكان حمل الاستثناء على الاتصال، وهو الأصل، ويكون المراد بالعباد عموم المملوكين، ولا يضر في ذلك أن آية الإسراء بدون استثناء؛ لأنه أريد بالعباد فيها المخلصون فترك الاستثناء، وقد يجاب بأنه القرآن يفسر بعضه بعضاً، فإذا تكرر لفظ فيه، وكان له موضع محمل واحد، وفي آخر ذلك المحمل وغيره، حمل في الآخر على ذلك المحمل دون غيره، والاستثناء المنقطع وإن كان خلاف الأصل إلا أنه فصيح شائع.

﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ قيل: هو استثناء من غير الجنس؛ لأن المراد بعبادي: الموحدون، ومتبع الشيطان غير موحد. وقيل: هو من الجنس؛ لأن عبادي جميع المكلفين، ومن الغاوين حال ﴿وَلِإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الواو عاطفة، وإن واسمها، واللام المرحقة، وموعدهم خبر إن، وأجمعين تأكيد للضمير ﴿لَمَّا سَبَعُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ لها خبر مقدم، وسبعة أبواب مبتدأ مؤخر، ولكل باب خبر مقدم، ومنهم حال؛ لأنه كان صفة لجزء، وجزء مبتدأ مؤخر، ومقسوم نعت لجزء أيضاً، والمراد بالجزء الطائفة.

□ البلاغة:

(١) الإيجاز في قوله: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ ولعله من أبلغ الإيجازات؛ لأنه قسيم الإيجاز بالحذف، فهو إيجاز بالتقدير، وهو قسمان:

أحدهما: ما ساوى لفظه معناه، وثانيهما: ما زاد معناه على لفظه، ويسمى بالقصر؛ إذ يدل لفظه على احتمالات عديدة، ومشتملات كثيرة، ولا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدتها، لا بل مستحيل ذلك، فقوله «هذا» إشارة تدل على القرب، فكأنه يشير إلى ما هو على مرأى من عيونهم، ومسمع من آذانهم، وبين متناول أيديهم، وصراط تدل على الطريق المسلوكة؛ التي تفضي بسالكها إلى حيث يختار لنفسه من مذاهب، ولكن الطريق قد تكون معوجة ملتوية كثيرة المنعطفات، فيتيه السالك في متاهاتها، وتلبس عليه أوجه الاستهداء في سلوكها، فجاء بكلمة «مستقيم» والمستقيم هو: أقصر بعد بين نقطتين، وأقل انحراف يخرج عن سنن الاستقامة وحدودها، وكلمة «علي» تعني الإلزام والإيجاب، تقول: علي عهد الله لأفعلن كذلك، فتشعر أنك قد ألزمت نفسك بما هو حق مفروض الأداء، ثم إن الإشارة تضمنت كل ما يحتويه الاستثناء فيما بعد، وهو قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ فكأنه أخذ على نفسه، وأوجب على ذاته حقاً، لا انفكاك له عنه، وهو تخلص المخلصين من إغوائه، وقد تضمن تعريف المخلصين أيضاً ما يؤكد هذا المعنى، ويجعله مستقراً في الذهن؛ لأن التعريف فيه مع تحقيق الصفة للموصوف، وهي الإخلاص، تفخيم لشأنهم، وبيان لمنزلتهم ولا نقطاع مخالب الإغواء عنهم، وفل معاول النقد أن تتوجه إليهم، فهذه الآية كلمات قليلة، وقد احتوت على هذه الأغراض، ولا بد لنا من أن نعرض نماذج من غير القرآن، لا لأنها ترقى إلى مستواه، ولكن لأنها تدور في فلكه، وتحوم حوله، وتستقي من مناهله، استمع إلى هذه القصة العجيبة:

لما أرسل المهلب بن أبي صفرة أبا الحسن المدائني إلى الحجاج بن يوسف يخبره أخبار الأزارقة، كلمه كلاماً موجزاً، كالذي نحن بصدده هنا، وذلك أن الحجاج سأله فقال: كيف تركت المهلب؟ فقال: أدرك ما أمل، وأمن مما خاف. فقال: كيف هو لجنده؟ قال: والد رؤوف، قال: كيف

جنده له؟ قال: أولاد بررة، قال: كيف رضاهم عنه؟ قال: وسعهم بفضله، وأغناهم بعدله، قال: كيف تصنعون إذا لقيتم العدو؟ قال: نلقاهم بجذنا، ويلقوننا بجدهم، قال: كذلك الجد إذا لقي الجد، قال: فأخبرني عن بني المهلب. قال: هم أحلاس القتال بالليل، حماة السرج بالنهار. قال: أيهم أفضل؟ قال: هم كحلقة مضروبة لا يعرف طرفها، فقال: الحجاج جلسائه: هذا؛ هو والله الكلام الفصل الذي ليس بمصنوع. وتأمل وصف الحجاج للكلام فقد وصف الكلام الموجز البليغ بما يدانيه في الإيجاز والبلاغة، ولا غرو فالحجاج كان آية في إتقان اللغة ومعرفة خصائصها. روى الزجاج في أماليه قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال: أخبرنا أبو حاتم السجستاني، عن الأصمعي قال: أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل: الشعبي، وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، وابن القرية، والحجاج أفصحهم، قال يوماً لطباخه: اطبخ لنا مخللة وأكثر عليها الفيजन (أي: السذاب، وهو نبات ورقه كالصعتر) واعمل لنا مزعزعا، فلم يفهم عنه الطباخ، فسأل بعض ندمائه فقال له: اطبخ له سكباجا، وأكثر عليها من السذاب، واعمل له فالوداً سلساً. وسترى نماذج من الإيجاز في أماكن كثيرة يتم بها شرط الكتاب.

(٢) الاستثناء في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾

فإن هذا الاستثناء لو لم يتقدم لفظه هذا الاحتراس من قوله: «كلهم أجمعون» لاحتمل - كما أشرنا في الإعراب - أن يكون في الملائكة من لم يسجد فيتأسى به إبليس، لا يكون منفرداً بهذه الكبيرة، لاحتمال أن تكون «ال» التعريف للعهد لا للجنس، فلما كان هذا الإشكال يتوجه على الكلام إذا اقتصر فيه على ما دون التوكيد، وجب الإتيان بالتوكيد ليعلم أن «ال» التعريف للجنس، فيرتفع هذا الإشكال بهذا الاحتراس، فحينئذ تعظم كبيرة إبليس لكونه فارق جميع الملائكة الأعلى، وخرق إجماع الملائكة، فيستحق أن يفرد بهذا اللعن إلى آخر الأبد، هذا؛ والاستثناء الذي يطلقه البلاغيون هو غير الاستثناء المعروف عند

النحاة، فهو قسمان إذا لغوي وصناعي، أما اللغوي فقد فرغ النحاة من تقريره، أما الصناعي فهو الذي نحن بصدده، وهو المتعلق بعلم البيان، وسترده له نماذج رائعة في هذا الكتاب العجيب.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِيٍّ عَبْدًا أُتِيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

☆ اللفظة:

﴿غَلٍّ﴾: الغل - بكسر الغين -: الحقد الكامن في القلب، من انغل في جوفه، وتغلغل، ويطلق على الشحناء، والعداوة، والبغضاء، والحقد، والحسد، وتقول: جعل الله في كبده غُلة، وفي صدره غُلاً، وفي ماله غُلُولاً، وفي رقبته غُلاً فالغل - بالضم -: القيد، وهي مادة تدل على التغلغل مطابقة للفظها، يقال: وبى وجدّ تغلغل في الحشا، وأبلغ فلاناً مغلغلة، وهي: الرسالة الواردة من بلد بعيد، وغلغلت إليه رسالة، قال الأخطل:

لَأُغْلَغِلَنَّ إِلَى كَرِيمٍ مَدْحَةً وَلَأُثْنِينَ بَنَائِلٍ وَفَعَالٍ

○ الإعراب:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ إن واسمها، وفي جنات خبرها، وعيون عطف على جنات ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ الجملة مقول القول محذوف، أي: يقال لهم، وادخلوها فعل أمر وفاعل ومفعول به، وبسلام في محل نصب على الحال من الواو في «ادخلوها» أي: سالين من كل أذى، أو مسلماً عليكم، وآمين حال ثانية من الواو في ادخلوها ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ونزعنا فعل وفاعل وما مفعول به، وفي صدورهم صلة،

ومن غل حال بيان للذي استقر في صدورهم، وإخواناً حال ثانية من هم، وعلى سرر جار ومجرور متعلقان بمتقابلين، ومتقابلين حال ثالثة من ضمير صدورهم، وجاز ذلك لأن المضاف جزء من المضاف إليه، والعامل فيها معنى الإلصاق، وقيل: متقابلين صفة لإخواناً، وليس ببعيد، والأول أولى، أي: لا ينظر بعضهم قفا بعض لدوران الأسرة بهم، وهي صفة الجالسين على موائد الشراب والولائم؛ لأن ذلك أبلغ في المؤانسة والإكرام ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ يجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة، أو حالاً من الضمير في متقابلين، ولا نافية، ويمسهم فعل مضارع، ومفعول به مقدم، ونصب فاعل مؤخر، وما هم: الواو عاطفة، وما نافية حجازية، وهم اسمها، ومنها متعلقان بمخرجين، والباء حرف جر زائد، ومخرجين مجرور لفظاً منصوب محلاً؛ لأنه خبر ما ﴿يَتَجَّىٰ عِبَادِيَ أَتَىٰ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ نبيء فعل أمر، والفاعل مستتر، وعبادي مفعول به، وأن وما في حيزها سدت مسد مفاعيل نبيء، وأن واسمها، وأنا ضمير فصل، أو مبتدأ، والغفور خبر أن، أو خبر أنا، والجملة خبر أن، والرحيم خبر ثان ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ عطف على سابقتها، والإعراب واحد، ولكن الأليم صفة للعذاب.

* الفوائد:

قوله: ﴿يَتَجَّىٰ عِبَادِيَ أَتَىٰ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ هذا مما ورد منظوماً في القرآن، ولكنه ليس شعراً؛ لأنه ليس مقصوداً، وقد تقدم القول في بعض الآيات التي وردت موزونة، وهذه الآية تؤلف بيتاً كاملاً من البحر المجتث، ولكننا لم نذكر هناك معاني أسماء الأبحر، وفيما يلي بيان بالأسماء ومعانيها:

ذكر الزجاج أن ابن دريد أخبره عن أبي حاتم عن الأخفش قال: سألت الخليل: لم سميت الطويل طويلاً؟ قال: لأنه طال بتمام أجزائه، قلت: فالبيسط؟ قال: لأنه انبسط عن مدى الطويل، وجاء وسطه فعُلمن وآخره فعُلمن، قلت: فالمديد؟ قال: لتمدد سباعيه حول خماسيه، قلت: فالوافر؟ قال: لو فور أجزائه وتداً بوتد، قلت: فالكامل؟ قال: لأن فيه ثلاثين حركة لم

تجتمع في غيره من الشعر، قلت: فالهزج؟ قال: لأنه يضطرب شبه بهزج الصوت، قلت: فالرجز؟ قال: لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام، قلت: فالرمل؟ قال: لأنه برمّل الحصير لضم بعضه إلى بعض، قلت: فالسريع؟ قال: لأنه يسرع على اللسان، قلت: فالمنسرح؟ قال: لانسراحه وسهولته، قلت: فالخفيف؟ قال: لأنه أخف السباعيات، قلت: فالمتقضب؟ قال: لأنه اقتضب من السريع، قلت: فالضارع؟ قال: لأنه ضارع المتقضب، قلت: فالمجثث؟ قال: لأنه اجتث، أي: قطع من طويل دائرته، قلت: فالمتقارب؟ قال: لتقارب أجزائه؛ لأنها خماسية كلها يشبه بعضها بعضاً.

﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۝٢ قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نَبْشُرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٣ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبْشُرُونَ ۝٤ قَالُوا بَشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْفَاطِنِينَ ۝٥ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ ۝٦ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٧ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝٨ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٩ إِلَّا امْرَأَتُهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَدِيرُ ۝١٠ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ۝١١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ۝١٢ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝١٣ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝١٤﴾

○ الإعراب:

﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ عطف على «نبيء عبادي» ليعتبروا بما حل بقوم لوط من عذاب، ونبيهم فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، وعن ضيف إبراهيم متعلقان بنبيهم، وأصل الضيف مصدر؛ ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع، على أنه قد يجمع فيقال: أضياف، وضيوف، وضيغان ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ الظرف متعلق بمحذوف، تقديره:

اذكر، وجملة دخلوا مضاف إليها، وعليه متعلقان بدخلوا، فقالوا: عطف على دخلوا، وسلاماً مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: نسلم سلاماً، أو مفعول به على المعنى، أي: اذكروا سلاماً، وقال فعل ماض، وجملة إنا... الخ مقول القول، وإن واسمها، ومنكم متعلقان بوجلون، ووجلون خبر إنا، أي: خائفون إما لامتناعهم من الأكل، وإما لأنهم دخلوا بغير إذن ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ لا ناهية، وتوجل مضارع مجزوم بلا الناهية، وإن واسمها، وجملة نبشرك خبرها، وبغلام متعلقان بنشرك، وعليه صفة، والجملة تعليلية لعدم الوجل ﴿قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَيَّ أَنْ مَسْنَى الْكِبَرِ فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾ الهمزة للاستفهام التعجبي، وبشترتموني فعل وفاعل ومفعول به، وعلى حرف جر، وإن وما في حيزها في محل جر بعلى، والجار والمجرور في موضع نصب على الحال، أي: حالة كونه قد مسني، والكبر فاعل مسني، فم الباء جرف جر، وما اسم استفهام حذف ألفها لدخول حرف الجر، والجار والمجرور متعلقان بتبشرون ﴿قَالُوا بَشِّرْكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ جملة بشرناك مقول القول، وهو فعل ماض وفاعل ومفعول به، وبالحق متعلقان ببشرناك، والفاء حرف عطف، ولا ناهية، وتكن مضارع مجزوم بلا الناهية، واسم تكن مستتر تقديره أنت، ومن القانطين خبرها ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الواو عاطفة، ومن اسم استفهام معناه النفي في محل رفع مبتدأ، وجملة يقنط خبره، ومن رحمة ربه متعلقان بيقنط، وإلا أداة حصر، والضالون بدل من الضمير المستتر في يقنط بدل بعض من كل، ولم يؤت معه بضمير لقوة تعلق المستثنى بالمستثنى منه ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ الفاء عاطفة لتساوق المحاروة، وما اسم استفهام مبتدأ، وخطبكم خبر، أي: ما شأنكم، وأيا منادى نكرة مقصودة، وحرف النداء محذوف، والهاء للتنبيه، والمرسلون بدل، أو نعت لأيا ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ إن واسمها، وجملة أرسلنا خبرها، ونا نائب فاعل أرسل، وإلى قوم متعلقان بأرسلنا، ومجرمين صفة ﴿إِلَّا ءَالُ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه مستثنى متصل على أنه مستثنى من

الضمير المستكن في مجرمين، والمعنى أنهم أجزموا كلهم إلا آل لوط؛ فإنهم لم يجرموا، وجملة إنا لمنجوههم على هذا استثنائية، مسوقة للإخبار بنجاتهم؛ لأنهم لم يجرموا، وثانيهما: أنه مستثنى منقطع؛ لأن آل لوط لم يندرجوا في المجرمين البتة، وعلى كل حال محله النصب، ويبدو أن جعله منقطعاً أولى، وأمكن، وذلك أن في استثنائهم من الضمير العائد على قوم مجرمين بعداً، من حيث أن موقع الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل المستثنى في حكم الأول، وهذا الدخول متعذر من التنكير، ولذلك قلما تجد النكرة يستثنى منها إلا في سياق نفي؛ لأنها حينئذ أعم؛ فيتحقق الدخول لولا الاستثناء، ومن ثم لم يحسن: رأيت قوماً إلا زیداً، وحسن: ما رأيت أحداً إلا زیداً. وإن واسمها، واللام المزلحقة، ومنجوههم خبر إنا، وأجمعين تأكيد للضمير، وعلى هذا تكون جملة إنا لمنجوههم متصلةً بآل لوط كأنها خبر لكن المقدرة، أي: لكن آل لوط منجون ﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْفَدِيرِ﴾ ^١ اختلف العربون في هذا الاستثناء، وسننقل ما قاله الزمخشري وأبو البقاء، قال الزمخشري: فإن قلت فقوله «إلا امرأته» مم استثنى؟ وهل هو استثناء من استثناء؟ قلت: استثنى من الضمير المجرور في قوله لمنجوههم، وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيء؛ لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه، وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته، كما اتحد الحكم في قول المطلق: أنت طالق ثلاثاً إلا اثنتين، إلا واحدة، وفي قول المقر: فلان علي عشرة دراهم، إلا ثلاثة، إلا درهماً، فأما في الآية فقد اختلف الحكماء؛ لأن آل لوط متعلق بأرسلنا، أو بمجرمين، وإلا امرأته قد تعلق بمنجوههم، فأني يكون استثناء من استثناء؟!

وقال أبو البقاء: قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُ﴾ فيه وجهان: أحدهما: هو مستثنى من آل لوط، والاستثناء إذا جاء بعد الاستثناء كان الاستثناء الثاني مضافاً إلى المبتدأ، كقولك له: عندي عشرة، إلا أربعة، إلا درهماً، فإن الدرهم يستثنى من الأربعة، فهو مضاف إلى العشرة، فكأنك قلت: أحد

عشر، إلا أربعة، أو عشرة، إلا ثلاثة. والوجه الثاني: أن يكون مستثنى من ضمير المفعول في منجوعهم، وسيأتي في باب الفوائد مزيد.

وقدرنا فعل وفاعل، وقد ضمن معنى العلم، فلذلك علق باللام فكسرت إن، وإنما أسند الملائكة التقدير لأنفسهم لما لهم من المكانة والقربى من الله، كما تقول خاصة الملك: نحن أمرنا، ونحن رسمنا، وإن كانوا قد أمروا به ورسموه بأمر الملك، وإن واسمها، واللام المرحلة، ومن الغابرين خبر إن ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴾ الفاء عاطفة على محذوف، أي: فخرجوا من عنده، وسافروا مع قريته إلى قرية قوم لوط، ولما حينية، أو رابطة، وجاء فعل ماضٍ، وآل لوط مفعول به مقدم، والمرسلون فاعل مؤخر ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ الجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم، وإن واسمها وخبرها، ومنكرون صفة لقوم ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ بل حرف إضراب وعطف، وجئناك فعل وفاعل ومفعول به، وبما متعلقان بجئناك، وجملة كانوا صلة، وفيه متعلقان يمترون، وجملة يمترون خبر كانوا ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴾ الواو عاطفة، وأتيناك فعل وفاعل ومفعول به، وبالحق متعلقان بمحذوف حال، أي: متلبسين أو متلبساً أنت لإبصارك له، ويجوز تعليقه بآتيناك، وإن واسمها، واللام المرحلة، وصادقون خبر إن.

* الفوائد:

وقفنا على مناظرة جرت بين الكسائي وأبي يوسف بصدد قوله تعالى: ﴿ إِلَّا أَمْرًا تَهُ ﴾ وحكم «إلا» إذا تكررت، فقد سأل الكسائي أبا يوسف عمن قال: له علي مئة درهم إلا عشرة إلا اثنين، فقال: يلزمه ثمانية وثمانون، فقال الكسائي: بل يلزمه اثنان وتسعون، واستدل بالآية، فلم يخالفه، وهذا يؤيد رأي أبي البقاء، ويخطيء قول الزخشري. وقال ابن هشام: ونظيره قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمَجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إِلَّا أَمْرًا تَهُ. فالمرأة مستثناة من الأول، والآل مستثنون من القوم المجرمين، وهو

منقطع ، والثاني متصل ، كذا ظهر لي وبعد فلا يمتنع عندي في مثل عشرة إلا أربعة إلا اثنين أن يستثنى الاثنان من الأصل ؛ لأن الحمل على الأقرب أرجح لا متعين ، وكفى بباب التنازع شاهداً ، وإن كلاً من الفريقين يميز أعمال كل من العاملين ، إلا ما استثني لعارض ، والعارض يوجد هنا أيضاً نحو : عشرة إلا ثلاثة إلا أربعة ، فإن قلت : ما المانع من أن يكون في الآية الاستثناء الثاني من القوم المجرمين ، ويرجح الاتصال على هذا أيضاً ؛ لأنها من الآل ومن المجرمين ، قلت : متى قيل هذا فقد أبعد القائل وأحال ، أما الأول فواضح ، وأما الثاني فلأن معنى أرسلنا : أرسلنا بالعذاب ، فلا يصح إخراجها من المعذنين ، فإن قلت : فما المانع من أن يستثنى من هم في «إننا لمنجوهم» وحينئذ تكون معذبة ، ويكون حملاً على أقرب ما ذكرت ، وتخرج الآية عن الاستثناء من الاستثناء . قلت : هو قول الزمخشري ، وليس عندي كغالب أقواله الإعرابية ؛ لأن «إننا لمنجوهم أجمعين» إنما ذكرت توكيداً لا تأسيساً ؛ لاستفادة معناها من الإخراج من حكم المعذنين .

وبعد نقل ما تقدم عثرت على اعتراض جميل ، وهو : أنه تقدم أن المراد بالإجرام ذلك الفعل الشنيع ، فكيف يقولون : إن المرأة من الآل ومن المجرمين ، وذلك الفعل لا يتصور منها؟! وعلى هذا يطيح الرأيان جميعاً ، ويمكن أن يجاب بأن الدلالة على الشيء كفعله ، أو السكوت على الإجرام والرضا به إجرام ، وإنما أطلنا الكلام ؛ لأن هذه الآية مما كثر فيه الكلام ، وقل من أصاب الغرض من الأئمة الأعلام ، وسئل عنها الجلال السيوطي في «الفتاوى» فما أتى بالمرام ، والله أعلم .

وقد اضطرب أبو حيان في كلامه على الرأيين والموازنة بينهما فقال :

ولما استسلف الزمخشري أن «إلا امرأته» مستثنى من الضمير المجرور في لمنجوهم ، لم يجوز أن يكون استثناء من استثناء ، ومن قال إنه استثناء من استثناء فيمكن تصحيح كلامه بأحد وجهين : أحدهما : أنه لما كان الضمير في «لمنجوهم» عائداً على آل لوط ، وقد استثنى منه المرأة ، صار كأنه مستثنى من

آل لوط؛ لأن المضمّر هو الظاهر في المعنى، والوجه الآخر: أن قوله إلا آل لوط لما حكم عليهم بغير الحكم على قوم مجرمين اقتضى ذلك نجاتهم، فجاء قوله: «إنا لمنجوهم أجمعين» تأكيداً بمعنى الاستثناء، إذ المعنى إلا آل لوط، فلم يرسل إليهم بالعذاب، فصار نظير قولك: قام القوم إلا زيداً، فإنه لم يقم، أو إلا زيداً لم يقم، فهذه الجملة تأكيد لما تضمنه الاستثناء من الحكم على ما بعد إلا بضد الحكم السابق على المستثنى منه، فإذا امرأته على هذا التقدير الذي قررناه استثناء من آل لوط؛ لأن الاستثناء مما جيء به للتأسيس أولى مما جيء به للتأكيد.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْنِفْتَ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ ٦٥ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ٦٦ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ٦٧ قَالَ إِنَّ هَتُولَاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُون ٦٨ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ٦٩ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ٧٠ قَالَ هَتُولَاءِ بَنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٢ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُتَوَسِّعِينَ ٧٥ وَإِنَّهَا لَلسَّبِيلُ مَقِيمٌ ٧٦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ٧٧ ﴿

☆ اللفظة:

﴿فَأَسْرِ﴾: يَقْطَعُ الهمزة من: أسرى، وقرئ بوصلها من سرى، يقال: سرى بالليل، وأسرى، وسريت به، وأسريت به، وطال بهم السرى وطالت، يكون مصدرًا كالهدى، وجمع سرية يقال: سرينا سرية من الليل وسرية، كالغرفة والغرفة، وأنشد أبو زيد:

وَأَرْفَعَ صَدَرَ الْعَنْسِ وَهِيَ شِمْلَةٌ

إذا ما السرى مالت بلوث العمائم

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحIRON، وقد تقدم ذكره.

﴿سِجِّيلٍ﴾ طين طبخ بالنار.

﴿لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفرسين والمعتبرين المتأملين، والتوسم: تفعل من الوسم، والتوسم أصله التثبث والتفكر، مأخوذ من الوسم، وهو: التأثير بحديدة في جلد البقر أو غيره، وقال ثعلب: الواسم: الناظر إليك من فرقك إلى قدمك.

(القطع) تقدم تفسيره، ولا يكون إلا في آخر الليل، قال:

افتحي الباب وانظري في التَّجُومِ

كَمْ عَلَيْنَا مِنْ قِطْعٍ لَيْلٍ بِهِمِ

○ الإعراب:

﴿فَاسْرِ يَا هَلِكٌ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ الفاء الفصيحة، وأسر فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، وبأهلك حال، وبقطع متعلقان بأسر، ومن الليل صفة لقطع ﴿وَاتَّبِعْ أَذْبَارَهُمْ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ واتبع عطف على فأسر، وأدبارهم مفعول به، والواو حرف عطف، ولا ناهية، ويلتفت مجزوم بلا، ومنكم حال؛ لأنه كان في الأصل صفة، وأحد فاعل، وامضوا عطف أيضاً، وحيث ظرف مبهم في محل نصب مفعول لامضوا، ولإيهامه تعدى إليه الفعل من غير واسطة، وجملة تؤمرون مضاف إليها الظرف ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ وقضينا فعل وفاعل، وإليه جار ومجرور متعلقان بقضينا؛ لأنها تضمنت معنى أوحينا، وذلك مفعول قضينا، والأمر بدل من اسم الإشارة، وأن وما في حيزها مصدر مؤول بدل من ذلك الأمر، أو خبر لمبتدأ محذوف، وفي إيهامه وتفسيره تفخيم للأمر، وتعظيم لشأنه، وإن واسمها، ومقطوع خبرها، ومصبحين حال من الضمير المستقر في مقطوع، وجمعه على المعنى فيكون معنى مقطوع: مقطوعين ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الواو عاطفة، وجاء أهل المدينة

فعل وفاعل، وجملة يستبشرون حال ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءَ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ إن واسمها وخبرها، والفاء الفصيحة، ولا ناهية، وتفضحوني مجزوم بلا، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، والياء المحذوفة لمراعاة الفواصل مفعول به ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ﴾ عطف على ما تقدم، وقد تقدم إعراب نظيرها ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ﴾ الهمزة للاستفهام، والواو عاطفة على محذوف، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وننهك فعل مضارع مجزوم بلم، والكاف مفعول به، وعن العالمين متعلقان بننهك، وأصح الأقوال في نبيه عن العالمين: هو نبيه عن أن يجير أحداً منهم، ويمنع بينهم وبين قومه ﴿قَالَ هَؤُلَاءَ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ هؤلاء بناتي مبتدأ وخبر، ولا بد من تقدير محذوف، أي: فانكحوهن، ويجوز أن يكون هؤلاء مفعولاً به بفعل مقدر، أي: انكحوا هؤلاء، وبناتي بدل، وإن شرطية، وكنتم: كان واسمها، وهي في محل جزم فعل الشرط، وفاعلين خبر كنتم، وجواب إن محذوف دل عليه ما قبله، أي: فانكحوهن ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ اللام للابتداء، وعمرك مبتدأ محذوف الخبر وجوباً، تقديره: قسمي، وجملة «إنهم» جواب القسم لا محل لها، وإن واسمها، واللام المرحقة، وفي سكرتهم متعلقان بيعمهون، وجملة يعمهون خبر إنهم، وجملة لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون اعتراضية ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ الفاء عاطفة، وأخذتهم الصيحة فعل ومفعول به وفاعل، ومشرقين حال، أي: داخلين في الشروق، وهو بزوغ الشمس ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ الفاء عاطفة، والعطف مرتب على أخذ الصيحة، وجعلنا فعل وفاعل، وعاليها مفعول جعلنا الأول، وسافلها مفعول جعلنا الثاني، وأمطرننا عطف على جعلنا، وحجارة مفعول به، وعليهم متعلقان بأمطرننا، ومن سجيل صفة لحجارة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ إن حرف مشبه بالفعل، وفي ذلك خبرها المقدم، واللام المرحقة، وآيات اسمها، وللمتوسمين صفة لآيات، أو تتعلق بنفس الآيات؛ لأنها بمعنى العلامات ﴿وَلِئَلَّا يَسْئَلَ مُقِيمٌ﴾ إن واسمها، والضمير يعود للمدينة، وهي سدوم، والمراد آثارها، واللام المرحقة، وبسبيل خبرها، ومقيم صفة،

أي : ثابت مسلوكة يعرفه الناس ، وفيه تنبيه لقريش أنكم لتمرون عليها كل يوم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدم إعراب نظيرتها .

□ البلاغة:

شملت الآية الكريمة وهي : ﴿ فَاسْرِ يَا هَٰئِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْنِفْتَ مِنكُمُ أَحَدٌ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ شملت على وجازتها آداب المسافرين لأمر مهم ديني أو دنيوي من الأمر والمأمور، والتابع والمتبوع، وسنلخص ما ورد فيها من آداب :

(١) أمره بأن يقدمهم أمامه ؛ لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه ، وليكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم .

(٢) جعل السري في آخر الليل ؛ لأنه أخفى للويل ، ولأن الإنسان يكون نشيطاً فيه .

(٣) نهاهم عن الالتفات الذي يعوق الساري المسرع المغذ في سراه . في تلك الحالة المهولة المحذورة ، ولئلا يروا ما حلّ بقومهم من العذاب فترق قلوبهم لهم .

(٤) ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض ، فيصيبه العذاب ، ولأن المتلفت يقف دائماً ، ويتذكر مرابعه ومراتعه فيتحسر ويأسى ، وقد يدوم النشيج كما حدث للصمة بن عبد الله :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتاً وأخذعا
وكما حدث للشریف الرضي :

ولقد وقفت على ديارهم وطلوها بيد البلى نهب
وبكيت حتى ضج من لغب نصوي ولج بعذلي الركب
وتلفت عيني فمذ خفيث عني الطلول تلفت القلب

* الفوائد :

وفي أمثال العرب : «أجور من قاضي سدوم» قالوا : بفتح السين مدينة من مدائن قوم لوط ، قال الأزهري : قال أبو حاتم في كتابه الذي صنّفه في المفسد والمذال : إنما هو سدوم بالذال المعجمة ، والذال خطأ ، قال الأزهري : وهذا عندي هو الصحيح ، قال الطبري : هو ملك من بقايا اليونانية غشوم كان بمدينة سمرين من أرض قيسرين . وهذا هو الذي اعتمده صاحب القاموس ، فحمله على تغليط الجوهري ، وقال الثعالبي : إن سدوم من الملوك المتقدمين المتصفين بالجور و«كالة» قاض أشد جوراً منه . قال الزبيدي : وقد علم مما تقدم أن المثل مضبوط بالوجهين ، وأن المشهور فيه إهمال الدال . ونقل عن الشهاب أنه يمكن أن يكون بالمعجمة في الأصل قبل التعريب ، فلما عرب أهملوا ذاله .

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ٧٨ ﴾ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَآمِرٌ مُّبِينٌ ﴿ ٧٩ ﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿ ٨٠ ﴾ وَءَايَتْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿ ٨١ ﴾ وَكَانُوا يُنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿ ٨٢ ﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿ ٨٣ ﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ ٨٤ ﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الصَّصَبِ الْجَمِيلِ ﴿ ٨٥ ﴾

☆ اللفظة :

﴿ الْأَيْكَةُ ﴾ : هي غيضة شجر بقرب المدينة ، وأصحابها هم قوم شعيب . وفي المختار : الأيك : الشجر الملتف والكثير ، والواحدة أيكة ، مثل تمر وتمرّة .

﴿ الْحَجَرِ ﴾ : واد بين المدينة والشام ، وهم قوم ثمود .

○ الإعراب:

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَبُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة، وإن مخففة من الثقيلة مهملة أو عاملة، واسمها ضمير الشأن المحذوف، أي: وإن الشأن كان أصحاب الأيكة، وكان واسمها، والأيكة مضاف إليه، واللام الفارقة، وظالمين خبر كان ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ فانتقمنا الفاء عاطفة على محذوف، أي: أمعنوا في الإثم فانتقمنا، وانتقمنا فعل وفاعل، ومنهم متعلقان بانتقمنا، وإنهما الواو حالية، أو عاطفة، وإنهما إن واسمها، والميم والألف حرفان دالان على التثنية، واختلف في عودتهم، فقيل: يعني قري قوم لوط والأيكة، وقيل: يعودان على الأيكة ومدين؛ لأن شعيباً كان مبعوثاً إليهما، فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين، فجاء بضميرهما، قيل: يعود على لوط وشعيب، وقيل: يعود على الخبرين خبر إهلاك قوم لوط وخبر إهلاك قوم شعيب، واللام المرحقة، وبإمام خبر إنهما، وسمي الطريق إماماً؛ لأن السالك فيه يأت به حتى يصل إلى الموضع الذي يريده، ومبين صفته ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ عطف على ما تقدم لتساوق القصص، واللام موطئة للقسم، وقد حرف تحقيق، وكذب أصحاب الحجر فعل وفاعل، والمرسلين مفعول به، وهذا شروع في قصة صالح ﴿وَأَيْنِسْتُهُمْ ءَايَتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ وآتيناهم فعل وفاعل ومفعول به أول، وآياتنا مفعول به ثان، فكانوا عطف على آتيناهم، وكان واسمها، وعنها متعلقان بمعرضين، ومعرضين خبر كانوا ﴿وَكَاْنُوا يَنْجُوْنَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوْتًا ءَامِنِينَ﴾ وكانوا عطف، وكان واسمها، وجملة ينحتون خبرها، ومن الجبال حال؛ لأنه كان في الأصل صفة، أو بينحتون، ويوتاً مفعول به، وآمنين حال من الضمير في ينحتون، أي: حال كونهم آمنين عليها من أن تهدم لاستيثاق بنائها واستحكامها، أو من الاستهداف للغارات والاعتداءات؛ لأنها معاقل حصينة لهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ الفاء عاطفة، وأخذتهم فعل ومفعول به مقدم، والصيحة فاعل مؤخر، ومصبحين

حال، أي: داخلين في وقت الصباح ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الفاء عاطفة، وما نافية، وأغنى فعل ماضٍ، وعنهم متعلقان بأغنى، وما فاعل، وجملة كانوا صلة، وجملة يكسبون خبر كانوا، ويجوز أن تكون ما استفهامية مفعولاً مقدماً لأغنى، ويجوز أن تكون ما مصدرية، والإعراب واحد ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الواو عاطفة، وما نافية، وخلقنا السموات فعل فاعل ومفعول به، والأرض عطف على السموات، وإلا أداة حصر، وبالحق حال، والباء للملابسة، أي: متلبساً بالحق، والحكمة، والمصلحة ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ الواو عاطفة، وإن واسمها، واللام المزحلقة، وآتية خبرها، الفاء الفصيحة، واصفح فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، والصفح مفعول مطلق، والجميل صفة.

□ البلاغة:

(١) في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَبُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ مجاز مرسل علاقته الحالية؛ لأن الأيكة هي: شجر ملتف مزدحم.

(٢) في قوله: ﴿لِيَأْمُرَ مُبِينٍ﴾ استعارة تصريحية؛ لأن الطريق سبيل للوصول، والمسافر فيه يتبعه حتى النهاية، فاستعمل المشبه به بدلاً عن المشبه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ٨٧ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ ٨٧ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٨٨ ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ ٨٩ ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ ٩٠ ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ ٩١ ﴿فَوَرَبُّكَ لَنَسَعِلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٩٢ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٩٣ ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٩٤ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ

الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ
 نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾
 وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

☆ اللفظة:

﴿الْمَثَانِي﴾: المراد بالمثاني هنا مختلف فيه، فقليل: الفاتحة لأنها تثنى في كل
 ركعة، وهي سبع آيات، وقيل: هي السور السبع الطوال، وهي جمع مثناة،
 مؤنث مثنى، وقد تقدم بحثه مفصلاً في النساء، وسميت السور السبع الطوال
 مثاني لما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد، والكلام في
 ذلك مبسوط في المطولات.

﴿عِضِينَ﴾: جمع عضة، وأصلها: عضوة، من عضى الشاة إذا جعلها
 أعضاء، وقيل: عضة من عضهته إذا بهته، وفي المختار: قال الكسائي:
 العضة: الكذب والبهتان، وجمعها عضون، مثل عزة وعزون، قال الله تعالى:
 ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْفُرَّانَ عِضِينَ﴾ قيل: نُقْصَانُهُ الْوَاوُ، وهو من عَضَوْتُهُ، أي:
 فَرَّقْتُهُ؛ لأن المشركين فَرَّقُوا أَقَاوِيلَهُمْ فِيهِ، فجعلوه كذباً وسحراً وكهانة
 وشِعْراً. وقيل: نُقْصَانُهُ الْهَاءُ، وأصله عِضَّةٌ؛ لأن العِضَّةَ والعِضِينَ في لغة
 قريش: السحر، يقولون للساحر: عَاضِهٌ. وسيأتي مزيد بحث عن الملحقات
 بجمع المذكر السالم في باب: الفوائد.

﴿فَاصِدَعٌ﴾: فاجهر به وأظهره، يقال: صدع بالحجة؛ إذا تكلم بها
 جهاراً، كقولك: صرح بها، من الصديق، وهو: الفجر، والصدع في
 الزجاجية: الإبانة، وقال الضحاك: وأصل الصدع: الشق والفرق، أي:
 افرق بين الحق والباطل. وسيأتي مزيد بحث عن هذا التعبير العجيب في باب:
 البلاغة.

○ الإعراب:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ إن واسمها وخبرها، وهو ضمير فصل
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ كلام مستأنف، مسوق لتنبية
المسلمين إلى أن ما أنزل عليهم خير من متاع الدنيا، قيل: وافت من بصرى
وأذرعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير، فيها أنواع البز والطيب
والجواهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا
بها، وأنفقناها في سبيل الله، فقال لهم الله عز وعلا: لقد أعطيتكم سبع آيات
هي خير من هذه القوافل السبع. واللام جواب للقسم المحذوف، وقد حرف
تحقيق، وآتيناك فعل ماض وفاعل ومفعول به أول، وسبعاً مفعول به ثان،
ومن المثاني صفة لسبعاً، والقرآن عطف على سبعاً، من قبيل عطف الصفات
مع وحدة ذات الموصوف، والعظيم صفة للقرآن ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا
 بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ لا ناهية، وتمدن فعل مضارع مبني على الفتح؛ لاتصاله
بنون التوكيد الثقيلة، وهو في محل جزم بلا الناهية، والفاعل مستتر تقديره:
أنت، وعينيك مفعول به، وإلى ما متعلقان بتمدن، وجملة متعنا صلة، وبه
متعلقان بمتعنا، وأزواجاً مفعول متعنا، ومنهم صفة لأزواجاً، والمراد
بالأزواج الأصناف منهم، أي: أن ما أوتيته من نعماء سابعة، يضوّل أمامه
كل ما في الدنيا من بهارج الحياة وتزاويقها ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ
 لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولا تحزن عطف على لا تمدن، وعليهم متعلقان بتحزن، واخفض
عطف أيضاً، وجناحك مفعول به، وللمؤمنين متعلقان باخفض ﴿وَقُلْ إِنِّي
 أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ إن واسمها، وأنا مبتدأ، أو ضمير فصل، والنذير خبر
أنا، أو خبر إن، والمبين صفة ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ كما فيها وجهان:
أحدهما: أن يتعلق بقوله «ولقد آتيناك» أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على
أهل الكتاب، وهم المقتسمون. والثاني: أن يتعلق بالنذير، أي: ينزل عليك
مثل الذي نزل بأهل الكتاب، وعلى كل حال: صفة لمفعول مطلق محذوف،
وعلى المقتسمين جار ومجرور متعلقان بأنزلنا، وسيأتي بيانهم ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا

الْقُرْآنَ عِصِينَ ﴿ الذين صفة للمقتسمين ، وجملة جعلوا صلة ، والقرآن مفعول جعلوا ، وعصين مفعول به ثان ، أي : قسموا القرآن أقساماً ، فجعلوه سحراً وشعراً وأساطير ، وقد اختلف هؤلاء المقتسمين وقصصهم اختلافاً يخرج بنا عن النهج المقرر للكتاب ، فارجع إليه في المطولات ﴿ فَوَرَّيْكَ لَسْتَ لَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الفاء عاطفة ، والواو للقسم ، وربك مجرور بواو القسم ، وهما متعلقان بفعل محذوف تقديره : أقسم ، واللام واقعة في جواب القسم ، و«لنستلنهم» : فعل وفاعل مستتر ومفعول به ، وأجمعين تأكيد ﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُوْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الفاء الفصيحة ، أي : إن عرفت هذا فاصدع ، واصدع فعل أمر وفاعله أنت ، وبما متعلقان به ، وما مصدرية ، أو موصولة ، وعن المشركين متعلقان بأعرض ، وقد رجح ابن هشام في «المغني» أن تكون مصدرية ، وعلل ذلك ابن الشجري قال : فيه ، أي : في الموصولية خمسة حذوف ، والأصل بما تؤمر بالصدع به ، فحذفت الباء فصار بالصدع ، فحذفت أل لامتناع اجتماعها مع الإضافة ، فصار بصدعه ، ثم حذف المضاف كما في : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ ﴾ فصار به ، ثم حذف الجار كما قال عمرو بن معد يكرب :

أمرتكَ الخيرَ فافعلْ ما أمرتَ بهِ فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نسب

فصار تؤمره ، ثم حذفت الهاء ، كما حذفت في : ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ وإنما ارتكب خمسة الحذوف لأجل أن يكون جارياً على القياس في حذف العائد المجرور ؛ لأنه لا يحذف العائد المجرور إلا إذا كان مجروراً بمثل الحرف الذي جر الموصول ، وأن يكون كل من الحرفين متعلقاً بعامل مائل لما تعلق به الآخر ، فقول ابن الشجري : والأصل بما تؤمر بالصدع به : العائد متعلق بمثل ما تعلق به الجار للموصول ، ولو قال : اصدع بما تؤمر به لم توجد تلك الشروط لاختلاف المتعلق ؛ لأن الباء الأولى متعلقة بالصدع ، والثانية متعلقة بتؤمر ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ إن واسمها ، وجملة كفيناك خبرها ، وهو فعل وفاعل ومفعول به ، والمستهزئين مفعول به ثان ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ

اللَّهُ إِلَهَاءَ آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ الذين صفة للمستهزئين، وجملة يجعلون صلة، والواو فاعل، ومع الله ظرف مكان متعلق بمحذوف مفعول به ثان ليجعلون، وإلهاء مفعول به، وآخر صفة، والفاء استثنائية، وسوف حرف استقبال، ويعلمون فعل مضارع وفاعل، والمفعول محذوف، أي: عاقبة أمرهم ﴿٨٧﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٨٨﴾ الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، وقد حرف تقليل، والمراد به هنا: التكثير والتحقيق، ونعلم فعل مضارع فاعله مستتر تقديره: نحن، وأنتك أن وما في حيزها سدت مسد مفعولي نعلم، وأن واسمها، وجملة يضيق صدرك خبرها، وصدرك فاعل يضيق، وبما متعلقان بضيق، وجملة يقولون صلة، والعائد محذوف، أي: يقولون من أقاويل، ويرجعون به من أراجيف ﴿٨٩﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٠﴾ الفاء الفصيحة، وسبح بحمد ربك تقدم إعرابه قريباً، وكن من الساجدين: كان واسمها، ومع ظرف مكان متعلق بمحذوف خبرها، والساجدين مضاف إليه ﴿٩١﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقًّا يَا أَيُّكَ الْإِلَهِاتِ ﴿٩٢﴾ حتى حرف غاية وجر، ويأتيك فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، والكاف مفعول به، واليقي فاعل، وسمي الموت يقيناً لأنه متيقن الوقوع.

□ البلاغة:

(١) في قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ استعارة مكنية، فالمستعار منه الزجاجاة، والمستعار الصدع، وهو: الشق، والمستعار له هو عقوق المكلفين، وهو من استعارة المحسوس للمعقول، وقد تقدمت الإشارة إلى أقسام الاستعارة، والمعنى: صرّح بجميع ما أوحى إليك، وبين كل ما أمرت ببيانه، وإن شق ذلك على بعض القلوب فانصدعت، والمشابهة بينهما فيما يؤثره التصديع في القلوب فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من التقبض والانبساط، ويلوح عليها من علامات الإنكار والاستبشار، كما يظهر ذلك على ظاهر الزجاجاة المصدوعة، فانظر إلى هذه الاستعارة ما أروعها! وما أبعد دلالتها ومراميها، وما أوجزها! لأنها وقعت في ثلاث كلمات انطوت على ما يستوعب

الصفحات، قال عبد الله بن عبيدة: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت هذه الآية، فخرج هو وأصحابه.

ويروى أن بعض الأعراب لما سمع هذه اللفظات الثلاث سجد، ف قيل له: لم سجدت؟ فقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام؛ لأنه أدرك منه بديهاً من غير تأمل كل ما أدركناه بعد الروية والنظر، ومن هذا يتبين لك أن العرب تيقنت من أول ما سمعت القرآن أنه غير مقدور للبشر، فلم تشتغل بالمعارضة، ولا حدثت نفوسها بها.

(٢) في قوله: ﴿وَآخِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ استعارة مكنية، وسيأتي القول فيها مسهباً عند قوله: ﴿وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾
* الفوائد:

الملحق بجمع المذكر السالم:

حملوا على جمع المذكر السالم أربعة أنواع أعربت بالحروف، وليست جمعاً مذكراً سالماً، وهي كما يلي:

الأول: أسماء جموع: وهي: أولو بمعنى أصحاب، وعالمون اسم جمع عالم بفتح اللام، وليس جمعاً له؛ لأن العالم عام في العقلاء وغيرهم، والعالمون مختص بالعقلاء، والخاص لا يكون جمعاً لما هو أعم منه، وعشرون وبابه، وهو سائر العقود إلى التسعين، وقد وردت العقود كلها في القرآن، وقد أحصيناه على الشكل التالي:

آ- ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ﴾

ب- ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

ج- ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾

د- ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ سَنِينَ﴾

هـ- ﴿ذَرَّعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ .

و- ﴿فَاجْلِدُوهُمُ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ .

ز- ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَكُ يُسْعٍ وَسَعُونَ نَجَّةً﴾ .

الثاني: جموع تكسير تغير فيها بناء الواحد، وأعربت بالحروف، وهي: بنون، جمع ابن، وقياس جمعه جمع السلامة ابنون، كما يقال في تثنيته ابنان، ولكم خالف تصحيحه تثنيته لعله تصريفية أدت إلى حذف الهمزة، وذلك أن ابن أصله بنو، حذفت لامه للتخفيف، وعوض عنها همزة الوصل، والجمع يرد الأشياء إلى أصولها، فلما جمع رجعت الواو فذهبت الهمزة، ثم حذفت الواو والمحذوف لعله كالثابت، فلم تأت الهمزة، وأما التثنية فلو رجعت الواو لم يكن هناك ما يقتضي حذفها؛ لأنها متحركة بالفتح، والفتح خفيف، وقد حذفت أولاً لغرض التخفيف، فلو حذفت لزال ذلك الغرض، والمانع من حذفها لو رجعت، ومن قلبها ألفاً سكون ما بعدها كما في بيان، ولو حذفت لصار اللفظ بنان، فيحصل اللبس بينان الكف بخلاف بنون، فليتأمل، وأرضون بفتح الراء جمع أرض بسكونها، وجمع هذا الجمع؛ لأنه ربما يورد في مقام الاستعظام، كقوله:

لَقَدْ ضَجَّتِ الْأَرْضُونُ إِذْ قَامَ مِنْ بَنِي

سدوس خطيبٌ فوقَ أعوادٍ منبر

إلا أنه سكن الراء للضرورة. وسنون بكسر السين جمع سنة فتحها اسم للعام، ولامها واو أو هاء؛ لقولهم: سنوات وسنهاء وبابه، وهو شائع في كل اسم ثلاثي حذفت لامه، وعوض عنها هاء التأنيث، ولم يكسر، نحو عضة وعضين، وأصل عضة: عضه بالهاء من العضة، وهو البهتان والكذب. وفي الحديث: «لا يعضه بعضهم بعضاً» وقيل: أصله عضو من قوله: عضيته تعضية؛ إذا فرقته فعلى الأول لامها هاء، ويدل له تصغيرها على عضيتها، وعلى الثاني واو، ويدل له جمعها على عضوات، فكل من التصغير والجمع يردان الأشياء إلى أصولها، وعزة وعزين والعزة بكسر العين وفتح

الزاي، وأصلها عزي، فلامها ياء، وهي الفرقة من الناس، والعزين: الفرق المختلفة؛ لأن كل فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الأخرى، وثبة وثنين والثبة بضم الثاء وفتح الباء الجماعة، وأصلها ثبو، وقيل: ثبي من ثبت، أي: جمعت، فلامها على الأول واو، وعلى الثاني ياء، ولا يجوز في نحو اسم وأخت وبنت؛ لأن العوض فيهنّ عن لامهنّ المحذوفة غير الهاء، أما اسم فأصله سمو، فحذفت لامه، وعوض عنها الهمزة في أوله، وأما أخت وبنت، فأصلهما أخو وبنو، وحذفت لامهما، وعوض عنهما تاء التانيث لا هاء التانيث، والفرق بينهما أن تاء التانيث فيهما لا تبدل هاء في الوقف، وتكتب مجرورة وهاء التانيث يوقف عليها بالهاء، وتكتب مربوطة، ولا في نحو: شاة وشفة؛ لأنهما كسرا على شفاه وشياه، قال الجوهري: وإنما لم يجمع بالحروف؛ لأن العرب استغنت بتكسيروهما عن تصحيحهما.

الثالث: مما حمل على هذا الجمع جموع تصحيح لم تستوف شروط الجمع، كأهلون ووابلون؛ لأن أهلاً ووابلاً ليس علمين ولا صفتين، ولأن وابلاً غير عاقل، والمعروف أن شرط هذا الجمع أن يكون لعلم من يعقل، أو صفته.

الرابع: ما سمي به من هذا الجمع، ومما ألحق به، فالأول نحو: زيدون، مسمى به شخص، والثاني: كعليون فإنه ملحق بهذا الجمع، وسمى به أعلى الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْإِبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ وهناك تفاصيل أخرى لا حاجة إلى إثباتها؛ لأنها دون الفصيح، ولهذا أضربنا عن ذكرها، ويرجع إليها في المطولات.

سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنذَرُكُمْ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنفَعُ خَلْقُهَا لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾

☆ النُفْثَةُ:

﴿نُطْفَةٍ﴾: في المصباح: نطف الماء ينطف؛ من باب: قتل، سال، وقال

أبو زيد: نطفت القرية تنطف وتنطف نطفاناً؛ إذا قطرت، والنطفة: ماء الرجل والمرأة، وجمعها نطف ونطاف، مثل برمة وبرام، والنطفة أيضاً: الماء الصافي قلّ أو كثر، ولا فعل للنطفة، أي: لا يستعمل لها فعل من لفظها. وفي المختار: أن نطف من بابي: قتل وضرب.

﴿حَصِيمٌ﴾: شديد الخصومة، وفيه معنيان: أحدهما: أنه خصيم لربه، منكر على خالقه، قائل: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ والثاني: فإذا هو منطق، مجادل عن نفسه، مكافح للخصوم باللدد، والجدل، والسفسطة، وما إلى ذلك من ضروب الوقاحة، والشرة، وسيأتي المزيد من هذا في باب: البلاغة.

﴿دَفَّ﴾: في المختار: الدفء: نتج الإبل وألبانها، وما ينتفع به منها، قال الله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ﴾ وفي الحديث: «لنا من دفئهم ما سلموا بالميثاق». وهو أيضاً السخونة، اسم من دفء الرجل: من باب: طرب وسلم، فالذكر دفآن، والأنثى دفأى، مثل غضبان وغضبي، ورجل دفء بالقصر، ورجل دفء بالمد. وفي المصباح: دفء البيت يدفأ مهموز، من باب: تعب، قالوا: ولا يقال في اسم الفاعل دفء، وزان كريم، بل وزان تعب، ودفء الشخص، فالذكر دفآن، والأنثى دفأى، مثل: غضبان وغضبي: إذا لبس ما يدفئه، ودفؤ اليوم مثل قرب، والدفء وزان حمل، خلاف البرد. وفي القاموس: والدفء بالكسر ويحرك: نقيض حدة البرد كالدفءة، والجمع أدفاء دفء، كفرح وكرم، وتدفاً واستدفاً وادفأ، وأدفاه: ألبسه الدفء، والدفآن: المستدفء كالدفء، والدفء بالكسر: نتاج الإبل وأوبارها، والانتفاع بها، وما أدفاً من الأصواف والأوبار. وقال الزنجشري: والدفء: اسم ما يدفأ به، كما أن الملاء اسم ما يملأ به، وهو الدفء من لباس معمول من صوف، أو وبر، أو شعر. فتلخص أن للدفء ثلاثة معان:

١ - ضد البرودة، أي: السخونة.

٢ - ما يتدفأ به من الثياب.

٣- ما يتحصل من الإبل من نتاج ولبن، ومنافع .

﴿ تَرْيَحُونَ ﴾ : تردونها إلى مراحيها بالعشي .

﴿ تَسْرَحُونَ ﴾ : تخرجونها إلى المرعى بالغداة، وسيرد المزيد من بحث الإراحة والتسريح من باب: البلاغة. وفي المصباح: سرحت الإبل سرحاً، من باب: نفع، وسروحاً: رعت بنفسها، وسرحتها يتعدى ولا يتعدى، وسرحتها - بالثقل - مبالغة وتكثير .

﴿ يَشِقُّ الْأَنْفُسَ ﴾ : بجهدا بكسر الشين وفتحها، وهما لغتان في معنى المشقة، وبينهما فرق، وهو أن المكسور بمعنى النصف، كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد، وأما المفتوح فهو مصدر شق عليه الأمر شقاً، وحقيقته راجعة إلى الشق، وهو الصدع. وفي المختار: الشق - بالكسر - : نصف الشيء، والشق أيضاً: المشقة، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِلَّا يَشِقُّ الْأَنْفُسَ ﴾ وهذا قد يفتح .

﴿ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ : القصد: مصدر بمعنى الفاعل، وهو القاصد، يقال: سبيل قصد وقاصد، أي: مستقيم؛ كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك، لا يعدل عنه .

﴿ جَكَارٌ ﴾ : حائد عن الاستقامة .

○ الإعراب:

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ أتى فعل ماض، وأمر الله فاعله، عبر عن المستقبل بالماضي؛ لأنه بمثابة الأمر الواقع الذي لا محيد عنه، والفاء عاطفة، ولا ناهية، وتستعجلوه فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، والواو فاعل، الهاء مفعول به ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ سبحانه مفعول مطلق لفعل محذوف، وتعالى فعل ماض، وعما تنازعه كل من سبحانه وتعالى، وما يحتمل أن تكون مصدرية، فلا تحتاج إلى عائد، ويحتمل أن تكون موصولة، فتحتاج إلى تقدير عائد، وجملة يشركون لا محل لها على كل حال ﴿ يَنْزِلُ الْمَلَكَةُ بِالرُّوحِ

مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿١﴾ ينزل الملائكة فعل وفاعل مستتر ومفعول به، وبالروح متعلقان بينزل، أو بمحذوف حال، أي: متلبسة بالروح، ومن أمره متعلقان بمحذوف حال، وعلى من يشاء متعلقان بينزل، ومن عباده حال ﴿٢﴾ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٣﴾ أن مخففة، وهي وما في حيزها بدل من قوله بالروح، أي: ينزل الملائكة بأن أنذروا، وتقديره: بأنه أنذروا، فاسم أن ضمير الشأن، وجملة أنذروا مقول قول محذوف، أي: بأن الشأن أقول لكم أنذروا، ولك أن تجعل أن مفسرة؛ لأن الروح بمعنى الوحي الذي فيه معنى القول دون حروفه، وأنه سدت مع ما في حيزها مسد مفعول أنذروا؛ لأنه متضمن معنى أعلموا الناس، أو تكون أنذروا على معناها الأصلي، وأنه نصب بنزع الخافض، أي: أنذروا بأنه، وجملة لا إله إلا أنا خبر أنه، وقد تقدم القول مفصلاً في «لا إله إلا الله»، فاتقون: الفاء الفصيحة، أي: إذا كان الأمر كما ذكر من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الأنبياء، وأمرهم بأن ينذروا الناس أنه لا شريك له في الألوهية، فاتقون في الإخلال بمضمونه، واتقون فعل أمر وفاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم حذفت لمراعاة الفواصل ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥﴾ خلق السموات والأرض فعل وفاعل مستتر، والسموات مفعول به، والأرض عطف على السموات، وبالحق في محل نصب على الحال، أي: محققاً، وتعالى فعل ماض، وفاعله مستتر تقديره: هو، وعما متعلقان بتعالى، وجملة يشركون صلة لما ﴿٦﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ خلق الإنسان فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ومن نطفة متعلقان بخلق، ومن للابتداء، فإذا الفاء عاطفة، وإذا الفجائية، وهو مبتدأ، وخصيم خبر، ومبين صفة ﴿٨﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٩﴾ الواو عاطفة، والأنعام منصوب بفعل محذوف يفسره ما بعده، وخلقها فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة مفسرة، ولكم خبر مقدم، وفيها حال ودفع مبتدأ مؤخر، والجملة حالية، ويجوز أن تكون مستأنفة، ويجوز أن يكون لكم حالاً من دفء، وفيها الخبر، وقع الاسم المشتغل عنه، وهو الأنعام بعد

عاطف غير مفصول من الاسم بأمّا، مسبوق بفعل، وهو خلق الإنسان من نقطة، فترجح نصبه؛ لأن المتكلم عاطف جملة فعلية على جملة فعلية، والرافع عاطف جملة اسمية على جملة فعلية، وتشاكل الجملتين أحسن من تخالفهما. وقد يقال: إن في الرفع تخلصاً من تقدير العامل، فلكل مرجح، فكان ينبغي التساوي لا أرجحية النصب، ويجاب بأن مراعاة التشاكل أقوى مما ذكر، ومنافع عطف على دفع، ومنه متعلقان بتأكلون، وتأكلون فعل مضارع وفاعل، وتقديم الجار والمجرور وهو معمول للفعل يوجب حصره فيه ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ الواو عاطفة، ولكم خبر مقدم، وفيها حال، وجمال مبتدأ مؤخر، وحين ظرف متعلق بمحذوف صفة، وجملة تريحون مضاف إليها، وكذلك قوله: «وحين تسرحون» وسيأتي مزيد بحث عن الإراحة والتسريح في باب: البلاغة ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا فِيهِ إِلَّا يَشِقُّ الْأُنْفُسُ﴾ الواو عاطفة، وتحمل أثقالكم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، وإلى بلد متعلق بتحمل، وجملة لم تكونوا بالغيه صفة لبلد، وبالغيه خبر تكونوا، وإلا أداة حصر، ويشق الأنفس في موضع نصب على الحال من الضمير المرفوع في بالغيه، أي: مشقوقاً عليكم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إن واسمها، واللام المرحلة، ورؤوف رحيم خبران ﴿وَالْخَيْلَ وَالْإِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ والخيل وما بعده عطف على الأنعام، أي: وخلق هؤلاء للركوب والزينة، ولتركبوها مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجار والمجرور في موضع نصب مفعول لأجله، وزينة عطف على محل لتركبوها، وجر الأول بالجر لاختلاف الفاعل؛ لأن الركوب فعل المخاطبين، وفاعل الخلق هو الله تعالى، أما زينة فهي من فعله تعالى، ولذلك نصبت، فالمرين والخالق هو الله، ويجوز أن تعرب نصباً على الحال من الهاء في تركبوها ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الواو استئنافية، والجملة مستأنفة، ومسوقة لبيان إحاطته تعالى وقدرته، وإن ما تنهى إليهم علمه يعد ضئيلاً جداً بالنسبة إلى علمه الواسع ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايزٌ﴾ على الله خبر مقدم، وقصد السبيل مبتدأ مؤخر، ومنها خبر مقدم،

وجائر صفة لموصوف هو المبتدأ المؤخر، أي: سبيل جائر، أي: حائد عن الاستقامة ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الواو عاطفة، ولو امتناعية شرطية، ومفعول شاء محذوف، أي: شاء هدايتكم، واللام رابطة لجواب لو، وهذاكم فعل وفاعل مستتر ومفعول به، وأجمعين تأكيد.

□ البلاغة:

(١) الإيجاز في قوله: ﴿حِينَ تَرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ فقد انطوت كلمتا «تريحون» و«تسرحون» على الكثير من المعاني والصور، مما يضفي على مقتني هذه الأنعام جمالاً، ورواء، وأبهة، ليس في المكنة تصوره؛ لأن الرعاة إذا ردوا الأنعام بالعشي إلى مراحيها، أي: مأواها بالليل، أو سرحوها عند الغداة إلى المراعي المعشوشبة، وعرجوا على الأفنية والبيوت رغت الإبل، وخارت البقر، وثغت الشاء، فتجاوب ذلك كله مع صياح الصبيان، وحديث العقائل والأوانس، وهن يتهادين متخبرات متوثبات، شمل الفرح الجميع، ورقصت النعمة، ورفرفت السعادة. وقدم الإراحة على التسريح؛ لأن الجمال في الإراحة أكثر، تقبل وهي ملأى البطون، حافلة الضروع، معسولة الحلب.

(٢) المجاز المرسل في قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ لأن الفاء تدل على التعقيب، وكونه خصيماً مبيناً لا يكون عقب خلقه من نقطة، ولكنه إشارة إلى ما تؤول إليه حاله، فهو مجاز مرسل، والعلاقة اعتبار ما سيكون؛ كقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرْنُوهُ أَغْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: عنباً يؤول إلى الخمر.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ ثَمِيمٌ﴾ ﴿١٠﴾ ثَبِتْ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالتَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ

الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ ﴿١٧﴾

☆ اللغة:

﴿تُسَيِّمُونَ﴾: ترعون دوابكم، من سامت الماشية: إذا رعت، فهي سائمة، وأسامها صاحبها، وهي من السومة، وهي: العلامة؛ لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض.

قال السيوطي: لم يأت اسم المفعول من أفعل على فاعل إلا في حرف واحد، وهو قول العرب: أسمت الماشية من المرعى، فهي سائمة، ولم يقولوا مسامة، وقوله تعالى: ﴿فِيهِ تُسَيِّمُونَ﴾ من أسام يسيم واجب، المراد: أسمتها أنا فسامت هي، فهي سائمة، كما تقول: أدخلته الدار فدخل، فهو داخل.

﴿ذَرَأَ﴾: خلق، وذَرَأْنَا الأرض وذروناها: بذرناها، وذراً الله الخلق وبراً، ومن الذاريء الباريء سواه؟! واللهم لك الذرء والبرء، ومنك السقم والبرء، وقد علته ذُرْأة، وهي: بياض الشيب أول ما يبدو في الفودين، وقد ذرى رأسه ذرءاً، ورجل أذراً، وامرأة ذرءاء: بياض الرأس، أو بياض الوجه، قال:

فمَرَّ وَلَمَّا تَسَخَّنِ الشَّمْسُ غُدُوَّةً

بذرءاء تدري كيف تمشي المنائح

أي: مُنحت كثيراً فاعتادت ذلك، فهي تسامح بالمشي لا تأبى.

﴿طَرِيًّا﴾: الطراوة ضد اليبوسة، أي: غضاً جديداً، ويقال: طريت كذا، أي: جددته. وفي المصباح: طرو الشيء وزان قرب، فهو طري، أي: غضّ بين الطرواة، وطرىء بالهمز وزان تعب لغة، فهو طريء بين الطراوة، وطرأ فلان علينا يطرأ - مهموز بفتحتين - طروءاً: طلع، فهو طارىء، وطرأ الشيء يطرأ أيضاً طرأناً - مهموز -: حصل بغتة، فهو طارىء، وأطريت العسل بالياء: عقدته، وأطريت فلاناً: مدحته بأحسن ما فيه، وستأتي النكتة في وصف اللحم بالطرواة أو الطراءة في باب: البلاغة.

﴿حَلِيَّةٌ﴾: في المصباح: حلي الشيء بعيني وبصدري يحلى، من باب: تعب، حسن عندي، وأعجبني، وحليت المرأة حلياً ساكن اللام: لبست الحلي، وجمعه حلي، والأصل على فعول، مثل فلس وفلوس، والحلية بالكسر: الصفة، والجمع حلى مقصور، وتضم الحاء وتكسر، وحلية السيف: زينته، قال ابن فارس: ولا تجمع، وتحلت المرأة: لبست الحلي، أو اتخذته، وحليتها بالتشديد: ألبستها الحلي، أو اتخذته لها لتلبسه، وحليت السويق: جعلت فيه شيئاً حلواً حتى حلا. وفي القاموس وشرحه وغيرهما: الحَلِيّ وجمعه حُلِيّ وحُلِيّ، والحلية وجمعها حَلِيّ وحُلِيّ على غير القياس: ما يزين به من مصوغ المعديّات أو الحجارة الكريمة، وقول بعض المفسرين: اللؤلؤ والمرجان تفسير معنى للحلية لا تفسير لغة، والمراد بلبسهم لبس نسائهم؛ لأنهن من جملتهم، ولأنهن إنما يتزين من أجلهم، فكأنها زينتهم ولباسهم.

﴿مَوَآخِرَ﴾: جوارى، والمخر: شق الماء بِحَيْزومها، وعن الفراء: هو صوت جري الفلك بالرياح. وفي المختار: مخرت السفينة، من باب: قطع ودخل، جرت تشق الماء مع صوت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَآخِرَ فِيهِ﴾ أي: جوارى. وفي الأساس: فلك مواخر وتمخر الماء: تشقه مع صوت، ونشأت بنات مخر وهي: سحب الصيف تمخر الجو مخرأً،

واستمخرتُ الريح: استقبلتها بأنفي، وخرجت أتمخر الريح واستنشئها، ومخرت الأرض مخراً: سقيتها لتطيب.

﴿ تَمِيدَ ﴾: تميل بكم. وفي المختار: ماد الشيء يميد ميداً، من باب: باع، ومادت الأغصان والأشجار: تمايلت، وماد الرجل: تبختر. وفي القاموس: ماد يميد ميداً وميداناً: تحرك وزاغ، والسراب: اضطرب، والرجل: تبختر وأصابه غثيان ودوار من سكر، أو ركوب بحر، ومنه المائدة: الطعام، والخوان عليه الطعام كالمائدة فيهما.

﴿ وَعَلَّمَتِ ﴾: جمع علامة، ففي المصباح: وأعلمت على كذا بالآلف من الكتاب وغيره: جعلت عليه علامة، وأعلمت الثوب: جعلت له علماً من طراز غيره، وهو العلامة، وجمع العلم: أعلام، وجمع العلامة: علامات، وعلمت له علامة بالتشديد، وضعت له أمانة يعرفها.

○ الإعراب:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ هو مبتدأ، والذي خبره، وجملة أنزل صلة، ومن السماء جار ومجرور متعلقان بأنزل، وماء مفعول به، ولكم خبر مقدم، ومنه متعلقان بمحذوف حال من شراب، وشراب مبتدأ مؤخر، والجملة صفة لماء، ومنه شراب جملة مستأنفة متألفة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر، وفيه متعلقان بتسيمون، وجملة تسيمون صفة لشجر، والباء للسببية، أي: بسببه ينبت الشجر ﴿ يَنْبُتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعُ وَالزَّيْتُونُ وَالنَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ينبت فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: هو، ولكم متعلقان بينبت، وبه متعلقان بينبت أيضاً، والباء للسببية، والزرع مفعول به، والزيتون والنخيل والأعنان عطف على الزرع، ومن كل الثمرات عطف على ما تقدم أيضاً، ومن تبعيضية، أي: وبعض كل الثمرات ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ إن حرف مشبه بالفعل، وفي ذلك خبرها المقدم، واللام المرحقة، وآية اسم إن المؤخر، ولقوم صفة لآية، وجملة

يتفكرون صلة لقوم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وسخر لكم الليل فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ولكم متعلقان بسخر، والشمس والقمر معطوفان على الليل والنهار ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ الواو عاطفة، والنجوم مبتدأ، ومسخرات خبر، والجملة عطف على الجملة السابقة، وبأمره متعلقان بمسخرات ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تقدم إعراب نظيرتها ﴿وَمَا ذَرَأَّا لَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ﴾ الواو عاطفة، وما عطف على الليل والنهار، ويعني: ما خلق فيها من حيوان ونبات وجماد، ويجوز أن تنصبه بفعل محذوف، أي: وخلق وأنبت، والمعنى واحد، ولكم متعلقان بذراً، وفي الأرض متعلقان بذراً أيضاً، ومختلفاً حال، وألوانه فاعل مختلفاً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ تقدم إعرابها. ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ الواو عاطفة، وهو مبتدأ، والذي خبر، وجملة سخر صلة، والبحر مفعول به، ولتأكلوا: اللام للتعليل، وتأكلوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بسخر، ومنه متعلقان بتأكلوا، ولحماً مفعول به، وطرياً صفة ﴿وَنَسَخَّرِجُوا مِنْهُ حَلِيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وتستخرجوا وحلية مفعول به، وطرياً صفة لحية ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَازِجَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولعلكم تشكروا الواو اعتراضية، وترى الفلك فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة معترضة، ومواخر حال؛ لأن الرؤية بصرية، وفيه متعلقان بمواخر، ولتبتغوا عطف على لتأكلوا، ولعل واسمها، وجملة تشكرون خبرها ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ﴾ وألقى عطف على وسخر، وفي الأرض متعلقان بألقى، وروسي صفة لمفعول به محذوف، أي: جبلاً رواسي، وأن وما في حيزها مفعول لأجله، أي: كراهة أن تميل بكم وتضطرب كالمائد الذي يدار به إذا ركب البحر، وبكم متعلقان بتميد ﴿وَأَنْهَرَا وَسَلْبًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وأنهاراً وسلباً عطف على رواسي، أو مفعول به لفعل محذوف، والتقدير: وجعل فيها؛ لأن ألقى فيه معنى جعل،

قال تعالى: ﴿الَّذِي يَخْلُقُ الْأَرْضَ مِهْدًا ۚ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ولعل واسمها، جملة تهتدون خبرها ﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَالْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وعلامات عطف على أنهاراً وسبلاً، وبالنجم متعلقان بيهتدون، وهم مبتدأ، وجملة يهتدون خبره، وقال ابن عطية: وعلامات نصب كالمصدر، أي: فعل هذه الأشياء لعلكم تعتبرون بها، وعلامات، أي: عبرة وأعلاماً في كل سلوك، فقد يهتدى بالجبال والأنهر وبالسبل، وهذا الكلام غير مفهوم، ولعل أبا البقاء كان على حق حين أعربها مفعولاً لفعل محذوف، أي: ووضع فيها علامات ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء عاطفة على محذوف، ومن مبتدأ، وجملة يخلق صلة، والكاف خبر من، وجملة لا يخلق صلة لمن الثانية، والهمزة إنكار ثان، والفاء عاطفة، ولا نافية، وتذكرون أصله تتذكرون فحذفت إحدى التاءين.

□ البلاغة:

(١) التتميم:

في قوله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ تتميم احتياط، وقد تقدم أن التتميم فن يشتمل على كلمة لو طرحت من الكلام نقص معناه، كما تقدم أنه ثلاثة أنواع: تتميم نقص، وتتميم احتياط، وتتميم مبالغة، وتقدمت الأمثلة عليه. ونقول هنا: إنه علم سبحانه أنه إذا لم يصف اللحم بالطراوة لم يكن مظنة للفساد، ولكن المعروف أن الفساد إلى اللحم الطري أكثر من غيره، فلزم وصفه بها ليسارع إلى أكله خيفة الفساد عليه، وللفقهاء مباحث في لحم السمك تدل على ذكاء والمعية، وسنشير إليها في باب: الفوائد إشارة سريعة، ولهذا التتميم فائدة عامة وهي: التعليم، والإرشاد إلى أن اللحم لا ينبغي أن يتناول إلا طرياً، والأطباء يقولون: إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شيء يكون.

(٢) الالتفات:

في قوله تعالى: ﴿وَيَالْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ التفات من الخطاب إلى

الغبية، والفائدة منه أنه لما كانت الدلالة من النجم أنفع الدلالات، وأوضحها في البر والبحر، نبه على عظمها بالالتفات إلى مقام الغبية لإفهام العموم، ولئلا يظن أن المخاطب مخصوص بذلك، وزاد التأكيد بتقديم الجار والمجرور، كأنما يشير من طرف خفي إلى أن دلالة غير النجم ضئيلة لا يؤبه لها.

(٣) التشبيه المقلوب:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ إذ مقتضى الظاهر عكسه؛ لأن الخطاب لعباد الأوثان حيث سموها آلهة تشبيهاً به تعالى، فجعلوا غير الخالق كالخالق، فجاءت المخالفة في الخطاب كأنهم لمبالغتهم في عبادتها ولإسفافهم - بالتالي - وارتكاس عقولهم، صارت عندهم كالأصل، وصار الخالق الحقيقي هو الفرع، فجاء الإنكار على وفق ذلك. وللتشبيه المقلوب أسرار كثيرة، ومنها هذا السر الذي ألمعنا إليه، ومنها أن ينسى الإنسان أن المشبه به هو المقدم؛ لشدة ولعه بالمشبه، فيعكس التشبيه، كما فعل البحري في وصف البركة التي بناها المتوكل على الله إذ قال:

كَأَنَّهَا حِينَ لَجَّتْ فِي تَدَفُّقِهَا يَدُ الْخَلِيفَةِ لَمَّا سَالَ وَادِيهَا

والمعهود أن تشبه يد الخليفة في تدفقها بالكرم بالبركة إذا تدفقت بالماء.

هذا؛ وقد جرى الشعراء على مذهب القلب كثيراً، فمنهم من أصاب كما أصاب أبو عبادة البحري، ومنهم من أخطأ وتعسف، وزعم أبو بكر الصولي أن أبا تمام قد أخطأ في قلبه بقوله:

طَلَّلَ الْجَمِيعَ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيداً وَكَفَى عَلَى رُزْنِي بِذَاكَ شَهِيداً

قال أبو بكر: أراد: وكفى بأنه مضى حميداً شاهداً على أبي رزئت، وكان وجه الكلام أن يقول: وكفى برزني شاهداً على أنه مضى حميداً؛ لأن حمد أمر الطلل قد مضى، وليس بشاهد، ولا بمعلوم، ورزؤه بما ظهر من تفجعه شاهد معلوم، فلأن يكون الحاضر شاهداً على الغالب أولى من أن يكون

الغائب شاهداً على الحاضر . ومضى الصولي في نقده منكرأ أن يكون القلب قد ورد في القرآن ، وأن ما احتج به أصحاب أبي تمام من قلب في القرآن على ما جاء في بيته من قلب ليس صحيحاً رغم قول المفسرين ، وأنه لهذا لا يصح القياس عليه ، فلا يصح القلب في بيت أبي تمام .

وهذا تعسف وتحامل من الصولي ، حدا به إلى إنكار ما انعقد الإجماع ، ودل المنطق عليه ، وسنعود إلى مناقشته في مكان آخر من هذا الكتاب .

(٤) التغليب :

في قوله تعالى أيضاً : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ إذ المراد بمن لا يخلق الأصنام ، وجاء بمن الذي هو للعقلاء ذوي العلم ، وذلك لأنهم لما عبدوها وسموها آلهة أجروها مجرى أولي العلم ، فجيء بمن على اعتقادهم ، ووفق ما هو مركز في سلاتقهم ، وأيضاً للمشاكلة بينها وبين الخالق الحقيقي ، وهو المعبر عنه بقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ قال العز بن عبد السلام : هذه الآية مشكلة ؛ لأن قاعدة التشبيه تقتضي أن يقال أفمن لا يخلق كمن يخلق ، ولا يقال : إنهم كانوا يعظمون الأصنام أكثر من الله ، لأنهم لم يقولوا ذلك ، وإنما قالوا : نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، بخلاف قوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُتَّبِعِينَ كَالْمُتَّبِعِينَ ﴾ وقوله : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ فإنهم لما كانوا يقولون نحن نسود في الآخرة كما سدنا في الدنيا ، جاء الجواب على وفق معتقدتهم أنهم أعلى والمؤمنون أدنى . وأجاب شيخ الإسلام زكريا في «فتح الرحمن» : بأن الخطاب لعباد الأوثان ، وهم بالغوا في عبادتها ، حتى صارت عندهم أصلاً في العبادة والخالق فرعاً ، فجاء الإنكار على وفق ذلك ليفهموا المراد على معتقدتهم .

* الفوائد :

اللحم الطري ولحم السمك :

من طرائف الفقهاء أنهم يقولون : إذا حلف الرجل لا يأكل لحماً فأكل

سمكاً لم يحنث، فإذا اعترض عليهم معترض بأن الله تعالى سماه لحماً، قالوا: إن الأمر مبني على العادة وعادة الناس؛ إذا ذكر اللحم على إطلاقه لا يفهم منه السمك. قالوا: ألا ترى أنه لو حلف لا يركب دابة فركب كافراً لا يحنث، وإن سماه الله دابة في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وكذا لو خرب بيت العنكبوت لا يحنث بيمينه لا يخرب بيتاً، وكذلك الآية وشحم البطن ليسا بلحم لأنهما لا يستعملان استعمال اللحم، ولا يتخذ منهما ما يتخذ من اللحم، ولا يسميان لحماً عرفاً، إلى آخر هذه المباحث التي يرجع إليها في المطولات من كتب الفقه.

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ١٨ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ ١٩ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ٢٠ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ وَمَا يُشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ٢١ إِنَّهُمْ كَرِهُوا إِنْ يُدْعَى إِلَهُ الْإِنْسَانِ وَيُخْلَقُونَ ٢٢ لَا يَدْعُونَ إِلَّا الْإِنْسَانَ الْمُسَكَّرَ ٢٣﴾

○ الإعراب:

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ جملة مستأنفة، مسوقة للتذكير الإجمالي بأنعم الله وآلائه، وإن شرطية، وتعدوا فعل الشرط، والواو فاعل، ونعمة الله مفعول به، ولا نافية، وتحصوها جواب الشرط، والواو فاعل، والهاء مفعول به ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن واسمها، واللام المرحلة للتوكيد، وغفور خبر إن الأول، ورحيم خبرها الثاني ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ الله مبتدأ، وجملة يعلم خبر، وفاعل يعلم مستتر تقديره: هو، وما مفعول به، وجملة تسرون صلة، وما تعلنون عطف على ما تسرون ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ والذين مبتدأ، وجملة

يدعون صلة، ومن دون الله حال، وجملة لا يخلقون خبر الذين، وشيئاً مفعول به، والواو عاطفة، أو حالية، وهم مبتدأ، وجملة يخلقون خبر، وهو بالبناء للمجهول ﴿أَمُوتُ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: هم أموات، فهو خبر لمبتدأ محذوف، وهو أولى من جعله خبراً ثانياً للذين، وإن كان لا يمتنع، وغير أحياء صفة لأموات قصد به التأكيد، وما يشعرون عطف على أموات، فهو بمثابة الجزء الثاني لـ «هم» المقدرة، أو خبر ثالث للذين، وأيان ظرف ليعثون فهو متعلق به، واختلف في ضمير يبعثون، فقليل: هو للأصنام، والمعنى: وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء، وفي ذلك من التهكم ما فيه، وهذا أرجح ما قيل فيه، ولهذا اقتصرنا عليه، واجتزأنا به ﴿إِنَّهُمْ كَرِهُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَقْرَبَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ إلهكم مبتدأ، وإله خبر، وواحد صفة، والفاء الفصيحة، والذين مبتدأ، وجملة لا يؤمنون بالآخرة صلة، وقلوبهم مبتدأ، ومنكرة خبر لقلوبهم، والجملة الاسمية خبر الذين، وهم الواو حالية، وهم مبتدأ، ومستكبرون خبر، والجملة في محل نصب على الحال ﴿لَا جَرَمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ لا جرم تقدم القول فيه في سورة هود، ونضيف هنا أن لا نافية، وجرم بمعنى بد، وهذا بحسب الأصل، أما هنا فقد ركبت لا مع جرم تركيب خمسة عشر، وجعلاً بمعنى فعل معناه: حق وثبت، وأن وما في حيزها فاعله، وجملة يعلم خبر أن، وجملة يسرون صلة، وما يعلنون عطف على ما يسرون ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ إن واسمها، وجملة لا يحب خبرها، والمستكبرين مفعول يجب.

* الفوائد:

(أيان): اسم شرط للزمان، يجزم فعلين ملحقاً بما، أو غير ملحق بها، كقول الشاعر:

أَيَّانَ نَوْءُكَ تَأْمَنُ غَيْرِنَا وَإِذَا لَمْ تَدْرِكِ الْأَمْنَ مِنَّا لَمْ تَزَلْ حَذَرًا

وقول الآخر، وقد ألحقها ما الزائدة للتوكيد:

إذا النعجة الأدماء باتت بقفرة فأَيَّان ما تعدل به الريح تنزل

وتكون اسم استفهام عن الزمان مثل متى، وأصلها «أي أن» فهي مركبة من أي المتضمنة معنى الشرط وأن بمعنى حين، فصارتا بعد التركيب اسماً للشرط أو للاستفهام، مبنياً على الفتح، في محل نصب على الظرفية الزمانية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالَُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلِاسَاءَ مَا يَزُرُّوكَ ٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَدَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾

☆ اللفظة:

﴿أَسَاطِيرُ﴾: جمع أسطورة، كأحاديث، وأصاحيك، وأعاجيب، جمع أحدىثة، وأضحوكة، وأعجوبة. وفي القاموس والتاج: الإسطار والأسطار والأسطورة والأسطير، وأيضاً كلها بالهاء: ما يكتب، والجمع أساطير، والحديث الذي لا أصل له.

﴿أَوْزَارَهُمْ﴾: جمع وزر، وهو الذنب.

○ الإعراب:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إذا ظرف لما يستقبل من الزمن، وجملة قيل لهم مضاف إليها الظرف، وجملة ماذا أنزل ربكم نائب فاعل لقليل، والكلام مستأنف، مسوق للشروع في ذكر نماذج من مثالب المشركين، وماذا: تقدم أنه يجوز فيها وجهان، إما أن تكون كلها اسم استفهام في محل نصب مفعول مقدم لأنزل، وإما أن تكون ما وحدها اسم استفهام، وإذا اسم موصول في محل رفع خبر، وأنزل ربكم فعل وفاعل، وجملة قالوا لا محل لها، وأساطير الأولين خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي أساطير الأولين، أو المنزل أساطير الأولين، وفي تقديره المنزل بلاغة زائدة؛ لأنه يكون تهكمًا، أي: على فرض أنه منزل فهو أساطير لا طائل تحتها ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ اللام للتعليل، ويحملوا مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والواو فاعل، وأوزارهم مفعول به، وكاملة حال، ويوم القيامة ظرف متعلق بيحملوا، ولك أن تجعل اللام للعاقبة، وعلى كل حال هي متعلقة بقوله: قالوا أساطير الأولين، وإما أن يكون المعنى أنهم جنوا على أنفسهم بأيديهم، وقالوا ما يسبب لهم حمل الأوزار، أو أنهم فعلوا ذلك جاهلين غافلين، فكانت عاقبتهم بذلك أن يحملوا أوزارهم، يعني: ذنوب أنفسهم التي اجترحوها، وسيأتي سر قوله «كاملة» في باب: البلاغة ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَسَاءَ مَا يَرْزُقُونَ﴾ ومن أوزار عطف على أوزارهم، فالجار والمجرور متعلقان بيحملوا، ومن للتبعيض، أي: وبعض أوزار من يضل بضلالهم، وهذا ما ذهب إليه طائفة من المفسرين على رأسهم الزمخشري والبيضاوي والجلال، وقال الواحدي: ولفظ من في قوله «ومن أوزار الذين يضلونهم» ليست للتبعيض؛ لأنها لو كانت للتبعيض لنقص عن الاتباع بعض الأوزار، وذلك غير جائز؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» لكنها للجنس، أي: ليحملوا من جنس أوزار الكفار. وهو كلام جميل أيضاً، وجملة يضلونهم صلة الذين، وبغير علم

حال من المفعول به، أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضلال، ويجوز أن تكون من الفاعل المسند إليه الإضلال، والمعنى: أنهم يقدمون على الإضلال جهلاً منهم بما يترتب عليهم من العذاب الشديد. وألا أداة تنبيه، وساء فعل ماض لإنشاء الذم، وما تمييز، أي: شيئاً، أو فاعل ساء، وجملة يزرون صفة لما على الأول، أو صلة لها على الثاني، وعلى كل حال المخصوص بالذم محذوف تقديره: وزرهم ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَنُهُمْ مِنَ الْقَوَائِدِ﴾ جملة مستأنفة، مسوقة لتسلية النبي ﷺ عما كابده من تعنتهم ومكرهم، وقد حرف تحقيق، ومكر الذين فعل وفاعل، ومن قبلهم صلة الذين، فأتى الله بنيانهم عطف على ما تقدم، وهو فعل وفاعل ومفعول به، ومن القواعد حال، أو جار ومجرور متعلقان بأتى ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الفاء عاطفة، وخر فعل ماض، وعليهم جار ومجرور متعلقان بخر، والسقف فاعل، ومن فوقهم حال، وأتاهم العذاب فعل ماض، ومفعول به مقدم، وفاعل مؤخر، ومن حيث متعلقان بأتاهم، وجملة لا يشعرون مضافة إلى الظرف ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ ثم حرف عطف، ويوم ظرف متعلق بيخزيهم، والقيامة مضاف إليه، ويخزيهم فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به ﴿وَيَقُولُ آيَنَ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾ أين اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية، متعلق بمحذوف خبر مقدم، وشركائي مبتدأ مؤخر، والذين صفة لشركائي، وجملة كنتم صلة، وجملة تشاقون خبر كنتم، وفيهم متعلقان بتشاقون ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قال الذين فعل وفاعل، وجملة أوتوا صلة، والواو نائب فاعل، والعلم مفعول به ثان، وإن واسمها، واليوم ظرف متعلق بالخزي؛ لأنه مصدر يعمل عمل الفعل، والسوء عطف على الخزي، وعلى الكافرين خبر إن ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الذين نعت للكافرين، أو بدل منه، وجملة تتوفاهم الملائكة صلة، والجملة فعل ومفعول به وفاعل، وظالمي أنفسهم حال من مفعول تتوفاهم، وأنفسهم مضاف إليه، وتتوفاهم مضارع بمعنى

الماضي ﴿فَالْقَوُّ أَسْلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ يجوز أن تكون الفاء عاطفة، وألقوا معطوف على توفاهم؛ لأنه بمعنى توفتهم، ويجوز أن يكون ألقوا معطوفاً على قال الذين أوتوا العلم، ويجوز أن تكون للاستئناف، وألقوا فعل وفاعل، والسلم مفعول به، والسلم: المسألة والإخبات، وجملة ما كنا مقول القول محذوف، أي: قائلين، وما نافية، وكنا: كان واسمها، وجملة نعمل خبر كنا، ومن زائدة وسوء مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به ﴿كَلَّا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بلى حرف جواب، وإن واسمها وخبرها، وبما متعلقان بعليم، وجملة كنتم تعملون صلة ما، وجملة تعملون خبر كنتم ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليس مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الفاء الفصيحة، وادخلوا فعل أمر وفاعل، وأبواب مفعول به على السعة، وجهنم مضاف إليه، وخالدين حال من فاعل ادخلوا، وفيها متعلقان بخالدين، والفاء استئنافية، واللام للابتداء، وبس فعل ماض لإنشاء الذم، ومثوى المتكبرين فاعل، والمخصوص بالذم محذوف، أي: هي.

□ البلاغة:

(١) في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ استعارة تمثيلية، فقد شبه حال جميع الماكرين المبطلين المدبرين للمكايد والمؤامرات، والذين يحاولون إيقاع الضرر والمكر بالمؤمنين، ونصب الشباك لهم، بحال قوم بنوا بنياناً شائخاً، ودعموه بأساطين البناء وقواعده، فطاح البنيان من الأساطين نفسها، بأن وهنت، ولم تقو على إمساك ما أقيم عليها، فتهدم السقف، وهوى عليها.

هذا؛ وقد ذكر علماء البلاغة أن للتمثيل مظهرين: أحدهما: أن يظهر المعنى ابتداء في صورة التمثيل. وثانيهما: ما يجيء في أعقاب المعاني لإيضاحها وتقريرها في النفوس، وهو على الحالين يكسو المعاني أبهة، ويرفع من أقدارها، ويضعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعوة القلوب إليها. تأمل قول أبي الطيب:

ومن يَكُ ذا فمٍ مَرٍّ مريضٍ يجدُ مُرّاً به الماءَ الزلالا
لو كان عبر عن المعنى بقوله مثلاً : إن الجاهل لمفاسد الطبع يتصور المعنى
بغير صورته ، ويخيل إليه في الصواب أنه خطأ ، فهل كنت تجد هذه الروعة؟
وهل كان يبلغ من التهجين للجاهل ، والكشف عن نقصه ، ما بلغ التمثيل في
البيت؟ ومهما بالغت في تصوير المؤامرات المبجلة يدبرها المبطلون ، ويحكونها
من خلف ستار ، حتى إذا خيل لهم أنها قد أحكمت ، واستطاعت أن توقع
الخصوم في شراكها ؛ إذا بها تحبط فجأة ، فهل يبلغ ذلك من نفسك مبلغ
مشهد البناء ، وقد تطاول ، وتسامق ، وتشامخ ، وأحكمه بانيه إحكاماً خيل
إليه معه أنه ضمن له الخلود ، فما عثم أن تزلزت منه أواخيه وصياصيه ، وانهار
بمن وعلى من فيه . وفيما يلي طائفة من أبيات التمثيل لتقيس عليها :

قال ابن لنكك يهجو قوماً حسنت مناظرهم ، وقبحت مخابرهم :
في شَجَرِ السَّروِ منهم مثل له رواء وماله ثَمَر
وقال ابن الرومي في المعنى نفسه :

فغدا كالخلافِ يورقُ للعيب من ويأبى الإثمَارَ كلَّ الإباء
وتأمل كذلك قول أبي تمام :

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فضيلةٍ طويْتُ أتاحَ لها لسانَ حَسودٍ
مقطوعاً عن البيت الذي يليه ، برغم أن البيت واضح المعنى ، ثم أتبعه
بالبيت التالي :

لولا اشتعالُ النَّارِ فيما جاورثُ ما كان يُعرَفُ طيبُ عرفِ العُودِ
وانظر هل ينشر المعنى تمام حلته ، وأظهر المكنون من حلите وزينته ،
واستحق التقديم كله إلا بالبيت الأخير ، وما فيه من التمثيل والتصوير .
وسياقي من روائع التمثيل في كتابنا ما يذهل الألباب .

عودة إلى الآية :

والآية التي نحن بصدددها من أرقى ما يصل إليه التمثيل ، وهي خالدة ،

لا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة، فالبناء كان ولا يزال يمثل القوة، والجدة، والثراء، وتداعيه وتطوحيه يمثل، قديماً وحديثاً، زوال ذلك كله وفناءه؛ ذلك لأن الاستعارة التمثيلية أساسها التشبيه، فلا عجب أن تختلف فيها الأذواق باختلاف الأزمنة، كما اختلفت في تقدير التشبيه، وهما نحن أولاء اليوم لا نستطيع كثيراً من الاستعارات التي أوحى بها البيئة الماضية، والتي تبقى رواسب جامدة، يبهنا لفظها أكثر مما يوضحه في نفوسنا معناها. أما الاستعارة التي تتجاوز ظروف الزمان والمكان، وتضمن لها الجدة الباقية بقاء الدهر، فهي الاستعارة التي تحقق غرض القائل، وتكون فيها الصورة المشبهة بها واضحة معروفة، تصور ما تريد أن تصوره بوضوح، وتأثير، وإيجاز، وتضاف إليها روافد كهذه الآية عندما قال: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فقد أكد التمثيل بقوله: «من فوقهم» لأن السقف لا يخر إلا من فوق؛ لأنه أشعر بخروره فوقهم أنهم تحته، فأزال احتمال أن يكونوا غير موجودين تحته، وأكد إبطال مؤامراتهم بموتهم متأثرين بما نصبوه للآخرين، على حد قول المثل: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

(٢) الاحتراس:

في قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فإن لقائل أن يقول: السقف لا يكون إلا من فوق، فما معنى ذكر من فوقهم، والجواب: أنه احتراس من احتمال أن السقف قد يكون أرضاً بالنسبة لغيرهم، فإن كثيراً من السقوف يكون أرضاً لقوم، وسقفاً لقوم آخرين، فرفع الله تعالى هذا الاحتمال بجملتين، وهما قوله: «عليهم» وقوله: «خر» لأنها لا تستعمل إلا فيما يهبط أو يسقط من العلو إلى السفلى.

هذا؛ وقد ساق بعض النقاد بيتاً في شواهد العيوب، وهو:

زياد بن عين عَيْنُهُ تحت حاجبه وبيضُ الثنايا تحت خضرة شاربه

فقال: وجه العيب فيه كون العين لا تكون إلا تحت الحاجب، والثنايا تحت الشارب. وقيل في الرد على هذا العائب: إن الشاعر أراد أن هذا

الممدوح خلق في أحسن تقويم، وولد كذلك، ولم يولد مشوه الخلق، ولا معيب الصورة، ولم يطرأ عليه وهو جنين ما ينقص خلقه، أو يشوهه.

وقال ابن الأعرابي: وإنما قال: من فوقهم ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته، والعرب تقول: خر علينا سقف، ووقع علينا حائط إذا كان يملكه، وإن لم يكن وقع عليه، فجاء بقوله: من فوقهم؛ ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب. وهو كلام لا بأس به.

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ٢٠ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ٢١ الَّذِينَ تَوْفَقْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ٢٢ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ٢٣ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ٢٤

○ الإعراب:

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ ﴾ وقيل للذين: قيل فعل ماض مبني للمجهول، واختلف في ضميره، وأقرب الأقوال أنهم وفود العرب الذين كانت تبعثهم القبائل إلى مكة، وللذين متعلقان بـقيل، وجملة اتقوا صلة، وماذا تقدم القول فيها كثيراً، وأنزل ربكم فعل وفاعل، وخيراً مفعول لفعل محذوف، أي: أنزل خيراً، وعبرة الزمخشري: فإن قلت لم رفع الأول ونصب هذا؟ قلت: فرقا بين جواب المقر وجواب الجاحد، يعني: أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعمثوا، وأطبقوا الجواب على السؤال بيناً مكشوفاً مفعولاً للإنزال، فقالوا: خيراً، أي: أنزل خيراً، وأولئك عدلوا بالجواب عن

السؤال، فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ﴾ للذين خبر مقدم، وجملة أحسنوا صلة، وفي هذه متعلقان بأحسنوا، والدنيا بدل، وحسنة مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، ويجوز أن تكون مفسرة لقوله «خيراً» ولدار الآخرة اللام للابتداء، ودار الآخرة مبتدأ، وخير خبر، ولنعم دار المتقين: اللام للابتداء أيضاً، ونعم فعل ماض لإنشاء المدح، ودار المتقين فاعل، والمخصوص بالمدح محذوف، أي: هي ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾ جنات خبر لمبتدأ محذوف، ويجوز أن تكون هي المخصوص بالمدح، فتعرب مبتدأ خبره جملة نعم دار المتقين، أو خبراً لمبتدأ محذوف، والأول أرجح، وأقل تكلفاً، وجملة يدخلونها حالية ﴿يَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ جملة تجري من تحتهم الأنهار حال أيضاً، ولهم خبر مقدم، وفيها حال، وما مبتدأ مؤخر، وجملة يشاءون صلة، وجملة لهم فيها حال ثالثة ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ الكاف نعت لمصدر محذوف، ويجوز أن تعرب حالاً، وقد تقدم تقرير ذلك كثيراً، ويجزي الله المتقين فعل وفاعل ومفعول به ﴿الَّذِينَ تَوْفَّعْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ الذين نعت للمتقين، أو بدل منه، وجملة تتوفاهم صلة، والهاء مفعول به، والملائكة فاعل، وطييبين حال من المفعول في تتوفاهم، أي: طاهرين من الشوائب ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جملة يقولون حال من الملائكة مقارنة، أو مقدرة، وسيأتي تعريفهما في باب: الفوائد، وسلام مبتدأ، وعليكم خبر، وادخلوا الجنة فعل أمر وفاعل ومفعول به، وبما متعلقان بادخلوا، وجملة كنتم صلة، وجملة تعملون خبر كنتم، ويجوز أن تكون ما مصدرية، والإعراب واحد ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ هل حرف استفهام، ومعناه النفي، وينظرون فعل مضارع وفاعل، وإلا أداة حصر، وأن وما في حيزها مصدر مؤول مفعول ينظرون، وأو حرف عطف، ويأتي أمر ربك عطف على تأنيهم الملائكة، أي: العذاب ﴿كَذَلِكَ فَعَلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ تقدم إعراب كذلك قريباً، فجدد به عهداً، وفعل الذين فعل وفاعل، ومن قبلهم صلة الموصول

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ الواو عاطفة، وما نافية، وظلمهم الله فعل ومفعول به وفاعل، والواو حالية، أو اعتراضية، ولكن مخففة مهملة، وكان واسمها، وجملة يظلمون خبرها، وأنفسهم مفعول مقدم لقوله يظلمون ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ الفاء عاطفة، وأصابهم فعل ومفعول به مقدم، وسَيِّئَاتُ فاعل، وما موصولة، أو مصدرية، وهي على كل مضافة لسَيِّئَاتِ ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الواو عاطفة، وبهم متعلقان بحاق، وما فاعل، وجملة كانوا صلة، وبه متعلقان يستهزئون، وجملة يستهزئون خبر كانوا.

※ الفوائد:

الحال بالنسبة للزمان:

للحال بالنسبة للزمان ثلاثة أقسام:

(١) مقارنة وهي الغالبة نحو: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾

(٢) مقدرة وهي المستقبلية نحو: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾

(٣) ومحكية وهي الماضية نحو: جاء زيد أمس راكباً.

وفي الآية التي نحن بصددتها وهي: ﴿يَقُولُونَ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يجوز أن تكون مقارنة إن كان القول واقعاً منهم في الدنيا، وأن تكون مقدرة إن كان القول واقعاً منهم في الآخرة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ

فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾

○ الإعراب:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا ﴾
الواو استئنافية، والجملة مستأنفة لتقرير مغالطتهم، وقولهم كلمة حق أريد بها باطل، واحتجاجهم على الله تعالى بمشيئته التي لا حجة لهم فيها مع ما خلق لها من اختيار النجدين وسلوك أحد الطريقين. وقال الذين: فعل وفاعل، وجملة أشركوا صلة، ولو امتناعية شرطية، وشاء الله فعل وفاعل، والمفعول محذوف أي: لو شاء خلاف طريقتنا، وما يصدر عنا، وسيأتي مزيد بحث عن حذف المفعول به في باب البلاغة، وما نافية، وعبدنا فعل وفاعل، ومن دونه حال، ومن زائدة، وشيء مجرور لفظاً مفعول عبدنا محلاً، ونحن تأكيد لفاعل عبدنا، والمعنى: ما عبدنا شيئاً حال كونه دونه، ولا الواو عاطفة، ولا نافية، وآباؤنا عطف على نحن ﴿ وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾
الواو عاطفة، وحرمنا فعل وفاعل، ومن دونه حال من شيء، ومن حرف جر زائد، وشيء مجرور لفظاً مفعول به منصوب محلاً ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ كذلك نعت لمصدر محذوف مفعول مطلق، وفعل الذين فعل وفاعل ومن قبلهم صلة ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُسِينُ ﴾ الفاء عاطفة، وهل حرف استفهام معناه النفي، وعلى الرسل خبر مقدم، وإلا أداة حصر، والبلاغ مبتدأ مؤخر، والمبين صفته ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾ الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، وقد حرف تحقيق، وبعثنا فعل وفاعل، وفي كل أمة متعلقان ببعثنا، ورسولاً مفعول به ﴿ أَرَأَيْتُمْ أَكْبَدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أن: يجوز أن تكون مصدرية، وهي مع مدخولها نصب بنزع الخافض، والجار والمجرور متعلقان ببعثنا، ويجوز أن تكون مفسرة؛ لأن البعث فيه معنى القول، واعبدوا فعل أمر وفاعل، ولفظ الجلالة مفعول به، واجتنبوا الطاغوت فعل أمر وفاعل ومفعول به.

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ الفاء تفرعية

استثنائية، ومنهم خبر مقدم، ومن مبتدأ مؤخر، وهي نكرة موصوفة، وجملة هدى الله صفة لمن، ومنهم من حقت عليه الضلالة عطف على سابقتها، وهي مثلها في الإعراب ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ الفاء الفصيحة، أي: إن أردتم الاهتداء والاستدلال على الطريق المثل فسيروا، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بسيروا، فانظروا: الفاء عاطفة، وانظروا فعل أمر وفاعل، وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم، وعاقبة المكذبين اسمها المؤخر.

□ البلاغة:

إيجاز الحذف:

الحذف للإيجاز، فقد حذف مفعول شاء في قوله: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ﴾ أي: لو شاء هدايتنا، ولحذف المفعول به لطائف هي أكثر من أن تذكر، ذلك أن أغراض الناس تختلف في ذكر الأفعال المتعدية، فتارة يذكرونها ويريدون أن يقتصر على إثبات المعاني التي اشتقت منها للفاعلين، من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين، وعندئذ يكون الفعل المتعدي كغير المتعدي، ومثال ذلك قول الناس: فلان يحلّ ويعقد، ويأمر وينهى، ويضر وينفع. والقسم الثاني أن يكون للفعل مفعول مقصود؛ إلا أنه يحذف من اللفظ لدليل يدل عليه، وقد يكون ذلك جلياً لا صنعة فيه كقولهم: «أصغيت إليه» أي: بأذني، والخفي منه ما تدخله الصنعة، فمن الخفي أن تذكر الفعل وفي نفسك له مفعول مخصوص، إلا أنك تنساه وتخفيه عن نفسك، وتوهم أنك إنما تذكر الفعل لتثبت نفس معناه من غير أن تعديه إلى مفعول، كقول البحري:

شَجَوُ حُسَّادِهِ وَغَيَظُ عِدَائِهِ أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعٍ

المعنى: أن يرى مبصر محاسنه، ويسمع واع أخباره، ومن الخفي أيضاً أن يكون معك مفعول معلوم مقصود قد علم أنه ليس للفعل الذي ذكرت مفعول سواء بدليل الحال، أو ما سبق من الكلام، إلا أنك تطرحه وتنساه؛ لكي تتوفر العناية على إثبات الفعل للفاعل، وتخلص له، وتنصرف بجملتها إليه.

قال طفيل الغنوي في بني جعفر بن كلاب :

جَزَى الله عَنَّا جَعْفراً حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلّت
أبوا أن يملّونا ولو أن أمّنا تلاقي الذي يلقون منا لمَلّت
هم خلطونا بالنفوس وألجؤوا إلى حجراتٍ أدفأت وأظَلّت

حذف المفعول في أربعة مواضع هي «ملت» و«ألجئوا» و«أدفأت» و«أظلت» لأن الأصل لملتنا وألجئونا إلى حجرات أدفأتنا وأظلتنا. وقول الشاعر: ولو أن أمنا تلاقي الذي لاقوه منا لمَلّت. يتضمن أن ما لاقوه منا قد بلغ من القوة إلى أن يجعل كل أم تملّ وتسأم، وأن المشقة بلغت من ذلك حداً يجعل الأم له تمل الابن، وتبهرم به، مع ما في طباع الأمهات من الصبر على المكاره في مصالح الأولاد، وذلك أنه وإن قال «أمنا» فإن المعنى على أن ذلك حكم كل أم مع أولادها، ولو قال؛ لملتنا لم يصلح؛ لأنه يراد به معنى العموم، وأنه بحيث تملّ كل أم من كل ابن، ومن ذلك حذف المفعول بعد فعل المشيئة، كقوله:

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم كرماً ولم تهدم مائراً خالد

والأصل: لو شئت أن تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالة في الثاني عليه، ثم هو على ما تراه من الحسن والغرابة؛ لأن الواجب في حكم البلاغة أن لا ينطق بالمحذوف، فليس يخفى أنك لو رجعت إلى الأصل لصرت إلى كلام غث، وإلى شيء يمجّه السمع، وتعافه النفس.

ويعلل عبد القاهر الجرجاني لجمال حذف المفعول بعد فعل المشيئة بأن في البيان بعد الإبهام، وبعد تحريك النفس إلى معرفته، لطفاً ونبلاً، لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك، فأنت إذا قلت: لو شئت علم السامع أنك قد عقلت هذه المشيئة في المعنى بشيء، فهو يضع في نفسه أن ها هنا شيئاً تقتضيه المشيئة، فإذا قلت: لم تفسد سماحة حاتم؛ عرف ذلك الشيء.

﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ٣٧ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٣٨ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ ٣٩ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٤٠ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنْتَوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ٤١ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ٤٢ ﴿

○ الإعراب:

﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ إن شرطية، وتحرص فعل الشرط، وعلى هداهم متعلقان بتحرص، أي: ترغب فيه، فإن الفاء رابطة لجواب الشرط، وإن واسمها، وجملة لا يهدي خبرها، ومن اسم موصول مفعول به، وجملة يضل صلة، وقيل جواب الشرط محذوف، وجملة فإن الله لا يهدي تعليل للجواب، والتقدير: لا تقدر أنت ولا يقدر أحد على هدايتهم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ الواو عاطفة، وما نافية حجازية، ولهم خبر ما مقدم، ومن حرف جر زائد، وناصرين اسم ما محلاً، أو مبتدأ مؤخر، ومجرور لفظاً ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وأقسموا: فعل وفاعل، وبالله جار ومجرور متعلقان بأقسموا، وجهد أيمانهم نصب على المصدرية، وقيل مصدر في موضع الحال، أي: جاهدين، والجملة عطف على وقال الذين أشركوا، أو استئنافية إخبارية ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ لا نافية، ويبعث الله من يموت فعل وفاعل ومفعول، والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم، وسمي الحلف قسماً؛ لأنه يكون عند انقسام الناس إلى مصدق ومكذب، وبلى حرف جواب، أي: بلى يبعثهم لأنه إثبات لما بعد النفي، ووعداً عليه حقاً مصدران مؤكدان لما دل عليه بلى، وقيل حقاً صفة

لوعداً، وكذا عليه، وعليه متعلقان بحقاً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الجملة حالية، ولكن واسمها، وجملة لا يعلمون خبرها ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ اللام للتعليل، ويبين فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بما دل عليه بلى، أي: بيعثهم ليبين، ولهم متعلقان بيبين، والذي مفعول به، وجملة يختلفون صلة، وفيه متعلقان بيختلفون ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ وليعلم عطف على ليبين، والذين فاعل، وجملة كفروا صلة، وأن وما في حيزها سد مسد مفعولي يعلم، وأن واسمها، وجملة كانوا خبرها، وكاذبين خبر كانوا ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إنما كافة ومكفوفة، وقولنا مبتدأ، ولشيء جار ومجرور متعلقان بقولنا، وإذا ظرف متعلق بقولنا، وجملة أردناه مضافة للظرف، وأن ومدخولها مصدر مؤول خبر قولنا، وله متعلقان بنقول، وكن فعل أمر من كان التامة، وجملة كن مقول القول، فيكون: الفاء عاطفة، ويكون معطوف على مقدر تفصح منه الفاء، وينسحب عليه الكلام، أي: فنقول له ذلك فيكون، وأما جواب لشرط محذوف فتكون فصيحة، أي: فإذا قلنا ذلك فهو يكون، وسيأتي مزيد بحث عن هذا القول والمقول والأمر والمأمور في باب البلاغة، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير القدرة على البعث، أو كيفية التكوين على الإطلاق إبداء وإعادة ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ والذين مبتدأ، وجملة هاجروا صلة، أي: انتقلوا من مكة إلى المدينة، ومنهم من هاجر إلى الحبشة، فجمع بين الهجرتين، وفي الله متعلقان بهاجروا، وفي للتعليل، أي: لإقامة دين الله، ومن بعد حال، وما مصدرية مؤولة مع مدخولها بمصدر مضاف إلى بعد، أي: من بعد ظلمهم بالأذى من أهل مكة ﴿لِنُبَيِّنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ اللام موطئة للقسم، وجملة نبئتهم خبر الذين، وفي الدنيا حال، وحسنة صفة لمصدر محذوف، أي: تبوئة حسنة، فهي نائب مفعول مطلق، ولك أن تعربها مفعولاً ثانياً لنبئتهم لتضمن معناه نعطيهم، فتكون صفة لمحذوف، أي: داراً حسنة ﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الواو حالية، واللام للابتداء، وأجر الآخرة مبتدأ، وأكبر خبر، ولو

شرطية، وكان واسمها وخبرها ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الذين خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم الذين صبروا فمحلها الرفع، أو منصوب على المدح، أي: أعني الذين صبروا فمحلها النصب، وجملة صبروا صلة، وعلى ربهم جار ومجرور متعلقان بيتوكلون، ويتوكلون فعل مضارع وفاعل.

□ البلاغة:

(١) إنما:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ عقد الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه: «دلائل الإعجاز» فصلاً ممتعاً عن إنما ننقل خلاصته، فقد وقف يستلهم معاني «إنما» ويرى أن الوقوف فيها عند قول النحاة: أنه ليس في انضمام «ما» إلى «إن» فائدة أكثر من أنها تبطل عملها خطأ بين، وأصل إنما أن تحيء خبر لا يجهله المخاطب، ولا ينكر صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة، فمن الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ فكل عاقل يعلم أنه لا تكون استجابة إلا ممن يعقل ما يقال له، ويدعى إليه، ومثال ما ينزل هذه المنزلة قول ابن الرقيات:

إِنَّمَا مَصْعَبٌ شَهَابٌ مِنْ اللَّهِ تَجَلَّيْتُ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ

وتفيد إنما في الكلام الذي بعدها إيجاب الفعل بشيء، ونفيه عن غيره، وتجعل الأمر ظاهراً، فإذا قلت: إنما جاءني زيد، عقل منه أنك أردت أن يكون الجائي غيره، فمعنى الكلام معها شبيه بالمعنى في قولك: جاءني زيد لا عمرو، إلا أن لها مزية، وهي: أنك تعقل معها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره دفعة واحدة، وتجعل الأمر ظاهراً في أن الجائي زيد.

(٢) الاستعارة التمثيلية: في قوله «كن فيكون» فهي استعارة للكينونة، تمثل سرعة الإيجاد عند تعلق الإرادة، وليس هناك أمر حقيقة ولا كاف ولا نون، وإلا لو كان هناك أمر لتوجه أن يقال إن كان الخطاب للشيء حال عدمه، فلا يعقل؛ لأن خطاب المعدوم لا يعقل، وإن كان بعد وجوده ففيه

تحصيل الحاصل، وإنما القصد منه تصوير سرعة الحدوث بما لا يتجاوز أمدّه النطق بلفظ كن، وما أسهلها.

(٣) الإخبار عن الماضي بالمستقبل أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فالظاهر أن المعنى على الماضي والتعبير بالمضارع لاستحضار تلك الصورة البديعة، حتى كأن السامع يشاهدها، وقد تقدم بحثه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَهُمْ أَعْتَقُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٤٣ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْفَىٰ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ٤٥ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ٤٦ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ٤٧﴾

☆ اللغة:

﴿وَالزُّبُرُ﴾: الكتب، جمع: زبور، بمعنى مزبور.

﴿تَخَوُّفٍ﴾: تنقص، وهو قولك: تخوفته وتخونته؛ إذا تنقصته، قال زهير بن أبي سلمى - وقيل: هو لأبي كبير الهذلي -:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرْدًا كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

والمعنى: يأخذهم على أن ينتقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، وعن عمر بن الخطاب أنه سأل عن معنى التخويف في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ فيقوم له رجل من هذيل، ويقول: هذه لغتنا، التخوف: التنقص. قال عمر: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، وأنشد البيت الآنف، فقال عمر: عليكم بديوانكم لا يضل، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية؛ فإن فيه تفسير كتابكم.

الصحابة والغريب في القرآن:

بدأت مدرسة الرسول ﷺ تترسم خطاه في التفسير، وتحفظ ما نقل عنه، وترويه، وقد تتزايد فيه بشرح لفظ غريب، وعلى الرغم من هذا لا نعدم بعض الغريب في آيات الكتاب توقفوا عنده، من ذلك ما أخرجه أبو عبيدة في «الفضائل» عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى: ﴿وَفَكَهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟. ونقل عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿وَفَكَهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو الكلف يا عمر. وقد انقسم الصحابة في صدر الإسلام إلى قسمين: متخرج من القول في القرآن، ومن هؤلاء أبو بكر، وعمر، وعبد الله بن عمر، وكان عبد الله يأخذ على عبد الله بن عباس تفسيره القرآن بالشعر. والقسم الثاني الذين لم يتخرجوا، وفسروا القرآن حسب ما فهموا من الرسول، أو حسب فهمهم الخاص بالمقارنة إلى الشعر العربي وكلام العرب، ومن هؤلاء علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، ومن أخذ عنهما. وقد وقف ابن عباس على رأس المفسرين بالرأي، المتخذين شعر العرب وسيلة إلى كشف معاني القرآن، وكان علي بن أبي طالب يشي على عبد الله بن عباس ويقول: كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق. ومن هؤلاء أيضاً ابن مسعود، وأبي ابن كعب، وغيرهما، وتبعهم الحسن البصري، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وغيرهم. ويقول أحمد أمين في كتابه الممتع: ﴿فجر الإسلام﴾ ما خلاصته: إن هؤلاء المفسرين من الصحابة والتابعين كانوا ينهجون منهجاً يتلخص في الاسترشاد بحديث رسول الله، وبروح القرآن، وبالشعر العربي، والأدب الجاهلي بوجه عام، ثم عادات العرب في جاهليتها وصدر إسلامها، وما قابلهم من أحداث، وما لقي رسول الله من عدا، ومنازعات، وهجرة، وحروب.

لمحة عن ابن عباس ومدرسته :

وشقَّ ابن عباس طريقه بين هؤلاء جميعاً متزعمًا مدرسة خاصة تسلطت على التفسير، وطبعته بطابعها، وقد أورد السيوطي في «الإتقان» مسائل ابن الأزرقي المثة في القرآن، وجواب ابن عباس عليهما بالشعر، مفسراً غريب كل آية بيت. ويقول ابن عباس في تفسير القرآن بالشعر: إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربي، ويقول: إذا سألتكم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب. وكان إمام ابن عباس واسعاً بلغة القرآن ومعانيه، حتى أنه قال: كل القرآن أعلم إلا أربعاً: غسلين، وحناناً، والأواه، والرقيم. وقد بدأت بمحاولات ابن عباس مدرسة جديدة في التفسير تكشف عن أسلوب القرآن ومعانيه بمقارنته بالأدب العربي شعره ونثره، ومهدت هذه المدرسة لقيام حركة واسعة لجمع اللغة والشعر من مضارب الخيام وبوادي العرب؛ ليواجهوا ما في القرآن من الغريب الذي ابتعدت به الشقة عن الحجاز، وقلب الجزيرة العربية في العراق وفارس والشام وغيرها من الأمصار الإسلامية، وتلقط العلماء ما كانت تجود به ألسنة الأعراب من أمثلة توافق ما يجري في آيات القرآن، وكانت هذه الحركة الكبرى سبباً في حفظ العربية من الضياع.

○ الإعراب:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ الواو عاطفة؛ ليتناسق الكلام يورد ناحية أخرى من نواحي تعنتهم وإصرارهم على القول: إن الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلا بعث إلينا ملكاً، ولك أن تجعلها استثنائية قائمة بنفسها، والجملة مسوقة لما ذكرناه، وما نافية، وأرسلنا فعل وفاعل، ومن قبلك حال، وإلا أداة حصر، ورجالاً مفعول أرسلنا، وجملة نوحى إليهم صفة ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الفاء الفصيحة، أي: إن شككتكم فيما ذكر فاسألوا، واسألوا فعل أمر وفاعل، وأهل الذكر مفعوله، وإن شرطية، وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط، والجواب

محذوف دل عليه فاسألوا، وكان واسمها، وجملة لا تعلمون خبرها ﴿يَالْبَيِّنَاتِ
وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ بالبينات يحتمل متعلقات شتى، فإما
أن يتعلق بأرسلنا داخلاً تحت حكم الاستثناء مع رجالاً، أي: وما أرسلنا إلا
رجالاً بالبينات، ومثل له الزمخشري بقول القائل: ما ضربت إلا زيداً
بالسوط؛ لأن أصله ضربت زيداً بالسوط، وإما متعلقان بمحذوف صفة
لرجالاً، أي: رجالاً متلبسين بالبينات، أي: مصاحبين لها، وإما بأرسلنا
مضمراً، كأنما قيل بم أرسلوا؟ فقليل: بالبينات، وإما بنوحي، أي: نوحى
إليهم بالبينات. وهناك أوجه أخرى ضربنا عنها صفحاً، وأنزلنا عطف على
أرسلنا، وإليك متعلقان بأنزلنا، والذكر مفعول به، ولتين اللام للتعليل،
وتبين منصوب بأن مضمرة، وهو متعلق بأنزلنا، وللناس جار ومجرور
متعلقان بتبين ﴿مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ما مفعول تبين، وجملة نزل
إليهم صلة، ولعلهم: لعل واسمها، وجملة يتفكرون خبرها ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ
مَكْرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري
التوبيخي، والفاء عاطفة على محذوف - كما تقدم - يرشد إليه النظم، أي:
أنزلنا إليك الذكر لتبين لهم مضمونه، ولم يتفكروا في ذلك، فكأنه قيل: ألم
يتفكروا؟ فأمن الذين مكروا السيئات؟ وأمن الذين فعل وفاعل، وجملة
مكروا صلة، والسيئات صفة لمفعول مطلق محذوف، أي: المكرات
السيئات، ويجوز أن يكون مفعولاً به لأمن، أي: أمنوا العقوبات السيئات،
أو منصوباً بنزع الخافض، أي: مكروا بالسيئات، وأن يخسف: أن وما في
حيزها مصدر مفعول أمن على الوجه الأول في السيئات، وبدل من السيئات
على الوجه الثاني، والله فاعل يخسف، وبهم متعلقان يخسف، والأرض
مفعول به ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ عطف على أن يخسف،
ومن حيث حال، وجملة لا يشعرون مضافة للظرف ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا
هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ عطف أيضاً على أن يخسف وفي تقلبهم حال من المفعول، أي:
حال كونهم متقلبين في الأسفار، والمتاجر، وأسباب الدنيا، والفاء عاطفة،
وما نافية حجازية، وهم اسمها، والباء حرف جر زائد، ومعجزين مجرور

بالباء لفظاً منصوب محلاً على أنه خبر ما ﴿ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ عطف ثالث على أن يخسف، وعلى تخوف حال أيضاً من الفاعل أو المفعول، أي: يأخذهم متنقصاً إياهم شيئاً بعد شيء، أو وهم متخوفون، والفاء تعليل لما تقدم، وإن واسمها، واللام المرحقة، ورؤوف خبر إن الأول، ورحيم خبر إن الثاني.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَيُّوهُ ظِلُّهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ ٤٨ ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ٤٩ ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ٥٠ ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازِهِبُونَ ﴾ ٥١ ﴿ وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ ٥٢

☆ النسخة:

﴿ يَنْفَيُّوهُ ظِلُّهُ ﴾ تفيأ الظل: تقلب وانتقل من جانب إلى آخر، المصدر: التفيؤ من فاء يفيء إذا رجع، وفاء لازم، فإذا أريد تعديته عدي بالهمزة كقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ أو بالتضعيف، نحو: فياً الله الظل فتفيأ، وتفيأ مطاوع فيها فهو لازم، واختلف في الفيء، فقليل: هو مطلق الظل سواء كان قبل الزوال أو بعده، وهو ينسجم مع الآية، وقيل: ما كان قبل الزوال فهو ظل فقط، وما كان بعده فهو ظل وفيء، فالظل أعم، وقيل: بل يختص الظل بما قبل الزوال، والفيء بما بعده، فالفيء لا يكون إلا في العشي، وهو ما انصرفت عنه الشمس، والظل ما يكون بالغداة، وهو ما لم تنله. وفي القاموس والتاج وغيرهما: الظل: الفيء، والجمع ظلال وأظلال وظلول، وظل الليل: سواده، يقال: أتانا في ظل الليل، قال ذو الرمة:

قد أعسِفُ النَّازِحَ الْمَجْهُولَ مَعْسِفُهُ

في ظلٍّ أخضَرَ يَدْعُو هَامَهُ الْبُومُ

وهو استعارة؛ لأن الظلَّ في الحقيقة إنما هو ضوء شعاع الشمس دون الشعاع، فإذا لم يكن ضوءً فهو ظلمة وليس بظل. وقال أصحاب العلم: الظل مطلقاً هو الضوء الثاني، ومعنى ذلك أن النير إذا ارتفع عن الأفق استضاء الهواء بإثبات الشعاع فيه، فهذا هو الضوء الأول، فإذا حجب هذا الضوء حاجب كان ما وراء ذلك الحاجب ضوءاً ثانياً بالنسبة إلى الضوء الأول؛ لأنه مستفاد منه، وهذا الضوء الثاني هو الظل، وقد أوحى خيال الظل إلى الشعراء طرائف بديعة، فمن ذلك قول المناوي في راقصة:

إذ ما تغتث قلت سكرى صباباً وإن رقصت قلنا احتكام مُدام
أرتنا خيال الظلِّ والسترُ دُونَهَا فأبدت خيال الشمس وهو غَمَام

وذكر ابن قتيبة في كتابه «أدب الكاتب» ما نصه: : يذهب الناس إلى أن الظل والفيء واحد، وليس كذلك؛ لأن الظل يكون من أول النهار إلى آخره، ومعنى الظل: الستر، والفيء لا يكون إلا بعد الزوال، ولا يقال لما كان قبل الزوال فيء، وإنما سمي فيئاً؛ لأنه ظل فاء من جانب إلى جانب، أي: رجع من جانب المغرب إلى جانب المشرق. والفيء: الرجوع. قال الله تعالى: ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: ترجع.

﴿وَالشَّمَايِلَ﴾: جمع شمال، أي: عن جانبيهما أول النهار وآخره. قال العلماء: إذا طلعت الشمس من المشرق، وأنت متوجه إلى القبلة، كان ظلك عن يمينك، فإذا ارتفعت الشمس، واستوت في وسط السماء، كان ظلك خلفك، فإذا مالت الشمس إلى الغروب كان ظلك عن يسارك.

﴿دَاخِرُونَ﴾: خاضعون صاغرون.

○ الإعراب:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيهِمْ ظِلُّهُمُ مِنَ الْيَحِينِ وَالشَّمَايِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، والواو عاطفة على محذوف مقدر يقتضيه السياق، أي: ألم ينظروا ولم يروا موجهين إلى ما خلق

الله، وإلى ما جار ومجرور متعلقان بيروا، وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بإلى؛ لأن المراد منها الاعتبار، وذلك الاعتبار لا يتأتى إلا بنفس الرؤية التي يكون معها النظر إلى الشيء لتدبره، والتبصر فيه، والتأمل بمغايه وعواقبه، وجملة خلق الله صلة، ومن شيء حال من ما خلق الله، وصح أن تكون مبنية لوصفها، مع أن كلمة شيء مبهمه، وجملة يتفياً ظلاله صفة لشيء، وظلاله فاعل يتفياً، وعن اليمين حال، وعن الشمال عطف، ويصح أن تكون «عن» اسماً بمعنى جانب، فعلى هذا تنتصب على الظرف، ويصح أن تتعلق بتتفياً، ومعناه المجاوزة، أي: تتجاوز الظلال عن اليمين إلى الشمال، بقي هنا سؤال، وهو: لماذا أفرد اليمين وجمع الشمال؟ وأجاب العلماء بأجوبة عديدة، أقربها إلى المنطق أن الابتداء يقع من اليمين، وهو شيء واحد، فلذلك وحد اليمين، ثم ينتقص شيئاً فشيئاً، وحالاً بعد حال، فهو بمعنى الجمع، فصدق على كل حال لفظ الشمال، فتعدد بتعدد الحالات، وللغراء رأي طريف قال: كأنه إذا وحّد ذهب إلى واحد من ذوات الظلال، وإذا جمع ذهب إلى كلها، لأن قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ لفظه واحد ومعناه الجمع، فعبر عن أحدهما بلفظ الواحد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وقال ابن الصائغ: أفرد وجمع بالنظر إلى الغايتين؛ لأن ظل الغداة يضمحل حتى لا يبقى منه إلا اليسير، فكأنه في جهة واحدة، وهو بالعشي على العكس؛ لاستيلائه على جميع الجهات، فلحظت الغايتان في الآية، هذا من جهة المعنى، وفيه من جهة اللفظ المطابقة؛ لأن سجّداً جمع، فطابقه جمع الشماثل لاتصاله به، فحصل في الآية مطابقة اللفظ للمعنى ولحظهما معاً، وتلك الغاية في الإعجاز. وقيل: أفرد اليمين مراعاة للفظ ما، وجمع ثانياً مراعاة لمعناها. وقد أفرد السهيلي رسالة لطيفة على هذه الآية. وسجّداً حال من ضلاله، والواو للحال، وهم مبتدأ، وداخرون خبر، والجملة حالية من الضمير المستتر في سجّداً، فهي حال متداخلة ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ لله جار ومجرور متعلقان بيسجد، وما فاعل ليسجد، وفي السموات صلة، وما في الأرض عطف على ما في السموات، ومن دابة في

موضع نصب على الحال المبنية، والملائكة عطف على ما، وخصهم بالذكر بعد العموم تنوياً بفضلهم ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الواو عاطفة، وهم مبتدأ، وجملة لا يستكبرون خبر ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ جملة يخافون نصب على الحال من ضمير يستكبرون، أو بدل من جملة لا يستكبرون، لأن من خاف الله لم يستكبر عن عبادته، ويخافون ربهم فعل مضارع وفاعل ومفعول به، ومن فوقهم حال من ربهم، أي: يخافون ربهم عالياً عليها في الرتبة، على حد قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ويفعلون عطف على يخافون، وما مفعول به، وجملة يؤمرون صلة ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ الواو استئنافية، وقال الله فعل وفاعل، ولا ناهية، وتتخذوا فعل مضارع مجزوم بلا، والواو فاعل، وإلهين مفعول به، واثنين صفة لإلهين، ومن طريف المفارقات أن جميع المفسرين تقريباً يعربونها توكيداً لإلهين، وليست اثنين من ألفاظ التوكيد المعنوي، وليست من باب التوكيد اللفظي، ويظهر أن إعرابهم لها كذلك قائم على المعنى؛ لأن معنى الوصف هو التوكيد، وسترى بحثاً طريفاً عن ذلك في باب البلاغة، وقد اضطر بعضهم إلى القول أن لفظ اثنين تأكيد لما فهم من إلهين من التثنية، وقيل: إن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، والتقدير: لا تتخذوا اثنين إلهين. إنما هو إله واحد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ﴾ إنما كافة ومكفوفة، وهو مبتدأ، وإله خبر، وواحد صفة للتأكيد أيضاً، فإياي: الفاء الفصيحة، وإياي مفعول به لفعل مضمر يفسره ما بعده، أي: بقوله ارهبون، وارهبون فعل أمر، والواو فاعل، والنون للوقاية، والياء المحذوفة لمراعاة الفواصل مفعوله ﴿وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لك أن تجعل الواو عاطفة، والجملة معطوفة على قوله: «إنما هو إله واحد» ولك أن تجعلها استئنافية، والجملة مستأنفة، وله خبر مقدم، وما مبتدأ مؤخر، وفي السموات صلة، والأرض عطف على ما في السموات ﴿وَلَكُمْ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ الواو عاطفة، وله خبر مقدم، والدين مبتدأ مؤخر، وواصباً حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، والتقدير: والدين ثابت له حال كونه واسباً، وفي معنى الوصب قولان: أحدهما: الدوام، أي: له الدين ثابتاً سرمداً،

وثانيهما: المشقة والكلفة، أي: له الدين ذا كلفة ومشقة ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾^١ الهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء عاطفة على محذوف، والتقدير: أبعد ما تقرر من توحيد الله، وبعد ما عرفتم أن كل ما سواه محتاج إليه، كيف يعقل أن تتقوا غيره، وترهبوا من غيره، وغير الله مفعول مقدم لتتقون، وتتقون فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله.

□ البلاغة:

اشتملت هذه الآيات على وجازتها على فنون من البلاغة تستوعب الأجلاد، وسنحاول تلخيصها في العبارات الآتية:

(١) التغليب:

في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^٢ الخ، فقد أتى بلفظ ما الموصولية في قوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^٣ للتغليب؛ لأن ما لا يعقل أكثر من يعقل في العدد، والحكم للأغلب، وما الموصولة في أصل وضعها لما لا يعقل، كما أن من موضوعة في الأصل لمن يعقل، وقد تتخالفان، ومن استعمال «من» لغير العاقل في الشعر قول العباس بن الأحنف:

أَسْرَبَ الْقَطَا هَلْ مَن يَعِيرُ جَنَاحَهُ
لِعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أَطِيرُ

فأوقع من على سرب القطا، وهو غير عاقل. وقول امرؤ القيس:

أَلَا عِمَّ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي
وَهَلْ يَعِمَّنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي

فأوقع من على الطلل، وهو غير عاقل.

وفيما يلي ضابط هام نوجزه فيما يلي:

* قد تستعمل «من» لغير العقلاء في ثلاث مسائل:

أ- أن ينزل غير العاقل منزلة العاقل ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ وقول امرئ القيس السابق ، وكذلك قول العباس بن الأحنف السابق الذكر .

فدعاء الأصنام التي لا تستجيب الدعاء في الآية الكريمة ، ونداء الطلل والقطا في البيتين ، سوغا تنزيلها منزلة العاقل ؛ إذ لا ينادى إلا العقلاء .

ب - أن يندمج غير العاقل مع العاقل في حكم واحد ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

ج- أن يقترن غير العاقل بالعاقل في عموم مفصل ، كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ فالدابة تعم أصناف من يدب عن وجه الأرض ، وقد فصلها على ثلاثة أنواع .

* وقد تستعمل ﴿ ما ﴾ للعاقل إذا اقترن العاقل بغير العاقل في حكم واحد ، كما في الآية المتقدمة .

(٢) الاحتراس :

وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ والمعروف أنه لا يجمع بين العدد والمعدود إلا فيما وراء الواحد والاثنين ، فيقولون : عندي رجال ثلاثة ونساء ثلاث ؛ لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص ، فلو لم تشفعه بصفته لما فهمت العدد المراد ، وأما رجل وامرأة ورجلان وامرأتان فمعدودان ، فيهما دلالة على العدد ، فلا حاجة إلى أن يقال : رجل واحد ، وامرأة واحدة ، ورجلان اثنان ، وامرأتان اثنتان ، أما في الآية فالاسم الحامل لمعنى الأفراد والتثنية ، وهو إله وإلهان دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص ، فإذا أريد الدلالة على أن المراد الذي يساق إليه الحديث هو العدد ، كان لا بد من أن يشفع بما يؤكد ، ألا ترى أنك

لو قلت إله ولم تؤكد به واحد لم يحسن، وخيل إليك أنك تثبت الإلهية لا الوحداية، فكان لا بد من الاحتراس، وهذا من روائع البلاغة التي تتقطع دونها الأعناق.

(٣) الالتفات:

عن الغيبة إلى التكلم، فقد قال: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُونَ الْإِنسَانِ أَتُنَبِّئُونَ﴾ الخ. ثم عدل إلى الحضور وهو قوله: ﴿فَأَيُّكُمْ يَسْتَكْبِرُ﴾ لأن ذلك أبلغ في الرهبة من أن يقول جرياً على السياق: فإياه فارهبون.

﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعَمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُفِّرَتْ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِسْتُمْ بِهَا تَمَتُّعاً فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ؕ أَيُمْسِكُكُمْ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ ؕ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

☆ اللفظة:

﴿تَجْأَرُونَ﴾ تتضرعون، والجوار بوزن الزكام: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، قال الأغشى يصف راهباً:

يرأوح من صلوات المليك طوراً سجوداً وطوراً جواراً

والمراوحة في العمل: الانتقال من حالة إلى أخرى، ولا يفوتك ما في هذا الوصف من دقة، وقبله:

وما أبلي على هيكل بئاه وصلب فيه وصارا

والآبلي: الراهب، نسبة إلى آبل، وهو: قيم البيعة، وصلب: أي: صور الصليب، وفي القاموس: جَارَ كَمْنَعُ جَاراً وَجَوَّاراً، بوزن غراب: رفع صوته بالدعاء، وتضرع، واستغاث، والبقرة والثور: صاحا، والنبت جأراً: طال، والأرض: طال نبتها.

﴿ظَلَّ﴾ - هنا - بمعنى صار، وليست على بابها، من كونها تدل على الإقامة نهراً على الصفة المسندة إلى اسمها، وعلى التقديرين هي ناقصة ومصدرها الظلول، ويجوز إبقاؤها على معناها الأصلي، وهو اتصاف الشيء بصفة ما نهراً فقط؛ لأن الأوضاع تتشابه في الليل، أي: يظل سحابة نهاره مغتماً، مربد الوجه من الكآبة والحياء من الناس.

﴿كَظِمٌ﴾: مملوء حقناً على الأنثى. وفي المصباح: كظمت الغيظ كظماً، من باب: ضرب، وكظوماً: أمسكت على ما في نفسك منه على صفح أو غيظ، وفي التنزيل: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ وربما قيل: كظمت على الغيظ، وكظمني الغيظ، فأنا كظيم ومكظوم، وكظم البعير كظوماً: لم يجتر.

﴿هُونٌ﴾: هوان وذل، قال اليزيدي: والهون الهوان بلغة قريش. وكذا حكاه أبو عبيد عن الكسائي، وحكى الكسائي أنه البلاء والمشقة، قالت الخنساء:

تُهَيِّنُ النفوسَ وهَوْنَ النفوسِ سِ يَوْمَ الكَرِيهِةِ أَبْقَى لَهَا

○ الإعراب:

﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ ما شرطية في محل رفع مبتدأ، وفعل الشرط محذوف، وبكم متعلقان بفعل الشرط المحذوف، ومن نعمة حال من اسم الشرط، واختار أبو البقاء أن تكون حالاً من الضمير في الجار، والفاء رابطة لجواب الشرط، ومن الله خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: فهو من الله، والجملة في محل جزم جواب الشرط، وفعل الشرط المحذوف والجواب في محل رفع خبر ما، ويجوز أن تكون ما موصولة مبتدأ، والجار والمجرور صلتها، والخبر قوله «فمن الله» والفاء رابطة لتضمن الموصول معنى الشرط، والتقدير: والذي

استقر بكم، وسيأتي مزيد بحث عن حذف فعل الشرط والجواب في باب :
 الفوائد ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُّونَ﴾ ثم حرف عطف، وإذا ظرف
 مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب تجأرون، وجملة مسكم مضافة
 للظرف، ومسكم فعل ومفعول به مقدم، والضرب فاعل مؤخر، والفاء رابطة،
 وإليه متعلقان بتجأرون، وتجأرون فعل مضارع وفاعل، وجملة «إِلَيْهِ
 تَجْتَرُّونَ» لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ
 إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ثم حرف عطف، وإذا ظرف مستقبل متضمن
 معنى الشرط متعلق بما في إذا من معنى المفاجأة، ولا يجوز أن يكون العامل في
 إذا هو الجواب؛ لأنه لا يعمل ما بعد إذا المفاجئة فيما قبلها، وجملة كشف
 مضافة، والضرب مفعول به، وعنكم متعلقان بكشف، وإذا مفاجئة لا محل لها،
 وقد تقدم القول فيها، وفريق مبتدأ ساغ الابتداء به لأنه وصف بقوله منهم،
 وبربهم جار ومجرور متعلقان بيشركون، وجملة يشركون خبر فريق، ومن
 العجيب أن أبا البقاء تورط فقااس إذا المفاجئة على إذا الشرطية، فقال : «فريق
 فاعل لفعل محذوف» وهذا طائش من أساسه ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِسْتُمْهُمْ فَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ﴾ ليكفروا: اللام لام التعليل، ويكفروا مضارع منصوب بأن مضمرة
 بعد اللام، والجار والمجرور متعلقان بيشركون، أي : إشراكهم سببه كفرهم
 بربهم، ويجوز أن تكون اللام لام الصيرورة، أو العاقبة، أي : فعاقبة
 إشراكهم بالله غيره كفرهم بالنعمة؛ التي هي كشف الضر عنهم، فيكون
 متعلق ليكفروا بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، وبما متعلقان بيكفروا، وجملة
 آتيناهم صلة، فتمتعوا جملة معمولة لقول محذوف، أي : قل لهم يا محمد
 تمتعوا، فسوف تعلمون: الفاء الفصيحة، وسوف حرف استقبال، وتعلمون
 فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره : عاقبة ذلك ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا
 مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ عطفا على ما سبق، ويجعلون فعل مضارع وفاعل ولما متعلقان
 بيجعلون، وجملة لا يعلمون صلة لما، والضمير في يعلمون عائد على
 المشركين، والعائد محذوف يقدر بأنها تضر ولا تنفع، ولك أن تجعله عائداً على
 الأصنام المدلول عليها بما، أي : الأشياء غير موصوفة بالعلم لا تشعر أجعلوا

لها نصيباً في أنعامهم وزروعهم أم لا، ونصيباً مفعول يجعلون، ومما صفة لنصيباً، وجملة رزقناهم صلة ﴿تَأَلَّه لَنُشْئَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ التاء تاء القسم الجارة، ولفظ الجلالة مجرور بتاء القسم، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره: قسمي، واللام واقعة في جواب القسم، وتسالن فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة، وقد تقدم لهذا الإعراب نظائر، وعما متعلقان بتسالن، وجملة كنتم صلة، وجملة تفترون خبر كنتم ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ويجعلون عطف على ما تقدم، والله متعلقان بيجعلون، والبنات مفعول يجعلون، وسبحانه منصوب على المصدرية بفعل محذوف، والجملة معترضة لكونه بتقدير الفعل، وقد وقعت في مطاوي الكلام؛ لأن قوله تعالى، ولهم ما يشتهون عطف على قوله: «للبنات» على رأي الزمخشري والفراء، ولهم خبر مقدم، وما مبتدأ مؤخر، وجملة يشتهون صلة، وبعضهم أعرب ما في محل نصب فعل مقدر، وجملة «ولهم ما يشتهون» إما استئنافية، وإما حالية، ولك أن تعطف ما على البنات، ولهم على الله، فيكون من قبيل عطف المفردات، وهذا رأي الزمخشري والفراء، وتعقبهما أبو حيان فقال: وذهلوا عن قاعدة في النحو، وهي: أن الفعل إذا رفع ضميراً وجاء بعده ضمير منصوب، لا يجوز أن ينصبه الفعل إلا إن كان من باب ظن واخواتها من الأفعال القلبية، أو فقد وعدم، فيجوز: زيد ظنه قائماً، تريد: ظن نفسه، ولو قلت: زيد ضربه، فتجعل في ضرب ضمير رفع عائداً على زيد، ولو تعدى للضمير المنصوب لم يجز، والمجرور يجري مجرى المنصوب، فلو قلت: زيد غضب عليه، لم يجز، كما لم يجز: زيد ضربه، فلذلك امتنع أن يكون قوله: لهم متعلقاً بيجعلون

الواو حالية من ضمير يجعلون، أي: الواو، أي:

كيف يستسيغون نسبة البنات إليه تعالى، وهذه حالتهم، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة بشر أحدهم مضافة للظرف، وبالأنثى جار

ومحور متعلقان ببشر، وجملة ظل لا محل لها، ووجهه اسم ظل، ومسوداً خبرها، والواو حالية أيضاً، وهو مبتدأ، وكظيم خبر، والجملة حال متداخلة، وليس المراد السواد الذي هو ضد البياض، بل المراد الكناية بالسواد عن التغير والانكسار بما يحصل من الغم، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً: قد اسود وجهه غماً وحزناً، قاله الزجاج. وقال الماوردي: بل المراد سواد اللون حقيقة، قال: وهو قول الجمهور، والأول أولى؛ فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه إلا مجرد التغير، وظهور الكآبة والانكسار، لا السواد الحقيقي ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ جملة يتوارى حالية من الضمير في كظيم، ومن القوم متعلقان به، ومن سوء متعلق به أيضاً، فالأولى للابتداء، والثانية للعلة، وما اسم موصول مضاف لسوء، وجملة بشر به صلة، أي: من الأنثى وسوئها حسب اعتقاداتهم أنها مستهدفة للغواية، ويخافون عليها من الزنى، ومن حيث كونها لا تكتسب ﴿أَيْمِسْكُمْ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ﴾ الهمزة للاستفهام، وجملة يمسكه الاستفهامية معمولة لشيء محذوف، هو حال من فاعل يتوارى، أي: يتوارى حائراً، متردداً، مترجحاً بين اليقين والشك، أيمسكه محتملاً الذل، أم يئده في الحياة، ويمسكه فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، وعلى هون حال من الفاعل المستتر، أو من المفعول به، وأم حرف عطف، ويدسه عطف على يمسكه، وفي التراب متعلقان بيدسه، والتذكير في يمسكه ويدسه مع كونه عبارة عن الأنثى لرعاية اللفظ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إلا حرف تنبيه، وساء فعل ماضٍ لإنشاء الذم، وما نكرة منصوبة على التمييز، أو موصولة فاعل ساء، وجملة يحكمون صلة، ولك أن تجعلها مصدرية، والمصدر المؤول فاعل، أي: ساء حكمهم ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ للذين خبر مقدم، وجملة لا يؤمنون صلة، وبالأخرة متعلقان بيؤمنون، ومثل السوء مبتدأ مؤخر، والله المثل الأعلى عطف على ما سبق، وهو مبتدأ، والعزیز خبر أول، والحكيم خبر ثان.

* الفوائد:

حذف فعل الشرط وجوابه:

يجوز حذف ما علم ما شرط إن كانت الأداة «إن» مقرونة بلا النافية، كقول الأحوص يخاطب مطراً، وكان مطر دميم الخلقة، وتحتة امرأة وسيمة: فطلقها فلست لها بكفءٍ وإلاَّ يعلُ مفرقك الحسامُ

فحذف فعل الشرط لدلالة قوله: فطلقها عليه، وأبقى جوابه، أي: وإن لا تطلقها يعل، ولهذه الشروط منع بعض المفسرين إعراب ﴿وَمَا يَكُم مِّن يَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ شرطية، واكتفى بأن جعلها موصولة، ولكن نقل النحاة أن هذه الشروط ليست ملزمة، فقد يتخلف واحد من إن والاقتران بلا، وقد يتخلفان معاً، فالأول ما حكاه ابن الأنباري في «الإنصاف» عن العرب: من يسلم عليك فسلم عليه، ومن لا فلا تعباً به، أي: ومن لا يسلم عليك فلا تعباً به، قال الشاطبي: وهذا نص في الجواز، والثاني: نحو ﴿وَإِن أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا﴾ فحذف الشرط مع انتفاء اقتران إن بلا، والثالث: كقوله:

متى تؤخذوا قسراً بظنة عامر ولم ينبج إلا في الصفاد يزيد

أي: متى تثقفوا تؤخذوا، فحذف الشرط مع انتفاء الأمرين. ويجوز حذف ما علم من جواب شرط ماض نحو: ﴿فَإِن أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْنِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ فإن استطعت شرط حذف جوابه لدلالة الكلام عليه، والتقدير: فافعل، والشرط الثاني وجوابه جواب للشرط الأول، والمعنى: إن استطعت منفذاً تحت الأرض تنفذ فيه فتطلع لهم بآية، أو سلماً تصعد به إلى السماء، فتزول منها بآية فافعل، وسيأتي تفصيل ذلك في مواضعه.

وفيما يلي عبارة ابن هشام في «المغني» قال عند الكلام على ما الشرطية: وقد جوزت في: ﴿وَمَا يَكُم مِّن يَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ على أن الأصل: وما يكن، ثم حذف فعل الشرط كقوله:

إِنَّ الْعَقْلُ فِي أَمْوَالِنَا لَا نَضِيقُ بِهَا

ذِرَاعاً وَإِنْ صَبِراً فَنَصْبِرُ لِلصَّبْرِ

أي: إن يكن العقل، وإن نحبس حبساً، والأرجح في الآية أنها موصولة، وأن الفاء داخله على الخبر لا شرطية، والفاء داخله على الجواب.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْدِمُْونَ ﴿١١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جُرْمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿١٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾﴾

☆ اللفظة:

﴿مُفْرَطُونَ﴾: اسم مفعول من أفرط، أي: أعجل. يقال: أفرطت فلاناً وفرطته في طلب الماء؛ إذا قدمته. وقيل: منسيون متروكون، من أفرطت فلاناً خلفي؛ إذا خلفته ونسيته. وفي المختار: وفرط القوم: سبقهم إلى الماء، فهو فارط، والجمع فراط بوزن: كتاب، وبابه: نصر، وأفرطه: تركه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ أي: متروكون في النار منسيون. وأفرط في الأمر: جاوز الحد فيه. وفي القاموس: وأفرط فلاناً: تركه، وتقدمه، وجاوز الحد، وأعجل بالأمر، وأنهم مفراطون: أي: منسيون متروكون في النار، أو مقدمون معجلون إليها. وفي الحديث: عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إني فرطكم على الحوض، من مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يخال بيني وبينهم». وقال القطامي:

فَاسْتَعْجَلُونَا وَكَانُوا مِنْ صَحَابَتِنَا
كَمَا تَعَجَّلَ فَرَّاطٌ لِوُرَادٍ

○ الإعراب:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ الواو استئنافية، ولو شرطية، ويؤاخذ الله الناس فعل مضارع وفاعل ومفعول به، وبظلمهم الباء حرف جر للسببية، أي: بسبب ظلمهم متعلقان بيؤاخذ، وجملة ما ترك لا محل لها، وترك فعل وفاعل مستتر، وعليها متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان صفة لدابة، ومن حرف جر زائد، ودابة مجرور لفظاً مفعول به محلاً، والضمير يعود على الأرض، وإن لم تذكر فقد دلّ عليها ذكر الناس، وذكر الدابة، فإن الجميع مستقرون على الأرض ﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ الواو عاطفة، ولكن حرف استدراك مهمل لأنها مخففة، ويؤخرهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، وإلى أجل متعلقان بيؤخرهم، ومسمى صفة، أي: معين ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ الفاء عاطفة، أو استئنافية، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة جاء أجلهم مضافة للظرف، وجملة لا يستأخرون لا محل لها، وساعة ظرف متعلق بيستأخرون ولا يستقدمون، عطف على لا يستأخرون، وقد تقدمت الإشارة في آية مماثلة لها إلى معنى لا يستأخرون ولا يستقدمون ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ﴾ ويجعلون فعل مضارع وفاعل، والله متعلقان بيجعلون، وما مفعول يجعلون، وجملة يكرهون صلة، وتصف ألسنتهم الكذب فعل مضارع وفاعل ومفعول به، وقد فسر الكذب بقوله: ﴿ أَنْتَ لَهُمُ الْحَسَنَىٰ ﴾ فأن وما في حيزها بدل من الكذب بدل الكل من الكل، ولهم خبر أن المقدم، والحسنى اسمها المؤخر ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ تقدم القول في لا جرم، وأن وخبرها المقدم، واسمها المؤخر، وأنهم مفرطون عطف على أن لهم النار ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ التاء تاء القسم والجر، والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المقدر، واللام

واقعة في جواب القسم، وقد حرف تحقيق، وأرسلنا فعل وفاعل، وإلى أمم متعلقان بأرسلنا، ومن قبلك صفة ﴿فَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الفاء عاطفة، وزين فعل ماض، ولهم متعلقان بزین، والشيطان فاعل، وأعمالهم مفعول به ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الفاء عاطفة، وهو مبتدأ، ووليهم خبر، واليوم ظرف متعلق بمحذوف حال إذا أردت حكاية الحال الآتية، أو في الدنيا، أو متعلق بوليهم إذا أردت حكاية الحال الماضية التي كان الشيطان يزین لهم أعمالهم فيها، بمعنى ناصرهم ومعينهم، ولهم خبر مقدم، وعذاب مبتدأ مؤخر، وأليم صفة ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ الواو عاطفة، وما نافية، وأنزلنا فعل وفاعل، وعليك متعلقان بأنزلنا، والكتاب مفعول به، وإلا أداة حصر، ولتبين لام التعليل ومدخولها متعلقة بأنزلنا على معنى التعليل، وإنما جر المفعول لأجله باللام لاختلاف فاعله مع فاعل الفعل، فإن المنزل هو الله، والمبين هو النبي ﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هدى ورحمة عطف على محل لتبين، وقد انتصبا نصب المفعول لأجله لاتحاد فاعلهما مع فاعل الفعل؛ لأن الهادي، والرحم هو الله كما هو المنزل، ولقوم صفة، أو متعلقان بالمصدر، وجملة يؤمنون صفة لقوم.

* الفوائد:

بحث مهم عن فاء التعقيب:

المعروف عن الفاء العاطفة أنها للعطف مع التعقيب، ولكنه ليس التعقيب الفوري، بل هي للتعقيب حسب ما يصح إما عقلاً، وإما عادة، ولهذا صح أن يقال: دخلت البصرة فبغداد، وإن كان بينهما زمان كثير، لكن يعقب دخول هذه دخول تلك على ما يمكن، بمعنى أنه لم يمكث بواسط مثلاً سنة، أو مدة طويلة، بل طوى المنازل بعد البصرة، ولم يقيم بواحد منها إقامة يخرج بها عن حد السفر إلى أن دخل بغداد، هذا الذي يقوله أهل اللغة وأهل الأصول، وليست الفاء للفور الحقيقي الذي معناه حصول هذا بعد هذا بغير فصل ولا زمان، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ فإن مجيء الأجل

متراخ عن التأخير، وسيأتي لهذا نظائر.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (١٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴿١٩﴾

☆ اللغة:

﴿الْأَنْعَامِ﴾: تقدم شرحها في سورة الأنعام، وقد ذكر سيبويه الأنعام في باب: ما لا ينصرف في الأسماء الواردة على أفعال، ولذلك رجع الضمير إليه مفرداً، وقد رجع الضمير إليها مؤنثاً في سورة المؤمنون؛ لأن معناها الجمع، ويجوز أن يقال: في الأنعام وجهان: أحدهما: أن يكون تكسير نعم، كأجبال في جبل، وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع، فإذا ذكر فكما يذكر نعم في قوله:

فِي كُلِّ عَامٍ نَعَمٌ تَحْوُونَهُ يُلْقِحُهُ قَوْمٌ وَتَنْتَجِوْنَهُ

وإذا أنث ففيه وجهان: أنه تكسير نعم، وأنه في معنى الجمع، ولسيبويه بحث طريف كما قلنا، فقد عدّ المفردات المبنية على أفعال كأخلاق وأمشاج، فيعامل بالتذكير تارة باعتبار لفظه، وبالتأنيث أخرى اعتباراً بمعناه، وقيل: هو جمع نعم، كأسباب وسبب.

وقال ابن يعيش: واعلم أن أبنية القلة أقرب إلى الواحد من أبنية الكثرة، ولذلك يجري عليها كثير من أحكام المفرد، ومن ذلك جواز تصغيره على لفظه

خلافاً للجمع الكثير، ومنها جواز وصف المفرد بها: غرب ثوب أسمال وبرمة أكسار، ومنها جواز عود الضمير إليها بلفظ الإفراد، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ .

(عبرة): عظة، أي: دلالة يعبر عليها من الجهل إلى العلم، فهي مصدر بمعنى العبور أطلق على ما يعبر به إلى العلم، مبالغة في كونه سبباً إلى العبور .

﴿فَرِثٌ﴾: الفرث: الروث والأشياء المأكولة المهضمة بعض الانهضام في الكرش .

قال الحريري في «درة الغواص»: ويقولون: فرث لما يخرج من الكرش، وهو وهم، لأنه إنما يسمى به ما دام فيها، فإذا خرج سمي سرجيناً .
ومن أمثال العرب فيمن يحفظ الحقير ويضع الجليل: وفلان يحفظ الفرث ويفسد الحرث وأجيب عن هذا بأن ذلك القول باعتبار ما كان، ومثله كثير مطرد .

﴿سَائِغًا﴾: سهل المرور في الحلق، لا يغص به .

﴿سَكْرًا﴾: السَّكْر - بفتحيتين -: الخمر، سميت بالمصدر من سكر سكرًا وسُكْرًا، نحو: رشدَ رشدًا ورُشدًا، قال:

فجاءونا بهم سَكْرٌ علينا فأجلّ اليوم والسَّكْرانُ صاحي

وفي القاموس والتاج: سكر يسكر، من باب: تعب، سكرًا - بفتحيتين - وسُكْرًا - بضم فسكون - وسُكْرًا - بضميتين - وسُكْرًا - بفتح فسكون - وسُكْرانًا - بفتحيتين - من الشراب نقيض صحا، فهو سكر وسكران، وهي سكرة وسكرى وسكرانة، والجمع سكرى وسَكَرى بفتح السين؟، وسُكَارى بضمها . وجاء في غيره: في السكر أربعة أقوال: الأول: أنه في أسماء الخمر، والثاني: أنه مصدر في الأصل، ثم سمي به الخمر، والثالث: أنه اسم للخل بلغة الحبشة، والرابع: أنه اسم للعصير ما دام حلوًا؛ كأنه سمي مجازاً لماله لذلك لو ترك .

﴿يَعْرِشُونَ﴾: يبنون، وبابه: ضرب ونصر، كما في المختار، وفي القاموس: وعرش يعرش: بنى عريشاً، كأعرش، وعَرَّشَ بالتثنية.

○ الإعراب:

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الله مبتدأ، وجملة أنزل خبر، ومن السماء متعلقان بأنزل، وماء مفعول به، فأحيا عطف على أنزل، وبه متعلقان بأحيا، والأرض مفعول، وبعد موتها الظرف متعلق بمحذوف حال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ إن وخبرها المقدم، واللام المزحلقة، وآية اسم إن، ولقوم صفة لآية، وجملة يسمعون صفة لقوم ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ الواو عاطفة، وإن حرف مشبه بالفعل، ولكم خبرها المقدم، وفي الأنعام حال لأنه كان صفة لعبرة، واللام المزحلقة، وعبرة اسمها المؤخر ﴿تُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ نسقيكم فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ومما متعلقان بنسقيكم، وفي بطونه صلة ما، وجملة نسقيكم مفسرة لعبرة، أو خبر لمبتدأ محذوف، على حد قوله: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. كأنه قيل: العبرة هي نسقيكم، ومن بين فرث ودم حال لأنه كان في الأصل صفة لقوله لبناً، وقدم عليه، ولك أن تجعله حالاً من ما التي قبله، ومعنى من الأولى للتبعيض؛ لأن اللبن بعض ما في بطونها، والثانية: ابتدائية؛ لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء الذي منه يبتدأ، ولبناً مفعول ثان لنسقيكم، وسائغاً صفة، وللشاربين متعلقان بسائغاً ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ يَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ ومن ثمرات النخيل خبر مقدم، وجملة يتخذون صفة لموصوف محذوف هو المبتدأ المؤخر، أي: ثمر كانوا يتخذون منه سكرًا ورزقاً حسناً؛ لأنهم كانوا يأكلون منه بعضاً، ويتخذون السكر من بعضه الآخر، ولك أن تعلقه بمحذوف دل عليه نسقيكم، أي: نسقيكم من عصير النخيل والأعنان، وعندئذ تكون جملة يتخذون حالاً. وقال أبو حيان: والظاهر تعلق من ثمرات بتتخذون، وكررت من للتوكيد، وكان الضمير مفرداً راعياً لمحذوف، أي: ومن عصير ثمرات، أو على معنى

الثمرات، وهو الثمر، وقيل: تتعلق بنسقيكم، فيكون معطوفاً على مما في بطونه، أو بنسقيكم محذوفة دل عليها نسقيكم المتقدمة، فيكون من عطف الجمل، والذي قبله من عطف المفردات إذا اشتركا في العامل، وقيل معطوف على الأنعام، أي: ومن ثمرات النخيل والأعناب عبرة، ثم بين العبرة بقوله: تتخذون. وقال الزمخشري: ويجوز أن يكون تتخذون صفة موصوف محذوف، كقوله: بكفّي كان من أرمى البشر. تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه. والضمير في منه يعود على العصير المقدر، والأول أضيف، وسكراً مفعول تتخذون، ورزقاً عطف على سكراً، وحسناً صفة، ولا يخفى ما يتولد عن العنب والتمر من خل وزبيب ودبس، وفي المختار: الدبس: ما يسيل من الرطب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن وخبرها المقدم، واللام المرحلة، وآية اسمها المؤخر، وحمله يعقلون صفة لقوم ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ الواو عاطفة على ما قبلها لتساوق الدلائل على عجائب صنعته تعالى وبدائع قدرته، ولك أن تجعلها مستأنفة، مسوقة لما ذكر، وأوحى ربك فعل وفاعل، وإلى النحل متعلقان بأوحى، وأن هي المفسرة لأن في الإيجاء معنى القول دون حروفه، وهو الشرط المعقود لأن التفسيرية، ولك أن تجعلها مصدرية، وهي مع مدخولها نصب بنزع الخافض، والجار والمجرور متعلقان بأوحينا، أي: بأن اتخذي، وسيأتي مزيد بيان لذلك في باب: الفوائد، فتنبه له. ومن الجبال متعلقان باتخذي، فمن للتبعية لأنها لا تبني بيوتها في كل جبل وشجر وكل ما يعرش، وسيأتي مزيد بيان لذلك في باب البلاغة، وبيوتاً مفعول اتخذي، ومن الشجر عطف على من الجبال، وكذلك مما يعرشون ﴿ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الشَّجَرِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا﴾ ثم حرف عطف للتراخي، والسّر فيه أن سعيها لطلب الرزق بعد اتخاذها البيوت لسكنائها لتطلب بعد ذلك الرزق في مظانه، وكلّي فعل أمر وفاعل، ومن كل الثمرات متعلقان بكلّي، فاسلكي الفاء عاطفة، واسلكي عطف على كلّي، وسبل ربك مفعول به، وذللّا حال من السبل؛ لأن الله ذللها لها، ووطأ لها مهادها ومسالكها، أو من فاعل اسلكي، أي: وأنت

منقادة لما أمرت به، وهيئت له ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، وسيأتي الكلام عنه في باب البلاغة، ويخرج فعل مضارع، ومن بطونها متعلقان بيخرج، وشراب فاعل يخرج، ومختلف صفة لشراب، وألوانه فاعل مختلف؛ لأنه اسم فاعل، وفيه خبر مقدم، وشفاء مبتدأ مؤخر، وللناس جار ومجرور متعلقان بشفاء، والجملة صفة ثانية لشراب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تقدم إعراب نظيرتها قريباً، فجدد به عهداً.

□ البلاغة:

(١) الالتفات:

في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ إلى آخر الآية، التفات من الخطاب إلى الغيبة، ولو جاء الكلام على النسق الأول ل قيل: من بطونك، وإنما صرف الكلام هاهنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة، وهي: أنه ذكر للبشر العسل وأوصافه وألوانه المختلفة، وأخبرهم أن فيه فوائد شتى لهم؛ ليلفت انتباههم إليه، ولو قال: من بطونك، لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة، وليس ذلك بخافٍ عن نقدة الكلام.

(٢) التنكير:

ونكر قوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ﴾ ولم يقل: فيه الشفاء لكل الناس، فاندفع الاعتراض بأن كثيرين يأكلون العسل، ولا يشفون مما ألم بهم. فيلاحظ أن النكرة في سياق الإثبات لا تفيد العموم. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد: أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إن أخي استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: سقيته عسلاً فما زاد إلا استطلاقاً، قال «اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً فبرىء.

(٣) التنكيت :

في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَخْذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ وقد تقدمت الإشارة إليه ، وهو هنا في قوله : «من الجبال» إذ معنى من هنا للتبعيض ، ولم يقل في الجبال ؛ لأنها لا تبني بيوتها في كل جبل ، وفي كل شجر ، وكل ما يعرش ، فلم يترك لها الحرية في بناء البيوت ، ولم يكل الأمر إلى شهواتها ، كما وكله إليها في قوله : ﴿ ثُمَّ كُنِيَ مِنْ كُلِّ الْكُنَفَاتِ ﴾ وإنما خولف ذلك ، وحجر عليها في المسكن ، ولم يحجر عليها في المأكّل ؛ لأن مصلحة الأكل حاصلة على الإطلاق لاستمرار مشتهاها منه ، وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها في كل موضع ، ولهذا المعنى بالذات دخلت ، ثم لتفاوت الأمر ، وتباعده بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت والإطلاق لها في تناول الثمرات .

* الفوائد :

أن التفسيرية :

تقدم القول في «أن التفسيرية» وأنها الواقعة بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه ، وقد وقعت هنا بعد الإيحاء لما فيه من معنى القول فما بعدها لا محل له من الإعراب . ومن طريف المناقشات أن أبا عبد الله الرازي ، وهو الفخر المشهور ، منع ذلك ، وقال : إننا لا نسلم أنها مفسرة ، كيف وقد انتفى شرط التفسير ؟ ! لأن الوحي هنا إلهام باتفاق ، وليس في الإلهام معنى القول . قال : وإنما هي مصدرية ، أي : باتخاذ الجبال بيوتاً ، ولكن الفخر الرازي جنح به الخيال هذه المرة ، فلم يقع على الصواب ؛ إذ المقصود من القول الإعلام ، والإلهام : فعل من أفعال الله يتضمن الإعلام ، بحيث يكون الملهم عالماً بما ألهم به ، وإلهام الله النحل من هذا القبيل .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْرِكُ إِلَى أَزْدَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٦٥) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا

يَرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفْنِيعَمَ اللَّهُ
 بِمَحْدُوتٍ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ
 بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهُ هُمْ
 يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

☆ اللفظة:

﴿وَحَفَدَةً﴾: الحفدة: جمع حافد، وهو الذي يحفد، أي: يسرع في الطاعة
 والخدمة، قال:

حَفَدَ الْوَلَاءُ بَيْنَهُنَّ وَأَسْلَمْتُ بِأَكْفُهُنَّ أَزْمَةً الْأَجْمَالِ

وفي الصحاح: الحفدة: الأعوان والخدم أيضاً. وفي المختار: الحفد:
 السرعة، وبابه: ضرب، وحفداً أيضاً بفتح الفاء. ومنه قولهم في الدعاء:
 وإليك نسعى ونحفد، وأحفده: حمله على الحفد، وبعضهم يجعل أحفد
 لازماً، والحَفْد - بفتحيتين -: الأعوان والخدم، وقيل: ولد الولد، واحدهم
 حافد. وفي القاموس والتاج: حفد يحفد، من باب: ضرب، حَفْدًا يسكون
 الفاء، وحفوداً وحفداناً، واحتفد في العمل: أسرع، وحفده: خدمه،
 وأحفد الظلم: أسرع، وأحفده: حمله على الحفد، أي: الإسراع. والحفيد:
 ولد الولد، وجمعه حُفْدَاء. والحافد: الخادم، والتابع، والناصر، وولد
 الولد، وجمعه حفدة وحفد. والحفدة أيضاً: صناع الوشي. وللمفسرين كلام
 طويل حول المراد بهم، واللفظ يحتمل الجميع؛ لاشتغال الحفدة على الكثير من
 المعاني كما تقدم.

○ الإعراب:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُؤَوِّفُكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ الله مبتدأ، وجملة
 خلقكم خبر، ثم حرف عطف للتراخي كما تقدم، ومنكم الواو حرف
 عطف، ومنكم خبر مقدم، وهو معطوف على مقدر، أي: فمنكم من يبقى

محتفظاً بقوة جسمه وعقله، ومنكم، ومن مبتدأ مؤخر، وجملة يرد صلة، ونائب الفاعل مستتر تقديره: هو، وإلى أرذل العمر متعلقان بيرد، وأرذل العمر هو الهرم؛ حيث تغور الأعين، وتضعف الحركات، وترتعش المفاصل، ويدب الوهن إلى جميع أنحاء الجسم، ويستولي الخرف عليه ﴿لَيْكَلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ اللام لام التعليل، وكى حرف مصدري ونصب، ولا نافية، ويعلم منصوب بكى، واللام ومدخولها متعلقة بيرد، ويجوز أن تكون اللام للصيرورة، أي: فكانت عاقبته أنه رجع إلى حال الطفولة في النسيان وعدم الإدراك، وبعد علم ظرف متعلق بيعلم، وشيئاً مفعول به ليعلم، ولك أن تجعل المسألة من باب التنازع، فت نصب شيئاً بالعلم، وهو مصدر، وإن واسمها، وعليهم خبرها الأول، وقدير خبرها الثاني ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ الله مبتدأ، وجملة فضل خبر، وبعضكم مفعول به، وعلى بعض جار ومجرور متعلقان بفضل، وفي الرزق حال، أي: حالة كونكم مرزوقين، فمنكم غني، ومنكم فقير ﴿فَمَا أَلَزَيْتُمْ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ الفاء عاطفة، وما نافية حجازية، والذين اسمها، وجملة فضلوا صلة، والباء حرف جر زائد، ورادي مجرور لفظاً خبر ما محلاً، ورزقهم مضاف إليه من إضافة المصدر إلى مفعوله، وعلى ما متعلقان برادي، وملكت أيما نهم صلة ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ الفاء عاطفة للدلالة على أن التساوي مترتب على التراد، أي: لا يردون عليهم رداً مستتبعاً للتساوي، وإنما يردون عليهم شيئاً يسيراً، وهم مبتدأ، وفيه متعلقان بسواء، وسواء خبرهم، وسيأتي بحث هذا الإيجاز البليغ في باب البلاغة ﴿أَفَنِعْمَةَ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ، والفاء عاطفة على مقدر، أي: يشركون به فيجحدون نعمته، وبنعمة الله متعلقان بيجحدون؛ لأنه متضمن معنى الكفران ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ الله مبتدأ، وجملة جعل خبر، ولكم متعلقان بجعل، ومن أنفسكم حال؛ لأنه كان في الأصل صفة لأزواجاً، وأزواجاً مفعول جعل ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ عطف على ما تقدم، والإعراب مماثل لها ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ

يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ورزقكم فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، ومن الطيبات متعلقان برزقكم، والهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، والفاء عاطفة على مقدر، أي: يكفرون بالله فيؤمنون بالباطل، وبنعمة الله متعلقان بيكفرون، وهم مبتدأ، وجملة يكفرون خبر.

□ البلاغة:

الإيجاز:

في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ إيجاز بليغ، وإشارة إلى أرفع النظم التي يتحتم على البشر سلوكها في دنياهم؛ لتستقيم أمورهم، وتزول أسباب العدواة والخصام من قلوبهم، وليسود السلام بينهم، فقد أخبر تعالى أنه جعلهم متفاوتين في الرزق، ولكن هذا التفاوت لا يعني تفضيلهم عليهم في الإنسانية، أو كأنه يشير إلى أن الواجب يحتم عليكم أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم، حتى تتساووا في الملابس والمطاعم. روي عن أبي ذر الغفاري أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إنما هم إخوانكم، فاكسوهم مما تلبسون، وأطعموهم مما تطعمون». ويزداد هذا المعنى رسوخاً بما تلاه من توبيخ لهم وتقريع؛ لأنهم فرقوا بين الناس، ومايزوا بين الطبقات. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ أَزْوَاجِ الْأَعْمُرِ﴾ إيجاز آخر، إلى الهرم وما يستوجه من حالات الضعف والخرف التي تدنو بالعاجز والهرم إلى عالم الطفولة الأول، مع الفارق البين بين الأمل المترتب على الطفولة ومخايلها المبشرة بالفوز في المستقبل، والأمل بالحياة الراغد في الآتي، أما الآن فليس أمامه إلا مكابدة الحالات التي كان رسول الله ﷺ يتعوذ منها، وهي قوله: «اللهم إني أعوذ بك من البخل والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات».

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧١﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ضَرْبَ

اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ
 مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
 وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ
 عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ
 عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

☆ النسخة:

﴿أَبْكَمُ﴾ : الأبكم: الذي ولد أخرس، فهو أخص من مطلق
 الأخرس . وفي القاموس : البكم - محرك - الخرس كالبكامة ، أو مع عي وبله ،
 أو أن يولد ولا ينطق ولا يسمع ولا يبصر ، وبكم كفرح فهو أبكم وبكيم ،
 والجمع بكم ، وبكم ، ككرم ، امتنع عن الكلام تعمداً . وروى ثعلب عن ابن
 الأعرابي : الأبكم : الذي لا يسمع ولا يبصر ، وعلى هذا يتميز عن الأخرس
 بأنه لا يفهم ولا يفهم ، أما الأخرس فيفهم بالسماع أو بالإشارة ، ويفهم
 بالإشارة .

﴿كَلٌّ﴾ : ثقل على من يلي أمره ويعوله ، وفي القاموس وغيره : مصدر
 كل يكل ، من باب : تعب ، كلاً وكلة وكلاً وكلاً وكلولاً وكلالة وكلولة : تعب
 وأعبا ، والضعيف ، والذي لا ولد له ولا والد ، قفا السكين ، أو السيف ،
 والوكيل ، والصنم ، والمصيبة تحدث ، والعيل ، والعيال ، والثقل . ويطلق
 الكل على الواحد وغيره ، وبعضهم يجمع المذكر والمؤنث على كلول .

○ الإعراب:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الواو
 عاطفة ، ويعبدون فعل مضارع وفاعل ، ومن دون الله حال ، وما مفعول به ،
 وجملة لا يملك صلة ، ورزقاً مفعول به ، ومن السموات والأرض صفة
 لرزقاً ، أو متعلقان برزقاً ﴿شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ شيئاً مفعول به لرزقاً إذا

أردت به المصدر، أو اسم المصدر، كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسَعٍ﴾ (١١) يَتِمًّا... ، وإن أردت به المرزوق كان شيئاً بدلاً منه بمعنى قليلاً، وسيأتي في باب الفوائد تفصيل حول إعراب شيئاً لا بُدَّ من معرفته، ولا يستطيعون: يجوز في هذه الجملة العطف على صلة ما، والإخبار عنهم بعدم الاستطاعة باعتبار معناها؛ لأن ما هنا مفردة لفظاً جمع معنى، ويجوز أن تكون مستأنفة، وعلى كل حال: الواو عائدة على ما، والمراد بها آلهتهم ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ الفاء استئنافية، ولا ناهية، وتضربوا فعل مضارع مجزوم، والواو فاعل، والله متعلقان بتضربوا، والأمثال مفعول به؛ لأن ضرب المثل تشبيه حال بحال، وذلك يتنافى مع الذات الإلهية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إن واسمها، وجملة يعلم خبر، والجملة تعليلية، وأنتم الواو حالية، وأنتم مبتدأ، وجملة لا تعلمون خبر ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ جملة مستأنفة لتعليمهم كيف يضرب الله المثل، وضرب الله مثلاً فعل وفاعل ومفعول به، وعبدًا بدل من مثلاً، ومملوكاً صفة، وجملة لا يقدر على شيء صفة ثانية، وعلى شيء متعلقان بيقدر، أي: من التصرفات ﴿وَمَنْ زَرْقَنَهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ الواو عاطفة، ومن عطف على عبدًا مملوكًا، ومن اسم موصول، أو نكرة موصوفة، كأنه قيل: وحرّاً رزقناه؛ ليطابق عبدًا، وجملة رزقناه صلة على الأول، وصفة على الثاني، ونا فاعل، والها مفعول به، ومنا متعلقان برزقناه، ورزقاً مفعول به ثانٍ إن أردت به الحال، أو مفعول مطلق إن أردت به المصدر، وحسنًا صفة لرزقاً ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ الفاء عاطفة، وهو مبتدأ، وجملة ينفق خبر، ومنه متعلقان بينفق، وسراً وجهراً مصدران منصوبان على المفعولية المطلقة، أي: إنفاق سر وجهر، أو منصوبان على الحال، أي: مسراً ومجاهراً، وتقديم السر على الجهر مشعر بفضيلته عليه، وأن الثواب فيه أكثر، وهل حرف استفهام للنفي، وجمع الضمير في يستوون وإن تقدمه اثنان؛ لأن المراد جنس الأحرار والعبيد المدلول عليهما، والمعنى: لا يستوي الأحرار والعبيد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحمد مبتدأ، والله خبر، وبل حرف إضراب، وأكثرهم مبتدأ، وجملة

لا يعلمون خبر، وأتى بالجملة الإخبارية إرشاداً للعبد إلى وجوب شكر المنعم على ما أسبغ من العوارف والآلاء ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ الواو عاطفة، وضرب الله مثلاً فعل وفاعل ومفعول به، ورجلين بدل من مثلاً ﴿أَحَدُهُمَا﴾ أيكم لا يقدر على شيء ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ أحدهما مبتدأ، وأبكم خبره، وجملة لا يقدر على شيء صفة أبكم ﴿وَهُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ الواو حالية، وهو مبتدأ، وكل خبره، وعلى مولاه متعلقان بكل ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أينما اسم شرط جازم في محل نصب على الظرفية المكانية، وهو متعلق بفعل الشرط هي القاعدة، وقيل بجوابه، ولكل وجه. وقال الرضي: العامل في متى وكل ظرف فيه معنى الشرط شرطه، على ما قاله الأكثرون. غير إذا، والصحيح: أن العامل فيها الجواب، ووجهه ابن الحاجب، فقال: إن الشرط والجزاء جملتان، ولا يستقيم عمل الجواب في اسم الشرط؛ لأنه يؤدي إلى أنه يصير جملة واحدة، لأنه إذا كان ظرفاً له كان من تتمته، ولا يكون جملة ثانية، أما إذا فالعامل فيها هو الجزاء ووجه ذلك قوة توهم الإضافة في إذا وضعفه في متى، وفصل بعضهم، فقال: والأولى أن نفصل ونقول: إن تضمن إذا معنى الشرط فحكمه حكم أخواته من متى ونحوه، وإن لم يتضمن نحو: إذا غربت الشمس جئتكم، بمعنى: أجيئك وقت غروب الشمس، فالعامل هو الفعل الذي في محل الجزاء، وإن لم يكن جزاء في الحقيقة دون الذي في محل الشرط، إذ هو مخصص للظرف، وتخصيصه له إما لكونه صفة له، أو لكونه مضافاً إليه، ولا ثالث بالاستقراء. ويوجهه فعل الشرط، ولا نافية، ويأت جواب الشرط، وبخير متعلقان بيأت ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هل حرف استفهام معناه النفي، ويستوي فعل مضارع، وهو تأكيد للفاعل المستتر، ومن عطف على الفاعل المستتر في يستوي، والشرط موجود، وهو العطف بالضمير المنفصل، وهو لفظ هو، وهو مبتدأ، وعلى صراط مستقيم خبره، والجملة الاسمية صلة من، وحذف مقابل أحدهما أبكم للدلالة عليه بقوله: ومن يأمر، أي: والآخر ناطق قادر خفيف على مولاه أينما يوجهه يأت بخير.

* الفوائد :

☆ الفرق بين المصدر واسم المصدر :

كثر الاختلاف في إعراب شيئاً، ولهذا كان لا بد من التبسيط في أعمال المصدر، والفرق بينهما: أن المصدر هو الذي له فعل يجري عليه كالانطلاق في انطلق، واسم المصدر هو اسم المعنى، وليس له فعل يجري عليه كالحقير، فإنه لنوع من الرجوع، ولا فعل له يجري عليه من لفظه، وقد يقولون مصدر واسم مصدر في الشئين المتغايرين لفظاً، أحدهما للفعل، والآخر للدلالة التي يستعمل بها الفعل، كالطهور والطهور، والأكل والأكل، فالطهور المصدر، والطهور اسم ما يتطهر به، والأكل المصدر، والأكل ما يؤكل.

ويعمل المصدر عمل فعله إن كان يحل محله فعل، إما مع أن المصدرية والزمان ماض، أو مستقبل نحو: عجبت من ضربك زيداً أمس، ونحو: يعجبني ضربك زيداً غداً، وإما مع ما المصدرية والزمان حال فقط ك: يعجبني ضربك زيداً الآن، أي: ما تضربه الآن، وعمل المصدر مضافاً أكثر من عمله غير مضاف، نحو: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ وعمله منوناً هو القياس؛ لأنه أقرب إلى الشبه بالفعل لتنكيره، نحو: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسَعٍ﴾ فإطعام مصدر، وفاعله مستتر، ويتيمماً مفعوله، وعمله معرفاً بأل قليل في السماع ضعيف في القياس؛ لبعده من مشابهة الفعل، كقوله:

ضَعِيفُ النِّكَايَةِ أَعْدَاءُهُ يَخَالُ الْفِرَارُ يُرَاحِي الْأَجَلَ

فالنكاية مصدر مقرون بأل، وأعداءه مفعوله، والمعنى: ضعيف نكايته أعداءه يظن أن الفرار من الموت يباعد الأجل.

أما اسم المصدر فيعمل أيضاً كالمصدر إذا كان ميمياً، كقول العرجي، وقيل: الحارث بن خالد المخزومي:

أَظْلُومٌ إِنَّ مُصَابِكُمْ رَجُلًا أَهْدَى السَّلَامِ تَحِيَّةٌ ظُلْمٌ

فمصاب مصدر ميمي مضاف إلى فاعله، ورجلاً مفعوله، وجملة أهدى السلام نعت رجلاً، وتحية مفعول مطلق، وستأتي قصة هذا البيت، وإن كان غير ميمي لم يعمل عند البصريين؛ لأن أصل وضعه لغير المصدر، فالغسل موضوع لما يغتسل به، والوضوء لما يتوضأ به، ويعمل عند الكوفيين وجماعة من البصريين، وعليه قول القطامي:

أَكْفَرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِئَةَ الرِّتَاعَا

فعطاء اسم مصدر مضاف إلى فاعله والمئة مفعوله الثاني، أما الأول فهو محذوف، أي: عطائك إياي المئة الرتاع، أي: الراتعة، وهي: الإبل التي ترتعي، والواقع أن البصريين اضطربت أقوالهم، فقال بعضهم بالجواز، وقال بعضهم بالمنع.

قصة بيت العرجي:

غنت جارية بحضرة الواصل من شعر العرجي:

أَظْلُومٌ إِنَّ مُصَابِكُمْ رَجُلًا أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةً ظُلُمٌ

فاختلف من بالحضرة في إعراب رجلاً، فمنهم من نصبه، وجعله اسم إن، ومنهم من رفعه على أنه خبرها، والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازني لقنها إياه بالنصب، فأمر الواصل بإشخاصه، قال أبو عثمان: فلما مثلت بين يديه قال: ممن الرجل؟ قلت: من مازن، قال: من أي الموازن؟ قلت: من مازن ربيعة، فكلمني بكلام قومي، وقال: بأسمك؟ لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميماً إذا كانت في أول الأسماء، فكرهت أن أجيبه على لغة قومي لئلا أواجهه بالمكر، فقلت: بكر يا أمير المؤمنين! ففطن لما قصدته، وأعجبه مني ذلك، ثم قال: ما تقول في قول الشاعر:

أَظْلُومٌ إِنَّ مُصَابِكُمْ رَجُلًا أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةً ظُلُمٌ

أترفع رجلاً أم تنصبه؟ فقلت: الوجه النصب، قال: ولم ذلك؟ فقلت: لأن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم، وهو بمنزلة قولك: إن ضربك زيداً

ظلم، فالرجل مفعول مصاب ومنصوب به، والدليل عليه أن الكلام متعلق إلى أن تقول ظلم، فيتم. فاستحسنه الواثق، وأمر له بألف دينار.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٧٧ ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ٧٨ ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ٧٩ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْلًا إِلَى حِينٍ﴾ ٨٠ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ ٨١ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُمِيتُ﴾ ٨٢ ﴿

☆ اللفظة:

﴿ظَعْنِكُمْ﴾: سفركم، يقال: ظعن يظعن من باب: فتح، ظعنًا وظعنًا وظعونًا ومظعنًا: سار ورجل، قال:

أَقَاطِنُ قَوْمِ سَلْمَى أَمْ نَوَّوْا ظَعْنًا إِنْ يَظْعَنُوا فَعَجِيبُ عَيْشٍ مِّن قَطْنَا

والقاعدة هي: كل ما كان بوزن فعل مما عينه حرف حلق يجوز تسكينه، كبحر، ونحر، ونهر، وشعر، وشهر. وقال ابن درستويه في «شرح الفصيح»: أهل اللغة وأكثر النحويين يقولون: كل ما كان الحرف الثاني منه حرف حلق جاز فيه التسكين والفتح، وقال الخذاق: ليس ذلك صحيحاً، ولكن هي كلمات فيها لغتان، فمن سكن من العرب لا يفتح، ومن فتح لا يسكن إلا في ضرورة شعر، والدليل على ذلك أنه قد جاء عنهم مثل ذلك في

كلام كثير، ليس في شيء منه من حروف الحلق شيء، مثل: القبض والقبض، فإنه جاء فيهما الفتح والإسكان. قال: ومما يدل على بطلان ما ذهبوا إليه أنه قد جاء في النطق أربع لغات، فلو كان ذلك من أجل حروف الحلق لجازت هذه الأربع في الشعر والنهر، وكل ما كان فيه شيء من حروف الحلق، قال: ومما جاء فيه الوجهان مما ثانيه حرف حلق: الشعر والشعر، والنهر والنهر، والصخر والصخر، والبعر والبعر، والظعن والظعن، والدأب والدأب، والفحم والفحم، والسحر والسحر للثة، ومما جاء فيه الوجهان، وليس ثانيه حرف حلق نشز من الأرض، ونشز: مرتفع، ورجل صدع وصدع: خفيف اللحم، وليلة النفر والنفر، وسطر وسطر، وقدر وقدر، ولفظ ولفظ، وشمع وشمع، ونطع ونطع، وغذل وغذل، وطرط وطرط، وغبن وغبن، ودرك ودرك، وشبح وشبح: للشخص، وهو صريح في أن طريق ذلك السماع.

﴿أَثَا﴾: الأثاث: متاع البيت الكبير، وأصله من أث، أي: تكاثف وكثر، ومنه: شعر أثيث، أي: كثير مجتمع، قال امرؤ القيس:

وَقَرَعَ يَزِينُ الْمَثْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ أَثِيثٍ كَقِنُو النَّخْلَةِ الْمُتَعَثِكِلِ

وقال الخليل: الأثاث والمتاع واحد، وجمع بينهما لاختلاف لفظيهما، فإن قلت: لا بد من فرق بين الأثاث والمتاع حتى يصح ذكر واو العطف، والعطف يوجب المغايرة، فما هو هذا الفرق؟ قلت: الأثاث: ما كثر من آلات البيت وحوائه، فيدخل فيه جميع أصناف المال، والمتاع: ما ينتفع به في البيت خاصة، فظهر الفرق بين اللفظين.

﴿أَكَنَّا﴾: جمع كن، وهو: ما يستكن فيه من البيوت المنحوتة في الجبال والغيران والكهوف. وفي المختار: الكن: السترة، والجمع أكنان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَاتًا﴾ والأكنة: الأغطية، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الواحد: كنان، وقال الكسائي: كن الشيء: ستره، وبابه: رد. وقد تقدّم ذكر الأكنة.

﴿سَرَبِيلٌ﴾ هي القمصان والثياب المتخذة من الصوف والكتان والقطن،
ومنه قول لبيد:

الحمدُ لله إذ لم يأتني أَجَلِي حتَّى اكتسيتُ من الإسلامِ سِرْبَالَا
○ الإعراب:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ الواو استئنافية، والله: خبر مقدم، وغيب السموات والأرض مبتدأ مؤخر، والواو عاطفة، وما نافية، وأمر مبتدأ، والساعة مضاف إليه، وإلا أداة حصر، وكلمح البصر خبره، وأو حرف عطف، وهو مبتدأ، وأقرب خبره ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إن واسمها، وعلى كل شيء متعلقان بقدير، وقدير خبر إن ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ الله مبتدأ، وجملة أخرجكم خبر، ومن بطون أمهاتكم جار ومجرور متعلقان بأخرجكم ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ الجملة في محل نصب على الحال من الكاف، أي: غير عالين شيئا، وشيئا مفعول به ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وجعل عطف على أخرجكم، والفاعل مستتر تقديره: هو، ولكم في موضع المفعول الثاني لجعل، والسمع مفعوله الأول، والأبصار والأفئدة عطف عليه، ولعل واسمها، وجملة تشكرون خبرها ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ولم حرف نفي وقلب وجزم، ويروا فعل مضارع مجزوم بلم، والواو فاعل، وإلى الطير متعلقان يروا، ومسخرات حال، أي: مذلة للطيران بما خلق لها من أجنحة وأسباب مواتية له، وفي جو السماء متعلقان بمسخرات، أي: للتحليق في سمت العلو وسكاكه ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ الجملة حالية، وما نافية، ويمسكهن فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، وإلا أداة حصر، والله فاعل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن وخبرها المقدم، واللام المرحلة، وآيات اسمها المؤخر، ولقوم صفة لآيات، وجملة يؤمنون صفة لقوم ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ والله مبتدأ، وجملة جعل خبر مفعوله الأول سكناً،

ومفعوله الثاني أحد الجارين، والثاني حال، لأنه كان صفة لسكناء، وتقدم عليه، وإذا كانت جعل بمعنى خلق تعلق أحد الجارين به، واكتفى بمفعول واحد، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تقدم إعراب نظيرتها، والمراد بالبيوت هنا القباب والأبنية من الأدم والأنطاع كالخيام وغيرها، وجملة تستخفونها صفة لبيوتاً، ويوم ظعنكم الظرف متعلق بتستخفونها، ويوم إقامتكم عطف على يوم ظعنكم ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ومن أصوافها عطف على من جلود الأنعام، وأثناً معطوف على بيوتاً، أي: وجعل لكم من أصوافها أثناً، فيكون من باب: عطف الجار والمجرور، والمنصوب على مثله، ومتاعاً عطف على أثناً، وإلى حين متعلقان بمتاعاً، أو صفة له ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظُلُمًا﴾ تقدم إعرابها ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَاتًا﴾ تقدم إعرابها أيضاً ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ جملة تقيكم الحر صفة لسرايل، وحذف المعطوف للعلم به، أي: والبرد ﴿وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ وسرايل عطف على سرايل الأولى، وجملة تقيكم صفة، وتقيكم فعل مضارع، وفاعل مستتر، والكاف مفعوله الأول، وبأسكم مفعوله الثاني، والمراد بها الدروع والجواشن ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ كذلك نعت مصدر محذوف، وقد تقدم كثيراً، ويتم نعمته فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ولعل واسمها، وجملة تسلمون خبرها ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ الفاء استثنائية، وإن شرطية، وتولوا فعل الشرط، وأصله: تتولوا، فحذفت إحدى التاءين، ويجوز أن يكون فعلاً ماضياً، والكلام فيه التفات، ولعله أولى، وجواب إن محذوف، أي: فلا غضاضة عليك، والفاء تعليلية، وإنما أداة حصر كافة ومكفوفة، وعليك البلاغ خبر مقدم، ومبتدأ مؤخر، والمبين صفة.

□ البلاغة:

معنى التشبيه هنا التمثيل ، أي : إن الساعة لما كانت آتية ولا بد ، جعلت من القرب بمثابة لمح البصر ، واللمح : النظر بسرعة ، ولا بد فيه من زمان تنقلب فيه الحديقة نحو المرئي ، وكل زمان قابل للتجزئة ، وقال الزجاج : لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر ، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها ؛ لأنه يقول للشيء كن فيكون . وقيل : المعنى هي عند الله كذلك ، وإن لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة .

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾^{٨٣}
 وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ^{٨٤} وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ^{٨٥}
 وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ^{٨٦} ﴿

☆ اللغة:

﴿ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ : يسترضون ، وقد اختلفت عبارات المفسرين فيها ، فلنرجع إلى كتب اللغة . قال في المختار : عتب عليه : وجد ، وبابه : ضرب ونصر ، ومعتباً أيضاً بفتح التاء ، والتعتب كالتعب ، والاسم المعتبة بفتح التاء وكسرهما . وقال الخليل : العتاب : مخاطبة الإدلال ، ومذاكرة الموحدة ، وعاتبه معاتبة وعتاباً وأعتبه : سزّه بعد ما أساءه ، والاسم منه العتبي ، واستعتب وأعتب بمعنى . واستعتب أيضاً : طلب أن يعتب ، تقول : استعتبه فأعتبه ، أي : استرضاه فأرضاه . وفي الأساس : واستعتبه : استرضاه . وما بعد الموت مُسْتَعْتَب . وبينهم أعتوبة إذا كانوا يتعاتبون . تقول : سمعت منها أعتوبة ، لم تكن إلا أعجوبة . وعتابك السيف . وعاتبْتُ المشيب ، قال النابغة :

على حين عاتبت المشيب على الصبا
وقلت: ألمّا أضح والشيب وازع

أي: قلت للشيب: ما أقبح بك أن تصبو - وعلى: من صلة عاتبت، كما
تقول: عاتبته على الذنب.

﴿نَبَعْتُ﴾: نرسل، وفي القاموس وغيره: بعثه يبعثه، من باب: فتح،
بعثاً وتبعثاً: أرسله وحده، وبعث به: أرسله مع غيره، وبذلك يتضح
صواب أبي الطيب المتنبي في قوله:

فَاجْرَكَ إِلَهُ عَلَى عَلِيلٍ بَعَثَ إِلَى الْمَسِيحِ بِهِ طَبِيبَا

وقد أخطأ صاحب في نقده لهذا البيت لأنه عدى بعث بالباء؛ بحجة أن
بعث يتعدى إلى العاقل بنفسه، وإلى غير العاقل بالباء، وقد صرفه تحامله على
أبي الطيب عن التأمل في قصة البيت، فقد ذكر الواحدي في كتابه: قال:
سمعت الشيخ كريم بن الفضل، قال: سمعت والدي أبا بشر قاضي القضاة،
قال: أنشدني أبو الحسين الشامي الملقب بالمشوق، قال: كنت عند المتنبي
فجاء وكيل علي بن محمد بن سيار بن مكرم، وكان يحب الرمي، فلما دخل
عليه أنشده أبياتاً سخيفة، فنظم المتنبي قصيدته الرائعة في مديح علي بن
مكرم، والتي مطلعها:

ضُرُوبُ النَّاسِ عُشَاقُ ضُرُوبَا فَأَعْذَرُهُمْ أَشْفَهُهُمْ حَيَا

وفيها يصف نفسه بأبيات ما لحسنها نهاية، نثبها فيما يلي:

أَعَزَّمِي طَالَ هَذَا اللَّيْلُ فَاَنْظُرْ	أَمِنَكَ الصُّبْحُ يَفْرَقُ أَنْ يُوُوبَا
كَأَنَّ الْفَجَرَ حَبٌّ مَسْتَزَارٌ	يُرَاعِي مِنْ دُجَّتِهِ رَقِيبَا
كَأَنَّ نُجُومَهُ حَلِيٌّ عَلَيْهِ	وَقَدْ حُذِيتْ قَوَائِمُهُ الْجُبُوبَا
كَأَنَّ الْجَوْ قَاسَى مَا أَقَاسِي	فَصَارَ سَوَادُهُ فِيهِ شُحُوبَا
كَأَنَّ دُجَاهُ يُجَذِّبُهَا سَهَادِي	فَلَيْسَ تَغِيبُ إِلَّا أَنْ يَغِيبَا
أَقْلَبُ فِيهِ أَجْفَانِي كَأَنِّي	أَعُدُّ بِهِ عَلَى الدَّهْرِ الدُّنُوبَا
وَمَا لَيْلٌ بِأَطْوَلَ مِنْ نَهَارٍ	يَظَلُّ بِلَحْظِ حُسَادِي مَشُوبَا

وما مَوْتُ بِأَبْغَضَ مِنْ حَيَاةٍ أَرَى لَهُمْ مَعِيَ فِيهَا نَصِيصًا
ثم يتطرق إلى مديح علي بن مكرم، ويشير إلى قصة وكيله الشاعر
السخيف:

تَيَمَّمَنِي وَكَيْلُكَ مَا دِحَا لِي وَأَنْشَدَنِي مِنَ الشُّعْرِ الْغَرِيْبَا
فَأَجَرَكُ الْإِلَهُ عَلَى عَلِيلٍ بَعَثَتْ إِلَى الْمَسِيحِ بِهِ طَبِيْبَا
وعبر عنه بما لا يعقل؛ لأنه عدى البعث بحرف الجر، أو أنه من جملة
الهدايا التي بعث بها إليه، ولكنها هدية منكرة إذ يقول:
وَلَسْتُ بِمُنْكَرٍ مِنْكَ الْهَدَايَا وَلَكِنْ زِدْتَنِي فِيهَا أَدِيْبَا
أما أبيات الوكيل فهي تافهة غير مستقيمة الوزن؛ ولهذا أعرضنا عنها.
○ الإعراب:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يعرفون
نعمة الله: يعرفون فعل مضارع، والواو فاعل، ونعمة الله مفعول به، وثم
حرف عطف للتراخي، ينكرونها عطف على يعرفون، وعطف بضم للدلالة على
أن إنكارهم أمر مستبعد بعد توفر دلائل المعرفة، وأكثرهم: الواو للحال،
وأكثرهم مبتدأ، والكافرون خبره، أو بالعكس، أي: أنهم كانوا يعرفون
وينحرفون ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ الظرف متعلق بمحذوف، أي:
اذكر، وجملة نبعث إليها الظرف، ومن كل أمة حال؛ لأنه كان في
الأصل صفة لشهيداً، وشهيداً مفعول به ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذُنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ثم حرف عطف للتراخي، ولا نافية، ويؤذن فعل مضارع مبني
للمجهول، وللذين متعلقان به، وقد اختلفت الآراء في هذا الإذن، وأصحها
أنه لا يؤذن لهم في الاعتذار، لا سيما وأن لها مثيلاً في القرآن، وهو قوله:
﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ ولا الواو عاطفة، ولا نافية، وهم مبتدأ، وجملة
يستعتبون خبر، وإنما عطف بضم لطول المدة التي كانت مغبتها منعهم من
الكلام ﴿وَلِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ الواو عاطفة، وإذا ظرف مستقبل

متضمن معنى الشرط، وجملة رأى مضافة إلى الظرف، والذين فاعل رأى، وجملة ظلموا صلة، والعذاب مفعول به، والفاء رابطة لجواب إذا ﴿فَلَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب إذا، ولا نافية، ويخفف فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل مستتر، أي: العذاب، ولا عاطفة، وهم مبتدأ، وجملة ينظرون خبر ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ تقدم نظيرتها، وشركاءهم مفعول رأى ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ جملة قالوا لا محل لها؛ لأنها جواب إذا، وربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء، وهؤلاء مبتدأ، وشركاؤنا خبر، والذين صفة شركاؤنا، وجملة كنا صلة، وكان واسمها، وجملة ندعو خبر كنا، ومن دونك حال من مفعول ندعو المحذوف، أي: ندعوهم ونعبدهم من دونك.

﴿فَأَلْفَوْا إِلَهُهُمْ أَلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الفاء عاطفة، وألقوا فعل وفاعل، وهو الشركاء، وإليهم متعلقان بألقوا، والقول مفعول به، وإنكم لكاذبون: إن واسمها، واللام المرحقة وخبرها، والجملة مقول القول.

﴿وَأَلْفَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

○ الإعراب:

﴿وَأَلْفَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ الواو عاطفة، وألقوا فعل وفاعل، وهو

الكفار، وإلى الله جار ومجرور متعلقان بألقوا، ويومئذ ظرف أضيف إلى ظرف مثله، والتنوين عوضاً عن جملة، وقد مرّ مثاله كثيراً، والسلم مفعول به ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُفْتَرُونَ﴾ الواو عاطفة، وضل فعل ماضٍ، وعنهم متعلقان به، وما فاعل ضل، وجملة كانوا صلة، وكان واسمها، وجملة يفترون خبر كانوا ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ الذين مبتدأ، خبره جملة زدناهم، وجملة كفروا صلة، وصدوا عن سبيل الله عطف على كفروا، وزدناهم فعل وفاعل ومفعول به، وعذاباً مفعول به ثانٍ، وفوق العذاب ظرف متعلق بمحذوف صفة لعذاباً، وبما متعلقان بزدناهم، والباء للسببية، وما مصدرية، أي: بسبب صدهم وإفسادهم، وكان واسمها، وجملة يفسدون خبرها ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الظرف متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، وقد تكررت هذه الجملة مبالغة في التهديد والوعيد، وجملة نبعث مضافة للظرف، وفي كل أمة متعلقان بنبعث، وشهيداً مفعول به، وعليهم متعلقان بشهيداً ومن أنفسهم صفة لشهيداً ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ وجئنا الواو عاطفة، وجئنا فعل وفاعل، وبك جار ومجرور متعلقان بجئنا، وشهيداً حال، وعلى هؤلاء متعلقان بشهيداً ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ونزلنا عطف على جئنا، ونا فاعل، وعليك متعلقان بنزلنا، والكتاب: مفعول به، وتبياناً: مفعول لأجله، أو حال، أي: مبيّناً، ولكل شيء: متعلقان بتبياناً، وهدى ورحمة وبشرى عطف على تبياناً، وللمسلمين متعلقان ببشرى، وهو متعلق بالمصادر الأخرى المتقدمة من حيث المعنى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ إن واسمها، وجملة يأمر خبر إن، وبالعادل متعلقان بيأمر، والإحسان عطف على العدل، وكذلك إيتاء، وذو القربى مضاف لإيتاء ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وينهى عطف على يأمر، والفاعل مستتر، وعن الفحشاء متعلقان بينهى، وما بعده عطف عليه، وجملة

يعظكم حال من فاعل يأمر وينهى، ولعل واسمها، وجملة تذكرون، أي: تتذكرون خبرها.

□ البلاغة:

اتفق علماء البلاغة والمفسرون جميعاً على أن هذه الآية أجمع آية في القرآن للخير والشر، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾... الخ وقد أمر عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح بتلاوتها بدلاً من القذف الذي كان يعقب خطب الجمعة بالإمام علي بن أبي طالب، وبسببها أسلم عثمان بن مظعون. وروى أن النبي ﷺ قرأها على الوليد بن المغيرة فقال له: يا بن أخي! أعد فأعاد النبي ﷺ قراءتها عليه، فقال له: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر.

وقد اشتملت في الواقع على أفانين من البلاغة نيينها فيما يلي:

(١) الإيجاز: فقد أمر في أول الآية بكل معروف، ونهى بعد ذلك عن كل منكر، وختم الآية بأبلغ العظات، وصاغ ذلك في أوجز العبارات.

(٢) صحة التقسيم: فقد استوفى فيها جميع أقسام المعنى، فلم يبق معروف إلا وهو داخل في نطاق الأمر، ولم يبق منكر إلا وهو داخل في حيز النهي، وقدم ذكر العدل؛ لأنه واجب، وتلاه بالإحسان؛ لأنه مندوب، ليقع نظم الكلام على أحسن ترتيب، وقرنهما في الأمر؛ لأن الفرض لا يخلو من خلل وتفريط يجبره الندب والنوافل، وخص ذا القربى بالذكر بعد دخوله في عموم من أمر بمعاملته بالعدل والإحسان لبيان فضل ذي القربى، وفضل الثواب عليه.

(٣) الطباق اللفظي والمقابلة بين يأمر وينهى، وبين العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وبين الفحشاء والمنكر والبغي.

(٤) حسن النسق: في ترتيب الجمل، وعطفها بعضها على بعض كما ينبغي، حيث قدم العدل وعطف عليه الإحسان؛ لكون الإحسان اسماً عاماً،

وإيتاء ذي القربى خاص، فكأنه نوع من ذلك الجنس، ثم أتى بجملته الأمر مقدمة، وعطف عليها جملة النهي.

(٥) التسهيم: لأن صدر الكلام يدل على عجزه، كدلالة صدر البيت المسهم على عجزه.

(٦) حسن البيان: لأن لفظ الآية لا يتوقف من سمعه في فهم معناه؛ إذ سلم من التعقيد في لفظه، ودل على معناه دلالة واضحة بأقرب الطرق وأسهلها، واستوى في فهمه الذكي والغبي.

(٧) الائتلاف: لأن كل لفظة لا يصلح مكانها غيرها.

(٨) المساواة: لأن ألفاظ الكلام قوالب لمعانيه، لا تفضل عنها، ولا تقصر دونها.

(٩) تمكين الفاصلة: لأن مقطع الآية مستقر في حيزه ثابت في مقره وقراره، معناه متعلق بما قبله إلى أول الكلام، ولأنه لا تحسن الموعظة إلا بعد التكليف ببيان الأمر والنهي، ولأن أي لفظة حذفها من ألفاظ الآية يخل المعنى بحذفها اختلالاً ظاهراً، وينقص نقصاً بيتاً.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ٩١ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ ٩٢ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْنَأَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٩٣﴾

☆ النخبة:

﴿تَوْكِيدِهَا﴾: توثيقها، والتوكيد مصدر وكد يوكد بالواو، وفيه لغة

أخرى : أكد يؤكد بالهمز ، ومعناه التقوية ، وهذا كقولهم : ورخت الكتاب وأرخته ، وليست الهمزة بدلاً من واو كما زعم بعضهم ؛ لأن الاستعمالين في المادتين متساويان ، فليس ادعاء كون أحدهما أصلاً أولى من الآخر .

﴿ أَنْكَثًا ﴾ : جمع نَكْث - بكسر النون - وهو ما ينكث قتله ، وفي المصباح : نكث الرجل العهد نكثاً ، من باب : قتل ، نقضه ونبذه فانتكث ، مثل نقضه فانتقض ، ونكث الكساء وغيره نقضه أيضاً ، والنكث بالكسر : ما نقض ليغزل ثانية ، والجمع أنكاث ، مثل حمل وأحمال . وفي القاموس : النكث - بالكسر - : ما نقض من الأكسية والأخبية ليغزل ثانية ، وجمعه أنكاث ، يقال : حبل نكث وأنكاث ، أي : منكوث .

﴿ دَخَلًا ﴾ : مفسدة ودغلاً ، وفي الصحاح : الدغل - بالتحريك - : الفساد ، مثل الدخل . وفي المعاجم : الدخل : العيب . وفي القاموس والتاج : الدخل - بفتحيتين - : ما داخل الإنسان من فساد في العقل أو الجسم ، والخديعة ، والعيب في الحسب ، والقوم الذين ينسبون إلى من ليسوا منهم . ومن غريب أمر الدال والخاء أنهما لا تجتمعان إلا دلتا على فساد أو ظلام ، فالدُّخ والدُّخ - بفتح الدال وضمها - : الدخان ، وناهيك بظلمته واربداده . قالت امرأة أعرابية لزوجها ، وكان قد كبر :

لا خَيْرَ في الشَّيْخِ إِذَا مَا أَجْلَخَا
وَسَالَ غَرْبُ عَيْنِهِ فَاطْلَخَا
وَكَانَ أَكْلًا قَاعِدًا وَشَخَا
تَحْتَ رِوَاقِ الْبَيْتِ يَغْشَى الدُّخَا
وَأَنْثَتِ الرَّجُلُ فَصَارَتْ فَحَا
وَصَارَ وَضَلُ الْغَايَاتِ أَحَا

ودخر : ذل وصغر ، وأدخره : أذله ، ودخس الحافر بكسر الخاء : أصابه داء الدخس بسكون الخاء ، وهو ورم في الحافر . والدخس بضم الدال وسكون الخاء : دابة في البحر ، والدخيس : الملتف من الكلاء ، وإذا التف فقد قارب

السواد، والعدد الكثير، واللحم المكتنز، وتداخلت الأمور: التبتست وتشابهت، والدخل بفتح الدال وسكون الخاء: ما دخل عليك من مالك، ويقابله الخرج، وهو مفسدة لصاحبه ما لم يؤدّ زكاته وما يترتب عليه، ومنه سميت ضريبة الدخل، ودخلة الرجل بثلاث الدال داخلته، وهي محتجة بظلمة الخفاء، والدخيل: من دخل في قوم، وانتسب إليهم، وليس منه، فهو في لبس من أمره، وقلما يكون صالحاً، وداء دخيل، أي: داخل في أعماق البدن، وكل كلمة أعجمية أدخلت في كلام العرب، ودخمه: دفعه بإزعاج، ودخن الطعام واللحم وغيرهما: أصابه الدخان في حال طبخه، أو شيء، فتغلبت رائحة الدخان على طعمه، فهو دخن. والدخن بفتحيتين: الحقد، والفساد، وتغير العقل والدين والحسب، يقال: لست أصالحه على دخن. أي: على مكر وفساد. والدخي بفتح الدال المشددة: الظلمة، وليلة دخياء: مظلمة، وهذا من عجائب اللغات:

﴿أَرْبَنَ﴾: أزيد عدداً، وأوفر مالاً.

○ الإعراب:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ الواو عاطفة، وأوفوا فعل أمر وفاعل، وبعهد الله جار ومجرور متعلقان بأوفوا، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة عاهدتم مضاف إليها الظرف ﴿وَلَا نَنْقُضُوا الْأَيْمَنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ الواو عاطفة، ولا ناهية، وتنقضوا مضارع مجزوم بلا، والواو فاعل، والأيمان مفعول به، وبعد ظرف متعلق بتنقضوا، وتوكيدها مضاف إليه، والواو حالية، والجملة حال من فاعل تنقضوا، وقد حرف تحقيق، وجعلتم الله فعل وفاعل ومفعول به، وعليكم متعلقان بكفيلًا، وكفيلًا مفعول به ثان لجعلتم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تقدم إعراب مثلتها كثيراً ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ الواو عاطفة، ولا ناهية، وتكونوا مجزوم بها، وكان واسمها، والكاف خبرها، وجملة نقضت صلة، وغزلها مفعول به، ومن بعد

قوة حال من فاعل نقضت، أو من مفعوله، أي: محكمة له أو محكماً، وأنكاثاً منصوب بفعل محذوف، أي: فجعلته أنكاثاً، أو يتضمن نقضت معنى صيرت، فهو مفعول ثان، وجوَّز الزجاج فيه وجهاً آخر وهو النصب على المصدرية؛ لأن معنى نقضت نكثت، فهو مطابق لعامله في المعنى، وقيل: هو حال من غزلها، أي: منقوضاً، وستأتي قصة هذه المرأة في باب: الفوائد ﴿نَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ جملة تتخذون حال من ضمير تكونوا، أي: لا تكونوا مثلها متخذين أيمانكم دخلاً، وتتخذون فعل مضارع وفاعل، وأيمانكم مفعول به أول، ودخلاً مفعول به ثان، وبينكم صفة لدخلاً، وأن وما في حيزها مصدر في محل نصب مفعول لأجله، أي: مخافة أن تكون، وأمة اسم تكون، وهي مبتدأ، وأربى خبر، والجملة خبر تكون، ومن أمة جار ومجرور متعلقان بأربى، كانوا يحالفون الحلفاء، ويقطعون العهود والمواثيق، فإذا وجدوا أكثر منهم، وأعز جانباً، نقضوا حلف أولئك، وحالفوا هؤلاء ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيَبَيِّنَ لَكُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إنما كافة ومكفوفة، وهي للحصر، ويبلوكم الله: فعل، ومفعول مقدم، وفاعل مؤخر، وبه متعلقان ببلوكم، وليبين: الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، ويبين فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وجوباً، ولكم متعلقان بيبين، ويوم القيامة ظرف متعلقان بمحذوف حال وما مفعول به، وكنتم صلة، وهي كان واسمها، وفيه جار ومجرور متعلقان بتختلفون، وجملة تختلفون خبر كنتم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الواو عاطفة، ولو شرطية، وشاء الله فعل وفاعل، واللام واقعة في جواب لو، وجعلكم فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول، وأمة مفعول به ثان، وواحدة صفة ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ الواو حالية، ولكن حرف استدراك مهملة لأنها خففت، ويضل فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: هو، ومن مفعول به، ويشاء صلة، ويهدي من يشاء عطف على ما تقدم ﴿وَلَسْتَ لَنْ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، وتسالن فعل مضارع معرب؛ لأن النون لم

تباشره، فهو مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين نائب فاعل، والنون المشددة هي نون التوكيد الثقيلة، وعما متعلقان بتسألن، وجملة كنتم تعملون خبر كنتم.

* الفوائد:

روى التاريخ أن امرأة حمقاء اسمها ريطة بنت سعد بن تميم من مكة، اتخذت مغزلاً قدر ذراع، وصنارة مثل إصبع، وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل هي وجواربها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن، فالكلام تشبيه تمثيلي مرسل، والمشبه به معين.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٩٥ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَدَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٦ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٧﴾

○ الإعراب:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ كرهه تأكيداً مع التصريح بالنهي عنه مبالغة في قبحه ﴿فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ الفاء فاء السببية المسبوقة بالنهي، وتزل مضارع منصوب بإضمار أن، وقدم فاعل، وبعد ظرف متعلق بتزل، وثبوتها مضاف إليه ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وتذوقوا عطف على تزل، والسوء مفعول به، والباء حرف جر، وهي للسببية، وما مصدرية، وهي مع مدخلوها في محل جر بالباء، والجار

والمجرور متعلقان بتذوقوا، وعن سبيل الله متعلقان بصددتم، ولكم خبر مقدم، وعذاب مبتدأ مؤخر، وعظيم صفته ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الواو عاطفة، ولا ناهية، وتشتروا فعل مضارع مجزوم بلا، وبعهد الله متعلقان بتشتروا، فالباء داخله على المتروك، وثمناً مفعول به، وقليلاً صفة ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن واسمها، والظرف صلة ما، وهو مبتدأ، وخير خبر، والجملة خبر إن، ولكم متعلقان به، وإن شرطية، وكنتم في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسم كان، وجملة تعلمون خبرها، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، أي: فلا تنقصوا ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ما اسم موصول مبتدأ، وعندكم ظرف متعلق بالصلة، وجملة ينفد خبر ما، ومثلها وما عند الله باق ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ اللام موطئة للقسم، ونجزيين فعل مضارع مبني على الفتح لتأكيد النون المشددة، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والذين صبروا مفعوله، وأجرهم مفعول ثان لنجزيين، وبأحسن جار ومجرور متعلقان بنجزيين، وهو صفة لمحذوف، أي: بجزء أحسن، وما مصدرية، وكان واسمها، وجملة يعملون خبرها، ولك أن تجعل ما موصولة، والتقدير: بجزء أحسن من عملهم الذي كانوا يعملونه في الدنيا، أو نجعل الأجر متناسباً مع الأحسن من أعمالهم ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ من اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ، وعمل فعل ماض في محل جزم فعل الشرط، ومن ذكر متعلقان بمحذوف حال من فاعل عمل، وأو حرف عطف، وأنثى عطف على ذكر، وهو الواو حالية، وهو مبتدأ، ومؤمن خبر، والجملة حالية، فلنحيينه: الفاء رابطة، واللام موطئة للقسم، ونحيينه فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والهاء مفعول به، وحياة مفعول مطلق، وطيبة صفة، وجملة فلنحيينه جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه خبر من، ولك أن تجعل من اسماً موصولاً، والفاء الداخلة لما في الموصوف من رائحة الشرط، فتكون جملة «فلنحيينه» خبره.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تقدم إعرابها، وسيأتي مزيد بيان لهذه الآيات في باب البلاغة .

□ البلاغة:

(١) في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إلى آخر الآية، فنون شتى، أبرزها التتميم، وقد تقدم القول فيه وتكرر في هذه الآية مرتين: الأولى: في قوله: ﴿مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ﴾ لأن من الشرطية أو الموصولية تفيد العموم، فكان لا بد من تميمها بذلك للتأكيد، وإزالة لوهم التخصيص جرياً على معتقدات العرب القديمة في تفضيل الذكر على الأنثى، وإيثاره بكل ما هو خير. والثانية: في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وقد اختلفت الآراء في هذا التتميم، وما هو المراد بالحياة الطيبة التي ينالها من هو بهذه المثابة، وأحسن ما نختاره منها قول الزمخشري، ونقله بنصه لفائدته، قال وأبدع:

وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح - موسراً كان أو معسراً - يعيش عيشاً طيباً، إن كان موسراً فلا مقال فيه، وإن كان معسراً فمعه ما يطيب عيشه، وهو القناعة والرضا بقسمة الله، وأما الفاجر فأمره على العكس، إن كان معسراً فلا إشكال في أمره، على حد قول أبي دلالة:

ما أحسنَ الدينَ والدُّنيا إذا اجتمعا

وأقبحَ الكُفْرَ والإفلاس في الرَّجُل

وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يهنأ بعيشه. ويؤيد هذا ما نراه من انهماك النوع البشري في ابتكار وسائل التدمير والخراب للاستعلاء، والاستغلال، والسيطرة على العالم. وهيهات!!

(٢) وفي قوله: ﴿فَنَزَلَ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ استعارة تمثيلية للمستقيم الحال يقع في شر عظيم، ويسقط فيه؛ لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من

حال خير إلى حال شر، ويقال لمن أخطأ في شيء: زلت به قدمه، ومنه قول زهير:

تداركْتُما عَبَساً وقد ثلَّ عرشها وذبيان قد زلَّتْ بأقدامها النعل

(٣) وفي قوله: ﴿فَنَزَلَ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ الخ، توحيد القدم وتنكيرها، والسر في ذلك استعظام أن تزلَّ قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن توطأ لها مهاده، وثبتت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟! وفيه تقليل للواعي من الناس لما يقضي بسداد الرأي، واستقامته. ومن جنس إفادة التنكير هنا للتقليل إفادته له في قوله تعالى: ﴿وَتَعَبَّأْ أُذُنٌ وَرِعِيَّةٌ﴾ وفي قوله: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ فنكر الأذن والنفس تقليلاً للواعي من الناس لما يقضي بسداده.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ٩٨ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ١٠٠ وَإِذَا بَدَلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٢﴾

○ الإعراب:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ الفاء استثنائية، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متعلق باستعد، وجلة قرأت مضاف إليها الظرف، والقرآن مفعول به، أي: إذا أردت قراءة القرآن، والفاء رابطة للجواب، واستعد فعل أمر، وفاعله أنت، وبالله متعلقان باستعد، وكذلك يتعلق باستعد من الشيطان، والرجيم صفة ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٨﴾ الجملة تعليلية للأمر، وإن واسمها، وجملة ليس خبرها، وله خبر مقدم ليس، وسلطان اسمها المؤخر، وعلى الذين جار ومجرور متعلقان بسلطان؛ لأنه مصدر بمعنى التسلط، أي: الاستيلاء، والقهر، والتمكن، وآمنوا صلة، وعلى ربهم متعلقان بيتوكلون ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَنُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهم وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ إنما كافة ومكفوفة، وسلطانه مبتدأ، وعلى الذين خبر، وجملة يتولونه من الفعل والفاعل والمفعول به صلة الموصول وعائده، والذين عطف على الذين الأولى وجملة هم مشركون صلة، وهم مبتدأ، وبه متعلقان بمشركون، ومشركون خبر هم ﴿١٠١﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴿١٠٢﴾ الواو عاطفة، وإذا ظرف مستقبل، وبدلنا فعل وفاعل، وآية مفعول به، ومكان مفعول ثانٍ لبدلنا، أو ظرف مكان متعلق ببدلنا، وآية مضاف إليه ﴿١٠٣﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَلُّ قَالُوا ﴿١٠٤﴾ الواو اعتراضية، والجملة معترضة بين شرط إذا وجوابها لا محل لها، والله مبتدأ، وأعلم خبر، وبما متعلقان بأعلم، وينزل صلة، وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب إذا ﴿١٠٥﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٦﴾ الجملة مقول القول، وإنما كافة ومكفوفة، وأنت مبتدأ، ومفتر خبر، وبل حرف اضراب، وأكثرهم مبتدأ، وجملة لا يعلمون خبر، وحذف مفعول يعلمون للعلم به، أي: حقيقة التبديل والنسخ وفائدتهما ﴿١٠٧﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿١٠٨﴾ جملة نزله مقول قل، وهو فعل ومفعول به مقدم، وروح فاعل مؤخر، والقدس مضاف إليه من إضافة الموصوف لصفته، أي: الروح المقدس، وهو جبريل، ومن ربك متعلقان بنزله، وبالحق حال، أي: متلبساً بالحق، وليثبت: اللام لام التعليل، ويثبت فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل هو، والذين مفعول به، وآمنوا صلة، وليثبت في محل نصب مفعول لأجله، وجر باللام لأن المصدر ليس بقلبي، ولاختلاف الفعل؛ لأن المنزل هو جبريل، والمثبت هو القرآن ﴿١٠٩﴾ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١١٠﴾ هذان المصدران معطوفان على محل ليثبت، أي: تثبيتاً، وهداية، وبشرى.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۚ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۚ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۚ﴾

☆ اللفظة:

﴿يُلْحِدُونَ﴾: يميلون، ولحدت القبر، وألحدته، وقبروه في لحد، وملحدود، ولحد للميت، وألحد له حفر له لحداً، ولحد الميت، وألحدته: جعله في اللحد، ولحد السهم عن الهدف، وألحد، وألحد في دين الله، ولحد عن القصد: عدل عنه، وألحد في الحرم، ولحد إليه: مال إليه، والتحد إليه: التجأ، ومالي دونه ملتحذ، قال ذو الرمة:

إذا استوسجت أذانها استأنست لها

أناسي ملحدود لها في الحواجب

○ الإعراب:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، وقد حرف يراد به التأكيد هنا، ونعلم فعل مضارع، وفاعل مستتر، وأن وما في حيزها سدت مسدّ مفعولي نعلم، وأن واسمها، وجملة يقولون خبرها ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ الجملة مقول قولهم، وإنما كافة ومكفوفة، ويعلمه بشر فعل ومفعول به مقدم، وبشر فاعل مؤخر، وهو قين، أي: حداد رومي اسمه جبر. يفتح الجيم وسكون الباء الموحدة، وهو غلام عامر بن الحضرمي، وقيل:

يعنون جبراً ويساراً، وكانا يصنعان السيوف بمكة، ويقرآن التوراة والإنجيل، وكان الرسول ﷺ يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه، وقيل غير ذلك مما لا يخرج عن الصدّد ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ لسان مبتدأ، والذي مضاف إليه، وجملة يلحدون إليه صلة، وأعجمي خبر لسان، أي: غير مبين، وهذا مبتدأ، وعربي خبر، ومبين صفة، وهذا تأكيد على عروبة لغة القرآن، ووجه الجواب أن الذي يعزّون إليه أنه يعلم النبي القرآن رجل أعجمي في لسانه لكثرة وعجمة تمنعانه من الإفصاح والإبانة، ومحمد ﷺ الذي جاءكم بهذا القرآن المبين؛ الذي عجزتم عن الإتيان بسورة من مثله ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا نُنَزِّلُ اللَّهُ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إن واسمها، وجملة لا يؤمنون صلة، وبآيات الله متعلقان بيؤمنون، وجملة لا يهديهم الله خبر إن، والواو عاطفة، ولهم خبر مقدم، وعذاب مبتدأ مؤخر، وأليم صفته ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا نُنَزِّلُ اللَّهُ﴾ إنما كافة ومكفوفة، ويفتري فعل مضارع، والكذب مفعول به مقدم، والذين فاعل مؤخر، وجملة لا يؤمنون بآيات الله صلة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الواو اعتراضية، وأولئك مبتدأ، وهم ضمير فصل، أو مبتدأ ثان، والكاذبون خبر أولئك، أو خبر هم، والجملة خبر أولئك، وجملة «أولئك هم الكاذبون» معترضة.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ أولى الأعراب التي ذكرها المعربون لمن أن تكون بدلاً من الذين لا يؤمنون بآيات الله، وتكون جملة «وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» اعتراضاً بين البديل والمبدل منه، والمعنى: إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه، ويجوز على بعد أن تعربه مبتدأ خبره جملة فعليهم، والفاء زيدة لتضمن الموصول معنى الشرط، وجملة كفر بالله صلة، كما يجوز أن تعرب من شرطية، وبالله جار ومجرور متعلقان بكفر، ومن بعد إيمانه حال، وإلا أداة استثناء، ومن مستثنى متصل؛ لأن الكفر يكون بالقول من غير اعتقاد، وقيل: هو منقطع؛ لأن الكفر اعتقاد، والإكراه على القول دون الاعتقاد كالمكره، وجملة أكراه صلة

الموصول، وقلبه الواو حالية، وقلبه مبتدأ، ومطمئن خبر، وبالإيمان متعلقان بمطمئن ﴿وَلَكِنْ مِّنْ شَرِّحٍ يَّالْكُفْرَ صَدْرًا فَعَلَيْتَهُمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولكن: الواو استئنافية، ولكن حرف مشبه بالفعل، واسمها ضمير الشأن، ومن مبتدأ، وشرح فعل الشرط إن جعلتها صلة، وصلة إن جعلتها موصولاً، والله فاعل، وصدرًا تمييز، أي: طاب به نفساً واعتقده، فعليهم: الفاء رابطة، وعليهم خبر مقدم، وغضب مبتدأ مؤخر، ومن الله صفة، ولهم خبر مقدم، وعذاب مبتدأ مؤخر، وعظيم صفة.

□ البلاغة:

☆ الإلجاء:

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ الخ، وقول الله تعالى جواباً لهذا القول: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ والإلجاء فن لم يذكره علماء البديع كثيراً، وقد تكلم عنه أسامة بن منقذ في «بديعه» تحت اسم: الالتجاء والمغالطة، وهو أن تكون صحة الكلام المدخول ظاهرة موقفه على الإتيان فيه بما يبادر الخصم إلى رده بشيء يلجئه إلى الاعتراف بصحته، أو بعبارة أوضح: لكل كلام يرد فيه على المعارض عليه جواب مدخول، إذا دخله الخصم به التجأ إلى تصحيح الجواب، كقوله تعالى الأنف الذكر؛ فإن للخصم أن يقول: نحن أردنا القصص والإخبار، ونحن نعلم أن الأعجمي إذا ألقى الكلام إلى العربي لا يخرج به عن كونه تعلم معانيه من الأعجمي، فظاهر الكلام لا يصح أن يكون رداً على المشركين، فيقال لهم: هب الأعجمي علمه المعاني، فهذه العبارة الهائلة التي قطعت أطماعكم عن الإتيان بمثلها من علمها له؟ فإن كان هو الذي أتى بها من قبل نفسه، فقد أقررت أن رجلاً واحداً منكم أتى بهذا المقدار من الكلام الذي هو مئة سورة وأربع عشرة سورة، وقد عجزتم بأجمعكم، وكل من تدعون من دون الله عن الإتيان بأقصر سورة، فإن قلت: إن الأعجمي علمه المعاني والألفاظ، فهذا أشد عليكم؛ لأنه

إقرار بأن رجلاً أعجيباً قدر على تبين الآيات المتضمنة للأخبار والقصص، وقد عجزتم عن ثلاث آيات منهم، يلجئهم ذلك إلى الإقرار بأنه من عند الله.

* الفوائد:

☆ قصة عمار بن ياسر:

روى التاريخ أن ناساً من أهل مكة فتنوا، فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من أكرهه، فأجرى كلمة الكفر على لسانه، وهو معتقد للإيمان، منهم: عمار بن ياسر، وأبواه ياسر وسمية، وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم، عذبوا، فأما سمية أم عمار فربطوها بين بعيرين، وضربها أبو جهل بحربة في بطنها فماتت، وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام. وأما عمار فإنه أعطاهم بعض ما أرادوا بلسانه مكرهاً، فقيل: يا رسول الله! إن عماراً كفر، فقال: «كلا إن عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه» فأتى عمار رسول الله يبيكي، فقال رسول الله ﷺ: «ما وراءك؟» قال: شر يا رسول الله! نلت منك فذكرت، فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه وقال: «إن عادوا لك فقل لهم ما قلت» إلى آخر هذه القصة الممتعة التي يرجع إليها في المطولات.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ لَوْلَا ذِكْرُ اللَّهِ فِي قُلُوبِهِمْ ۝ لَا جُرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنَّا بَعْدَ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿١٠٧﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا
عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴿١٠٩﴾

☆ النِّفْسُ:

﴿النفس﴾ يؤخذ من مجموع أقوال المعاجم العربية أن النفس مصدر، وهي أيضاً الروح والدم، يقال: دفع نفسه، أي: دمه. والجسد، يقال: هو عظيم النفس، أي: الجسد. والعين، يقال: أصابته نفس، أي: عين. وشخص الإنسان، ونفس الشيء: عينه. ويؤكد به فيقال: جاءني هو نفسه، وبنفسه. ونفس الأمر: حقيقته. والنفس أيضاً: العظمة، والهمة، والعزة، والأنفة، والإرادة، والرأي، والعقوبة، والماء. والنفس مؤنث إن أريد بها الروح، نحو: خرجت نفسه، ومذكر إن أريد بها الشخص، نحو: عندي خمسة عشر نفساً. والجمع أنفس ونفوس. ويقال: في نفسي أن أفعل شيئاً، أي: قصدي ومرادي أن أفعل كذا، وفلان يؤامر نفسه ويشاورهما، أي: يتردد في الأمر، ويتجه له رأيان، لا يدري على أيهما يثبت. وخرجت نفسه، وجاد بنفسه: إذا مات. أما معنى النفس عند الفلاسفة فمرجعه علم النفس، وليس هذا مكانه، والخلاف فيه طويل، وقد أصاب أبو الطيب حيث قال:

تَخَالَفَ النَّاسَ حَتَّى لَا اتَّفَقَ لَهُمْ
إِلَّا عَلَى شَجَبٍ وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ
فَقِيلَ تَخَلَّصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً
وَقِيلَ تَشْرُكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ
وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الدُّنْيَا وَمُهِجَتِهِ
أَقَامَهُ الْفِكْرُ بَيْنَ الْهَمِّ وَالتَّعَبِ

☆ من قصيدة الرئيس ابن سينا في النفس:

هذا؛ ومن المفيد أن نقبس هنا أبياتاً مختارة من قصيدة الشيخ الرئيس
أبي علي بن سينا في النفس:

هبطت إليك من المحلِّ الأرفع
 وَرَقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمُّعٍ
 محجوبةٌ عن كلِّ مقلّةٍ عارِفٍ
 وهي التي سَفَرَتْ ولم تتبرِّقِ
 وصلتْ على كُزِّهِ إليك وربما
 كرهت فراقَكَ وهي ذاتُ توجُّعٍ
 أَنْفَتْ وما أنستْ فُلَمَّا واصلتْ
 ألفت مجاورةَ الغرابِ الأبقعِ
 وأظنُّها نسيَتْ عهداً بالحمى
 ومنازلاً بفراقها لم تَقْنَعِ
 حتى إذا اتَّصلتْ بهاء هُبوبها
 عن ميم مَرَكزها بذات الأجرعِ
 علقَتْ بها ثاءُ الثقيلِ فأصبحت
 بين المعالمِ والطُّلولِ الخُضْعِ
 تبكي وقد ذكرتْ عُهُوداً بالحمى
 بمدامعِ تَهْمِي ولما تُقْلَعِ
 وتظُلُّ ساجعةً على الدِّمَنِ التي
 درستْ بتكرارِ الرِّيحِ الأربعِ

ويطول بنا القول إن حاولنا شرح ما رمزت إليه هذه الأبيات المقتبسة من
 العينية الرائعة، وحاصل ما أراده أنه يتساءل: لم تعلق النفس بالبدن؟ إن
 كان رائدها غير الكمال فهي حكيمة خفية على الأذهان، وإن كان رائدها
 الكمال فلم ينقطع تعلقها به قبل حصوله.

○ الإعراب:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ الإشارة إلى ما تقدم
 من ذكر الغضب والعذاب، واسم الإشارة مبتدأ خبره بأنهم، أي: ثابت

بسبب أنهم، فالباء للسببية، وإن واسمها، وجملة استحبوا خبرها، أي: اختاروا، والحياة مفعول به، والدنيا صفة، وعلى الآخرة جار ومجرور متعلقان باستحبوا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ وأن عطف على بأنهم، وأن واسمها، وجملة لا يهدي خبرها، والقوم مفعول به، والكافرين صفة القوم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أولئك مبتدأ، والذين خبره، وجملة طبع الله صلة، وعلى قلوبهم جار ومجرور متعلقان بطبع، وسمعتهم وأبصارهم عطف على قلوبهم، وأولئك مبتدأ، وهم مبتدأ ثان، أو ضمير فصل، والغافلون خبرهم، أو خبر أولئك ﴿لَا جُرمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لا جرم تقدم القول فيها، وأن واسمها، وفي الآخرة متعلقان بالخاسرون، وهم مبتدأ، والخاسرون خبره، والجملة خبر إن ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَنَّهُدُوا وَصَبَرُوا﴾ ثم للترتيب مع التراخي لتباعد حال هؤلاء عن حال أولئك، وإن واسمها، وللذين خبر إن بمعنى أنه وليهم وناصرهم، وجملة هاجروا صلة، ومن بعد متعلقان بهاجروا، وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر مضاف للظرف، أي: من بعد فتنتهم، ثم حرف عطف وتراخ، وجاهدوا وصبروا عطف على هاجروا ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن واسمها ومن بعدها حال، واللام المرحلقة، وغفور خبر إن الأول، ورحيم خبرها الثاني، هذا وقد أسهب المعربون في إعراب هذه الآية، واضطربت أقوالهم اضطراباً شديداً؛ لفرط عنايتهم وتحريم مواقع الصواب، فجهدهم مشكور، ولكن لا حاجة لذلك كله، والكلام واضح لا لبس فيه ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ الظرف متعلق بمحذوف، أي: اذكر، وجملة تأتي مضافة للظرف، وكل نفس فاعل تأتي، وجملة تجادل حال، وعن نفسها متعلقان بتجادل، وإنما جازت إضافة النفس إلى النفس، ومن شرط المتضايفين أن يكونا متغايرين لأن المراد بالنفس الأولى الإنسان وبالثاني ذاته، فكأنه قال: يوم يأتي كل إنسان يجادل على ذاته، أي: يعتذر عنها لا يهيمه شأن غيره ﴿وَتُؤْفَقُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

وتوفى عطف على تجادل، وكل نفس نائب فاعل، وما عملت مفعول توفى الثاني، وهم الواو حالية، أو عاطفة، وهم مبتدأ، وجملة لا يظلمون خبر.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ١١٣﴾

○ الإعراب:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ الواو استئنافية، وضرب الله مثلاً فعل وفاعل ومفعول به، وقرية بدل من مثلاً، أي: جعل القرية الموسومة بهذه السمات مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا، وجملة كانت صفة لقرية، وكان واسمها المستتر، وآمنة خبرها، ومطمئنة خبر ثان، وجملة يأتيها خبر ثالث، وهو فعل مضارع، ومفعول به مقدم، ورزقها فاعل مؤخر، ورغداً وصف للمصدر، أي: إتياناً رغداً فهو مفعول مطلق، أو بمعنى راغداً فهو حال، ومن كل مكان متعلقان بيايتها ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ الفاء عاطفة، وكفرت فعل ماضٍ، والفاعل مستتر يعود على القرية، وبأنعم الله متعلقان بكفرت، فأذاقها: الفاء عاطفة للتعقيب، وأذاقها فعل، ومفعول به مقدم، وفاعل مؤخر، ولباس الجوع والخوف مفعول ثان، والباء حرف جر للسببية، وما مصدرية، أو موصولة، والعائد محذوف، أي: بسبب صنعمهم، أو بسبب الذي كانوا يصنعونه ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، وقد حرف تحقيق، وجاءهم رسول فعل ماضٍ ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر، ومنهم صفة لرسول، فكذبوه: الفاء حرف عطف، وكذبوه فعل ماضٍ

وفاعل ومفعول به ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ فأخذهم عطف على فكذبوه، والعذاب فاعل، والواو حالية، وهم مبتدأ، وظالمون خبر، والجملة حالية.

□ البلاغة:

في قوله تعالى: ﴿ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ مجاز مرسل واستعارتان مكنيتان، أما المجاز المرسل ففي قوله: قرية، والمراد: أهلها، فعلاقة المجاز المحلية إذ أطلق المحل وأريد الحال، وأما الاستعارة الأولى فهي استعارة الذوق للباس، فأما الإذاقة فقد كادت تجري عند العرب مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضرر، شبه ما يدرك منهما من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ البشع، وأما اللباس فقد صح التشبيه به؛ لأنه يشتمل على لابس، وأما الاستعارة الثانية فهي استعارة اللباس للجوع والخوف، كأنما قد أحاط بهم، واشتمل عليهم، كما يشتمل اللباس على لابس، وبناء الاستعارة على الاستعارة ميدان فسيح، تفضل فيه الأفكار، وقد ينغلق فهمه كما انغلق على ابن سنان الخفاجي في نقده للآمدي، حين تناول بيت امرئ القيس:

فقلتُ له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناءً بكلّكلٍ

فقد قال الآمدي في كتاب «الموازنة»: وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى من لم يعرف موضوعات المعاني ولا المجازات، وهو في غاية الحسن، والجودة، والصحة، وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل، فذكر امتداد وسطه، وتناقل صدره للذهاب، والانبعاث، وترادف أعجازه وأواخره شيئاً فشيئاً، وهذا عندي منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته، وذلك أشد ما يكون على من يراعيه، ويترقب تصرمه، فلما جعل له وسطاً يمتد، وأعجازاً رادفة للوسط، وصدرأ مثاقلاً في نهوضه، حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب، وجعله متمطياً من أجل امتداده؛ لأن تمطى وتمدد بمنزلة واحدة، وصلاح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه، وهذه أقرب

الاستعارات من الحقيقة وأشد؛ لملاءمته هنا لما استعيرت له، وكذلك قول زهير:

... .. وعُرِّي أفراسُ الصِّبا ورواحلُه

لما كان من شأن ذي الصِّبا أن يوصف أبدأ بأن يقال: ركب جواده وجرى في ميدانه، وجمع في عنانه، ونحو هذا، حسن أن يستعار للصِّبا اسم الأفراس، وأن يجعل النزوع عنه أن تعرى أفراسه ورواحله، وكانت هذه الاستعارة أيضاً من أليق شيء بما استعيرت له.

وقال ابن سنان الخفاجي في كتابه «سر الفصاحة»: حول قول امرئ القيس:

فقلتُ له لما تَمَطَّى بصلْبِه وأردفَ أعجازاً وناءً بكَكْلِكِلِ

إن هذا الذي ذكره الآمدي ليس بمرضي غاية الرضا، وإن بيت امرئ القيس ليس من الاستعارة الجيدة ولا الرديئة، بل هو وسط، فإن الآمدي قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل الليل وسطاً ممتداً استعار له اسم الصلب، وجعل متمطياً من أجل امتداده، وحيث جعل له أولاً وآخرأ استعار له عجزاً وكلكلاً، وهذا كله إنما يحسن بعضه مع بعض، فذكر الصلب إنما يحسن من أجل العجز، والوسط والتمطي من أجل الصلب، والكلكل لمجموع ذلك استعارة مبنية على استعارة أخرى. هذا ما قاله الرجلان بصدد الاستعارة المبنية على استعارة أخرى، وقد غفل ابن سنان على سموه في البلاغة عن آية القرآن، وإلا ما كان أساغ لنفسه أن يذم هذه الاستعارة.

وروي أن ابن الراوندي الزنديق قال لابن الأعرابي إمام اللغة والأدب: هل يُذاق اللباس؟ فقال له ابن الأعرابي: لا بأس أيها النسناس، هب أن محمداً ما كان نبياً أمّا كان عربياً؟ كأنه طعن في الآية بأن المناسب أن يقال: فكساها الله لباس الجوع، أو فأذاقها الله طعم الجوع، فرد عليه ابن الأعرابي. وقد أجاب علماء البلاغة أن هذا من تجريد الاستعارة، وذلك أنه استعار اللباس لما خشي الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه

اشتغال الثوب على اللابس، ثم ذكر الوصف ملائماً للمستعار له وهو الجوع والخوف؛ لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه غيره، فكانت الاستعارة مجردة، ولو قال: فكساها كانت مرشحة، قيل: وترشيح الاستعارة وإن كان مستحسنًا من جهة المبالغة، إلا أن للتجريد ترجيحاً من حيث أنه روعي جانب المستعار له، فازداد الكلام وضوحاً.

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۖ إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۖ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۖ ۝ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ ۝ ﴾

○ الإعراب:

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا ﴾ الفاء الفصيحة، أي: إذا استبان لكم حال من كفر، وما آل إليه أمرهم، فانتهاوا عما أنتم عليه، وأقلعوا عن كفران النعم، وكلوا، واشربوا، ومما متعلقان بكلوا، وجملة رزقكم صلة، وحلالاً حال، ولك أن تجعله مفعولاً به لكلوا، وطيباً صفة ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ واشكروا نعمة الله فعل أمر وفاعل ومفعول به، وإن شرطية، وكنتم فعل الشرط، وكان واسمها، وإياه مفعول مقدم لتعبدون، وجملة تعبدون خبر كنتم ﴿ إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ ﴾ إنما كافة ومكفوفة، وحرم فعل وفاعل مستتر وعليكم جار ومجرور متعلقان بحرم، والميتة مفعول به، والدم ولحم الخنزير عطف على الميتة، وما عطف أيضاً، وجملة أهل صلة، ولغير الله حال،

وبه متعلقان بأهل، وقد تقدمت هذه الآية ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ عَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَاكِدٍ فَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا﴾ الفاء تفرعية، ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ، واضطر فعل ماض مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط، ونائب الفاعل مستتر يعود على من، وغير باغ حال، ولا عاد عطف على باغ، والفاء رابطة، وإن واسمها، وغفور خبرها الأول، ورحيم خبرها الثاني، والجملة في محل جزم جواب الشرط ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ لا ناهية، وتقولوا مضارع مجزوم بلا، والواو فاعل، ولما تصف اللام حرف جر، وما مصدرية، وهي مع مدخولها في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بتقولوا، وألستكم فاعل تصف، والكذب مفعول تصف، وجملة هذا حلال مقول القول، فيكون المعنى: ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألستكم الكذب، أي: لتعودها عليه وجريانها به، أي: لا تحللوا ولا تحرموا لأجل قول تنطق به ألستكم، وهو قول مدفوع لا تقوم به حجة، وهذا حرام عطف على هذا حلال، ولتفتروا بدل من قوله لما تصف، وعلى الله متعلقان بتفتروا، والكذب مفعول به لتفتروا، ويجوز أن ينتصب الكذب مفعولاً لتقولوا، ولكون جملة هذا حلال بدل منه، وعندئذ تكون ما موصولة، أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألستكم فتقولوا: هذا حرام وهذا حلال، وكلا الإعرابين صحيح وسائغ، وأورد ابن هشام في «المغني» هذه الآية وعبارته: قيل في «ولا تقولوا لما تصف ألستكم الكذب» وفي «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم» أن الكذب بدل من مفعول تصف المحذوف، أي: لما تصفه، وكذلك في رسلاً بناء على أن «ما» في «كما» موصول اسمي، ويرده أن فيه إطلاق ما على الواحد من أولي العلم، والظاهر أن ما كافة، وأظهر منه أنها مصدرية لإبقاء الكاف حينئذ على عمل الجر، وقيل في الكذب إنه مفعول لتقولوا، والجملتان بعده بدل منه، أي: لا تقولوا الكذب لما تصفه ألستكم من البهائم بالحل أو الحرمة، وإما لمحذوف، أي: فتقولون الكذب، وإما لتصف على أن ما مصدرية، والجملتان محكيता القول، أي: لا تحللوا وتحرموا لمجرد قول تنطق به

أَلَسْتُمْ كُمْ . وسيأتي معنى وصف الألسنة بالكذب في باب : البلاغة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ وَاسْمَهَا ، وَجَمَلَةً يَفْتَرُونَ صِلَةً ، وَعَلَى اللَّهِ مَتَعْلَقَانِ يَفْتَرُونَ ، وَالْكَذِبُ مَفْعُولٌ يَفْتَرُونَ ، وَجَمَلَةً لَا يَفْلِحُونَ خَبَرٌ إِنْ ﴾ ﴿ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ مَتَّعَ خَبَرٌ مَبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ ، أَيْ : ذَلِكَ الْعَمَلُ الَّذِي هُوَ دِيدَنُهُمْ مَتَّعَ قَلِيلٌ الْفَائِدَةُ ، أَوْ مَبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ الْخَبَرُ ، أَيْ : لَهُمْ مَتَّعَ ، وَقَلِيلٌ صِفَةُ مَتَّعَ ، وَلَهُمْ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ ، وَعَذَابٌ مَبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ ، وَأَلِيمٌ صِفَةُ عَذَابٍ .

□ البلاغة :

وصف الألسنة للكذب تعبير عربي مبين للمبالغة جعلت الألسنة لاستساغتها الكذب ، وجريانه عليها ، وتردده فيما تنطق به دائماً ، كأنها تصفه ، وتجسده للسامع . ومن ذلك قولهم : وجهها يصف الجمال ، وعينها توحى بالسحر ، أو كأن الكذب أمر مجهول ، وعليهم تبيان للناس ، وكشف الغطاء عن خوافيه ، فهو مجاز عقلي .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّعْوَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ وَإِذْ آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿

○ الإعراب :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ مَتَعْلَقَانِ بِحَرَمِنَا ، وَهَادُوا صِلَةُ الَّذِينَ ، وَمَا مَفْعُولٌ بِهِ ، وَقَصَصْنَا صِلَةً ، وَعَلَيْكَ مَتَعْلَقَانِ بِقَصَصِنَا ، وَمِنْ قَبْلُ مَتَعْلَقَانِ بِحَرَمِنَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى

ما خص اليهود بتحريمه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ إلى آخر الآية من سورة الأنعام ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ الواو عاطفة، وما نافية، وظلمناهم فعل وفاعل ومفعول به، والواو حالية، ولكن مخففة مهملة، فهي حرف استدراك، وكانوا: كان واسمها، وأنفسهم مفعول مقدم ليظلمون، وجملة يظلمون خبر كانوا ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ ثم حرف عطف للتراخي، وإن واسمها، وللذين خبرها، أي: غفور للذين، وعملوا صلة، والسوء مفعول به، وبجهالة في موضع الحال من الواو، أي: عملوا السوء جاهلين، ثم تابوا عطف على عملوا، ومن بعد متعلقان بتابوا، وذلك مضافة لبعده، وأصلحوا عطف على تابوا ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن واسمها، ومن بعدها متعلقان بغفور، واللام المرحلة، وغفور خبر إن، ورحيم خبر ثان ﴿إِنَّ إِذْهَبَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إن واسمها، جملة كان خبرها، واسم كان مستتر تقديره: هو، أي: إبراهيم، وأمة خبر كان، أي: كان وحده أمة بذاتها؛ لأنه اجتمعت فيه من صفات الكمال ما يجتمع في أمة، فصدق فيه قول أبي نواس:

ليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم في واحد

وقانتا خبر ثان لكان، والله متعلقان بقانتا، وحنيفاً خبر ثالث، ولم يك: لم حرف نفي وقلب وجزم، ويك فعل مضارع مجزوم بلم، وعلامة جزمه السكون، وحذفت النون للتخفيف، وقد مر ذلك في بحث خصائص كان، واسم يك مستتر تقديره: هو، ومن المشركين خبر يك ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ شاكرأ خبر رابع لكان، ولأنعمه متعلقان بشاكراً، وجملة اجتباه خبر خامس، وهدها عطف على اجتباه، وإلى صراط جار ومجرور متعلقان بهدها، ومستقيم صفة لصراط ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ عطف على ما تقدم على طريق الالتفات عن الغيبة إلى التكلم لزيادة الاعتناء بشأنه وآتيناه فعل وفاعل ومفعول به، وفي

الدنيا جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان صفة لحسنة، وحسنة مفعول به ثان، وإنه: إن واسمها، وفي الآخرة متعلقان بمحذوف حال، واللام المزملة، من الصالحين خبر إن ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ثم حرف عطف، وأوحينا فعل وفاعل، وعطفها بثم الدالة على التراخي والتباعد إشعار بالمكانة السمية، والمنزلة العليا لمحمد ﷺ، وإن أجل ما أوتي إبراهيم من النعمة اتباع محمد لشريعته، وإليك متعلقان بأوحينا، وأن اتبع أن مفسرة، أو مصدرية، فتكون منصوبة بنزع الخافض، وملة إبراهيم مفعول اتبع، وحنيفاً حال من إبراهيم، وسيأتي بحث مجيء الحال من المضاف إليه، والواو عاطفة، وما نافية، وكان واسمها المستتر، ومن المشركين خبرها.

* الفوائد:

☆ مجيء الحال من المضاف إليه:

تأتي الحال من المضاف إليه بشروط ثلاثة:

(١) أن يكون المضاف جزءاً من المضاف إليه، نحو: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا﴾ فإخواناً حال من المضاف إليه، وهو الضمير، والصدور بعضه، ونحو: ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فميتاً حال من الأخ المضاف إليه اللحم، واللحم بعض الأخ.

(٢) أو كالجزء منه مثل هذه الآية، فحنيفاً حال من إبراهيم المضاف إليه الملة، والملة كبعضه في صحة حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، إذ لو قيل: واتبع إبراهيم، لكان صحيحاً.

(٣) أن يكون المضاف عاملاً في الحال، كأن يكون مصدرراً، أو وصفاً، نحو: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ فجميعاً حال من الكاف والميم المضاف إليه مرجع، ومرجع مصدر ميمي عامل في الحال النصب.

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ١٢٤ ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ١٢٥ ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ ١٢٦ ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ ١٢٧ ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ١٢٨ ﴿

○ الإعراب:

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ إنما كافة ومكفوفة، وجعل فعل ماض مبني للمجهول، والسبت نائب فاعل، وعلى الذين جار ومجرور متعلقان بجعل، فهو بمثابة المفعول الثاني، وجملة اختلفوا صلة، وفيه متعلقان باختلفوا، وقد تقدم أن اليهود خالفوا نبيهم موسى؛ حيث أمرهم أن يعظموا يوم الجمعة بالتفرغ للعبادة فيه، وترك الأشغال، فقالوا: لا نريده، اختاروا السبت، فشدد عليهم فيه ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية، وإن واسمها، واللام المزحلقة، وجملة يحكم خبر إن، وبينهم متعلقان بيحكم، وكذلك الظرف، وهو يوم القيامة، وفيما متعلقان بمحذوف حال، وجملة كانوا صلة، وفيه متعلقان بيختلفون، وجملة يختلفون خبر كانوا ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ ادع فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، والمفعول محذوف، أي: الناس، وإلى سبيل ربك متعلقان بادع، وبالْحُكْمَةِ حال، أي: متلبساً بها، والموعظة الحسنة عطف على الحكمة ﴿ وَجَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وجادلهم عطف على ادع، والهاء مفعول به، وبآلتي متعلقان بادع، وهي

مبتدأ، وأحسن خبر، والجملة الاسمية صلة التي ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ إن واسمها، وهو مبتدأ، وأعلم خبر، والجملة خبر إن، وبمن متعلقان بأعلم، وجملة ضل صلة، وعن سبيله متعلقان بضل، وهو مبتدأ، وأعلم خبر، وبالمهتدين متعلقان بأعلم ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ الواو استئنافية، وإن شرطية، وعاقبتهم فعل ماض، والتاء فاعل، وهو في محل جزم فعل الشرط، فعاقبوا: الفاء رابطة، وعاقبوا فعل أمر وفاعل، وبمثل جار ومجرور متعلقان بعاقبوا، وما مضاف إليه، وجملة عوقبتم صلة، وبه متعلقان بعوقبتهم، وجملة فعاقبوا في محل جزم جواب الشرط ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ اللام موطئة للقسم، وإن شرطية، وصبرتم في محل جزم فعل الشرط، واللام واقعة في جواب القسم لتقدمه، وقد تقدم ذلك، وهو مبتدأ، وخير خبر، وللصابرين متعلقان بخير ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ واصبر: الواو استئنافية، واصبر فعل أمر، وفاعله مستتر، وما صبرك: الواو حالية، وما نافية، وصبرك مبتدأ، وإلا أداة حصر، وبالله خبر، والواو عاطفة، ولا ناهية، وتحزن فعل مضارع مجزوم بلا، وعليهم متعلقان بتحزن ﴿وَلَا تَلُتْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ الواو عاطفة، ولا نافية، وتك فعل مضارع مجزوم بلا، وعلامة جزمه السكون المقدر على النون المحذوفة للتخفيف، واسم تك مستتر تقديره: أنت، وفي ضيق خبر تك، ومما مضافة لضيق، وجملة يمحرون صلة ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ إن واسمها، مع ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر، والذين مضاف إليه، واتقوا صلة، والذين عطف على الذين، وهم مبتدأ، ومحسنون خبر، والجملة صلة.

□ البلاغة:

☆ خواتم سورة النحل:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلُتْ فِي ضَيْقٍ﴾ يجوز أن يكون من الكلام المقلوب؛ لأن الضيق وصف يكون في الإنسان، ولا يكون الإنسان فيه، ويجوز أن يراد أن في

الكلام تشبيهاً، فقد شبه الضيق بالشيء الذي يحيط بالإنسان، وهو من روائع التعبير وجوامع الكلم؛ ولذلك روي عن إبراهيم بن حيان عندما احتضر أنه قيل له: أوص، فقال: إنما الوصية من المال، ولا مال لي، ولكنني أوصيكم بخواتم سورة النحل.



سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ١
 مُوسَى الْكَتَّابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ٢
 ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا ٣ وَفَضَّلْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْكَتَّابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنَّ أَحْسَنْتَ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عُلُّوا تَتَبَرَّكُوا ٧ عَنَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ٨ ﴿

☆ النُسخة:

﴿سُبْحَنَ﴾: علم جنس للتنزيه والتقديس، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره، تقديره: أسبح الله سبحانه، أو سبحت الله سبحانه، أي: فهو مفعول مطلق، ومعناه: ما أبعد الذي له هذه القدرة عن جميع النقائص، ولذا لا يستعمل إلا فيه تعالى.

﴿أَسْرَى﴾: سرى بمعنى سار في الليل، وهما لازمان، ومصدر الأول الإسراء، ومصدر الثاني السَّرى بضم السين.

﴿مَرَّتَيْنِ﴾: تثنية مرة، وفي القاموس: مر مرأً ومروراً: جاز وذهب واستمر، ومره، وبه: جاز عليه. وامتَرَّ به وعليه كمر، والمرة: الفعلة الواحدة، والجمع: مَرَّ ومرار ومرر بكسرهما، ومروره بالضم، ولقيه ذات مرة، ولا يستعمل إلا ظرفاً.

﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾: في القاموس: الجوس - بالجيم -: طلب الشيء باستقصاء، والتردد خلال الدور، والبيوت في الغارة، والطوف فيها كالجوسان والاجتias، وبابه: قال. وخلال الديار فيه وجهان: أحدهما: أنه اسم مفرد بمعنى وسط، والثاني: أنه جمع خلل كجبل وجبال، وجمل وجمال.

وقال الجوهري: الجوس مصدر جاسوا خلال الديار، أي: تخللوا فطلبوا ما فيها، كما يجوس الرجل الأخبار، أي: يطلبها. وحكى الهروي في «الغريبين» عن الأزهري أن معنى جاسوا: وطئوا. وحكى عن الأصمعي أنه يقال: تركت فلاناً يجوس بني فلان، ويجوسهم، ويدوسهم، أي: يطوهم. وقال أبو عبيد: كل موضع خالطته ووطئته فقد جستته وحسته.

﴿الْكِرَّةَ﴾: الغلبة والدولة، وهي في الأصل مصدر كر يكر، أي: رجع، ثم استعملت تعبيراً عن الدولة، والقهر، والغلبة.

﴿نَفِيرًا﴾: النفير، من ينفر مع الرجل من قومه، وقيل: جمع نفر كالعبيد والمعيز، وفيه أوجه:

أحدهما: أنه فعيل بمعنى فاعل، أي: نافر.

والثاني: أنه جمع نفر نحو: عبيد.

والثالث: أنه مصدر، أي: أكثر خروجاً إلى الأعداء.

وقد قدمنا أن النون والفاء إذا كانتا فاء للكلمة وعيناً لها، دلنا على الخروج والنفاد.

(يتبروا): التتير: الهلاك.

﴿حَصِيرًا﴾: محبساً وسجناً. قال لبيد:

وَمَقَامَةٌ غُلِبَ الرِّجَالِ كَأَنَّهُمْ جِنٌّ لَدَىٰ بَابِ الْحَصِيرِ قِيَامٌ

وقال الحسن: يعني: فراشاً. وعنه أيضاً: وهو مأخوذ من الحصر. والذي يظهر أنها حاصرة لهم، أي: محيطة بهم من جميع جهاتهم، فحصير معناه: ذات حصر، إذ لو كان للمبالغة لزمته التاء لجريانه على مؤنث، كما تقول: رحيمة، وعليمة، ولكنه على معنى النسب كقوله: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾، أي: ذات انفطار.

○ الإعراب:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ سبحان مفعول مطلق لفعل محذوف، وقد تقدم بحثه في باب: اللغة، والذي مضاف إليه، وجملة أسرى صلة، وبعده متعلقان بأسرى، وليلاً ظرف متعلق بأسرى، وسيأتي في باب: البلاغة سر ذكره، مع أن السرى لا يكون إلا في الليل، وبعده جار ومجرور متعلقان بأسرى، وليلاً ظرف زمان متعلق بأسرى أيضاً، ومن المسجد جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، أي: مبتدئاً، وإلى المسجد الأقصى حال أيضاً، أي: منتهياً إلى

المسجد، والأقصى نعت للمسجد، والذي نعت ثان، وباركنا صلة، وهي فعل وفاعل، وحوله ظرف متعلق بباركنا ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأَنْتُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ اللام للتعليل، ونريه فعل مضارع منصوب بأن مضمرة، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والهاء مفعول به، والأولى أن تجعل الجار والمجرور خبراً لمبتدأ محذوف، أي: وذلك لنريه، ومن آياتنا جار ومجرور متعلقان بنريه، ومن حرف جر للتبعية، وإن واسهما، وهو مبتدأ، أو ضمير فصل، والسميع خبر هو، أو خبر إن، والبصير خبر ثان، وسيأتي سر هذه الالتفاتات في باب: البلاغة ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة على جملة سبحان الذي أسرى، ونا فاعل، وموسى مفعول به أول، والكتاب مفعول به ثان، وجعلناه هدى فعل وفاعل، والهاء مفعول به أول، وهدى مفعول به ثان، ولبنى متعلقان بهدى، وإسرائيل مضاف إليه ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ يصح في أن أن تكون مصدرية منصوبة مع مدخولها بنزع الخافض، أي: بأن لا تتخذوا، والجار والمجرور متعلقان بكتبنا، ويجوز أن تكون مفسرة؛ لأن الإتيان فيه معنى القول دون حروفه، ولا ناهية، وتتخذوا مضارع مجزوم بلا، ووكيلاً مفعول تتخذوا الأول، ومن دوني هو المفعول الثاني لتتخذوا ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ذرية: اضطربت أقوال المعربين في نصبها المتفق عليه بين القراء جميعاً، فقليل: نصبت على الاختصاص، وبه بدأ الزمخشري، وقيل: على النداء، وقيل: بدل من وكيلاً، وقيل: مفعول ثان لتتخذوا، على أن النفس لا تطمئن لواحد منها، والله أعلم، ومن مضاف إلى ذرية، وحملنا صلة، ومع ظرف مكان متعلق بحملنا، ونوح مضاف إليه، وإن واسمها، وكان فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر تقديره: هو، وعبدًا خبرها، وشكوراً صفة، ومما يرجح إعراب ذرية على الاختصاص أو النداء قول الزمخشري في إعراب جملة: «إنه كان عبداً شكوراً» أنها تعليلية لاختصاصهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح، فكأنه قيل: لا تتخذوا من دوني وكيلاً، ولا تشركوا بي؛ لأن نوحاً عليه السلام كان عبداً شكوراً، وأنتم ذرية من آمن

به، وحمل معه، فاجعلوه أسوتكم، كما جعله آبائكم أسوتهم. وهذه فطنة من الزمخشري تسترعي الانتباه، وتستحق الإعجاب ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ الواو عاطفة، وقضينا فعل وفاعل، وإلى بني إسرائيل متعلقان بقضينا، وقضينا في الأصل فعل يتعدى بنفسه، ولكنه تعدى هنا بإلى لتضمنه معنى أوحينا، ومعنى قضينا أعلمنا وأخبرنا، أو حكمنا وأتممنا، وأصل القضاء: الإحكام للشيء والفراغ منه، وقيل: أوحينا، ويدل عليه قوله إلى بني إسرائيل، ولو كان بمعنى الإعلام والإخبار لقال: قضينا بني إسرائيل، ولو كان بمعنى حكمنا لقال: على بني إسرائيل، ولو كان بمعنى أتممنا لقال: لبني إسرائيل. وفي الكتاب حال، والمراد به التوراة ﴿لُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ اللام جواب للقسم المحذوف، أو أجرى القضاء المبتوت مجرى القسم، كأنه قيل: وأقسمنا لتفسدن، وتفسدن فعل مضارع معرب؛ لأنه لم يتصل مباشرة بنون التوكيد الثقيلة، وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي النونات، وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين هي الفاعل، والأصل: لتفسدونن، وقد تقدمت له نظائر، وفي الأرض متعلقان بتفسدن، ومرتين نصب على الظرفية، وأعربه أبو البقاء مفعولاً مطلقاً على أنه صفة لمصدر محذوف، أو على أنه في نفسه مصدر عمل فيه ما هو من غير جنسه، وسيأتي المراد بالمرتين في باب: الفوائد ﴿وَلَنَعْلَنَ عَلَوكَ كَبِيرًا﴾ الواو عطف، ولنعلن عطف على لتفسدن، وهي ماثلة لها في إعرابها، وعلواً مفعول مطلق، وكبيراً صفة ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ الفاء عاطفة، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة جاء مضاف إليها الظرف، ووعد فاعل، وأولاهما مضافة لوعد، ولما كان الوعد على إطلاقه خاصاً بالخير، كان لا بد من تقدير مضاف محذوف، أي: وعد عقاب أولاهما، وجملة بعثنا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم، وعليكم متعلقان ببعثنا، وعباداً مفعول به، وأولي صفة لعباداً، وهي من الأسماء الخمسة بمعنى أصحاب، وبأس مضاف إليه، وشديد صفة لبأس ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ إِلِيِّهِ وَكَانَ وَعْدُ مَفْعُولًا﴾ الفاء عاطفة، وجاسوا عطف على بعثنا، وخلال ظرف

مكان متعلق بجاسوا، والديار مضاف إليه، والواو عاطفة، وكان عطف على الجوس، واسمها ضمير يعود على الجوس، أو الوعد بالعقاب، ووعداً خبر كان، ومفعولاً صفة لوعداً ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم حرف عطف للتراخي، ورددنا فعل وفاعل، ولكم متعلقان برددنا، والكرة مفعول به، وعليكم متعلقان بالكرة، أي: الغلبة عليهم، أو حال منها ﴿وَأَمَدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ وأمددناكم عطف على رددنا، وهو فعل وفاعل ومفعول به، وبأموال جار ومجرور متعلقان بأمددناكم، وبنين عطف على أموال، وجعلناكم فعل وفاعل ومفعول به، وأكثر مفعول به ثان، ونفيراً تمييز ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ إن شرطية، وأحسنتم فعل وفاعل، وهو في محل جزم فعل الشرط، وأحسنتم جوابه، وإن أسأتم عطف على إن أحسنتم، والفاء رابطة للجواب، ولها متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، أي: فإساءتكم، وكان القياس يقتضي أن يقول: فعليها، ولكنه عدل إلى اللام للمشكلة مع قوله لأنفسكم، وقيل: اللام بمعنى على، أي: فعليها، كما في قول عنتره:

... .. فخرٌ صريعاً لليدين وللقم

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْئُوا وُجُوهَكُمْ﴾ الفاء عاطفة، وإذا ظرف مستقبل، جاء وعد فعل وفاعل، والآخرة مضاف لوعد، وأراد المرة الآخرة، وليسوؤوا اللام للتعليل، ويسوؤوا مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وهو متعلق بجواب إذا المحذوف، أي: بعثناهم ليسوؤوا، وقد دل على الجواب جواب إذا الأولى، ووجوهكم مفعول به، والمعنى: ليجعلوا وجوهكم بادية المساء، منكسفة المعالم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وليدخلوا عطف على ليسوؤوا، أي: فهو متعلق بمحذوف هو بعثناهم، والمسجد منصوب على السعة، وكما نصب على المصدرية، أي: دخولاً مثل دخولهم، وأول مرة نصب على الظرفية ﴿وَلِيَسْتَرْوْا مَا عَلَوْا نَتِيرًا﴾ وليتبروا عطف على ليسوؤوا، وواو الجماعة فاعل، وما مفعول به ليتبروا،

أي: ليهلكوا كل شيء غلبوه، واستولوا عليه، ويجوز أن تجعل ما مصدرية ظرفية، ومفعول يتبروا محذوف، ولعله أولى لإفساح المجال أمام الخيال ليتصور مدى إهلاكهم الحرث والنسل مدة علوهم على البلاد، ويكون الظرف متعلقاً بـ يتبروا، وتبيراً مفعول مطلق ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُثِرْتُمْ عَدْنَاً وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ عسى فعل ماض من أفعال الرجاء ترفع الاسم وتنصب الخبر، وربكم اسمها، وأن مع مدخولها في محل نصب خبر، والواو حرف عطف، وإن شرطية، وعدتم فعل ماض وفاعل في محل جزم فعل الشرط، وعدنا فعل ماض وفاعل في محل جزم جواب الشرط، وجعلنا عطف على عدنا، ونا فاعل، وجهنم مفعول به أول، وللکافرين متعلقان بحصيراً، وحصيراً مفعول به ثان، هذا إذا اعتبرنا حصيراً فعلاً بمعنى الفاعل، وإن اعتبرناه اسماً جامداً، أي: مكان الحبس المعروف، فتكون للکافرين حالاً منه.

□ البلاغة:

اشتملت هذه الآيات على ضروب من البلاغة، ندرجها فيما يلي:

(١) الذكر:

ذكر الليل مع أن السرى لا يكون إلا بالليل، يحتمل أمرين:

أ - أولهما: أن الإسراء لما دل على أمرين أحدهما: السير، والآخر: كونه ليلاً، أريد أفراد أحدهما بالذكر تثبيتاً في نفس المخاطب، وتنبهاً على أنه مقصود بالذكر. وقد مرت الإشارة إلى هذه النكتة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا إِلَهُينِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِيدٌ﴾ [النحل: ٥١] فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية، وكذلك المفرد فأريد التنبية؛ لأن أحد المعنيين، وهو التثنية، مقصود مراد.

ب - وثانيهما: الإشارة بتذكير الليل إلى تقليل مدته؛ لأن التذكير فيه قد دل على معنى البعضية، وهذا بخلاف ما لو قيل: أسرى بعبده الليل، فإن

التركيب مع التعريف يفيد استغراق السير لجميع أجزاء الليل .

(٢) الوصل والفصل :

ومن الفنون البعيدة المنال التي تطول على من رامها : الفصل والوصل ، فإن القارئ ليشعر أن بين آية الإسراء وقوله : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ إلى آخر الآية تبايناً شديداً في ظاهر الأمر ، حتى إذا تمعن وتدبر وجد الوصل بين الفعلين ، فإنه تعالى أخبر أنه أسرى بمحمد ﷺ إلى الأرض المقدسة ؛ ليريه من آياته ، ويرسله إلى عبادته ، كما أسرى بموسى من مصر إلى مدين حين خرج خائفاً يترقب ، وأسرى به وبابنة شعيب إلى الأرض المقدسة ليريه من آياته ، ويرسله إلى فرعون وملئه ، وآتاه الكتاب ، فهذا هو الوصل بين الفصلين المذكورين . وأما الوصل بين قوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ وبين ما قبله ، فتذكار بني إسرائيل بأول نعمه عز وجل عليهم بنجاة آبائهم مع نوح في السفينة من الغرق ، إذ لو لم ينج آبائهم لما وجدوا ، فكأنما النعم السابعة عليهم سلسلة متعاقبة الحلقات ، أولها : نجاة آبائهم من غرق الطوفان الذي عم العالم بأسره ، وآخرها : نجاتهم من الغرق حين شق لهم البحر ليفرق فرعون وجنوده وملؤه ، وينجوا هم ، وإذا كان يترتب عليهم أن يشكروا من أسبغ عليهم هذه الآلاء والعوارف ، وأن يتأسوا بنوح جددهم الأكبر ؛ الذي كان عبداً شكوراً ، أليس الولد سرّ أبيه ؟ بيد أن هؤلاء نسيج وحدهم من الجحود والإنكار ، وغمط النعمة ، ومقابلة الحسنات بالسيئات .

(٣) الالتفات :

تحدثنا عن الالتفات كثيراً في هذا الكتاب ، وتقدمت له شواهد متعددة ، وفي هذه الآية ، آية الإسراء ، تعاقب الالتفات كثيراً على قصر متنه وتقارب طرفيه ، فقد قال أولاً : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى ﴾ بلفظ الواحد الغائب ، ثم قال : ﴿ الَّذِي بَرَكْنَا ﴾ بلفظ الجمع المتكلم ، ثم قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ بلفظ الواحد الغائب ، ولو جاء الكلام على مساق الأول لكان : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه

من آياته إنه هو السميع البصير» وهذا جميعه محمول على أسرى، فلما خولف بين المعطوف والمعطوف عليه في الانتقال من صيغة إلى صيغة، كان ذلك اتساعاً في الكلام، وتفنناً فيها، وتنوعاً لأساليبه، والفائدة منه فضلاً عن تطرية نشاط الذهن، واستحضاره، واسترعائه لعرض الحقائق المملوءة بالعظات والعبر: أنه لما بدأ الكلام بسبحانه ردفه بقوله: ﴿الَّذِي أَسْرَى﴾ إذ لا يجوز أن يقال: الذي أسرينا، فلما جاء بلفظ الواحد، والله تعالى أعظم العظماء، وهو أولى بخطاب العظيم في نفسه الذي هو بلفظ الجمع، استدرك الأول بالثاني فقال: ﴿بَرَكْنَا﴾ ثم قال: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ أَيْنُنَا﴾ فجاء بذلك على نسق ﴿بَرَكْنَا﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ﴾ عطفاً على أسرى، وذلك موضع متوسط الصفة؛ لأن السمع والبصر صفتان يشاركه فيهما غيره، بصرف النظر عن التفاوت بين السمعين والبصرين، وتلك حال متوسطة فخرج بهما عن خطاب العظيم في نفسه إلى خطاب غائب، وهذه مرام بعيدة المدى، جليلة الغرض، لا يسبر غورها، ولا يكتنه فحواها، إلا المطبوع.

* الفوائد:

(١) «من» و«إلى» الجاريتين:

لـ «من» الجارة معان كثيرة، يمكن الرجوع إليها في «مغني اللبيب» وغيره من الكتب المطولة في النحو، ولكننا نريد أن نشير إلى المعنى الرئيسي لها الوارد في آية الاسراء، وهو الابتداء، أي: ابتداء الغاية المكانية باتفاق جميع النحاة بصريهم وكوفيهم، بدليل انتهاء الغاية بعدها، وهي قوله: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾. أما ابتداء الغاية الزمانية فقد اختلف النحاة فأقرها الكوفيون، وأقرها من البصريين: المبرد، والأخفش، وابن درستويه، وهذا هو الصحيح؛ لورودها في الكتاب العزيز، وهو قوله: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِئَةٌ مِنْ رِجَالٍ﴾ وفي الحديث وهو قول أنس: فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة. وفي الشعر، وهو قول النابغة الذبياني يصف السيوف:

تُخَيَّرُونَ مِنْ أَوْزَانٍ يَوْمَ حَلِيمَةٍ إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرِّبْنَا كُلَّ التَّجَارِبِ

أما «إلى» الجارة فهي تفيد انتهاء الغاية مكانية وزمانية، فمثالها في المكان: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ ومثالها في الزمان: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَتْلِ﴾ ولا إلى سبعة معانٍ أخرى حكاها في «مغني اللبيب» وغيره، ومما أشكل من معاني إلى قول النابغة الذبياني أيضاً يعتذر إلى النعمان بن المنذر:

فلا تَتَزَكَّنِي بِالْوَعِيدِ كَأَنِّي إِلَى النَّاسِ مَطْلَبٌ بِهِ الْقَارُ أَجْرَبُ

ذكر في «المغني» أنها هنا بمعنى في، وهو غريب، وقال الدماميني: إلى متعلقة بمحذوف، وهو حال من اسم كأن، أي: كأني مبغضاً إلى الناس بسبب الوعيد كجمل أجرب طلي به القار، أي: جعل فيه، أو اتصف به. وقد ذهل الدماميني عن القلب في مطلي به القار، أو أنه تكلفه ليجعل مطلياً بمعنى مبغض، فالقار يُطْلَى به، ولا يطلي هو، ولهذا كان لا بد من الرجوع إلى رأي ابن هشام، وهو أن إلى بمعنى في، وأن الجار والمجرور في موضع النصب على الحال، أي: كأني كائناً في الناس بعير طلي بالقار، وهو مبغض.

(٢) معنى مرتين:

اختلف المفسرون في تفسير المرتين الواردتين في قوله تعالى: ﴿لَنُفَسِّدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ فذهب بعضهم إلى أن المرة الأولى هي قتل زكريا، وحبس أرميا، والثانية، قتل يحيى، وقصد قتل عيسى. وقال البيضاوي: أولاهما مخالفة أحكام التوراة، وقتل شعيا، وقيل: أرميا، وثانيتهما: قتل زكريا ويحيى، وقصد قتل عيسى عليه الصلاة والسلام. على أن فساد اليهود في الأرض لا يمكن حصره بمرتين، وإنما أتى القرآن الكريم بالمرتين مثلاً سريعاً لفسادهم الذي لا يحصى، والذي يستمر مدى الدهور. ويمكن الرجوع إلى المطولات لهذا الغرض.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

الصَّلَاحَتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَبَدِيعُ الْإِنْسَانِ بِالشَّرِّ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴿١٥﴾

○ الإعراب:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ إن واسمها، والقرآن بدل من اسم الإشارة، ويهدي فعل وفاعل مستتر، والمفعول به محذوف، أي: يهدي الناس، والجملة خبر إن وللتي جار ومجرور متعلقان بيهدي، وهي مبتدأ، وأقوم خبر، والجملة الاسمية صلة التي، وأقوم اسم تفضيل على قول الزجاج إذ قدر أقوم الحالات، وقدره غيره أقوم مما عداها، أو من كل حال، ورجح أبو حيان أنها ليست للتفضيل، إذ قال: لا مشاركة بين الطريقة التي يرشد إليها القرآن وطريقة غيرها، وفضلت هذه عليها، وإنما المعنى التي هي قيمة، أي: مستقيمة كما قال: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ و﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ أي: مستقيمة الطريقة، قائمة بما يحتاج إليه من أمر الدين ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ويبشر عطف على يهدي، والمؤمنين مفعول به، والذين صفة المؤمنين، وجملة يعملون صلة، والصالحات مفعول به، وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض، والجار والمجرور متعلقان ببشر، ولهم خبر أن المقدم، وأجرأ اسمها المؤخر، وكبيراً صفة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وأن الذين عطف على أن لهم أجراً كبيراً، أي: يبشر المؤمنين ببشارتين عظيمتين: الأولى بثوابهم، والثانية بعقاب أعدائهم،

ويجوز أن يعطف على يبشر بإضممار، ويخبر بأن الذين لا يؤمنون معذبون، وجملة أعتدنا خبر أن، ولهم متعلقان بأعتدنا، وعذاباً مفعول به، وأليماً صفة ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ الواو استئنافية، ويدعو الانسان فعل وفاعل، وبالشّر متعلقان بمحذوف حال، أو يبدعو، ودعاه مفعول مطلق، وبالخير حال أيضاً، أو متعلقان بالدعاء لأنه مصدر، والواو عاطفة، أو حالية، وكان واسمها وخبرها ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ وجعلنا فعل وفاعل، والليل مفعول به، والنهار عطف على الليل، وآيتين مفعول به ثان، فمحونا: الفاء عاطفة، ومحونا عطف على جعلنا، وآية الليل مفعول به.

﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وجعلنا فعل وفاعل، وآية النهار مفعول به أول، ومبصرة مفعول به ثان، ولتبتغوا: اللام للتعليل، وتبتغوا مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والواو فاعل، والجار والمجرور متعلقان بقوله: وجعلنا، وفضلاً مفعول به، ومن ربكم متعلقان بتبتغوا، وصفة لقوله فضلاً ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَةٌ تَفْصِيلًا﴾ ولتعلموا عطف على ولتبتغوا، وعدد السنين مفعول به، والحساب عطف على عدد، ولا تكرار فيهما، وكل شيء نصب على الاشتغال، ورجح نصبه لتقدم جملة فعلية، كما سيأتي في باب الفوائد، وفصلناه فعل وفاعل ومفعول به، وتفصيلاً مفعول مطلق ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْرِيقًا فِي عُنُقِهِ﴾ وكل إنسان نصب على الاشتغال أيضاً، وألزمناه فعل وفاعل ومفعول به، وطائره مفعول به ثان، وفي عنقه حال، أي: كائناً، وسيأتي تفصيل ذلك في باب: البلاغة ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ الواو عاطفة، ونخرج فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: نحن، وله جار ومجرور متعلقان بنخرج، وكتاباً مفعول به، وجملة يلقاه صفة لكتاباً، ومنشوراً إما صفة ثانية لكتاباً، وإما حال ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ جملة «اقرأ كتابك» في موضع نصب مقول قول محذوف، أي: يقال له، واقرأ فعل أمر، وفاعله

مستتر تقديره: أنت، وكتابك مفعول به، وكفى فعل ماض، وبنفسك الباء حرف جر زائد، ونفسك فاعل مرفوع محلاً مجرور بالباء لفظاً، واليوم ظرف متعلق بمحذوف حال، وعليك متعلقان بحسبياً، وحسبياً تمييز، وهو بمعنى حاسب كما ذكر سيبويه، قال سيبويه: ضريب القداح بمعنى: ضاربها، وصريم بمعنى صارم. وأجاز بعضهم إعرابه حالاً لأنه مشتق، وليس ببعيد ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ من شرطية مبتدأ، واهتدى فعل ماض في محل جزم فعل الشرط، فإنما: الفاء رابطة وإنما كافة ومكفوفة، ويهتدي فعل مضارع مرفوع، والفاعل هو، ولنفسه متعلقان بيهتدي، والجملة المقترنة بالفاء في محل جزم جواب الشرط ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ عطف على الجملة السابقة، وعليها في موضع نصب على الحال، أي: واقعاً ضلاله عليها ﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَّزَرٌ أُخْرَىٰ﴾ الواو عاطفة، ولا نافية، وتزر فعل مضارع وفاعل، ووزر مفعول لتزر، أي: تحمل، وأخرى مضاف إليه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الواو عاطفة، وما نافية، وكنا كان واسمها، ومعذبين خبرها، حتى حرف غاية وجر، ونبعث فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، ورسولاً مفعول به.

□ البلاغة:

(١) المجاز العقلي في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصَرَةً﴾ لأن النهار لا يبصر، بل يبصر فيه، فهو من إسناد الفعل إلى زمانه، وقد تقدم ذكره كثيراً.

(٢) ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبِيرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ تعبير مسوق على عادة العرب، كانوا لا يباشرون عملاً من الأعمال الهامة إلا إذا اعتبروا أحوال الطير، ليتبينوا إذا كانت مغبة العمل خيراً أم شراً، فإذا طارت الطير بنفسها، أو بإزعاج من أحد، متيامنة، تفاءلوا، وأقدموا على عملهم، وإذا طارت متياسرة تشاءموا، وأحجموا عن عملهم، ولما أكثر منهم ذلك سموها نفس الخير والشر بالطائر، تسمية للشيء باسم لازمه على طريق المجاز المرسل، وقد تقدم ذكره كثيراً.

وإنما خص العنق بالذكر؛ لأنه محل القلادة التي تزين الجيد، وتبدوا لأول وهلة، وتسم المتقلد بها بالوسامة، فكان ذلك كناية عن اتصافه بالخير والشر المقدرين له في لوح الأزل، وإيثاره باختياره جانب واحد منهما كالذي يتبع السوانح، وهي الطير الذاهبة متيامنة، والذي يتبع البوارح، وهي الطير الذاهبة متياسرة. وأجاز بعضهم أن يكون الكلام من باب: الاستعارة التصريحية، أي: استعير الطائر لما هو سبب الخير والشر من قدر الله وعمل العبد، أي: لما جعلوا الطائر سبباً للخير والشر، وأسندوهما إليه باعتبار سنهته وبروحه، استعير الطائر لما كان سبباً لهما، وهما قدرة الله الكائنة وعمل العبد المختار، وكما أن الطائر الحقيقي يأتي إلى كل مكان بعد مزايلة وكناته وأعشاشه، فكذلك الحوادث تنتهي إلى الإنسان.

(٣) الطباق بين الهدى والضلال، وقد تقدم.

(٤) في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ فن الجمع مع التفريق، وهو أن يجمع المتكلم بين شيئين في حكم واحد، ثم يفرق بينهما في ذلك الحكم، وما ورد منه في الشعر قول البحري البديع:

وَلَمَّا التَّقِينَا وَالنَّقَا مَوْعِدٌ لَنَا تَعَجَّبَ رَائِي الدُّرَّ مَنَا وَلَا قِطْعُهُ
فَمِنْ لَوْلُؤٍ تَجَلُّوهُ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا وَمِنْ لَوْلُؤٍ عِنْدَ الْحَدِيثِ تُسَاقِطُهُ!

* الفوائد:

☆ الاشتغال:

الاشتغال عرفه النحاة بأنه: اسم تقدم على عامل من حقه أن ينصبه لولا اشتغاله عنه بالعمل في ضميره، نحو: خالد أكرمته، والأفضل في الاسم المتقدم الرفع على الابتداء، والجملة بعده خبره، ويجوز نصبه بفعل محذوف يفسره المذكور بعده، وجملة رأيته مفسرة للجملة المقدرة، ولا محل لها من الإعراب، ولا يجوز إظهار الفعل المقدر، ويقدر بلفظ الفعل المذكور، إلا إذا

كان لازماً، فيقدر بمعناه، نحو: حمص مررت بها، فيقدر بجاوزت مثلاً، وله أحوال:

(١) وجوب النصب:

وذلك إذا وقع بعد أدوات التحضيض والشرط والاستفهام غير الهمزة، نحو: هلاً الخير فعلته، وإنّ علياً لقيته فسلم عليه، وهل خالداً أكرمته؟ غير أن الاشتغال بعد أدوات الاستفهام والشرط لا يكون إلا في الشعر.

(٢) ترجيح النصب:

ويترجح النصب في خمسة أمور:

أ- أن يقع بعد الاسم أمر، نحو: خالداً أكرمه، وقد استثنيت من ذلك مسألة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ وقد تقدم الكلام عليها مستوفى.

ب- أن يقع بعد الاسم نهي، نحو: الكريم لا تنهه.

ج- أن يقع بعد الاسم دعاء، نحو: اللهم أمري يسره.

د- أن يقع الاسم بعد همزة الاستفهام، كقوله تعالى: ﴿أَبَشْرًا مِمَّا وَحَدَّا نَجَّيْنَاهُ﴾.

هـ- أن يقع الاسم جواباً لمستفهم عنه كقولك: علياً أكرمته، في جواب من قال: من أكرمت؟

(٣) وجوب الرفع:

ويجب الرفع في موضعين:

(١) أن يقع قبل إذا الفجائية نحو: خرجت فإذا الجو يملؤه الضباب، لأن إذا الفجائية لا تدخل على الأفعال.

(٢) أن يقع قبل أدوات الاستفهام، أو الشرط، أو التحضيض، أو

ما النافية، أو لام الابتداء، أو ما التعجبية، أو كم الخبرية، أو إن وأخواتها، نحو: علي هل أكرمته، وسعيد إن لقيته فسلم عليه، وخالد هلاً دعوته، والشر ما فعلته، والخير لأننا أفعله، والخلق الحسن ما أطيبه، وزهير كم أكرمته، وخالد إني أحبه، فالاسم في ذلك كله مبتدأ، والجملة بعده خبر، وإنما لم يميز نصبه؛ لأن هذه الأدوات لها الصدارة، وما بعدها لا يعمل فيما قبلها.

(٤) ترجيح الرفع:

ويترجح الرفع إذا لم يكن هناك ما يوجب نصبه، أو يرجحه، أو يوجب رفعه، نحو: الكتاب قرأته؛ لأن عدم التقدير أولى من التقدير. وهناك مسائل تتعلق بالاشتغال يرجع إليها في المطولات، وستأتي نكت طريقة منه في هذا الكتاب.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝١٦ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝١٧ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهَا فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝١٩ كَلَّا نُمَدِّهُ هُوْلَاءَ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝٢١﴾

☆ اللفظة:

﴿مُتْرَفِيهَا﴾: منعميها بمعنى رؤسائها، وفي القاموس: الترفه بالضم: النعمة، والطعام الطيب، والشيء الظريف تخص به صاحبك، وترف كفرح:

تَنَعَّم، وأترفته النعمة: أطفته، أو نعمته كترفته تتريفاً، والمتَّرف كمكرم: المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع، والمتنعم لا يمنع من تنعمه، وتترف: تنعم. وفي أساس البلاغة: أترفته النعمة: أبطرتة، وأترف فلان وهو مُتَّرف، وأعوذ بالله من الإتراف والإسراف، واستترفوا، تعفرتوا وطغوا، ولم أزل معهم في تُرُفة، أي: في نعمة.

﴿مَدْحُورًا﴾: مطروداً، وفي القاموس: الدحر: الطرد، والإبعاد، والدفع كالدحور فعلهن كجعل، وهو داحر ودحور.

○ الإعراب:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ الواو استئنافية مسوقة لبيان الأسباب التي تهلك بها القرى، وتدول الشعوب، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة أردنا مضاف إليها الظرف، وأن وما في حيزها مصدر مؤول في محل نصب مفعول به لأردنا، وقرية مفعول به، وجملة أمرنا لا محل لها؛ لأنها جواب إذا، ومترفيها مفعول، ففسقوا الفاء عاطفة، وفسقوا فعل وفاعل، وفيها متعلقان بفسقوا ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا تَدْمِيرًا﴾ الفاء عاطفة، وحق فعل ماض، وعليها متعلقان بحق والقول فاعل، وفدمرناها فعل وفاعل ومفعول به، وتدميراً مفعول مطلق، وسيأتي تفصيل لهذه الآية البليغة في باب: البلاغة ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ كم خبرية في محل نصب مفعول أهلكنا ومن القرون في محل نصب تمييز لـ «كم»، ومن بعد نوح متعلقان بمحذوف حال، أو بأهلكنا فمن للابتداء ﴿وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ الباء زائدة في الفاعل، وقد تقدم ذلك قريباً، وبذنوب عباده متعلقان بخيراً بصيراً ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ من شرطية مبتدأ، وكان فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط، وجملة يريد العاجلة خبر كان، وعجلنا فعل وفاعل، وهو في محل جزم جواب الشرط، وله متعلقان بعجلنا، وفيها متعلقان بمحذوف حال، وما موصول مفعول به، وجملة نشاء صلة، ولمن الجار والمجرور بدل من له بإعادة العامل، وجملة

نريد صلة ومفعول نريد محذوف، أي: لمن نريد تعجيله، وفعل الشرط، وجوابه خبر من ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ثم حرف عطف لتراخي المدة، وجعلنا فعل وفاعل، وله في محل نصب مفعول جعلنا الثاني، وجهنم مفعول جعلنا الأول، وجملة يصلوها حال من الضمير في له، ومذموماً حال من الضمير في يصلوها، وكذلك مدحوراً ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الواو عاطفة، والجملة معطوفة على سابقتها، وهي مماثلة لها في الإعراب، وسعى لها عطف على أراد، وسعيها مفعول مطلق، أي: حق سعيها. ومن سقطات معظم المفسرين كأبي البقاء والكرخي وغيرهما أنهم أجازوا إعراب سعيها مفعولاً به، ونسوا أن سعى فعل لازم، هذا بالإضافة إلى أن المصدرية واضحة تماماً. والواو حالية، وهو مبتدأ، ومؤمن خبر، والجملة نصب على الحال من الضمير في سعى ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ الفاء رابطة لجواب من، وأولئك اسم إشارة مبتدأ، وكان واسمها وخبرها، والجملة خبر أولئك، وجملة أولئك كان الخ في محل جزم جواب الشرط ﴿كُلًّا نُّنَمِّدُ هُوْلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ كلاً مفعول به مقدم لنمد، والتنوين عوض عن الإضافة، أي: كل واحد، وفاعل نمد مستتر تقديره: نحن، وهؤلاء بدل من كلاً، وهؤلاء عطف على هؤلاء الأولى، ومن عطاء ربك جار ومجرور متعلقان بنمد ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ الواو عاطفة، أو حالية، وما نافية، وكان واسمها وخبرها.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ انظر فعل أمر والفاعل مستتر، وكيف اسم استفهام في محل نصب على الحال، وفضلنا فعل وفاعل، وبعضهم مفعول به، وعلى بعض جار ومجرور متعلقان بفضلنا ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ الواو للحال، واللام للابتداء، والآخرة مبتدأ، وأكبر خبر، ودرجات تمييز نصب بالكسرة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، وأكبر عطف على أكبر الأولى، وتفضيلاً تمييز.

□ البلاغة:

في هذه الآية: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ فنون شتى:

أولها: الالتزام، أو لزوم مالا يلزم، وقد تقدم البحث عنه مستفيضاً، وهو: التزام حرف أو حرفين فصاعداً قبل الروي، على قدر طاقة الشاعر أو الكاتب، من غير كلفة، وإنما قيدناه بعدم الكلفة؛ لأنه يستحيل صنعة باهتة لا أثر فيها لجمال، ويسف عن درجة البلاغة، ولا ينتظم في سلوكها، فقد التزم في قوله «مترفيها» و«فيها» الفاء قبل ياء الردف، ولزمت الياء، وسيأتي الكثير منه في القرآن، وهو من أرشق الاستعمالات. ومما ورد فيه التزام سين قبل ألف الردف قول أبي العلاء صاحب «اللزوميات»:

رُوِيْدُكَ قَدْ غَرَرْتَ وَأَنْتَ حَزٌّ بِصَاحِبِ حِيلَةٍ يَعِظُ النِّسَاءَ
يَحْرِمُ فِيكُمْ الصُّهْبَاءَ صُبْحاً وَيُشْرِبُهَا عَلَى عَمَدٍ مَسَاءَ
يَقُولُ لَقَدْ غَدَوْتُ بِلَا كِسَاءَ وَفِي لَذَاتِهَا رَهْنُ الْكِسَاءِ

وثانيها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم افسقوا، وهذا باطل، فبقي أن يكون مجازاً، وإنما جعل الترف، وهو: الاتساع في العيش والبلهنية التي لا حدود لها، ذريعة إلى المعاصي، والانجرار وراء الشهوات، فكأنهم مأمورون بذلك لا مناص لهم عنه، ولا انفكاك لهم منه، وليس ثمة أمر ولا أمر، وإنما هو المال رائد الشهوة، وبريد الغفلة، يزين للنفوس الموبقات، فتسترسل فيها، وتتعمى عن رؤية واقعها، وقد يكون واقعها عالياً وفوق المستويات، بيد أنه لا يعتم أن يهوي بعد أن غفل عنه حارسوه وكالثوه، كما حدث للعرب بعد استبحار مجدهم، واتساع سلطانهم، فهووا من حائق، وأضاعوا ملكاً لم يحافظوا عليه مثل الرجال، على حد قول أم أبي عبد الله آخر ملوك بني الأحمر في الأندلس:

ابكِ مِثْلَ النِّسَاءِ مَلِكاً مُضَاعاً لَمْ تَحَافِظْ عَلَيْهِ مِثْلَ الرِّجَالِ

وثالثها: الحذف: فقد حذف المأمور به، ولم يقل بماذا أمرهم إيجازاً في القول، واعتماداً على بديهية السامع؛ لأن قول ففسقوا فيها يدل عليه، وهو كلام مستفيض. تقول: أمرته فقام، وأمرته فقرأ، لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام وقراءة، ولو أردت تقدير غيره لتكلفتم شططاً، وحذفت ما لا دليل عليه هذا في حين توفر الدلائل على نقيضه، كما بينا لك.

هذا؛ وقد تورط بعضهم، فزعم في مجازفة لا حدود لها أن أمرنا معناها كثرنا، وفي مقدمة هؤلاء المتورطين أبو علي القالي في كتابه الممتع «الأمالي» فقد قال: وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: كثرنا، ولا أدري كيف ساغ له هذا التفسير؛ لأن أمر من باب فرح بكسر الميم، والقراءة أمر بفتحها، وهو أيضاً لازم، ولا يجوز أن تفسر بمعنى كثر المشددة الثاء إلا إذا ضعفت الميم، وقد قرئ بها، فكان الأولى به أن يشير إلى ذلك. قال أبو البقاء: «أمرنا» يقرأ بالقصر والتخفيف، أي: أمرناهم بالطاعة، وقيل: كثرنا نعمهم، وهو في معنى القراءة بالمد، ويقرأ بالتشديد والقصر، أي: جعلناهم أمراء، وقيل: هي بمعنى الممدودة لأنه تارة يعدى بالهمزة، وتارة بالتضعيف.

وفي قوله: ﴿كَلَّا نُمَدِّدْهُنَّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾ لف ونشر مرتب، فهؤلاء الأولى للفريق الأول، أي: مرید الدنيا، وهؤلاء الثانية للفريق الثاني، أي: مرید الآخرة.

* الفوائد:

تساءل بعضهم عن معنى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ وكيف يصح التفاوت بين أبناء البشر وهم سواسية؟ والجواب هو أن التفاوت منوط بالفضل، ومبلغ ما يؤديه المرء لأبناء جلدته وللمجتمع عامة، روى التاريخ أن قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر بن الخطاب، فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشق على أبي سفيان، فقال سهيل بن عمرو:

إنما أتينا من قبلنا أنهم دعوا ودعينا - يعني: إلى الإسلام - فأسرعوا وأبطأنا . وهذا باب عمر ، فكيف التفاوت في الآخرة ، ولئن حسدتموهم على باب عمر ؛ لما أعد الله لهم في الجنة أكثر .

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا فَيَكْرَهُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَادِقِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

○ الإعراب:

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ لا ناهية ، وتجعل فعل مضارع مجزوم بلا الناهية ، وفاعله ضمير مستتر تقديره : أنت ، ومع الله ظرف متعلق بمحذوف مفعول تجعل الثاني ، وإلهاً مفعول تجعل الأول ، وآخر صفة ، فتقعد : الفاء فاء السببية ، وتقعد فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية ، والفاعل مستتر تقديره : أنت ، ومذموماً حال ، ومخذولاً حال ثانية ، وسيأتي ما في تقعد من أقوال ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة ، مسوقة لبيان منزلة الوالدين ووجوب معاملتهما من قبل الأنبياء معاملة لا ثقة ، وقضى ربك فعل وفاعل ، ومعنى قضى : أمر أمراً قاطعاً ، وقيل : أوصى ، و«أن» يحتمل أن تكون مصدرية ، فلا نافية ، وتعبدوا منصوب بها ، والمصدر منصوب بنزع الخافض ، والجار والمجرور متعلقان بقضى ، وقيل : مفسرة ؛ لأن قضى فيه معنى القول دون حروفه ، أو مخففة من الثقيلة ، فلا على الحالين ناهية ، وتعبدوا مجزوم بها ، وعلامة جزمه حذف النون ، والواو فاعل ، وإلا أداة حصر ، وإياه مفعول ، وبالوالدين جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف ، تقديره : وأحسنوا ، وإحساناً

مفعول مطلق ناصبه الفعل المحذوف، وإنما علقناهما بالفعل المحذوف لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ إن شرطية زيدت عليها ما تأكيداً لها، ويبلغن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وهو في محل جزم فعل الشرط، وعندك ظرف متعلق بمحذوف حال، وأحدهما فاعل يبلغن، والميم والألف حرفان دالان على التثنية، وأو حرف عطف، وكلاهما عطف على أحدهما، وعلامة رفعه الألف؛ لأنه ملحق بالثنى، ومعنى عندك، أي: حالة كونهما في كفالتك يتولى منهما ما كانا يتوليان منه إبان الطفولة، وفي ذلك منتهى التوصية باستعمال لين الجانب، ودمائه الخلق معهما في هذه الحال ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ الفاء رابطة للجواب، ولا ناهية، وتقل فعل مضارع مجزوم بلا، ولهما متعلقان بتقل، وأف اسم فعل مضارع بمعنى التضجر، وفاعله مستتر تقديره: أنا، والجملة مقول القول، وسيأتي تحقيق واسع في هذه الكلمة، وفي أسماء الأفعال في باب: الفوائد، ولا تنهرهما عطف على لا تقل لهما والنهر الزجر، وقُلْ فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، ولهما متعلقان بقل، وقولاً مفعول مطلق، وكريماً صفة ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ واخفض لهما عطف على قل لهما، وجناح الذل مفعول به، ومن الرحمة متعلقان باخفض فمن للتعليل، أي: من أجل الرحمة، أو الابتداء، أي: أن هذا الخفض ناشئ من الرحمة المركوزة في الطبع، ولك أن تعلقها بمحذوف حال ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ وقُلْ عطف على ما تقدم، ورب منادى مضاف لياء المتكلم محذوف منه حرف النداء، وارضهما فعل دعاء، وكما نعت لمصدر محذوف، أي: ارحمهما رحمة مثل تربيتهما لي، أو رحمة مثل رحمتها لي، فتكون التربية بمعنى الرحمة، ورباني فعل ماضٍ، والألف ضمير الاثنين فاعل، والنون للوقاية، والياء مفعول به، وصغيراً حال من الياء ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ ربكم مبتدأ، وأعلم خبر، وبما متعلقان بأعلم، وفي نفوسكم صلة ما ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلأَوَّلِينَ عَفْوَ﴾ الجملة حالية، وإن شرطية، وتكونوا فعل

الشرط، الواو اسمها، وصالحين خبرها، والفاء رابطة للجواب، وإن واسمها، وجملة كان خبرها، ولالأواين، أي: التواين، متعلقان بغفوراً، وغفوراً خبر كان.

□ البلاغة:

(١) في قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ استعارة شغلت علماء البيان، وقد وعدناك أن نتحدث عن هذه الاستعارة مطولاً، فلنبحث هذا الموضوع، ولنورد ما قاله البيانون في صددها: فهي استعارة مكنية؛ لأن إثبات الجناح للذل يخيل للسامع أن ثمة جناحاً يخفض، والمراد: ألن لهما جانبك، وتواضع لهما تواضعاً يلصقك بالتراب، والجامع بين هذه الاستعارة والحقيقة أن الجناح الحقيقي في أحد جانبي الطائر، وأن الطائر إذا خفض جناحه، وهو الذي به يتقوى وينهض، انحط إلى الأرض، وأسف إلى الحضيض، ولصق بالتراب، فالاستعارة مكنية؛ إذ شبهت إلانة الجانب بخفض الجناح، بجامع العطف والرقعة، وهذه أجمل استعارة، وأحسنها، وكلام العرب جاء عليها.

وذكر الصولي في كتابه «أخبار أبي تمام»: وعابوا عليه - أي: على أبي تمام - قوله:

لا تسقني ماء الملام فلئنني صَبُّ قد استعذبتُ ماء بكائي

فقالوا: ما معنى ماء الملام؟ وهم يقولون: كلام كثير الماء، وما أكثر ماء شعر الأخطل، قاله يونس بن حبيب ويقولون: ماء الصبابة، وماء الهوى، يريدون الدمع. قال ذو الرمة:

أَنَّ تَرَسَّمْتَ مِنْ خَرْقَاءَ مَنَزَلَةٍ ماء الصَّبَابَةِ مِنْ عَيْنِكَ مَسْجُومٌ؟

وقال أيضاً:

أَدَاراً بِخُرْوَى هِجَّتِ لِلْعَيْنِ عَبْرَةً فمَاءُ الْهَوَى يَزْفِضُ أَوْ يَتَرَقَّرُ

وقال عبد الصمد - وهو مخسّنٌ عند من يطعن على أبي تمام:

أَيُّ مَاءٍ لِمَاءٍ وَجْهِكَ يَبْقَى بعد ذُلِّ الْهَوَى وَذُلِّ السُّؤَالِ؟

فصير لماء الوجه ماء . وقالوا : ماء الشباب يجول في وجناته ، فما يكون أن استعار أبو تمام من هذا كله حرفاً ، فجاء به في صدر بيته لما قال في آخر بيته : فَإِنِّي صَبَّ قَدْ اسْتَعَذْتُ مَاءَ بَكَائِي . قال في أوله : لا تسقني ماء الملام ، وقد تحمل العرب اللفظ على اللفظ فيما لا يستوي معناه قال الله عز وجل : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ والسيئة الثانية ليست بسيئة لأنها مجازاة ، ولكنه لما قال : وجزاء سيئة قال : سيئة ، فحمل على اللفظ ، وكذلك : ﴿ وَمَكْرُؤٌ مَّكَرٌ اللَّهِ ﴾ وكذلك : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لما قال بشر هؤلاء بالجنة قال : بشر هؤلاء بالعذاب ، والبشارة إنما تكون في الخير لا في الشر ، فحمل اللفظ على اللفظ . ويقال : إنما قيل لها البشارة لأنها تَبْسُطُ الوجه ، فأما الشر والكرهة فإنهما يَقْضِيَانِهِ ، وقال الأعشى :

يَزِيدُ يَغُضُّ الطَّرْفَ دُونِي كَأَنَّمَا زَوَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَلَيَّ الْمَحَاجِمُ

وقال الله عز وجل : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ فهذه أجمل استعارة وأحسنها ، وكلام العرب جارٍ عليها ، فما يكون أن قال أبو تمام : لا تسقني ماء الملام فَإِنِّي صَبَّ قَدْ اسْتَعَذْتُ مَاءَ بَكَائِي أما ابن الأثير فيقول في كتابه «المثل السائر» :

وقد عيب عليه قوله :

لا تسقني ماء الملام فَإِنِّي صَبَّ قَدْ اسْتَعَذْتُ مَاءَ بَكَائِي

وقيل : إنه جعل للملام ماء ، وذلك تشبيه بعيد ، وما بهذا التشبيه عندي من بأس ، بل هو من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم ، وهو قريب من وجه ، بعيد من وجه ، أما سبب قربه فهو أن الملام هو القول الذي يعنف به الملموم لأمر جناء ، وذلك مختص بالسمع ، فنقله أبو تمام إلى السقيا التي هي مختصة بالحلق ، كأنه قال : لا تذقني الملام ، ولو تهيأ له ذلك مع وزن الشعر لكان تنبيهاً حسناً ، ولكنه جاء بذكر الماء فحط من درجته شيئاً ، ولما كان

السمع يتجرع الملام أولاً كتجرع الحلق الماء، صار كأنه شبيه به، وهو تشبيه معنى بصورة. وأما سبب بعد هذا التشبيه فهو أن الماء مستلذ، واللام مستكره، فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه، ولهذا جعلته من التشبيهات وجه، فقد قرب من وجه، فيغفر هذا لهذا، ولذلك جعلته من التشبيهات المتوسطة التي، لا تحمد ولا تذم. وقد روي أن بعض أهل المجانة أرسل إلى أبي تمام قارورة وقال: ابعث في هذه شيئاً من ماء الملام، فأرسل إليه أبو تمام وقال: إذا بعثت إليّ ريشة من جناح الذل بعثت إليك شيئاً من ماء الملام. وما كان أبو تمام ليذهب عليه الفرق بين هذين التشبيهين، فإنه ليس جعل الجناح للذل كجعله الماء للملام، فإن الجناح للذل مناسب، وذاك أن الطائر إذا وَهَنَ أَوْ تَعَبَ بسط جناحه، وخفضه، وألقى نفسه على الأرض، وللإنسان أيضاً جناح، فإن يديه جناحاه، وإذا خضع واستكان طأطأ من رأسه، وخفض من يديه، فحسن عند ذلك جعل الجناح للذل، وصار تشبيهاً مناسباً، وأما الماء الملام فليس كذلك في مناسبة التشبيه.

هذا ما أورده الصولي وابن الأثير، وقد عقب عليهما كثير من نقاد القرن الرابع الهجري، ووقفوا منهما بين مؤيد ومعاكس، فأخذ الأمدى برأي الصولي في كتابه «الموازنة» ولكن على أساس آخر من الفهم، وعاب على أبي تمام استعماله استعارات شبيهة بماء الملام، قال: فمن مرذول ألفاظه وقبيح استعارته قوله:

يادهر قوّم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

وقال:

سأشكّر فرجة الليت الرخيّ ولين أخادع الدهر الأبّي

وقال:

أنزلته الأيام عن ظهرها من بعد إثبات رجله في الركاب

وقال:

كأنني حين جرّدت الرجاء له غضاً صبيّت به ماء على الزمن

ثم قال : وأشباه هذا مما إذا تتبعته في شعره وجدته ، فجعل كما ترى مع غثاثة هذه الألفاظ للدهر أخذعاً ، ويداً تقطع من الزند ، وكأنه يصرع ويحل ، ويشرق بالكرام ، ويبتسم ، وإن الأيام تنزلع ، والزمان أبلق ، وجعل للممدوح يداً ، وجعل للأيام ظهراً يركب ، والزمان كأنه صب عليه ماء .

ولننظر الآن في ماء الملام - عند أبي تمام - أهو تعبير طبيعي ؟ أهو تعبير سائح مستحسن ؟ إن إطلاق الماء وإضافته إلى البكاء يشب بالذهن أولاً إلى الصورة المباشرة المعروفة للماء الذي يشرب ، والماء في البحار والمحيطات والأنهار ، ثم ماء المطر . ومجرد أن تنطلق كلمة بكاء يتضاءل المعنى الأول فجأة ، وينكمش إلى صورة جزئية ، هي بضع قطرات من الدمع ، ولكن على أية حال هناك صلة تجعل الصورة محتملة ، أما ماء الملام فلا صلة البتة بين الماء واللام ، وإذا انطلقت كلمة ماء بمعانيها الأصلية والربطية ، ومعها كلمة الملام ومعانيها الربطية ، فلا يجمع بينهما صلة ، أو رابط مشترك من الصور الجزئية ؛ لذلك كان التعبير بارداً محتلاً ، لا يدل في الذهن على شيء ؛ لأنه لا صلة بين الملام والماء ، أما ما احتج به الصولي من القرآن ، فلا يبرر ما اعتمده ، فإن كلمة السيئة اقترنت بكلمة الجزء ، فأثارت معنى آخر مقابلاً هو القصاص ، وقد سماه القرآن سيئة ، ولكن أصحاب البديع يحاولون الاستشهاد بالشاهد القرآني ليبرروا صناعة أبي تمام ، ومن نحانحوه .

ووجدت للسكاكي رأياً يستهجن فيه قول أبي تمام قال فيه : إن الاستعارة التخيلية فيه منفكة عن الاستعارة بالكناية ، وصاحب الإيضاح يمنع الانفكاك فيه ، مستنداً بأنه يجوز أن يكون قد شبه الملام بظرف شراب مكروه ، فيكون استعارة بالكناية ، وإضافة الماء تخيلية ، أو أنه تشبيه من قبيل لجين الماء لا استعارة ، قال : ووجه الشبه أن اللوم يسكن حرارة الغرام ، كما أن الماء يسكن غليل الأوام ، وقال الفاضل الجلبى في حاشية المطول : فيه نظر ؛ لأن المناسب للعاشق أن يدعي أن حرارة غرامه لا تسكن بالملام ، ولا بشيء آخر ، فكيف يجعل ذلك وجه شبه . ١ هـ كلامه .

ورأيت في كتاب «الكشكول» للعاملي رأياً مطولاً فيه ننقل خلاصته تنمة للبحث قال: إن للبيت محملاً آخر كنت أظن أني لم أسبق إليه، حتى رأيته في «التبيان» وهو أن يكون ماء الملام من قبيل المشاكلة لذكر ماء البكاء، ولا تظن أن تأخر ذكر ماء البكاء يمنع المشاكلة، فإنهم حرصوا في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ وأن تسميته الزحف على البطن مشياً لمشاكلة ما بعده، وهذا الحمل أولى مما ذكره صاحب «الإيضاح» فإن الوجهين اللذين ذكرهما في غاية البعد، إذ لا دلالة في البيت على أن الماء مكروه، كما قاله المحقق التفتازاني في المطول، والتشبيه لا يتم بدونه، وأما ما ذكر صاحب «المثل السائر» من أن وجه الشبه أن الملام قول يعنف به الملموم، وهو مختص بالسمع، فنقله أبو تمام إلى ما يختص بالخلق كأنه قال: لا تذقني الملام، ولما كان السمع يتجرع الملام أولاً كتجرع الخلق الماء، صار كأنه شبيه به، فهو وجه في غاية البعد أيضاً كما لا يخفى، والعجب منه أن جعله قريباً، وغاب عنه عدم الملاءمة بين الماء واللام، هذا؛ وقد أجاب بعضهم عن نظر الفاضل الجليبي في كلام صاحب «الإيضاح» بأن تشبيه الشاعر الملام بالماء في تسكين نار الغرام إنما هو على وفق معتقد اللوام بأن حرارة الغرام العشاق تسكن بورود الملام، وليس ذلك على وفق معتقده، فلعل معتقده أن نار الغرام تزيد باللام، قال أبو الشيص:

أَجِدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَاكَ لَذِيذَةً حُبّاً لِذِكْرِكَ فَلْيَلْمُنِي اللَّوْمُ

أو أن تلك النار لا يؤثر فيها الملام أصلاً، كما قال الآخر:

جَاؤُوا يَرُومُونَ سُلُوتَانِي بِلُومِهِمْ عَنِ الْحَبِيبِ فَرَاخُوا مِثْلَمَا جَاؤُوا

فقول الجليبي: لأن المناسب للعاشق إلى آخره غير جيد، فإن صاحب «الإيضاح» لم يقل إن التشبيه معتقد العاشق، وعقب العاملي صاحب «الكشكول» على ذلك: إن ذكر صاحب «الإيضاح» الكراهة في الشراب صريح بأنه غير راض بهذا الجواب.

(٢) صورة مجسدة لطاعة الوالدين :

هذا؛ ولا بد من التنويه بالصورة المجسدة التي رسمتها الآية لطاعة الوالدين وبرّهما، ليتدبرها البنون، ويكتنھوا سرها الخفي، وقد أفصح عنها رسول الله ﷺ بجلاء حين شكّا إليه رجل أباه، وأنه يأخذ ماله، فدعاه فإذا شيخ يتوكأ عصا، فسأله فقال: إنه كان ضعيفاً، وأنا قوي، وفقيراً وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي، واليوم أنا ضعيف وهو قوي، وأنا فقير وهو غني، ويبخل علي بماله! ثم التفت إلى ابنه منشداً:

غَذَوْتُكَ مَوْلُوداً وَعِلْتُكَ يَافِعاً
تُعَلُّ بِمَا أُذْنِي إِلَيْكَ وَتَنْهَلُ
إِذَا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بِالشُّكُو لَمْ أَبْتِ
لَأَجْلِكَ إِلَّا سَاهِراً أَتَمَلَّمُ
كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي
طُرِقْتُ بِهِ دُونِي فَعَيْنِي تَهْمَلُ
فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي
إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أُؤَمِّلُ
جَعَلْتَ جَزَائِي مِنْكَ غِلْظَةً وَفَظَاطَةً
كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوتِي
فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمَجَاوِرُ يَفْعَلُ

فبكى رسول الله ﷺ وقال: «ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى» ثم قال للولد: «أنت ومالك لأبيك».

وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً في الطواف يحمل أمه ويقول:
إِنِّي لَهَا مَطِيَّةٌ لَا تَذْعُرُ إِذَا الرِّكَابُ نَفَرَتْ لَا تَنْفِرُ
مَا حَمَلْتُ وَأَرْضَعْتَنِي أَكْثَرَ اللَّهُ رَبِّي ذُو الْجَلَالِ أَكْبَرُ

تظنني جازيتها يا بن عمر؟ قال: لا، ولوزفرة واحدة.

* الفوائد:

(١) القول في «أف»:

اختلف النحاة في أسماء الأفعال، هل هي ألفاظ نائبة عن الأفعال، أو لمعانيها من الأحداث والأزمنة، أو أسماء للمصادر النائبة عن الأفعال، أو هي أفعال. والصحيح أنها أسماء أفعال، وأنها لا موضع لها من الإعراب، وقد قدمنا أقسامها، ونقول: إن «أف» اسم فعل مضارع، ومعناه: أتضجر، وفيه أربعون لغة، وحاصلها أن الهمزة إما أن تكون مضمومة، أو مكسورة، أو مفتوحة، فإن كانت مضمومة فاثنتان وعشرون لغة، وحاصل ضبطها أنها إما مجردة عن اللواحق، أو ملحقة بزائد، والمجردة إما أن يكون آخرها ساكناً أو متحركاً، والمتحركة إما أن تكون مشددة أو مخففة، وكل منهما مثلث الآخر فهذه اثنتا عشرة، والساكنة إما مشددة أو مخففة مع التنوين، وعدمه، فهذه أربع عشرة، واللواحق لها من الزوائد، إما هاء السكت، أو حرف المد، فإن كان هاء السكت فالفاء مثلثة مشددة، فهذه سبع عشرة، وإن كان حرف مد، فهو إما واو أو ياء أو ألف، والفاء فيهن مشددة، مع التنوين وعدمه، فهذه ست، وفتح الفاء وكسرها بالتشديد فيهما مع التنوين وعدمه، فهذه أربع لغات، والحادية عشرة: أفي بالإمالة، وإن كانت مفتوحة فالفاء مشددة مع الفتح والكسر، والتنوين وعدمه، والخامسة: أف بالسكون، والسادسة: أفي بالإمالة، والسابعة: أفاء بهاء السكت، فهذه السبع مكملة للأربعين، وقد قرئ من هذه اللغات بسبع: ثلاث في المتواتر، وأربع في الشواذ، وقراءة حفص وهي قراءة أف بالكسر والتنوين مع التشديد.

(٢) لمحة في العقوق:

ومما جاء في العقوق ما يروى عن جرير فقد كان أعق الناس بأبيه، وكان بلال ابنه كذلك، فراجع جرير بلالاً في الكلام فقال له: الكاذب بيني

وبينك . . . أمه، فأقبلت أمه عليه، وقالت: يا عدو الله! تقول هذا لأبيك، فقال جرير: دعيه فكأنه سمعها مني، وأنا أقولها لأبي.

ومن شهر عنه العقوق بوالديه الخطيئة الشاعر المخضرم، قال يهجو أباه:
فنعم الشيخ أنت لدى المخازي وبش الشيخ أنت لدى الفعال
جمعت اللؤم لا حياك ربّي وأبواب السفاهة والضلال
وقال يهجو أمه:

لحاك الله ثم لحاك أمّا ولقائك العقوق من البنينا
أغربالاً إذا استودعت سرّاً وكانونا على المتحدّثينا
ومن هجا أباه علي بن بسام، قال في أبيه:

هبك عمرت عمرَ عشرين نسراً أترى أنني أموتُ وتبقى؟
فلئن عشتُ بعد موتك يوماً لأشقنَّ جيبَ مالك شقّاً
وقال فيه أيضاً:

بنى أبو جعفر داراً فشيّدها ومثله لخيار الدّور بناء
فالجوعُ داخلها والذلُّ خارجها وفي جوانبها بؤسٌ وضراء
ما ينفعُ الدار من تشييد حائطها وليس داخلها خبزٌ ولا ماء

ولقد كذب، كان أبو جعفر محمد بن منصور بن بسام في نهاية السؤدد والمروءة والنظافة، كان رجلاً مترفاً، نبيل المركب، مليح الملبس، له همة في تشييد البنيان، وما رثاه به ابن الرومي يدل على كذب ابنه، قال ابن الرومي فيه:

أودى محمد بن نصر بعد ما أودى محمد بن نصر بعد ما
ملك تنافست العلّا في عمره ملك تنافست العلّا في عمره
من لم يعاين سيرَ نعش محمد من لم يعاين سيرَ نعش محمد
وذخرته للذّهرِ أعلمُ أنه وذخرته للذّهرِ أعلمُ أنه
وتمتعتُ نفسي بروح رجائه وتمتعتُ نفسي بروح رجائه

ورأيت كالشمس إن هي لم تنل فالرفق منها والضياء ينال
بالله أقسم أن عمرك ما انقضى حتى انقضى الإحسان والإجمال

﴿وَأَتِذَا الْقُرُنُ حَقُّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا بُدْرَ تَبْذِيرًا﴾ ٢٦ ﴿إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ ٢٧ ﴿وَأَمَّا نَعْرَضَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ ٢٨ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ ٢٩ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ٣٠ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِيتُمْ نَزْرُقَهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قُلْتُمْ إِنْ قُلْتُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيرًا﴾ ٣١ ﴿

☆ النُّقطة:

﴿فَلَقَعْدَ﴾: فتصير، وهو من المجاز. قال في الأساس: ومن المجاز وقعد عن الأمر: تركه، وقعد له: اهتم به، وقعد يشتمني: أقبل، وأرهف شفرته حتى قعدت كأنها حربة: صارت، وقال الديان الحارثي:

لأُصْبَحَنَّ ظَالِمًا حَرْبًا رِبَاعِيَةً فاقْعُدْ لَهَا وَدَعَنَّ عَنْكَ الْأَظَانِيَا

وتقاعد عن الأمر وتقعد، وما قعد به عن نيل المساعي، وما تقعد، وما أقعد، إلا لَوْمُ عُنْصُرِهِ، وقال:

بَنُو الْمَجْدِ لَمْ تَقْعُدْ بِهِمْ أُمّهَاتُهُمْ وَأَبَاؤُهُمْ آبَاءُ صِدْقٍ فَأَنْجَبُوا

﴿تَحْسُورًا﴾: منقطعاً لا شيء عندك، من حسره السفر: إذا بلغ منه. وفي المختار: والحسرة: شدة التلهف على الشيء الفائت، تقول: حسر على الشيء، من باب: طرب، وحسرة أيضاً فهو حسير، وحسره غيره تحسيراً.

﴿وَيَقْدِرُ﴾: يقال قدر عليه رزقه، وقدر: قتر وضيق.

﴿إِمْلَقَ﴾: فقر وفاقة، يقال أملق الرجل: أنفق ماله حتى افتقر، ورجل

مملق . وقال أعرابي : قاتل الله النساء كم يتملقن العلل ، لكنها تخرج من تحت أقدامهن ، أي : يستخرجنها .

﴿ خِطَا ﴾ : مصدر خطىء ، من باب : علم .

○ الإعراب :

﴿ وَآتَٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ بَذْرًا ﴾ وآت ذَا الْقُرْبَىٰ حقه : آت فعل أمر ، وفاعل مستتر تقديره : أنت ، وذا القربى مفعول به ، وحقه مفعول به ثان ، والمسكين وابن السبيل عطف على ذَا الْقُرْبَىٰ ، ولا ناهية وتبذر مضارع مجزوم بلا ، وتبذيراً مفعول مطلق ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ إن واسمها ، وجملة كانوا خبرها ، وإخوان الشياطين خبر كان ، أي : أمثالهم ، والعرب تقول لكل ملازم سنة قوم : هو أخوهم ، والملازم للشيء هو أخ له ، فيقولون : فلان أخو الجود ، وأخو الكرم ، وأخو الشعر ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ الواو عاطفة ، وكان واسمها ، ولربه متعلقان بكفوراً ، وكفوراً خبر كان ، ولا بد من تقدير مضاف ، أي : لنعم ربه وآلائه ﴿ وَإِنَّمَا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ بِتَبَٰءٍ رَّحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ وإما : إن شرطية ، وما زائدة ، وتعرضن فعل الشرط ، وهو في محل جزم ، والفاعل مستتر تقديره : أنت ، وعنهم متعلقان بتعرضن ، وابتغاء رحمة مفعول من أجله ، ولك في ناصبه وجهان : فإما أن تجعله فعل الشرط من وضع المسبب مكان السبب ، أي : وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك ، فسمى الرزق رحمة ، فردهم رداً جميلاً ، وإما تجعله جواب الشرط ، وقد تقدم عليه ، أي : فقل لهم قولاً كريماً ليناً ، وعدهم وعداً جميلاً ، تطيباً لقلوبهم ، ابتغاء رحمة من ربك . ومن ربك صفة لرحمة ، وجملة ترجوها حال من رحمة ، أو صفة ثانية ، فقل : الفاء رابطة ، وقل فعل أمر ، ولهم متعلقان بقل ، وقولاً مفعول مطلق ، وميسوراً صفة ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ الواو عاطفة ، ولا ناهية ، وتجعل مضارع مجزوم بلا ، والفاعل مستتر تقديره : أنت ، ويدك مفعول تجعل الأول ، ومغلولة مفعول تجعل الثاني ، وإلى عنقك

جار ومجورور متعلقان بمغلولة ﴿وَلَا نَبْطِطُهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾
ولا تبسطها عطف على لا تجعل، وكل البسط: مفعول مطلق، فتقعد: الفاء
فاء السببية، وتقعد مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء المسبوقة بالنهي،
وستأتي الشروط التي يجب أن تسبق هذه الفاء في باب: الفوائد، وفاعل تقعد
مستتر تقديره: أنت، وملوماً محسوراً حالين، أو تجعلهما خبرين لتقعد إذا
ضممتها معنى تصوير ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا
بَصِيرًا﴾ إن واسمها، وجملة يبسط خبرها، والرزق مفعول به، ولمن متعلقان
ببسط، وجملة يشاء صلة، ويقدر عطف على يبسط، وإن واسمها، وجملة كان
خبرها، واسم كان مستتر تقديره: هو، وعباده متعلقان بخبيراً بصيراً، وهما
خبران لكان ﴿وَلَا تَقْنُوتُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْنًا﴾ لا ناهية، وتقتلوا مجزوم بها،
وأولادكم مفعول به، وخشية مفعول لأجله، وإملاق مضاف إليه ﴿نَحْنُ
نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرِيمُونَ﴾ إن قلناهم كان خطأ كبيراً نحن مبتدأ، وجملة نرزقهم خبر،
وإياكم عطف على الهاء، وإن واسمها، وجملة كان خبر إن، وخطئاً خبر كان،
واسمها مستتر تقديره: هو، وكبيراً صفة لخطئاً.

□ البلاغة:

اشتملت هذه الآيات على طائفة من الحكم والأمثال، وعلى أنواع من
البلاغة، نوجزها فيما يلي:

(١) الاستعارة التمثيلية:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾
استعارة تمثيلية لمنع الشحيح وإعطاء المسرف، فقد شبه حال البخيل في امتناعه
من الإنفاق بحال من يده مغلولة إلى عنقه، فهو لا يقدر على التصرف في شيء،
وشبه حال المسرف المبذر المتلاف بحال من يبسط يده كل البسط، فلا يبقى على
شيء في كفه، ولا يدخر شيئاً ينفعه في حال الحاجة؛ ليخلص إلى نتيجة مجدية
وهي: التوسط بين الأمرين، والاقتصاد الذي هو: وسط بين الإسراف
والتقتير، وقد طابق في الاستعارة بين بسط اليد وقبضها من حيث المعنى؛ لأن

جعل اليد مغلولة هو قبضها وغلّها أبلغ في القبض ، وقد رمق أبو تمام سماء هذا المعنى فقال في المعتصم :

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ ثَنَاهَا لَقَبِضَ لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهُ

(٢) التغاير :

في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ نَزَقٌ مِّنْ رِّزْقِهِمْ وَلِيَبْآكَرُوا ﴾ وقد تقدم بحثه في سورة الأنعام ، وفيه سر خفي بين ما جاء في سورة الإسراء وما جاء في سورة الأنعام ، وهو قوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمَّا لَكُمْ نَزَقٌ مِّنْ رِّزْقِكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ فجدد به عهداً ، ونضيف إليه الآن : أن قتل الأولاد إن كان مبعثه خوف الفقر ، فهو من سوء الظن بالله ، واليأس من رحمته ، وإن كان مبعثه الغيرة على البنات فهو تدبير أرعن ، لا ينجم عنه إلا هدم المجتمع ، وتعطيل معالم الحياة .

* الفوائد :

شروط النصب بأن بعد فاء السببية وواو المعية :

لا تضمّر أن بعد فاء السببية وواو المعية أيضاً إلا بشرطين أساسيين ، وهما : أن يسبقهما نفي ، أو طلب محضين ، ولا فرق في النفي بين أن يكون حرفاً ، أو فعلاً ، أو اسماً ، أو تقيلاً مراداً به النفي . ومثال التقليل : قلما تأتينا فتحدثنا ، وأما الطلب فيشمل سبعة أمور ، وهي : الأمر ، والنهي ، والدعاء ، والعرض ، والتحضيض ، والاستفهام ، والتمني . فهذه سبعة مع النفي تصير ثمانية ، وزاد بعضهم الترجي ، وقد جمع هذه التسعة بقوله :

مُرْ وَاِنَّهٗ وَادْعُ وَسَلْ عَرْضَ لِحَضِّهِمْ

تَمَنَّ وَارْجِ كَذَلِكَ النَّفْيِ قَدْ كَمَلَا

واحترزنا بقولنا : «نفي أو طلب محضين» من النفي التالي تقريراً بالهمزة ؛ لأن التقرير إثبات ، ومن النفي المتلو بالنفي ؛ لأن نفي النفي إثبات ، ومن النفي المنتقض بإلا ، وما يجب مراعاته قول جميل بن معمر العذري :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبَّعَ الْقَوَاءَ فَيَنْطِقُ وهل يُخْبِرُنكَ الْيَوْمَ بَيِّدًا سَمَلَقُ؟

فينطق مرفوع، وهو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف أي: فهو ينطق، والفاء استئنافية، وليست للسببية، كما أنها ليست للعطف؛ إذ العطف يقتضي الجزم. ورجح ابن هشام في «المغني» أن تكون الفاء للعطف، وأن المعتمد بالعطف الجملة لا الفعل وحده، وإنما يقدر النحويون كلمة هو ليبينوا أن الفعل ليس المعتمد بالعطف، قال: ومثله: وإنما يقول له كن فيكون. أي: فهو يكون حينئذ، وقوله:

الشُّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سَلَّمَهُ إذا ارتقى فيه الذي لا يَعْلَمُهُ
زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ يريدُ أَنْ يَعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهُ
أي: فهو يعجمه.

ونعود إلى بيت جميل فنقول: أورده سيبويه في كتابه، وقال ما نصه: لم يجعل الأول سبب الآخر، ولكنه جعله ينطق على كل حال، كأنه قال وهو ما ينطق، كما يقال: اتتني وأحدثك، فجعل نفسه ممن يحدثه على كل حال، وزعم يونس أنه سمع هذا البيت. وإنما كتبت ذلك لئلا يقول إنسان فلعل الشاعر قال: إلا اه. وقال ابن النحاس: تقرير معناه أنك سألته، فيقبح النصب؛ لأن المعنى يكون: إنك إن تسأله ينطق. وقال الأعلم: الشاهد فيه رفع ينطق على الاستئناف والقطع، على معنى: فهو ينطق، وإيجاب ذلك، ولو أمكنه النصب على الجواب لكان أحسن.

وقال الفراء: أي: قد سألته فنطق، ولو جعلته استفهاماً وجعلت الفاء شرطاً لنصبت، كما قال آخر:

أَلَمْ تَسْأَلِ فَتَجْبِرْكَ الدِّيَارَا عن الحيِّ المضللِّ حيث سارا
والجزم في هذا البيت جائز، كما قال:

فَقُلْتُ لَهُ صَوْبٌ وَلَا تَجْهَدْنَهُ فيدرك من أخرى القطة فتزلُّ
فجعل الجواب بالفاء كالمسوق على ما قبله.

هذا؛ ولأهمية هذا البيت وعناية العلماء به نقول: إنه مطلع قصيدة لجميل بن معمر العذري صاحب بشينة المشهور وبعده، وهو من جيد الشعر:

بِمُخْتَلِفِ الْأَرْوَاحِ بَيْنَ سُوءِيقَةٍ
وَأَحْدَبَ كَادَتْ بَعْدَ عَهْدِكَ تَخْلُقُ
أَضْرَتْ بِهَا النَّكْبَاءُ كُلَّ عَشِيَةٍ
وَنَفَخَ الصَّبَا وَالْوَابِلُ الْمُتَعَبِّقُ
وَقَفْتُ بِهَا حَتَّى تَجَلَّتْ عَمَائِي
وَمَلَّ الْوُقُوفَ الْأَرْحَبِيُّ الْمُتَوَقِّ
وَقَالَ صَدِيقِي: إِنَّ ذَا لَصَبَابَةٍ
أَلَّا تَزْجُرُ الْقَلْبَ اللَّجُوجَ فَيَلْحَقُ؟
تَعَزَّ وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ كَرِيمَةٌ
لَعَلَّكَ مِنْ أَسْبَابِ بَثْنَةٍ تُعْتَقُ
فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الْبِعَادَ يَشُوقُنِي
وَبَعْضُ بَعَادِ الْبَيْنِ وَالنَّأْيِ أَشْوَقُ

والربع: المنزل، والقواء: القفر، وجعله ناطقاً للاعتبار بدروسه وتغيره، ثم حقق وأخبر أنه لا يجيب، ولا يخبر سائله لعدم وجود القاطنين به، البیداء: القفر، والسملق: الأرض التي لا شيء فيها.

ومما اختلف فيه وكان موضع الدقة قول عروة العذري صاحب عفراء: وما هو إلا أن أراها فجاءةً فأبْهَتَ حَتَّى مَا أَكَادُ أَجِيبَ

قال سيبويه: وسألت الخليل عن قول الشاعر: وما هو إلا أن أراها. الخ فقال: أنت في «فأبْهَتَ» بالخيار إن شئت حملتها على أن، وإن شئت لم تحملها عليها فرفعت، كأنك: قلت: ما هو إلا الرؤى فأبْهَتَ. ومعنى ما أَرَادَهُ سيبويه أن النصب بالعطف، على أن المراد المصدر، والتقدير: فما هو إلا الرؤية فأبْهَتَ، والرفع على القطع والاستئناف، والمعنى: فإذا أنا مبْهوت. وإنما أطلنا في هذا لأنه من الدقة بمكان، فاعرفه، وقس عليه.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ٣٢ ﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِي
الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ٣٣ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
أَشَدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ٣٤ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوتُمْ
بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٣٥ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ
السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ٣٦ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ٣٧ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ
مَكْرُوهًا ٣٨ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَلَىٰ
فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ٣٩ ﴾

☆ اللغة:

﴿ الزِّنَىٰ ﴾: يكتب بالياء؛ لأنه مصدر زنى يزني، ويكتب بالألف على أنه
مقصور من الزناء بالمد، ويقولون: هو زان بين الزنى، والزناء بالمد والقصر،
قال الفرزدق:

أبا خالدٍ مَنْ يَزْنِي يُعْلَمُ زِنَاؤُهُ

وَمَنْ يَشْرِبِ الْخُرْطُومَ يُصْبِحُ مُسَكَّرًا

وقال الفراء: المقصور من زنى، والممدود من زانى، يقال: زانها مزانة
وزناء، وخرجت فلانة تزاني وتباغي، وقد زنى بها، وهو ولد زنية، وإنه لزنية
بالفتح والكسر.

﴿ بِالْقِسْطَاسِ ﴾ هو رومي عُرِبَ كما تقدم، وقد ذكرنا من قبل أن ذلك
لا يقدح في عريية القرآن؛ لأن العجمي إذا استعملته العرب، وأجرته مجرى
كلامهم في الإعراب والتعريف والتنكير ونحوها، صار عربياً، وسيأتي المزيد
من هذا البحث المفيد، والقسطاس: بالضم والكسر وهو القرسطون، أي:

القبان، وقيل: كل ميزان صغر أو كبر.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبع، يقال قفا أثره وقافه، قيل: هو مأخوذ من القفا، كأنه يقفو الأمور: يتبعها ويتعرفها، وقيل: القفو شبيه بالعضية، ومنه الحديث: «من قفا مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي المخرج» وأنشدوا لبعضهم:

وَمِثْلُ الدُّمَى شُمُّ الْعَرَانِينَ سَاكِئٌ بِهِنَ الْحَيَاءِ لَا يُشْعِنُ التَّقَافِيَا

يصف نساء بأنهن جميلات مثل الدمي، ويشبههن بالبيوت، ويشبه الحياء بقوم يسكنونها على طريق الاستعارة المكنية، والسكنى تخيل لذلك، ويقول: إنهن لا يشعن، أي: لا يظهرن التقافي، أي: المتابعة بالقذف، من قفوته: إذا اتبعته بالغيبة.

وقال الكمي:

وَلَا أَرْمِي الْبَرِيءَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ وَلَا أَقْفُو الْحَوَاصِنَ إِنْ قُفِينَا

يقول: لا أتهم البريء بشيء زور، بل بذنب محقق، ولا أتبع العفاف، وأتكلم فيهن بفحش ما دمن عفاف، إن قفاهنَّ الناس فتكلموا فيهن، فكيف إذا لم يتكلم فيهنَّ أحد؟!

○ الإعراب:

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الواو عاطفة، ولا ناهية، وتقربوا فعل مضارع مجزوم بلا، والواو فاعل، والزنا مفعول به، وجملة إنه تعليلية لا محل لها، وإن واسمها، وجملة كان خبرها، واسم كان مستتر تقديره: هو، وفاحشة خبرها، وساء فعل ماض للذم، والفاعل مستتر، وسبيلاً تمييز، والمخصوص بالذم محذوف، أي: هو ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ولا تقتلوا عطف على ما تقدم، والنفس مفعول به، والتي صفة، وجملة حرم الله صلة، وإلا أداة حصر، وبالحق متعلقان بتقتلوا، والباء للسببية، أو بمحذوف حال من فاعل تقتلوا، فهي للملابسة، أي: متلبسين

بالحق ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا﴾ الواو استئنافية، ومن شرطية مبتدأ، وقتل فعل ماض مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط، ونائب الفاعل مستتر تقديره: هو، ومظلوماً حال، فقد الفاء رابطة، وقد حرف تحقيق، وجعلنا فعل وفاعل، ولوليه مفعول جعلنا الثاني، وسلطاناً مفعول جعلنا الأول، أي: حجة يثيب بها عليه ﴿فَلَا يُسْرِفَ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ الفاء عاطفة، ولا ناهية، ويسرف مضارع مجزوم بلا، وفاعله مستتر يعود على الولي، أي: فلا يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتل واحد؛ كديدن الجاهلية، على حد قول مهلهل ابن ربيعة:

كُلُّ قَتِيلٍ فِي كُلِّبٍ غُرَّةٌ حَتَّى يَنَالَ الْقَتْلُ آلَ مُرَّةٍ

وفي القتل متعلقان بيسرف، وجملة إنه تعليلية، وإن واسمها، وجملة كان خبرها، واسم كان مستتر، ومنصوراً خبرها ﴿وَلَا تُقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ولا تقربوا عطف أيضاً، ومال اليتيم مفعول به، وإلا أداة حصر، وبالتي استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: لا تقربوه بحال من الأحوال إلا بالخصلة، أو الطريقة التي هي أحسن، وهي حفظه، وصيانته، واستغلاله لمصلحة اليتيم، وهي مبتدأ، وأحسن خبر، والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ حتى حرف غاية وجر، ويبلغ منصوب بأن مضمرة بعد حتى، والمراد بالأشد بلوغه مرتبة يحسن فيها التصرف، وقد تقدم معنى الأشد، وأنه مفرد بمعنى القوة، أو جمع لا واحد له من لفظه. وقيل: جمع شدة أو شد. وفي كتاب «معاني القرآن» للفراء أن الأربعين أشبه بالصواب ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أوفوا فعل أمر، والواو فاعل، وبالعهد متعلقان بأوفوا، وإن واسمها، وجملة كان خبرها، ومسؤولاً خبر كان، ومعنى مسؤولاً مطلوباً كأنه يطلب من المعاهد أن يفي به، وحذف الجار والمجرور تخفيفاً، أي: عنه، وقد ذكر في بقية الآي، كما سيأتي، ويجوز وجه آخر سيأتي في باب: البلاغة ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوتُمْ بِالْقِاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وأوفوا فعل أمر، والواو فاعل، والكيل مفعول أوفوا، وإذا ظرف مستقبل

متضمن معنى الشرط، وجملة كلتم مضافة إلى الظرف، وجوابه محذوف دل عليه قوله: «أوفوا الكيل». وزنوا بالقسطاس المستقيم عطف على أوفوا بالكيل ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ذلك مبتدأ، وخير خبر، وأحسن عطف على خير، وتأويلاً تمييز، أي: أحسن عاقبة، فالتأويل تفضيل من آل: إذا رجع، وهو ما يؤول إليه في الآخرة. ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لا ناهية، وتقف مجزوم بلا، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهو الواو، وفاعله مستتر تقديره: أنت، وما مفعول به، وجملة ليس صلة، ولك خبر ليس المقدم، وبه متعلقان بمحذوف حال، ولا يجوز تعلقها بعلم؛ لأن معمول المصدر لا يتقدم عليه، وقال بعضهم: متعلقان بما تعلق به لك، وهو الاستقرار، وفيه بعد، ومعنى الآية النهي عن أن يقول الإنسان ما لا يعلم أو يعمل بما لا علم له به، وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور، إلا أن الشيوخ أولى، وعلم اسم ليس المؤخر ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ إن واسمها، والبصر والفؤاد عطف على السمع، وكل مبتدأ، وأولئك مضاف، وجملة كان خبر، وعنه متعلقان بمسؤولاً، ومسؤولاً: خبر كان، وسيأتي مزيد من التفصيل حول هذه الآية في بابي: البلاغة والفوائد ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ لا ناهية، وتمش مجزوم بها، وفاعله مستتر تقديره: أنت، وفي الأرض متعلقان بتمش، ومرحاً حال على تقدير مضاف، أي: ذا مرح، أي: ولا تمش في الأرض حال كونك ذا مرح، أي: مارحاً متلبساً بالكبر والخيلاء، وقد أحسن الأخفش إذ فضل المصدر على اسم الفاعل، كأنه نفس المرح، ويجوز أن يعرب مفعولاً لأجله كما قال أبو البقاء ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طَوْلًا﴾ جملة تعليلية لا محل لها، كأنها تعليل للنهي، أي: لن تجعل فيها صدوعاً وخروفاً بدروسك لها، وإن واسمها، وجملة لن تخرق الأرض خبرها، ولن تبلغ الجبال عطف على لن تخرق، وطولاً تمييز محول عن الفاعل، أي: ولن يبلغ طولك الجبال، وقيل: مصدر في موقع الحال، أو مفعول له، وسيأتي مزيد من البحث في باب البلاغة ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ كل مبتدأ، وذلك مضاف إليه، والإشارة إلى ما تقدم من

الخصال الخمس والعشرين الأنفة من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ وسيأتي تفصيل عددها في باب الفوائد، وكان فعل ماض ناقص، وسيئة اسمها، وعند ربك ظرف متعلق بمكروهاً، ومكروهاً خبر كان ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ ذلك مبتدأ، أي: ما تقدم من خصال، ومما خبر، وجملة أوحى صلة، وإليك متعلقان بأوحى، وربك فاعل، ومن الحكمة حال من عائد الموصول المحذوف، أي: من الذي أوحاه إليك كونه من الحكمة التي هي معرفة الحق لذاته، والخير للعمل به، أو حال من نفس الموصول، وقد استهلكت هذه الخصال، وختمت بالنهي عن الشرك ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَلْتَلَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ولا تجعل عطف على ما تقدم، ومع ظرف مكان متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني لتجعل، وإلهاً هو المفعول الأول، وآخر صفة، فتلقى: الفاء فاء السببية، ونائب الفاعل مستتر تقديره: أنت، وفي جهنم متعلقان بتلقى، وملوماً ومدحوراً حالان.

□ البلاغة:

انطوت هذه الآية على فنون كثيرة من البلاغة نثبتها فيما يلي:

(١) الإطناب:

في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُلٌ مَّظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّمَا كَانَ مَنصُورًا﴾ فإن معنى هذه الآية جاء موجزاً في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيٰوةٌ﴾ لكن الأول إطناب، والثاني إيجاز، وكلاهما موصوف بالمساواة، وقد تحدثنا عن الإيجاز، فلنتحدث الآن عن الإطناب والمساواة، فالإطناب مأخوذ في الأصل من أطنب في الشيء إذا بالغ فيه، يقال: أطنبت الريح إذا اشتدت في هبوبها، وأطنب في السير إذا اشتد فيه، وفي اصطلاح البيانين هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، فإذا لم تكن في الزيادة فائدة سمي تطويلاً إن كانت الزيادة غير متعينة، وحشواً إن كانت متعينة، فالتطويل كقول عنتر بن شداد:

حَيِّتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَزَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ

والخشو كقول زهير بن أبي سلمى :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمٍ

والإطنباب يكون بأمور عدة، نوجزها فيما يلي :

أ - التأكيد والتقرير، وهو يكون حقيقة ومجازاً، فالحقيقة كقولهم : رأيتُه بعيني، وقبضته بيدي، ووطئته بقدمي، وذقته بفمي، وكل هذا يظن الظان أنه لا حاجة إليه، فالرؤية لا تكون إلا بالعين، والقبض لا يكون إلا باليد، والوطء لا يكون إلا بالقدم، والذوق لا يكون إلا بالفم، وليس الأمر كما توهم، بل يطرد في كل ما يعزّ مناله، ويعظم الوصول إليه، ومن أمثلته البديعة في الشعر قول البحري :

تَأْمَلُ مِنْ خِلَالِ السَّجْفِ وَانْظُرْ بَعَيْنِكَ مَا شَرِبْتُ وَمَنْ سَقَانِي

تَجِدُ شَمْسَ الضُّحَى تَذْنُو بِشَمْسٍ إِلَيَّ مِنَ الرَّحِيقِ الْخُسْرُوَانِي

ولما كان الحضور في هذا المجلس مما يعزّ وجوده ومناله، وكان الساقى بهذه المثابة من الحسن قال : انظر بعينيك . وعلى هذا ورد الكثير منه في القرآن الكريم، فقال تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ والمجاز كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ ففائدة ذكر الصدور هنا أنه قد تعورف وعلم أن العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها، واستعماله في القلب تشبيه وتمثيل، فلما أريد إثبات ما هو خلاف ما تعورف وعلم من نسبة العمى إلى القلوب احتاج الأمر إلى زيادة تصوير وتعريف ؛ ليقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الصدور .

ب - ذكر الخاص بعد العام : كقوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ فقد خص الله سبحانه الروح بالذكر وهو جبريل، مع أنه داخل في عموم الملائكة تكريماً له وتعظيماً لشأنه، وكأنه من جنس آخر، ففائدة الزيادة هنا التنويه الخاص .

ج - ذكر العام بعد الخاص : كقوله تعالى : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ فقد ذكر الله سبحانه المؤمنين والمؤمنات ، وهما لفظان عامان ، يدخل في عمومها من ذكر قبل ذلك ، والغرض من هذه الزيادة إفادة الشمول مع العناية بالخاص ذكره مرة وحده ، ومرة مندرجاً تحت العام .

د - الإيضاح بعد الإبهام : كقوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ فقوله « ذلك الأمر » إبهام ، وقوله : « أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » إيضاح للإبهام الذي تضمنه لفظ الأمر ؛ لزيادة تقرير المعنى في ذهن السامع مرة على طريق الإجمال والإبهام ، ومرة على طريق التفصيل والإيضاح .

هـ - التكرار لتقرير المعنى : وهذا موضوع جم الشعاب ، متعدد المسالك ، نحتاج إلى مجلدات لإحصائه ، ولكننا نذكر ما هو بمثابة الدليل والرائد لغيره ، كقول عنتر بن شداد في بعض روايات معلقته :

يدعون عنتر والسيوف كأنها لمع البوارق في سحاب مظلم
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم

فالتكرار في بيتي عنتر تقرير المعنى في نفس السامع ، وترسيخه في ذهنه ، وهو هنا لداعي الفخر ، ويطرد في الخطابة ، وفي مواطن الفخر ، والمدح ، والإرشاد ، والإنذار ، وقد يكون للتحسر كقول الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة :

فيا قبر معنٍ أنتَ أوَّلُ حفرةٍ
من الأرض خُطَّتْ للسَّماحةِ مَوْضِعاً
ويا قبر معنٍ كيف وارىتَ جودَهُ
وقد كان منه البرّ والبَحر مَرْتَعاً

ومنها طول الفصل كقول الشاعر :

لقد عا الحَيُّ اليمانون أنني إذا قلتُ أما بعد إنِّي خطيبُها

و- الاعتراض : وهو أن يؤتى في أثناء الكلام ، أو بين كلامين متصلين في المعنى بجملته أو أكثر لا محل لها من الإعراب ؛ لغرض يقصد إليه البليغ ، وقد تقدم ذكره ، ومنه قول النابغة الجعدي :

أَلَا زَعَمْتُ بَنُو سَعْدٍ بِأَنِّي - أَلَا كَذَبُوا - كَبِيرَ السِّنِّ فَإِنْ

فقد جاءت جملة «ألا كذبوا» معترضة بين اسم إن وخبرها ؛ للإسراع إلى التنبيه على كذب من رماه بالكبر .

ز- التذييل : وهو تعقيب الجمل بجملته أخرى تشتمل على معناها تأكيداً لها ، كقول الخطيئة :

تزور فتى يعطي على الحمد ماله

ومن يُعطِ أثمان المحامدِ يحمد

فإن المعنى تم في الشطر الأول ، ثم ذيل بالشطر الثاني للتوكيد .

ح- الاحتباس : وقد تقدم بحثه ، ومنه قول ابن المعتز :

صَبِينَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سَيَاطِنَا فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سَرَّاعٍ وَأَرْجُلُ

فلو أسقطنا كلمة «ظالمين» لتوهم السامع أن فرس ابن المعتز كانت بليدة تستحق الضرب ، وهذا خلاف المقصود .

هذا ، وستأتي أمثلة من الإطناب في مواضعها من هذا الكتاب .

أما المساواة فهي أن تكون المعاني بقدر الألفاظ ، والألفاظ بقدر المعاني ، لا يزيد بعضها على بعض ، ولا ينقص عنه ، وقد تقدم التمثيل لها بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الخ ومن أمثلتها في الشعر قول النابغة الذبياني :

فإنك كاللَّيْلِ الذي هو مُدْرِكِي وَإِنْ خَلْتُ أَنْ الْمَتَى عَنْكَ وَاسِعُ

وقول طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

والقرآن حافل بأمثلة المساواة، وستأتي في مواضعها إن شاء الله .

٢ - الاستعارة:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ وقد قدمنا أنه جار على الحقيقة بحذف الجار والمجرور، ويجوز أن يكون الكلام جارياً على طريق الاستعارة المكنية، بأن يشبه العهد بمن نكث عهده، ونسبته السؤال إليه تخیيل .

٣ - التهكم:

وقد سبق ذكره؛ لأن مشية المرح مشتملة على شدة الوطء والتباهي على الأرض بمشيهِ عليها، والتطاول على الآخر، ولو كان المتكبر خفيف الوطأة، قميء النظرة، شخت الخلقة، على حد قول المتنبي:

أفي كل يوم تحت ضُنِّي شُويعِرُ ضعيفٌ يُقاويني قصيرٌ يُطاوِلُ

* الفوائد:

في هذه الآيات الجامعة فوائد كثيرة، نتناول المهم منها جرياً على أسلوبنا في هذا الكتاب، فمنها تعليق الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ فقد علقناه في باب الإعراب بمسؤولاً، وجعلنا نائب الفاعل ضميراً يعود على كل، أي: كان كل واحد منها مسؤولاً عن نفسه، يعني: عما فعل به صاحبه، وقد أسند الزمخشري مسؤولاً إلى الجار والمجرور، وجعله بمثابة نائب الفاعل، وهذا سهو من الزمخشري يحل عنه؛ لأن الجار والمجرور يقام مقام الفاعل، أو نائبه، إذا تقدم الفعل، أو ما يقوم مقامه، وأما إذا تأخر فلا يصح ذلك؛ لأن الاسم إذا تقدم على الفعل صار مبتدأ، وحرف الجر إذا كان لازماً لا يكون مبتدأ، ف«عنه» ليس هو النائب عن الفاعل خلافاً لصاحب «الكشاف» ولا ضمير المصدر كما قال بعضهم، وإنما النائب في هذه الآية ضمير راجع إلى ما رجع إليه اسم كان، وهو المكلف المدلول عليه بالمعنى، والتقدير مسؤولاً هو، أي: المكلف، وإنما لم يقدر

ضمير كان راجعاً لكل ؛ لئلا يخلو مسؤولاً عن ضمير ، فيكون مسنداً إلى عنه ، وذلك لا يجوز .

وعبارة ابن هشام : وقول بعضهم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ إن عنه مرفوع المحل بمسؤولاً ، والصواب أن اسم كان ضمير المكلف وإن لم يجد له ذكر ، وإن المرفوع بمسؤولاً مستقر فيه ، راجع إليه أيضاً ، وأن عنه في موضع نصب .

أي : على أنه مفعول ثان لمسؤولاً ؛ لأنه يتعدى لمفعولين ثانيهما بعن .

الخصال الخمس والعشرون :

وعندناك بإحصاء الخصال الخمس والعشرين التي وردت الإشارة إليها بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ أُولَئِكَ ﴾ وهذا إحصاؤها بالترتيب :

١ - ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ .

٢ و ٣ - قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ إلى آخر الآية لاشتماله على تكليفين ، وهما : عبادة الله ، والنهي عن عبادة غيره .

٤ - ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ .

٥ - ﴿ فَلَا تَقْرُطْهُمَا أَفْيَ ﴾ .

٦ - ﴿ وَلَا تَنْهَرُهُمَا ﴾ .

٧ - ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ .

٨ - ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ .

٩ - ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا ﴾ .

١٠ - ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ .

١١ - ﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ .

١٢ - ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ .

- ١٣- ﴿وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا﴾ .
 ١٤- ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ .
 ١٥- ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ .
 ١٦- ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ .
 ١٧- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ .
 ١٨- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ .
 ١٩- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾ .
 ٢٠- ﴿فَلَا يُسْرِفَ فِي الْقَتْلِ﴾ .
 ٢١- ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ .
 ٢٢- ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ .
 ٢٣- ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ﴾ .
 ٢٤- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ .
 ٢٥- ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ .

الإشارة بأولئك :

الإشارة في قوله تعالى : ﴿كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ إلى السمع والبصر والفؤاد ، وقد أشير إليها بأولئك ، وهي في الأكثر لمن يعقل ؛ لأنه جمع ذا ، وذا لمن يعقل ولما لا يعقل ، وأولاء ممدود عند الحجازيين ، مقصور عند أهل نجد وتميم ، والأكثر مجيئه للعقلاء ، ويقل مجيئه لغير العقلاء ، كقول جرير بن عطية :

ذُمَّ المنازلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللّٰوِي والعيشَ بعد أولئك الأيامِ

وهو من قصيدة مستجادة له مطلعها :

سَرَّتِ الهمومُ فَبِتْنَ غَيْرَ نِيَامٍ وأخو الهمومِ يرومُ كُلَّ مَرَامٍ

وفيهما يقول بعد البيت المتقدم :

وَإِذَا وَقَفْتُ عَلَى الْمَنَازِلِ بِاللَّوَى

فَاضَتْ دُمُوعِي غَيْرَ ذَاتِ نِظَامٍ

طَرَفْتُكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا

وَقْتُ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ

تُجْرِي السَّوَاكُ عَلَى أَغَرِّ كَأَنَّهُ

بَرْدٌ تَحَدَّرَ مِنْ مُثُونِ غَمَامٍ

لَوْ كَانَ عَهْدُكَ كَالَّذِي حَدَّثْتِنَا

لَوَصَلْتَ ذَاكَ فَكَانَ غَيْرَ رِمَامٍ

إِنِّي أُوَصِّلُ مَنْ أَرَدْتُ وَصَالَهُ

يَجِبَالٍ لَا صَلِيفٍ وَلَا لَوَامٍ

ومنها في هجاء الفرزدق :

خَلِقَ الْفَرَزْدَقُ سَوْءَةً فِي مَالِكٍ

وَلَخَلْفِ ضَبَّةٍ كَانَ شَرًّا غَلَامٍ

مَهْلًا فَرَزْدَقُ إِنَّ قَوْمَكَ فِيهِمْ

خَوْرُ الْقُلُوبِ وَخِفَّةُ الْأَحْلَامِ

الظَّاعِنُونَ عَلَى الْعَمَى بِجَمِيعِهِمْ

وَالنَّازِلُونَ بَشْرَ دَارٍ مُقَامٍ

واللوى : بكسر اللام وفتح الواو مقصوراً في الأصل : منقطع الرمل ، وقد

ورد في مطلع معلقة امرئ القيس وهو :

قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَيْبٍ وَمَنْزِلٍ

بَسْقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ

وهو أيضاً موضع بعينه ، قال ياقوت : وقد أكثر الشعراء من ذكره ،

وخلطت بين ذلك اللوى والرمل ، فعز الفصل بينهما ، وهو واد من أودية بني سليم .

﴿ أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَقُلُوبُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ١٠ ﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ١١ ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُغْوَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ١٢ ﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ١٣ ﴾ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ١٤ ﴾

☆ اللفظة:

﴿ أَفَأَصْفَنكُمْ ﴾ : أخلصكم وخصكم ، والتصفيه في الأصل معناها: التخليص ، ولكنه هنا ضمن معنى خصكم لأجل تعلق البنين به . وفي الأساس : ومن المجاز : أصفيته المودة وأصفيته بالبر : أثرته واختصصته ﴿ أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ ﴾ وأصفى عياله بشيء يسير : أَرْضَاهُمْ بِهِ ، وصادف الصياد خفقا فأصفى أولاده بالغبيراء ، قال الطرمّاح :

أو يصادِفُ خَفَقًا يُصَفِّهِمُ بعتيقِ الخَسْلِ دون الطَّعامِ
وهو صفيي من بين إخواني ، وهم أصفيائي ، وصافيته ، وهما خليلان متصافيان .

﴿ صَرَّفْنَا ﴾ : بينا وأوضحنا ، ولها معان كثيرة بالتشديد ، يقال : صرفه بمعنى صرفه مع مبالغة ، وصَرَّفَ الشيء : باعه ، وصرف الدراهم : بدلها ، وصرف الخمر : شربها صرفاً ، أي : غير ممزوجة ، وصرف الكلام : اشتق بعضه من بعض ، وصرفه في الأمر : فوض الأمر إليه ، وصرف الماء : أجرأه ، وصرف الله الرياح : أجرأها من وجهه إلى وجهه .

○ الإعراب:

﴿ أَفَأَصْفَنُكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا ﴾ الهمزة للاستفهام، والحقيقة أن هذا الاستفهام معناه الإنكار الإبطالي، وهذا يقتضي أن ما بعده غير واقع، وأن مدعيه كاذب، ومعناه التقرير والتوبيخ والنفي أيضاً، أي: لم يفعل ذلك. وأصفاكم فعل ماضٍ، والكاف مفعوله، وهو معطوف على محذوف يقدر بحسب المقام، وربكم فاعل، وبالبين متعلقان بأصفاكم، واتخذ من الملائكة إنثاً عطف على أصفاكم، وهو فعل وفاعل مستتر، ومن الملائكة مفعول اتخذ الثاني، وإنثاً هو المفعول الأول، ويجوز أن تكون جملة اتخذ من الملائكة إنثاً حالية، والواو واو الحال، وقد مقدرة ﴿ إِنْتُمْ لَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ إن واسمها، واللام المرحقة، وجملة تقولون خبرها، وقولاً مفعول مطلق، وعظيماً صفة ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، وقد حرف تحقيق، وصرفنا فعل وفاعل، ومفعوله محذوف، أي: أمثلاً، ومواعظ، وحكماً، وقصصاً، وأخباراً، وأوامر، ونواهي، وقد حذف الضمير للعلم به، وفي هذا متعلقان بصرفنا، والقرآن بدل، واللام للتعليل، ويذكروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والواو للحال، وما نافية، ويزيدهم فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: هو، وإلا أداة حصر، ونفوراً مفعول يزيدهم الثاني ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ قل فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، ولو شرطية، ومعه ظرف متعلق بمحذوف خبر كان المقدم، وآلهة اسمها المؤخر، وكما يقولون نعت لمصدر محذوف، أي: كوناً مشابهاً لما يقولون ﴿ إِذَا لَا بُدَّ مِنْكُمْ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ إذا حرف جواب وجزاء مهملة دالة على أن ما بعدها، وهو لا بتغوا جواب عن مقالة المشركين، واللام واقعة في جواب لو، وجملة ابتغوا لا محل لها، والواو فاعل، وإلى ذي العرش متعلقان بابتغوا، أو بمحذوف حال من سبيلاً، وسبيلاً مفعول ابتغوا ﴿ سُبْحَنَ تَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ سبحانه مفعول مطلق، وقد تقدم مراراً، وتعالى عطف على

ما تضمنه المصدر، والتقدير: تنزه وتعالى، فهو فعل ماضٍ، وعما متعلقان به، وجملة يقولون صلة، وعلواً مفعول مطلق؛ لأنه مصدر واقع موقع التعالي، وكبيراً صفة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ تسبح فعل مضارع، وله متعلقان به، والسموات فاعل، والسبع صفة، والأرض عطف على السموات، ومن عطف على السموات والأرض، وفيهن متعلقان بمحذوف صلة من ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الواو عاطفة، وإن نافية، ومن حرف جر زائد، وشيء مجرور لفظاً مرفوع محلاً، وساخ الابتداء به لتقدم النفي، وإلا أداة حصر، ويسبح فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: هو، والجملة خبر شيء، وبحمده حال، أي: متلبساً بحمده، ولكن: الواو حالية، ولكن حرف استدراك مهمل، ولا نافية، وتفقهون فعل مضارع وفاعل، وتسبيحهم مفعول به ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إن واسمها، وجملة كان خبرها، واسم كان مستتر، وحليماً خبر أول لكان، وغفوراً خبر ثان لها.

□ البلاغة:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فن التنكيت، وقد تقدمت الإشارة إليه، وأنه قصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسد مسده، لنكتة في المذكور ترجح مجيئه على سواه، فقد خص سبحانه تفقهون دون تعلمون؛ لما في الفقه من الزيادة على العلم؛ لأنه التصرف في المعلوم بعد علمه واستنباط الأحكام منه، والمراد الذي يقتضيه معنى الكلام التفقه في معرفة التسبيح من الحيوان البهيم والنبات والجماد، وكل ما يدخل تحت لفظه شيء مما لا يعقل ولا ينطق؛ إذ تسبيح ذلك بمجرد وجوده الدال على قدرة موجدته وحكمته.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۖ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي

الْقُرْآنِ وَحَدِّمْ وَلَوْ أَعْلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نَفُورًا ﴿٤٦﴾ تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾

○ الإعراب:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾
الواو استئنافية، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وقرأت القرآن فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مضافة إلى إذا، وجعلنا فعل وفاعل، وبينك الظرف متعلق بمحذوف مفعول به ثان، وبين الذين لا يؤمنون عطف على الظرف الأول، وجملة لا يؤمنون صلة، وبالآخرة متعلقان بيؤمنون، وحجاباً مفعول جعلنا الأول، ومستوراً نعت لحجاباً، ويجوز أن يكون مستوراً على بابه، أي: لا يرى فهو مستور، ويجوز أن يكون مفعولاً بمعنى فاعل، أي: ساتراً لك عنهم فلا يرونك، يريد الذين حاولوا الفتك برسول الله ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ جعلنا فعل وفاعل، وعلى قلوبهم مفعول جعلنا الثاني، وأكنة مفعول جعلنا الأول، وأن يفقهوه في موضع النصب مفعول من أجله، أي: كراهة أن يفقهوه، ويجوز أن يكون منصوباً بنزع الخافض، أي: من يفقهوه، والجار والمجرور متعلقان بأكنة؛ لأن فيها معنى المنع من الفقه، فكأنه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه، «وفي آذانهم وقراً» عطف على قوله «على قلوبهم أكنة» ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ الواو عاطفة، وإذا ظرف مستقبل، وجملة ذكرت مضافة، وذكرت فعل وفاعل، وربك مفعول به، وفي القرآن متعلقان بذكرت، ووحده حال؛ لأنه في قوة النكرة، أي: منفرداً، وجملة: ولوا لا محل لها، وعلى أدبارهم متعلقان بمحذوف حال، ونفوراً مفعول مطلق؛ لأنه في معنى ولوا، أي: فهو مصدر، ويجوز إعرابه مفعولاً من أجله، وأعربه أبو البقاء حالاً، أي: نافرين، فيكون جمع نافر ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ نحن مبتدأ، وأعلم خبر، وبما متعلقان بأعلم، وجملة يستمعون صلة، وبه جار ومجرور متعلقان يستمعون، والباء سببية، والمعنى:

ما يستمعون بسببه، وهو الهزء بك وبالقرآن، وقال الزمخشري: به في موضع الحال كما نقول يستمعون بالهزء، أي: هازئين. وفيه بعد، وقال أبو البقاء: الباء بمعنى اللام، وإذ ظرف لما مضى متعلق بأعلم، وجملة يستمعون إليك مضافة للظرف ﴿وَإِذْ هُمْ نَجَوْا﴾ عطف على إذ داخلة في حكمها، فهي ظرف لأعلم، أي: وبما يتناجون به إذ هم ذوو نجوى، فهم مبتدأ، ونجوى خبر على حذف مضاف، ويحتمل أن يكون نجوى جمع نجى، فلا حاجة لتقدير مضاف قبل الخبر ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ إذ يقول بدل من إذ هم نجوى، أو من إذ يستمعون إليك، ويقول الظالمون فعل مضارع وفاعل، وإن نافية، وتتبعون فعل مضارع مرفوع، والواو فاعل، وإلا أداة حصر، ورجلاً مفعول به، ومسحوراً نعت لرجلاً.

* الفوائد:

بحث طريف عن وحده:

اعلم أن «وحده» لم يستعمل إلا منصوباً إلا ما ورد شاذاً، قالوا: هو نسيج وحده، وعير وحده، وجحيش وحده، فأما نسيج وحده فهو مدح، وأصله أن الثوب إذا كان رفيعاً فلا ينسج على منواله غيره، فكأنه قال: نسيج أفراد، يقال: هذا للرجل إذا أفرد بالفضل، وأما عير وحده، وجحيش وحده، فهو تصغير عير، وهو الحمار. يقال للوحشي والأهلي وجحيش وحده، وهو ولد الحمار، فهو ذم. يقال للرجل المعجب برأيه، لا يخالط أحداً في رأي، ولا يدخل في معونة أحد، ومعناه أنه ينفرد بخدمة نفسه، وأما قولك جاء وحده: فوحده حال من فاعل جاء المستتر فيه وهو معرفة بالإضافة إلى الضمير، فيؤول بنكرة من لفظه، أو من معناه، أي: متوحداً أو منفرداً، وتقول: مررت به وحده، ومررت بهم وحدهم، فوحده مصدر في موضع الحال؛ كأنه في معنى إيجاد جاء على حذف الزوائد، كأنك قلت: أوحده بمروري إيجاداً، أو إيجاد في معنى موحد، أي: منفرد، فإذا قلت: مررت به

وحده، فكأنك: قلت مررت به منفرداً، ويحتمل عند سيبويه أن يكون للفاعل والمفعول.

وكان الزجاج يذهب إلى أن وحده مصدر، وهو للفاعل دون المفعول، فإذا قلت مررت به منفرداً، فكأنك قلت أفردته بمروري إفراداً.

وقال يونس: إذا قلت مررت به وحده، فهو بمنزلة موحداً ومنفرداً، وتجعله للممرور به، وليونس فيه قول آخر: أن وحده معناه على حياله، وعلى حياله في موضع الظرف، وإذا كان الظرف صفة أو حالاً قدر فيه مستقر ناصب للظرف، ومستقر هو الأول.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ٤٨ ﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفْنَا أَمْ تَالْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ٤٩ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ٥٠ ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ ٥١ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُ لِأَيْدِيهِمْ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٥٢ ﴿

☆ النِّفْت:

﴿وَرَفْنَا﴾: الرفات: ما بولغ في دقه وتفتيته، وهو اسم مفرد لأجزاء ذلك الشيء المفتت، وقال الفراء: هو التراب يؤيده أنه تكرر في القرآن تراباً وعظاماً. ويقال: رفت الشيء يرفته بالكسر، أي: كسره، والفعل يغلب في التفريق كالحطام، والرقاق، والفتات. وفي القاموس وتاج العروس: «رفته يرفته ويرفته: كسره، ودقه، وانكسر واندق لازم ومتعد، وانقطع كارتفت ارتفتاً في الكل، وكغراب الحطام، وكصرد: التبن والذي يرفت كل شيء، أي: يكسره وفي الأساس: وفي ملاعبهن رفات المسك، أي: فثاته، ويقال لمن عمل ما يتعذر عليه التفصي منه: الضبع ترفت العظام، ولا تعرف قدر

استها، تأكلها، ثم يتعسر عليها خروجها. ومن المجاز: هو الذي أعاد المكارم، وأحيا رفاتها، وأنشر أمواتها.

﴿فَسَيَنْفُضُونَ﴾: أي: يحركون رؤوسهم. وفي المختار: نغض رأسه، من باب: نصر وجلس، أي: تحرك، وأنغض رأسه: حرّكه كالمتعجب من الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيَنْفُضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ ونغض فلان رأسه، أي: حرّكه، يتعدى ويلزم. وفي اللسان: يقال: أنغض رأسه ينغضها، أي: حركها إلى فوق وإلى أسفل إنغاضاً، فهو منغض، وأما نغض ثلاثياً ينغض، وينغض - بالفتح والضم - فمعنى تحرك لا يتعدى.

○ الإعراب:

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ انظر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره: أنت، وكيف اسم استفهام في محل نصب حال، وضربوا فعل وفاعل، ولك متعلقان بضربوا، والأمثال مفعول به، فضلوا عطف على ضربوا، والفاء حرف عطف، ولا نافية، ويستطيعون سبيلاً فعل وفاعل ومفعول به ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفَاتًا﴾ الواو عاطفة، وقالوا فعل وفاعل، والهمزة للاستفهام الإنكاري، واستبعاد ما يتساءلون عنه، وإذا ظرف مستقبل متعلق بمحذوف تقديره: أنبعث، أو نحشر إذا كنا عظاماً ورفاتاً، وقد دل عليه مبعوثون، ولا يجوز أن يتعلق به؛ لأن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها، وكذا ما بعد الاستفهام لا يعمل فيما قبله، وقد اجتمعا هنا، والجواب هو الفعل الذي تعلقت به، وكنا: كان واسمها، وعظاماً خبرها، ورفاتاً عطف على عظاماً ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري والاستبعاد كما تقدم، وإن واسمها، واللام المزحلقة، ومبعوثون خبر إن، وخلقاً حال، أي: مخلوقين، أو مفعول مطلق من معنى الفعل لا من لفظه، أي: نبعث ببعثاً جديداً، وجديداً صفة ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ جملة كونوا حجارة مفعول القول، وكان واسمها، وحجارة خبرها، وأو حرف عطف، وحديداً عطف على حجارة، والأمر هنا معناه

التعجيز مع الإهانة ﴿أَوْ خَلَقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أو حرف عطف،
 وخلقاً عطف على حجارة، ومما صفة لخلقاً، وجملة يكبر صلة، وفي صدوركم
 متعلقان بيكبر ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الفاء عاطفة،
 والسين حرف استقبال، ويقولون فعل مضارع وفاعل، ومن اسم استفهام في
 محل رفع مبتدأ، وجملة يعيدنا خبر وقل فعل أمر، والذي فطركم مبتدأ خبره
 محذوف، تقديره: يعيدكم، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو الذي فطركم،
 وجملة فطركم صلة، وأول مرة ظرف متعلق بفطركم ﴿فَسَيَنْغْضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ
 وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ الفاء عاطفة، والسين للاستقبال، وينغضون فعل مضارع
 وفاعل، وإليك متعلقان بينغضون، أي: يحركون رؤوسهم إلى فوق وإلى
 أسفل، هزأً وسخرية، ورؤوسهم مفعول به، ويقولون عطف على
 ينغضون، ومتى اسم استفهام متعلق بمحذوف خبر مقدم، وهو مبتدأ
 مؤخر، أي: البعث ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ عسى من أفعال الرجاء،
 واسمها ضمير مستتر تقديره: هو، وأن وما بعدها في محل نصب خبر عسى،
 واسم يكون مستتر تقديره: هو، وقريباً خبرها ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ
 بِحَمْدِهِ﴾ في متعلق هذا الظرف أقوال لا تطمئن إليها النفس؛ لأن أقربها إلى
 الفهم أن يكون متعلقاً باسم كان، أي: البعث، ولكنه ممتنع من الناحية
 النحوية؛ لأن الضمير لا يعمل، فالأولى أن يعرب بدلاً من قريباً، أو يتعلق
 بكون على رأي من يرى التعلق بالأفعال الناقصة، واختار أبو السعود تبعاً
 لأبي البقاء أن يكون ظرفاً لاذكر، وهو بعيد عن سياق الموضوع، وجملة
 يدعوكم مضاف إليها الظرف، فتستجيبون عطف على يدعوكم، وبحمده
 متعلقان بمحذوف حال، أي: حامدين، قال الزمخشري وأحسن: وهي
 مبالغة في انقيادهم البعث، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى
 ويتمنع: ستركبه وأنت حامد شاكر. ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الواو
 حالية: وتظنون فعل مضارع مرفوع وفاعل، أي: يخيل إليكم لفرط
 ما تكابدون من الهول والروع، وإن نافية، ولبثتم فعل وفاعل، وإلا أداة
 حصر، وقليلاً ظرف متعلق بلبثتم، أي: في الدنيا، أي: تستقصرون مدة

لبثكم في الدنيا، وتحسبونها يوماً أو بعض يوماً، فهو نعت لزمان محذوف، ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف، أي: لبثاً قليلاً.

□ البلاغة:

في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ إلى آخر الآية فنان من فنون البلاغة:

(١) أولهما فن يسمى التمكن، وبعضهم يسميه الإرصاد، وحقيقته: أن يمهّد المتكلم لقافيته أو سجعة فقرته تمهيداً تأتي القافية فيه متمكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، غير نافرة، ولا قلقة، فإن السامع يعلم أنه أراد حجارة أو حديدًا بجاذب من قلبه، ووحى من هاجسه، دون أن يسمع بقية الآية، ومثل ذلك في الشعر قول أبي الطيب:

يا من يَعِزُّ علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عَدَم
وللبحتري في علوة الحلبيّة:

فليس الذي حَلَّتْهُ بِمُحَلِّلٍ وليس الذي حَرَّمَتْهُ بِحَرَامٍ
وقال النابغة الذبياني في القديم:

كالأقْحوانِ غَدَاةَ غَبِّ سَمَائِهِ جَفَّتْ أعياله وأسْفَلُهُ نَدِي
زَعَمَ الهُمَامُ ولم أدْفُهُ بَأَنَّهُ يُشْفِي بَرِيًّا رِيقَهَا الْعَطَشَ الصَّدِي

ومن طريف هذا الفن ما يحكى أنه اجتمع السراج الوراق، وأبو الحسين الجزار، وابن نفيس الشاعر، فمَرَّبَهم غلام مليح الصورة، فقال السراج: شمائله تدلُّ على اللطافة وريقته تنوب عن السلافة
فقال أبو الحسين الجزار:

وفي وجناته وردٌ ولكن عقارب صُدْغِه منعَتْ قطافه
فقال ابن نفيس:

فلو ولي الخلافة ذو جمال لحقَّ له بأن يُعْطَى الخلافه
فالقوا في الثلاث متمكنة كما ترى.

(٢) والفن الثاني في هاتين الآيتين هو التخيير، وهو أن يؤتى بقطعة من الكلام، أو بيت من الشعر جملة، وقد عطف بعضها على بعض بأداة التخيير، وأن يتضمن صحة التقسيم، فيستوعب كلامه أقسام المعنى الذي أخذ المتكلم فيه، فانظر إلى التخيير في هاتين الآيتين، وصحة التقسيم، وحسن الترتيب في الانتقال، على طريق البلاغة، من الأدنى إلى الأعلى، حتى بلغ سبحانه النهاية في أوجز إشارة، وأعذب عبارة، حيث قال بعد الانتقال من الحجارة: ﴿أَوْ حديدًا﴾ فانتقل من الحجارة إلى ما هو أصلب منها وأقوى، ثم قال بعد ذلك: ﴿أَوْ خَفَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ غير حاصر لهم في صنف من الأصناف، وتصور أيها القارئ بعد ذلك المعنى كيف يتكامل ويشرق في النفس إشراقاً تغرق النفس فيه، أي: إنكم تستبعدون أن يحدد الله خلقكم، ويرده إلى حال الحياة، وإلى رطوبتها وغضاضتها بعد ما كنتم عظاماً يابسة، وذلك ديدنكم في الإنكار، ودأبكم في العناد، فهبكم لم تكونوا عظاماً، بل كنتم أقسى منها، وأصلب، وأبعد عن رطوبة الحياة، هبكم حجارة طبيعتها القساوة والصلابة بل هبكم حديدًا، وهو أشد أنواع المادة بعداً من الحياة ومنافاة لها، بل أترك الأمر لكم لتتصوروا ما هو أقسى، وأصلب، وأتأى عن قبول الحياة، مما لا يخطر إلا لذوي العناد من أمثالكم، فإنه لقادر على أن يردكم إلى الحياة؛ لأن القادر على البدء قادر على الإعادة، بل هي أهون عليه بالنسبة لأفهامنا، لا إليه تعالى، وهذا من بديع الكلام ومعجزه، بل هو من النمط الذي استحق أن لا يكون من كلام البشر.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ
كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ٥٢ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ٥٣ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا
بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ٥٤ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا

يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴿٥٧﴾

وداود مفعول به أول، وزبوراً مفعول به ثان، وسيأتي في باب: الفوائد سر
تخصيص داود بإيتاء الزبور ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ جملة ادعوا الذين
مقول القول وادعوا فعل أمر وفاعل، والذين مفعول به، وجملة زعمتهم صلة،
ومفعولاً زعمتهم محذوفان للعلم بهما، وهما زعمتهمهم آلهة، ومن دونه الجار
والمجرور متعلقان بمحذوف نصب على الحال ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ
عَنْكُمْ وَلَا نَحْوِيلاً﴾ الفاء استئنافية، ولا نافية، ويملكون كشف الضر فعل
مضارع وفاعل ومفعول به، وعنكم متعلقان بكشف، والواو حرف عطف،
ولا نافية، ونحوياً معطوف على كشف الضر ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى
رَبِّهِمُ أَوْسِيَةً﴾ أولئك مبتدأ، والذين يدعون بدل منه، وجملة يبتغون خبر،
والواو فاعل، وإلى ربهم متعلقان بالوسيلة، والوسيلة مفعول به، ويجوز لك
أن تعرب الذين هي الخبر، وجملة يبتغون حال من فاعل يدعون ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ
وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ أيهم بدل من فاعل يبتغون، وأي موصولة،
ويجوز أن تكون استفهامية فهي مبتدأ، وأقرب خبر، وعبارة أبي حيان:
واختلفوا في إعراب أيهم أقرب وتقديره، فقال الحوفي: أيهم أقرب ابتداء
وخبر، والمعنى: ينظرون أيهم أقرب فيتوسلون به، ويجوز أن يكون أيهم
أقرب بدلاً من الواو في يبتغون. ففي الوجه الأول أضمر فعل التعليق، وأيهم
أقرب في موضع نصب على إسقاط حرف الجر؛ لأن نظر إن كان بمعنى الفكر
تعدى بغي، وإن كانت بصرية تعدت بإلى، فالجملة المعلق عنها الفعل على كلا
التقديرين تكون في موضع نصب على إسقاط حرف الجر، كقوله: ﴿فَلْيَنْظُرْ
أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ وفي إضمار الفعل المعلق نظر، والوجه الثاني قاله الزمخشري
قال: وتكون أي موصولة، أي: يبتغي من هو أقرب منهم، وأزلف الوسيلة
إلى الله، فكيف بغير الأقرب؟! فعلى هذا الوجه يكون أقرب خبر مبتدأ
محذوف، واحتمل أن يكون أيهم معرباً، وهو الوجه، واحتمل أن يكون مبنياً
لوجود مسوغ البناء، وسيأتي حكم «أي» في باب: الفوائد. وأقرب خبر لمبتدأ
محذوف، والمعنى يبتغون من هو أقرب منهم، وأمت إليهم بزلفى الوسيلة إلى
الله فما بالك بغير الأقرب، فكيف يزعمون أنهم آلهة، ويرجون رحمته عطف

على يبتغون، ويرجون فعل مضارع وفاعل، وحذفت لام الفعل، وهي الواو لالتقاء الساكنين، ورحمته مفعول به، ويخافون عذابه عطف على يرجون رحمته ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ تعليل للخوف، وإن واسمها، وجملة كان خبرها، واسم كان مستتر تقديره: هو، ومحذورا خبر كان.

* الفوائد:

(١) معنى تفضيل بعض الأنبياء على بعض:

تفضيل بعض الأنبياء على بعض يكون بتفاوت الفضائل النفسانية، ولهذا اشتهر منهم أولو العزم المستهدفون للبلاء، فما وهنوا، وما استكانوا، وكان محمد ﷺ خاتمة الأنبياء؛ الذين اتسموا بكامل الصفات، وتخصيص داود بالزبور فيه رد على اليهود؛ الذين زعموا أنه لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة، وقد استعمل الزبور بلام التعريف ومجرداً عنها لمحاً للأصل؛ لأنه فعول بمعنى المفعول، كالحلوب بمعنى المحلوبة، أو لأنه أراد بعضاً من الزبور.

(٢) أي:

تأتي على ستة أوجه:

(١) شرطية: ﴿أَيَّامًا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ بدليل جزم تدعوا، وإدخال الفاء رابطة على الجملة الاسمية، وأياً ما مفعول تدعوا.

(٢) استفهامية: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾.

(٣) موصولية: ﴿لَنَنْزِعَنَّ مِنَ كُلِّ شَيْعَةٍ إِيَّاهُمْ أَشَدُّ﴾ التقدير: لننزعن الذي هو أشد.

(٤) أن تكون دالة على الكمال فتقع صفة للنكرة نحو: زيد رجل أي رجل، وحالاً للمعرفة نحو: مررت بعبد الله أي رجل.

(٥) أن تكون وصلة إلى نداء ما فيه أل نحو: يا أيها الرجل، وإنما التزم بناؤها على الضم لتكون على صورة المنادى المفرد المقصود بالنداء؛ لأنه مضموم الآخر.

(٦) أن تكون للتعجب نحو: سبحان الله أي رجل هذا.

وأي تعرب في جميع أحوالها إلا إذا كانت موصولة مضافة ومحدوفاً صدر صلتها، كما تقدم فتبنى على الضم، ولأي تفاصيل يرجع إليها في المطولات، وسيأتي المزيد من بحثها.

﴿وَأَن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيمَةٍ أَوْ مَعَذِبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاثِنَا ثُمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا ٥٩ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ٦٠﴾

○ الإعراب:

﴿وَأَن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيمَةٍ أَوْ مَعَذِبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الواو استئنافية، وإن نافية، ومن حرف جر زائد، وقرية مجرور لفظاً مرفوع محلاً مبتدأ، وإلا أداة حصر، ونحن مبتدأ، ومهلكوها خبر، والجملة الاسمية خبر قرية، وقبل يوم القيامة الظرف متعلق بمهلكوها، وأو حرف عطف، ومعذبوها عطف على مهلكوها، وعذاباً مفعول مطلق، وشديداً صلة ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ كان واسمها، وفي الكتاب متعلقان بمسطوراً، ومسطوراً خبر كان ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ الواو عاطفة، وما نافية، ومنعنا فعل ماضٍ، ومفعول به مقدم، وأن نرسل

المصدر المؤول مفعول ثان لمنع ، وبآليات الباء حرف جر زائد على حد زيادتها في قول عمرو بن كلثوم :

وقد عَلِمَ القبائلُ مِنْ مَعَدٍّ إِذَا قُبِبَ بِأَبْطَحِهَا يُبِينَا
بَأْنَا الْمُطْعَمُونَ إِذَا أَرَدْنَا وَأَنَا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا

ولك أن تجعلها أصلية فتكون للملابسة ، والمفعول محذوف ، أي : في محل نصب حال ، والمعنى : وما منعنا أن نرسل نبياً حاله كونه متلبساً بالآيات ، وإلا أداة حصر ، وأن الثانية وما في حيزها في محل رفع فاعل منع ، وبها متعلقان بكذب ، والأولون فاعل ﴿وَأَيُّنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ هذه آية من الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها ، وأتينافعل وفاعل ، وثمرود مفعول به أول ، والناقاة مفعول به ثان ، ومبصرة حال ، فظلموا الفاء عاطفة ، وظلموا فعل وفاعل ، وهو متضمن معنى كفروا ، وبها متعلقان به ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ الواو للحال ، وما نافية ، ونرسل فعل مضارع ، وفاعل مستتر ، وبالآيات تقدم القول في هذه الباء ، وإلا أداة حصر ، وتخويفاً مفعول لأجله ، ولك أن تجعله مصدراً في موضع نصب على الحال ، إما من الفاعل ، أي : مخوفين بها ، أو من المفعول ، أي : مخوفاً بها ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أي : اذكر ، ولك متعلقان بقلنا ، وإن واسمها ، وجملة أحاط بالناس خبرها ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ الواو عاطفة ، وما نافية ، وجعلنا الرؤيا فعل وفاعل ومفعول به ، وأراد بها ما رآه بعد الوحي في منامه ، أو ليلة الإسراء على خلاف ، وإذا كانت ليلة الإسراء فتسميتها رؤيا على أنها كانت في الليل ، ولأنها وشيكة سريعة الانقضاء ؛ لأن الرؤيا للحلم ، أما الرؤية البصرية فلا يطلق عليها رؤيا ، ولذلك أخذوا على المتنبي قوله :

... .. ورؤياك أخلى في الجفون من الغمض

ويبرر المتنبي أنه استعملها في الجفون ؛ لأن الرؤيا لا تكون إلا فيها ، والتي صفة ، وأريناك صلة الموصول ، وإلا أداة حصر ، وفتنة مفعول به ثان

لجعلنا، وللناس صفة لفتنة ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ عطف على الرؤيا، والملعونة نعت لها، وفي القرآن جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، والمراد بها شجرة الزقوم، وسيأتي الحديث عنها في موضع من هذا الكتاب، فقد سخرها من محمد ﷺ عندما سمعوا بشجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم، وقالوا: إنه يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة، ثم يقول أن الشجر ينبت فيها ﴿وَنُحِيقُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ الواو استئنافية، ونخوفهم فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، فما الفاء عاطفة، وما نافية، ويزيدهم فعل ومفعول به، والفاعل مستتر تقديره: تخويفنا، وإلا أداة حصر، وطغياناً مفعول به ثان، وكبيراً نعت.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۖ﴾ وَأَسْتَفْزِرُّ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۖ﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۖ﴾

☆ اللفظة:

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ لاستأصلن ذريته بالإغواء، من احتنك الجراد الأرض؛ إذا جرد ما عليها أكلاً، مأخوذ من الحنك، ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم: أحنك الشاتين، أي: آكلهما، وقيل معنى لأحتنكن: لأسوقنهم وأقودنهم حيث شئت، من حنك الدابة؛ إذا جعل الرسن في حنكها. وفي المختار: حنك الفرس جعل في فيه الرسن، وبابه نصر وضرب، وكذا احتنكه، واحتنك الجراد الأرض: أكل ما عليها، وأتى على نبتها، وقوله تعالى: حاكياً عن إبليس: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ قال الفراء: لأستولين عليهم، والحنك:

المنفار، يقال: أسود مثل حنك الغراب، وأسود حانك مثل حالك، والحنك: ما تحت الذقن من الإنسان وغيره. ولهذه المادة شعاب يضيق عن استيعابها الحصر، ففي القاموس وتاج العروس واللسان ما خلاصته: حنك يحنك ويحنك بالضم والكسر حنكاً الشيء: فهمه وأحكمه، واحتنك الفرس: جعل في فيه الرسن، وحنك وحنك: مضغ فذلك بحنكه، وحنك يحنك ويحنك بالضم والكسر أيضاً حنكاً وحنكاً، وحنك وأحنك، واحتنك الدهر الرجل: جعلته التجارب والأمور وتقلبات الدهر حكيماً، فهو حنيك. وحنك: أدار العمامة من تحت حنكه، واحتنك أيضاً الجراد الأرض: أكل ما عليها، واحتنكه: استولى عليه، واستحنك: اشتد أكله بعد قلة، والحنك والحنك والحنكة: الاسم من حنكه الدهر، والحنك: أعلى باطن الفم والأسفل من طرف مقدم اللحين.

﴿وَأَسْتَفْزِرْ﴾ استفزه: استخفه، والفز: الخفيف. وفي القاموس والتاج: فز يفز فزاً: انفرد، وفز عنه: تنحى وعدل، وفز الطبي: فزع، وفزه: عزه، وغلبه، وطير فؤاده، وأفزعه، وأزعجه، وأزاله عن مكانه. وفز يفز فزيراً الجرح: سال بما فيه، وفز فزاة وفزوزة: اضطرب وتوقد. وافترز عليه: غلب. وتفاز الرجال: تبارزا. واستفزه: استخفه، واستدعاه، وجعله يضطرب، وأزعجه، وأخرجه من داره، وقتله. والفز: الرجل الخفيف، وولد البقرة الوحشية. والفزة: الوثبة بانزعاج.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ﴾ صح عليهم، وتصرف فيهم بكل ما تقدر. وفي المختار: وجلب على فرسه يجلب جلباً بوزن: طلب يطلب طلباً: صاح به من خلفه، واستحثه للسبق، وكذا أجلب عليه. وفي القاموس والتاج: جلبه يجلبه بالضم والكسر جلباً وجلباً بالسكون والفتح: ساقه، وجاء به. وجلب الرجل: انساق، وجلب الجرح: برىء، وأجلب القوم: جمعهم. وجلبه وأجلب: توعده بالسر، وجلب وأجلب لأهله: كسب، وجلب وأجلب على الفرس: صاح به، واستحثه للسبق، وجلب وأجلب القوم: ضجوا واختلطت

أصواتهم. والجلبة: اختلاط الأصوات، والصياح. والجلب بفتحيتين ما يجلبه من بلد إلى بلد، وجمعه أجلاب، فما يقوله العامة عن المتاع هو جَلَب - بفتحيتين - صحيح لا غبار عليه.

﴿وَرَجَلِكْ﴾ بفتح فكسر: الركاب والمشاة، وفي القاموس: الرجل: الراجل، ومن يمشي على رجله: والراجل: من يمشي على رجله لا راكباً، وجمعه رَجَل ورَجَّالة ورُجَّال ورِجال ورُجَّال ورُجَّال ورُجَّال، يقال: جاءت الخيالة والرجالة، وأغار عليهم بخيله ورجله، والخيال: الخيالة، ومنه الحديث: «يا خيل الله اركبي».

○ الإعراب:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الواو استئنافية، والظرف متعلق بمحذوف، أي: اذكر، وقد تقدم إعراب هذه الآية المكررة كثيراً ﴿قَالَ اسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري الصادر عن تعنت، وسوء تقدير، وجهل، وغباء، ولمن متعلقان بأسجد، وجملة خلقت صلة، وطيناً حال من الموصول، والعامل فيه أسجد، أو من عائد هذا الموصول، أي: خلقته طيناً، فالعامل فيها خلقت، وجاز وقوع طيناً حال، وإن كان جامداً لدلالته على الأصالة؛ كأنه قال متأصلاً من طين، وأعربه بعضهم منصوباً بنزع الخافض، أي: من طين بدلالة آية أخرى صرح فيها بالجار. قال: ﴿وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ﴾ وقال الزجاج وغيره: هو تمييز، وفيه بعد ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ تقدم القول مفصلاً في رأيك، وأنها بمعنى أخبرني، والكاف لتأكيد الخطاب لا محل لها من الإعراب، وهذا مفعول أول، والموصول صفة، أو بدل عنه، والثاني محذوف لدلالة الصلة عليه، أي: أخبرني عن هذا الذي كرمته عليّ بأن أمرتني بالسجود له لم كرمته علي، ولم يجبه الله تعالى عن هذا السؤال؛ استصغاراً لأمره، واحتقاراً لشأنه، فاختصر الكلام بحذف ذلك، ثم ابتدأ بالقسم فقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ اللام موطئة للقسم، وإن شرطية،

وأخرتني فعل وفاعل ومفعول به، والنون للوقاية، وهو فعل الشرط، وإلى يوم القيامة متعلقان بأخرتني، ولأحتنكن اللام واقعة في جواب القسم، وأحتنكن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والفاعل مستتر تقدير: أنا، وذريته مفعول به، وإلا أداة استثناء، وقليلاً مستثنى من ذريته منصوب، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، وسيأتي مزيد بحث عنه في باب: البلاغة ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ اذهب فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مقول القول، وليس المراد بالذهاب نقيض المجيء، وإنما معناه: امض لشأنك الذي اخترته بمحض مشيئتك، وسيأتي أنه أمره بأمور أربعة أخرى، فيكون المجموع خمسة، وكلها تهدف إلى التنديد به، وتهديده، واستدراجه، فمن الفاء استثنائية، ومن شرطية مبتدأ، وتبعك فعل ماض، الفاعل مستتر، والكاف مفعول به، وهو في محل جزم فعل الشرط، ومنهم حال، فإن الفاء رابطة لجواب الشرط، وإن واسمها وخبرها، وجزاء مفعول مطلق لفعل دل عليه جزاؤكم، أي: تجزون جزاء، ولا مانع عندي من أن يكون مصدرًا انتصب بمثله، وسيأتي مزيد بحث عنه في باب: الفوائد، وقيل هو حال موطئة، وقيل تمييز، وليس ذلك ببعيد، وسيأتي القول في هذا الالتفات في باب: البلاغة، وموفوراً صفة ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ واستفز أمر ثان للشيطان، من استطعت: من اسم موصول مفعول استفرز، وجملة استطعت صلة، ومفعول استطعت محذوف تقديره: من استطعت أن تستفزه، ومنهم متعلقان بمحذوف حال، وبصوتك متعلقان باستفز، وأجلب أمر ثالث، وعليهم متعلقان بمحذوف حال، وبخيلك متعلقان بأجلب، ورجلك عطف على بخيلك، أي: استخف منهم من استطعت بصوتك، وصح عليهم، وسقهم حال كونك مصحوباً بخيلك ورجلك ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وشاركهم أمر رابع، والهاء مفعول به، وفي الأموال متعلقان بشاركهم، والمشاركة في الأموال، أي: حملهم على جمعها بالطرق الحرام غير

المشروعة كالربا، والميسر، وإنفاقها في الأمور المحرمة، والفسوق، والعصيان، وعدهم هذا هو الأمر الخامس، والهاء مفعول به، ولم يذكر الموعد اختصاراً، والمراد: المواعيد الكاذبة الباطلة، وما الواو للحال أو اعتراضية، وما نافية، ويعدهم الشيطان فعل مضارع، ومفعول به مقدم، وفاعل مؤخر، وفي الكلام التفتت سيأتي الكلام عنه، وإلا أداة حصر، وغروراً يجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف، أي: إلا وعداً غروراً، ونسبة الغرور للمصدر سيأتي في باب: البلاغة، ولك أن تعربه مفعولاً من أجله، أي: ما يعدهم ويمنيهم من الوعود الكاذبة والأمانى المعسولة إلا لأجل الغرور، والجملة حالية، أو معترضة ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ جملة تعليلية للأمر بالوعد، أي: إنما نأمرك بذلك؛ لأننا نعلم أنه ليس لك سلطان على عبادنا الصالحين، وإن واسمها، وجملة ليس خبرها، ولك خبر مقدم لليس، وعليهم حال؛ لأنه كان في الأصل صفة لسلطان، وسلطان اسم ليس مؤخر، وكفى فعل ماض، والباء زائدة في الفاعل، ووكيلاً تمييز.

□ البلاغة:

اشتملت هذه الآيات على فنون شتى منها:

(١) المجاز المرسل في استعمال الرؤية بمعنى الإخبار في قوله ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ لأنها سببه، فالعلاقة فيها السببية، وقد تقدم بحث ذلك.

(٢) الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: وما تعدهم إلا غروراً، ولكنه عدل عن ذلك تهويناً لأمره، واستصغاراً لأمر الغرور؛ الذي يعدهم به من جهة، وليتولى الكلام على طريق الغيبة متحدثاً إلى الناس جميعاً ليعلم الجاهل، ويخلد المبطل إلى الصواب.

(٣) المجاز العقلي في نسبة الغرور إلى الوعد على حد قوله: نهاره صائم وليله قائم، وقد تقدم تفصيل ذلك في مواضعه.

* الفوائد:

(١) عامل المفعول المطلق:

عامل المفعول المطلق إما مصدر مثله لفظاً ومعنى، مثل: ﴿فَاتَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ فجزاء مفعول مطلق، وعامله جزاؤكم، وهو مصدر مثله، أو معنى لا لفظاً نحو: أعجبني إيمانك تصديقاً، أو ما اشتق منه من فعل نحو: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أو من وصف، أي: اسم فاعل، أو اسم مفعول، أو للمبالغة دون التفضيل، والصفة المشبهة، فاسم الفاعل نحو: ﴿وَالصَّنْفَتِ صَفًّا﴾ واسم المفعول نحو: الخبز مأكول أكلاً، وأمثلة المبالغة نحو: زيد ضرباً ضرباً، ولا يجوز زيد حسن وجهه حسناً، ولا أقوم منك قياماً، وأما قول الشاعر:

أما الملوكة فأنت اليوم الأمهم لؤماً وأبيضهم سربال طباح

فلؤماً منصوب بمحذوف. ونعود إلى الآية فقد اعترض بعضهم على انتصاب جزاء بالمصدر، وهو جزاؤكم، قال: إنه وإن كان لفظه مصدراً معناه المجزي به لحمه على جهنم، فمعنى الآية أن جهنم هي الشيء الذي أنتم مجزيون به. ولوجاهة هذا الاعتراض قلنا: إنه يجوز أن ينتصب بفعل محذوف دل عليه جزاؤكم، والمعنى: تجازون، أو على الحال الموطئة.

(٢) الحال الموطئة:

والحال الموطئة بكسر الطاء أو بفتحها هي الجامدة الموصوفة؛ لأنها ذكرت توطئة للنعت بالمشتق أو شبهه، نحو: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ فإنما ذكر بشراً توطئة لذكر سويّاً، ومعنى هذا الكلام أن الاسم الجامد لما وصف بما يجوز أن يكون حالاً صح أن يكون حالاً، والموطئة لغة: هي الهيئة، وسيأتي المزيد منها أثناء الكلام على هذه الآية في سورة مريم.

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ

كَانَ يَكُمُ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا
 بَجَعْتُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ
 أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ
 تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
 عَلِيًّا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

☆ اللفظة:

﴿يُزْجَى﴾: يجري ويسير، وفي القاموس: زجاء: ساقه ودفعه، كزجاء
 وأزجاء، ومنه قول الشاعر:

يا أيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسدٍ ما هذه الصوتُ؟

﴿حَاصِبًا﴾: الحاصب: الريح التي تحصب، أي: ترمي بالحصباء،
 والحصباء: الحجارة الصغيرة، واحدها حصبة، كقصة. وفي المصباح:
 وحصبته حصباً من باب: ضرب، وفي لغة من باب: قتل؛ رميته بالحصباء.

قال أبو عبيدة والقتبي: الحصب: الرمي، أي: ريحاً شديدة حاصبة،
 وهي التي ترمي بالحصى الصغار، وقال الزجاج: الحاصب: التراب الذي فيه
 حصباء، فالحاصب ذو الحصباء، والحصباء كاللابن والتامر، ويقال للسحابة
 التي ترمي بالبرد: حاصب، ومنه قول الفرزدق:

مستقبلين جبال الشام تضربنا بحاصبٍ كنديف القطن منشور

﴿قَاصِفًا﴾: القاصف: الريح التي لها قصيف، وهو الصوت الشديد،
 كأنها تتقصف، أي: تتكسر، وقيل: التي لا تمر بشيء إلا قصفته.

﴿تَبِيعًا﴾: التبيع: المطالب. قال الشماخ يصف عقاباً:

تلوذُ ثعالبُ الشرقيين منها كما لاذُ الغريمُ من التبيعِ

أي: تهرب منها ثعالب الشرقيين بمعنى المشرقين، كما هرب والتجأ
 الغريم، أي: المدين من التبيع، أي: الدائن المطالب.

○ الإعراب:

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ الجملة
 تعليل لبيان قدرته تعالى، وربكم مبتدأ، والذي خبره، وجملة يزجي صلة،
 ولكم متعلقان بيزجي، والفلك مفعول به، وفي البحر متعلقان بمحذوف
 حال، ولتبتغوا اللام للتعليل، وتبتغوا مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام
 التعليل، والجار والمجرور متعلقان بتبتغوا، أي: تبتغوا الريح من فضله
 ﴿إِنَّهُمْ كَانَتْ إِلَيْكُمْ رَحِيمًا﴾ إن واسمها، وجملة كان خبرها، وبكم متعلقان
 برحيمًا، ورحيمًا خبر كان ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾
 الواو عاطفة، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة مسكم مضافة
 للظرف، والكاف مفعول به، والضرب فاعل، وفي البحر متعلقان بمحذوف
 حال، أي: حالة كونكم في البحر، وجملة ضل لا محل لها لأنها جواب شرط
 غير جازم، ومن فاعل ضل، وجملة تدعون صلة، وإلا إياه استثناء، أي:
 ذهب عن خواطركم كل من تدعونه إلا إياه، فإنكم عندئذ وفي ذلك الوقت
 بالذات تذكرونه، فهو استثناء متصل؛ لأنه اندرج مع من ذكره، وجوز أن
 يكون منقطعاً، أي: ضل من تدعونه من الآلهة عن إغاثتكم، ولكن الله وحده
 هو الذي ترجونه وحده ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسُنُ كَفُورًا﴾ لما أداة
 شرط غير جازمة، ونجاكم فعل ماضٍ ومفعول به، وهو فعل الشرط، وفاعله
 هو، وإلى البر متعلقان بنجاكم، وأعرضتم جواب الشرط، وكان واسمها
 وخبرها ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ إِلَيْكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ الهمزة
 للاستفهام الإنكاري، والفاء عاطفة على محذوف تقديره: أنجوتهم، فأمنتم،
 فحملتكم نجاتكم على الإعراض. وأمنتم فعل وفاعل، وأن يخسف مصدر
 مؤول في محل نصب بنزع الخافض أي: من أن يخسف، والجار والمجرور
 متعلقان بأمنتم، وبكم حال، أي: مصحوباً بكم، فالباء للمصاحبة، ويجوز
 أن يتعلق بخسف، وتكون الباء للسببية. وجانب البر مفعول يخسف، وأو
 حرف عطف، ويرسل عطف على يخسف، وعليكم متعلقان بيرسل، وحاصباً

مفعول به ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيْلًا﴾ ثم حرف عطف للتراخي، ولا نافية، وتجدوا عطف على يرسل أيضاً، ولكم متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان في الأصل صفة لو كيلاً، وتقدمت عليه، وو كيلاً مفعول به ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ أم حرف عطف، وهي متصلة، أي: أي الأمرين كائن، وأمنتم فعل وفاعل، وأن يعيدكم مصدر مؤول في محل نصب بنزع الخافض، والجار والمجرور متعلقان بأمنتم، وفيه متعلقان بيعيدكم، وتارة ظرف متعلق بيعيدكم أيضاً، وأخرى صفة ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ الفاء عاطفة، ويرسل عطف على أن يعيدكم، وعليكم متعلقان بيرسل، وقاصفاً مفعول به، ومن الريح صفة، والفاء حرف عطف، ويغرقكم عطف على يرسل، وبما متعلقان بيجرقكم، وما مصدرية، أي: بسبب كفركم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا تَبِيعًا﴾ ثم حرف عطف، ولا تجدوا عطف على يغرقكم، ولكم متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان في الأصل صفة لتبيعاً، وتقدمت عليه، فهو على حد قوله أبي الطيب المتنبي:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سُبُلاً

فقوله لها متعلق بمحذوف حال؛ لأنه كان في الأصل صف لسبلاً، ولا يجوز تعليقه بوجدت؛ لأن وجد لا يتعدى باللام، وإنما يتعدى بنفسه، وعلينا متعلقان بمحذوف حال أيضاً، وبه متعلق بتبيعاً، ويجوز أن يتضمن تبيعاً معنى ناصراً؛ لأن المطالب بحق الملازم للطلب، فيكون علينا متعلقاً به، أي: ناصر أعلينا.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ يَمِيزُهُ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ

فَتَيْلًا ۖ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۖ ﴿٧١﴾

☆ اللفظة:

﴿فَتَيْلًا﴾: تقدم القول في النقيز والقطمير، فالفتيل هو: الخيط الذي في نقرة النواة طولاً، وأما القشرة فهي: القطمير، وأما الخيط الذي في ظهرها فهو النقيز، ففي النواة أمور ثلاثة: فتيل وقطمير ونقيز، وفي القاموس: الفتيل: السحاة في شق النواة، والقطمير والقطمار بكسر القاف فيهما: القشرة الرقيقة بين النواة والثمرة، والنقيز: النكتة في ظهر النواة.

○ الإعراب:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الواو استئنافية، واللام جواب للقسم المحذوف، وقد حرف تحقيق، وكرمنا فعل وفاعل، وبني آدم مفعول به، وحملناهم عطف على كرمنا، وهو فعل وفاعل ومفعول به، وفي البر والبحر متعلقان بحملناهم ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ورزقناهم فعل وفاعل ومفعول به أيضاً، ومن الطيبات متعلقان برزقناهم، وفضلناهم عطف أيضاً، وعلى كثير متعلقان بفضلناهم، ومن خلقنا صفة لكثير، وجملة خلقنا صلة، وتفضيلاً مفعول مطلق ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِأَمِيمٍ﴾ الظرف متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، وندعو فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: نحن، وكل أناس مفعول به، وجملة ندعو مضافة للظرف، وبإمامهم يجوز أن يتعلق بندعو، وأن يتعلق بمحذوف حال، أي: موسومين ومعروفين، والمراد بالإمام من ائتموا به في دنياهم، وفوضوا إليه أمورهم وأحكام معاشهم، وقلدوه في شؤون دنياهم وأخراهم ﴿فَمَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ تَفْضِيلًا﴾ الفاء عاطفة، ومن شرطية، أو موصولة، وهي في محل رفع مبتدأ، وأوتي فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل مستتر، وكتابه مفعول به ثان، وبيمينه متعلقان بأوتي، والفاء رابطة، وجملة أولئك جواب

الشرط، أو خبر الموصول، وأولئك مبتدأ، وجملة يقرؤون خبر، وكتابه مفعول به، ولا: الواو حرف عطف، ولا نافية، ويظلمون فعل مضارع مبني للمجهول، والواو نائب فاعل، وفتيلاً نائب مفعول مطلق، أي: ظلماً قدر الفتيل، وقد تقدمت له نظائر ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ الواو عاطفة، ومن شرطية، أو موصولة، وكان فعل ماض ناقص، وفي هذا خبر مقدم، والإشارة للدنيا، وأعمى اسم كان مؤخر، وهي بمعنى فاعل ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفاء رابطة، وهو مبتدأ، وفي الآخرة حال، وأعمى خبر، وهي إما بمعنى فاعل كالأولى، أي: من كان في هذه الدنيا عمياً عن حجته، فهو في الآخرة كذلك، وإما بمعنى أفعال التفضيل التي تقتضي من، والمعنى: من كان في هذه الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى أيضاً، والمراد العمى القلبي الذي لا يبصر الهداية، وأضل عطف على أعمى، وسبباً تمييز.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خِلَالًا ۚ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۗ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ سُبُحَنَّا مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۗ﴾

○ الإعراب:

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً﴾ الواو استئنافية، وإن مخففة من الثقيلة مهملة، ويجوز إعمالها قليلاً كما تقدم، وكادوا فعل ماض ناقص من أفعال المقاربة، والواو اسمها، واللام الفارقة، وجملة يفتنونك خبر كادوا، وعن الذي متعلقان بيفتنونك، وقد ضمّن يفتنونك معنى يصرفونك، فلذلك عدي بعن، وجملة أوحينا صلة، وإليك

متعلقان بأوحينا، لتفتري: اللام لام التعليل، وتفتري مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وعلينا متعلقان بتفتري، والفاعل مستتر تقديره: أنت، وغيره مفعول به ﴿وَإِذَا لَاتَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ الواو عاطفة، وإذا حرف جزاء، وجواب يقدر بلو الشرطية، أي: ولو اتبعت مرادهم، وحققت مقترحاتهم التي حاولوا أن يستنزلوك لتحقيقها، واللام موطئة للقسم، والتقدير: والله لاتخذوك، والكاف مفعول به أول، وخليلاً مفعول به ثان ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْنَيْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ لولا حرف امتناع لوجود، وإن وما في حيزها مبتدأ محذوف الخبر، أي: ولولا تثبيتنا لك وعصمتنا إياك، واللام جواب لولا، وقد حرف تحقيق، وكاد واسمها، وجملة تركن خبرها، وإليهم متعلقان بتركن، وشيئاً مفعول مطلق فهو بمعنى الركون، أي: وشيئاً قليلاً من الركون ﴿إِذَا لَأَذْنُوكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾ إذا حرف جواب وجزاء يقدر بلو الشرطية أيضاً، أي: ولو اتبعت مرادهم، وحققت مقترحاتهم؛ التي حاولوا أن يستنزلوك لتحقيقها، واللام موطئة للقسم، وأذنك فعل وفاعل ومفعول به، وضعف مفعول ثان، والحياة مضاف، ولا بد من تقدير محذوف، أي: ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، وثم حرف عطف وتراخ، ولا نافية، وتجد فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: أنت، ولك متعلقان بتجد، وعلينا متعلقان بنصيراً، ونصيراً مفعول به ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الواو عاطفة، وإن مخففة يجوز إهمالها وإعمالها، وكادوا من أفعال المقاربة، والواو اسمها، واللام الفارقة، وجملة يستفزونك خبر كادوا، ومن الأرض متعلقان بيستفزونك، وليخرجوك متعلقان بيستفزونك، ومنها متعلقان بيجزوك، والضمير يعود إلى الأرض، وهي أرض المدينة ﴿وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الواو عاطفة، وإذا حرف جواب وجزاء مهممل، ولا نافية، ويلبثون فعل مضارع مرفوع وخلافك، أي: خلقت ظرف متعلق بيلبثون، وعليه قول الشاعر:

عَفِيَ الدِّيارُ خِلافَهُمْ فَكَأَنَّمَا بَسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرًا

يصف الشاعر ديارهم بعدهم بدورسها، وكثرة قمامتها؛ لعدم كنسها، ووجود من يتعهدها، والشواطب: النساء يشقن شطب النخل، أي: سعه الأخصر يعملنه حصيراً. وإلا أداة حصر، وقليلًا صفة لظرف محذوف، أي: زماناً قليلاً، أو صفة لمصدر محذوف، أي: لبناً قليلاً، فهي ظرف، أو مفعول مطلق ﴿سُنَّةٌ مَّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ نصبت سنة نصب المصدر المؤكد، أي: سن الله ذلك سنة، واختيار الفراء نصبها على نزع الخافض، أي: كسنة الله، وإذن ينبغي على هذا الإعراب أن لا يوقف على قليلاً، واختار آخرون أن تنصب بفعل محذوف، أي: اتبع سنة، ولا مانع من ذلك، فالأوجه كلها متساوية.

□ البلاغة:

* قصة ثقيف واقتراحاتها:

في هذه الآيات ضروب من البلاغة، ولا بد لتقريرها من إيراد قصة تنزيلها، فقد روي أن ثقيفاً قالت للنبي ﷺ: لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصلاً نفتخر بها على العرب: لا نعشر، ولا نحشر، ولا نُجَبِّي في صلاتنا، وكل ربا لنا فهو لنا، وكل ربا علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة حتى نأخذ ما يهدى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وأن تحرم وادينا كما حرمت مكة، فإن قالت العرب: لم فعلت ذلك؟ فقل: إن الله أمرني به، وجاؤوا بكتابهم فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لثقيف: لا يعشرون ولا يحشرون، فقالوا: ولا يجبون، فسكت رسول الله، ثم قالوا للكاتب: اكتب ولا يجبون، والكاتب ينظر إلى رسول الله، فقام عمر بن الخطاب فسل سيفه فقال: أسعرتم قلب نبينا يا معشر ثقيف! أسعر الله قلوبكم ناراً، فقالوا: لسنا نكلم إياك، وإنما نكلم محمداً، فترلت. ولا بد من شرح بعض المفردات فقولهم: لا نعشر بالبناء للمجهول، أي: لا يؤخذ

منا عشر أموالنا، ولا نحشر بالبناء للمجهول أيضاً أي: لا نساق للجهاد، ولا نجبي في صلاتنا بالبناء للمجهول أيضاً من التجبية، وهي - كما في الصحاح - أن يقوم الإنسان قيام الراكع، وقال أبو عبيدة: تكون في حالين: أحدهما: أن يضع يديه على ركبتيه، والآخر أن ينكب على وجهه باركاً، وهو السجود، والمراد: لا نركع ولا نسجد، والقصة طريفة تمثل أموراً هامة:

أ- إصرار القوم، وعتوهم، وتماديهم في الكبرياء والعنفوان.

ب - حلم النبي ﷺ، وأخذه القوم باللين والاستمالة، وفي ذلك منتهى الكياسة والسياسة.

ج- صلابة عمر وجرأته، ولأمر ما سمي الفاروق.

أما أوجه البلاغة في الآية فهي:

(١) الإطناب في ذكر هذا الموقف الذي يثبت لك دهاء السياسي وأحذيته، يأخذ قومه بالملاينة والصبر، ولا تذهب نفسه شعاعاً، وهو يرى التماذي في الغي والإصرار على الخطل.

(٢) المبالغة في تقليل الكيدودة؛ لأن مجرد الملاينة التي تقتضيها السياسة واستمالة القوم أخذت على النبي؛ لأن الذنب يعظم بحسب فاعله على ما ورد من أن: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

(٣) الاستعارة المكنية في «أذقناك ضعف الحياة» وقد تقدمت أمثالها كثيراً.

(٤) الحذف، فقد حذف العذاب تكريماً لمقام النبي ﷺ، وهو في الأصل موصوف، أي: عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، وهو الضعف، ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف، فقيل: ضعف الحياة وضعف الممات، كما لو قيل: أذقناك أليم الحياة وأليم الممات.

✽ ولابن هشام فصل ممتع عن كاد أورده في الباب السادس من كتابه

«المغني» في التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين، والصواب خلافها: الثامن عشر قولهم إن كان إثباتها نفي ونفيها إثبات فإذا قيل: «كاد يفعل» فمعناه أنه لم يفعل وإذا قيل: «لم يكذب» فمعناه أنه فعله، دليل الأول: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ وقوله:

كادت النفس أن تفيض عليه
ودليل الثاني: ﴿وَمَا كَادُوا لَيَفْعَلُونَ﴾ .

وقد اشتهر ذلك بينهم حتى جعله المعري لغزاً فقال:
أنحوي هذا العصر ما هي لفظة

جرت في لساني جرهم وثمرود
إذا استعملت في صورة الجحد أثبتت
وإن أثبتت قامت مقام جحود

والصواب أن حكمها حكم سائر الأفعال في أن نفيها نفي، وإثباتها إثبات، وبيانها: أن معناها المقاربة، ولا شك أن معنى «كاد يفعل» قارب الفعل، وأن معنى «ما كاد يفعل» ما قارب الفعل، فخيرها منفي دائماً، أما إذا كانت منفية فواضح؛ لأنه إذا انتفت مقاربة الفعل انتفى عقلاً حصول ذلك الفعل، ودليله: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَوْ يَكْدِرْنَهَا﴾ ولهذا كان أبلغ من أي يقال: «لم يرها» لأن من لم ير قد يقارب الرؤية، وأما إذا كانت المقاربة المثبتة، فلا أن الإخبار بقرب الشيء يقتضي عرفاً عدم حصوله، وإلا لكان الإخبار حينئذ بحصوله لا بمقاربة حصوله؛ إذ لا يحسن في العرف أن يقال لمن صلى قارب الصلاة، وإن كان ما صلى حتى قارب الصلاة، ولا فرق فيما ذكرنا بين كاد ويكاد، فإن أورد على ذلك: ﴿وَمَا كَادُوا لَيَفْعَلُونَ﴾ مع أنهم قد فعلوا، إذ المراد بالفعل الذبح، وقد قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ فالجواب أنه إخبار عن حالهم في أول الأمر، فإنهم كانوا أولاً بعداء من ذبحها بدليل ما يتلى علينا من تعنتهم، وتكرر سؤالهم، ولما كثر استعمال مثل هذا فيمن انتفت عنه مقاربة الفعل أولاً، ثم فعله بعد ذلك توهم من توهم أن هذا الفعل بعينه هو الدال

على حصول ذلك الفعل بعينه، وليس كذلك، وإنما فهم حصول الفعل من دليل آخر، كما فهم في الآية من قوله تعالى: ﴿فَذَبْحُوهَا﴾.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ٧٨ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ٧٩ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ٨٠ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ٨١ ﴿

☆ النِّفْتَة:

﴿لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي: من وقت زوالها، يقال: دلت الشمس، أي: غربت، وقيل: زالت، واشتقاقه من الدلك؛ لأن الإنسان يدلك عينيه عند النظر إليها، فإن كان الدلوك الزوال، فالآية جامعة للمصلوات الخمس المفروضة، وإن كان الغروب، فقد خرجت منها الظهر والعصر، وأصل هذه المادة، أي: ما كانت فاؤه وعينه دالاً ولاماً: يدل على التحول والانتقال، فالدلبة واحدة الدُّلب، وهو شجر عظيم الورق لا زهر له ولا ثمر، وهي تتسامى صعوداً في الجو، كأنها انتقلت من الأسفل إلى الأعلى، ومنه قولهم: هو من أهل الدُّربة، بمعالجة الدُّلبة. ومنه تتخذ النواقيس، أي: هو نصراي. وسقى أرضه بالدُّولاب بفتح الدال، وهم يسقون بالدواليب، وهي تستعمل لنقل المياه من مكان إلى مكان لسقاية الأرض، ودلج من الدلجة، وهي سير الليل، والانتقال فيه من مكان إلى آخر، ودلج، ومنه وكَفَّتْ عيناه، وكيف غَزَبِي دالج، وهو الذي يختلف بالدلو من البئر إلى الحوض، وبات ليلته يدُلج دلو جاً، قال:

كَأَنَّمَا وَقَدْ بَرَاها الْإِخْمَاسُ وَدَلَجُ اللَّيْلِ وَهَادٍ قِيَّاسُ
شَرَائِحُ النَّبْعِ بَرَاها الْقَوَّاسُ

ودلج بالحاء المهملة: إذا مشى مشياً متتابعلاً، ودلَّلَ أعضائه دلالة، أي:

حركها في المشي، وتدلّ دل في مشيه: اهتز واضطرب، ودلس الظلام معروف، وخرج في الدّلس والغّلس، ودلّس المحدّث في حديثه: أتى فيه بغير الراهن، كأنما انتقل من واقعة إلى واقعة آخر، ومنه تدليس البائع: يكتّم المساوىء فيما يبيعه ويظهر المحاسن، وأرض دلصتها السيول: انتقلت بها من حال إلى حال، فجعلتها ملساء، ومنه درع دلاص، قال أبو الطيب:

لأُمَّة فَاضَةٌ أَضَاةٌ دِلَاصٌ أَحْكَمَتْ نَسْجَهَا يَدَا دَاوُدَ

ودلع وأدلع لسانه: أخرجته من فمه، ودلع بنفسه واندلع: خرج واسترخى من كرب أو عطش، وكما يدلّع الكلب. ومن المجاز: اندلع السيف من غمده واندلق، واندلعت ألسنة النيران، والمُدلّع: المترى في العز والنعمة، والاسم الدلاعة، وهو من كلام العامة، فهو عامي فصيح، ودلف: إذا مشى مشي المقيد، يقال: دلف الشيخ والمقيّد دليفاً ودُلوفاً، وهو فوق الدبيب، وشيخ دالف، وعجائز دوالف، قال طرفة:

لَا كَبِيرٌ دَالِفٌ مِّنْ هَرَمٍ أَرْهَبُ النَّاسِ وَلَا كُلُّ الطُّفْرِ

وجاء يدلّف بحمله لثقله. ودلق عليهم السيل، ودلقت عليهم الخيل واندلقت، ودلقوا عليهم الغارة: شنوها، ودلق البعير شقشقته: أخرجها، وضربه فاندلقت أفتاب بطنه، وذلك الشيء مرسه بيده، وقد تقدم، ودله على الطريق، وهو دليل المفازة، ودلت تدلّ، وهي حسنة الدل والدلال، أي: أخرجت كل ما لديها من مفاتن جسمية لتستهوي بها الآخرين، ودله فلان دلهاً: تحير، وذهب عقله، من هم أو عشق، ففيه انتقال معنوي، وأدليت دلوي في البئر: أرسلتها فيها، ودلى رجله من السرير، وتدلّت الثمرة من الشجرة: همت بالانتقال منها، وأدلى بحقه وبحجته أحضرها، فكأنه نقلها إلى مكان النقاش، ويطول بنا القول إن رحنا نتقصى ما في هذه المادة العجيبة.

﴿غَسَقَ اللَّيْلُ﴾: الغسق: الظلمة، وقيل: دخول أول الليل، قاله النضر ابن شميل، وقيل: هو سواد الليل وظلمته، وأصله من السيلان، يقال: غسقت العين، أي: سال دمعها، فكأن الظلمة تنصب على العالم، وتسيل

عليهم . وفي الأساس : يقولون : من الغسق إلى الفلق ، وهو دخول أول الليل حين يختلط الظلام ، وقد غسق الليل يغسق غسقاً ، وبنو تميم على أغسق ، قال ابن قيس :

إِنَّ هَذَا اللَّيْلَ قَدْ غَسَقَا واشتَكَيْتُ الْهَمَّ وَالْأَرْقَا
وقال جَسَّاس :

أزورُ إذا ما أغسَقَ الليلُ خُلَّتِي حِذَارَ الْعِدَى أَوْ أَنْ يُرْجَمَ قَاتِلُ

﴿ فَتَهَجَّدَ ﴾ : الهجود : ترك النوم للصلاة ، وفيه خلاف بين أهل اللغة ، فقليل : هو النوم ، وقيل : الهجود مشترك بين النائم والمصلي ، وقال ابن الأعرابي : تهجد صلى من الليل ، وتهجد : نام ، وهو قول أبي عبيد والليث ، ووزن تفعل يأتي للسلب ، نحو : تخرج ، وتأثم ، وتحوب . وفي الأساس : وهجد الرجل هجوداً وتهجد : ترك الهجود للصلاة ﴿ فَتَهَجَّدَ ﴾ به ، وبات فلان متهجداً : متوحداً ، وهجدنا : مكنا من الهجود ، قال لبيد :

قال هَجَّدنا فقد طال السُّرى وقدَرنا إن خنى الدهرُ غَفْلُ

وفي القاموس والتاج : الهجود : النوم بالنهار ، والهجوع : النوم بالليل ، والتهجد : صلاة الليل .

﴿ نَافِلَةٌ ﴾ : زائدة .

○ الإعراب :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ أقم الصلاة فعل أمر ، وفاعل مستتر تقديره : أنت ، ومفعول به ، ولدلوك في هذه اللام وجهان : أحدهما : أن تكون بمعنى بعد ، أي : بعد دلوك الشمس ، كقولهم : كتبت كتابي لثلاث خلون ، وستأتي معاني اللام في باب : الفوائد . والثاني : أن تكون على بابها ، أي : لأجل دلوكها ، وقد انتفى اتحاد الوقت واتحاد الفاعل في « أقم الصلاة لدلوك الشمس » ، ففاعل القيام المخاطب وفاعل الدلوك هو الشمس ، وزمنهما مختلف ، فزمن الإقامة متأخر عن زمن الدلوك ، فلذلك جر بلام

التعليل، وقيل: هي لابتداء الغاية، وأن في الكلام حذف مضاف، والجار والمجرور متعلقان بأقم على كل حال. وإلى غسق الليل فيه وجهان: أحدهما: أن تعلقه بأقم أيضاً لانتهاه غاية إقامة الصلاة، والثاني: أنه متعلق بمحذوف حال من الصلاة، أي: أقمها ممتدة إلى غسق الليل. ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ الواو عاطفة، وقرآن عطف على الصلاة، أو نصب على الإغراء، فالأول معناه: وأقم صلاة الصبح، عبر عن الصلاة بالقراءة، وهي أحد أركانها، والثاني: معناه: عليك قرآن الفجر، أي: الزمه. والأول أقل تكلفاً. كما أنه لم يسمع إضمار أسماء الأفعال، وهي عاملة، وجملة إن قرآن... الخ تعليل للأمر، وإن واسمها، وجملة كان مشهوداً خبرها، ومشهوداً خبر كان، واسمها مستتر تقديره: هو ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ الواو عاطفة، ومن الليل متعلقان بتهجد، أي: تهجد بالقرآن بعض الليل، ولك أن تعلقهما بمحذوف، أي: قم قومة من الليل، وقال الحوفي: من متعلقة بفعل دل عليه معنى الكلام تقديره: واسهر من الليل بالقرآن، والفاء عاطفة، وتهجد فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، وبه متعلقان بتهجد، ونافلة حال، ولك صفة لنافلة، أي: صل حال كون الصلاة نافلة لك، ويجوز أن تكون نافلة مصدراً كالعافية والعاقبة، فتكون مفعولاً مطلقاً، والمعنى: فتتفل نافلة، ولا أدري كيف أعربها بعضهم مفعولاً لتهجد، وهو فعل لازم، إلا أن يقال: إنه ضمنه معنى أعبد، وما أغنانا عن ذلك ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ عسى من أفعال الرجاء، والرجاء من الله قطعي الوقوع، واسم عسى مستتر، وأن يبعثك خبرها وربك فاعل يبعثك، أو المسألة من باب التنازع، ومقاماً نصب على الظرف، أي: يبعثك في مقام، أو مفعول مطلق لأن يبعثك هنا معناها: يقيمك، أو حال، أي: يبعثك ذام مقام، ومحموداً صفة مقاماً ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ رب منادى محذوف منه حرف النداء، وأدخلني فعل دعاء، وفاعل مستتر، والياء مفعول به، ومدخل صدق مفعول مطلق؛ لأنه مصدر ميمي، وإضافته لصدق من إضافة الموصوف إلى صفته، أو للبيان، أو أخرجني مخرج صدق عطف على

الجملة المماثلة ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ واجعل عطف على أدخلني وأخرجني، ولي مفعول ثانٍ لاجعل، وسلطاناً مفعول أول لاجعل، ونصيراً صفة، ومن لَدُنْكَ حال لأنه كان صفة لسلطاناً، أو متعلق بما تعلق به الأول ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أي: قل عند دخولك مكة فاتحاً، وجملة جاء الحق مقول القول، وزهق الباطل عطف عليه ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ إن واسمها، وجملة كان خبرها، وزهوقاً خبر كان.

□ البلاغة:

في قوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ إنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿فن التذييل، وهو أن يذيل الناظم والناثر كلامه بعد تمامه، وحسن السكوت عليه بجملة تحقق ما قبلها من الكلام، وتزيده توكيداً، وتجري منه مجرى المثل لزيادة التحقيق، والفرق بينه وبين التكميل أن التكميل يرد على معنى يحتاج إلى الكمال، والتذييل لم يفد غير تحقيق الكلام الأول وتوكيده، وهذه الآية من أعظم الشواهد عليه، فالجملة الأخيرة هي التذييل الذي خرج مخرج المثل السائر، ومن شواهد في النظم قول النابغة الذبياني:

ولست بِمُسْتَبْقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثِ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهْدَّبِ؟

أي: المنفي الفعال المرضي الخصال، فصدر البيت دل بمفهومه على نفي الكامل من الرجال، وعجزه تأكيد لذلك، وتقرير لأن الاستفهام فيه للإنكار، أي: لا مهذب في الرجال، وقد اتفق علماء البديع على أن قوله: أي الرجال المهذب، من أحسن تذييل وقع في شعر؛ لأنه خرج مخرج المثل، ومن ثم قالوا: إن النابغة كان أشعر الناس بربع بيت.

* الفوائد:

(١) تحققت البشارة، وأتى أمر الله، ودخل محمد مكة فاتحاً، كما هو معروف في تاريخ السيرة، وقال جبريل لمحمد ﷺ عندما نزل بهذه الآية يوم الفتح: خذ مخضرتك، ثم ألقها فجعل يأتي صنماً صنماً، وهو ينكت

بالمخصرة في عينه ، ويقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ فينكب الصنم لوجهه ، حتى ألقاها جميعاً ، وبقي منها صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من قوارير صفر فقال : « يا علي ! ارم به » فصعد فرمى به فكسره إلى آخر هذه القصة الفريدة .

(٢) معاني اللام الجارة :

أورد ابن هشام في « مغني اللبيب » أن لَّام الجارة اثنين وعشرين معنى ، واكتفى غيره بذكر اثني عشر معنى فقط ، وأنكر أن يكون لها هذه المعاني الأخرى ، وفيما يلي تلخيص مفيد لذلك :

١ - الملك ، نحو : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ .

٢ - شبه الملك . وجعل ابن هشام هذا القسم قسمين ، وهما : الاختصاص نحو : السرج للدابة ، والاستحقاق وهي الواقعة بين معنى وذات نحو : العزة لله ، والأمر لله .

٣ - التعدية إلى المفعول به ، نحو : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ ورجح ابن هشام وغيره أن يمثل لها بنحو : ما أضرب زيدا لعمرو ؛ لأن ضرب متعد في الأصل ، ولكنه لما بني منه فعل التعجب نقل إلى فعل بضم العين ، فصار لازماً فعدي بالهمزة إلى زيد وباللام إلى عمرو .

٤ - التعليل كقول أبي صخر الهذلي :

وَإِنِّي لَتَعْرِوْنِي لَذَكَرَاكِ هِرَّةٌ كَمَا انْتَفَضَ الْعَصْفُورُ بَلَلَهُ الْقَطْرُ

أي : لأجل ذكري إياك .

٥ - التوكيد ، وهي الزائدة ، وهي أنواع منها :

أ - اللام المعترضة بين الفعل المتعدي ومفعوله ، كقول ابن ميادة الرماح يمدح عبد الملك بن مروان :

وَمَلَكَتْ مَا بَيْنَ الْعِرَاقِ وَيَثْرِبَ مُلْكًا أَجَارَ لِمُسْلِمٍ وَمُعَاهِدِ

أي : أجار مسلماً ومعاهداً .

ب- ومنها اللام المقحمة بين المتضايين، كقول زهير بن أبي سلمى :

سَمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ

ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالَكَ يَسَامَ

والأصل : لا أباك موجود، وهو تعبير المدح والذم، وانجرار ما بعدها بالإضافة.

ج- ومنها لام المستغاث، فإنها زائدة عند المحققين بدليل صحة إسقاطها.

٦ - تقوية العامل الذي ضعف إما بكونه فرعاً في العمل كالمصدر واسمي الفاعل والمفعول وأمثلة المبالغة، نحو : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ ونحو : ﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ وإما بتأخره عن المعمول نحو ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرَّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ والأصل إن كنتم تعبرون الرؤيا، فلما أخر الفعل، وقدم معموله عليه، ضعف عمله، فقوي باللام، وجعلها ابن هشام في «المغني» زائدة، والأصح أنها ليست كذلك.

٧ - موافقة «إلى» أي : لانتهاء الغاية، نحو : ﴿ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : إلى أجل مسمى.

٨ - القسم، وتختص بالجلالة؛ لأنها خلف عن التاء، نحو : لله لا يؤخر الأجل.

٩ - التعجب، نحو : لله درك أي : ما أكثر درك، وأكثر ما تستعمل في النداء كقول امرئ القيس :

فَمَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلِ شُدَّتْ يَدُبُلِ

١٠ - الصيرورة أو العاقبة أو المآل، نحو : ﴿ فَالْآنَ قَطُءَ آثَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ وقول أبي العتاهية :

لِدُّوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ

فإن الموت ليس علة للولد، والخراب ليس علة للبناء، ولكن صار عاقبتهما ومآلهما إلى ذلك، وأنكرها الزمخشري وقال : والتحقيق أنها لام

العلة ، وأن التعليل فيها وارد على المجاز دون الحقيقة .

١١ - البعدية ، نحو : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ وقد تقدم ذكرها ، لأن الوقت إنما يدخل ونعلمه بالدلوك ، فلا تقام الصلاة إلا بعد الدلوك ، وهو ميل الشمس عن الاستواء ، ومنه قوله ﷺ : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » وقول متمم بن نويرة :

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكًا لَطُولِ اجْتِمَاعِ لَمْ نَبْثْ لَيْلَةً مَعَا

١٢ - الاستعلاء ، أي : موافقة على حقيقة ، نحو : ﴿ يَخْرُجُونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ جمع ذقن ، أي : عليها ، ومجازاً نحو : ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أي : عليها .

١٣ - موافقة في ، نحو : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهُا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ﴾ أي : لا يجيبها في وقتها إلا هو .

١٤ - موافقة «عند» كقراءة الجحدري : (بل كذبوا بالحق لما جاءهم) بكسر اللام وتخفيف الميم ، أي : عند مجيئه إياهم .

١٥ - موافقة «مع» كقول متمم بن نويرة الأنف الذكر :
فلما تفرقنا . . . الخ .

١٦ - موافقة «من» نحو : سمعت له صراخاً ، وقول جرير :

لَنَا الْفَضْلُ فِي الدُّنْيَا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ

وَنَحْنُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَفْضَلُ

أي : ونحن منكم أفضل .

١٧ - التبليغ ، نحو : ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ ﴾ وضابطها أن تجر اسم السامع لقول .

١٨ - موافقة «عن» إذا استعملت مع القول نحو : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ .

١٩ - التمليك ، نحو : وهبت لزيد ديناراً .

٢٠ - التعليل ، نحو : قول امرئ القيس :

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لَلْعَذَارَى مَطِئِي فِيا عَجَبًا مِنْ كُورِها الْمُتَحَمِّلِ
ومنها اللام الداخلة لفظاً على المضارع، نحو: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ
لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ وانتصاب الفعل بعدها بأن مضمرة.

٢١ - توكيد النفي، وهي الداخلة في اللفظ على الفعل مسبوقة بما كان أو
بلم يكن، نحو: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ ويسمى أكثر النحاة لام
البحرود.

٢٢ - التبيين، وقد تقدم ذكرها، ونعيدها هنا مفصلة فنقول: هي ثلاثة
أقسام:

أ - ما تبين المفعول من الفاعل، وضابطها أن تقع بعد فعل تعجب، أو اسم
تفضيل مفهمين حباً أو بغضاً، تقول: ما أحبني، وما أبغضني، فإن قلت
لفلان: أنت فاعل الحب والبغض وهو مفعولهما، وإن قلت: إلى فلان فالأمر
بالعكس.

ب - ما يبين فاعلية غير ملتبسة بمفعولية، وما يبين مفعولية غير
ملتبسة بفاعلية، ومصحوب كل منهما إما غير معلوم مما قبلها، أو معلوم،
لكن استؤنف بيانه تقوية للبيان، وتوكيداً له، واللام في ذلك كله متعلقة
بمحذوف. مثال المبينة للمفعولية: سقياً لزيد وجدعاً له، فهذه اللام ليست
متعلقة بالمصدرين، ولا بفعليهما المقدرين لأنهما متعديان، ولا هي مقوية
للعامل لضعفه بالفرعية، وإنما هي لام مبنية للمدعوله أو عليه.

واختلف في قوله تعالى: ﴿هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ ف قيل: اللام
زائدة، وما فاعل، وقيل: الفاعل ضمير مستتر راجع إلى البعث والإخراج،
فاللام للتبيين، والبحث في اللام طويل، ومرجعه للمطولات.

﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا
خَسَارًا﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَّاجِبًا بَيْنَهُ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨١﴾

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

☆ اللفظة:

﴿وَتَا﴾: النأي بالجانب: أن يوليه عطفه، ويوليه ظهره، وأراد الاستكبار؛ لأن ذلك ديدن المستكبرين، وفي المصباح: ونأى نأياً، من باب: نفع: بُعد. ويتعدى بنفسه وبالحرف، وهو الأكثر، فيقال: نأيته، ونأيت عنه، ويتعدى بالهمزة فيقال: أنأيته.

﴿شَاكِلَتِهِ﴾: مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة، من قولهم: طريق ذو شواكل، وهي الطريق التي تتشعب منه، والمعنى كل إنسان يعلم حسب جوهر نفسه، فإن كانت نفسه شريفة طاهرة صدرت عنه أفعال جميلة، وإن كانت نفسه كدرة خبيثة صدرت عنه أفعال خبيثة فاسدة.

○ الإعراب:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو عاطفة، وننزل فعل مضارع، وفاعل مستتر تقديره: نحن، ومن القرآن حال على أن من للتبيين، ويجوز أن تكون لابتداء الغاية، أو تبعيضية، فهي متعلقة بننزل، كما اختار أبو حيان، وما مفعول به، وهو مبتدأ، وشفاء خبر، والجملة صلة الموصول، ورحمة عطف على شفاء، وللمؤمنين متعلقان بشفاء ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ الواو حالية، ولا نافية، ويزيد الظالمين فعل وفاعل مستتر ومفعول به، وإلا أداة حصر، وخساراً مفعول به ثان ﴿وَإِذَا أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَتَأَنَّ بِجَانِبِهِ﴾ الواو حرف عطف، وإذا ظرف مستقبل، وجملة أنعمنا مضافة للظرف، وهو فعل وفاعل، وعلى الإنسان متعلقان به، وجملة أعرض لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم، ونأى عطف على أعرض، وبيجانبه متعلقان بنأى ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّ﴾ عطف على ما تقدم، وجملة مسه الشر مضافة للظرف، وجملة كان لا محل لها، واسم كان مستتر تقديره: هو، ويتوسأ خبر كان ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ كل مبتدأ، أي: كل أحد، وجملة يعمل

خبر، وعلى شاكلته متعلقان بيعمل ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ الفاء استثنائية، وربكم مبتدأ، وأعلم خبره، وبمن متعلقان بأعلم، وهو مبتدأ، وأهدى خبر، والجملة صلة، وسيلاً تمييز.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

○ الإعراب:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الواو استثنائية، ويسألونك فعل مضارع وفاعل ومفعول به، وعن الروح متعلقان بيسألونك، والضمير يعود على اليهود المتعنتين الذين سألوهم تجنياً منهم عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين وعن الروح، فيين لهم القصتين، وأبهم أمر الروح، وهو مبهم في التوراة ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الروح مبتدأ، ومن أمر ربي خبر، أي: أنه مما استأثر الله بعلمه، والواو عاطفة، أو حالية، وما نافية، وأوتيتم فعل ماض مبني للمجهول، ومن العلم متعلقان بأوتيتم، وإلا أداة حصر، وقليلاً مفعول به ثان لأوتيتم، أي: شيئاً قليلاً بالنسبة إلى علمه تعالى، وإن كان كثيراً في حد ذاته ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، وإن شرطية، وشئنا فعل ماض وفاعل في محل جزم فعل الشرط، واللام جواب القسم، وجواب الشرط محذوف، أي: ذهبنا به على القاعدة في اجتماع الشرط، والقسم من حذف جواب المتأخر استغناء عنه بجواب المتقدم، وبالذي متعلقان بنذهبن، وجملة أوحينا صلة، وإليك متعلقان بأوحينا ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ ثم حرف عطف، ولا نافية، وتجد فعل مضارع مرفوع، وفاعله أنت، ولك متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان في الأصل صفة لو كيلاً، وبه متعلقان بتجد، وعلينا متعلقان

بوكيلاً، ووكيلاً مفعول به، أي: لا تجد من يتوكل علينا باسترداده بعد رفعه.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنْ فَضَّلَهُ كَانَتْ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ يجوز في هذا الاستثناء أن يكون متصلاً؛ لأن الروح يندرج في قوله وكيلاً، أي: إلا رحمة فيكون مستثنى، أو بدلاً من وكيلاً، ويجوز أن يكون منقطعاً. وإلا بمعنى لكن، فتعرب رحمة مفعولاً من أجله، والتقدير: حفظناه عليك للرحمة، أو مفعولاً مطلقاً، والتقدير: لكن رحمتك رحمة، ومن ربك صفة لرحمة، وإن واسمها، وجملة كان خبرها، وعليك حال لأنه كان صفة لكبيراً، وكبيراً خبر كان.

﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۚ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۚ﴾

○ الإعراب:

﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ لئن اللام موطئة للقسم، وإن شرطية، واجتمعت فعل ماضٍ في محل جزم فعل الشرط، والإنس فاعل، والجن عطف على الإنس، وعلى أن يأتوا: أن وما في حيزها في محل جر بعلى، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال، أي: متظاهرين ومتعاونين، وبمثل متعلقان بياأتوا، وهذا مضاف لمثل، والقرآن بدل ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ لا يأتون: لا نافية، ويأتون فعل مضارع مرفوع لأنه جواب القسم المحذوف لتقدمة لا جواب الشرط، والواو فاعل، وبمثله متعلقان بياأتون، ولو: الواو حالية، ولو وصلية، وكان فعل ماضٍ ناقص، وبعضهم اسم كان، وبعض متعلقان بظهيراً، وظهيراً خبر كان، وجملة لو كان... الخ حالية، ولهذا التركيب قاعدة نوردها في باب الفوائد ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، وقد حرف تحقيق، وصرفنا فعل وفاعل، وفي هذا متعلقان

بصرفنا، والقرآن بدل، ومن كل مثل صفة للمفعول به المحذوف، أي: من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فأبى عطف على صرفنا، وأكثر الناس فاعل، وإلا أداة حصر؛ لأن أبى متأول بالنفي، كأنه قيل: فلم يرضوا إلا كفوراً، وكفوراً مفعول به.

* الفوائد:

إذا أتى حرف العطف قبل الوصلية كان عاطفاً على مقدر، ويكون حذف المعطوف عليه مطرداً لدلالة المعطوف دلالة واضحة عليه، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ فالعطف هنا على مقدر، أي: لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيراً لبعض، ولو كان بعضهم ظهيراً لبعض، فإن الإتيان بمثله حيث انتفى عند التظاهر، فلأن ينتفي عند عدمه أولى، وعلى هذه النكتة يدور ما في إن ولو الوصليتين من التأكيد، ومحلّه النصب على الحال حسبما عطف عليه، أي: لا يأتون بمثله على كل حال مفروض، ولو في هذه الحال المنافية لعدم الإتيان به فضلاً عن غيرها.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ٩٠ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ ٩١ ﴿أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا﴾ ٩٢ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِنَبًا نَّقْرُؤُكُمْ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ٩٣

☆ اللغة:

﴿يَنْبُوعًا﴾: الينبوع - بفتح الياء -: عين غزيرة لا ينضب ماؤها، وهو يفعل من نبع الماء، كيعبوب من عب الماء؛ إذا زخر، وكثرت أمواجه، وللنون مع الباء فاء وعيناً للكلمة سرّ عجيب مطرد، وهو أنها تدل على الظهور

والبروز، وقد أحصيناها في جميع تراكيبها، فرأيناها لا تنفك عن أداء هذا المعنى: فنبأ معناها: ارتفع، والنبأ: الخبر والنبوءة، والنبوءة: الإخبار عن الغيب أو المستقبل، والنابيء: المكان المرتفع المحدودب، وسيل نابیء: طاریء من حيث لا يدري، وكل شيء يظهر، قال:

أَلَا فَاسْقِيَانِي وَانْفِيَا عَنْكُمَا الْقَدَى

وَلَيْسَ الْقَدَى بِالْعُودِ يَسْقُطُ فِي الْخَمْرِ

وَلَكِنْ قَذَاهَا كُلُّ أَشْعَثَ نَابِيءٍ

أَتَتْنَا بِهِ الْأَقْدَارُ مِنْ حَيْثُ لَا نَدْرِي

ونب التبس نبأ: صاح عند الهياج، وليس أظهر من ذلك، ورمح مطرد الأنابيب، وشرب من أنبوب الكوز، وله أنبوب من نخل وغيره، قال:

أَوْ مِنْ مُشْعِشَةٍ وَرَهَاءَ نَشْوَتِهَا

أَوْ مِنْ أَنْبَابِ رُمَّانٍ وَتُقَّاحٍ

ونبت المكان: صار ذا نبت ظاهر، وظهر النبت والنبات في الأرض، والنابتة مؤنث النابت، والناشئة من الأولاد والأنعام، ونبت التراب من الحفرة: استخرجه، ونبتوا عن الأمر: بحثوا عنه، ولا يزالون يتناثثون عن الأسرار، ويتباحثون عن الأخبار، والأنبوة بضم الهمزة: لعبة للصبيان يدفنون شيئاً في حفرة فمن استخرجه غلب، وإنه لنفاج نبات ليس معه إلا الكلام، ونبخته الكلاب معروفة، واستنبح الضيف الكلاب عند ظهوره، قال الأخطل وهو أهجى بيت:

قَوْمٌ إِذَا اسْتَنْبَحَ الْأَضْيَافَ كَلْبُهُمْ

قَالُوا لِأَمُّهُمْ: بُولِي عَلَى النَّارِ

ونبذ الشيء من يده: طرحه ورمى به، وصبي منبوذ، والتقط فلان منبوذاً، ونبذ أمری وراء ظهره، ونبذ النبيذ وهو: أن يلقي الثمر في الجر وغيره، والنبيذ: التمر المنبوذ، والخمر المعتصر من العنب، وغيره، وجمعه أنبذة، والنباذ: بائع النبيذ، ونبر الغلام: ترعرع، ونبر المغني: رفع صوته

بعد خفض، ونبر الحرف: همزه، والمنبر: محل مرتفع يرتقيه الخطيب، أو الواعظ يكلم منه الجمع؛ سمي بذلك لارتفاعه، وكسرت الميم على التشبيه بالآلة، والجمع منابر، والنبز: اللقب، ونبره بكذا: لقبه ليعرف به، وهو شائع في الألقاب القبيحة، ونبس بالمجلس ونبس: تكلم، وأكثر استعماله بعد النفي يقال: ما نبس بكلمة، وتقول: كلمته فعبس وما نبس، ونبس الشيء المستور: أبرزه وأظهره، ونبس الكنز من الأرض: كشفه واستخرجه، وهو ينبش الأسرار، قال:

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا مَوَالِينَا

لَا تَنْبُشُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا

وهو ينبش لعياله ويحترش: إذا استخرج رزقهم من هنا وهنا، واحتال، وانتبش العروق من الأرض: استخرجها، قال الكميت:

مَوْتُهُنَّ انْتَبَاشُهُنَّ مِنَ الْأَرْضِ وَيَحْيِيَنَّ مَا سَكَنَ الْقُبُورَا

أي: ما دامت العروق تحت الأرض كانت حية فإذا انتبشت ماتت، والنباش فعال للمبالغة: الذي ينبش القبور، ونبس الغلام بالطائر والكلب، وهو: أن يضم شفثيه ويدعوه، ونبس عرقه نبضاً ونبضاناً، وتقول: رأيت ومضة برق كنبضة عرق، ونبت الماء: نبع، واستنبت البئر: أخرج ماءها، واستنبت العرب: صاروا نبطاً. قال خالد بن الوليد لعبد المسيح بن بُقَيْلَة: أعرب أنتم أم نبيط؟ فقال: عرب استنبتنا ونبيط استعربنا، وقال أبو العلاء المعري:

أَيْنَ امْرُؤُ الْقَيْسِ وَالْعَذْرَايَ إِذْ مَالَ مِنْ تَحْتِهِ الْغَيْطُ

اسْتَنْبَطَ الْعُرْبُ فِي الْمَوَامِي بَعْدَكَ وَاسْتَعْرَبَ النَّيِّطُ

وتقدم القول في النبع والينبوع. ونبع الشيء: خرج وظهر، ونبع الرجل: قال الشعر وأجاده، ويقال: إن النابغة قال الشعر على كبر سنه فأجاد، فسمي النابغة، وقيل بل لقوله:

وَحَلَّتْ فِي بَنِي الْقَيْنِ بْنِ جَسْرِ

فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُؤُونُ

وهو نابغة من النوابع، ونبع في العلم وفي كل صناعة. ونبق الشيء ينبق: ظهر، والتَّبَقَّ والتَّبَقَّ والتَّبَقَّ والتَّبَقَّ: حُلَّ شجر السدر، والواحدة نَبْقة. وعن بعض العرب: إن النبق ليعجبني، وإن التَّبَقَّ لي لمؤذ، وفي الحديث: «ونبقها كقلال هجر»، ووقعنا في نَبَك من الأرض ونباك، جمع نبكة، وهي: الأكمة المحددة الرأس، ونبك المكان: ارتفع، وهضاب نوابك، قال ذو الرمة: طَواهُنَّ تَغْوِيرِي إِذَا الْآلُ أَرْفَلَتْ

بِهِ الشَّمْسُ أُرَزَّ الْحَزُورَاتِ النَّوَابِكُ

ونَبَل الرجل: كان ذا نبالة وفضل ظاهرتين، ورجل نابل ونبال: معه نَبَل، قال امرؤ القيس:

أَيَقْتَلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقُ كَأَنِيَابِ أَغْوَالٍ
وَلَيْسَ بَذِي رُمُحٍ فَيَطْعَنُنِي بِهِ وَلَيْسَ بَذِي سَيْفٍ وَلَيْسَ بِنَبَالٍ

ورجل تنبال: قصير، ونبه ينتبه للأمر: فطن له، وكان ذا نباهة وشرف، ونبا السيف عن الضريبة بُنُوءاً وَتَبُوءَةً، وسيف ناب، ولكل صارم نبوة، قال: أَنَا السَيْفُ إِلَّا أَنَّ لِلْسَيْفِ نَبُوءَةً وَمِثْلِي لَا تَنْبُوءُ عَلَيْكَ مَضَارِبُهُ وَقَدْ رَمَقَ سَمَاءَ هَذَا الْمَعْنَى حَافِظُ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ:

لَا تَلَمْ كَفِي إِذَا السَّيْفُ نَبَا صَحَّ مِنِّي الْعِزْمُ وَالذَّهْرُ أَبَى

﴿كِسْفًا﴾: قطعاً، يقال: كسفت الثوب: قطعته، وقال الزجاج: كسف الشيء بمعنى غطاه، قيل: ولا يعرف هذا لغيره. وفي الأساس: وهذه كِسْفَةٌ وَكِسْفٌ مِنَ السَّحَبِ، وَأَعْطَنِي كِسْفَةً مِنَ الثَّوْبِ: قطعة.

﴿قَبِيلًا﴾: كفيلاً بما تقول، شاهداً بصحته، وقيل: مقابلة وعياناً، وقيل: هو جمع قبيلة، أي: بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة، يشهدون بصحة ما تقول، واللغة تحتل الجميع.

﴿زُحْرَفٍ﴾ ذهب، وهو المراد هنا، ولها معان شتى، منها: حسن الشيء، وزخرف الكلام: أباطيله المموهة، وزخرف الأرض: ألوان نباتها، والجمع زخارف، وزخرف الشيء: حسنه وزينه، والكلام: موّاه بالكذب.

○ الإعراب:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الواو عاطفة، وقالوا فعل وفاعل، ولن حرف نفي ونصب واستقبال، ونؤمن نصب بها، وفاعل نؤمن مستتر تقديره: نحن، ولك متعلقان بنؤمن، وحتى حرف غاية وجر، وتفجر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، ولنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، ومن الأرض متعلقان بتفجر، وينبوعاً مفعول به ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ أو حرف عطف، وتكون عطف على تفجر، وهو المطلب الثاني من مطالبهم الستة. ولك جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر تكون المقدم، وجنة اسمها المؤخر، فتفجر: الفاء عطف، وتفجر عطف على تكون، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنت، والأنهار مفعول به، وخلالها ظرف متعلق بمحذوف حال، أي: كائنة خلالها، وتفجيراً مفعول مطلق ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ أو حرف عطف، وتسقط عطف على ما تقدم، وهو المطلب الثالث، والسماء مفعول به، والكاف حرف جر، أو اسم بمعنى مثل، وهي مع ما المصدرية المؤولة بمصدر نعت لمصدر محذوف، أو نصب على الحال، وعلينا متعلقان بتسقط، وكسفاً حال من السماء، والإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ نَحْصِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ هذا هو المطلب الرابع من مطالبهم المتعنتة، وبالله متعلقان بتأتي، والملائكة عطف على الله، وقبيلاً حال من الله والملائكة، وقد تقدم معناها في باب: اللغة ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُحْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ وهذان هما المطلبان الخامس والسادس. ولك خبر يكون المقدم، وببيت اسم يكون المؤخر، ومن زخرف متعلقان بمحذوف صفة لبیت، أو حرف عطف، وترقى عطف على

ما تقدم، وبه تكتمل المطالب الستة المتعنتة، وفي السماء جار ومجرور متعلقان بترقى، ومعنى الرقي: الصعود في السماء ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ الواو عاطفة، ولن حرف نفي ونصب واستقبال، ونؤمن منصوب بها، وفاعله ضمير مستتر تقديره: نحن، ولرقيك متعلقان بنؤمن، وحتى حرف غاية وجر، وتنزل فعل مضارع منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنت، وعلينا متعلقان بتنزل، وكتاباً مفعول به، وجملة نقرؤه نعت لكتاباً، أو حال مقدرة من نافي علينا ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ قل فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، أي: قل في الرد على العناد واللجاج، وسبحان ربي مفعول مطلق، والجملة مقول القول، ومعناها التعجب من هذا اللجاج، وتنزيه الله سبحانه عن أن يشاركه أحد في قدرته، وهل حرف استفهام معناه النفي والإنكار، وكنت فعل ماض ناقص، والتاء اسمها، وإلا أداة حصر، وبشراً خبر كنت، أو حال، ورسولاً نعت، أو خبر كنت.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۚ﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُّونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّمَا كَانَ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ۚ﴾

○ الإعراب:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية، وما نافية، ومنع فعل ماض، والناس مفعول به مقدم، وأن وما في حيزها في محل نصب مفعول به ثانٍ لمنع، وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بمنع، أي: وما منع الناس الإيمان وقت مجيء الهدى، وجملة جاءهم الهدى مضاف إليها الظرف ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ إلا أداة حصر، وأن وما في حيزها

في محل رفع فاعل منع، والهمزة للاستفهام الإنكاري، وما أنكروه هو المنكر، وبعث الله فعل وفاعل، وبشراً حال من رسولاً؛ لأنه كان نعتاً له، وتقدم عليه كما هي القاعدة، ورسولاً مفعول به ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ قل فعل أمر، ولو شرطية، وكان فعل ماض ناقص، وفي الأرض متعلقان بمحذوف خبر كان المقدم، وملائكة اسمها المؤخر، وجملة يمشون صفة لملائكة، ومطمئنين حال، ويجوز في كان التمام، وملائكة هي الفاعل ﴿لَنَزَّلْنَاهُ عَلَيْهِنَّ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ اللام واقعة في جواب لو، ونزلنا فعل وفاعل، وعليهم متعلقان بنزلنا، ومن السماء متعلقان بنزلنا أيضاً، وملكاً حال من رسولاً، ورسولاً مفعول نزلنا ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ كفى فعل ماض، والباء حرف جر زائد، والله مجرور بالباء لفظاً، وهو فاعل كفى محلاً، وشهيداً تمييز، وبينني الظرف متعلق بشهيداً، وبينكم عطف على الظرف الأول ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُعَادِدُوهُ خَيْرًا مِنْ بَصِيرَةٍ﴾ إن واسمها، وجملة كان خبرها، وخبيراً بصيراً خبران لكان.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُنْذِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمٌ وَأُكُمَا وَصُفًا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَائِنِنَا وَقَالُوا أءَاذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا أءَا نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ١٠٠﴾

○ الإعراب:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الواو استئنافية، ومن اسم شرط جازم في محل

نصب مفعول مقدم ليهده، ويهد فعل الشرط، والله فاعل، فهو: الفاء رابطة لجواب الشرط لأنه جملة اسمية، وهو مبتدأ، والمهتدي خبره، وتحذف الياء في رسم المصحف، وجملة هو المهتدي في محل جزم جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه خبر من على الأصح ﴿وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ الواو عاطفة، والجملة معطوفة على سابقتها، ولم متعلقان بأولياء، ومن دونه حال ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ الواو استئنافية، ونحشرهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ويوم القيامة متعلق بنحشرهم، وعلى وجوههم حال من الهاء في نحشرهم، وعمياً وما عطف عليه أحوال أيضاً ﴿مَّا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ مأواهم جهنم جملة مستأنفة مؤلفة من مبتدأ وخبر، وكلما ظرف متضمن معنى الشرط، وقد تقدم، وهو متعلق بالجواب، وهو زدناهم، وسعيراً مفعول به ثان، وجملة كلما خبت حال من جهنم ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ ذلك اسم إشارة مبتدأ، وجزاؤهم خبره، وبأنهم أن وما في حيزها في محل جر بالياء، والجار والمجرور متعلقان بجزاؤهم، ويجوز أن يكون جزاؤهم بدلاً من ذلك، وبأنهم هو الخبر، وجملة كفروا خبر أن، وآياتنا متعلقان بكفروا ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، وإذا ظرف مستقبل، وكنا عظاماً كان واسمها، وخبرها، ورفاتاً عطف على عظاماً، والهمزة للاستفهام الإنكاري أيضاً، وإن واسمها، واللام المرحقة، ومبعوثون خبر إنا، وخلقاً حال، وجديداً نعت، ولك أن تجعل خلقاً مفعولاً مطلقاً من معنى الفعل، أي: نبعث بعثاً جديداً ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري للرد على إنكارهم، والواو عاطفة على محذوف، وقد تقدم تحقيقه كثيراً، وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي يروا، والذي صفة لله، وجملة خلق السموات والأرض صلة، وقادر خبر أن، وعلى أن متعلقان بقادر، ومثلهم صفة للمفعول المحذوف، أي: خلقاً مثلهم، وتقرير ذلك أن مثل الشيء مساوياً له في حاله، فجاز أن يعبر به عن الشيء نفسه ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ

فيه ﴿الواو عاطفة، وجعل معطوف على أو لم يروا؛ لأنه في تقدير: قد رأوا، والمعنى: قد علموا بالدلائل العقلية أن من قدر على خلق السموات والأرض هو قادر على خلق أمثالهم وجعل أجل لهم، ولهم متعلقان بمحذوف مفعول جعل الثاني، وأجلاً مفعول جعل الأول، ولا ريب فيه الجملة صفة لأجلاً، ولا نافية للجنس، وريب اسمها المبني على الفتح، وفيه خبرها ﴿فَأَيُّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا﴾ تقدم تقريره قريباً، فجدد به عهداً ﴿قُلْ لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ لو شرطية، وحقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء، فلا بد من تقدير فعل يفسره ما بعده، أي: لو تملكون، فلما أضمر على شريطة التفسير انفصل الضمير، فأنتم تأكيد للفاعل المستتر في الفعل المحذوف الذي يفسره ما بعده، وسيأتي بحث ذلك مفصلاً في باب: الفوائد. وغلط من أعرب أنتم فاعلاً؛ لأن ضمير المخاطب لا يجوز إظهاره، وجملة تملكون مفسرة لا محل لها، وخزائن رحمة ربي مفعول به.

﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُورًا﴾ إذا حرف جواب وجزاء مهمل، ولأمسكتم: اللام واقعة في جواب لو، والجملة لا محل لها، وخشية الإنفاق مفعول لأجله، والواو حالية، وكان الإنسان قتوراً: كان واسمها وخبرها، والجملة نصب على الحال، وسيرد تقرير هذا المعنى في باب الفوائد.

* الفوائد:

(١) «لو» والاسم بعدها:

تقدم القول في غير موضع من هذا الكتاب أن الشرط لا يكون إلا بالأفعال؛ لأنك تعلق وجود غيرها على وجودها، والأسماء ثابتة موجودة لا يصح تعليق وجود شيء على وجودها، ولذلك لا يلي حرف الشرط إلا الفعل، ويقبح أن يتقدم الاسم فيه على الفعل، ولو داخله في هذا التحديد، إذا وقع بعدها الاسم وبعده الفعل، فالاسم محمول على فعل قبله مضمّر يفسره الظاهر، وذلك لاقتضائها الفعل دون الاسم، ومن كلام حاتم: لو ذات

سوار لطمتني». على تقدير: لو لطمتني ذات سوار.

(٢) معنى ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾:

أورد بعض المتعنتين سؤالاً اعترض فيه على قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ وقال على طريق التعنت والجدل اللفظي: كيف يصح هذا السلب الكلي؟ وكيف يكون عموم الجنس الإنساني ممسكاً بخيلاً، ونحن نرى من بني الإنسان الجواد الكريم؟ والجواب في غاية البساطة وهو أن بناء أمر الإنسان في الأصل قائم على الحاجة والبخل بما يحتاج إليه للحفاظ على ما فيه قوام معيشته، وملاك أمره، وكسب الذكر الجميل، والثناء العطر غاية لما يبذله، حتى أن من بينهم - كما قال المعترض - لا الجواد الكريم فحسب، بل الذي يرى بذل النفس والنفيس على حد قوله:

يجودُ بالنفس إن ضمنَّ الجوادُ بها

والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

(٣) ذهب بعض المتأخرين من النحاة إلى قياس إذا الظرفية على؛ إذ في إلحاق التنوين بها و«إذا» إذا حذفت الجملة التي تضاف هي إليها عوض عنها التنوين، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ﴾ و﴿إِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ﴾ و﴿إِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ﴾ و﴿وَإِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ﴾ قالوا: وليست إذا في هذه الأمثلة الناصبة للمضارع؛ لأن تلك تختص به، ولذا عملت فيه، ولا يعمل إلا ما يختص، وهذه لا تختص به، بل تدخل على الماضي وعلى الاسم، ومن ذكر هذا الكافجي وأبو حيان في «تذكرته» والزركشي في «البرهان» وما نحسبه بعيداً قالوا: وتقول لمن قال: أنا آتيك: إذا أكرمك. بالرفع على معنى: إذا أتيتني أكرمك، فحذف أتيتني، وعوض التنوين من الجملة، فسقطت الألف لالتقاء الساكنين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَّ بِئْسَ تَوَكُّلاً أَنْ يَنْصَرِفَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمُ

فَرَعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعَوْتُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ
يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ
أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

☆ اللفظة:

﴿بَصَائِرَ﴾ : عبر وبنات، وجمع بصيرة، قال قس بن ساعدة الإيادي :
في الذاهبين الأولين - من القرون لنا بصائر
وله فراسة ذات بصيرة، وذات بصائر، وهي الصادقة، ورأيت عليك
ذات البصائر، قال الكميت :

ورأوا عليك ومنك في الـ مهدٍ التهي ذات البصائر

﴿مَثْبُورًا﴾ : هالكاً أو مصروفاً عن الخير، وفي المصباح : وثبر الله الكافر
ثبوراً، من باب : قعد، أهلكه، وثبر هو يتعدى ويلزم .

﴿لَفِيفًا﴾ : قيل : هو مصدر لف يلف لفيفاً، نحو : النذير والنكير، من
لف الشيء يلفه لفاً، والألف : المتداني الفخذين، أو عظيم البطن، وقيل : هو
اسم جمع لا واحده من لفظه، والمعنى : جئنا بكم جميعاً .

○ الإعراب:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ يَسْعَ ءَايَاتٍ يَتَذَكَّرُ﴾ الواو استئنافية، واللام جواب
للقسم المحذوف، وقد حرف تحقيق، وآتيناً فعل وفاعل، وموسى مفعول به،
أول، وتسع آيات مفعول به ثان، وبنات صفة للعدد، فهي منصوبة، أو صفة
للمعدود، فهي مجرورة، وقد تقدم ذكر هذه الآيات، وما فيها من خلاف،
ونوجزها هنا في رواية ابن عباس، وقال : هي العصا، واليد، والجراد،
والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والبحر، والطور الذي نثقه على بني
إسرائيل . وعن الحسن هي : الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات، مكان

الحجر، والبحر، والطور، وقيل غير ذلك مما لا علاقة له بكتابنا هذا ﴿فَسَلَّ
بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ الفاء
الفصيحة إذا كان الخطاب لمحمد ﷺ، وقيل: الخطاب لموسى فتكون عاطفة
على قول محذوف، أي: فقلنا له: اسأل بني إسرائيل، أي: اسأل فرعون،
وبني إسرائيل مفعول ثان، وإذ ظرف لما مضى متعلق بآتيننا على الأول،
وبالقول المقدر على الثاني، وجملة جاءهم مضافة إليها الظرف، فقال له عطف
على مقدر، أي: إذ جاءهم وبلغهم الرسالة، فقال له فرعون: فعل وفاعل،
وله متعلقان بقال، وإني: إن واسمها، واللام المرحلة، وأظنك فعل
مضارع، وفاعل مستتر تقديره: أنا، ومفعول به، ويا موسى: يا حرف نداء
وموسى منادى مفرد علم، ومسحوراً مفعول به ثان، أي: سحرت، فخلوط
عقلك، واختل كلامك ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
بَصَائِرَ﴾ قال فعل ماض وفاعله مستتر، أي: موسى، واللام جواب للقسم
المحذوف، وعلمت فعل وفاعل، وما نافية، وأنزل فعل ماض، وهؤلاء
مفعول به، أي: الآيات التي جئت بها، وإلا أداة حصر، ورب السموات
والأرض فاعل، وبصائر حال، أي: أنزلها بصائر، وإنما احتجنا إلى هذا
التقدير؛ لأن ما بعد إلا لا يكون معمولاً لما قبلها، وأجازه بعضهم فهي حال
من هؤلاء. ﴿وإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ الواو عاطفة، وإن واسمها،
واللام المرحلة، وجملة أظنك خبر إن، ويا فرعون نداء، ومشوراً مفعول ثان
لأظنك ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ الفاء عاطفة، وأراد فعل وفاعل
مستتر، أي: فرعون، وأن وما في حيزها مصدر مؤول مفعول أَرَادَ، ومن
الأرض متعلقان بيسْتَغْفِرُهُمْ ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ الفاء عاطفة، وأغرقناه
فعل وفاعل ومفعول به، ومن الواو واو المعية، ومن مفعول معه، ويجوز
عطفه على الهاء، وسيأتي تفصيل ذلك في باب الفوائد: ومعه ظرف مكان صلة
من، وجميعاً حال ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وقلنا عطف على ما تقدم،
ومن بعده حال، ولبنی إسرائيل متعلقان بقلنا ﴿أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ جملة اسكنوا مقول القول، والأرض مفعول به على

السعة، وقد تقدم تفصيل ذلك، فإذا: الفاء عاطفة، وإذا ظرف مستقبل، وجاء وعد الآخرة فعل وفاعل، وجملة جئنا لا محل لها، وبكم متعلقان بجئنا، ولفيماً حال.

* الفوائد:

* حالات المفعول معه:

للمفعول معه خمس حالات:

١ - وجوب العطف نحو: كل رجل وعمله، ونحو: اشترك زيد وعمرو؛ لأن الاشتراك لا يتأتى إلا من اثنين.

٢ - ترجيح العطف نحو: جاء زيد وعمرو؛ لأنه الأصل.

٣ - وجوب المفعول معه نحو: مالك وزيداً؛ لامتناع العطف، ونحو: مات زيد وطلوع الشمس؛ لأن العطف يقتضي التشريك، وهو باطل هنا.

٤ - ترجيح المفعول معه، نحو قوله:

فكونوا أئمةً وبني أبيكم مكان الكليتين من الطحال

ونحو: قمت وزيداً ففي المثال الأول يكون المعنى مع العطف كونوا لهم، وليكونوا لكم، وذلك خلاف المقصود، وفي المثال الثاني لا يحسن العطف على الضمير المتصل المرفوع إلا بعد توكيده بضمير منفصل.

٥ - امتناع كليهما نحو:

علفتها تبناً وماءً بارداً حتى غدت همالةً عيناها

وقول الآخر:

إذا ما الغانيات برزن يوماً وزججن الحواجب والعيون

أما امتناع العطف فلا تتفاء المشاركة؛ لأن الماء لا يشاركه التبن في العلف، والعيون لا تشارك الحواجب في الترجيع؛ لأن ترجيع الحواجب: تدقيقها وتطويلها، يقال: رجل أزج، وامرأة جزاء؛ إذا كانت حاجباهما دقيقين

طويلين، وأما امتناع المفعول معه فلا تتفاء المعية في البيت الأول؛ لأن الماء لا يصاحب التبن في العلف، وانتفاء فائدة الإعلام بمصاحبة العيون للحواجب في البيت الثاني، إذ أن المعلوم أن العيون مصاحبة للحواجب فلا فائدة في الإعلام بذلك، ويجب في ذلك إضمار فعل ناصب للاسم الواقع بعد الواو على أنه مفعول به، أي: علفتها تبناً، وسقيتها ماء بارداً، وزججن الحواجب، وكحلن العيون.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۚ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ لَنَزِيلًا ۚ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ۚ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۚ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۚ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ ۖ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۖ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُتْ يَٰهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۚ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ۚ﴾

☆ اللفظة:

﴿مُكْثٍ﴾: بثليث الميم، أي: تطاول في المدة، وعلى مهل وتؤدة، ولم ترد قراءة بالكسر.

﴿لِلْأَذْقَانِ﴾: جمع ذقن، وهو مجتمع اللحيين، وسيأتي تفصيل واسع في باب: البلاغة.

﴿تَخَافَتْ﴾: تسر، يقال: خفت الصوت من بابي: ضرب وجلس؛ إذا سكن، ويعدى بالباء فيقال: خفت الرجل بصوته إذا لم يرفعه، وخافت بقراءته مخافته؛ إذا لم يرفع صوته بها، وخفت الزرع ونحوه: مات، فهو خافت.

○ الإعراب:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَهُ﴾ الكلام هنا مرتبط بما تقدم من كلامه تعالى عن القرآن، وقوله: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ الخ على طريق الاستطراد المتبع في أساليب العرب، حيث ينتقلون من الصدد الذي هم فيه إلى غيره، ثم يعودون إليه، وعلى كل فالواو استئنافية، وبالحق متعلقان بأنزلناه، وأنزلناه فعل وفاعل ومفعول به، وبالحق متعلقان بنزل، فالباء سببية فيهما، ولك أن تجعلها للملابسة، فيتعلق الجار والمجرور بمحذوف حال، أي: متلبساً، والحال من المفعول به، أو متلبسين بالحق، فالحال من الفاعل، وسيأتي المزيد من هذا البحث في باب: البلاغة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الواو عاطفة، وما نافية، وأرسلناك فعل وفاعل ومفعول به، وإلا أداة حصر، ومبشراً حال، ونذيراً معطوف عليه، وسيأتي الحديث عن هذا القصر في باب: البلاغة ﴿وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ وقرآناً منصوب على الاشتغال بفعل محذوف يفسره ما بعده، فتكون جملة فرقناه مفسرة، أي: جعلنا نزوله مفزقاً منجماً حسب الحوادث والوقائع ومقتضيات الأحوال، ولتقرأه اللام للتعليل، وتقرأه مضارع منصوب بأن مضمرة، والجار والمجرور متعلقان بفرقناه، وفرقناه فعل وفاعل ومفعول به، وعلى الناس متعلقان بتقرأه، وعلى مكث في موضع الحال من الفاعل، أي: متريثاً متمهلاً، وشيئاً بعد شيء، رعاية لمصالح العباد ومعاشهم، ونزلناه فعل وفاعل ومفعول به، وتنزيلًا مفعول مطلق ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِمِثْرِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ جملة آمنوا مقول القول، والأمر للاحتقار، أي: سواء علينا إيمانكم أو عدمه، فما أنتم بمن يؤبه لهم، أو لا تؤمنوا، أو حرف عطف، ولا ناهية، وتؤمنوا مجزوم بلا ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ إن واسمها، وجملة أوتوا العلم صلة، والعلم مفعول ثانٍ لأوتوا، والأول نائب الفاعل، وهو الواو، ومن قبله حال، والجملة تعليلية للقول على سبيل التسلية له ﷺ، وإذا ظرف مستقبل متعلق بيجرون، وجملة يتلى مضاف إليها الظرف، وعليهم متعلقان

بيتلى، وجملة يخرون لا محل لها؛ لأنها جواب إذا، وللأذقان متعلقان
 ييخرون، وسجداً حال ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ ويقولون
 عطف على يخرون، وسبحان ربنا مفعول مطلق، وإن مخففة مهملة، واسمها
 ضمير الشأن، وجملة كان خبرها، ووعد ربنا اسم كان، واللام الفارقة،
 ومفعولاً خبرها ﴿وَنَخِرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ الجملة معطوفة
 على سابقتها، وسيأتي سر هذا التكرير في باب: البلاغة، وجملة ييكون حالية،
 والواو للحال، ويزيدهم فعل وفاعل مستتر، والهاء مفعول به أول،
 وخشوعاً مفعول به ثان، وسيأتي سر هذين الحالين المتتابعين في باب: البلاغة
 ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ سمعوا محمداً يدعو مرة في سجوده، ويقول:
 يا الله يا رحمن، فقال أبو جهل: إن محمداً ينهانا عن آلهتنا، وهو يدعو إلهين
 اثنين، فنزلت، وجملة ادعوا الله مفعول القول، والدعاء بمعنى التسمية
 لا بمعنى النداء، وهي تنصب مفعولين حذف أحدهما استغناء عنه للعلم به،
 ولفظ الجلالة مفعول به، وأو للتخيير فهي عاطفة، وادعوا معطوف على ادعوا
 الأولى، والرحمن مفعول به، أي: سموه بهذا الاسم، أو بذاك ﴿أَيَّامًا تَدْعُوهُ أَلَّا
 الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أيأ شرطية، وهي منصوبة بتدعوا على أنها مفعول مقدم،
 وما زائدة للإبهام المؤكد، وتدعوا فعل الشرط، وعلامة جزمه حذف النون،
 والواو فاعل، والفاء رابطة للجواب؛ لأنه جملة اسمية، وله خبر مقدم،
 والأسماء مبتدأ مؤخر، والحسنى صفة، وقيل: ما شرطية، وجمع بين أداتي
 الشرط للتأكيد، واختلاف اللفظين، ولا داعي لهذا، وستأتي الأسماء
 الحسنى في باب: الفوائد ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾
 الواو عاطفة، ولا ناهية، وتجهر مضارع مجزوم بلا، والفاعل مستتر تقديره:
 أنت، نهي عن المجاهرة تفادياً لشتائمهم، وهذا من محاسن الأخلاق،
 ولا تخافت عطف على ولا تجهر، أي: لا تجعلها غير مسموعة لمن خلفك من
 المصلين، وابتغ فعل أمر بني على حذف حرف العلة، وبين ظرف متعلق
 بمحذوف حال؛ لأنه كان في الأصل صفة لسبيلاً، وذلك مضاف للظرف،
 والإشارة إلى اثنين، وهما: المجاهرة والمخافتة، ولذلك صح دخول بين،

وسبيلاً مفعول ابتغ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ جملة الحمد لله مقول القول، والحمد مبتدأ، والله خبر، والذي صفة، وجملة لم يتخذ ولداً صلة، وترتيب الحمد على عدم اتخاذ الولد؛ لأن من كان هذا وصفه فهو القادر ولا شك على إسباغ النعم وإيلائها، أما صاحب الولد فهو مستهدف للتلهي بولده عن غيرهم، والاشتغال بهم عمن سواهم ﴿وَلَوْ يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ عطف على لم يتخذ، ولم حرف نفي وقلب وجزم، ويكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلم، وله خبرها المقدم، وشريك اسمها المؤخر، وفي الملك متعلقان بشريك، ونفي الشريك أدعى إلى الحمد لعدم وجود المزاحم الذي تتعارض إرادته معه ﴿وَلَوْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَثِيرُهُ نَكِيرٌ﴾ عطف على ما تقدم، ونفي النصير يدل على الاستغناء، وإنما يستغني القوي القادر على زيادة الإنعام، ومن الذل متعلقان بولي أي: ناصر، وكبره عطف على قل، وهو فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به، وتكبيراً مفعول مطلق للتأكيد.

□ البلاغة:

حفلت خواتم سورة الإسراء بطائفة من فنون البلاغة، نوجزها فيما يلي فأولها:

(١) الذكر أو التصريح:

بقوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ فإنه لو ترك الإظهار وعدل عنه إلى الإضمار كما يقتضي السياق، فقال: وبالحق أنزلناه وبه نزل، لم يكن فيه من الفخمية ما فيه الآن، ويسميه بعضهم بالتصريح، ويورد عليه شاهداً قول البحتري:

قد طلبنا فلم نجد لك في السؤدد والمجد والمكارم مثلاً

والمعنى: قد طلبنا مثلاً فلم نجده، وحذف لأن هذا المدح إنما يتم في المثل، وأما الطلب فكالشئ الذي يذكر ليبنى عليه الغرض المطلوب، وإذا كان ذلك كذلك فقد قال قد طلبنا مثلاً في السؤدد والمجد فلم نجده، ومنه قوله

تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۖ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فلو ترك الإظهار إلى الإضممار فقال: قل هو الله وهو الصمد، لم يكن له الواقع الملائم.

(٢) فن الاستطراد:

الاستطراد: ذكر الخاتمي في «قواعد الشعر»: أنه نقل هذه التسمية عن البحري الشاعر، وسمّاه ابن المعتز: الخروج من معنى إلى معنى، وعرفه غيره بأنه: أن يكون المتكلم في غرض من الأغراض يوهّم أنه مستمر فيه، ثم يخرج منه إلى غيره لمناسبة بينهما، ثم يرجع إلى الأول، ويقطع الكلام، فقد انتقل سبحانه من كلامه عن القرآن، وأن الإنس والجن عاجزون عن الإتيان بمثله في فصاحته وبلاغته، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، انتقل إلى ما في منطوياته من مثل وعبر وبصائر، وانساق الكلام إلى تعنت الكافرين، وتماذيه في اللجاج، وسدورهم في الغي، والمكابرة، وطمس الحقائق، وإنكار الوقائع، ثم أورد شاهداً على ذلك ما لاقاه موسى من مكابرة فرعون وملئه، وضرب مثلاً في المغبة التي نالها فرعون ومن معه، ثم عاد إلى الموضوع الذي شرع فيه، وهو كون القرآن نازلاً بالحق وإليه هادفاً. ومن طريف الاستطراد قول عبد المطلب المشهور:

لنا نفوسٌ لنيل المجدِ عاشقة فإن تسَلَّتْ أسلناها على الأسل
لا ينزل المجدُ إلّا في منازلنا كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

فقد استطرّد من ذكر المجد إلى النوم. وقد استغله الشعراء للهجاء. قال بعضهم يهجو شعر خالد الكاتب:

وشادن بالدلال عاتبني ومنيّتي في تدلّل العاتب
فكان ردّي عليه من خجلي أبرّد من شعر خالد الكاتب

فما أجمل هذا الاستطراد! لقد كان يتغزل بالشادن، وليس ثمة أبرد ممن يعاتب الحلو الجميل، ويرد عليه إذا تدلّل أو عتب، وأن من يتكلف مثل هذا الرد لن يأتي إلا بالبارد من الكلام الذي يشبه شعر خالد الكاتب. وجهيل قول

بعضهم يهجو قاضي القضاة منتقلاً من وصف البستان إلى ما هو بصدده، قال :

لله بستانٌ حَلَلْنَا دَوْحَه في جَنَّةٍ قد فتحتُ أبوابها
والبان تحسُّبه سنانيراً رَأَتْ قاضي القضاة فنفتت أذنانها
وأورد البخارزي في «دمية القصر» للظاهر الحرمي هذه الأبيات يهجو فيها مغنياً اسمه البرقعدي، وهي :

وليلٍ كوجهِ البرَّقَعِدِيِّ ظُلْمَةٌ وبردٍ أغانيه وطُولِ قُرُونِهِ
قَطَعْتُ دِياجِيهِ بِنُومٍ مُشَرَّدٍ كعقلِ سُلَيْمَانَ بْنِ فَهْدٍ وَدِينِهِ
على أَوْلَقٍ فِيهِ التَّفَاتُ كَأَنَّهُ أَبُو جَابِرٍ فِي حَبْطِهِ وَجُنُونِهِ
إلى أن بدا ضوءُ الصَّبَاحِ كَأَنَّهُ سَنَا وَجْهَ قُرَاشٍ وَضُوءَ جَبِينِهِ

(٣) القصر وطرقه :

وفي قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ قصر إضافي، والقصر : هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص، وينقسم إلى حقيقي وإضافي، فالحقيقي : ما كان الاختصاص فيه بحسب الواقع والحقيقة، لا بحسب الإضافة إلى شيء آخر، نحو : لا كاتب في المدينة إلا علي، إذا لم يكن فيها غيره من الكتاب، والإضافي : ما كان الاختصاص فيه بحسب الإضافة إلى شيء معين، نحو : ما علي إلا قائم، أي : أن له صفة القيام لا صفة القعود، وكل منهما ينقسم إلى قصر صفة على موصوف، نحو : لا فارس إلا علي وقصر موصوف على صفة، نحو : وما محمد إلا رسول.

والقصر الإضافي ينقسم باعتبار حال المخاطب إلى ثلاثة أقسام : قصر أفراد إذا اعتقد المخاطب الشركة، وقصر قلب إذا اعتقد العكس، وقصر تعيين إذا اعتقد واحداً غير معين.

وللقصر طرق أربع مشهورة وطرق كثيرة غير مشهورة، أما الأربع المشهورة فهي :

أ - النفسي والاستثناء، وهنا يكون المقصور عليه ما بعد أداة الاستثناء، مثل: لا يفوز إلا المجد، فالفوز مقصور، والمجد مقصور عليه، وهو قصر صفة على موصوف.

ب - «إنما» ويكون المقصور عليه مؤخراً وجوباً، وقد تقدم كلام عبد القاهر على إنما، نحو: إنما الحياة تعب، فالحياة مقصورة، والتعب مقصور عليه، وهو قصر موصوف على صفة.

ج - العطف بلا أو بل أو لكن، فإن كان العطف بلا كان المقصور عليه مقابلاً لما بعدها، نحو: الأرض متحركة لا ثابتة، وإن كان العطف ببل أو لكن كان المقصور عليه ما بعدهما، نحو: ما الأرض ثابتة بل متحركة، وما الأرض ثابتة لكن متحركة.

هـ - تقديم ما حقه التأخير، وهنا يكون المقصور عليه هو المقدم، نحو: على الرجال العاملين نثني.

وهناك طرق أخرى للقصر غير هذه الأربع، منها: ضمير الفصل، نحو: علي هو الشجاع، ومنها: التصريح بلفظ «وحده» الحالية، أو ليس غير، نحو: أكرمت علياً وحده، ولكنها لا تعدّ من طرقه الاصطلاحية.

(٤) التكرير المعنوي:

وقد تقدم بحث التكرير في اللفظ، وهذا التكرير الذي نحن بصدده يتعلق بالمعنى، فقد كرر الخروار للذقن، وهو السقوط على الوجه لاختلاف الحالين، فالأول خروارهم في حال كونهم ساجدين، والثاني خروارهم في حال كونهم باكين، أو الأول في حالة سماع القرآن، أو قراءته، والثاني في سائر الحالات. ثم عقب الحالين بحال ثالثة، وهي زيادتهم خشوعاً كلما قرؤوا وكلموا سجدوا، فاستوفى بذلك سائر أحوالهم، وهم الكلمة الذين أوتوا العلم، ومما لا بد من التنويه أنه أتى بالحال الأولى اسماً، وهي قوله «سجداً» للدلالة على الاستمرار، وأتى بالحال الثانية فعلاً للدلالة على التجدد والحدوث، فكأنما

بكاؤهم يتجدد بتجدد الأحوال الطارئة والعظات المتتالية، وهذا موضع من التكرير مشكل، وتديق معرفته على الأعمار، ومما ورد منه حديث حاطب بن أبي بلتعة في غزوة الفتح، وذلك أن النبي ﷺ أمر علي بن أبي طالب والزبير والمقداد رضي الله عنهم فقال: «أذهبوا إلى روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فائتوني به»، قال علي رضي الله عنه: فخرجنا تتعادي بنا خيلنا، حتى أتينا الروضة، وإذا فيها الظعينة، فأخذنا الكتاب من عقاصها، وأتينا به رسول الله ﷺ، وإذا هو: من حاطب بن بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض شأن رسول الله ﷺ فقال له: «ما هذا يا حاطب؟» فقال: يا رسول الله! لا تعجل عليّ إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون بها أموالهم وأهلهم بمكة فأحييت إذ فاتني ذاك من النسب أن أتخذ عندهم يداً، يحمون قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً، ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد صدقكم». فقلوه: ما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، من التكرير الحسن، يظنه بعض الجهال تكريراً لا فائدة فيه، فإن الكفر والارتداد عن الدين سواء، وكذلك الرضا بالكفر بعد الإسلام، وليس كذلك، والذي يدل عليه اللفظ هو أني لم أفعل ذلك وأنا كافر، أي: باق على الكفر ولا مرتدّاً، أي: أني كفرت بعد إسلامي، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، أي: ولا إثارةً لجانب الكفار على جانب المسلمين، وهذا حسن واقع في مكانه، ولكن هي مقتضيات الأحوال ومتشعبات لا يرود ثنائها إلا الطلعة المتذوق. ومما ورد شعراً من هذا التكرير المعنوي قول المقنع الكندي، ونوردها كاملة لأهميتها:

يُعَاتِبُنِي فِي الدِّينِ قَوْمِي وَإِنَّمَا

دُيُونِي فِي أَشْيَاءِ تَكْسِبُهُمْ حَمْدًا

أَسْدُ بِهِ مَا قَدْ أَخْلَوْا وَضَيَّعُوا

ثَغُورَ حَقُوقٍ مَا أَطَاقُوا لَهَا سَدًّا

وإنَّ الذي بيني وبين بني أبي
 وبين بني عمي لمختلفٌ جدًّا
 فإن أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم
 وإن هَدَمُوا مجدي بنيتُ لهم مَجْدًا
 وإن ضَيَّعُوا غيبي حفظتُ غيوبهم
 وإن هم هَوُوا عني هويتُ لهم رشدًا
 وإن زَجَرُوا طيرًا بنحسٍ تمزُّ بي
 زَجَرْتُ لهم طيرًا تمزُّ بهم سعدًا
 ولا أحملُ الحقدَ القديمَ عليهم
 وليس رئيسُ القومِ من يحملُ الحقدًا
 وليسوا إلى نصري سِراعًا وإن هم
 دعوني إلى نصرٍ أتيتُهم شدًّا
 وإنِّي لعبدُ الضَّيفِ ما دام ثاويًّا
 وما شيمَةٌ لي غيرها تشبهُ العبدًا

فإن كل لحم يؤكل للإنسان هو تضييع لغيبه، وليس كل تضييع لغيبه أكلاً للحمه، ألا ترى أن أكل اللحم هو الاغتيال، وأما تضييع الغيب فمناه الاغتيال، ومنه التخلي عن النصرة والإعانة، ومنه إهمال السعي في كل ما يعود بالنفع كائنًا ما كان، وهو موضع يرد في الكلام البليغ، ويظن الجاهل أنه لا فائدة فيه.

* الفوائد:

(١) الأسماء الحسنی:

«إن لله عز وجل تسعة وتسعين اسمًا مئة إلا واحدًا، إنه وتر يحب الوتر، من أحصاها دخل الجنة، وهي: هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، الباري، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق،

الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، أي: المقتدر، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور».

(٢) الجهر والمخافتة، وبيان السبب في ذلك :

بعد أن وجدت قريش أن دخولها في محاورات مع النبي لن يجديها شيئاً، بعد أن تكررت هزيمتها أمام الحجج الرائعة والمعجز الإلهية التي كان ييدها بها، وبعد أن شعرت أنه لا قبل لها بتحدي القرآن وسلطانة المقدس على النفوس، قرّ رأيها على أن تلجأ إلى ضرب آخر من المقاومة السلبية، وذلك أن تمتنع تماماً عن سماع القرآن، روى ابن إسحاق: جعلوا إذا جهر الرسول بالقرآن، وهو يصلي، يتفرقون عنه ويأبون أن يستمعوا له، وكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله بعض ما يتلو من القرآن، وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقاً منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم، فلم يستمع، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته، فظن الذي يستمع أنهم لا يستمعون شيئاً من قراءته وسمع هو شيئاً دونهم، أصاخ له يستمع منه.

وروى ابن عباس: إنما أنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ الخ من أجل هؤلاء النفر.

وإذا كان سادة قريش قد دعوا أهل مكة إلى الانصراف عن سماع القرآن، فما كانت بهم طاقة على تنفيذ هذا الأمر لما يحسون في أنفسهم من رقة، ومن شغف لسماع هذا التنزيل؛ الذي لا عهد لهم به.

وروى ابن إسحاق أيضاً:

أن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً. ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة. ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال له:

- أخبرني يا أبا حنظلة! عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال:

- يا أبا ثعلبة! والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، فقال له الأخنس:

- وأنا والذي حلفت به كذلك.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، وقال له:

- يا أبا الحكم! ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال:

- ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا

نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدق، فقام عنه الأخنس وتركه.

وهكذا كانت قريش في حيرة من أمرها: ترق قلوبها، وتخشع أفئدتها للقرآن لإدراكها أسرارها، ونفاذها إلى بيانه، وسبرها غوره، بيد أن نزاع العصبية، وشارات الرياسة، وأوضاع الجاهلية، كل ذلك كان يحجبها عن الإسلام. وسيأتي المزيد من هذا البحث الطريف الجليل.

* * *

سُورَةُ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۚ ١ قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۚ ٢ مَتَكِينٍ فِيهِ أَبَدٌ ۚ ٣ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ ٤ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۚ ٥ فَلَعَلَّكَ بَلْعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۚ ٦ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۚ ٨ ﴾

☆ اللغة:

﴿عَوَجًا﴾: جاء في القاموس وغيره من معاجم اللغة: عوج = بكسر الواو - يعوج - بفتحها - عَوَجًا العود ونحوه: انحنى، والإنسان: ساء خلقه، فهو أعوج. والعِوَج - بكسر ففتح - الاسم من عوج، والالتواء، وعدم الاستقامة. ولم تفرق هذه المعاجم بينهما. وفي الأساس: يقال في العود

عَوَجَ، وفي الرأي عَوَجَ. ففرق بينهما، وهذا هو الحق بدليل الآية. فالعوج - بكسر ففتح - في المعاني كالعَوَجَ - بفتحين - في الأعيان، وقال الشهاب في حاشيته على البضاوي: يعني أن المكسور يكون فيما لا يدرك بالبصر بل بالبصيرة، والمفتوح فيما يدرك به. وقال في الكشف: والعوج - بكسر ففتح - في المعاني كالعوج - بفتحين - في الأعيان. وسيأتي المزيد عنه في باب: البلاغة.

﴿ قِيمًا ﴾: مستقيماً معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، أو قيماً بمصالح العباد، فيكون وصفاً للكتاب بالتكميل بعد وصفه بالكمال، أو قيماً على الكتب السابقة، مصداقاً لها، شاهداً بصحتها. وفي القاموس والتاج واللسان: القيم على الأمر: متوليه، كقيم الوقف وغيره، وقيم المرأة: زوجها، وأمر قيم: مستقيم، والديانة القيمة: المستقيمة، وفي التنزيل: ﴿وَذَلِكَ دِينَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: دين الأمة القيمة، ويتعدى بالباء وبعلى.

﴿ بَخَعٌ نَفْسَكْ ﴾: مهلكها وقتلها، يقال: بَخَع الرجل نفسه يبخعها، من باب: نفع، بَخَعاً وبخوعاً: أهلكها وجداً، وسيأتي مزيد بيان لها في باب: البلاغة.

﴿ صَعِيدًا ﴾: تراباً أو فتاتاً يضمحل بالريح، لا اليابس الذي يرسب.

﴿ جُرْزًا ﴾ - بضمين - والجرز: الذي لا نبات فيه، فهو حائل البهجة، باطل الزينة. يقال: سنة جرز وسنون أجزاز، وجرز الجراد الأرض: أكل ما فيها، والجرز: المرأة الأكل، قال الراجز:

إِنَّ الْعَجُوزَ حَيَّةَ جُرُوزَا تَأْكُلُ كُلَّ لَيْلَةٍ قَفِيْزَا

وجرزه: الزمان اجتاحه. قال تَبَّع:

لَا تَسْقِنِي بِيَدِيكَ إِنْ لَمْ أَلْقَهَا جُرْزًا كَأَنَّ أَشَاءَهَا مَجْرُوزُ

وفي أمثال العرب: «لن ترضى شائئة إلا بجرزة» وهو يضرب في العداوة، وأن المبغض لا يرضى إلا باستئصال من يبغضه.

○ الإعراب:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لِمُعْجَزٍ ﴾ الحمد مبتدأ، والله متعلقان بمحذوف تقديره: ثابت لله، فهو الخبر، والذي نعت، وجملة أنزل صلة، وعلى عبده متعلقان بأنزل، والكتاب مفعول به، والواو يجوز أن تكون عاطفة، فالجملة معطوفة على أنزل داخله في حيز الصلة، ويجوز أن تكون اعتراضية، فالجملة معطوفة بين الحال، وهي قيماً وصاحبها، وهو الكتاب، ويجوز أن تكون حالية، فالجملة حال من الكتاب، فتكون قيماً حالاً متداخلة كما سيأتي ﴿ فَيَسَاءَ لِمَن يَنْذِرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ اضطربت أقوال النحاة والمفسرين في إعراب قيماً اضطراباً شديداً، وقد وقع اختيارنا على أن تكون حالاً من الكتاب، وجملة ولم يجعل معترضة، واختار أبو البقاء أن تكون حالاً من الهاء في له، والحال مؤكدة، واختار الزمخشري أن تكون منصوبة بفعل مقدر تقديره: جعله قيماً، ونقل عبارته لأهميتها: فإن قلت: بم انتصب قيماً؟ قلت: الأحسن أن ينتصب بمضمر، ولا يجعل حالاً من الكتاب؛ لأن قوله ولم يجعل معطوف على أنزل، فهو داخل في حيز الصلة، فجاعله حالاً من الكتاب فاصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة، وتقديره: ولم يجعل له عوجاً جعله قيماً؛ لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة. وقد فطن حفص إلى هذا الاضطراب في إعراب قيماً، فوقف على تنوين عوجاً مبدلاً له ألفاً سكتة لطيفة من غير قطع نفس؛ إشعاراً بأن قيماً ليس متصلاً بعوجاً، وإنما هو من صفة الكتاب. وصرح أبو حيان في «البحر» بأن المفرد يبدل من الجملة، كقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لِمُعْجَزٍ ﴾ فقيماً بدل من جملة، ولم يجعل له عوجاً؛ لأنها في معنى المفرد، أي: جعله مستقيماً. وهناك أعراب أخرى ضربنا عنها صفحاً؛ لأنها لا تخرج عن هذا النطاق.

ولينذر: اللام للتعليل، وينذر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بأنزل، وينذر ينصب مفعولين، وحذف أولهما، وتقديره: الكافرين، وبأساً مفعول به ثان، وشديداً صفة، ومن لدنه

صفة ثانية، أو متعلقان بقوله: لينذر ﴿وَيُنذِرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا﴾ ويشر عطف على لينذر، والفاعل مستتر تقديره: هو، والمؤمنين مفعول به، وجملة يعملون الصالحات صلة، وأن وما في حيزها، قيل: هو مصدر مؤول مفعول به ثان ليشر، على رأي من يرى أن يشر تتعدى لمفعولين، وقيل: هو مصدر مؤول منصوب بنزع الخافض، والجار والمجرور متعلقان ببيشر، ولهم خبر أن المقدم، وأجرًا اسمها المؤخر، وما كثرين حال من الهاء في لهم، أي: مقيمين فيه، وفيه متعلقان بما كثرين، وأبدأ ظرف متعلق بما كثرين أيضاً ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وينذر عطف على لينذر الأولى، والذين مفعول ينذر الأول وحذف الثاني، وهو الغرض المنذر به؛ لأنه سبق ذكره، وهو الأساس، فيكون في الكلام احتباك، وجملة قالوا صلة، وجملة اتخذ مقول القول، والله فاعل، وولداً مفعول به ﴿مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ جملة مستأنفة، مسوقة لتقرير جهالتهم، وأنهم يقولون ما لا يعرفون، وما نافية، ولهم خبر مقدم، وبه متعلقان بعلم، ومن حرف جر زائد، وعلم مبتدأ مؤخر، ولا الواو عاطفة، ولا نافية، ولآبائهم عطف على لهم ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ كبرت فعل ماض لإنشاء الذم، والتاء علامة التأنيث، والفاعل ضمير مستتر يعود على مقالتهن المختلفة، وهي قولهم اتخذ الله ولداً، أي: كبرت مقالتهن، وكلمة تمييز، والكلام مبني على أسلوب التعجب، كأنه قيل: ما أكبرها كلمة، وجملة تخرج نعت لكلمة، ومن أفواههم متعلقان بتخرج، ويجوز أن يكون الفاعل ضميراً مفسراً بنكرة، وهي كلمة المنصوبة على التمييز، فيكون الكلام للذم المحض، ويكون المخصوص بالذم محذوفاً تقديره: هي، أي: الكلمة، وكلا الوجهين مستقيم سائغ، وإن نافية، ويقولون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعل، وإلا أداة حصر، وكذباً فيه وجهان: أظهرهما: أنه نعت لمصدر محذوف، أي: إلا

قولاً كذباً، ويجوز أن يكون مفعولاً به؛ لأنه يتضمن جملة، وعليه يتمشى قول
دعبل:

ما أَكْثَرَ النَّاسَ لَا بِلَ مَا أَقْلَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَقْلُ فَنَدَا
إِنِّي لِأَغْمُضُ عَيْنِي ثُمَّ أَفْتَحُهَا عَلَى كَثِيرٍ وَلَكِنْ لَا أَرَى أَحَدًا

﴿فَلَعَلَّكَ بَنَجُّ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ الفاء
استئنافية، ولعل حرف ترجّ ونصب، وهي من أخوات إن، والكاف اسمها،
وباخع خبرها، ونفسك مفعول به، وعلى آثارهم متعلقان بباخع، وسيأتي
مزيد بيان عنه في باب: البلاغة، وإن شرطية، ولم يؤمنوا فعل الشرط، وبهذا
متعلقان بيؤمنوا، والحديث بدل من اسم الإشارة، وأسفاً مفعول لأجله، أو
على أنه مصدر في موقع الحال، وجواب الشرط محذوف دل عليهم الترجي،
والتقدير: فلا تحزن ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى
الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إن واسمها، والجملة تعليل للنهي
المقصود من الترجي، وجملة جعلنا خبر إنا، وما موصول مفعول به أول
لجعلنا، وإن كانت بمعنى التصيير، وعلى الأرض صلة ما، وزينة مفعول به
ثان لجعلنا، وإن كانت بمعنى خلقنا فتكون زينة حالاً، ومن العجيب أن
يعربها بعضهم مفعولاً لأجله، مع أن الزينة ليست من المصادر القلبية مهما
أسرفنا في التأويل، ولها صفة لزينة، ولنبلوهم اللام للتعليل، ونبلوهم
منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بجعلنا،
وأيهم اسم استفهام مبتدأ، والهاء مضاف إليه، وأحسن خبر، وعملاً تمييز،
والجملة في محل نصب سادة مسد مفعولي نبلو لأنه في معنى نعلم، وقد علق عن
العمل بأي الاستفهامية، ويجوز أن تكون أي موصولة بمعنى الذي، وتعرب
بدلاً من الهاء في نبلوهم، والتقدير: لنبلو الذي هو أحسن، وأحسن خبر
لمبتدأ محذوف، أي: هو أحسن، والجملة صلة للموصول، وتكون الضمة في
أي للبناء؛ لأن شرطه موجود، وهو أن تضاف، ويحذف صدر صلتها، أو
تكون ضمته ضمة إعراب على رأي بعض النحاة، والضمير في نبلوهم يعود

على سكان الأرض كما يفهم من سياق الكلام، أو على ما، ولكنه بعيد؛ لأنه يحتاج إلى تأويل ما بأنها خاصة بالعقلاء ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ الواو عاطفة، وإن واسمها، واللام المرحقة، وجاعلون خبرها، وما مفعول به ثان لجاعلون، وعليها صلة، وصعيداً مفعول به ثان لجاعلون، وجرزاً نعت لصعيداً، ويجوز اعتبار الكلمتين بمعنى واحد نحو: الرمان حلو حامض، أي: مز، فهما بمثابة المفعول الثاني، ولعله أولى، وسيأتي تحقيقه في موضعه من هذا الكتاب.

□ البلاغة:

اشتملت هذه الآيات على أفانين متعددة من فنون البلاغة، نذكرها فيما يلي:

(١) التكرير:

١ - التكرير، وقد تقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا﴾ فإن نفي العوج معناه إثبات الاستقامة، وإنما جنح إلى التكرير لفائدة منقطعة النظر، وهي التأكيد والبيان، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة، مجمع على استقامته ومع ذلك؛ فإن الفاحص المدقق قد يجد له أدنى عوج، فلما أثبت له الاستقامة أزال شبهة بقاء ذلك الأدنى الذي يدق على النظرة السطحية الأولى.

(٢) المطابقة:

فقد طابق سبحانه بين العوج والاستقامة، فجاء الكلام حسناً لا مجال فيه لمنتقد، كما حدث لأبي الطيب الذي أهمل المطابقة في قصيدة من أبدع قصائده، وذلك أنه أنشد في مجلس سيف الدولة قوله:

نظرتُ إلى الذين أرى مُلوَكاً كأنَّكَ مستقيمٌ في مُحَالِ
فإنَّ تَفَقُّ الأنَامَ وأنتَ منهم فإنَّ المسكَ بعضُ دَمِ الغَزَالِ

ف قيل له: إن المحال لا يطابق الاستقامة، ولكن القافية ألجأتك إلى ذلك، ولكن لو فرض أنك قلت: كأنك مستقيم في اعوجاج، كيف كنت تصنع في

البيت الثاني؟ فقال ولم يتوقف: فإن البيض بعض دم الدجاج. فاستحسن هذا من بديته.

نقول: إنما يستحسن هذا في سرعة البديهة، وإلا أين قوله: فإن المسك بعض دم الغزال من قوله: فإن البيض بعض دم الدجاج.

ولما كنا نريد أن ننصف النقد نورد ما أخذه أحد خصوم الماسي عليه من أنه كان لا يقيم للمطابقة وزناً، وأن ديدنه عدمها، وذلك رغم إعجابنا الشديد بشاعر الخلود، وتفضيلنا إياه على جميع شعراء العربية في القديم والحديث، قال الناقد القديم: وأما عدم المطابقة في شعر أبي الطيب المتنبي فكثير جداً، من ذلك قوله:

وَلِكُلِّ عَيْنٍ قُرَّةٌ فِي قُرْبِهِ حَتَّى كَأَنَّ مَغِيَّهَ الْأَقْدَاءِ
القرة ضدها السخنة، والأقْدَاء ليست ضدها.

وقوله أيضاً:

وَلَمْ يَعْظُمَ لِنَقْصٍ كَانَ فِيهِ وَلَمْ يَزَلِ الْأَمِيرُ وَلَنْ يَزَالَ
العظم ضد الحقارة، والنقص ضد الكمال، فلو قال: ولم يكمل لنقص كان فيه، لكان أمتع.

وكذلك قوله رغم سموه وإبداعه:

لَمَنْ تَطْلُبِ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تَرُدَّ بِهَا سُرُورَ مَحَبٍّ أَوْ إِسَاءَةَ مُجْرِمٍ
وليس المجرم ضد المحب، ولا السرور ضد الإساءة، وإنما المجرم ضد المحسن، والمحب ضد المبغض، والإساءة ضد الإحسان.

وكذا قوله:

وَأَنَّهُ الْمَشِيرَ عَلَيْكَ فِي بَضَلَةٍ فَالْحُرُّ مُمْتَحَنٌ بِأَوْلَادِ الزَّوْنِ
والحرّ ضد اللّثيم.

(٣) نفى الشيء بإيجابه:

وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴿وقد

تقدم ذكر هذا الفن، وله تسمية أخرى وهي عكس الظاهر، وهو من مستطرفات علم البيان، وذلك أن تذكر كلاماً يدل ظاهره على أنه نفي لصفة موصوف، وهو نفي للموصوف أصلاً، فإن لقائل أن يقول: إن اتخاذ الله ولداً هو في حد ذاته محال، فكيف ساغ قوله: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾؟ وهو يشبه الاعتراض في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ فإن ذلك كله وارد على سبيل التهكم، وإلا فلا سلطان على الشرك حتى ينزل، والولد في حد ذاته محال لا يستقيم تعلق العلم به، ولكنه ورد على سبيل التهكم والاستهزاء بهم، ونظيره كما تقدم قوله ﷺ: «لا تشنى فلتاته» أي: لا تداع سقطاته، وليس ثمة فلتات فتثنى، وقول الشاعر يصف فلاة:

لا تفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضبُّ بها يُنجِحِرُ

فإن ظاهر هذا المعنى أنه كان هناك ضب، ولكنه غير منجمر، وليس ذلك كذلك، بل المعنى أنه لم يكن ثمة ضب أصلاً.

(٤) التشبيه التمثيلي البليغ المصون عن الابتذال:

وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ تَفْسَكَ عَلَىٰ عَاثِرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ فقد شبهه تعالى وإياهم حين تولوا عنه، ولم يؤمنوا به، وأصروا على المكابرة والعناد واللجاج بالسفسطة الباطلة، ثم ما تداخله من جراء ذلك من وجد وأسف على توليهم، وإشفاق عليهم لسوء المغاب التي تؤول إليها أمورهم. شبه ذلك سبحانه برجل فارقه أحبته وأعزته، فهو يتساقط حشرات على آثارهم، ويبخع نفسه وجداً عليهم، وتلهفاً على فراقهم، وأتى بهذه الصورة الفريدة صيانة لتشبيهه من الابتذال؛ فإن التلهف على فراق الأحبة، واستشعار الوجد أمر شائع تناوله الشعراء في أشعارهم، وتحدثوا في قصائدهم عن لواعجهم، وهذا مقياس يقاس به البليغ، يترفع في تشبيهه المؤلف عن العادي من التشبيه بتزاويقه وتحاسينه، ويفيض عليه من روائه، وكان المتنبي - بنوع خاص - يتفطن لذلك، ويصون تشبيهه الذي

لا مندوحة له عنه من الابتذال، وسنورد لك نماذج من شعره، لتعلم إلى أي مدى بلغ هذا الشاعر الخالد.

فقد صور أبو الطيب موقفاً من مواقف الغزل، اضطر فيه إلى تشبيه نفسه بالملت المتكلم، ومحبوبته بالبدر المتسم، وكلا هذين التشبيهين وارد تناوله الشعراء، فابتذل وذهبت جدته، وإذن فليجعل من الحوار وسيلة إلى تصوير موقف رائع، يخلو فيه التشبيه، ويدوم معه جديداً كل الجدة، قال:

نَرَى عِظْماً بِالْبَيْنِ وَالصَّدُّ أَعْظَمُ وَنَتَّهِمُ الْوَاشِينَ وَالذَّمْعُ مِنْهُمْ
وَمَنْ لَبَّاهُ مَعَ غَيْرِهِ كَيْفَ حَالُهُ وَمَنْ سِرُّهُ فِي جَفْنِهِ كَيْفَ يَكْتُمُ
وَلَمَّا التَّقَيْنَا وَالنَّوَى وَرَقِينَا غَفُولَانِ عَنَّا ظَلْتُ أَبْكِي وَتَبْسُمُ
فَلَمْ أَرَبَدْرًا ضَاحِكًا قَبْلَ وَجْهِهَا وَلَمْ تَرَ قَبْلِي مَيِّاً يَتَكَلَّمُ

فهو بعد أن قرر أثر الصدد، وأن مسافته لا تقرب ولا تقطع؛ لأن البين قد يقرب، وقد تقطع مسافته، اعترف بأنه غير قادر على كتمان رسيس هواه؛ لأنه إذا كان عقلك مع غيرك، فكيف يكون حالك؟ وإذا كان شرك في جفئك، فكيف تقدر على كتمانك؟ يريد أن الدمع يظهره، ثم صور الموقف، فجعل من حسناء عابثة ازدهاها الدل، واستخف بها النعيم، فهي عابثة لاهية تبتسم وهو يحرق الأرم، ويتكوى بنار الهجران، على حد قولهم: «ويل للشجي من الخلي» وهذا من أروع الشعر وأعذبه.

ونعود إلى الآية فنقول: إن الله تعالى أراد أن يسلي نبيه، وأن يهدده عنه ما ألم به من جوى وارتماض، فعرض الموقف بصيغة الترجي، وإن كان المراد به النهي، أي: لا تبخع نفسك، ولا تهلكها من أجل غمك على عدم إيمانهم، وأتى بهذا التشبيه التمثيلي البديع. والأسف: المبالغة في الحزن.

※ الفوائد:

(١) نصب المفعول لأجله:

اشترط النحاة لنصب المفعول لأجله خمسة أمور، وهي:

□ كونه مصدراً.

□ كونه قلبياً من أفعال النفس الباطنة كالتعظيم، والاحترام، والإجلال، والتحقير، والخشية، والخوف، والجرأة، والرغبة، والرغبة، والحياء، والوقاحة، والشفقة، والعلم، والجهل، ونحوها. ويقابل أفعال الجوارح، أي: الحواس الظاهرة، وما يتصل به، كالقراءة، والكتابة، والقيام، والنعوذ، والوقوف، والجلوس، والمشي، والنوم، واليقظة، وغيرها؛ وذلك لأن العلة هي الحاملة على إيجاد الفعل، والحامل على الشيء متقدم عليه، وأفعال الجوارح ليست كذلك.

□ كونه علة؛ لأنه الباعث على الفعل.

□ اتحاده مع الفعل المعلن به في الزمان، فلا يجوز: تأهبت اليوم السفر غداً؛ لأن زمن التأهب غير زمن السفر.

□ اتحاده مع الفعل المعلن به في الفاعل، فلا يجوز: جئتك محبتك إياي؛ لأن فاعل المجيء المتكلم، وفاعل المحبة المخاطب.

ومتى فقد شرطاً من هذه الشروط وجب جره بحرف تعليل كاللام، ومن، والباء، وفي. وفيما يلي أمثلة لكل شرط مفقود:

* ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ فالأنام علة للوضع ولكنه ليس مصدراً فلذلك جر باللام.

* ﴿وَلَا تَقْنُتُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ فإملاق هو علة القتل، ولكنه ليس مصدراً قلبياً، فلذلك جر بمن.

* قتلته صبراً، فصبراً مصدراً، ولكنه ليس علة، فامتنع نصبه مفعولاً لأجله، وامتنع جره باللام؛ لأن اللام تفيد العلية.

* قول امرئ القيس:

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَّتْ لِنَوْمٍ ثِيَابَهَا لَدَى السِّتْرِ إِلَّا لِبَسَةِ الْمُتَفَضِّلِ

فالنوم وإن كان علة لخلع الثياب، لكن وقت الخلع سابق على وقت النوم، فلذلك جر باللام، هذا والنوم ليس مصدرًا قليلاً أيضاً، ففي الاستشهاد به على عدم اتحاد الزمن فقط تسامح.

* قول أبي صخر الهذلي:

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لَذَكَرَاكِ هَزَّةٌ كَمَا انْتَفَضَ الْعَصْفُورُ بَلَلَهُ الْقَطْرُ

فالذكرى علة عن الهزة، ففاعل العرو الهزة، وفاعل الذكرى هو المتكلم، فلذلك جر باللام. ونعود إلى الآية فقوله: ﴿زِينَةً لِّهَا﴾ علة لنجعل، ولكنه ليس قليلاً؛ لأنها من أعمال اليد، فلذلك استغربنا إعراب بعضهم لها مفعولاً لأجله إلا بتقدير فعل الإرادة، أي: إرادة الزينة، ولكن هذا التكلف لا يجوز، وفيه مندوحة بإعرابها مفعولاً ثانياً لجعلنا، كما تقدم، أو حالاً.

* إبدال المفرد من الجملة:

قلنا في الإعراب أن أبا حيان اختار إعراب ﴿قِيَمًا﴾ بدلاً من جملة ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لِّمُرْءٍ عَوَجًا﴾؛ لأنها في معنى المفرد. وأقول: إن النحاة صرحوا بإبدال الجملة من المفرد بدل كل، كقول الفرزدق:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو بِالْمَدِينَةِ حَاجَةً وَبِالشَّامِ أُخْرَى كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ

أبدل جملة «كيف يلتقيان» من «حاجة»، وأخرى، وهما مفردان، وإنما صح ذلك لرجوع الضمير إلى مفرد فهل يجوز العكس؟ ومعنى البيت: إلى الله أشكو هاتين الحالين تعذر التقائهما، فتعذر مصدر مضاف إلى فاعله، وهو بدل من هاتين. قال الدماميني: ويحتمل أن يكون كيف يلتقيان جملة مستأنفة، نبه بها على سبب الشكوى، وهو استبعاد اجتماع هاتين الحاجتين، والشام بلاد سميت بشام بن نوح، فإنه بالشين المعجمة بالسريانية، أو لأن أرضها شامات بيض وحمرة وسود، وعلى هذا لا يهمز، وقد يذكر، كذا في القاموس.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ إِذْ
 أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا
 رَشَدًا ﴿ ثُمَّ بَدَأْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ
 لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَالِهِمْ أَهْدَى أَمْدًا ﴾

☆ اللغة:

﴿ الْكَهْفِ ﴾ الغار في الجبل، قيل: مطلق الغار، وقيل: هو ما اتسع في
 الجبل، فإن لم يتسع فهو غار، والجمع كهوف. وفي القاموس: الكهف هو
 كالبيت المنقور في الجبل، فإذا صغر فهو الغار؛ الملجأ، والجمع كهوف. وفي
 الأساس: لجؤوا إلى كهف وإلى كهوف، وهي الغيران. وتكهف الجبل:
 صارت فيه كهوف، ومن المجاز: فلان كهف قومه: ملجؤهم، وتقول:
 أولئك معاقلهم وكهوفهم.

﴿ وَالرَّقِيمِ ﴾ في القاموس: الرقيم: الكتاب، المرقوم، ورقم يرقم - من
 باب: نصر - الكتاب: بينه، وأعجمه بوضع النقط والحركات وغير ذلك،
 ورقم الثوب: خططه، والبعر: كواه، والخبز: نقشه، ويقولون: فلان يرقم
 على الماء لمن يكون ذا حذق في الأمور: قيل: هو لوح كتب فيه أسماء أهل
 الكهف وقصتهم، ثم وضعوه على باب الكهف، وكان اللوح من رصاص،
 وقيل: من حجارة. وعن ابن عباس: أن الرقيم اسم الوادي الذي فيه
 أصحاب الكهف، وقيل: اسم للقرية التي خرجوا منها، وقيل: اسم للجبل
 الذي فيه أصحاب الكهف، وقيل: هو اسم كلبهم، قال أمية بن
 أبي الصلت:

وليس بها إلا الرقيم مجاوراً وصيدهم والقوم في الكهف همذ

والوصيد: فناء البيت، وبابه، وعتبته، والبيت يحتملها، والهمد جمع

هامد، أي: راقد. يقول: ليس في تلك الصحراء إلا الكلب حالة كونه مجاوراً لفناء غارهم، وإلا القوم حال كونهم رقاداً في الكهف.

وقال الزجاج: إن الفتية لما هربوا من أهلهم خوفاً على دينهم، ففقدوهم، فخبروا الملك خبرهم، فأمر بلوح من رصاص، فكتبت فيه أسماءهم، وألقاه في خزانته، وقال: إنه سيكون له شأن، فذلك اللوح هو الرقيم.

وقال في «أماليه»: اعلم أن في الرقيم خمسة أقوال: أحدها: هذا الذي روي عن ابن عباس - رحمه الله - : أنه لوح كتب فيه أسماءهم، والآخر: أن الرقيم هو الدواة، يروى ذلك عن مجاهد، وقال: هو بلغة الروم، وحكى ذلك ابن دريد قال: ولا أدري ما صحته. والثالث: أن الرقيم القرية، وهو يروى عن كعب. والرابع: أن الرقيم الوادي. والخامس: ما روي عن الضحاك وقتادة أنهما قالا: الرقيم: الكتاب، وإلى هذا يذهب أهل اللغة ويقولون: هو فعيل بمعنى مفعول، يقال: رقمت الكتاب، أي: كتبت، فهو مرقوم ورقيم، كما قال عز وجل: ﴿ كَتَبَ تَرْقُومٌ ﴾.

○ الإعراب:

﴿ أَمَّ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ أم منقطعة، وقد تقدم ذكرها، والغالب أن تفسر بيل والهمزة، وتفسر بيل وحدها، وبالهمزة وحدها، أي: أظننت أن قصة أهل الكهف عجب في بابها، أو لا تظن أنها أعجب الآيات، بل من الآيات ما هو أعجب منها. وحسبت فعل وفاعل، وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي حسبت، وأن واسمها، والرقيم عطف على الكهف، وجملة كانوا خبر أن، ومن آياتنا حال، وعجباً خبر كانوا، والاستفهام هنا للإنكار والنفي، وليس المراد نفي العجب عن قصة أهل الكهف، فهي عجب كما ذكرنا، ولكن القصد نفي كونها أعجب الآيات، ثم شرع في سرد قصتهم، فقال: ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ الظرف الماضي يتعلق بذكر محذوفاً، وجملة أوى في محل جر بإضافة الظرف إليها، والفتية فاعل أوى، وإلى الكهف متعلقان بأوى، خائفين على أنفسهم

من الكفار؛ لأنهم كانوا مؤمنين، وقصتهم مستفيضة في جميع المطولات، وقد صنف الكاتب القصصي المعاصر توفيق الحكيم مسرحية «أهل الكهف» فارجع إليها لأنها من أمتع القصص.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ فقالوا عطف على أوى، وربنا منادى، وآتانا فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة، والفاعل مستتر تقديره: أنت، ونا مفعول به، ومن لَدُنْكَ حال لأنه كان صفة لرحمة، وتقدم عليها، ورحمة مفعول به، وهيء عطف على آتانا، ولنا متعلقان بهيء، ومن أمرنا حال، ورشداً مفعول به ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ الفاء عاطفة، وضربنا فعل وفاعل، وعلى آذانهم متعلقان بضربنا، ومفعول ضربنا محذوف تقديره: حجاباً مانعاً لهم من السماع، وفي الكهف حال، وسنين ظرف لضربنا، وعدداً نعت لسنين، أو مفعول مطلق لفعل محذوف، فهو إما مصدر فيجوز فيه الوجهان، وإما فعل بمعنى مفعول، فلا يجوز فيه إلا النعت ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ ثم حرف عطف للتراخي، وبعثناهم فعل وفاعل ومفعول به، ولنعلم يجوز أن تكون اللام للتعليل، أو للعاقبة، وعلى كل حال نعلم مضارع منصوب بأن مضمرة بعدها، وسيأتي في باب: البلاغة معنى العلم بإحصائهم، والله عالم بذلك، وأي اسم استفهام مبتدأ، وفاعله يعود على أي الحزبين، ولما لبثوا اللام حرف جر، وما مصدرية، ولبثوا فعل وفاعل، وما وما بعدها مصدر مؤول مجرور باللام، والجار والمجرور متعلقان بأحصى، وأمداً مفعول به، واختلف النحاة هل يجوز أن يكون أحصى اسم تفضيل أم لا، أما القائلون بالجواز فأعربوا أحصى خبر أي، وأمداً تمييز، أو مفعول لفعل محذوف، أي: أحصى أمداً، وسيأتي مناقشة هذه الآراء في باب: الفوائد.

□ البلاغة:

في هذه الآيات أفانين من البلاغة تذهل العقول، وتكشف النقاب عن بيان

القرآن البديع، وهذا هو التفصيل:

(١) الاستعارة التصريحية:

في قوله تعالى: ﴿فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ فقد استعار الحجاب المانع على آذانهم للزوم النوم، وخص الآذان؛ لأنه بالضرب عليها يحصل عليها، فالصور البيانية لا تتجسد إلا باعتمادها على أسس جمالية ونفسية قريبة من البحوث الحديثة، وقد ذكر الجماليون الإحساسات التي يصح نعتها بالجمال على أتم وجه هي الإحساسات البصرية، حتى لقد عرف ديكارت الجمال بقوله: هو ما يروق في العين، فالعين حاسة النور، وحاجة الإنسان إلى النور راجع إلى حاجته إلى الحياة إذ تتعلق به العناصر التي تمد الجسم بالحياة، والنشاط، والحركة، والمتعة، والسرور. وسيأتي ما اعتمده القرآن من الصور البصرية، ولا يقف الأمر عند حاسة البصر، بل حاسة السمع هي التي أوجدت أرفع الفنون: الشعر، والموسيقى، والبلاغة. قال الرماني في كتابه: «النكت في إعجاز القرآن»: وإحساس السمع في قوله تعالى: ﴿فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ وحقيقته: منعناهم الإحساس بآذانهم من غير صمم. فكان الاستعارة قصدت إلى هذا التصوير السمعي، وإبراز فقدان حاسة السمع دون سائر الحواس، ودون الدلالة على الصمم النهائي، وستأتي تتمه هذه الصورة المهولة صورة الضرب على الآذان في قوله تعالى في سورة يس: ﴿يَوَلِّينَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدًا﴾.

(٢) التعليق:

وذلك في قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ ليس المراد أن يعلم الله شيئاً هو داخل في نطاق علمه، ولكنه أراد ما تعلق العلم به من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيماناً واعتباراً، وليكون ذلك من الألفاظ الخفية على المؤمنين في زمانهم، أو ليحدث تعلق علمنا تعلقاً حالياً، أي: نعلم أن الأمر واقع في الحال بعد أن علمنا قبل أنه سيقع في مستقبل الزمان، أما المراد

بالخزيين اللذين اختلفا، فقال الفراء: إن طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم، وقيل: المراد بالخزيين نفس أصحاب الكهف؛ لأنهم اختلفوا فيما بينهم في المدة التي لبثوها نائمين، وروي عن ابن عباس: أن المراد بالخزيين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكاً بعد ملك، وأصحاب الكهف، إلى غير ذلك من أقوال لا يتسع المجال لإيرادها.

* الفوائد:

(١) رجحنا أن تكون «أحصى» في قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لِسُوءِ أَمَدٍ﴾ فعلاً ماضياً؛ لأن بناء اسم التفضيل من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس، أما نحو أعدى من الجرب، وأفلس من ابن المذاق، فشاذ، والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع، فكيف به؟! كما أن إعراب أمدًا لا يصح إلا بكون «أحصى» فعلاً ماضياً، وإذا جعلناه اسم تفضيل احتجنا إلى تقدير فعل؛ لأن اسم التفضيل لا يعمل، على أن بعض النحاة جعل بناء اسم التفضيل من المزيد في الهمزة قياساً، فتقول في أكرم فعلاً: فلان أكرم من فلان على رأيهم، وزعم هؤلاء النحاة أن سيبويه قال به، وعلله بأن بناءه منه لا يغير نظم الكلمة، وإنما هو تعويض همزة بهمزة، هذا؛ وقد اختار كون أحصى للتفضيل الزجاج والتبريزي، واختار أبو علي الفارسي والزمخشري كونه فعلاً ماضياً، وعليه درجنا.

(٢) ما يقوله المبرد عن أي:

قال المبرد في حديثه عن أي: ألا ترى أن معناها إذا أم ذا؟ وقال عز وجل: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لِسُوءِ أَمَدٍ﴾ لأن معناها أهذا أم هذا؟ وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ على ما فسر لك، وتقول: أعلم أيهم ضرب زيداً، وأعلم أيهم ضرب زيد، تنصب أيّاً بضرب؛ لأن زيداً فاعل، فإنما هذا لما بعده، وكذلك ما أضيف إلى اسم من هذه الأسماء المستفهم بها، نحو: قد علمت غلاماً أيهم في الدار، وقد عرفت غلاماً من في الدار، وقد علمت غلام من ضربت، فتنصبه بضربت، فعلى هذا مجرى الباب. وخلاصة ما أراد المبرد

أن يقوله في هذه اللمحة المفيدة: أن أدوات الاستفهام إذا كانت أسماء امتنعت مما قبلها.

وقال ابن هشام في «المغني» أنه وهم، أي: كونه اسم تفضيل؛ لأن شرط التمييز المنصوب بعد أفعل أن يكون كونه فاعلاً في المعنى، كزيد أكثر مالاً، بخلاف: مال زيد أكثر مال، ففي المثال الأول فاعل الكثرة في المعنى المال لا زيد، وقال في الخلاصة:

والفاعل المعنى انصب بـأفعلا مفضلاً كانت أعلى منزلاً

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۝ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝ ۱٥ ﴾

○ الإعراب:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ نحن مبتدأ، وجملة نقص خبر، وعليك متعلقان بنقص، ونبأهم مفعول به، وبالحق حال من فاعل نقص، أو من مفعوله، وهو النبأ، فالباء للملابسة ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ الجملة مستأنفة، مسوقة لسرد قصتهم، وإن واسمها وخبرها، وجملة آمنوا بربهم خبر، وزدناهم فعل وفاعل ومفعول به أول، وهدى مفعول به ثان، أو تمييز ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وربطنا عطف على زدناهم، وعلى قلوبهم متعلقان وربطنا، وإذ ظرف ماض متعلق وربطنا، وجملة قاموا مضاف إليها الظرف فقالوا عطف على قاموا، وربنا مبتدأ، ورب السموات والأرض خبره ﴿ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ لن حرف نفي ونصب واستقبال، وندعو منصوب بـلن، ومن دونه

حال لأنه كان صفة لإلهاء، وتقدم عليه، ولقد : اللام جواب للقسم المحذوف، وقد حرف تحقيق، وقلنا فعل وفاعل، وإذا حرف جواب وجزاء مهمل، وشططاً مفعول مطلق، أي: قولاً ذا شطط، فهو نعت للمصدر المحذوف بتقدير المضاف، ويجوز أن يكون مفعولاً به؛ لأن الشطط فيه معنى الجملة، وقال سيبويه ما نصه بالحرف: «نصبه على الحال من ضمير مصدر قلنا» والشطط: هو الإفراط في الظلم والإبعاد فيه من شط إذا بعد، فقول سيبويه له وجه كبير من الصحة، قالوا ذلك وهم قيام بين يدي الملك الجبار دقيانوس ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ هؤلاء مبتدأ، وقومنا بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان، وجملة اتخذوا خبر، ومن دونه حال، وآلهة مفعول به، ومعنى الخبر هنا الإنكار، ويجوز أن تعرب هؤلاء مبتدأ، وقومنا هو الخبر، وجملة اتخذوا في موضع نصب على الحال ﴿لَوْلَا يَأْتُونَكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لولا حرف تفضيض، ويأتون فعل مضارع وفاعل، والجملة مستأنفة، وعليهم، أي: على عبادتهم، متعلقان بمحذوف حال، ويسلطان متعلقان بيأتون، وبين صفة، فمن أظلم: الفاء استئنافية، ومن اسم استفهام معناه النفي والإنكار مبتدأ، وأظلم خبره، ومن متعلقان بأظلم، وجملة افترى صلة، وعلى الله متعلقان بافترى، وكذباً مفعول به.

□ البلاغة:

في قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ استعارة تصريحية تبعية تشبه: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ﴾ لأن الربط هو الشد بالحلل، والمراد قلوبهم بالصبر على هجر الأوطان والفرار بالدين إلى الكهوف والغيران، وافتراش صعيدها، وجسرناهم على قول الحق، والجهربه أمام دقيانوس الجبار.

﴿وَإِذْ أَعَزَّلْنَاهُمْ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ

مَنْ رَحِمْتَهُ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرِّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً أَنْ يَكَادُ وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾ ۞

☆ اللفظة:

﴿مَرْفَقًا﴾: بكسر الميم وفتح الفاء وبالعكس، وقد قرىء بهما: ما ترتفقون به من غداء وعشاء، أي: تنتفعون. قال في أساس البلاغة: وارتفعت به: انتفعت، ومالي فيه مرفق وما فيها مرفق من مرافق الدار، نحو: المتوضأ والمطبخ. وقبل بالكسر في الميم هو الليد، وبالفتح للأمر، وقد يستعلم كل منهما موضع الآخر، حكاه الأزهري عن ثعلب. وقال بعضهم: هما لغتان فيما يرتفق به، فأما الجارحة فكسر الميم فقط. وفي القاموس والتاج وغيرهما: المرفق - بكسر الميم وفتح الفاء - والمرفق - بفتح الميم وكسر الفاء -: الموصل بين الساعد والعضد، وما ارتفعت به، فهما لغتان.

﴿تَزَاوَرُ﴾: أي: تمايل، أصله: تتزاور، فخفف بإدغام التاء في الزاي أو حذفها، وقد قرىء بهما، وقرىء تزور وتزوار، وكلها من الزور، وهو الميل، ومنه زاره: إذا مال إليه، والزور: الميل عن الصدق.

﴿تَقَرِّضُهُمْ﴾: تقطعهم، وتتجاوز عنهم فلا تصيبهم البتة، مأخوذ من معنى القطيعة والصرم، قال ذو الرمة:

إلى طُعْنٍ يقرِضُنَ أجوازَ مُشْرِفٍ شمالاً وعن أيماهنَّ الفوارِسُ

وقبله:

نَظَرْتُ بِجَرَعَاءِ السَّيِّئَةِ نَظْرَةً

ضُحَىٰ وَسَوَادُ الْعَيْنِ فِي الْمَاءِ شَامِسٌ

وجرعاء السبية، اسم موضع، وسواد العين... الخ جملة حالية، أي: الدمع كثير الحركة والاضطراب، من شمس الفرس إذا جمع وساء خلقه، والظعن: جمع ظعينة، وهي المرأة في الهودج، ويقرضن، أي: يقطعن، وأجواز جمع جوز، وهو: المجاز والطريق، أي: يفصلنه عنهن، والفوارس اسم موضع، لا جمع فارس.

وقال الفارسي: ومعنى تقرضهم: تعطيهم من ضوءها شيئاً كالقرض، ثم يسترد بعد حين، وهي تزول بسرعة أيضاً.

: متسع من الفجاء، وهو تباعد ما بين الفخذين، يقال رجل أفجى، وأمرأة فجواء، والجمع فجاء، كقصعة وقصاع، وفي القاموس: الفجوة: الفرجة بين الشيئين، وساحة الدار، وما اتسع من الأرض، والجمع فجوات وفجاء.

﴿الوصيد﴾ تقدم شرحه، ونضيف إليه ما قاله صاحب القاموس: الوصيد: العتبة، فناء الدار، الكهف، وقال غيره: والباب أيضاً، وأنشد: بأرضٍ فضاءٍ لا يسدُّ وصيدها عليَّ ومَعْرُوفِي بها غَيْرُ مُنْكَرٍ

والبيت لزهير، يقول: نزلت في أرض خالية من البناء ليس فيها بناء له وصيد، أي: باب يسد علي، ويحجب عني الضيفان، كأهل الحضر، فنفي السد كناية عن نفي الوصيد من أصله، فهو من باب: نفي الشيء بإيجابه، وإحساني بها معروف، لا ينكره أحد من الناس.

○ الإعراب:

﴿وَإِذْ أَعَزَّلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ خطاب من بعضهم لبعض حين صمموا على الفرار بدينهم، فإذا منصوب بمضمر تقديره: قال بعضهم لبعض، وجملة اعزلتموهم في محل جر بإضافة الظرف إليها، وهي فعل وفاعل

ومفعول به، وما يعبدون: الواو حرف عطف، وما معطوف على الهاء، أي: اعترلتموهم واعتزلتم معبوديهم، فما موصولية، أو مصدرية، فيقدر: وعبادتهم، وإلا أداة استثناء، والله مستثنى متصل على تقدير كونهم مشركين، ومنقطع على تقدير تمحضهم في عبادة الأوثان، وقيل: الواو اعتراضية، وما نافية، والجملة معترضة، وهي إخبار من الله عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير الله، ولا مانع من ذلك. قال الفراء: هو جواب إذ، كما تقول: إذ فعلت فافعل كذا، وهو قول ضعيف؛ لأنه يعني أن إذ تفيد الشرطية، والمعروف أنها لا تفيد إلا مقترنة مع ما ﴿ فَأَوْأَى إِلَى الْكَهْفِ ﴾ الفاء هي الفصيحة، أي: إن شئتم النجاة بدينكم فأووا، وأووا فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، وإلى الكهف متعلقان به ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴾ ينشر فعل مضارع مجزوم لوقوعه جواباً للطلب، ولكم متعلقان بيشر، وربكم فاعل ينشر، ومن رحمته صفة لمفعول ينشر المحذوف، أي: ينشر لكم نجاحاً من رحمته، ويهيئ عطف على ينشر، ولكم متعلقان يهيئ، ومن أمركم حال لأنه كان صفة لمرفقاً، ومرفقاً مفعول به ﴿ وَتَرَى السَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ في الكلام إيجاز بحذف عدة جمل، وتقدير الكلام: فأووا إلى الكهف كما قرروا بينهم، وشعروا بالتعب فناموا، واسترسلوا في النوم، وأجاب الله دعاءهم إذ قالوا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ فالواو استئنافية، وترى فعل مضارع، وفاعله أنت، والشمس مفعول به، وإذا ظرف مستقبل متعلق بتزاور، وهو الجواب، وتزاور فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: هي، والجملة لا محل لها، وعن كهفهم متعلقان بتزاور، وذات اليمين ظرف متعلق بتزاور ﴿ وَإِذَا غَرَبَتِ تَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ ذَاتُ الشِّمَالِ ﴾ عطف على الجملة السابقة، وهي مماثلة لها في إعرابها ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ الواو للحال، وهم مبتدأ، وفي فجوة خبر، ومنه صفة لفجوة، وذلك مبتدأ، ومن آيات الله خبر ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ من شرطية في محل نصب مفعول مقدم، ويهد فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، والفاء

رابطة للجواب؛ لأنه جملة اسمية، وهو مبتدأ، والمهتدي خبره، وحذفت الياء بخط المصحف، ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً عطف على ما تقدم، والجملة مماثلة لسابقتها ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ الواو استئنافية، وتحسبهم فعل مضارع، وفاعل مستتر ومفعول به أول، وأيقاظاً مفعول به ثان، وهم الواو حالية، وهم مبتدأ، ورقود خبر، والجملة في محل نصب حال ﴿وَنَقَلْبُهُمْ دَآئِئَ الْيَمِينِ وَذَآئِ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ ونقلبهم الواو عاطفة، ونقلبهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به، وذات اليمين ظرف متعلق بنقلبهم، وذات الشمال عطف على ذات اليمين، وكلبهم: الواو للحال، وكلبهم مبتدأ، وباسط خبر، وذراعيه مفعول به، وبالوصيد متعلقان بباسط ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ لو شرطية، واطلعت فعل وفاعل، وعليهم متعلقان باطلعت، ولوليت اللام واقعة في جواب لو، ولوليت فعل وفاعل، ومنهم متعلقان بفاراراً، وفراراً مفعول مطلق من معنى الفعل قبله؛ لأنه مرادفه، ويجوز أن يعرب مصدر في موضع الحال، أي: فاراراً، وملئت عطف على لوليت، ومنهم متعلقان برعباً، ورعباً تمييز، ورجح أبو حيان أن يكون مفعولاً ثانياً ملئت.

□ البلاغة:

في قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ تشبيه وطباق، أما الطباق فهو ظاهر بين أيقاظ ورقود، وأما التشبيه فهو قسم من أقسام التشبيه جاءت فيه الأداة فعلاً من أفعال الشك واليقين، تقول: حسبت زيداً في جرأته الأسد، وعمراً في جوده الغمام، فحاصل ذلك تشبيه زيد بالأسد وعمرو بالغمام، وفي الآية حاصله تشبيه أهل الكهف في حال نومهم بالأيقاظ في بعض صفاتهم؛ لأنه قيل إنهم كانوا مفتحي العيون في حال نومهم.

* الفوائد:

استدل الكسائي بقوله: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ على أن اسم

الفاعل يعمل عمل الفعل، ولو كان بمعنى الماضي، ومنع البصريون ذلك، وقالوا: لا حجة للكسائي ومن تبعه في أن اسم الفاعل هنا بمعنى الماضي، وعمل في ذراعيه النصب، وأنه على إرادة حكاية الحال الماضية، أي: إنه يقدر الهيئة الواقعة في الزمن الماضي واقعة في حال التكلم، والمعنى يبسط ذراعيه، فيصح وقوع المضارع موقعه، بدليل أن الواو في «وكلبهم» واو الحال؛ ولذا قال سبحانه: «ونقلبهم» بالمضارع الدال على الحال، ولم يقل: وقلبناهم بالماضي.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَيْبُكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا﴾

☆ اللغة:

﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ الورق - بفتح الواو وكسر الراء -: الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة، ومنه الحديث: «أن عرفة أصيب أنفه يوم الكلاب، فاتخذ أنفًا من ورق، فأتتن، فأمره رسول الله ﷺ أن يتخذ أنفًا من ذهب» والكلاب - بضم -: اسم ماء كانت عنده الوقعة، كما في الصحاح قال:

أعطيتني ورقاً لم تعطني ورقاً قل لي بلا ورق ما ينفع الورق؟

﴿أَزْكَى﴾ أطيب، وفي القاموس: زكا يزكو زكاء وزكوا الزرع: نما، والأرض: طابت، والزكي: ما كان نامياً طيباً صالحاً.

○ الإعراب:

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ الكاف نعت لمصدر محذوف،

أي: كما أنمناهم هذه النومة الطويلة كذلك بعثناهم، وبعثناهم فعل وفاعل ومفعول به، وليتساءلوا: اللام للتعليل، ويتساءلوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والظرف متعلق بمحذوف حال ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قال قائل فعل وفاعل، وكم اسم استفهام في محل نصب على الظرفية، والمميز المنصوب محذوف تقديره: كم يوماً، بدليل الجواب عليه، ومنهم صفة لقائل، قالوا فعل وفاعل، وجملة لبثنا مقول القول، ويوماً ظرف متعلق بلبثنا، أو حرف عطف، بعض يوم عطف على يوماً، وأو هنا للشك منهم ﴿قَالُوا رَبُّكُمُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ قالوا فعل وفاعل، وربكم مبتدأ، وأعلم خبره، بما جار ومجرور متعلقان بأعلم، ولبثتم صلة ما، وما أجل تفويضهم أمر العلم بمدة اللبث إلى الله، وما ينطوي عليه هذا التفويض من حسن الأدب، فقد استرابوا في أمرهم بعد أن راعوا إلى أنفسهم، ونظروا إلى طول شعورهم وأظفارهم ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ الفاء عاطفة على محذوف، أي: فدعوا التساؤل، وخذوا فيما هو أهم وأجدى لنا في موقفنا هذا، فابعثوا، وأحدكم مفعول به، وبورقكم متعلقان بابعثوا، أو بمحذوف حال من أحدكم، والباء للملابسة، أي: متلبساً بها، ومصاحباً لها، وهذه نعت لورقكم، وإلى المدينة متعلقان بابعثوا، فلينظر: الفاء عاطفة، واللام لام الأمر، وينظر مضارع مجزوم بلام الأمر، وأيها يجوز أن تكون استفهامية، ويجوز أن تكون موصولة، وقد تقدم ذلك في قوله: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فجدد به عهداً، وهي مبتدأ خبره أزكى، وطعاماً تمييز محول عن المضاف إليه، أي: أي أطعمة المدينة أزكى، وأحلّ، وأرخص، وأطيب ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ الفاء عاطفة، واللام لام الأمر، ويأت مجزوم بلام الأمر والفاعل مستتر تقديره: هو، والكاف مفعول به، وبرزق متعلقان بياأتكم، منه صفة لرزق، وليتلطف عطف على فلْيَأْتِكُمْ، ولا: الواو عاطفة، ولا ناهية، ويشعرن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وهو في محل جزم بلا الناهية، والفاعل مستتر تقديره: هو،

وبكم متعلقان بيشعرن، واحداً مفعول به ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ إن واسمها، وإن شرطية، ويظهروا فعل الشرط، والواو فاعل، وعليكم متعلقان بيظهروا، ويرجموكم جواب الشرط، أو يعيدوكم عطف على يرجموكم، وفي ملتهم متعلقان بيعيدوكم، أي: يردوكم إلى ملتهم التي كنتم عليها قبل أن يهديكم الله، أو المراد بالعود هنا الصيرورة على تقدير: أنهم لم يكونوا على ملتهم، وإيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» للدلالة على الاستقرار. ﴿وَلَنْ تَفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ الواو عاطفة، ولن حرف نفي ونصب واستقبال، وتفلقوا فعل مضارع منصوب بلن، والواو فاعل، وإذا حرف جواب وجزاء مهمل، وأبدًا ظرف متعلق بتفلقوا.

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ۖ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامُنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَاءَ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۚ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتُ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۖ وَلِئُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۖ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيُؤْخَبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۖ﴾

☆ اللغة:

﴿أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾: أطلعنا عليهم قومهم والمؤمنين، وفي الأساس: وعثر على كذا: اطلع عليه، وأعثره على كذا: أطلعه، وأعثره على أصحابه: دله

عليهم، ويقال: للمتورط: «وقع في عاثور»، وفلان يبغي صاحبه العواثر، وأصله: حفرة تحفر للأسد وغيره يعثر بها، فيطيح فيها.

﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ رمياً بالخبر الخفي، وإتياناً به، وفي المصباح: الرجم - بفتحتين -: الحجارة، ورجمته رجماً، من باب: قتل، ضربته بالرجم، وهي: الحجارة الصغيرة، ورجمته بالقول: رميته بالفحش، قال تعالى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي: ظناً من غير دليل ولا برهان، كقول زهير بن أبي سلمى يصف الحرب:

وما الحربُ إلا ما علمتم ودقُّتم وما هو عنها بالحديث المُرَّجَم

أي: المظنون. وسيرد في باب: البلاغة مزيد من البحث حول هذا التعبير.

﴿تُمَارٍ﴾: تجادل، وفي القاموس: ماري مرأى ومماراة: جادل، ونازع، ولاج، وتماريا: تجادلا، وامترى في الشيء: شك، والمرية بكسر الميم والمرية بضمها: الجدل. يقال: ما في ذلك مرية، أي: جدل وشك.

○ الإعراب:

﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ الكاف نعت لمصدر محذوف، أي: وكما أنمناهم وبعثناهم أطلعنا عليهم قومهم والمؤمنين، وأعثرنا فعل وفاعل، والمفعول به محذوف كما قدرناه في باب: اللغة، وعليهم متعلقان بأعثرنا، وليعلموا: اللام للتعليل، ويعلموا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي ليعلموا، وأن واسمها، وحق خبرها، وأن الساعة عطف، وأن واسمها، ولا نافية للجنس، وريب اسمها، وفيها خبرها، وجملة لا واسمها وخبرها في محل رفع خبر أن، والمراد بوعد الله: البعث؛ لأن من قدر على إنامتهم هذه النومة الطويلة، وبعثهم بعدها قادر على أن يحييهم بعد الموت ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ الظرف متعلق بأعثرنا، أي: أعثرنا

عليهم قومهم حين يتنازعون، ويختلفون في حقيقة البعث، فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد، وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح، وجملة يتنازعون في محل جر بإضافة الظرف إليها، وبينهم ظرف مكان متعلق بـيتنازعون، وأمرهم نصب بنزع الخافض، أي: في أمرهم، وقيل: تنازعوا تنصب مفعولاً إذا كانت بمعنى التجاذب، فيكون في الكلام استعارة ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ الفاء عاطفة، وقالوا فعل وفاعل، وجملة ابنوا مفعول القول، وهو فعل أمر وفاعل، وعليهم متعلقان بابنوا، وبنياناً مفعول به، أي: قالوا ذلك حين توفي الله أصحاب الكهف، وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدث تلميذا حامل الورق حديثهم موتاً حقيقياً، ورجع من كان يساوره الشك في بعث الأجساد إلى اليقين، أي: ابنوا عليهم بنياناً ضناً بتربتهم، ومحافظة عليها، وجملة ابنوا عليهم بنياناً مفعول قولهم ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ الجملة إما تنمة لمقولهم قالوا ذلك تفويضاً للعلم إلى الله سبحانه، وقيل: هو مفعول كلام الله سبحانه رداً لقول المتنازعين فيهم، أي: دعوا ما أنتم فيه من التنازع، فإني أعلم بهم منكم، والكلام مبتدأ وخبر، وبهم متعلقان بأعلم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ قال الذين فعل وفاعل، وجملة غلبوا صلة الموصول، وعلى أمرهم متعلقان بغلبوا، وهم المؤمنون، وكانت الكلمة لهم آنذاك، ولنتخذن اللام الموطئة للقسم، ونتخذن فعل مضارع مبني على الفتح، وفاعله مستتر تقديره: نحن، وعليهم حال، ومسجداً مفعول به ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ السين للاستقبال، إشارة إلى أن النزاع في أمرهم حصل في زمن النبي ﷺ، أي: في المستقبل البعيد بالنسبة لقصتهم، ويقولون فعل مضارع وفاعل، والضمير يعود على الخائضين في قصتهم زمن النبي من أهل الكتاب والمؤمنين. قال أبو حيان: وجاء بسين الاستقبال لأنه كأنه في الكلام طي وإدماج، والتقدير: فإذا أجبتهم عن سؤالهم، وقصصت عليه قصة أهل الكهف، فسلهم عن عددهم، فإنهم إذا سألتهم سيقولون، ولم يأت بالسين فيما بعده؛ لأنه معطوف على المستقبل، فدخل في الاستقبال، أو لأنه

أريد به معنى الاستقبال الذي هو صالح له . وثلاثة خبر لمبتدأ محذوف ، أي : هم ثلاثة أشخاص ، وإنما قدرنا أشخاصاً ؛ لأن رابعهم اسم فاعل أضيف إلى الضمير ، والمعنى أنه رابعهم ، أي : جعلهم أربعة ، وصيرهم إلى هذا العدد ، فلو قدر ثلاثة رجال استحال أن يصير ثلاثة رجال أربعة لاختلاف الجنسين ، ورابعهم مبتدأ ، وكلبهم خبر ، وجملة ثلاثة مفعول القول ، وجملة رابعهم كلبهم في محل نصب على الحال ، أي : حال كون كلبهم جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم عطف على الجملة السابقة ، وهي مماثلة في إعرابها ، ورجماً منصوب على المصدرية بفعل محذوف ، أي : يرجهون رجماً ، والمعنى : يرمون رمية بالخبر الخفي المظنون ، أو على الحال بمعنى راجمين ، وبالغيب متعلقان بـ رجماً ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِنَهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الواو عاطفة ، ويقولون فعل وفاعل ، وسبعة خبر لمبتدأ محذوف ، والواو فيها أقوال تربو على الحصر ، وقد شغلت العلماء والأدباء ، فصنّفوا فيها المطولات ، وسنأتي على ذكرها ، وخلاصة ما قيل فيها في باب الفوائد ، وأولى ما يقره المنطق أن تكون هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، تشبيهاً لها بالجملة الواقعة حالاً بعد المعرفة ، نحو : جاء زيد ومعه رجل آخر ، وذلك لتأكيد لصوق الصفة بالموصول ، بمعنى أن اتصافه بها أمر مستقر راسخ في الأذهان ، وهذا ما اختاره الزمخشري وابن هشام ، وانتظر التفاصيل . وجملة ثامنهم كلبهم صفة لسبعة ، وقد ردّ أبو حيان هذا القول وعبارته : وكون الواو تدخل على الجملة الواقعة صفة دالة على لصوق الصفة بالموصول ، وعلى ثبوت اتصاله بها شيء لا يعرفه النحويون ، بل قرروا أنه لا تعطف الصفة التي ليست بجملة على صفة أخرى ؛ إلا إذا اختلفت المعاني ، حتى يكون العطف دالاً على المغايرة ، وأما إذا لم يختلف فلا يجوز العطف في هذه الأسماء المفردة ، وأما الجمل التي تقع صفة فهي أبعد من أن يجوز ذلك فيها ، وقد ردوا على من ذهب إلى أن قول سيبويه : وأما ما جاء لمعنى ، وليس باسم ولا فعل ، هو على أن ليس باسم ولا فعل صفة لقوله المعنى ، وأن الواو دخلت في الجملة ، بأن ذلك ليس من كلام العرب : مررت برجل ، ويأكل ، على تقدير الصفة ، وأما قوله

تعالى: ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ فالجملة حالية. ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ربي مبتدأ، وأعلم خبره، والجملة مقول القول، وبعدهم متعلقان بأعلم، وجملة ما يعلمهم حالية، وما نافية، ويعلمهم فعل مضارع ومفعول به، وإلا أداة حصر، وقليل: فاعل يعلمهم، والتفضيل بالنسبة للكيفية؛ لأن مراتب اليقين متفاوتة في القوة، وليس التفضيل بالنسبة إلى الطائفتين الأوليين؛ الذين جنحوا إلى الرجم بالغيب والحدس والتخمين، دون الحقيقة والاطلاع على الواقع ﴿فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ﴾ الفاء الفصيحة، أي: إن عرفت هذا، وحق لك أن تعرفه فلا تجادل، ولا ناهية، وتمار مجزوم بلا، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وإلا أداة حصر، ومراء مفعول مطلق، وظاهراً صفة ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ الواو عاطفة، ولا ناهية، تستفت مجزوم بلا، وعلامة جزمه حذف حرف العلة أيضاً، والفاعل مستتر تقديره: أنت، وفيهم متعلقان بتستفت، ومنهم حال؛ لأنه كان في الأصل صفة لأحدًا، وأحدًا مفعول به؛ لأن فيما أوحى إليك مندوحة لك عن السؤال ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَاءَ إِيَّيْ فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الواو حرف عطف، ولا ناهية، وتقولن فعل مضارع مبني للفتح لاتصاله بنون التوكيد في محل جزم بلا، والفاعل مستتر تقديره: أنت، ولشيء متعلقان بتقولن، أي: لأجل شيء تقدم عليه، وتهتم به، وقيل: اللام بمعنى في، وقد تقدم ذكر ذلك، وكسرت همزة إن لسبقها بالقول، وإن واسمها مقول القول، وفاعل خبر إن، وذلك مفعول لفاعل، وغداً ظرف متعلق بفاعل، وإلا أن يشاء الله استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لا تقل لشيء في حال من الأحوال إلا في حال تلبسك بالمشيئة والتعليق عليها، فأن وما بعدها حال، والتقدير: لا تقولن أفعَل غداً إلا قائلاً إن شاء الله، وقيل: التقدير إلا بأن يشاء الله، فالمصدر منصوب بنزع الخافض، والجار والمجرور في موضع النصب على الحال، أي: إلا متلبساً بقول إن شاء الله، وقيل: إن الاستثناء منقطع، وموضع أن يشاء الله نصب على الاستثناء.

وقد أجاد في إعراب هذه الآية أبو البقاء العكبري، ونصه: في المستثنى منه ثلاثة أوجه:

أحدها: هو من النهي، والمعنى: لا تقولن أفعل غداً إلا أن يؤذن لك في القول.

والثاني هو من فاعل تقولن، أي: لا تقولن إني فاعل غداً حتى تقرن به قول إن شاء الله.

والثالث: إنه منقطع.

وموضع أن يشاء الله نصب على وجهين:

أحدهما: على الاستثناء، والتقدير: لا تقولن ذلك في وقت إلا وقت أن يشاء الله، أي: يأذن فحذف الوقت، وهو مراد. والثاني: هو حال، والتقدير: لا تقولن أفعل غداً إلا قائلاً إن شاء الله، فحذف القول، وهو كثير، وجعل قوله أن يشاء في معنى إن شاء، وهو مما حمل على المعنى، وقيل: التقدير إلا بأن يشاء الله، أي: متلبساً بقول إن شاء الله. والخلاصة أن الغرض من هذا النهي عن هذا القول هو عدم اقترانه بقول المشيئة، وهذا نهى تأديب حين قالت اليهود لقريش: سلوا محمداً عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين فسألوه، فقال اثنتوني غداً أخبركم، ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه، وكذبه قريش، وسيأتي في باب: الفوائد ذكر انقطاع الوحي.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾
واذكر عطف على ما تقدم، وربك مفعول به، ولا بد من حذف مضاف، أي: مشيئة ربك، وإذا ظرف متعلق باذكر، أي: إذا فرط منك نسيان، وجملة نسييت في محل جر بإضافة الظرف إليها، وجوابها محذوف دل عليه ما قبله، أي: فاذكر، وقول عطف على اذكر، وعسى من أفعال الرجاء، واسمها مستتر تقديره: هو، وأن يهديني أن وما في حيزها هي الخبر، وربّي فاعل يهديني، ولأقرب متعلق بيهديني، ومن هذا متعلقان بأقرب، ورشداً

تميز، أو مفعول مطلق، أي: يهديني هداية، فيكون ملاقياً لعامله بهذا المعنى، والأول أقرب، أي: لشيء أقرب إرشاداً للناس، ودلالة على ذلك، والإشارة في قوله هذا لما تقدم من نبأ أصحاب الكهف وقصتهم العجيبة التي اختتمت الآن ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ ولَبِثُوا عطف على ما تقدم حسماً للخلاف، وإمالة للشبهة الناجمة عن الاختلاف في أمرهم، ومدة لبثهم، وفي كهفهم متعلقان بلَبِثُوا، وثلاث ظرف ومئة مضاف إليه، وسنين عطف بيان لثلاثمئة، أو بدل، ولا يصح أن يكون تمييزاً؛ لأن تمييز المئة مجرور، وجره بالإضافة، والتنوين مانع منها، وسيأتي بحث العدد مفصلاً في باب: الفوائد. وازدادوا فعل وفاعل، وتسعاً مفعول به، أي: تسع سنين ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ الله مبتدأ، وأعلم خبر، الجملة مقول القول، وبما متعلقان بأعلم، وجملة لبثوا صلة الموصول، أي: بالزمن الذي لبثوه ﴿لَمْ يَغَيِّبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ، وَأَسْمِعَ﴾ له خبر مقدم، وغيب السموات والأرض مبتدأ مؤخر، وأبصر صيغة تعجب، وهو فعل ماض أتى على صيغة الأمر، ومعناه الخبر، والباء مزيدة في الفاعل إصلاحاً للفظ، وسيأتي البحث في صيغتي التعجب في باب: البلاغة، وأسمع عطف على أبصر ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ما نافية، ولهم خبر مقدم، ومن دونه حال، ومن حرف جر زائد، وولي مبتدأ مؤخر محلاً، ولا الواو عاطفة، ولا نافية، ويشرك فعل مضارع، وفاعل مستتر، وفي حكمه متعلقان بيشرك، وأحد مفعول به.

□ البلاغة:

الكلام يطول جداً على هذه الآيات وما اشتملت عليه من فنون بلاغية، وسنجنح إلى الاختصار ما أمكن، فنقول:

(١) الاستعارة المكنية:

في قوله تعالى: ﴿يَنْزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ استعارة مكنية، فقد شبه أمرهم

بشيء كثر النزاع حوله، ثم حذف ذلك الشيء، واستعير النزاع القائم حوله.
وفي قوله تعالى: ﴿رَجَاءٌ بِالْغَيْبِ﴾ استعارة مكنية أيضاً، فقد شبه الغيب
والخفاء بشيء يرمى بالحجارة، واستعير الرجم له.

(٢) واو الثمانية والخلاف المشتجر حولها:

وعندنا أن نأتي بالأقوال حول الواو الداخلة على ثامنهم في قوله تعالى:
﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وقد قدمنا في الإعراب ما اخترناه من
هذه الأقوال، فقال عدد من كبار الأدباء: إنها واو الثمانية. قال ابن هشام:
واو الثمانية ذكرها جماعة من الأدباء كالخريزي، ومن النحويين الضعفاء كابن
خالويه، ومن المفسرين كالثعلبي، وزعموا أن العرب إذا عدوا قالوا ستة
سبعة وثمانية إيذاناً بأن السبعة عدد تام، وأن ما بعده عدد مستأنف،
واستدلوا على ذلك بآيات إحداهما: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ إلى قوله
سبحانه: ﴿وَتَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وقيل: هي في ذلك لعطف جملة على جملة، إذ
التقدير: هم سبعة، ثم قيل: الجميع كلامهم^(١)، وقيل: العطف من كلام الله
تعالى، والمعنى: نعم هم سبعة وثمانهم كلبهم، وأن هذا تصديق لهذه المقالة،
كما أن رجماً بالغيب تكذيب لتلك المقالة. وبعد كلام طويل قال: وأقول لو
كان لو او الثمانية حقيقة، لم تكن الآية منها، إذ ليس فيها ذكر عدد البتة، وإنما
فيها ذكر الأبواب، وهي جمع لا يدل على عدد خاص، ثم الواو ليس داخلة
عليه، بل على جملة هو فيها.

وقال آخرون في الرد على من زعم وجود واو الثمانية: وهو أن في اللغة
واواً تصحب الثمانية، وتختص بها، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى
ينتهي إلى الثامن فتصحبه الواو؟! وربما عدوا من ذلك ﴿وَالنَّكَاهُوتَ عَنِ
الْمُنْكَرِ﴾ وهو الثامن من قوله تعالى: ﴿التَّيِّبُوتَ﴾ وهذا مردود أيضاً
بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة لتربط بينها وبين الأولى التي هي الآمرون

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: ثمانية، كما يقتضيه السياق.

بالمعروف؛ لما بينهما من التناسب والربط، ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرهما ومواردهما، كقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وكقوله: ﴿وَأُمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وربما عد بعضهم من ذلك الواو في ﴿ثَبَّتَتْ وَأَبْكَرًا﴾ لأنه وجدها مع الثامن، وهذا غلط فاحش، فإن هذه واو التقسيم، ولو ذهبت تحذفها فتقول: ثبات أبكاراً لم يستدل الكلام، فقد وضح أن المراد في جميع هذه المواضع المعدودة واردة لغير ما زعمه هؤلاء.

قلت: لو سقطت الواو من أبكار لاختل المعنى؛ لأنهن لا يكن ثبات أبكاراً في وقت معاً، فاضطر إلى الواو لتدل على المغايرة. هذا وقد كان القاضي الفاضل صاحب الطريقة المصنوعة في الإنشاء يعتقد زيادة الواو في هذه الآية، ويتبجح باستخراجها، ويقول: هي واو الثمانية، إلى أن ذكر ذلك بحضرة الشيخ أبو الجود المقرئ، فبين له أنه واهم، وأن الضرورة تدعو إلى دخولها، وإلا فسد المعنى، بخلاف واو الثمانية، فإنه يؤتى بها لا حاجة، فقال: أرشدتنا يا أبا الجود.

هذا. وممن أيد وجود واو الثمانية الإمام فخر الدين الرازي، وقال العلامة الكافيجي قولاً طريفاً منصفاً في هذا الصدد، نورده بنصه: هي في التحقيق واو العطف، لكن لما اختص استعمالها بمحل مخصوص، وتضمنت أمراً غريباً، واعتباراً لطيفاً، ناسب أن تسمى باسم غير جنسها، فسميت واو الثمانية لمناسبة بينها وبين سبعة، وذلك لأن السبعة عندهم عقد تام كعقود العشرات لاشتغالها على أكثر مراتب أصول الأعداد فإن الثمانية عقد مستأنف، فكان بينهما اتصال من وجه، وانفصال من وجه، وهذا هو المقتضي للعطف، وهذا المعنى ليس موجوداً بين السبعة والسته. وأقول: إن توجيه تمام السبعة هو أن العدد إما فرد وإما مركب من فردين، وهو الزوج، أو من زوج وفرد، أو من زوجين، والثلاثة الأول من الثلاثة، فإن في ضمنها الواحد والاثنين والآخر من الأربعة. ومجموع الثلاثة والأربعة سبعة، فتمت بها

الأصول، وما يأتي تكرر، فالثمانية زوج وزوج قد مضى، والتسعة زوج وفرد، وهكذا.

هذا؛ وسيأتي المزيد من هذا البحث عند الكلام على: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وعلى: ﴿تَبَيَّنَتْ وَأُبْكِرَتْ﴾ فقد طال البحث جداً.

* الفوائد:

(١) أحكام العدد وتمييزه:

يميز العدد على ضربين: منصوب ومجرور، فالمجرور على ضربين: مفرد ومجموع، فالمفرد: يميز المئة والألف، والمجموع يميز الثلاثة إلى العشرة، والمنصوب: يميز أحد عشر إلى تسعة وتسعين، ولا يكون إلا مفرداً، ومما شذ عن ذلك قولهم: ثلاثمئة إلى تسعمئة اجتزؤوا بلفظ الواحد عن الجمع، وقد رجع إلى القياس من قال:

ثلاث مئین للملوك وفي بها ردائي وجلت عن وجوه الأهاتم

فجاء بتمييز الثلاث جمعاً من لفظ المئة على ما يقتضيه القياس، وإن كان شاذاً في الاستعمال، ويجوز في التمييز حينئذ وجهان: أحدهما: الإتيان على البذل، نحو: ثلاثة أثواب، والنصب على التمييز، نحو: ثلاثة أثواباً. وقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ نصب على البذل، أو عطف البيان لثلاثمئة.

هذا رأي أبي إسحاق الزجاج، قال: ولا يجوز أن يكون تمييزاً؛ لأنه لو كان تمييزاً لوجب أن يكون أقل ما لبثوا تسعمئة سنة؛ لأن المفسر يكون لكل واحد من العدد، وكل واحد سنون، وهو جمع، والجمع أقل ما يكون ثلاثة، فيكونون قد لبثوا تسعمئة سنة، وأجاز الفراء أن يكون سنين تمييزاً على حد قوله:

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سوداً كخافية الغراب الأعصم

قال: وذلك أنه جاء في التمييز سوداً، وهو جمع؛ لأن الصفة والموصوف شيء واحد، والمذهب الأول لأن الثواني يجوز فيها ما لا يجوز في الأوائل، ألا

ترى أنك تقول: يا زيد الطويل، ولو قلت: يا الطويل لم يجز.

هذا، والبيت لعنتره من معلقته التي مطلعها:

هل غادر الشعراء من متردِّمٍ أم هل عرفت الدَّارَ بعدَ تَوَهُّمٍ

وقبل البيت المستشهد به:

ما راعني إِلَّا حَمُولَةٌ أَهْلُهَا وَسَطُ الدِّيَارِ تَسْفُ حَبَّ الْخِمْمِ

وراعني: أفزعني، والحمولة: الإبل التي يحمل عليها، ووسط ظرف، وإذا لم يكن ظرفاً حركت السين، فقلت: وَسَطُ الدَّارِ واسع، وتسف: تأكل، يقال: سفت الدواء أسفه، والحلوبة: المحلوبة تستعمل في الواحد والجمع على لفظ واحد، والخوافي: أواخر ريش الجناح مما يلي الظهر، والأسحم: الأسود، واثنان مرفوع بالابتداء، وأربعون معطوف عليه، وقوله سوداً نعت لحلوبة؛ لأنها في معنى الجمع، والمعنى من الحلائب، والكاف في قوله «كخافية» في موضع نصب، والمعنى سوداً مثل خافية الغراب الأسحم. ومما ذكرناه في تفسير الحلوبة وصلاحياتها للإطلاق على الواحد والجمع تعلم ما في قولهم: إن الشاهد في هذا البيت جواز وصف المميز المفرد بالجمع، وادعائهم أن حلوبة مفرد مميز للعدد، وأنه وصف بالجمع، وهو سود الذي هو جمع سوداء، وزعم الأعلام أن قوله سوداً ليس بوصف، وإنما هو حال من قوله: «اثنان وأربعون» قال: وهو حال من نكرة، ويجوز رفعه على النعت، ولا يكون نعتاً لحلوبة؛ لأنها مذكورة إذا كانت تمييزاً للعدد، وسوداً جمع، ولا ينعت الواحد بالجمع. وليس بشيء؛ لأنهم غفلوا عن السر، وهو إطلاق حلوبة على الواحد والجمع.

هذا؛ ونلخص فيما يلي أحكام العدد عامة:

ألفاظ العدد من ثلاثة إلى تسعة تكون على عكس المعدود في التذكير والتأنيث، سواء كانت مفردة كقوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أو مركبة، كخمسة عشر قلماً، وست عشرة ورقة، أو معطوفاً كثلاثة وعشرين يوماً، وأربع وعشرين ساعة، وأما واحد واثنان فهما على

وفق المعدود في الأحوال الثلاثة، وأما مئة وألف فلا يتغير لفظهما في التذكير والتأنيث، وكذلك ألفاظ العقود كعشرين وثلاثين، إلا عشرة فهي على عكس معدودها إذا كانت مفردة، وعلى وفقه إذا كانت مركبة.

هذا؛ ويصاغ من اسم العدد وصف على وزن فاعل مطابق لموصوفه، أما تعريف العدد، فالمضاف تدخل «أل» على المضاف إليه، والمركب تدخل ﴿أل﴾ على جزئه الأول، والمعطوف تدخل «أل» على الجزأين.

وأما إعراب الأعداد فعلى ثلاثة أشكال:

١- بالحركات من واحد إلى عشرة، على أن تكون هذه مفردة غير مركبة، ويستثنى منها العدد اثنان للمذكر، واثنان للمؤنث، فإنهما لفظان ملحقان بالمشئ.

وكذلك العددان مئة وألف.

٢- بالحروف، وهو العدد اثنان للمذكر، واثنان للمؤنث والعقود.

٣- بالبناء على الفتح، وهي الأعداد المركبة، أي: من أحد عشر إلى تسعة عشر، ومن الحادي عشر إلى التاسع عشر، ما عدا الجزء الأول من اثني عشر؛ لأنه يلحق بالمشئ كما تقدم.

☆ اسم الفاعل المشتق من العدد:

يستعمل اسم الفاعل المشتق من العدد على معنيين:

أحدهما: أن يكون المراد به واحداً من جماعة.

وثانيهما: أن يكون فاعلاً كسائر أسماء الفاعلين.

فالأول نحو: ثاني اثنين، وثالث ثلاثة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وقال عز وجل: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ فما كان من هذا الضرب إضافة محضة؛ لأن معناه أحد ثلاثة وبعض ثلاثة، فكما أن إضافة هذا صحيحة، فكذلك ما هو في معناه،

ولا يجوز فيه أن ينون وينصب في قول أكثر النحويين؛ لأنه ليس مأخوذاً من فعل عامل، وأما الثاني وهو ما يكون فاعلاً كسائر أسماء الفاعلين نحو: ثالث اثنين، ورابع ثلاثة، وخامس أربعة، فهذا غير الوجه الأول، إنما معناه: هو الذي جعل الاثنين ثلاثة بنفسه، فمعناه الفعل، كأنه قال الذي ثلثهم وربعهم وخمسهم، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَائِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ ومثله: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُمْ رَابِعَهُمْ كَلْبُهُمْ... رَجَمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ وعلى هذا الوجه يجوز أن ينون وينصب ما بعده، فتقول: هذا ثالث اثنين، ورابع ثلاثة؛ لأنه مأخوذ من ثلثهم وربعهم، فهو بمنزلة: هذا ضارب زيداً، والأول أكثر، قال سيبويه: قلما تريد العرب هذا، يعني: خامس أربعة، فإن أضفته، فهو بمنزلة: ضارب زيد، فتكون الإضافة غير محضة، هذا إذا أريد به الحال أو الاستقبال، فإن أريد به الماضي لم يجز فيه إلا حذف التنوين والإضافة، كما كان كذلك في قولك: هذا ضارب زيد أمس.

(٢) التعجب وصيغته في العربية:

التعجب: انفعال يحدث في النفس عند الشعور بأمر خفي سببه، ولهذا يقال: إذا ظهر السبب بطل العجب، ولا يطلق على الله أنه متعجب؛ إذ لا شيء يخفى عليه، وما وقع مما ظاهره ذلك في القرآن فمحمول على أنه مصروف إلى المخاطب، نحو قوله تعالى: ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ أي: إن حالهم في ذلك اليوم ينبغي لك أيها المخاطب أن تتعجب منه، وقيل: التعجب هو استعظام فعل فاعل ظاهر المزية فيه، وقوله تعالى هنا: ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ ذهب العلماء فيه ثلاثة مذاهب:

١ - أنه بلفظ الأمر ومعناه الخبر، والباء مزيدة في الفاعل إصلاحاً للفظ، فإن قلت: كيف تكون الهاء فاعلاً، وهي ضمير نصب أو جر؟ قلت: إنما هو اصطلاح، وساغ ذلك لوجود الباء لفظاً قبلها؛ ولأن الباء إنما زيدت ليصير على صورة المفعول.

٢- أن الفاعل ضمير المصدر .

٣- أن الفاعل ضمير المخاطب ، واحتج القائلون بذلك على أنه لا يعهد استعمال الأمر في الماضي وإنما التزم إفراده وتذكيره فلم يثن ولم يجمع ولم يؤنث ؛ لأنه كلام جرى مجرى المثل ، وهذه إحدى صيغ التعجب القياسية .

والثانية ما أفعله ، وهاتان الصيغتان هما المبوب لهما في كتب النحو وهما القياسيتان ، ومعنى ما كما قال سيبويه : إنها نكرة تامة بمعنى شيء ، وابتدىء بها لتضمنها معنى التعجب ، وما بعدها من الجملة الفعلية في موضع رفع خبرها ، وهذا هو المذهب الصحيح ؛ لأن قصد المتعجب الإعلام بأن المتعجب منه ذو مزية إدراكها جلي ، وسبب الاختصاص بها خفي ، فاستحقت الجملة المعبر بها عن ذلك أن تفتح بنكرة غير مختصة ؛ ليحصل بذلك إبهام متلو بإفهام .

وهناك صيغ أخرى للتعجب واردة في الكتاب والحديث ولسان العرب ، فمن الكتاب : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ ومن الحديث قوله ﷺ لأبي هريرة : «سبحان الله إن المؤمن لا ينجس» ومن كلام العرب : لله دره فارساً . ولكن النحاة لم يوبوا بهذه الصيغ ؛ لأنها لم تدل على التعجب بالموضع ، بل بالقرينة .

* مسائل هامة :

١ - لا يتعجب إلا من معرفة ، أو نكرة مختصة ، فلا يقال : ما أسعد رجلاً ؛ لأنه لا فائدة من ذلك .

٢ - يجوز حذف المتعجب منه إذا كان ضميراً ، كقول علي بن أبي طالب كما قيل :

جزى الله عني والجزاء بفضله ربيعة خيراً ما أعفت وأكرما

أي : ما أعفها وأكرمها . وإنما قلنا كما قيل ؛ لأن هذا البيت لم يثبت لعلی ، وفي القاموس في مادة «ودق» نقلاً عن المازني ، وصوبه الزمخشري ، أنه لم

يصح أنه تكلم بشيء من الشعر غير بيتين، وهما قوله :

تِلْكُمْ قَرِيشٌ تَمَنَّانِي لِتَقْتُلَنِي فَلَا وَرَبِّكَ لَا بَرْؤَا وَلَا ظَفِرُوا
وَإِنْ هَلَكْتُ فَرَهْنٌ ذِمَّتِي لَهُمْ بِذَاتِ وَدَقَيْنٍ لَا يَعْفُو لَهَا أَثَرُ

وفي باب : أفعل به إن كان معطوفاً على آخر مذكور معه، كما في الآية :
﴿أَبْصِرْ بِهِ، وَأَسْمِعْ﴾ وإنما حذف مع كونه فاعلاً؛ لأن لزومه للجبر كسأه
صورة الفضلة، وشذ حذفه دون أن يعطف على مثله، كقول عروة بن الورد:
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْمَيِّتَةَ يَلْقَاهَا حَمِيداً وَإِنْ يَسْتَغْنِ يَوْمَماً فَأَجْدِرِ
فحذف المتعجب منه، ولم يكن معطوفاً على مثله.

هذا؛ ولا يبنى هذان الفعلان إلا مما اجتمعت فيه ثمانية شروط :

١ - أن يكون فعلاً، وشذ قولهم : ما أذرع المرأة بنوه، من قولهم : امرأة
ذراع، والذراع كسحاب : الخفيفة اليدين بالغلز. وروى ابن القطاع في
«الأفعال» : ذرعت المرأة خفت يدها في العمل، فهي ذراع، وعلى هذا
لا شذوذ في قولهم : ما أذرع المرأة، ومن ذلك قولهم : ما أجدره بكذا،
وما أقمته بكذا، فالأول بنوه من قولهم : هو قمين بكذا، والثاني من قولهم :
هو جدير بكذا، والمعنى فيهما : ما أحقه بكذا، ولا فعل لهما، ولكن قال في
القاموس : وقد جدر ككرم جدارة، وإنه لمجدرة أن يفعل، ومجدور، أي :
مخلقة، وجدره : جعله جديراً. وطاح كلام النحاة من أساسه.

٢ - أن يكون الفعل ثلاثياً، فلا يبنيان من رباعي مجرد، ولا مزيد فيه،
ولا ثلاثي مزيد بحرف أو حرفين أو ثلاثة إلا وزن أفعل، فقليل : يجوز بناؤهما
منه سواء كانت الهمزة فيه للنقل، أم لا، نحو : ما أظلم الليل، وما أقفر هذا
المكان، وقيل : هو شاذ يحفظ ما سمع منه كما تقدم، ولا يقاس عليه،
وقالوا : ما أعطاه للدرهم، وما أولاه للمعروف، وما أتقاه الله، وشذ
كذلك : ما أخصره؛ لأنه من اختصر.

٣ - أن يكون الفعل متصرفاً؛ لأن التصرف فيما لا يتصرف نقض لوضعه،
وشذ ما أعساه، وأعسى به.

٤ - أن يكون معناه قابلاً للتفاضل ، أو التفاوت ، فلا يبينان من نحو : فني ومات وغرق ؛ لأنه لا مزية فيه لبعض فاعليه على بعض حتى يتعجب منه .

٥ - أن يكون مبنياً للمعلوم ، فلا يبينان من المبني للمجهول ، وبعضهم استثنى ما كان ملازماً للبناء على المجهول ، نحو : عنيت بحاجتك ، وزهي علينا ، فيجيز التعجب لعدم اللبس ، فتقول : ما أعناه بحاجتك ، وما أزهاه علينا .

٦ - أن يكون تاماً ، فلا يبينان من نحو كان وكاد وصار ؛ لأنهن نواقص ، وحكى ابن السراج والزجاج : ما أكون زيداً قائماً .

٧ - أن يكون مثبتاً ، فلا يبينان من منفي ، سواء كان ملازماً للنفي نحو : ما عاج بالدواء ، أي : ما انتفع به ، ومضارعه يعيج ملازم للنفي أيضاً ، كذا قال النحاة ، وطاح كلامهم بوروده غير منفي ، روى أبو علي القالي في «نواده» : أنشدنا ثعلب عن ابن الأعرابي :

ولم أرَ شيئاً بعدَ لَيْلى أَلَدُّهُ ولا مَشْرَباً أَرَوَى به فَأَعِيجُ

أي : أنتفع به ، أم غير ملازم للنفي لئلا يلتبس المنفي بالمثبت .

٨ - أن لا يكون اسم فاعله على وزن أفعل فعلاء ، فلا يبينان من نحو عرج ، فهو أعرج من العيوب ، وشهل فهو أشهل من المحاسن ، وخضر الزرع فهو أخضر من الألوان ، ولمي فهو ألمى من الحلي ؛ لأن الألوان والعيوب والمحاسن الظاهرة جرت مجرى الخلق الثابتة التي لا تزيد ولا تنقص ، كاليد والرجل وسائر الأعضاء في عدم التعجب منها .

شرط تاسع :

وهناك شرط تاسع أغفله الكثير من النحاة ، مع أنه مهم جداً ، وهو : أن لا يستغنى عنه بالمصوغ من غيره ، نحو : قال من القائلة ، فإنهم لا يقولون : ما أقيه استغناء بقولهم : ما أكثر قائلته ، ذكره سيوييه ، ونحو : سكر وقعد وجلس ، فإنهم لا يقولون : ما أسكره وأقعد وأجلسه ، استغناء بقولهم :

ما أشد سكره، وأكثر قعوده وجلوسه، وزاد ابن عصفور: قام وغضب ونام، وحكى سيوبه: ما أنومه، وقالوا: أنوم من فهد.

* كيف يتم التوصل إلى التعجب مما فقد بعض الشروط:

ويتوصل إلى التعجب من الزائد على الثلاثي، ومما وصفه على أفعل فعلاء ب: ما أشد ونحوه، وينصب مصدرهما بعده، وبأشدد ونحوه، وبجر مصدرهما بعده، فتقول: ما أشد انطلاقه، أو حمرة، وأشدد بانطلاقه وحمرة، والمنفي والمبني للمجهول يكون مصدرهما مؤولاً لا صريحاً، نحو: ما أكثر ألا يقوم، وما أشد ما ضرب، واشدد بهما، وأما الناقص فيؤتى بمصدره إن كان له مصدر على نحو ما تقدم، نحو: ما أشد صيرورته جيلاً، وأما الجامدة وغير القابل للتفاوت، فلا يتعجب منهما البتة.

(٣) القول في أحد، والفرق بين الأحد والواحد:

أحد أكمل من الواحد، ألا ترى أنك إذا قلت: فلان لا يقوم له واحد، جاز في المعنى أن يقوم له اثنان فأكثر، بخلاف قولك: لا يقوم له أحد، وفي الأحد خصوصية ليست في الواحد، تقول: ليس في الدار أحد، فيجوز أن يكون من الدواب والطيور والوحش والإنس، فيعم الناس وغيرهم، بخلاف ليس في الدار واحد، فإنه مخصوص بالآدميين.

ويأتي الأحد في كلام العرب بمعنى الواحد، فيستعمل في النفي والإثبات، نحو: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: واحد، وأول: ﴿فَآبَعُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ وبخلافهما، فلا يستعمل إلا في النفي، تقول: ما جاءني من أحد، ومنه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ وواحد يستعمل فيهما مطلقاً، وأحد يستعمل في المذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿لَسْتَُنَّكَ أَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ بخلاف الواحد، فلا يقال: كواحد من النساء، بل كواحدة، وأحد يصلح للأفراد والجمع، ولهذا وصف به في قوله: ﴿مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ بخلاف الواحد والأحد له جمع من لفظه، وهو الأحدون والآحاد،

وليس للواحد جمع من لفظه، فلا يقال: واحدون، بل اثنان وثلاثة، والأحد ممتنع من الدخول في شيء من الحساب، بخلاف الواحد، فتلخص من ذلك سبعة فروق.

(٤) قصة انقطاع الوحي لفترة محدودة:

ولا بد هنا من تفصيل قصة انقطاع الوحي، فقد ذكر الرواة أن قريشاً لجأت إلى وسيلة رهيبة لتكافح بها تأثير القرآن، فأوفدت إلى يهود يثرب وفدًا يسألها عن الوسائل التي تستطيع أن تقاوم بها هذا الذي جاء به محمد، فطلب منهم اليهود أن يسألوا النبي عن أمور، فلما عادوا إلى مكة ذهبوا إليه، وقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، قد كانت لهم قصة عجب، وعن رجل جان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ فقال لهم النبي: «أخبركم عما سألتكم غداً».

وكان رسول الله ينتظر أن ينزل عليه وحي فيه جواب ما سألت عنه قريش، ولكن الوحي أبطأ على النبي خمسة عشر يوماً، وطارق قريش فرحاً بعجزه عن الجواب، وقالت: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة، قد أصبحنا منها لا نخبرنا بشيء مما سألناه، وقد أحزن النبي انقطاع الوحي عنه حزناً شديداً، وزاد في قلقه ما كان يتكلم به أهل مكة، وفي ختام هذا اليوم نزل جبريل فابتدعه بقوله:

«لقد احتبست عني يا جبريل! حتى سؤت ظناً» فرد عليه جبريل بالآية الكريمة: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ثم أخذ جبريل يلقي النبي سورة «الكهف» وفيها - كما سيأتي - رد على ما سألت قريش، وتفصيل رائع لكثير من الأمور التي تشغل الأذهان إذ ذاك، وقد أخذت عليهم إجابات سورة الكهف السبيل، فلم يحير وارداً ولا جواباً.

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مَلْتَحَدًا ۚ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۚ﴾

☆ اللفظة:

﴿مُلْتَحَدًا﴾: ملتجأً تَجَنَّحَ إليه لاثناً إن هممت بالتبديل للقرآن. وفي المصباح: قال أبو عبيدة: أَلْحَدَ إِحَادًا: جادل ومارى، ولحد: جار وظلم، وألحد في الحرم: استحل حرمة وانتهكها، والمُلْتَحَدُ بالفتح اسم الموضع، وهو: الملجأ. وفي القاموس: التحد عن الدين بمعنى ألحد، والتحد إلى كذا: مال، والتحد إلى فلان: التجأ.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾ لا تنصرف، يقال: عداه؛ إذا جاوزه، ومنه قولهم: عدا طوره، وجاءني القوم عدا زيد، فحق الكلام أن يقال بالنصب، أي: لا تعد عينيك، وإنما عدل إلى الرفع لأنه أراد صاحب العينين، فهو من المجاز، وسيأتي مزيد شرح له في باب البلاغة.

﴿فُرُطًا﴾: بضمتين، أي: مجاوزاً الحد، وقد تقدم شرح هذه المادة مفصلاً.

○ الإعراب:

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ الواو عاطفة، واتل فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، والفاعل مستتر تقديره: أنت، و... ر... به، وجملة أوحى صلة، وإليك متعلقان بأوحى، ومن كتاب ربك حال من ما ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مَلْتَحَدًا﴾ لا نافية للجنس، ومبدل اسمها مبني على الفتح، ولكلماته خبر، والجملة حالية، ولن تجد عطف، ومن دونه حال،

وملتحداً مفعول به ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ واصبر عطف، وهو فعل أمر، والفاعل مستتر تقديره: أنت، ونفسك مفعول به، ومعنى الصبر هنا: حبس النفس وتثبيتها. وفي المختار: الصبر: حبس النفس عن الجزع، وبابه: ضرب، وصبره: حبسه، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ وقال عنتره يذكر حزناً كان فيها:

فَصَبَّرْتُ عَارِفَةً لِدَلِّكَ جَسْرَةً تَرَسُّوْ إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلَّعُ

أي: حبست نفساً عارفةً لذلك البلاء، وضمّن عارفةً معنى صابرة فعدها باللام، وجسرة، أي: قوية صلبة، ويروى حرة تسكن إذا طلعت نفس الجبان من مستقرها وطار شجاعاً. ومع الذين ظرف مكان متعلق باصبر، جملة يدعون ربهم صلة، وربهم مفعول به، وبالغداة والعشي متعلقان يدعون، وجملة يريدون وجهه حال ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ عطف على واصبر، ولا ناهية، وتعد مجزوم بلا، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وعيناك فاعل، وعنهم متعلقان بتعد، وجملة تريد زينة الحياة الدنيا حال، والدنيا صفة، وسيأتي القول مفصلاً عنها في باب: الفوائد ﴿وَلَا تُطْعَمَنَّ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ الواو عاطفة على ما تقدم، ولا ناهية، وتطعم مجزوم بها، والفاعل مستتر، ومن مفعول به، وجملة أغفلنا صلة، وقلبه مفعول به، وعن ذكرنا متعلقان بأغفلنا، واتبع هواه فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، والواو عاطفة، وكان واسمها وخبرها.

□ البلاغة:

المجاز العقلي:

في قوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾ مجاز عقلي لأنه أسند فعل عدا، أي: تجاوز إلى العينين، ومن حقه أن يسندهما إليه؛ لأن عدا متعد بنفسه كما تقدم، وإنما جنح إلى المجاز لأنه أبلغ من الحقيقة، فكأن عينيه ثابتتان في الرنو إليهم، وكأننا أدركنا ما لا تدركان، وأحسنا بوجوب النظر إلى هؤلاء، وصبر النفس، ورياضتها على ملازمتهم.

وقيل : هو من باب التضمن ، فقد ضمن عدا معنى نبا وعلا ، من قولهم : نبت عينه عنه ؛ إذا اقتحمته ولم تعلق به ، والغرض من هذا التضمن إعطاء مجموع معنيين ، وذلك أقوى من إعطاء معنى مفرد ، أي : لا تقتحمهم عينك مجاوزتين إلى غيرهم ، وهو جميل أيضاً .

* الفوائد :

* القاعدة في اسم التفضيل أنه إذا كان مقترناً بأل ، امتنع وصله بمن الجارة ، فلا يقال : فلان الأفضل من فلان ، ووجبت مطابقتها لما قبله إفراداً وتثنية وجمعاً وتذكيراً وتأنثاً ، وقد شذ وصله بمن في قول الشاعر :

ولست بالأكثر منهم حصي وإثما العزة للكائر

وإذا تجرد من أل والإضافة ، فلا بد من إفراده وتذكيره في جميع أحواله ، وأن تتصل به من الجارة ولو تقديرأ ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾

وإذا أضيف إلى نكرة وجب إفراده وتذكيره ، وامتنع وصله بمن الجارة .

وإذا أضيف إلى معرفة امتنع وصله بمن الجارة ، وجاز فيه وجهان : الإفراد والتذكير ، كالمضاف إلى نكرة ، ومطابقتها لما قبله ، وقد ورد الاستعمالان في القرآن ، فمن الأول : ﴿ وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ ﴾ ولم يقل أحرصي الناس ، ومن الثاني : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ ﴾ .

☆ حكم الدنيا : هذا ؛ والقياس أن تأتي الدنيا بالالف واللام ؛ لأنها صفة في الأصل على وزن فُعلى ، والمذكر الأدنى له ، فمن حقها المطابقة كما أتت في الآية التي نحن بصدددها ، على أنهم استعملوها استعمال الأسماء ، فهم لا يكادون يذكرون معها الموصوف ، فاستعملوها بغير ألف ولا م كسائر الأسماء ، قال العجاج :

يوم ترى النفوس ما أعدت من نزل إذا الأمور غبت
في سعي دنيا طالما قد مدت حتى انقضى قضاؤها فأدت

وقال بشامة بن حزن النهشلي، وقيل: للمرقش الأكبر:
 وإن دعوتِ إلى جُلّى ومكرمةٍ يوماً سَراةٍ كرامِ النَّاسِ فادْعِينَا
 فقيل: جلى مؤنث أجل على حد الأكبر والكبرى، وبذلك يجري مجرى دنيا
 في سيورة الاستعمال استعمال الأسماء، وقيل: هو مصدر كالرجعى
 والبشرى بمعنى الرجوع والبشارة، فأما قول أبي النواس الحسن بن هانئ
 يصف الخمر:

كَأَنَّ صَغْرَى وَكَبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا
 حَضْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

فقد عابه بعضهم لكونه استعملها نكرة، وهذا الضرب من الصفات
 لا يستعمل إلا معرفة، والاعتذار عنه أنه استعملها استعمال الأسماء؛ لكثرة
 ما يجيء منه بغير تقدم موصوف، ويجوز أن يكون لم يرد فيه التفضيل، بل
 معنى الفاعل، كأنه قال: كأن صغيرة وكبيرة من فواقعها، على حد قوله
 تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ وقيل: إن «من» المذكورة زائدة، وكبرى مضافة
 إلى فواقعها، لكن يرد على هذا أن زيادة من في الموجب لا تجوز.

وقال ابن الأثير في «المثل السائر»: ألا ترى أن أبا نواس كان معدوداً في
 طبقات العلماء مع تقدمه في طبقات الشعراء، وقد غلط فيما لا يغلط مثله
 فيه، فقال في صفة الخمر:

كَأَنَّ صَغْرَى وَكَبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا
 حَضْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وهذا لا يخفى على أبي نواس، فإنه من ظواهر علم العربية، وليس من
 غوامضه في شيء؛ لأنه أمر نقلي يحمله ناقله فيه على النقل من غير تصرف،
 وقول أبي نواس «صغرى وكبرى» غير جائز؛ فإن فعلی أفعَل لا يجوز حذف
 الألف واللام منها، وإنما يجوز حذفها من فعلى التي لا أفعَل لها، نحو:
 حبلى إلا أن تكون فعلى أفعَل مضافة، وهاهنا قد عريت عن الإضافة وعن

الألف واللام، فانظر كيف وقع أبو نواس في مثل هذا الموضع مع قربه وسهولته.

ورد ابن أبي حديد في كتاب «الفلك الدائر» على هذا القول بأن قال: لا ينكر أن كثيراً من أئمة العربية طعن في هذا البيت، ولكن انتصر لأبي نواس كثير منهم، فقالوا: وجدنا فعلى أفعل في غير موضع واردة بغير لام ولا إضافة، ولا من، مثل دنيا في قول الراجز:

في سعي دنيا طالما قد مدت.

وقول آخر:

وإن دعوت إلى جلي ومكرمة.

وقول الآخر:

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة.

وقالوا: طوبى لك. وفي البيت وجه آخر، وهو أن تكون من في قوله: من فواقعها زائدة، على مذهب أبي الحسن الأخفش في زيادة من في الواجب؛ فإنه يذهب إلى ذلك، ويحتج بقوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ بَرٍّ﴾ أي: فيها برد، وهذا يرجح أن يكون صغرى وكبرى في البيت مضافتين.

وقال الشيخ بهاء الدين بن النحاس: هذا عجيب من مثل هذا الرجل الفاضل، أما إيراده دنيا وأخواتها فكل وجوها مذكورة في كتب النحاة بما يغني عن الإطالة بذكره بخلاف صغرى وكبرى، وأما قوله بزيادة من، فكأنه يظن أن من إذا كانت زائدة كان الجر بالإضافة، أو كانت الإضافة باقية، وهذا لا وجه له، وإنما الجر بحرف الجر لأن حروف الجر لا تعلق، وأما زيادة حرف الجر بين المتضايين فلم يقل به إلا في مثل لا أبالك على شذوذ، وليس هذا منه، ولا يريد الأخفش بقوله: إن من تزداد في الواجب ما أراد ابن أبي الحديد. ومثله قول العروضيين فاصلة صغرى وفاصلة كبرى، أي: صغيرة

وكبيرة، لا يريدون التفضيل، وإنما يريدون الاسم وقول أبي تمام يصف الربيع:

دنيا معاشٍ للورى حتى إذا حلَّ الربيعُ فإنَّما هي مَنْظَرُ
غلبت الاسمية عليها حتى لم يعد يلح الأصل التفضيل فيها.

وننتهز الفرصة لنورد أبياتاً من القصيدة التي منها هذا البيت لأبي نواس لحسنها، ومطلعها:

ساع بكأسٍ إلى ناشٍ على طربٍ كلاهما عَجَبٌ في مَنْظَرٍ عَجَبٍ
قامتُ تُريني وسترُ الليلِ منسدٌ

. صُبْحاً تَوَلَّدَ بين الماء والعنبِ

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى . . . البيت، وبعده:

كَأَنَّ تُزْكَأً صُفُوفاً في جوانبها

تُواتِرُ الرَّمْيَ بالشَّابِ من كَثَبِ

في كَفِّ ساقيةِ ناهيكِ ساقيةً

في حُسْنٍ قَدْ وفي ظَرْفٍ وفي أدبِ

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ
نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ
الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّا الَّذِيْنَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ
أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى
الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

☆ اللغة:

﴿ أَعْتَدْنَا ﴾: أعددنا وهيأنا، وفي القاموس: عتد وأعتد الشيء: هيأه

وأعده، وعُتِدَ الشيءُ يُعْتَدُ من باب: ظرف وجمل، عَتَادًا: تهيأ، وتعتد في صنعته: تأتق فيها، والعتاد: ما أعد لأمر ما، وكل ما هييء من سلاح وآلة حرب، والجمع أعتد، وعُتِدَ، وأعتدة.

﴿سُرَادِقُهَا﴾: السُرَادِق - بضم السين وكسر الدال -: الفسطاط الذي يمد فوق صحن البيت، والخيمة، والغبار، والدخان المرتفع المحيط بالشيء، والجمع سرادقات. وفي الكشف: شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق، وهو الحجر التي تكون حول الفسطاط، وبيت مسردق: ذو سرادق، وقيل: هو دخان يحيط بالكفار قبل دخول النار، وقيل: حائط من نار يطيف بهم. وقال الراغب: السرادق: فارسي معرب، وليس في كلامهم اسم مفرد ثالث حروفه ألف بعدها حرفان إلا هذا. وفي المختار: السرادق مفرد، والجمع سرادقات الذي يمد فوق صحن الدار، وكل بيت من كرسف، أي: قطن فهو سرادق، ويقال: بيت مسردق. قال الجوهري: والسرادق: واحد السرادقات، وهي التي تمد فوق صحن الدار، وكل بيت من كرسف فهو سرادق، ومنه قول رؤبة:

يا حَكَمُ بن المنذرِ بن جارودٍ سُرَادِقُ المَجْدِ عليك ممدودٌ

وقال الشاعر:

هو المُدْخِلُ النُّعْمَانُ بيتاً سَمَاؤُهُ صُدُورُ الفَيُولِ بَعْدَ بَيْتِ مُسَرْدَقِ

يقوله سلامة بن جندل لما قتل ملك الفرس ملك العرب النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة.

(المهل): بضم الميم، اسم يجمع معدنيات الجواهر كالفضة والحديد والصفير، ما كان منها ذائباً، القطران الرقيق، الزيت الرقيق، السم، القيح، أو صديد الميت خاصة، ما يتحات عن الخبز من الرماد، وقيل: هو كعكر الزيت، أي: ما بقي في الإناء منه، والخلاصة: هو اسم جامع لكل المستقذرات التي تغشى منها النفس، وتتألم، وتنفر.

﴿مُتَّفَقًا﴾: تقدم ذكر هذه المادة في هذه السورة، وهي هنا: متكأ من

المرفق، وهذا لمشكلة قوله: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ الآتي، وإلا فلا ارتفاع لأهل النار ولا اتكاء، وقد يكون من وادي قوله:

إِنِّي أَرِقْتُ فَبِئْسَ اللَّيْلُ مُرْتَفَقًا كَأَنَّ عَيْنِي فِيهَا الصَّابُ مَذْبُوحٌ

والارتفاع: الاتكاء على المرفق مع نصب الساعد، وهي هيئة المتحزن المتحسر، والصاب: نبت مرّ كالحنظل، والمذبوح: المشقوق، وهو كناية عن البكاء وانصباب الدموع، والبيت لأبي ذؤيب الهذلي.
(السندس): مارق من الديباج.

(الإستبرق): ما غلظ من الديباج، والإستبرق يونانية، والسندس فارسية، وقيل: هندية، وقد تقدم ذكرهما في جدول أحصينا فيه الألفاظ الأعجمية.

○ الإعراب:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ الحق خبر لمبتدأ محذوف، ومن ربكم حال، ويجوز أن يكون الحق مبتدأ، ومن ربكم خبره، فمن شاء الفاء استئنافية، ومن شرطية مبتدأ، وشاء فعل ماضٍ في محل جزم فعل الشرط، والفاعل مستتر تقديره: هو، والفاء رابطة للجواب؛ لأن الجملة طلبية، واللام لام الأمر، ويؤمن مضارع مجزوم بلام الأمر، ومن شاء فليكفر عطف على سابقتها ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ إن واسمها، وجملة أعتدنا خبرها، وللظالمين متعلقان بأعتدنا وناراً مفعول به، وأحاط بهم سرادقها الجملة صفة لنار، وأحاط فعل ماضٍ وبهم متعلقان بأحاط، وسرادقها فاعل أحاط ﴿وإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ الواو عاطفة، وإن شرطية، ويستغيثوا فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، ويغاثوا جواب الشرط، وبماء متعلقان بيغاثوا، وكالمهل صفة لماء، وجملة يشوي الوجوه صفة ثانية، أو حال، والوجوه مفعول به ﴿يَتَسَكَّرُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يتسكك فعل ماضٍ جامد من أفعال الظم، والشراب فاعل، والمخصوص بالظم محذوف، أي: هي،

وساءت عطف على بئس، ومرتفعاً تمييز محول عن الفاعل، أي: مرتفعها، ولا تلتفت لمن أعربها مصدرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ إن واسمها، وجملة آمنوا صلة، وعملوا الصالحات عطف على آمنوا، إنا لا نضيع يجوز أن تكون هذه الجملة خبر إن، أو يجوز أن تجعلها معترضة، وإن واسمها، وجملة لا نضيع خبرها، وفاعل نضيع مستتر تقديره: نحن، وأجر مفعول به، ومن موصول مضاف إليه، وجملة أحسن صلة، وعملأ تمييز، ويجوز أن يكون مفعولاً به، وفاعل أحسن ضمير هو الرابط إذا جعلت «إنا لا نضيع» خبر «إن الذين» أو الرابط هو تكرر الظاهر بمعناه ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الجملة خبر ثان لأن الذين، أو خبر إذا جعلت جملة «إنا لا نضيع» معترضة، وأولئك مبتدأ، ولهم خبر مقدم، وجنات عدن مبتدأ مؤخر، والمبتدأ الثاني، وخبره خبر أولئك، وجملة تجري من تحتهم الأنهار حال من جنات، أو صفة لها، فصار لهم بذلك نوعان من الثواب من خمسة أنواع، والثلاثة الباقية هي: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يحلون فعل مضارع مبني للمجهول، الواو نائب فاعل، وفيها حال، أي: حال كونهم في الجنة، أو متعلقان بيحلون، ومن أساور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول محذوف، أي: حلياً من ذهب، ومن ذهب صفة لأساور، ويلبسون عطف على يحلون، والواو فاعل، وثياباً مفعول به، وخضراً صفة، ومن سندس صفة، أو حال من ثياباً، وإستبرق عطف على سندس، ومتكئين حال من أولئك، وفيها حال أيضاً، فهي متداخلة، وعلى الأرائك متعلقان بمتكئين، فتمت بذلك النعم السوابغ الخمس ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ تقدم إعراب نظيرتها، فجدد به عهداً.

□ البلاغة:

في هذه الآيات فنون كثيرة من البلاغة، تقدم ذكر معظمها، فنكتفي بالإشارة إليها:

(١) التهكم:

في قوله تعالى: ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمُهْلٍ﴾ فقد سمي أعلى أنواع العذاب إغاثة، والإغاثة هي الإنقاذ من العذاب تهكماً بهم، وتشفياً منهم، والتهكم: فن طريف من فنونهم، من تهكمت البئر: إذا تهدمت، أو من التهكم بمعنى الغضب الشديد، أو الندم على أمر فائت، فالبشارة فيه إنذار، والوعد معه وعيد، والإجلال للمخاطب المتهكم به تحقير، وهذه الآية من أحسن شواهد؛ إذ جعل الإغاثة ضد الإغاثة نفسها، ففيه إلى جانب التهكم مشاكلة أيضاً. وقد افتتن الشعراء بهذا المعنى، وأخذ بعضهم بلفظه، فأجاد من جهة، وأسف من جهة التركيب، وذلك بقوله يهجو بخيلاً:

أبات الضيوف على سَطْحِهِ فبات يُريهم نجومَ السَّمَاءِ
وقد فتَّتَ الجوعُ أكبادَهُمْ وإن يستغيثوا يُغاثُوا بماءٍ

وقد برع فيه من شعرائنا ابن الرومي، وأوردنا نماذج من تهكمه، ونورد الآن أبياتاً له يتهكم فيها بصاحب لحية طويلة:

ارع فيها موسى فَإِنَّكَ منها يشهدُ الله في آثام كبير
أَيُّما كوسج يراها فيلقى ربَّه بعدها صحيح الضمير
هو أخرى بأن يشكَّ ويغرى باتِّهام الحكم في التقدير
لحية أهملتْ فالتَّ وفاضتْ فالِإِلهَا تشيِّرُ كفَّ المشير
ما رأتها عَيْنُ امرئٍ ما رآها قَطُّ إِلَّا أَهْلًا بالتَّكْثِيرِ
روعة تستخفُّه لم يُرْعَهَا مَنْ رَأَى وَجْهَ منكِرٍ ونكير
فاتق اللهَ ذا الجلال وغير منكراً فيك مُمَكِّنَ التَّغْيِيرِ
أو فقَصَّرَ منها فحسبك منها نصف شبرٍ علامة التَّذْكِيرِ

ومغالطته بادية من دخيلة إحساسه بهيبة اللحية، حتى البحري لم تسلّم لحيته من هجوه إذ يقول:

البحريّ ذنوبُ الوجهِ تعرفُ

وما رأينا ذنوبَ الوجهِ ذا أدب

(٢) التشبيه المؤكد:

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ فقد شبه النار المحيطة بهم بالسرادق المضروب على من يحتويهم، وأضيف السرادق إلى النار، فذلك هو التشبيه المؤكد، وهو أن يضاف المشبه إلى المشبه به، كقول بعضهم: والريحُ تعبثُ بالغصونِ وقد جرى

ذهبُ الأصيلِ على لجينِ الماء

فقد أضاف الأصيل، وهو المشبه، إلى الذهب، وهو المشبه به، كما أضاف الماء الذي هو المشبه، إلى اللجين الذي هو المشبه به، وقد رمقه شوقي فقال في وصف دمشق:

دخلتها وحواشيها زمردةٌ والشَّمْسُ فوق لجينِ الماء عقيان

والمراد بالتشبيه المؤكد قوله لجين الماء، أما حواشيها زمردة والشمس عقيان، فهو من التشبيه البليغ المضمّر الأداة.

(٣) المشاكلة:

وذلك في قوله: ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ فقد ذكر الارتفاق مشاكلة، لقوله فيما بعد في وصف أهل الجنة: ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ لأن ارتفاق اليد في النار لا يصح، بل فيها العذاب والضرر، وقد ذكرنا في باب: اللغة أنه يجوز أن يكون الارتفاق ناشئاً عن الهم والعذاب، كقول الهذلي المتقدم فلا مشاكلة، ومن طريف المشاكلة قول بعضهم، وقد دعاه إخوانه إلى صبح، وليس لديه ثياب يلبسها، فكتب إليهم.

إخواننا قَصِدُوا الصَّبُوحَ بِسَحَرَةٍ

وأتى رسولهم إِلَيَّ خَصِيصًا

قالوا التمسْ شيئاً نجدُ لك طِبْخه

قلتُ اطْبَخُوا لي جُبَّةً وقَمِيصًا

ومن المفيد أن نشير إلى تأنيث حسنت وساءت، وذلك على المعنى، أي:

ساءت النار مرتفقاً، وحسنت الجنة مرتفقاً.

(٤) الاستتباع:

وهو فن جميل، يتقصى الشيء الذي تتصدى للكتابة عنه باستقصاء الأوصاف المحيطة به، والملائمة له، فلا يكاد المتكلم يذكر معنى من المعاني، أو يتناول غرضاً من الأغراض، حتى يستتبع معنى آخر من جنسه يقتضي زيادة في وصفه، فقد ذكر تعالى الجنة جزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات، فوصفها بأن الأنهار تجري خلالها من تحتهم، ثم ذكر الأساور حلية لهم، ونكرها لإيهام أمرها في الحسن، وجمع بين السندس والإستبرق، وهما ما رقّ وغلظ من ألبسة الحرير على عادة المترفين؛ الذين يعدون ثياباً للصيف تصلح له، وللشتاء لباساً أخرى تلائم حالات البرد الشديد، وخص الاتكاء بالذكر لأنه هيئة المنعمين المترفين المسترخين على المقاعد والسرر في الأبهاء الممتعة، والقصور المنيفة، فسبحان قائل هذا الكلام.

ومن الاستتباع في الشعر قول المتنبي:

نَهَبْتُ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتُهُ لَهَيَّئْتُ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدٌ

فقد استتبع مدحه بالشجاعة مدحه بأنه سبب لصلاح الدنيا حيث جعلها مهنة بخلوده؛ لأنه سبب عمرائها. ومثله قوله أيضاً:

إِلَى كَمْ تَرُدُّ الرُّسُلَ عَمَّا أَتَوَابَهُ كَأَنَّهُمْ فِيمَا وَهَبْتَ مَلَامٌ

فقد مدح سيف الدولة بالشجاعة أيضاً، واستتبع في باقي البيت مدحه بالكرم لعصيان الملام في الهبات، والمعنى: إنك تردهم عما يطلبون من الهدنة ردك لوم اللاتمين لك في العطاء، أي: كما أنك لا تصغي إلى ملامة لائم في سخائك، فكَذلك لا تقبل الهدنة، وهذا من أروع ما تبتكره الأذهان. ومن الفائدة أن نورد أبياتاً مختارة من هذه القصيدة التي قالها في مديح سيف الدولة، وقد وردت عليه رسل الروم يطلبون الهدنة في سنة أربع وأربعين وثلاثمئة، أولها:

أَرَأَيْكَ كَذَا؟ كُلُّ الْمُلُوكِ هُمَامٌ وَسَحَّ لَهُ رُسُلَ الْمُلُوكِ غَمَامٌ؟
يقول: هل راع ملك جميع الملوك، كما أرى من روعك إياهم، وهل تقاطرت الرسل على ملك كما تقاطرت عليك. جعل توالي الرسل عليه كسح الغمام. وفي البيت براعة استهلال؛ لأنه أشار فيه، وهو مطلع القصيدة، إلى موضوع الرسل، ثم قال:

وَدَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا فَأَصْبَحَ جَالِسًا
وَأَيَّامُهَا فِيمَا يُرِيدُ قِيَامًا
إِذَا زَارَ سِيفُ الدَّوْلَةِ الرُّومَ غَازِيًا
كَفَّاهَا لِمَامٌ لَوْ كَفَّاهُ لِمَامٌ
فَتَى تَتَّبِعُ الْأَزْمَانَ فِي النَّاسِ خَطْوَهُ
لِكُلِّ زَمَانٍ فِي يَدَيْهِ زِمَامٌ
تَنَامُ لَدَيْكَ الرُّسُلُ أَمْنًا وَغِبْطَةً
وَأَجْفَانُ رَبِّ الرُّسُلِ لَيْسَ تَنَامُ
حِذَارًا لِمُعْرُورِي الْجِيَادِ فَجَاءَةً
إِلَى الطَّعْنِ قُبْلًا مَا لَهْنٌ لِحَامُ
تُعْطَفُ فِيهِ وَالْأَعِنَّةُ شَعْرَهَا
وَتُضْرَبُ فِيهِ وَالسَّيَاطُ كَلَامُ
إِلَى كَمْ تَرُدُّ الرُّسُلَ عَمَّا أَتَوْا بِهِ
كَأَنَّهُمْ فِيمَا وَهَبْتَ مَلَامُ
وَإِنْ كُنْتَ لَا تُعْطِي الذِّمَامَ طَوَاعَةً
فَعَوِذُ الْأَعَادِي بِالْكَرِيمِ ذِمَامُ
وَإِنْ نَفُوسًا أَمَمْتُكَ مَنِيعةً
وَإِنْ دِمَاءً أَمَلْتُكَ حَرَامُ

وفيها يقول:

وَشَرُّ الْحَمَامَيْنِ الرَّؤَامَيْنِ عِيشَةً
يَذِلُّ الَّذِي يَخْتَارُهَا وَيُضَامُ
فَلَوْ كَانَ صَلَاحًا لَمْ يَكُنْ بِشَفَاعَةٍ
وَلَكِنَّهُ ذُلٌّ لَهُمْ وَعَـرَامُ

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ۚ﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أُكْلُهُمَا وَلَمْ تَظَلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا
نَهْرًا ۚ﴾ وَكَانَ لَهُمْ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا
ۚ﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۚ﴾ وَمَا أَظُنُّ
السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ۚ﴾ قَالَ لَهُ
صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۚ﴾
لَنَكُونَنَّ أَهْلًا لِلَّهِ أَوْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۚ﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ
اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۚ﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي
خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۚ﴾ أَوْ
يُصْبِحَ مَاءً وَهًا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۚ﴾ وَأُحِيط بِشَمْرِهِ فَاصْبِحْ يَلْبَسُ كَفِيَّةً عَلَىٰ
مَا أَفْتَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۚ﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ
فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ۚ﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا
وَخَيْرٌ عُقْبًا ۚ﴾

☆ اللفظة:

﴿أَعْنَبٍ﴾: جمع عنب، والعنب: الحبة، وفي القاموس وغيره: عنب
الكرم: صار ذا عنب، والعنب: ثمر الكرم، وجمعه أعناب، والحبة منه عنبه.
﴿وَحَفَفْنَاهُمَا﴾: جعلنا النخل محيطاً بكل منهما. يقال: حفه القوم: إذا

طافوا به، وحففته بهم: إذا جعلتهم حافين حوله، فتزيده الباء مفعولاً ثانياً، كقولك: غشيه، وغشيته به، وفي الأساس: حقّوا به واحتقّوا: أطافوا، وهم حافون به، وحففته بالناس: جعلتهم حافّين به و«حُفَّتِ الجنة بالمكاره» ﴿وَحَفَفَتْهُمَا بِنَخْلٍ﴾ ودخلت عليه وهو محفوف بخدمة، وهودج محفف بالديباج، قال امرؤ القيس:

رَفَعْنَ حَوَايَا وَأَقْتَعَدْنَ قَعَائِدًا وَحَفَفْنَ مِنْ حَوْكِ الْعِرَاقِ الْمَنْمَقِ

وجلسوا حفافيه، وحفافي سريريه، وهما جانباه، وركبت في محفّتها، وهو رجل محفوف بثوب، وما بقي في شعر رأسه إلا حفاف، وهو طرّة حول رأسه، وحفّت المرأة وجهها واحتقّته: أخذت شعره، وحفّ الفرس والريح والطائر والسهم خفيفاً، وهو صوت مروره، ولأغصان الشجرة خفيف.

﴿ثَمَرٌ﴾: أنواع من المال من ثمر ماله: إذا كثره بالتشديد، وفي المصباح: الثمر - بفتحيتين - والثمرة مثله، فالأول مذكر، ويجمع على ثمار، مثل: جبل وجبال، ثم يجمع على ثمر، ككتاب وكتب، ثم يجمع على أثمار، مثل: عنق وأعناق، والثاني مؤنث، والجمع ثمرات، مثل: قصبه وقصبات، والثمر هو الحمل الذي تخرجه الشجرة، سواء أكل أو لا، فيقال: ثمر الأراك، وثمر العوسج، وثمر الدوم، وهو المقل، كما يقال: ثمر النخل، وثمر العنب، قال الأزهري: وأثمر الشجر: أطلع ثمره أول ما يخرج، فهو مثمر، ومن هنا قيل لما لا نفع فيه: ليس له ثمرة، وفي الأساس: ﴿وَكَاثِلُهُ ثَمَرٌ﴾ أي: مال، وانظر ثمر مالك ونماءه، ومال ثمر: مبارك فيه، وأثمر القوم وثمروا ثموراً: كثر مالهم، وثمر ماله يثمر: كثر، وفلان مجدود ما يثمر له مال. والمراد في الآية أنه كان إلى جانب الجنتين الموصوفتين الأموال الدائرة من الذهب والفضة وغيرهما، وكان وافر اليسار من كل وجه.

﴿حُسْبَانًا﴾: إما أن تكون مصدرًا، كالغفران والبطلان، فإن لحسب مصادر عديدة، تقول: حسبه بفتح السين، يحسبه بضمها، حسباً وحساباً وحسباناً وحُسباناً وحسبة وحسابة: عدّه، وتقول: حسبه بكسر السين،

يحسبه بكسرها وفتحها، حساباً ومحسبة ومحسبة: ظنه، وتقول: حسب بضم السين، يحسب بضمها أيضاً، حسباً وحساباً: كان ذا حسب وذا كرم، فهو حسيب، فإلى أي الفروع ينتمي هذه المصدر؟ واضح مما تقدم أنه ينتمي إما إلى حسب يحسب بمعنى العد، والمعنى عندئذ: يرسل عليها مقداراً من العذاب قدره الله وحسبه، وهو تخريبها، والإطاحة بها، وذلك الحسبان حساب ما كسبت يدها، وإما أن تكون حسباناً جمع حسبانة بضم الحاء، وهي السهم، أو الصاعقة، وقال الزجاج: عذاب حسبان، وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك.

﴿زَلَقًا﴾: صفة لصعيداً، أي: ملساء لا تثبت عليه القدم، وفي القاموس: الزلق - بفتحين - والزلق - بفتح فسكون -: أرض ملساء ليس بها شيء، وصيرورتها كذلك لاستئصال نباتها.

﴿غَوْرًا﴾: مصدر غار في الأرض، أي: ذهب، فلا سبيل إليه، فهو بمعنى الفاعل، أي: غائراً في الأرض لا يدرك، وزاد أبو نصر غووراً، وغارت عينه تغور غووراً، وغارت الشمس تغور غووراً أيضاً، والغور الاسم، يقال: سقطت في الغور يعني: الشمس، وغار الرجل يغور غوراً: إذا أتى الغور، وزاد اللحياني: وأغار أيضاً، وأنشد بيت الأعشى:

نَبِيٍّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لَعْمَرِي فِي الْبَلَدِ وَأُنْجَدَا

فهذا على ما قال اللحياني، وكان الكسائي يقول: هو من الإغارة، وهي: السرعة، وكان الأصمعي يقول: أغار ليس هو من الغور، إنما هو بمعنى عدا. وقال اللحياني: يقال للفرس: إنه لمغوار، أي: شديد العدو، والجمع مغاوير، والتفسير الأول الوجه؛ لأنه قال: وأنجدا، فإنه أراد أن الغور، وأتى نجداً، والغور تهامة، وغار فلان على أهله يغار غيرة، ورجل غيور من قوم غيّر، وامرأة غيّر من نساء غيّر. وقال الأصمعي: فلان شديد الغار على أهله، أي: شديد الغيرة، وزاد اللحياني: والغير، وقال أبو نصر: أغار فلان على بني فلان يُغير إغارة، وقال اللحياني: يقال للرجل:

إنه لمغوار، أي: شديد الإغارة، والجمع: مغاوير، وقال أبو نصر: يقال: غارهم يغيرهم: إذا مارهم، والغيار المصدر، قال عبد مناف بن ربيعي الهذلي:

ماذا يَغَيِّرُ ابْتَتَي رِبْعٍ عَوِيلُهُمَا
لا تَرْقُودَانِ وَلَا بُؤْسَى لِمَنْ رَقَدَا

يريد: أنه لا يغني بكاؤهما على أبيهما من طلب ثأره شيئاً.

وقال أبو نصر: الغاران: البطن والفرج، يقال: المرء يسعى لغاريه، أي: لبطنه وفرجه، وقال أبو عبيدة: يقال لفم الإنسان وفرجه: الغاران، وقال أبو نصر: الغار كالكهف في الجبل، ويقال: في أمثالهم: «عسى الغوير أبؤساً» وأصله: أنه كان غار فيه ناس، فأنهار عليهم، أو أتاهم فيه عدو فقتلهم فيه، فصار مثلاً لكل ما يخاف منه الشر، وقيل: إن الغوير اسم ماء بناحية السماوة، قالته الزباء لما رأت قصيراً الذي جاء يأخذ بثأر جديمة الأبرش، عن طريق الغوير. والغوير: تصغير غار، وخلاصة معنى المثل: عسى أن يكون جاء البأس من الغار، وحسبنا ما تقدم، فهذه المادة لا يدرك غورها.

﴿حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾: العروش في المصباح: العرش: شبه بيت من جريد يجعل فوقه الثمام، والجمع عروش. فهو في الأصل صنع ليوضع عليه الكرم، فإذا سقط ما عليه، وقد تقدم تقريره.

﴿الْوَلِيَّةُ﴾: بفتح الواو وبكسرها: الملك، والقهر، والسلطة.

○ الإعراب:

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ تقدم في سورة البقرة أن ضرب مع المثل يجوز أن يتعدى لاثنتين؛ لأنه بمعنى الجعل، فاضرب فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، ولهم متعلقان باضرب، ومثلاً مفعول به، ورجلين لك أن تجعلها بدلاً من مثلاً، فيكون لهم بمثابة المفعول الثاني، ومثلاً هو المفعول الأول، ولك أن تجعل رجلين هي المفعول الثاني، وسيأتي حديث الرجلين ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا

جَنَّتَيْنِ مِّنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ جملة جعلنا صفة لرجلين، ولأحدهما مفعول ثان لجعلنا، جنتين مفعول أول، ومن أعناب صفة لجنتين، وحففناهما عطف على جعلنا، وهو فعل وفاعل ومفعول به، وبنخل متعلقان بحففناهما، وجعلنا بينهما زرعاً عطف على ما تقدم، وقد تقدم إعراب نظيرتها ﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ لَهُ شَيْئًا﴾ ﴿٣٣﴾ كلتا مبتدأ، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف؛ لأنه اسم مقصور، وسيأتي حكم كلا وكلتا في باب: الفوائد، وجملة آتت أكلها خبر كلتا، وقد روعي لفظها فأتى الخبر مفرداً، ولم تظلم عطف على آتت، ومنه حال لأنه كان صفة لشيئاً، وشيئاً إما مفعول به على أن تظلم بمعنى تنقص، أو مفعول مطلق، وقد تقدم تحقيق ذلك، ومن نوادر كلام العرب: قيل لأعرابي: أتناكل العنب؟ قال: ما ظلمني أن آكله، أي: ما منعي. قال أبو عثمان سعيد بن هارون الأشناداني: ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ لَهُ شَيْئًا﴾ أي: لم تمنع ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا﴾ فجرنا فعل وفاعل، وخلا لهما ظرف متعلق بفجرنا، ونهراً مفعول به ﴿وَكَاثَ لُتْمُرٍ فَقَالَ لَصَحِيحِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ الواو عاطفة، وكان فعل ماض ناقص، وله خبر كان المقدم، وثمر اسمها المؤخر، فقال عطف على وكان، ولصاحبه متعلقان بقال، والواو للحال، وهو مبتدأ، وجملة يحاوره خبر، والجملة حالية، والمراد به أحدهما ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ الجملة مقول القول، وسيأتي أنه قال ثلاث قولات منافية للحق في باب: البلاغة، وأنا مبتدأ، وأكثر خبر، ومنك متعلقان بأكثر، ومالاً تمييز، وأعز نفراً عطف على أكثر مالاً ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ودخل جنته فعل وفاعل ومفعول به على السعة، وهو الواو للحال، وهو مبتدأ، وظالم خبر، والجملة حالية، ولنفسه متعلقان بظالم، وقال فعل ماض والفاعل مستتر تقديره: هو، وجملة ما أظن مقول القول، وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي أظن، وهذه فاعل تبيد، وأبدأ ظرف زمان متعلق بتبيد ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ وما أظن عطف على ما أظن الأولى، والساعة مفعول به أول، وقائمة مفعول به ثان، وأراد وهو منكر للبعث:

ما أحسب الساعة قائمة كما تزعم، كما أن شكه في بيدودة جنته وأمواله ناشئ عن طول اغتراره وهيمته الحرص عليه، ولئن: الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، وإن شرطية، ورددت فعل ماضي مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط، والتاء نائب فاعل، ولأجدن: اللام واقعة في جواب القسم وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، كما هي القاعدة، على حد قول صاحب الخلاصة:

واحذف لدى اجتماع شَرْطٍ وَقَسَمٍ

جواب ما أَخْزَتْ فهو مُلْتَزَمٌ

وخيراً مفعول به لأجدن، ومنها متعلقان بخيراً، ومنقلباً تمييز، أي: مرجعاً، فهو مصدر، ويجوز أن نعرب خيراً حال، ومنقلباً مفعول، أي: منقلباً خيراً من منقلب هذه الدنيا ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ قال فعل ماضٍ، وله متعلقان به، وصاحبه فاعل، والواو للحال، وهو مبتدأ، وجملة يحاوره خبر، والهمزة للاستفهام التوبيخي والتقريعي، وكفرت فعل وفاعل، وبالذي متعلقان بكفرت، وجملة خلقتك صلة، ومن تراب جار ومجرور متعلقان بخلقتك، وثم من نطفة عطف، وثم حرف عطف، وسواك فعل ماضٍ وفاعل مستتر، والكاف مفعول به، ورجلاً حال، وإنما ساغ مجيئه حالاً، وهو غير مشتق لأنه بعد سواك إذ كان من الجائز أن يسويه غير رجل، وسيأتي بحث ذلك مفصلاً في باب: الفوائد، ويجوز أن يعرب مفعولاً ثانياً لسواك، وأعربه بعضهم تمييز ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ لكننا: الأصل لكن أنا، فألقيت حركة الهمزة المحذوفة على النون، وأدغمت النون في النون، والجيد حذف الألف في الوصل وإثباتها في الوقف؛ لأن أنا كذلك، والألف فيه زائدة لبيان الحركة، وأنا مبتدأ، وهو، أي: ضمير الشأن، مبتدأ ثان، والله مبتدأ ثالث، ورب الخبر، والياء عائدة على المبتدأ الأول، ولا يجوز أن تكون لكن المشددة العاملة نصباً، إذ لو كان كذلك لم يقع بعدها هو؛ لأنه ضمير مرفوع، ويجوز أن يكون

اسم الله بدلاً من هو، ومثل هذا التركيب قول القائل:

وَتَرْمِينِي بِالطَّرْفِ أَي أَنْتَ مُذْنِبٌ

وَتَقْلِينَنِي لَكِنْ إِيَّاكَ لَا أَقْلِي

ولكن أصله: لكن أنا، فنقلت حركة الهمزة إلى النون، ثم حذفتم، ثم ادغمت النون في النون بعدها، وحذفت الألف الأخيرة في الرسم كاللفظ، ولو أجرى الوصل مجرى الوقف لثبتت، وقدم المفعول، وهو إياك، للاهتمام ببراءتها من قلاه، وتخصيصها بذلك دون غيرها من النساء. ووضح أن قوله: «ترمينني بالطرف» استعارة تصريرية؛ لأنه شبه إطلاق البصر بإطلاق الحجر. والواو استئنافية، ولا نافية، وأشرك فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: أنا، وبري متعلقان بأشرك، وأحدًا مفعول به ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ولولا: الواو عاطفة، ولولا حرف تخفيض، أي: هلا، وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بقلت، وما شاء الله ما موصولة في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا الذي شاءه الله من بدائع الجمال، وتهاويل النعم، وتعاجيب المن والآلاء، أو نعرب ما مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: كان، والجملة مقول القول، وجملة شاء الله صلة، والعائد محذوف كما قدرناه، ويجوز أن تكون شرطية منصوبة الموضع بفعل الشرط، والجواب محذوف، أي: كان، والمعنى: أي شيء شاءه الله كان، والجملة كلها مقول القول، ولا نافية للجنس، وقوة اسمها المبني على الفتح، وإلا أداة حصر، وبالله خبر لا ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إن شرطية، وترني فعل الشرط، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، والنون للوقاية، والياء مفعول به، وحذفت في رسم المصحف، وأنا ضمير فصل، وأقل مفعول به ثان لترني، ويجوز أن تعرب أنا توكيداً للياء، ومنك متعلقان بأقل، ومالاً تمييز، وولداً عطف عليه ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه اقتران بفعل الرجاء، وهو جامد، وقد تقدمت مواضع وجوب ربط الجواب بالفاء، المجموعة في قول بعضهم:

اسميه طليئة وبجامد وبما ولن وبقد وبالتنيس

وربي اسم عسى، وأن وما في حيزها في محل نصب خبرها، وخيراً مفعول ثان ليؤتيني، ومن جنتك متعلقان بخير ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ ويرسل عطف على يؤتيني، والفاعل مستتر تقديره: هو، وعليها متعلقان يرسل، وحسباناً مفعول به، فتصبح: الفاء عاطفة على ما تقدم، وتصبح فعل مضارع منصوب؛ لأنه عطف على ما تقدم، واسم تصبح مستتر تقديره: هي، وصعيداً خبر تصبح، وزلقاً نعت لصعيد من باب: الوصف بالمصدر ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لِمُطْلَبًا﴾ أو حرف عطف، ويصبح معطوف على ما قبله، ومأوها اسم يصبح، وغوراً خبرها، والفاء عاطفة، ولن حرف نفي ونصب واستقبال، ويستطيع منصوب بلن، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنت، وله متعلقان بطلباً، وطلباً مفعول به ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأُصْبِحَ يُقْلَبُ كَفِيهِ عَلَى مَا أَفْقَقَ فِيهَا﴾ الواو عاطفة على محذوف يقدر بحسب مدلول الكلام، أي: فانقضت الصواعق على جنته، وغارت الأمواه فيها، وأحيط بثمره بالهلاك أيضاً، وأحيط فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل مستتر، وبثمره متعلقان بأحيط، فأصبح عطف، واسمها مستتر تقديره: هو، وجملة يقلب كفيه خبرها، وعلى ما متعلقان بيقلب؛ لأنه ضمن معنى يندم، وسيأتي سر هذا التعبير في باب: البلاغة، ويجوز أن يتعلق الجار والمجرور بمحذوف على أنه حال من فاعل كفيه، أي: نادماً ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ الواو للحال، وهي مبتدأ، وخاوية خبر، وعلى عروشها خبر ثان، وقد تقدم إعرابه، ويقول عطف على يقلب، أو الواو للحال، وجملة يقول حال من فاعل يقلب، وجملة يا ليتني لم أشرك مقول القول، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وبربي متعلقان بأشرك، وأحداً مفعول به، وقوله يا ليتني تقدم بحته مراراً، وهو أن تكون يا للتنبيه، أو للدعاء، والمنادى محذوف ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَّهُمْ فِتْنَةً يَصُورُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾ الواو للعطف، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وتكن فعل مضارع ناقص

مجزوم، وله خبرها المقدم، وفئة اسمها المؤخر، وجملة ينصرونه صفة لفئة، وذكّرت الصفة، وجمعت؛ لأن الفئة تتضمن الجمع، وهو يتضمن الذكور والإناث، ومن دون الله حال، والواو حرف عطف، وما نافية، وكان واسمها المستتر، ومنتصراً خبرها ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ هنالك اسم إشارة في محل نصب على الظرفية المكانية، وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم، والولاية مبتدأ مؤخر، والله متعلقان بما في معنى اسم الإشارة، أو بمتعلقه، والحق صفة لله، ويجوز أن يتعلق اسم الإشارة بمعنى الاستقرار في الله، والولاية مبتدأ، والله خبره، أي: مستقرة لله، ويجوز أن يتعلق بالولاية نفسها؛ لأنها مصدر بمعنى النصر، وهو مبتدأ، وخير خبر، وثواباً تمييز، وخير عقباً عطف على خير ثواباً، وعقباً بمعنى عاقبة.

□ البلاغة:

حفلت هذه الآية بأفانين متعددة من فنون البلاغة، وهذا هو التفصيل:

(١) التتميم والاحتراس والكناية:

التتميم أو التمام، وقد تقدم بحثه مستوفى في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ الآية، وهو هنا في وصف الجنتين، فإن قوله تعالى: ﴿وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ يحتمل أن تكون الجنتان مجرد اجتماع شجر متكاثف، ويستر بظل غصونه الأرض، كما تقتضيه الدلالة اللغوية على معنى الجنة، أو يكون النفع منها ضئيلاً كشجر الأثل والحمط ونحوهما، فيكون أسفه عليها أقل من أن تكون الجنتان من نخيل وأعناب ينتفع بما تثمرانه عليه، ثم تم ذلك أيضاً بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾ لئلا يتوهم أن الانتفاع قاصر على النخيل والأعناب، ولتكون كل من الجنتين جامعة للأقوات والفواكه متواصلة العمار على الشكل الحسن والترتيب الأنيق، ثم تم ذلك بقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ للدلالة على ديمومة الانتفاع بهما، فإن الماء هو سر الحياة، وعامل النمو

الأول في النباتات ، وإذا فقد استكمل هذا الرجل كل الملاذ ، واستوفى ضروب النعم ، ثم تم ذلك بقوله : ﴿ كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ۖ إِنَّتُ أُكُلَهَا ﴾ لاستحضار الصورة التامة للانتفاع بالموارد ، واحترس بقوله : ﴿ وَلَمْ تَظَلِم مِّنْهُ شَيْئاً ﴾ من أن يكون ثمة نقص في الأكل الذي آتته ، وليكون كناية عن تمام الجنتين ونموهما دائماً وأبداً ، وأنهما ليستا على عادة الأشجار ، حيث يتم ثمرها ، فتؤتيه ببعض السنين دون بعض ، أو تأتي بالثمر ناقصاً عاماً بعد عام ، فهي فياضة المورد في كل حين ، فقد استوفى وصف الجنتين هذه الفنون الثلاثة جميعاً .

(٢) اللف والنشر المشوش :

وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ ۖ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ الآية ، وحاصل ما قاله هذا الكافر ثلاث مقالات شنيعة ، وهي :

١ - ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ .

٢ - عندما دخل جنته متكبراً مزهواً ظالماً لنفسه قال وقد رنحه الغرور : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ .

٣ - والثالثة : بادئاً بالآخرة لأنها الأهم ، قائلاً : ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ ﴾ وثنى بالثانية ناصحاً لأنها تأتي في المرتبة بعدها ، فقال : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ ﴾ النخ وثلث بالأولى مفرعاً ، فقال : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ ﴾ .

فهو لَف ونشر مشوش ، قد تقدم ذكره .

(٣) عودة إلى التتميم والكناية :

ثم عاد إلى التتميم ، فصور الإطاحة بالجنتين وبالثمر معاً ، فقال : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ ثم وصف حالته ، فقال : ﴿ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ وتقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر ؛ لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن ، كما كنى عن ذلك بعض الأنامل ، والسقوط في اليد .

* قصة الرجلين الأخوين :

وهو أن أحد الرجلين اللذين ضرب بهما المثل ، وقد رويت قصتهما على طرق شتى ، وخلاصتها : أن رجلين أخوين من بني إسرائيل ، أحدهما كافر اسمه قطروس ، والآخر مؤمن اسمه يهوذا ، ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار ، فتشاطرهما ، فاشترى الكافر أرضاً بألف ، فقال المؤمن : اللهم إن أخي اشترى أرضاً بألف دينار ، وأنا أشتري منك أرضاً في الجنة بألف ، فتصدق به ، ثم بنى أخوه داراً بألف دينار ، فقال المؤمن : اللهم إني أشتري منك داراً في الجنة فتصدق به ، ثم تزوج أخوه امرأة بألف ، فقال : اللهم إني جعلت ألفاً صداقاً للحرور ، ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف ، فقال : اللهم إني اشتريت الولدان المخلدين بألف ، فتصدق به ، ثم أصابته حاجة ، فجلس لأخيه على طريقه ، فمر به في حشمة ، فتعرض له ، فطرده ، ووبخه على التصديق بماله ، وقيل غير ذلك ، وإنما أوردنا القصة على خلاف شرطنا في هذا الكتاب لطرافتها ، ولتكون نبراساً للمبدعين من الكتاب .

(٤) المبالغة :

وفي قوله تعالى : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ فن يقال له : المبالغة والإفراط في الصفة ، كما سماها ابن المعتز ، والتسمية الأولى لقدامة ، وهو : أن يذكر المتكلم حالاً لو وقف عندها لأجزأت ، فلا يقف عندها حتى يزيد في معنى كلامه ما يكون أبلغ في معنى قصده ، وقد جاءت المبالغة في الكتاب العزيز على ضروب ، نذكر ما ورد منها فيه :

أولاً - فمنها المبالغة في الصفة المعدولة ، وقد جاءت على ستة أمثلة :

أ - فعلان كرحمن ، عدل عن راحم للمبالغة ، ولا يوصف به إلا الله ، ولم تنعت العرب به أحداً في جاهلية ولا إسلام إلا مسيلمة الكذاب ، نعتوه به مضافاً ، فقالوا راحمان اليمامة ، وأنشد شاعر من بني حنيفة يمدح به مسيلمة :

سموتَ بالمجدِ يا بنَ الأكرمين أبا

وأنتَ غيثُ الورى لا زلتَ رحمانا

ب - فعال معدول عن فاعل للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾.

ج - وفعل عدل عن فاعل للمبالغة، كغفور وشكور.

د - فعيل عدل عن فاعل للمبالغة، كعليم وحكيم.

وهذه الصيغ الأربع وردت في القرآن، وهناك صيغتان: مفعّل كمطعن، ومفعّال كمطعام ومبطار.

ثانياً - إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة والإخبار عنه مجاز، وقد جاء منه في القرآن قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ فجعل مجيء جلائل آياته مجيئاً له للمبالغة.

ثالثاً - إخراج الممكن من الشرط إلى الممتنع ليمتنع وقوع المشروط، وقد تقدم ذكر هذا النوع في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾.

رابعاً - ما كان مجازاً فصار بالقرينة حقيقة كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقَةٍ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ فإن اقتران هذه الجملة بيكاد يصرفها إلى الحقيقة، فانقلبت من الامتناع إلى الحقيقة والإمكان.

خامساً - وقسم أتى بصيغة اسم التفضيل، وهو محض الحقيقة من غير قرينة، كقوله تعالى: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ وهو الذي نحن في صده.

سادساً - ما بولغ بصفته على طريق التشبيه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۚ كَأَنَّهُ جَمَلٌ صُفَّرَ﴾

* المبالغة في الشعر:

هذا ما ورد من المبالغة وضروبها في الكتاب العزيز. أما هي في الشعر

ففنون تتشعب، وأنواع اختلفت مقاييسها ومعاييرها، كما اختلفت آراء الناس فيها، فمنهم من يستجيدها، ويرأها الغاية القصوى في الجودة، ومنهم نابغة بني ذبيان، وهو القائل: أشعر الناس من استجيد كذبه، وضحك من رديئه. وقد أورد صاحب «العمدة» مثلاً على ذلك ما جرى بين النابغة وحسان بن ثابت ومطالبة حسان بن ثابت بالمبالغة، واتهامه بالتقصير، في قوله:

لنا الجفنات الغرَّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى
وأسيافنا يَقْطُرْنَ من نجدة دما
وهي مشهورة مستفيضة في كتب الأدب، وأورد صاحب «العمدة» من أبيات المبالغة التي اختلفت الآراء فيها قول امرئ القيس:

كَأَنَّ المِدامَ وَصوبَ الغمامِ
وريحَ الخُزامى ونَشَرَ القُطُرِ
يَعْلُ بِهِ برْدُ أنيابها
إذا غرَّد الطائرُ المستحرَّ
فوصف فاهها بهذه الصفة سحراً عند تغير الأفواه بعد النوم، فكيف تظنها أول النوم، وفي أول الليل؟ وقال امرؤ القيس:

تَنَوَّرْتُها من أَذْرِعاتٍ وأهلها يَبْثُرُ أدنى دارِها نظراً عالٍ
وبين المكانين بعد أيام.

وقال أيضاً يصف نارها:

نظرتُ إليها والنُّجومُ كأنَّها مَصابيحُ رُهبانٍ تُشبُّ لِقْفالِ
يقول: نظرت إلى نار هذه المرأة تشب لقفال، والنجوم كأنها مصابيح رهبان، وإنما يرجع القفال من الغزو والغارات وجه الصباح، فإذا رآوها من مسافة أيام وجه الصباح، وقد خمد سناها، وكل موقدها، فكيف كانت أول الليل؟ وشبه النجوم بمصابيح الرهبان لأنها في السحر يضعف نورها، كما يضعف نور المصابيح الموقدة ليلها أجمع، فربما نعسوا في ذلك الوقت.

* تعريف آخر للمبالغة:

وذهب قوم إلى أن المبالغة: إفراط في وصف الشيء الممكن عادة، القريب وقوعه، وسنورد من بديع المبالغة ما يستهوي الألباب، فمن ذلك ما رواه أحمد بن حمدون قال: كان الفتح بن خاقان يأنس بي، ويطلعني على الخاص من أموره، فقال لي مرة: يا أبا عبد الله! لما دخلت البارحة إلى منزلي استقبلتني جارية من جواري، فلم أمالك دون أن قبلتها، فوجدت بين شفيتها هواء لو رقد فيه المخمور صحا. فكان ذلك مما يستظرف ويستملح من الفتح بن خاقان. وقد اقتبسه بعضهم فقال:

سقى الله ليلاً طاب إذ زارَ طيفه فأنحلتَه حتَّى الصَّباحِ عناقا
بطيبٍ نسيمٍ منه يستجلبُ الكرى ولو رَقَدَ المخمورُ فيه أفاقا

وذهب أبو تمام في المبالغة مذهباً عجيباً، فقال وأبدع متغزلاً:

تلقاهُ طيفي في الكرى فتجئبا وقبَلْتُ يوماً ظِلَّهُ فتغضِّبا
وخبَّرَ أنِّي قد مرَّرتُ ببابه لأخْلِيسَ منه نظرةً فتَحَجَّبا
ولو مرَّتِ الرِّيحُ الصَّبا عند أذنيه يذكُرني لَسَبِّ الرِّيحِ أو لَتَعَبَا
ولم تجرِ مِنِّي خَطرَةٌ بضميره فتَظْهَرُ إلَّا كَنتُ فيه مُسَيِّبا
وما زادَهُ عندي قِيحُ فعَالِه ولا الصَّدُّ والإِعراضُ إلَّا تَحَيِّبا
وله أيضاً:

قد قَصَرْنَا دُونَكَ الأبصارَ رَخَوْفَاً أن تَذُوبَا
كُلَّمَا زِدْنَاكَ لَحْظاً زِدْنَا حُسْنًا وطِيبَا
مَرَضَتْ الحَاظُ عَيْنِي كَ فَأَمْرَضَتْ القُلُوبَا

* الفوائد:

(١) كلا وكلتا:

كلا وكلتا لفظان يعربان إعراب المثنى إن أضيفا إلى الضمير، فإن أضيفا إلى الاسم الظاهر أعربا إعراب الاسم المقصور، أي: بحركات مقدرة على

الألف على كل حال، وهما اسمان ملازمان للإضافة، ولفظهما مفرد، ومعناها مثني، ولذلك يجوز الإخبار عنهما بما يحمل ضمير المفرد باعتبار لفظهما، وضمير المثني باعتبار معنهما، وقد اجتمعا في قول الشاعر:

كلاهما حين جدَّ الجري بينهما قد أقلعا وكلا أنفيهما رابي

إلا أن اعتبار اللفظ أكثر، وبه جاء القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْهَمًا﴾ قال ابن هشام في «مغني اللبيب»: وقد سُئِلْتُ قديماً عن قول القائل: زيد وعمر كلاهما قائم، أو كلاهما قائمان؟ فكتبت: إن قُدِّرَ كلاهما توكيد قيل: قائمان؛ لأنه خبر عن زيد وعمرو، وإن قدر مبتدأ، فالوجهان، والمختار الأفراد، ويتعين مراعاة اللفظ في نحو: كلاهما محب لصاحبه. لأن معناه كل واحد منهما، وقوله:

كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا مُتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

ومن الأبيات التي أتى فيها ذكر «كلتا» قول حسان بن ثابت:

إِنَّ التِّي نَاوَلْتِنِي فَرَدَدْتُهَا قُتِلْتُ، قُتِلْتُ، فَهَاتَهَا لَمْ تُقْتَلِ
كَلَّتَاهُمَا حَلَبُ الْعَصِيرِ فَعَاطَنِي بِزُجَاجَةٍ أَرْخَاهُمَا لِلْمَفْصَلِ

أخبر عن التي بالمفرد فوحد، ثم قال كَلَّتَاهُمَا فثنى، وما معنى كَلَّتَاهُمَا حلب العصير، ولم يذكر إلا خمرة واحدة، وأخبر عن كَلَّتَاهُمَا بأَرْخَاهُمَا، والصحيح الإخبار عنهما بمفرد؛ لأنهم لحنوا من قال: كلا الرجلين قاما، وكلتا المرأتين حضرتا على اللغة الفصيحة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْهَمًا﴾ وأيضاً فالرواية صحت في المِفْصَل أنه بكسر الميم وفتح الصاد، وإنما يقال مَفْصَل بفتح الميم وكسر الصاد.

وأجاب الحريري وغيره عن هذه الاعتراضات بأن قال: أما قوله:

إِن التِّي نَاوَلْتِنِي فَرَدَدْتُهَا قَتَلْتُ . . .

فإنه خاطب به الساقى الذي كان ناوله كأساً ممزوجة؛ لأنه يقال: قَتَلْتُ الخمرة إذا مزجتها، فكأنه أراد أن يعلمه أنه فطن لما فعله، ثم إنه دعا عليه

بقوله: قتلت، وقوله أرخاها للمفصل يعني به اللسان، وسمي مفصلاً لأنه يفصل به بين الحق والباطل.

وقال أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري: اجتمع قوم على شراب، فغناهم المغني البيتين المتقدمين، فقال بعضهم: امرأتى طالق إن لم أسأل الليلة القاضي عبيد الله بن الحسن عن علة هذا الشعر، لم قال: إن التي فوحد، ثم قال كلتاها فثنى، فأشفقوا على صاحبهم، وتركوا ما كانوا عليه، ومضوا يتخطون القبائل حتى انتهوا إلى بني شقرة، وعبيد الله يصلي، فلما أتم صلاته شرحوا له، وسألوه الجواب عن ذلك، فقال لهم: إن التي عنى بها الخمر المزوجة بالماء، ثم قال من بعد: كلتاها حلب العصير يريد الخمر المتحلبة من العنب، والماء المتحلب من السحاب المكنى عنه بالمعصرات في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾.

(٢) الحال الثابتة:

الأصل في الحال أن تكون منتقلة؛ لأنها مأخوذة من التحول، وهو التنقل، وتقع ثابتة في مواضع يرجع إليها في المطولات، ومنها: أن يدل عاملها على تجدد ذات صاحبها وحدوثه، أو تجدد صفة له: نحو ﴿ثُمَّ سَوَّيْنَاكَ رَجُلًا﴾ إذ كان من الجائز أن يسويه غير رجل، وقولهم خلق الله الزرافة يديها أطول من رجلها، فيديها بدل من الزرافة بدل بعض من كل، وأطول حال ملازمة من يديها، ومن رجلها متعلقان بأطول؛ لأنه اسم تفضيل، وعامل الحال خلق، وهو يدل على تجدد المخلوق.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ﴿٤٥﴾ أَلَمْ آتِ الْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نَسِفُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى

رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾
وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنَوِّلُنَا مَا لِهَذَا
الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا
يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ
الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ
يَسْأَلُ الظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ
وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

☆ النِّبْتَةُ:

﴿هَشِيمًا﴾: يابساً متفرق الأجزاء، وقال الزمخشري: الهشيم: ما تهشم
وتحطم، الواحدة هشيمة، وقال ابن قتيبة: كل ما كان رطباً ويبس فهو
هشيم، ويقال: صارت الأرض هشيماً، أي: صار ما عليها من النبات
والشجر قد يبس وتكسر، وللهاء مع الشين فاء وعيناً خاصة التكسر،
والتحطيم، والرخاوة، وكل ما هو غير مقاوم فالهش الرخو اللين من كل
شيء، وخبزة هشّة: رخوة المكسر، ويقال: فلان هشّ المكسر، أي: سهل
الجانب فيما يطلب عنده من الحوائج، يكون ذلك مدحاً وذمّاً. والهشيش
كالهشيم، وهشّر الناقة: حلب ما في ضرعها أجمع، وشجرة هشرة وهشور:
يسقط ورقها سريعاً، والهيشر من الرجال: الرخو الضعيف الطويل، والهشّم
من الجبال: الرخوة، وتهشمت الأرض: أجذبت لانقطاع المطر عنها.

﴿نَذْرُهُ﴾: تفرقه وتشره وذرت الريح التراب، وأذرت العين دمعها،
وعيناه تذريان الدموع، وطعنته فأذريته عن فرسه، وأذراه الفرس عن ظهره:
رمى به، وذرا حدّ نابه: انسحقت أسنانه، وسقطت أعاليها، وبلغني عنه ذرّو
من قول، أي: طرف منه، وأخذ في ذرو من الحديث: إذا عرّض ولم يصرح،
قال صخر بن حبناء:

أتاني عن مغيرة ذَرُّوْ قَوْلٍ وعن عيسى فقلتُ به كذا ﴿نُفَادِرٌ﴾: نترك، يقال: غادر وأغدره: إذا تركه، ومنه الغدر: ترك الوفاء، والغدير: ما غادره السيل، والغديره: الشعر الذي نزل حتى طال، والجمع غدائر.

○ الإعراب:

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الواو استئنافية، واضرب فعل أمر، ولهم متعلقان باضرب، ومثل الحياة الدنيا مفعول به أول، والكاف مفعول به ثاني، وجملة أنزلناه من السماء صفة لماء، ويجوز أن تكون اضرب بمعنى اذكر، فينصب مفعولاً واحداً، فتكون الكاف خبراً لمبتدأ محذوف، أو متعلقة بمعنى المصدر، أي: ضرباً كماء ﴿فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ الفاء حرف عطف، واختلط فعل ماضٍ، وبه متعلقان باختلط، ونبات الأرض فاعل، وسيأتي سر هذا التشبيه في باب: البلاغة ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾ فأصبح عطف على اختلط، واسم أصبح مستتر يعود على نبات الأرض، وهشيماً خبر أصبح، وجملة تذرؤه الرياح صفة لقوله هشيماً، وكان الواو استئنافية، أو حالية، وكان واسمها، ومقتدراً خبرها، وعلى كل شيء متعلقان بمقتدراً ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المال مبتدأ، والبنون عطف على المال، وزينة الحياة مضاف إليه، والدنيا صفة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ الواو استئنافية، والباقيات مبتدأ، والصالحات صفة، وخير خبر الباقيات، والتفضيل ليس على بابه؛ لأن زينة الدنيا ليس فيها خير، أو هو على بابه في زعم الجاهلين والمغرورين، وعند ربك متعلقان بمحذوف حال، وثواباً تمييز، وخير أملاً عطف على خير ثواباً ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ الظرف متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، وجملة نسير الجبال مضاف إليها الظرف، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والجبال مفعول به، وترى الأرض عطف على ما تقدم، وفاعل ترى مستتر تقديره: أنت، والأرض مفعول به، وبارزة حال؛ لأن الرؤية بصرية ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ

تُعَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿١﴾ الواو هنا للحال، وحشرناهم فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل نصب حال، أي: نفعل التسيير في حال حشرهم ليشاهدوا بأعينهم تلك الأهوال، أو الواو عاطفة، وأريد بالماضي المستقبل، أي: ونحشرهم، ومن المفيد أن نورد هنا ما قاله الزمخشري بهذا الصدد، وهو: فإن قلت لم جيء بحشرناهم ماضياً بعد نسير وترى؟ قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير، وقبل البروز؛ ليعاينوا تلك الأهوال العظام. فلم: الفاء حرف عطف، ولم حرف نفي وقلب وجزم، ونغادر فعل مضارع مجزوم بلم، وفاعله مستتر تقديره: نحن، ومنهم حال لأنه كان صفة لأحداً، وأحداً مفعول به ﴿٢﴾ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴿٣﴾ الواو عاطفة على وحشرناهم، داخله في حيزها، وعرضوا فعل ماضي مبني للمجهول، والواو نائب فاعل، وعلى ربك متعلقان بعرضوا وصفاً حال من الواو في: وعرضوا ﴿٤﴾ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٥﴾ اللام جواب للقسم المحذوف، وقد حرف تحقيق، وجئتمونا فعل وفاعل ومفعول به، وكما نعت لمصدر محذوف، أو حال، وخلقناكم فعل وفاعل ومفعول به، والجملة لا محل لها، وأول مرة نصب على الظرف متعلق بخلقناكم، وجملة لقد جئتمونا حالية، أو مقول لقول محذوف ﴿٦﴾ بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ تَجْعَلُ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٧﴾ بل حرف إضراب، وزعمتم فعل وفاعل، وأن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، ولن حرف نفي ونصب واستقبال، ونجعل مضارع منصوب بلن، وفاعله مستتر تقديره: نحن، والجملة خبر أن، ولكم مفعول به ثان، وموعداً مفعول به أول لنجعل، وموعداً يحتمل الزمان والمكان، وإذا كان الجعل مجرد الإيجاد كانت لكم متعلقة به، وموعداً هي المفعول به ﴿٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴿٩﴾ الواو عاطفة، ووضع فعل ماض مبني للمجهول، والكتاب نائب فاعل، فتري: الفاء عاطفة، وترى فعل مضارع مرفوع، والفاعل مستتر تقديره: أنت، والمجرمين مفعول به أول، ومشفقين مفعول به ثان، والرؤية هنا علمية، ولك أن تجعلها بصرية، فتكون مشفقين حالاً، ومما متعلقان بمشفقين، وفيه متعلقان بمحذوف صلة الموصول ﴿١٠﴾ وَيَقُولُونَ يَوَلِّينَا مَا لَنَا هَذَا أَلَمْ يَكُنْ لَنَا بَعْدُ

صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَنَهَا ﴿١٠﴾ ويقولون عطف، ويا حرف نداء، وويلتنا منادى ينادون هلكتهم التي هلكوها، وسيأتي مزيد بيان لهذا النداء في باب: البلاغة، وما اسم استفهام مبتدأ، ولهذا خبره، والكتاب بدل، وجملة لا يغادر حالية، وصغيرة مفعول به، ولا كبيرة عطف على صغيرة، وإلا أداة حصر، وجملة أحصاها صفة لصغيرة، ويجوز أن تكون مفعولاً ثانية ليغادر؛ لأنها بمعنى ترك، وهي تنصب مفعولين، والمراد بالاستفهام هنا مجرد التعجب من الكتاب في هذا الإحصاء الدقيق ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الواو عاطفة، ووجدوا فعل وفاعل، وما مفعول به، وجملة عملوا صلة، أو ما مصدرية، والمصدر المؤول مفعول به، أي: وجدوا عملهم، وحاضراً مفعول به ثان، ولا يظلم الواو حالية، ولا نافية، ويظلم ربك أحداً فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل نصب على الحال ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الظرف متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، وجملة قلنا مضافة للظرف، وللملائكة متعلقان بقلنا، واسجدوا فعل أمر وفاعل، وآدم متعلقان باسجدوا، فسجدوا فعل وفاعل، وإلا أداة استثناء، وإبليس مستثنى، والاستثناء منقطع، وقيل: متصل، وقد تقدم تقرير ذلك ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ الجملة مستأنفة، مسوقة لبيان التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين، كأنه جواب سؤال مقدر، وهو: لم لم يسجد؟ فقيل: كان، واسم كان مستتر تقديره: هو، يعود على إبليس، ومن الجن خبر، ففسق عطف على كان، وعن أمر ربه متعلقان بفسق ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري التعجبي، وتتخذونه فعل مضارع وفاعل ومفعول به، وذريته يجوز أن تكون الواو عاطفة، وذريته عطف على الهاء، ويجوز أن تكون بمعنى مع، وذريته مفعول معه، وأولياء مفعول به ثان، ومن دوني متعلقان بمحذوف صفة لأولياء، أو بتتخذونه، وهم الواو للحال، وهم مبتدأ، ولكم متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان صفة لعدو، وعدو خبر هم، والجملة حال من مفعول تتخذونه، أو فاعله، وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم، وفاعله

مضممر مفسر بنكرة، وللظالمين متعلقان ببدلاً، وبدلاً تمييز، ويجوز أن يتعلق للظالمين بمحذوف حال، والخصوص بالذم محذوف تقديره: بئس، البدل إبليس وذريته ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ ما نافية، وأشهدتهم فعل وفاعل ومفعول به، وخلق السموات والأرض مفعول به ثان، ولا خلق أنفسهم عطف على خلق السموات والأرض ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ الواو عاطفة، وما نافية، وكنت: كان واسمها، ومتخذ خبرها، والمضلين مضاف إليه، وفيه وضع الظاهر موضع المضممر، وعصداً مفعول به ثان لمتخذ، وسيأتي الكلام عن هذا التشبيه في باب: البلاغة.

□ البلاغة:

(١) في قوله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَهَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية، تشبيه تمثيلي مقلوب، أما التشبيه التمثيلي فهو تشبيه الحياة الدنيا، وما فيها من زخارف تعجب المتلهي برؤيتها، والمستمتع بزيتها، حتى إذا أفاق من عمايته وجد أن ما كان يتلهى ويستمتع به باطل لا حقيقة، بالنبات الذي اختلط به الماء الهاطل من السماء، فربا، والتف، وزها، ورف، وأنبت من كل زوج بهيج، ولم تكد العين تستمتع به، والنفس تنشرح بمنظره، حتى يبس وتصوّح، ثم جف وذبل، ثم أصبح هشيماً تذروه الرياح، فكأنه ما كان. وأما التشبيه المقلوب فقد كان من حق الكلام أن يقول فاختلط بنبات الأرض، ووجهه أنه لما كان كل من المختلطين موصوفاً بصفة صاحبه، عكس للمبالغة في كثرته، وبعبارة أوضح: لما كان الاختلاط عبارة عن شيئين متداخلين صدق على كل منهما أنه مختلط ومختلط به، لكن في عرف اللغة والاستعمال تدخل الباء على الكثير غير الطارئ، فلذا جعل هذا من القلب، ولما كان القلب مقبولاً إذا كان فيه نكتة، وهي أن كلاً منهما مختلط، ومختلط به، وهي المبالغة في كثرته، حتى كأنه الأصل الكثير، فالمراد بالعكس مما قدمناه آنفاً هو القلب، وهذا من الممتع الرائع فاعرفه.

(٢) الاستعارة المكنية في قوله: ﴿يَوَلِّئْنَا﴾ نداء الويلة قائم على تشبيهها بشخص يطلب إقباله، كأنه قيل: يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك.

(٣) التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضْداً﴾ فقد شبه المضلين بالعضد الذي يتقوى به الإنسان، وأصله العضو الذي هو المرفق إلى الكتف، ولم يذكر الأداة، وقد جعله بعضهم استعارة، وهو خطأ لوجود ركني التشبيه، وهما: المشبه والمشبه به.

(٤) استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات: وذلك في قوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الصِّكِّتِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ فإن وجود المؤاخذه على الصغيرة يلزم منه وجود المؤاخذه على الكبيرة، فينبغي أن يكون لا يغادر كبيرة ولا صغيرة؛ لأنه إذا لم يغادر صغيرة، فمن الأولى أن لا يغادر كبيرة، وأما إذا لم يغادر كبيرة، فإنه يجوز أن يغادر صغيرة؛ لأنه إذا لم يعف عن الصغيرة، فينبغي القياس أنه لا يعفو عن الكبيرة، وإذا لم يعف عن الكبيرة، فيجوز أن يعفو عن الصغيرة.

(٥) وفي قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فن الجمع، وهو أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر في حكم واحد، وهو واضح في الآية، ومنه في الحديث قوله ﷺ: «من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها». فجمع الأمن، ومعافاة البدن، وقوت اليوم في حوز الدنيا بحذافيرها، وهي: النواحي، والواحد حذفار، ومنه في الشعر قول أبي العتاهية:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفِرَاقَ وَالْجِدَ مَفْسِدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيِّ مَفْسِدَةٍ

وقول ابن خفاجة الأندلسي:

تعلقته رِيَانٌ مِنْ خَمْرِ رِيْقِهِ لَهُ رَشْفُهَا دُونِي وَلِي دُونَهُ السَّكْرُ

وطبنا معاً ثَغْراً وَشَعْراً كَأَنَّمَا لَهُ مَنْطَقِي ثَغْرٌ لَهُ وَلِي ثَغْرُهُ شَعْرٌ

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢ وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا
مَصْرَفًا ۝٥٣ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا
رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَنُجَدِّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ
وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۝٥٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا
وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ
تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا أَبَدًا ۝٥٧ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ
يُؤْخَذُ لَهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ
مَوْبِلًا ۝٥٨ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۝٥٩﴾

☆ اللفظة:

﴿مَوْبِقًا﴾: اسم مكان، أو مصدر ميمي، من: وبق يبق وبقوا، كوثب
يشب وثوبا، أو وبق يوبق وبقا، كفرح يفرح وفرحا؛ إذا هلك، أي: مهلكا
يشتركون فيه، وهو النار، وفي القاموس وغيره: وبق يبق وبقا، من باب: ضرب
يضرب، ووبق يبق من باب: علم يعلم، ووبق يوبق وبقا ووبوقا وموبقا،
واستوبق: هلك، فهو وبق، والموبق: المهلك، والموعد، والمحبس، وكل
شيء حال بين شيئين. وعن الحسن: موبقا: عداوة، والمعنى: عداوة هي في
شدتها هلاك، وقال الفراء: البين: الوصل، أي: وجعلنا تواصلهم في الدنيا
هلاكا يوم القيامة.

﴿مَصْرَفًا﴾: اسم مكان، أو زمان، وقال أبو البقاء: أي: انصرافا، فهي

مصدر ميمي ، وفي الكشف مصرفاً : معدلاً ، قال :

أَزْهَيْرَ هَلْ عَنْ شَيْئَةٍ مِنْ مَصْرَفٍ

﴿جَدَلًا﴾: خصومة في الباطل، قال الفرزدق:

ما أنتَ بالحكم الرضّي حكومته

ولا الأصيل ولا ذى الرأى والجدل

﴿قُبْلًا﴾: عياناً ومقابلة، وفي القاموس: رأيتَه قُبْلًا وقَبْلًا وقِبْلًا وقِبْلًا وقُبْلًا وقِبْلًا وقبيلًا وقبليًّا، أى: عياناً ومقابلة.

قال الفراء: إن قبلاً جمع قبيل، أي: متفرقاً يتلو بعضه بعضاً، وقيل: عياناً، وقيل: فجأة.

﴿يُدْحِضُوا﴾: ليطلوا ويزيلوا، من إدحاض القدم، وهو: إزلاقها وإزالتها عن موطنها. وفي المختار: دحضت حجته: بطلت، وبابه: خضع، وأدحضها الله، ودحضت رجله: زلقت، وبابه: قطع، والإدحاض: الإزلاق.

﴿مَوْبِلًا﴾: منجى وملجأ، والأصل: المرجع من وأل يئثل وألا وموئلاً: إذا لجأ إليه، وهو هنا مصدر مصدر ميمي، وفي المصباح: وأل إلى الله يئثل، من باب: وعد: التجأ، وباسم الفاعل سمي، ومنه وائل بن حجر، وهو صحابي، وسحبان بن وائل، ووأل: رجع، وإلى الله الموئثل، أي: المرجع.

○ الإعراب:

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ الطرف متعلق بمحذوف

تقديره: اذكر، وجملة يقول مضاف إليها الظرف، ونادوا فعل أمر وفاعل،
وشركائي مفعول به، والذين نعت، وجملة زعمتم صلة، والعائد محذوف،
أي: زعمتموهم شركاء، كما حذف المفعول الثاني لزعمتم أيضاً ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ إما أن تعطف الجملة على محذوف مقدر، أي:
فبادروا إلى آلهتهم فدعوهم، وإما أن تقدر الماضي بمعنى المستقبل، ودعوهم

فعل وفاعل ومفعول به، فلم: الفاء عاطفة، ولم حرف نفي وقلب وجزم، ويستجيبوا مضارع مجزوم بلم، والواو فاعل، ولهم متعلقان بيستجيبوا، وجعلنا فعل وفاعل، وبينهم الظرف متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني، وموبقاً هو المفعول الأول، والمعنى: صيرنا بين الأوثان وعابديها مكاناً يجتمعون فيه ليهلكوا معاً ﴿وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَفَّقُوها﴾ ورأى المجرمون النار فعل وفاعل ومفعول به، فظنوا: الفاء عاطفة، وظنوا فعل وفاعل، وإن واسمها وخبرها، وسدت مسد مفعولي ظنوا، أي: تراءت لهم من مكان بعيد، فأيقنوا أنهم واقعون فيها، والظن هنا معناه اليقين؛ لأن ذلك الحين ليس حين شك ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ الواو عاطفة، ولم يجدوا عطف على ظنوا، وعنهما متعلقان بمصرفاً؛ لأنه اسم مكان، أو زمان مشتق، أو مصدر ميمي بمعنى انصرفاً، ومصرفاً: مفعول به ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ الواو عاطفة، واللام جواب للقسم المحذوف، وقد حرف تحقيق، وصرفنا فعل وفاعل، وفي هذا متعلقان بصرفنا، والقرآن بدل من هذا، وللناس متعلقان بصرفنا أيضاً، ومن كل صفة لموصوف محذوف هو مفعول صرفنا، أي: معنى غريباً بديعاً يشبه المثل بغرابته وطرافته، ومثل مضاف إليه ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الواو عاطفة، أو حالية، وكان الإنسان كان واسمها، وأكثر شيء خبرها، وجدلاً تمييز، يعني الإنسان أكثر المخلوقات الحية مجادلة ولجاجاً باطلاً ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى﴾ الواو عاطفة، وما نافية، ومنع فعل ماض، والناس مفعول به مقدم، وأن يؤمنوا مصدر مؤول في موضع المفعول الثاني لمنع، وإذا ظرف لما مضى من الزمن متعلق بيؤمنوا، وجملة جاءهم الهدى مضاف إليها الظرف ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ ويستغفروا عطف على يؤمنوا، والواو فاعل، وربهم مفعول به، وإلا أداة حصر، وأن وما في حيزها فاعل منع، وتأتيهم فعل مضارع ومفعول به مقدم، وسنة الأولين فاعل مؤخر، وأو حرف عطف، ويأتيهم العذاب عطف على تأتيهم سنة الأولين، وقبل حال من الضمير، أو العذاب، ولا بد من تقدير مضاف

محذوف قبل أن تأتيهم سنة الأولين تقديره: انتظار الإتيان، قالوا: إنما احتيج إلى تقدير المضاف إذ لا يمكن جعل إتيان سنة الأولين مانعاً من إيمانهم، فإن المانع يقارن الممنوع، وإتيان العذاب متأخر عن إيمانهم بمدة طويلة. ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الواو عاطفة، وما نافية، ونرسل المرسلين فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، وإلا أداة حصر، ومبشرين حال، ومنذرين عطف ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ يجادل فعل مضارع، والذين فاعل، وكفروا صلة، وبالباطل متعلقان بجادل، وليدحضوا: اللام للتعليل، ويدحضوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وبه متعلقان بيدحضوا، والحق مفعول به ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ الواو حالية، أو استئنافية، واتخذوا فعل وفاعل، وآياتي مفعول به، والواو حرف عطف، وما اسم موصول معطوف على آياتي، وجملة أُنذروا صلة، ويجوز جعل ما مصدرية، والمصدر معطوف على آياتي، وهزواً مفعول به ثان ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ الواو استئنافية، ومن اسم استفهام معناه النفي في محل رفع مبتدأ، وأظلم خبر، وممن متعلقان بأظلم، وجملة ذكر صلة، وبآيات ربه متعلقان بذكر، فأعرض عطف على ذكر، وفاعله مستتر تقديره: هو، وعنهما متعلقان بأعرض، ونسي عطف على ما تقدم، وما مفعول به، وجملة قدمت صلة، ويداه فاعل ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ إن واسمها، وجملة جعلنا خبرها، وعلى قلوبهم في محل نصب مفعول به ثان لجعلنا، وأكنة مفعول به أول، وأن يفقهوه المصدر في محل نصب مفعول لأجله، وفي آذانهم قرأ عطف على معمولي جعلنا ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ الواو حرف عطف، وأن شرطية، وتدعهم فعل الشرط، وفاعله مستتر تقديره: أنت، والهاء مفعول به، وإلى الهدى متعلقان بتدعهم، فلن: الفاء رابطة، ولن حرف نفي ونصب واستقبال، ويهتدوا نصب بلن، والواو فاعل، وإذاً حرف جواب وجزاء، وأبدأ ظرف متعلق يهتدوا ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤْخَذُ لَهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾

وربك : الواو استئنافية، وربك مبتدأ، والغفور خبر، وذو الرحمة خبر ثان، ولو شرطية، ويؤاخذهم فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، وبما متعلقان بيؤاخذهم، وجملة كسبوا صلة، واللام رابطة، وعجل فعل ماض، وفاعله مستتر تقديره : هو، ولهم متعلقان بعجل، والعذاب مفعول به ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ بل حرف إضراب، ولهم خبر مقدم، وموعِد مبتدأ مؤخر، ولن حرف نفي ونصب واستقبال، ويجدوا فعل مضارع منصوب بلن، ومن دونه متعلقان بمحذوف حال، وموئلاً مفعول به ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ تلك مبتدأ، أو منصوب على الاشتغال، والقرى بدل، وجملة أهلكناهم خبر، والمراد : أهل القرى، ويجوز إعراب القرى خبراً، وجملة أهلكناهم إما حال، وإما خبر ثان، ولما ظرف بمعنى حين متعلق بأهلكناهم، وجملة ظلموا مضافة للما ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾ وجعلنا فعل وفاعل، ولمهلكهم حال، أو متعلقان بموعداً، وموعداً مفعول به . ومهلكهم مصدر ميمي مضاف إلى الفاعل إن كان لازماً، أو مضاف إلى المفعول إن كان متعدياً.

□ البلاغة:

في قوله تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ اتفاق اللفظ واختلاف المعنى، وقد أوردنا في باب اللغة معاني القبل، وقد صنف فيه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، وأبو العميث الأعرابي؛ الذي صنف كتاباً مأثوراً عنه، وهو مجرد حصر للألفاظ التي قد يتعدد مدلولها، دون التزام منه لترتيب ما في سوق الكلمات، وبدون تحليل، أو محاولة لإيجاد أية صلة بين المعاني المختلفة، إذ يقول : القبل على سبعة أوجه : القبل في العين، والقبل : النشز من الأرض يستقبلك، تقول : رأيت شخصاً بذلك القبل، والقبل : أن ترى الهلال قبلاً، فكان صغيراً، والقبل : أن يتكلم الرجل بكلام لم يكن استعداً له، يقال : تكلم فلان قبلاً، والقبل : أن يورد الرجل إبله الماء، ثم يستقي، ويصب عليها،

فيقال: سقاها قبلاً، والقبل: شيء شبيه بالصوف يعلق في أعناق الصبيان، والقبل: طي البئر في أعلاها.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا غَدَاءٌ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخَرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ﴿٦٤﴾

☆ اللفظة:

﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾: ملتقى البحرين، وهو المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر، وقد اختلفت أقوال المفسرين فيه، ف قيل: ملتقى بحر الروم بحر فارس، وقيل غير ذلك مما يرجع إليه في المطولات.

﴿حُقُبًا﴾: زمناً طويلاً، والحقب: ثمانون سنة، وفي القاموس: الحُقْب: - بضم الحاء والقاف -: ثمانون سنة أو أكثر، والدهر والسنون، ويجمع على أحقاب وحقاب، وقيل: الحُقْب - بضم الحاء وسكون القاف - ويجمع على حقاب. وفي المصباح: الحقب: الدهر، والجمع: أحقاب، مثل: قفل وأقفال، وضم القاف للإتباع لغة، يقال: الحقب: ثمانون عاماً، والحقبة: بمعنى المدة، والجمع حقب، مثل سدره، وقيل: الحقبة مثل الحقب.

﴿سَرَبًا﴾ أي: مثل السرب، وهو الشق الطويل لا نفاذ له، وفي معاجم اللغة: السَّرَب - بفتح الحاء -: الحفير تحت الأرض، والقناة يدخل منها الماء، ويقال: طريق سرب، أي: يتتابع فيه الناس.

﴿غَدَاءَنَا﴾: هو ما يؤكل أول النهار.

○ الإعراب:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾ الواو استئنافية، والجملة مستأنفة، مسوقة للشروع في قصة التقاء موسى والخضر، وما تحلل ذلك من أعاجيب، وسنأتي على تفصيلها في باب الفوائد، والظرف متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، وقال موسى الجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها، ولفته متعلقان بقال، ولا نافية، وأبرح فعل مضارع ناقص، واسمها مستتر تقديره: أنا، والخبر محذوف تقديره: أسير، ويحتمل أنها تامة، فلا تستدعي خبراً بمعنى لا أزول عما أنا عليه من السير والطلب، ولا أفارقه، وحتى حرف غاية وجر، وأبلغ منصوب بأن مضمرة بعد حتى، ومجمع البحرين مفعول به، وأو حرف عطف، وأمضي معطوف على أبلغ، وحقبا ظرف زمان متعلق بأمضي، واختار أبو البقاء وغيره أن تكون بمعنى إلى، وأبلغ منصوب بأن مضمرة بعدها، وما أحسبه صحيحاً ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ الفاء عاطفة، ولما ظرف بمعنى حين، وجملة بلغا في محل جر بإضافة الظرف إليها، والألف فاعل، ومجمع مفعول به، وبينهما ظرف أضيف إلى مجمع، أي: بين البحرين، وجملة نسيا لا محل لها لأنها جواب لما، وحوتهما مفعول به، فاتخذ: الفاء عاطفة واتخذ فعل ماض، وفاعله مستتر تقديره: هو، أي: الحوت، وسبيله مفعول به، وسرباً مفعول به ثان، وفي البحر متعلقان بمحذوف حال، وفي الكلام تقديم وتأخير؛ لأن اتخذ الحوت سبيله في البحر قبل النسيان ﴿فَنَسِيَ جَاوِزًا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا غَدَاءَنَا﴾ الفاء عاطفة، ولما ظرفية حينية، وجملة جاوز مضاف إليها الظرف، والمفعول محذوف، أي: الموعد، وهو الصخرة، وجملة قال لفته لا محل لها، وجملة آتنا غداءنا مقول القول، وغداءنا مفعول به ثان لآتنا ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ اللام جواب للقسم المحذوف، وقد حرف تحقيق، ولقينا فعل وفاعل، ومن سفرنا متعلقان بلقينا، وهذا صفة لسفرنا، أو بدل منه ونصباً مفعول به للقينا ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ

إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ﴿١﴾ أَرَأَيْتَ تَقْدِمُ الْكَلَامَ عَلَيْهَا مَطْوَلًا، وَأَنَّهُا بِمَعْنَى أَخْبَرَنِي، وَمَفْعُولًا أَرَأَيْتَ مَحذُوفَانِ اخْتِصَارًا، أَي: رَأَيْتَ أَمَرْنَا مَا عَاقَبْتَهُ، وَهَذَا أُسْلُوبٌ مَعْهُودٌ فِي الْكَلَامِ الْمُنْتَادِلِ بَيْنَ النَّاسِ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِصَاحِبِهِ: إِذَا أَلَمْ بِهِ خُطْبَ أَرَأَيْتَ مَا نَابَنِي، فَالظَرْفُ مُتَعَلِّقٌ بِهَذَا الْمَحذُوفِ، أَي: بِنَابَنِي، وَسَيَأْتِي مَزِيدٌ مِنْ بَحْثِ هَذِهِ الرُّؤْيَا فِي بَابِ الْبَلَاغَةِ. وَجُمْلَةُ أَوَيْنَا مَضَافٌ إِلَيْهَا الظَرْفُ، وَإِلَى الصَّخْرَةِ مُتَعَلِّقَانِ بِأَوَيْنَا ﴿٢﴾ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴿٣﴾ الْفَاءُ لِتَعْلِيلِ الدَّهْشَةِ الَّتِي اعْتَرَتْهُمَا مِمَّا نَابَهُمَا، وَأَنْ وَاسِمَهَا، وَجُمْلَةُ نَسِيتُ الْحَوْتَ خَبَرُهَا، وَالْوَاوُ اعْتِرَاضِيَّةٌ، وَالْجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، وَمَا نَافِيَةٌ، وَأَنَسَانِيهِ فَعْلٌ مَاضٍ، وَالنُّونُ لِلْوَقَايَةِ، وَالْيَاءُ مَفْعُولٌ بِهِ أَوَّلٌ، وَالْهَاءُ مَفْعُولٌ بِهِ ثَانٍ، وَإِلَّا أَدَاةُ حَصَرٍ، وَالشَّيْطَانُ فَاعِلٌ أَنَسَانِيهِ، وَأَنْ وَمَا فِي حِيزِهَا بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنَ الْهَاءِ، أَي: وَمَا أَنَسَانِي ذَكَرَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ ﴿٤﴾ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٥﴾ الْوَاوُ عَاطِفَةٌ، وَاتَّخَذَ فَعْلٌ مَاضٍ مَعْطُوفٌ عَلَى نَسِيتَ، وَفَاعِلُهُ مُسْتَتِرٌ تَقْدِيرُهُ: هُوَ، أَي: الْحَوْتَ، وَسَبِيلُهُ مَفْعُولٌ بِهِ أَوَّلٌ، وَفِي الْبَحْرِ حَالٌ، وَعَجَبًا مَفْعُولٌ بِهِ ثَانٍ لَا تَتَّخِذُ، أَوْ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفَعْلٍ مَحذُوفٍ، وَفِي الْبَحْرِ هُوَ الْمَفْعُولُ الثَّانِي، أَي: قَالَ مُوسَى عَجِبْتُ عَجَبًا: حَوْتَ يُوْكَلُ دَهْرًا، ثُمَّ يَصِيرُ حَيًّا بَعْدَ مَا أَكَلَ بَعْضًا!

□ البلاغة:

فِي قَوْلِهِ: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ الرُّؤْيَا هُنَا مُسْتَعَارَةٌ لِلْمَعْرِفَةِ التَّامَةِ، وَالْمَشَاهِدَةِ الْكَامِلَةِ، وَهِيَ اسْتِعَارَةٌ تَصْرِيحِيَّةٌ تَبْعِيَّةٌ؛ لِأَنَّهَا أُجْرِيَتْ فِي فَعْلٍ، وَقَدْ حُذِفَ الْمَشْبَهُ، وَأَقِيمَ الْمَشْبَهُ بِهِ مَقَامَهُ، وَالِاسْتِفْهَامُ فِي أَرَأَيْتَ لِلتَّعَجُّبِ؛ كَأَنَّهُ يُجَاوِلُ إِثَارَةَ الْعَجَبِ فِي نَفْسِ مُوسَى مِمَّا رَأَى مِنَ الْمَعَاجِزِ الَّتِي لَا تَدُورُ فِي الْخُلْدِ، وَيَكَادُ لَا يَصْدُقُهَا الْعَقْلُ، مِمَّا يُمْكِنُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي التَّفَاسِيرِ الْمَطْوَلَةِ، وَالرُّوَايَاتِ الْمُنْقُولَةِ، مِمَّا يُخْرِجُ بَنَاءً عَنْ نِطَاقِ الْكِتَابِ، وَنَسْتَكْفِي بِسَرْدِ قِصَّةِ لِقَاءِ مُوسَى وَالْخَضِرَ مُعْتَمِدِينَ عَلَى نَصِّ الْحَدِيثِ، وَالتَّحْلِيلِ الْمُنْطَقِيِّ الْمَعْقُولِ، تَارِكِينَ

المجال لأصحاب المواهب القصصية عسى أن ينسجوا على منوال الكاتب القاصّ توفيق الحكيم .

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ ١٤ ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ ١٥ ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ ١٦ ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ١٧ ﴿ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ ١٨ ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ ١٩ ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ ٢٠ ﴿

○ الإعراب:

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ ذلك مبتدأ، وما خبر، وجملة كنا صلة، وكان واسمها، وجملة نبغي خبرها، وجملة ذلك... الخ مقول القول، وفي المصحف تحذف ياء نبغي؛ لأنها من ياءات الزوائد ﴿ فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ الفاء عاطفة، وارتدا فعل وفاعل، وعلى آثارهما متعلقان بمحذوف حال، أي: رجعا أدراجهما، وقصصاً مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: يقصان قصصاً، ويتبعان آثارهما اتباعاً، ولك أن تجعلها حالاً، أي: فارتدبا على آثارهما مقتضين ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ الفاء عاطفة، ووجدا عبداً فعل وفاعل ومفعول به، ومن عبادنا صفة لعبد، وجملة آتيناه صفة ثانية، ورحمة مفعول به ثان، ومن عندنا صفة لرحمة، وعلمناه فعل وفاعل ومفعول به، ومن لدنا حال؛ لأنه كان صفة لعلماء، وتقدم عليه، وعلماً مفعول به ثان لعلمناه، ولو كان مفعولاً مطلقاً لكان تعليمياً؛ لأن فعله على فعل بالتشديد، وقياس مصدره التفعيل ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ قال فعل ماض، وله متعلقان به، وموسى فاعل، وهل حرف استفهام، وأتبعك فعل مضارع، وفاعل

مستتر، ومفعول به، على أن تعلمني: أن وما في حيزها في محل جر بعلى، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال من الكاف في هل أتبعك، أي: هل أتبعك حال كونك معلماً لي، ومما متعلقان بتعلمني، وجملة علمت صلة، ورشداً مفعول ثان لتعلمني؛ لأن الياء هي المفعول الأول، ويجوز أن تعرب رشداً مفعولاً لأجله، أي: لأجل الرشاد، أو مصدر في موضع نصب على الحال ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ جملة إنك مقول القول، وإن واسمها، ولن حرف نفي ونصب واستقبال، وتستطيع منصوب بلن، ومعني ظرف مكان متعلق بمحذوف، أي: حال كونك معي، وصبراً مفعول به ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ وكيف اسم استفهام في محل نصب حال، وتصبر فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنت، وعلى ما متعلقان بتصبر، وجملة لم تحط صلة، وبه متعلقان بتحط، وخبراً مفعول مطلق لتحط في المعنى؛ لأن لم تحط بمعنى لم تجرب، وأعربها الزمخشري تمييزاً محولاً عن الفاعل، أي: لم يحط به خبرك، وليس ببعيد ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ ستجدني: السين حرف استقبال، وتجدني فعل مضارع مرفوع، والنون للوقاية، وفاعله مستتر تقديره: أنت، والياء ضمير متصل في محل نصب مفعول به أول، وإن شاء الله جملة معترضة، وصابراً مفعول به ثان لتجدني، وقد ذكر الرحمة احتراضاً لما يأتي من قوله: ﴿حَقَّقْ إِذَا لَقِيَٰ غُلَامًا فَقُلْ﴾، وقتله للغلام يوهم اتصافه بالغلظة والجفاء، وجملة «ولا أعصي لك أمراً» معطوفة على صابراً، فهي في محل نصب، أو معطوفة على ستجدني، فلا محل لها من الإعراب، ولك متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان صفة لأمرأ، وإنما قيد موسى بالمشيئة لعلمه بشدة الأمر وصعوبته، وأن الحمية قد تعترضه عندما يرى أمراً مغايراً، وسيأتي تفصيل ذلك في حينه ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ الفاء عاطفة، وإن شرطية، واتبعتنني فعل ماض وفاعل ومفعول به، وهو في محل جزم فعل الشرط، والفاء رابطة، ولا ناهية، وتسألني مضارع مجزوم بلا، والنون للوقاية، والياء مفعول به، وعن شيء متعلقان بتسألني، وحتى حرف غاية

وجر، وأحدث فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، ولك متعلقان بأحدث، ومنه حال، وذكرأ مفعول به، ولا بد من تقدير صفة محذوفة بعد شيء، أي: شيء خفي عليك سره، وغبي أمره.

* الفوائد:

(١) عند ولدن:

لدن، هي بمعنى عند، فتكون اسماً لزمان الحضور ومكانه، كما أن عند كذلك، إلا أن لدن تختص بستة أمور:

١ - إنها ملازمة لمبدأ الغايات الزمانية والمكانية، وعند غير ملازمة، فمن ثم يتعاقبان في نحو: جئت من عنده من لدنه، وفي الآية الكريمة، وقد لا يتعاقبان في نحو: جلست عنده، لعدم معنى الابتداء هنا، وإنما ترك التعاقب في الآية تفادياً لتكرار النظم.

٢ - إن الغالب في لدن استعمالها مجرورة بمن، ونصبها قليل، وجر عند بمن دون جر لدن في الكثرة.

٣ - إنها مبنية على السكون بخلاف عند، فإنها معربة دائماً.

٤ - جواز إضافتها إلى الجمل، كقول القطامي:

صريع غوانٍ راقهـنَّ ورُقنَّه

لدن شبَّ حتى شابَّ سودُ الدَّوائِبِ

٥ - جواز إفرادها قبل غدوة، كقوله:

وما زالَ مُهْرِي مَزَجَرَ الكلبِ فيهم

لَدُنْ غُدْوَةٍ حَتَّى دَنَتْ لِعُرُوبِ

بنصب غدوة على التمييز، أو على التشبيه بالمفعول به، ويجرها على القياس.

٦ - إنها لا تقع إلا فضلة بخلاف عند، فإنها قد تقع عمدة.

وقال بعضهم: إن عند في لسان العرب لما ظهر، ولدن لما بطن، فيكون

المراد بالرحمة ما ظهر من كراماته، وبالعلم الباطن الخفي المعلوم قطعاً بأنه خاص.

(٢) حديث النبي عن الخضر:

وقد آن أن نورد لك الحديث البليغ الذي روي عن النبي ﷺ بشأن الخضر، والحديث الآخر الذي تحدث به عن لقاء موسى والخضر:

الحديث الأول: روي عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أحدثكم عن الخضر؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل، أبصره رجل مكاتب، فقال: تصدق عليّ بارك الله فيك، فقال الخضر: آمنت بالله، ما شاء من أمر يكون، ما عندي شيء أعطيك، فقال المسكين: أسألك بوجه الله لما تصدقت عليّ، فإني نظرت السماحة في وجهك، ورجوت البركة عندك، فقال الخضر: آمنت بالله، ما عندي شيء أعطيك، إلا أن تأخذني فتبيعني، فقال المسكين: وهل يستقيم هذا؟ قال: نعم، أقول: لقد سألتني بأمر عظيم، أما إني لا أخيبك بوجه ربي، بعني، قال فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمئة درهم، فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيء، فقال: إنما اشتريتي التماس خير عندي، فأوصني بعمل، قال: أكره أن أشق عليك، إنك شيخ كبير ضعيف، قال: ليس يشق عليّ، قال: قم فانقل هذه الحجارة، وكان لا ينقلها دون ستة نفر في اليوم، فخرج الرجل لبعض حاجته، ثم انصرف، وقد نقل الحجارة في ساعة، قال: أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه قال: ثم عرض للرجل سفر، فقال: إني أحبك أميناً، فاخلفني في أهلي خلافة حسنة، قال: وأوصني بعمل، قال: إني أكره أن أشق عليك، قال: ليس يشق عليّ، قال: فاضرب من اللّين بيتي حتى أقدم عليك. قال: فمر الرجل لسفره، قال: فرجع الرجل وقد شيّد بناءه، قال: أسألك بوجه الله ما سبيك؟ وما أمرك؟ قال: سألتني بوجه الله، ووجه الله أوقعني في هذه العبودية، فقال الخضر: سأخبرك من أنا، أنا الخضر الذي سمعت به، سألتني مسكين صدقة، فلم يكن عندي شيء

أعطيه، فسألني بوجه الله، فأمكنته من رقبتني، فباعني، وأخبرك أنه من سُئِلَ بوجه الله فردَّ سائله وهو يقدر وقف يوم القيامة جلدة ولا لحم له يتقعقع، فقال له الرجل: آمنت بالله، شَقَقْتُ عليك يا نبي الله ولم أعلم، قال: لا بأس أحسنت وأتقنت، فقال الرجل: بأبي وأمي يا نبي الله! احكم في أهلي ومالي بما شئت، أو اختر فأخلي سبيلك، قال: أحب أن تخلي سبيلي فأعبد ربي، فخلي سبيله، فقال الخضر: الحمد لله الذي أو ثقني في العبودية، ثم نجاني منها».

☆ لمحة تحليلية:

أخبر رسول الله ﷺ، في هذا الحديث، عن نبذة طريفة عن الخضر، ومدى إيمانه العميق بالله، ورغبته في ثوابه، ورهبته من عقابه لتكون بمثابة معالم الصبح لكل مؤمن بما يعتقده حقاً وصواباً، لا يبالي ما يتكبد في سبيل ترسيخ ما يعتقده في النفوس، كما انطوت النبذة على ميله إلى إجابة السائل الفقير المحتاج ولو ببيع نفسه، قال أحدهم:

يجود بالنفس إذ ضنَّ الجوادُ بها

والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

بثَّ النَّوال ولا تمنعك قلته

فكلُّ ما سدَّ فقراً فهو محمود

ثم أعطى الخضر نصيحة غالية تصلح للاحتذاء في مختلف ظروف الزمان والمكان، فحذر المسؤولين من البخل خشية الوقوف يوم الحساب حفاة عراة، وهيئة أجسامهم رثة بالية تضطرب لردائها وقذارتها، فكأن جسمه جلدة مثل الهيكل، فقط يضطرب ويتحرك، ولا تستدل عليه إلا بقعقة خفيفة، وأحسب أبا الطيب رمق سماء هذا المعنى حين قال واصفاً نحوه:

كَفَى بجسمي نُحولاً أَنَّنِي رجلٌ

لولا مخاطبتي إِيَّاكَ لم تَرَنِي

وانظر بعد ذلك إلى أسمى مطلب يمنح إليه العقلاء: «تخلي سبيلي فأعبد

ربي» وهذا بمثابة مثل ضربه النبي ﷺ لكل إنسان ليجود بماله في مشروعات الخير، وليثق بالله الرزاق المنفق المخلف، وليتحلى بشيم السخاء والعطاء. وما أجمل قول أبي فراس الحمداني وقد تَضَمَّن هذه المعاني السامية كلها، كما صور الفتوة أجمل تصوير:

غيري يُغيِّره الفعَّالُ الجافي
ويحولُ عن شيم الكريم الوافي
إنَّ الغنيَّ هو الغنيُّ بنفسه
ولو أنَّه عاري المناكب حافٍ
ما كلُّ ما فوق البسيطة كافياً
وإذا قنعتَ فكلُّ شيءٍ كافٍ
وتعاف لي طمع الحريص فتوي
ومروءتي وقناعتني وعفافي
ومكارمي عددُ النجوم ومنزلي
مأوى الكرام ومنزلُ الأضيافِ
لا أرتضي ودّاً إذا هو لم يَدُم
عند الجفاءِ وقلةِ الإنصافِ

☆ الحديث الثاني في لقاء موسى والخضر:

ورد في صحيح مسلم: عن أبي بن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قام موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، قال: فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: أي رب! كيف لي به؟ فقيل له: احمل حوتاً في مكتل، فحيث تفقد الحوت فهو ثم، فانطلق، وانطلق معه فتاه وهو يوشع بن نون، فحمل موسى عليه السلام حوتاً في مكتل، وانطلق هو وفتاه يمشيان، حتى أتيا الصخرة، فرأى رجلاً مسجياً عليه ثوب، فسلم عليه موسى، فقال له الخضر: أتني بأرضك السلام؟ قال:

أنا موسى، قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، قال: إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه».

وسياتي في الآيات الآتية إيضاح أعمالهما، هذا؛ ولم يذكر يوشع بن نون لأنه كان تابعاً لموسى، فأدرج في مطاوي الحديث عنه، أما أعمالهما فهي:

١- خرق السفينة.

٢- قتل الغلام.

٣- إخراج كنز من جدار.

وقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقصّ علينا من أخبارهما».

☆ لماذا سمي الخضر؟

وقال النووي: وقد صح في البخاري وغيره عن النبي ﷺ قال: «إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هي تهتز من خلفه خضراء» وجمهور العلماء على أنه حي موجود بين أظهرنا، وكان الحوت سمكة مألحة، والمكتل: القفة والزنبيل والطاقة، وقوله: مسجى: مغطى. وأنى بأرضك السلام: بمعنى كيف، أي: السلام عجيب بدار الكفر هذه.

☆ التأدب في طلب العلم:

وقال البيضاوي: ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة (سيدنا موسى) أن يتعلم من غيره، ما لم يكن شرطاً في أبواب الدين، فإن الرسول ينبغي أن يكون أعلم ممن أرسل إليهم فيما بعث به من أصول الدين وفروعه لا مطلقاً، وقد راعى في ذلك غاية التواضع والأدب، فاستجهل نفسه، واستأذن أن يكون تابعاً له، وسأل منه أن يرشده، وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله به عليه.

☆ هل الخضر حي؟

هذا؛ وقد زعم كثيرون أن الخضر حي، وهذا غير صحيح؛ إذ لا دليل عليه من كتاب منزل أو سنة ثابتة، فيجب المصير إليه، ولم ينقل عن أحد ممن يوثق به ويعتمد على نقله أنه رآه، وأخبره أنه الخضر صاحب موسى، ومثل هذا لا يمكن الركون إليه، والتعويل عليه، والتصديق به، إلا بأحد هذين الطريقتين، إما الخبر الصادق، أو المشاهدة بالبصر، وبدون ذلك فالتصديق بوجوده ضرب من الخلط. والعادة المستمرة أن الإنسان لا يعيش مثل هذا العمر الطويل، فمن ادعى خلاف العادة في فرد من أفراد هذا النوع طولب بالدليل على ذلك، وكل ما استند إليه القائلون بحياة الخضر إلى الآن، وأنه يبقى حياً إلى آخر الدنيا، أحاديث لم يصح منها شيء عند أهل العلم، وحكايات لفقها القصاصون ترويحاً لخالهم عند العامة، ولذلك أنكر الإمام المجتهد أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، وشيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني الحنبلي صحة ذلك، وكفى بقولهما على سعة علمهما بحديث رسول الله ﷺ ومعرفة صحيحه وضعيفه حجة لنا فيما ذكرناه، على أن القرآن يخالف ما ذهب إليه القائلون بحياته، فإن الله جل شأنه قال في محكم كتابه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ وقال لشر خلقه إبليس: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ في جواب قوله: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فجعل ذلك خصوصية لعدوه إبليس لامتحان خلقه به، ولتنم لعنته عليه، لم يجعل ذلك لأحد غيره، لا نعمة ولا نقمة، فالقائل بغير ذلك غير مصيب فيما قاله، والله أعلم.

أما لفظ الخضر فقد ضبطوه بكسر الخاء مع سكون الضاد، وفتح الخاء مع سكون الضاد وكسرها، ففيه ثلاث لغات، وهذا لقبه، وكنيته أبو العباس، واسمه بلياً، وهو من نسل نوح، وكان أبوه من الملوك.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِنُفُورِ أَهْلِهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (٦١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا

نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٢﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٣﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٥﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٦﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أُوَيْلَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

☆ اللفظة:

﴿إِمْرًا﴾ : الأمر: العظيم المنكر، قال أبو عبيدة: الأمر: الداهياء العظيمة، وأنشد:

قد لقي الأقران مني نُكْرًا دَاهِيَةً دَهِيَاءَ وَأَمْرًا إِمْرًا

ويقال: أمر الأمر، أي: عظم وتفاقم، وهذه المادة اللغوية غريبة، تقول الأمر بالفتح: طلب إحداث الشيء، وجمعه أوامر، والأمر: الشأن، وجمعه أمور، وأولو الأمر: أهل الرياسة والعلماء، والأمر والأمر: الضعيف الرأي، والأمير: الأمر، فتغير معانيها بتغير شكلها.

﴿تُرْهِقْنِي﴾ : تكلفني، وفي المختار: رهقه: غشيه، وبابه: طرب، وأرهقه عسرأكلفه إياه.

﴿ زَكَاةً ﴾ : طاهرة من الذنوب لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث، وفي القاموس: زكا يزكو زكاء وزكواً، وزكي يزكى زكياً الزرع: نما، والرجل: صلح وتنعم، وزكاه الله بالتشديد: أنماه، وطهره، وأصلحه، وأخرج زكاته. وزكى ماله: أدّى عنه الزكاة، وزكى نفسه: مدحها.

﴿ تُكْرَأُ ﴾ : بضم فسكون، وبضمتين: المنكر، وهو أبلغ من الأمر؛ لأن معه القتل بخلاف حرق السفينة فإنه يمكن تداركه وتلافيه، وقيل: الأمر أبلغ؛ لأن قتل النفس بسبب الحرق أعظم من قتل نفس واحدة.

﴿ يُضَيِّقُوهُمَا ﴾ : يقال: ضافه: إذا كان له ضعفاً، وحقيقته من الميل، يقال: ضاف السهم عن الغرض وأضافه وضيّفه: جعله ضعيفاً، وهم ضيوف وأضياف وضيّفان، ومن المجاز: أضاف إليه أمراً: إذا أسنده إليه، واستكفأه، وفلان أضيفت إليه الأمور، وما هو إلا مضاف، أي: دعي، ونزلت به مضافة. قال:

وكنْتُ إذا جاري دَعَا لِمَضُوفَةٍ أَشْمَرُ حَتَّى يَبْلُغَ السَّاقَ مِثْرِي

○ الإعراب:

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ الفاء استئنافية، والجملة مستأنفة، مسوقة للشروع في الأمور الثلاثة التي أُلْمِنا إليها، والتي خفيت بواطنها عن موسى، وبدت له ظواهرها مستنكرة، ولا بد من تقدير محذوف، أي: فانطلقا يمشيان، ومعهما تابعهما يوشع بن نون، وقد اكتفى بذكر المتبوع عن التابع، أي: على ساحل البحر يطلبان سفينة تقلعهما، فوجدا سفينة فركباها، فأخذ الخضر الفأس، فخرق السفينة؛ بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي، فجعل موسى يعارضه، ويقول... الخ. وحتى حرف غاية وجر، وإذا ظرف مستقبل، وجملة ركبا في السفينة في محل جر بإضافة الظرف إليها، وجملة خرقها جواب إذا، وهو فعل ماضٍ وفاعل مستتر ومفعول به ﴿ قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ قال - أي: موسى - أخرقتها، والهمزة للاستفهام الإنكاري، لتغرق: اللام للتعليل، وتغرق فعل مضارع منصوب

بأن مضمرة بعد لام التعليل، وأهلها مفعول به، وسيأتي سر نسيان نفسه في باب: البلاغة، واللام جواب للقسم المحذوف، وقد حرف تحقيق، وجئت فعل وفاعل، وشيئاً مفعول به، وإمراً صفة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وإن واسمها، وجملة لن تستطيع معي صبراً خبرها ﴿قَالَ لَا تَأْخُذْ بِمَا تَشِيعُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ لا ناهية، وتأخذني فعل مضارع مجزوم بلا، والنون للموقاية، والفاعل مستتر تقديره: أنت، والياء مفعول به، ومن أَمْرِي حال؛ لأنه كان في الأصل صفة لعسراً، وعسراً مفعول به ثانٍ لترهقني ﴿فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا تُكْرَهُ﴾ فانطلقا: الفاء للعطف، وانطلقا فعل وفاعل، وحتى حرف غاية وجر، وإذا ظرف مستقبل، وجملة لقياً مضافة للظرف، وهي شرط إذا، وغلاماً مفعول به، والفاء حرف عطف، وقتله عطف على لقياً، فهو داخل في حيز فعل الشرط بخلاف قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ بغير فاء، فقد جعله هنا جواباً، والعلة في هذه المخالفة: أن خرق السفينة لم يأت عقب الركوب مباشرة، أما القتل فقد أتى عقب لقاء الغلام مباشرة، وقال: هو جواب إذا، أقتلت: الهمزة للاستفهام الإنكاري، ونفساً مفعول به، وزكية صفة، وبغير نفس: الجار والمجرور في موضع نصب على الحال من الفاعل أو المفعول، أي: قتله ظالماً، أو مظلوماً، أو متعلقاً بقتلت، واللام جواب للقسم المحذوف، وقد حرف تحقيق، وجئت فعل وفاعل، وشيئاً مفعول به، ونكراً صفة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ الهمزة للاستفهام التقريري، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وإن واسمها، وجملة لن تستطيع معي صبراً خبرها، وقد زاد هنا لفظ لك؛ لأن سبب العتاب أكثر، وموجبه أقوى، وقيل: زاد لفظ لك لقصد التأكيد، كما تقول لمن توبخه: لك أقول وإياك أعني ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْهُ﴾ إن شرطية، وسألتك فعل ماضٍ وفاعل ومفعول به، وهو في محل جزم فعل الشرط، وعن شيء جار ومجرور متعلقان بسألتك، وبعدها ظرف متعلق بمحذوف صفة لشيء، والفاء

رابطة لجواب الشرط، ولا ناهية، وتصاحبني مجزوم بلا، والياء مفعول به ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ قد حرف تحقيق، وبلغت فعل وفاعل، ومن حرف جر ولدن ظرف مبني على السكون في محل جر، والجار والمجرور متعلقان ببلغت، أو بمحذوف حال، وعذراً مفعول به ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا﴾ الفاء عاطفة، وانطلقا فعل وفاعل، وحتى حرف غاية وجر، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وأتيا فعل وفاعل، وأهل مفعول به، وقريه مضاف إليه، قيل: القرية هي أنطاكية، ومعنى استطعما أهلها: طلبا منهم الطعام على سبيل الضيافة، وجملة استطعما أهلها لا محل لها لأنها جواب إذا، واختار ابن هشام أن تكون صفة لقريه، وكرر الأهل للتأكيد من باب إقامة الظاهر مقام المضمر، وقد تقدمت شواهد، أو للتقضي ليشمل الاستطعام والامتناع من الإكرام جميع أهلها ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا﴾ الفاء عاطفة، وأبوا فعل وفاعل، وأن وما في حيزها مفعول أبوا ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ الفاء عاطفة، ووجدوا فعل وفاعل، وفيها جار ومجرور متعلقان بوجدوا، وجداراً مفعول به، وجملة يريد صفة لجداراً، وفي معنى إسناد الإرادة للجدار بحث ممتع يطالعه القارىء في باب البلاغة، وأن وما في حيزها مفعول يريد، فأقامه: الفاء عاطفة، وأقامه فعل وفاعل مستتر ومفعول به، أي: رفعه، ورممه، وأصلحه ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لو حرف شرط غير جازم، وشئت فعل وفاعل، واللام واقعة في جواب لو، واتخذت فعل وفاعل، والجملة لا محل لها؛ لأنها جواب لو، وعليه متعلقان بمحذوف حال، وأجراً مفعول به ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ هذا مبتدأ، والإشارة إلى الفراق المترتب على تكرار السؤال، وفراق خبر، وبينني مضاف إليه، وسأغت إضافة بين إلى غير متعدد لتكرير بين بالعطف بالواو، وبينك عطف على بيني ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ السين حرف استقبال، وأنبتك فعل وفاعل مستتر ومفعول به، وتأويل الباء حرف جر دخل على مضمون المفعولين الثاني والثالث، وسيأتي تفصيل ذلك في باب: الفوائد، وما اسم موصول مضاف إلى تأويل، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وتستطع مضارع

محزوم بلم، وصبراً مفعول به، وعليه متعلقان بصبراً، أي: سأنبئك سر ما فعلت في الأمور الثلاثة ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ أما حرف شرط وتفصيل، والسفينة مبتدأ، الفاء رابطة، وكانت: كان واسمها المستر، والتاء تاء التانيث الساكنة، ولماكين خبر كانت، والجملة خبر السفينة. وجملة يعملون في البحر صفة لمساكين. وفي البحر متعلقان بيعلمون ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ الفاء عاطفة، وأردت فعل وفاعل، وأن أعيبها المصدر المؤول مفعول أردت، والواو للحال، وكان فعل ماض ناقص، ووراءهم ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، وهو بمعنى أمام، ويجوز أن يكون بمعنى خلف، وملك اسم كان المؤخر، وجملة يأخذ صفة، وكل سفينة مفعول به، وغصباً مفعول مطلق مبين لنوع الأخذ، ويجوز أن يكون المصدر في موضع نصب على الحال، وفي الكلام تقديم وتأخير، سيأتي سرّه العجيب في باب: البلاغة ﴿وَأَمَّا الْفُلُفُلُ فَكَانَ أَبُوهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ الواو عاطفة، وأما حرف شرط وتفصيل، والغلام مبتدأ، فكان: الفاء رابطة، وكان واسمها وخبرها، فخشينا الفاء عاطفة، وخشينا فعل وفاعل، وأن وما في حيزها مفعول خشينا، وطغياناً مفعول به ثان، وكفراً عطف على طغياناً، وجملة الجواب خبر الغلام، وأسند الخشية إلى نفسه لأن الله أطلعه على مآل الغلام لو تناهت به المدة وانفسح الأجل، أو لأنه حكى قول الله ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ فأردنا عطف على خشينا، وأردنا فعل وفاعل، وأن يبديلهما أن وما في حيزها مفعول يبديلهما، وخيراً منه مفعول ثان، وزكاة تمييز، أي: صلاحاً وتقى، وأقرب رحماً عطف على خيراً منه زكاة، ورحماً تمييز أيضاً، أي: رحمة بوالديه.

قال أبو حيان: وانتصب رحماً على المفعول له، وأجاز الزمخشري أن ينصب على المصدر بأراد، قال: لأنه في معنى رحمهما، وأجاز أبو البقاء أن ينتصب على الحال، وكلاهما متكلف. فتأمل.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ الجملة معطوفة على

ما تقدم، والإعراب مماثل، وفي المدينة صفة ثانية، أو حال ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ الواو عاطفة، وكان فعل ماض ناقص، وتحت ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، وكنز اسمها المؤخر، ولهما صفة، وكان أبوهما صالحاً: كان واسمها وخبرها ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ فأراد عطف على ما تقدم، وربك فاعل، وأن يبلغا مفعول أراد، وأشدّهما مفعول به، وقد تقدم تفسير الأشد، ويستخرجا عطف على يبلغا، والألف فاعل، وكنزهما مفعول به، ورحمة من ربك مفعول لأجله، أي: لولا أني أقمته لانقض وهوى، وخرج الكنز من تحته قبل أن يصبحا قادرين على حفظ المال، وتنميته، واستثماره، ولضاع بدداً ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلٌ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ الواو عاطفة، وما نافية، وفعلته فعل وفاعل ومفعول به، والضمير يعود على مجموع ما ذكر، وعن أمري جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، أي: صادراً عن أمري، وإنما هو بأمر الله وإلهامه إياي، وذلك مبتدأ، وتأويل خبر، وما مضاف إليه، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وتسطع أي: تستطع، فحذفت منه تاء الافتعال مجزوم بلم، وعليه متعلقان بصبراً، وصبراً مفعول به.

□ البلاغة:

الفنون التي انطوت عليها الآيات الآنفة لا يتسع لها صدر هذا الكتاب، إذا نحن حاولنا استجلاء غوامضها، واكتناه خوافيها، فلنمض في استقصائها جانحين إلى لغة النظر، فأولها:

(١) نسيان نفسه عندما قال: ﴿أَخْرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهو بين الراكبين، وهو جدير بأن ينهمك بأمر نفسه، وما هو مقدم عليه من سوء المصير، وإنما حمله على المبادرة بالإنكار: الالتهاب، والحمية للحق، فنسي نفسه، واشتغل بغيره في الحالة التي يقول فيها كل واحد: نفسي نفسي، ولا يلوي على مال ولا ولد، وتلك حالة الغرق تذهل فيها العقول، وتغرب الأحلام، ويضيع الرشد من الألباب.

(٢) التورية في قوله: ﴿قَالَ لَا تُؤْخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أخرج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذة بالنسيان لإيهامه بأنه قد نسي؛ ليسط عذره في الإنكار، وبعضهم يسمي هذا النوع من معاريض الكلام، والمعاريض: جمع معراض، وهو هنا: إيهام خلاف المراد لئلا يلزم الكذب، وهو فن طريف من فنونهم، ولعله أجمل أنواع التورية التي سبق ذكرها، وقد كان المتنبي يمنح إليه في قصائده، وخاصة الكافوريات، قال:

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على العلات يضطحيان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيس وأنت يمان

فشبيب هذا خارجي خرج على كافور الإخشيدي، وقصد دمشق، وحاصرها، فيقال: إن امرأة ألفت عليه رحي فصرته، فانهزم الذين كانوا معه لما مات، ويقال: إنه أكثر من شرب الخمر فحدث به صرع، ففي ساعة القتال أته نوبة الصرع، فتركه أصحابه، ومضوا، فأخذه أهل دمشق وقتلوه، وقد كان شبيب هذا من قيس، ولم تزل بين قيس واليمن عداوات وحروب، وأخبار ذلك مشهورة. والسيف يقال له «يماني» في نسبته إلى اليمن، ومراد المتنبي من هذا البيت: أن شبيباً لما قتل وفارق السيف كفه، فكأن الناس قالوا لسيفه: أنت يمان، وصاحبك قيسي، ولهذا جانبه السيف وفارقه، وهذه مغالطة حسنة.

ومن معاريض الكلام الحسنة قول أبي العلاء المعري في وصف الإبل:

صلب العصا بضرب قد دماها سود أن الله قد أفناها
إذا أرادت رشداً أغواها محاله من رقه إياها

فالضرب لفظ مشترك يطلق على الضرب بالعصا، وعلى الضرب في الأرض، وهو المسير فيها، وكذلك دماها يطلق على شيئين: أحدهما: يقال: دماه إذا أسال دمه، ودماه إذا جعله كالدمية، وهي الصورة، وكذلك لفظ الفناء فإنه يطلق على عنب الثعلب، وعلى إذهاب الشيء إذا لم يبق منه بقية. يقال: أفناه: إذا أذهبه، وأفناه: إذا أطعمه حب الفناء، وهو عنب الثعلب،

والرشد والغوى: نبتان، يقال: أغواه: إذا أضله، وأغواه: إذا أطعمه النوى، ويقال: طلب رشدًا: إذا طلب ذلك النبت، وطلب رشدًا: إذا طلب الهداية.

ويروى في الأخبار الواردة في غزاة بدر أن النبي ﷺ كان سائرًا بأصحابه يقصد بدرًا، فلقيه رجل من العرب فقال:

«من القوم؟ فقال النبي: «من ماء» فأخذ ذلك الرجل يفكر، ويقول: من ماء من ماء، لينظر من أي بطون العرب يقال لها ماء، فسار النبي لوجهته، وكان قصده أن يكتم أمره، وهذا من المغالطة المثلية؛ لأنه يجوز أن يكون بعض بطون العرب يسمى ماء، ويجوز أن يكون المراد أن خلقتهم من ماء، وحاشى النبي أن يكذب.

(٣) تأكيد الضميرين:

وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ في قصة قتل الغلام، وهذا بخلاف قصة السفينة فإنه قال فيها: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ والفرق بين الصورتين أنه أكد الضمير في الثانية دون الأولى ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ وقال في الثانية ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ﴾ وإنما جيء بذلك للزيادة في مكافحة العتاب على رفض الوصية مرة بعد مرة، والوسم بعدم الصبر، وهذا كما لو أتى الإنسان ما نهته عنه فلمته وعنفته، ثم أتى ذلك مرة ثانية، أليس أنك تزيد في لومه وتعنيفه؟ وكذلك فعل هاهنا، فإنه قيل في الملامة أولاً: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ ثم قيل ثانياً: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ﴾ وهذا موضع يدق عن العثور عليه بالنظرة العجيبة، ولا يمكن اكتناه حسنه إلا بعد التأمل العميق، وهذا فن جليل القدر، بعيد الغور، فللضمائر أسرار لا يدركها إلا الملهمون والمبدعون، وهي ليست مجرد ضمائر تذكر، كما ترد في كتب النحو، وستأتي في كتابنا هذا صور رائعة عنه تبين مدى قدر المبين، وتساميه عن الأنداد.

* التوكيد بالضمائر في الشعر:

وسنورد لك هنا الآن نماذج من التوكيد بالضمائر الوارد في الشعر، تذهل

العقول، فمن بديع ما استظرفناه قول أبي تمام:

لَا أَنْتِ أَنْتِ وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ خَفَّ الهوى وَتَوَلَّتِ الأوطارُ

فقوله: «لَا أَنْتِ أَنْتِ وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ» من المליح النادر؛ لأنه هو هو، والديار ديار، وإنما مراده أن البواعث التي كانت تبعث على قبيل أنت منهم، وأنت أنت، ولو تأتّى له ذلك الرأب صدع البيت، ومع ولا الديار في عينه من الحسن تلك الديار. وقد حاول أبو الطيب أن ينسج على منوال أبي تمام فأسف، ولم يلحق به، إذ قال:

قَبِيلٌ أَنْتَ أَنْتَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ وَجَدُّكَ بِشْرُ الْمَلِكِ الْهَمَامِ

فقوله: «أنت أنت» من تأكيد الضميرين المشار إليهما، وفائدته المبالغة في مدحه، ولكنه أفسد على نفسه ما أراده؛ لأن سبك البيت عارٍ من الحسن، وفيه تقديم وتأخير أفسداه أيضاً؛ لأنه كان من حقه أن يقول: قبيل أنت منهم وأنت أنت، ولو تأتّى له ذلك لرأب صدع البيت، ومع ذلك يبقى دون بيت أبي تمام العذب الرشيق، وهذا مرده إلى الذوق، وهو الحكم في هذا الباب.

وروى صاحب «الأغاني»: أن عمرو بن ربيعة قال لزياد بن الهولة: يا خير الفتيان! اردد علي ما أخذته من إبلي، فردها عليه وفيها فحلها، فنازعه الفحل إلى الإبل فصرعه عمرو، فقال له زياد: لو صرعتم يا بني شيان الرجال كما تصرعون الإبل لكتنتم أنتم أنتم، فقال عمرو له: لقد أعطيت قليلاً، وسمت جليلاً، وجررت على نفسك وياً طويلاً. فقوله: لكتنتم أنتم أنتم، أي: أنتم الأشداء، أو الشجعان، أو ذوو النجدة والبأس، إلا أن «أنتم» الثانية تخصيصاً لهم بهذه الصفة دون غيرهم، كأنه قال: لكتنتم أنتم الشجعان دون غيرهم، ولو مدحهم بأي شيء مدحهم به من وصف البأس والشدة والشجاعة، لما بلغ هذه الكلمة، أعني: «أنتم» الثانية.

(٤) الاستعارة المكنية:

في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ فقد استعيرت الإرادة للمشاركة والمدانة، ويجوز أن يكون مجازاً عقلياً، وهذا الخلاف مطرد في كل

نسبة إلى ما لا يعقل، كقول عمرو بن أبي ربيعة:

أبت الرّوادف والثديّ لقمصها مسّ البطون وأن تمسّ ظهورا
وسنسط لك القول في هذا البيت بسطاً شافياً لتؤكد من حقيقة هذا
الكلام، فالإباء: المنع الاختياري، وقد شبه الروادف والثديّ لكبرها بمن
يصح منه ذلك، والكلام يحتمل إرادة التشبيه، فهو مجاز علاقته المشابهة،
فيكون استعارة مكنية تبعية، وقد لا يحتمل إرادة التشبيه، ويكون عبارة عن
مجرد إسناد الإباء إليها للدلالة على كبرها، فيكون مجازاً عقلياً، وفي الكلام
أيضاً لف ونشر مشوش؛ لأن مس البطون يرجع للثدي، ومس الظهور يرجع
للروادف، ولا بد لإظهار معنى البيت تماماً من إيراد البيت الثاني، وهو:

وإذا الرياح مع العشي تناوحت نبّهن حاسدةً وهجن غيورا

يقال: تناوح الجبلان، أي: تقابلا، فالمراد بالتناوح: التقابل، بحيث
يجيء بعض الرياح من أمامها وبعضها من خلفها، فتظهر روادفها ونهودها،
وتلتصق الثياب بخصرها، فيظهر ضموره، فتنبه الحاسدة لها، وتهيج الغيور
لكراهية ذلك من الرياح. ومن هذا الضرب قول الحسن بن هانئ أبي نواس:
فاستنطق العودَ قد طال السُّكوتُ به

لا ينطقُ اللّهُوُ حتى ينطقَ العودُ

شبه العود بإنسان على طريق الاستعارة المكنية، ويصح أن يكون مجازاً
عقلياً على نحو ما قدمنا لك.

وقول حسان بن ثابت:

إنّ دهرًا يلفُّ شملي بجملي لزمانٌ يهْمُ بالإحسانِ

وجمل اسم محبوبته، ويروى: بعدي، يقول: إن الدهر الذي يجمع شملي
بمحبوتي لدهر يهْمُ بالإحسان، على طريق المكنية، ولفظ الهم تخيل،
ويحتمل أن إسناد الهم له مجاز عقلي، كإسناد اللف.

(٥) التقديم والتأخير:

ظاهر الكلام يقتضي تأخير قوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ عن قوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ لأن إرادة العيب مسببة عن خوف الغصب عليه فكان حقه أن يتأخر عن السبب، والجواب على ذلك أنه سبحانه قدم المسبب على السبب للعناية به، ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده، ولكن مع كونها للمساكين.

وفي الآية والتي بعدها أيضاً أسرار عجيبة أخرى، وذلك بمخالفة الضمائر فيهما، فقد أسند في الأولى الفعل إلى ضميره خاصة بقوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وأسند في الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه في قوله: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رِجْهَمَا﴾ و﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع الله تعالى؛ لأن المراد أن ثمة عيباً، فتأدب بأن نسب الإعاية إلى نفسه، وأما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور، فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك: أمرنا بكذا، أو دبرنا كذا، وإنما يعنون بأمر الملك أو دبر، ويؤيد ذلك قوله في الثالثة: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ فلم تأت الضمائر على نمط واحد، وهذا من أرقى الأساليب، وأحفلها بالمعاني الخصب؛ التي لا يمجها السمع، وتحتويها الآذان.

* الفوائد:

(١) الأفعال التي تنصب مفاعيل ثلاثة هي: أعلم، وأرى، وأنبأ، ونبأ، وأخبر، وخبر، وحدث، والأصل في هذه الأفعال: أعلم وأرى اللذان كان أصلهما قبل دخول همزة النقل عليهما علم ورأى المتعديان لاثنين، وأما الخمسة الباقية فليس لها ثلاثي يستعمل في العلم إلا خبر، ولكنها ألحقت في بعض استعمالاتها بأعلم المتعدي إلى ثلاثة؛ لأن الإنباء والتنبئ والإخبار والتخبر والتحديث بمعنى الإعلام، هذا؛ وتستعمل الخمسة متعدياً إلى واحد بأنفسها، وإلى مضمون الثاني، والثالث، أو مضمون الثالث وحده بالباء نحو: حدثتك بخروج زيد، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّتُكَ يُتَاوِيلُ﴾

مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧١﴾ وسيأتي مزيد بحث عن هذه الأفعال في موضعه إن شاء الله .

(٢) وراء :

هو لفظ يطلق على الخلف وعلى الأمام، ومعناها: هنا أمامهم، وكون وراءهم بمعنى أمامهم قول قتادة وأبي عبيدة وابن السكيت والزجاج، ولا خلاف عند أهل اللغة أن وراء يجوز بمعنى قدام، وجاء في التنزيل والشعر، قال الله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ وقال: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وقال: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ وقال لبيد:

أليس ورائي إن تراخت مَنِّي
لُزُومُ الْعَصَا تُخْنِي عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ

وقال سوار بن المضرب السعدي :

أيرجو بنو مروان سَمْعِي وطَاعَتِي

وقومسي تميمٌ والفلاة ورائيا

وقال آخر :

أليس ورائي أن أدبَّ على العصا

فأمنَ أعداءُ وتسأمني أهلي

وقال الفراء : لا يجوز أن يقال للرجل بين يديك : هو وراءك، وإنما يجوز ذلك في المواقيت من الليالي والأيام والدهر، تقول : وراءك برد شديد، وبين يديك برد شديد، جاز الوجهان ؛ لأن البرد إذا لحقك صار من ورائك، وكأنك إذا بلغته صار بين يديك . قال : إنما جاز هذا في اللغة ؛ لأن ما بين يديك وما قدامك إذا توارى عنك فقد صار وراءك . وأكثر أهل اللغة على أن وراء من الأضداد .

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْفَرَسَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٢﴾ إِنَّا مَكْنَالُهُ

فِي الْأَرْضِ وَعَآيِنُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِّحًا ﴿٨٣﴾ فَأَنْبَعُ سَبِّحًا ﴿٨٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ

وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْذُؤُا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

☆ اللغة:

﴿ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ : اضطربت الأقوال فيه كثيراً، فبينما يزعم مفسرو القرآن أنه غير الإسكندر المقدوني الكبير، يقولون: إنه هو الذي بنى الإسكندرية، مع أن الإسكندر الكبير هو بانيها؛ ومعنى ذي القرنين أنه لقبٌ لقب به؛ لأنه طاف قرني الدنيا، يعني: جانبها شرقيها وغربيها، أو لأنه كان له قرنان، أي: ضفirtان، والعرب تسمي الذؤابة قرناً، وجمعها قرون. قال معجون ليلى لزوجته صبيحة عرسه:

بعيشك هل ضمنت إليك ليلى قبيل الفجر أو قبّلت فاها؟!
وهل رفّت عليك قرون ليلى رفيف الأقحوانة في شذاها؟!

وقيل: كان على رأسه ما يشبه القرنين، ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته، كما يسمى الشجاع كبشاً؛ لأنه ينطح أقرانه. واختلف في زمنه ومكانه اختلافاً يمكن الرجوع إليه في المطولات؛ لأن هذا البحث غير داخل في نطاق كتابنا.

﴿حَمِئَةٍ﴾ : أي: كثيرة السواد من الحمأة، أي: الطين. وفي المصباح: والحمأة بسكون الميم: طين أسود، وقد حمئت البئر حمأً، من باب: تعب، صار فيها الحمأة، والعين الحمئة: ماء يجري على الطين الأسود، وقد قرىء عين حامية، أي: حارة. ويروى أن ابن عباس قرأ حمئة، وكان عند معاوية، فقرأ معاوية حامية، فقال ابن عباس: حمئة، فقال معاوية لعبد الله بن عمر: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين. ثم وجه إلى كعب الأحبار: كيف تجد الشمس تغرب؟ فقال: في ماء وطن، فوافق قول ابن عباس، وكان ثمة رجل، فأنشد قول تَبَعَ:

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً
 ملكاً تدينُ له الملوكُ وتسجد
 بلغ المغاربَ والمشرقَ يبتغي
 أسبابَ أمرٍ من حكيمٍ مُرشدٍ
 فرأى مغارَ الشمسِ عندَ مأبها
 في عينٍ ذي خُلبٍ وثأطٍ حَرَمِدٍ

والخُلب - بضمّتين -: الحمأة، وهي الطين، والثأط: الحمأة المختلطة بالماء فتزيد رطوبة وتفسد، والحرمد: الطين الأسود. مدح تبع ذا القرنين، ثم قال: إنه بلغ مواضع غروب الشمس ومواضع شروقها، يبتغي من الله أسباباً توصله لمقصده، فرأى محل غبار الشمس عند مأبها، أي: رجوعها. وفي عين متعلق بمغار وحال منه، وقد أول أبو علي الجبائي ذلك تأويلاً طريفاً؛ بأن ذلك على سبيل التخيل، كما أن من ير الشاطئ الغربي من البحر المتسع ير الشمس تغرب فيه، وفي الحقيقة تغرب في ظلمة وراء الأرض لدورانها، كما يقرر ذلك بدائه العلم.

○ الإعراب:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ الواو استئنافية، ويسألونك فعل مضارع وفاعل ومفعول به، وعن ذي القرنين متعلقان بيسألونك ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ جملة سأتلو مقول القول، وعليكم متعلقان بأتلو، ومنه متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان صفة لذكر وتقدم عليه، وذكراً مفعول به. ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ إن واسمها، وجملة مكنا خبرها، وله متعلقان بمكنا، وفي الأرض متعلقان بمكنا أيضاً، وآتيناه عطف على مكنا وهو فعل وفاعل ومفعول به، ومن كل شيء كل متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان صفة لسبباً، وسبباً مفعول به ثانٍ لآتيناه ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ الفاء عاطفة، وأتبع فعل ماضٍ، وفاعله مستتر تقديره: هو، وسبباً مفعول به، وقيل: هو يتعدى لاثنتين حذف أحدهما، وتقديره: فأتبع سبباً سبباً آخر، أو فأتبع أمره سبباً،

قال يونس وأبو زيد: أتبع - بالقطع -: عبارة عن المجد المسرع الحثيث الطلب، وبالوصل إنما يتضمن الاقتفاء دون هذه الصفات ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَرْبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْجُبُ فِي عَيِّبٍ حُمُتٍ﴾ حتى حرف غاية وجر، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن، وجملة بلغ مضافة إلى الظرف، ومغرب الشمس مفعول به، وجملة وجدها لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم، وفي عين متعلقان بتغرب، وحمة صفة لعين ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذَّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ ووجد عطف على وجدها، وعندها ظرف متعلق بوجد، وقوماً مفعول به، وقلنا فعل وفاعل، وذا القرنين منادى مضاف، وإما حرف شرط وتفصيل، وأن تعذب مصدر مؤول في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو تعذيبك، أو الرفع على أنه مبتدأ، والخبر محذوف، أي: إما تعذيبك واقع، ومن شواهد الرفع.

قول الشاعر:

فسيروا فإمّا حاجةٌ تقضيانها منها

وإما مقيلاً صالحٌ وصديق

أو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، أي: إما أن تفعل التعذيب، وإما أن تتخذ عطف على إما أن تعذب، وفيهم متعلقان بتتخذ، أو مفعول به ثانٍ لتتخذ، وحسنًا مفعول به أول، أي: أمراً إذا حسن ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أما حرف شرط وتفصيل، ومن ظلم مبتدأ، وجملة ظلم صلة، فسوف: الفاء رابطة، وسوف حرف استقبال، ونعذبه فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول، والجملة خبر من ﴿ثُمَّ يَرْدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ ثم حرف عطف وتراخ، ويرد فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل مستتر تقديره: هو، وإلى ربه متعلقان بيرد، فيعذبه: الفاء عاطفة، ويعذبه فعل وفاعل ومفعول به، وعذاباً مفعول مطلق، ونكراً صفة ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ وأما عطف على أما السابقة، ومن مبتدأ، وآمن صلة، وعمل صالحاً فعل وفاعل مستتر ومفعول به، أو صالحاً صفة لمفعول مطلق

محذوف، أي: عملاً صالحاً، فله: الفاء رابطة، وله خبر مقدم، وجزاء تمييز، وأعربها أبو حيان مصدراً في موضع الحال، أي: مجازى كقولك: في الدار قائماً زيد، وقيل: انتصب على المصدر، أي: يجزى جزاء، والحسنى مبتدأ مؤخر، أي: فله الفعلة الحسنى جزاء. قال الفراء: ونصب جزاء على التفسير، أي: لجهة النسبة، أي: نسبة الخبر المقدم، وهو الجار والمجرور إلى المبتدأ المؤخر، وهو الحسنى، والتقدير: فالفعلة الحسنى كائنة له من جزاء الجزاء ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ وسنقول فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر تقديره: نحن، وله متعلقان بنقول، ومن أمرنا متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان صفة ليسراً، وتقدم عليه، ويسراً مفعول به، أو مفعول مطلق، أي: لا نأمره بالصعب الشاق، ولكن بالسهل المتيسر.

* الفوائد:

* بحث طريف يتعلق بـ «في»:

ذهب ابن قتيبة إلى أن «في» بمعنى «عند» لأنها قد ترد بمعنى «في» وبمعنى «مع» قال الشاعر:

حتى إذا ألقيت يداً في كافر

معناه: عند كافر، وقال الشاعر:

وفي الشرّ نجاةٌ حين لا ينجيك إحسان

معناه: ومع الشر، وتكون في الآية بمعنى على كقوله تعالى: ﴿وَلَا صَلَواتُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل، وقال عنتره:

بطلٌ كأنّ ثيابه في سرحةٍ

أي: على سرحة، وكما أن في تقع موقع على كذلك تعكس القضية، كقول الشاعر:

ولقد سريت على الزّمانِ بمعشر

أي: في الزمان.

هذا؛ ونقول: إن الخطاب على حكم الحس في رأي العين؛ لأن من وقف على شاطئ البحر المحيط، أو قريباً من جبل عال، رأى الشمس عند الغروب كأنها تدلت في نفس البحر أو خلف الجبل قال الله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي: وراء الجبل، ولولا أن اللفظ جاء على حكم الحس في الظاهر لما قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ ومن المعلوم عقلاً أن القوم لا يجلسون في قرن الشمس، ولا هم عندها، ولكن لما كان ذو القرنين قد توغل في جوب الأرض حتى انتهى إلى البحر المحيط من جهة الغرب، كان الناظر يخيل إليه أن الشمس تغرب هناك، وإذاً فالخطاب ورد على حكم الحس في الظاهر، وما أكثر ما تكذب الحواس! وله مباحث تؤخذ من مظانها، وليس من شرطنا البحث في هذه الموضوعات على جلالتها. ويروي التاريخ أن لابن الهيثم كتاباً جليل القدر يقع في سبعة مجلدات في هذا العلم، ولكنه فقد مع ما فقد من تراثنا العربي.

هذا. وقد تظرف الشعراء فأشاروا إلى خداع الحس، قال أبو العلاء المعري:

والنجمُ تستصغرُ الأبصارُ رؤيته

والذنبُ للطرف لا للنجم في الصغر

وقال الخفاجي:

ولا ينال كُسوف الشمس طلعتها

وإنما هو فيما يزعمُ البصر

﴿ثُمَّ أُنْبِئْ سَبَبًا﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أُنْبِئْ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾

قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ أَتُؤْتِي زُبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُؤْتِي أَفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾

☆ اللغة:

﴿بَيْنَ السَّدَيْنِ﴾ : بين الجبلين ، يروى أن ذا القرنين سدّ ما بينهما ، وإطلاق السد على الجبل لأنه سد في الجملة . وفي القاموس : السدّ : الجبل والحاجز ، أو لكونه ملاصقاً للسد ، فهو مجاز بعلاقة المجاورة ، والقول الثاني هو المناسب لما قبله ، والتفاصيل في المطولات .

﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ : اسمان أعجميان بدليل منع الصرف فيهما للعلمية والعجمة ، وقيل : بل هما عربيان ، واختلف في اشتقاقهما ، فقيل : من أجيح النار ، وهو التهابها وشدة توقدها ، وقيل : من الأوجة وهي الاختلاط أو شدة الحر ، وقيل : من الأوج وهو سرعة العدو ، وإنما منعا من الصرف للعلمية والتأنيث ، وكلاهما من أج الظليم إذا أسرع ، أو من أجت النار إذا التهب ، والأقوال في حقيقتهما كثيرة يمكن الرجوع إليها في المطولات .

﴿حَرَمًا﴾ : جعلاً من المال أو الخراج بثلث الخاء ، وقد قرىء بها ، ومنه : «الخراج بالضمان» ثم سمي ما يأخذه السلطان خراجاً ، ويقال للجزية : الخراج ، فيقال : أدى خراج أرضه ، ومن المجاز : خرج فلان في العلم والصناعة خروجاً : إذا نبغ ، وخَرَجَه فلان فخرج ، وهو خريج المدرسة ، قال زهير يصف الخيل :

وخرَّجَهَا صَوَارِخَ كُلِّ يَوْمٍ فَقَدْ جَعَلَتْ عَرَائِكُهَا تَلِينَ

أي : وأدبها كما يخرج المتعلم .

﴿رَدْمًا﴾ : حاجزاً حصيناً موثقاً ، والردم أكبر من السدّ ، من قولهم ثوب

مردم ، ومنه قول عنتره :

هل غادر الشعراء من مُتردّم؟ أم هل عرفت الدّار بعد توهُم؟

التردّم: الموضع الذي يسترقع ويستصلح لما اعتراه من الوهن والوهي، والتردّم أيضاً مثل الترّم، وهو ترجيح الصوت مع تحزين، ومعنى قول عنتره: لم يترك الأول للآخر شيئاً، أي: سبقني من الشعراء قوم لم يتركوا لي مسترقعاً أرقعه، ومستصلحاً أستصلحه.

﴿زُبُرُ الْحَدِيدِ﴾: جمع زبر، كغرفة، أي: قطعة.

﴿الصَّافَيْنِ﴾ بفتحين، وضمّتين أيضاً، وضمّ الأول وسكون الثاني، وقد قرئ بالثلاث جميعاً مثني صدف بفتحين، وصدف بضمّتين، وصدف بضمّ الأول وفتح الثاني، وبالعكس: منقطع الجبل، أو ناصيته، وقد سميا بذلك لأنهما يتقابلان.

﴿قِطْرًا﴾ بكسر فسكون: النحاس المذاب على الحديد المحمى.

﴿يُظْهِرُهُ﴾ يعلّو ظهره لارتفاعه وانملاسه.

﴿قَبًا﴾ خرقاً لصلابته وشخائته.

﴿دَكَّاءٌ﴾ بالمد أرض مستوية، من قولهم: ناقة دكاء، أي: لا سنام لها، ذلت بالدك، وقرئ دكاً مصدر دك.

○ الإعراب:

﴿ثُمَّ أُنْجِ سَبَّأً﴾ عطف على نظائرها، وقد تقدم إعرابها ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ حتى حرف غاية وجر، وإذا ظرف مستقبل، وجملة بلغ مضافة إلى الظرف، ومطلع - بكسر اللام - : مكان الطلوع، وسيأتي القول فيه في باب: الفوائد، وجملة وجدها لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم، وجملة تطلع مفعول ثان لوجدتها، وعلى قوم متعلقان بتطلع، وجملة لم نجعل صفة لقوم، ولهم في موضع نصب مفعول ثان لنجعل، ومن دونها حال، وستراً مفعول نجعل الأول؛ لأن أرضهم لا أبنية فيها، بل فيها أسراب فإذا طلعت الشمس دخلوها، وإذا ارتفع النهار خرجوا

إلى معاشهم، وقيل: المراد بالستر اللباس، فهم عراة أبداً ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ كذلك خبر لمتبداً محذوف، أي: الأمر كذلك، وقد الواو عاطفة، أو حالية، وقد حرف تحقيق، وأحطنا فعل وفاعل، وبما متعلقان بأحطنا، ولديه صلة الموصول، وخبراً تمييز، أو مفعول به، وقد تقدم ﴿ثُمَّ أُنْبِئْ سِبَّأً﴾ تقدم إعرابه ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ بين السدين: انتصب بين على أنه مفعول به مبلوغ، كما انجر على الإضافة في قوله تعالى: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ وكما ارتفع في قوله: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ لأنه من الظروف التي تستعمل أسماء وظروفاً، وسيأتي تفصيل ذلك في باب: الفوائد، وجملة وجد لا محل لها لأنها جواب إذا، ومن دونها مفعول وجد الثاني، وقوماً مفعول وجد الأول، وجملة لا يكادون صفة لقوماً، والواو اسم يكاد، وجملة يفقهون خبرها، وقولاً مفعول به ﴿قَالُوا يَذَّا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يا أداة نداء، وذا القرنين منادى مضاف، وإن واسمها ومأجوج عطف على يأجوج، ومفسدون خبر إن، وفي الأرض متعلقان بمفسدون ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ الفاء عاطفة، وهل حرف استفهام، ونجعل فعل مضارع وفاعل مستتر، ولك مفعول نجعل الثاني، وخرجاً مفعول نجعل الأول، وعلى ومدخولها متعلقان بمحذوف صفة لخرجاً، أي: قائماً على هذا الشرط، فعلى هنا على بابها، أي: للاستعلاء، وبيننا الظرف متعلق بمحذوف مفعول نجعل الثاني، وبينهم عطف على بيننا وسداً مفعول نجعل الأول ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ ما اسم موصول في محل رفع مبتداً، وجملة مكني صلة، وفيه متعلقان بمكني، وربى فاعل مكني، وخير خبر المبتداً ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ الفاء الفصيحة، وأعينوني فعل أمر وفاعل ومفعول به، وبقوة متعلقان بأعينوني، وأجعل فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب، وبينكم الظرف مفعول أجعل الثاني، وبينهم عطف عليه، وردماً مفعول أجعل الأول، ومعنى أعينوني بقوة، أي: بفعلة، وصنّاع يحسنون البناء، وبآلة، وسيأتي تفسيرها ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَيْنِي بَيْنَ الصَّدِيقَيْنِ﴾ آتوني فعل أمر وفاعل ومفعول به أول،

وزبر الحديد مفعول به ثان، وحتى حرف غاية وجبر، وإذا ظرف مستقبل، وساوى فعل ماض، وفاعله مستتر تقديره: هو، ولا بد من تقدير محذوف للغاية، أي: فجأؤوه بما طلب فبنى، وجعل بين الصدفين الفحم والخطب حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما، والظرف متعلق بساوى ﴿قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلُهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ جملة انفخوا مقول القول، وجملة قال لا محل لها لأنها جواب إذا، وحتى غاية للنفخ، وجملة جعله ناراً مضافة إلى الظرف، وناراً مفعول جعل الثاني، وجملة آتوني مقول القول، وأفريغ مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب، وفاعله أنا، وعليه متعلقان بأفريغ، وقطراً مفعول به لأفريغ، والتقدير: وآتوني قطراً أفريغ عليه قطراً، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، والمسألة من باب: التنازع، فقد أعمل الثاني، ولو أعمل الأول لقالوا آتوني أفرغه عليه قطراً إذ التقدير آتوني قطراً أفرغه عليه، ومثله قوله تعالى: ﴿هَآؤُمْ أَفْرِغُوا عَلَيْكُمْ كِنْيَةً﴾ أعمل الثاني، ولو أعلم الأول لقال: «هَآؤُمْ أَفْرِغُوا كِتَابِيهِ» وسيأتي القول فيه في حينه ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُمْ نَقْبًا﴾ الفاء عاطفة على محذوف، أي: فجاء قوم يأجوج بعد أن أنهى بناءه وتسويته يحاولون أن يعلون، أو يثقبوه فما استطاعوا، واستطاعوا، فعل وفاعل وأن وما بعدها مصدر مؤول في محل نصب مفعول استطاعوا وما استطاعوا عطف على فما استطاعوا، وله متعلقان بنقبا، ونقبا مفعول به ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ جملة هذا مقول القول، وهذا مبتدأ. ورحمة خبر، والإشارة إلى السد لأنه مانع من خروجهم، ومن ربي صفة لرحمة، فإذا الفاء استئنافية، وإذا ظرف مستقبل، وجملة جاء وعد ربي مضافة للظرف، وجملة جعله لا محل لها، ودكاء مفعول به ثان لجعل، وكان الواو عاطفة، أو حالية، وكان وعد ربي: كان واسمها، وحققاً خبرها.

* الفوائد:

(١) أسماء الزمان والمكان تفيد زمان الفعل ومكانه، وتصاغ من الثلاثي

المجرد على وزن مَفْعَل بفتح العين، وعلى وزن مَفْعِل بكسرها، فوزن مفعّل بفتح العين للثلاثي المجرد المأخوذ من يَفْعُل المضموم العين، أو يَفْعَل المفتوح العين في المضارع، أو من الفعل المعتل الآخر مطلقاً، فالأول مثل: مكتب ومحضر ومحل من حل بالمكان، والثاني مثل ملعب ومزرع، والثالث مثل ملهى ومثوى وموقى، وشذت ألفاظ جاءت بالكسر مع أنها مبنية من مضموم العين في المضارع، وهي أحد عشر، وهي: المطلع، والمنسك لمكان النسك، أي: العبادة، والمجزر لمكان جزر الإبل، وهو نحرها، يقال: جزرت الجزور أجزرها بالضم إذا نحرتها وجلدتها، والمنبت لموضع النبات، والمشرق، والمغرب لمكان الشروق والغروب، والمفرق لوسط الرأس؛ لأنه موضع فرق الشعر، وكذلك مفرق الطريق: للموضع اندي يتشعب منه طريق آخر، والمسكن موضع السكنى، والمسقط موضع السقوط، يقال: هذا مسقط رأسي، أي: حيث ولدت وسقط رأسي، والمرفق موضع الرفق، والمسجد وهو اسم للبيت وليس المراد موضع السجود، فقد كسروا هذه الألفاظ، والقياس فيها الفتح.

ووزن مفعّل بكسر العين للثلاثي المجرد المأخوذ من يَفْعَل الصحيح المكسور العين، أو من المثال الواوي، فالأول مثل مجلس، ومحبس، ومضرب، ومبيت، ومضيف، والثاني مثل: مورد، وموعد.

وقد تدخل تاء التأنيث على أسماء المكان كالمزلة بفتح الزاي وكسرها، فالمفتوح من باب: فرح، والمكسور من باب: ضرب، وهي اسم مكان من: زل: إذا سقط، والمظنة لموضع الظن ومألفه، وهو بفتح الظاء، لأنه من ظن يظن بالضم، والمقبرة لموضع القبر، والمعبرة لموضع الشط المهياً للعبور، والمشرقة مثلثة الراء، والمدرجة الطريق من درج يدرج دروجاً إذا مشى، والموقعة بفتح القاف وكسرها الموضع الذي يقع عليه، والمشرية بفتح الراء وضمها، أي: موضع الشرب، وتطلق أيضاً على الغرفة لأنهم كانوا يشربون فيها، وهي أيضاً الأرض اللينة الدائمة النوات، وإذا كثر الشيء بالمكان قيل فيه

مفعلة بالفتح، فيبنى اسم المكان من الأسماء، مثل: أرض مسبعة، أي: كثيرة السباع، ومذابة، أي: كثيرة الذئاب، ومأسدة، أي: كثيرة الأسود، ومبطخة، أي: كثيرة البطيخ، ومقثأة، أي: كثيرة القثاء، ومحياة، أي: كثيرة الحياة، ومفعاة، أي: كثيرة الأفاعي ومدرجة، أي: كثيرة الدُرَّاج بضم الدال وتشديد الراء، وهو طائر جميل ملون الريش، ويطلق على الذكر والأنثى.

أما وزنهما مما فوق الثلاثي فيكون على وزن المضارع بضم الميم المبدلة من حرف المضارعة، وفتح ما قبل الآخر، نحو: مجتمع، ومتدى، ومنتظر، ومستشفى، فهما يشبهان اسم المفعول والمصدر الميمي، والفرقة بينها بالذوق والقرينة.

(٢) الظرف:

الظرف قسمان: متصرف وغير متصرف:

فالمتصرف ما يستعمل ظرفاً وغير ظرف، فهو يفارق الظرفية إلى حال لا تشبهها، كأن يستعمل مبتدأ، أو خبراً، أو فاعلاً، أو مفعولاً به، أو نحو ذلك، مثل: شهر، ويوم، وسنة، وليل. والظرف غير المتصرف ما يلزم النصب على الظرفية، فلا يستعمل إلا ظرفاً منصوباً مثل: قط، وعوض، وبيننا، وبينما، وإذا، وأيان، وأنى، وإذا صباح، وذات ليلة، ومنه: ما ركب من الظروف مثل صباح مساء، وليل ليل، ومنه ما يلزم النصب على الظرفية أو الجر بمن نحو: قبل، وبعد، والجهات الست، ولدى، ولدن، وعند، ومتى، وأين، وهنا، وثم، وحيث، والآن، وتفصيل ذلك في المطولات.

(٣) استطاع واسطاع:

قالوا: الأصل في استطاع: استطاع، وأن التاء حذفت تخفيفاً، وفتحت همزة الوصل وقطعت، وهو قول الفراء. وفي استطاع لغات: استطاع يستطيع بفتح الهمزة في الماضي وضم حرف المضارعة، فهو من أطاع يطيع، وأصله يطوع بقلب الفتحة من الواو إلى الطاء في أطوع إعلالاً له حملاً على الماضي،

فصار أطاع ، ثم دخلت السين كالعوض من عين الفعل ، هذا مذهب سيبويه .
واللغة الثانية : استطاع يستطيع بكسر الهمزة في الماضي ، ووصلها ، وفتح
حرف المضارعة ، وهو استفعل ، نحو : استقام واستعان .

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝٩٩ وَعَرَضْنَا
جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا
يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَائِي إِنَّا
أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۝١٠٢ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
وَلِقَائِهِمْ فَحُطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝١٠٥ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا
وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٠٦ ﴾

☆ اللفظة:

﴿ يَمُوجٌ ﴾ : يختلط .

﴿ الصُّور ﴾ : القرن ينفخ فيه ، والبوق .

○ الإعراب:

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ ﴾ وتركنا فعل وفاعل ، وبعضهم
مفعول به ، ويومئذ ظرف مضاف إلى مثله متعلق بيموج ، وجملة يموج في بعض
مفعول به ثان ، والتنوين في إذ عوض عن جملة كما تقدم ، وقد جعل بعضهم
ترك متعدياً إلى واحد ، فتكون جملة يموج في محل نصب على الحال ﴿ وَنُفِخَ فِي
الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ ونفخ فعل ماض مبني للمجهول ، ونائب الفاعل مستتر ،
وفي الصور متعلقان بنفخ ، فجمعناهم : الفاء عاطفة ، وجمعناهم فعل وفاعل
ومفعول به ، وجمعاً مفعول مطلق ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾
وعرضنا عطف على ما تقدم ، وجهنم مفعول به ، ويومئذ ظرف مضاف إلى

مثله متعلق بعرضنا، وللكافرين متعلقان بعرضنا أيضاً، وعرضاً مفعول مطلق ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ الذين صفة للكافرين، أو بدل منهم، وجملة كانت صلة، وأعينهم اسم كانت، وفي غطاء خبر كانت، وعن ذكري صفة لغطاء، وكانوا: كان واسمها، وجملة لا يستطيعون سمعاً خبرها ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آيَاتِي﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، والذين فاعل، وجملة كفروا صلة، وإن وما في حيزها سدت مسد مفعولي حسب، ومن دوني مفعول ثان ليتخذوا، وأولياء مفعول به أول ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ إنا: إن واسمها، وجملة أعتدنا خبر، وجهنم مفعول به، وللكافرين حال لأنه كان صفة لنزلاً، ونزلاً حال، أي: معدة لهم كالنزل يعد للضيف ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ جملة هل ننبئكم مقول القول، وبالأخسرين دخلت الباء على مضمون المفعولين الثاني والثالث، وأعمالاً تمييز وجمع التمييز، وهو أصيل في الأفراد لمشاكلة المميز، وللايذان بأن خسرانهم إنما كان من جهات شتى لا من جهة واحدة ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الذين صفة للأخسرين، أو بدل، ويرجح أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، كأنه جواب لسؤال سائل: ومن هم الأخسرون أعمالاً، وجملة ضل صلة، وسعيهم فاعل، وفي الحياة متعلقان بضل، والواو حالية، وهم مبتدأ، وجملة يحسبون خبر، وإن وما في حيزها سدت مسد مفعولي يحسبون، وجملة يحسبون خبر أنهم، وصنعاً مفعول، ويجوز أن يعرب تمييزاً، وجملة وهم يحسبون حال من فاعل ضل ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أولئك اسم إشارة مبتدأ، والذين خبره، وجملة كفروا صلة، وبآيات ربهم جار ومجرور متعلقان بكفروا، ولقائه عطف على آيات، فحبطت عطف على كفروا، وأعمالهم فاعل حبطت ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ فلا نقيم عطف على ما تقدم، والفاعل مستتر تقديره: نحن، ولهم متعلقان بنقيم، ويوم القيامة متعلق بنقيم أيضاً ووزناً مفعول به، أي: فلا يكون لهم عندنا وزن أو مقدار ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ ذلك مبتدأ، وجزاؤهم

خبر، وجهنم بدل أو عطف بيان، لقوله: جزاؤهم، ويجوز أن يعرب ذلك خبراً لمبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك، جزاؤهم جهنم مبتدأ وخبر، فتكون كل من الجملتين جملة برأسها، ويجوز أن يعرب ذلك مبتدأ، وجزاؤهم مبتدأ ثان، وجهنم خبر جزاؤهم، والجملة خبر المبتدأ الأول، وهو: ذلك، وهذه الأوجه متساوية الرجحان، وبما كفروا يجوز أن يتعلق بمحذوف خبر ذلك في أحد وجوهه، أو بمحذوف حال، أي: بسبب كفرهم، وما مصدرية، واتخذوا عطف على كفروا، وآياتي مفعول به أول، ورسلي عطف على آياتي وهزوا مفعول به ثان.

□ البلاغة:

(١) الاستعارة المكنية:

في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ استعارة محسوس لحسوس كما قسمنا أنواع الاستعارة، فإن أصل الموج تحريك المياه، فاستعير الحركة يأجوج ومأجوج لاشتراك المستعار والمستعار له في الحركة، وهي استعارة مكنية تبعية، أو هم الخلق يمججون.

(٢) جناس التصحيف:

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ جناس التصحيف، وهو أن يكون النقط فيه فارقاً بين الكلمتين، على حد قول البحري:

ولم يكن المغتر بالله إذ سرى ليعجز والمعتز بالله طالبه

* الجناس وأقسامه:

الجناس، ويقال له التجنيس والمجانسة والتجانس، وكلها ألفاظ مشتقة من الجنس، وحده في الاصطلاح: تشابه الكلمتين في اللفظ واختلافهما في المعنى، وفائدته أن يميل بالسامع إلى الإصغاء، فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاء إليها، ولأن اللفظ المذكور إذا حمل على معنى، ثم جاء والمراد به معنى آخر، كان للنفس تشوق إليه.

وفيما يلي أقسام الجناس باختصار:

١- الجناس المركب: وهو أن يتألف من ركنين، وهو قسمان:

أ- أن يتشابه ركناه لفظاً لا خطأً، كقول العماد الأصفهاني، وكان يسير مع القاضي الفاضل في موكب السلطان، وقد ثار الغبار:

أما الغبارُ فإِنَّه ممَّا أثارته السَّنابك

والجوُّ منه مُظْلِم لكن أنار به السَّنابك

يا دهرُ لي عبد الرحيم هم فلستُ أخشى مسَّ نابك

ويحكى أنه لما كان المعتمد بن عباد في سجن أغمات، وطال عليه الحال، قالت له جاريته: لقد هُنا هُنا، فأنشد على قولها:

قالتُ لقد هُنا هُنا مولاي أينَ جا هُنا؟!

قلتُ لها: إلهنا صيَّرننا إلى هنا

ب- أن يتشابه ركناه لفظاً وخطأً، ومن أمثلته:

عَصْنَا الدهرُ بنا به لیت ما حلَّ بنا به

ولأي الفتح البستي:

إذا لم يكن ملكٌ ذاهبه فدعه فدولته ذاهبه

٢- الجناس الملفق:

وحده أن يكون كل من الركنين مركباً من كلمتين، كقول بعضهم:

رعى اللهُ دهرًا بكمْ قد مضى بلغتِ الأماني به في أمان

وأيام أنسٍ تولَّتْ لنا بأحلام عان بأحلى معان

٣- الجناس المعنوي:

وهو مجرد صناعة مضمية، وقد يأتي حسناً، وهو أن يضمم المتكلم ركني التجنيس، ويذكر ألفاظاً مرادفة لأحدهما، فيدل المظهر على المضمّر، وأحسن ما سمعناه منه قول أبي بكر بن عبدون، وقد اصطبَح بخمرة، وترك بعضها إلى الليل، فصارت خلاً:

أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَأْسٌ مُدَامَةٌ أَتَتْنَا بِطَعْمٍ عَهْدُهُ غَيْرُ ثَابِتٍ
حَكَتْ بَنْتُ بَسْطَامَ بْنِ قَيْسٍ صَبِيحَةً

وَأُضْحِثُ كَجَسْمِ الشَّنْفَرَى بَعْدَ ثَابِتٍ

فصح معه جناسان مضميران في صدر البيت وعجزه؛ لأن بنت بسطام بن قيس كان اسمها الصهباء، والشنفري اسمه ثابت، وجعل جسمه خلاً في مرثية خاله تأبط شراً، حيث قال:

فَاسْقِنِيهَا يَا سَوَادَ بْنَ عَمْرٍو إِنَّ جِسْمِي بَعْدَ خَالِي لَخَلٌّ

والخل: المهزول، وأما الجناس المضمّر فهو بنت بسطام التي هي الصهباء، وأما الذي في العجز فهو جسم ثابت الشنفري الذي هو الخل، والمعنى: أن الخمر التي حكّت سميتها بنت بسطام صباحاً، وحكّت جسم الشنفري مساءً، أي: كانت صهباء فصارت خلاً، فظهر من كناية اللفظ جناسان مضميران الصهباء، وهي: الخمرة، والصهباء، وهي بنت بسطام، وخل، وهو المهزول، وخل وهو ما يؤتدم به.

٤- الجناس المطرف:

وهو ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرفاً في طرفه الأول، كقول عبد الله بن المعتز:

زَارَنِي وَالذُّجَى أَحْمَمَ الْخَوَاشِي وَالثُّرَيَّا فِي الْغَرْبِ كَالْعَنْقُودِ

وَكَأَنَّ الْهَلَالَ طَوْقُ عُرُوسٍ بَاتَ يَجْلَى عَلَى غَلَائِلِ سُودِ

لَيْلَةُ الْوَصْلِ سَاعِدِينَا بِطَوْلِ طَوَّلَ اللَّهُ فَيْكَ غِيْظَ الْحُسُودِ

فإن قوله الحسود زاد حرفاً على سود.

٥- الجناس المحرف:

وهو ما اتفق ركناه في أعداد الحروف وترتيبها واختلفا في هيئة الحروف فقط، سمي بذلك لانحراف هيئة عن هيئة الآخر، قال أبو العلاء:

وَالْحُسْنُ يَظْهَرُ فِي شَيْئَيْنِ رَوْنَقُهُ بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ

٦- الجناس اللفظي :

وهو ما تماثل ركناه لفظاً، واختلف أحد ركنيه عن الآخر خطأً.

قال أبو تمام :

يَمْدُونُ مِنْ أَيْدِ عَوَاصِرِ عَوَاصِمِ
تَصُولُ بِأَسْيَافِ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

وقال البحتري :

مِنْ كُلِّ سَاجِي الطَّرَفِ أَغِيدَ أَجِيدَ
وَمَهْفَهْفِ الْكَشْحَيْنِ أَحْوَى أَحْوَرِ

٧- الجناس المطلق :

وهو ما اختلف ركناه في الحركات والحروف، فاشتبه بالمشتق الراجع معناه إلى أصل واحد، وليس كذلك، وهو جميل غير متكلف، ومنه قول أبي فراس :

سَكَرْتُ مِنْ لَحْظِهِ لَا مِنْ مُدَامَتِهِ
وَمَالَ بِالنُّومِ عَنْ عَيْنِي تَمَائِلُهُ
فَمَا السَّلَافُ دَهْتَنِي بَلْ سَوَالْفُهُ
وَلَا الشَّمُولُ ازْدَهْتَنِي بَلْ شَمَائِلُهُ
أَلْوَى بِعَزْمِي أَصْدَاغاً لَوَيْنَ لَهُ
وَوَغَالَ صَبْرِي بِمَا تَحْوِي غَلَائِلُهُ

وقد ولع أبو فراس بهذا اللون من الجناس فقال :

عَذِيرِي مِنْ طَوَالِعِ فِي عَذَارِي
وَمِنْ بَرْدِ الشَّبَابِ الْمُسْتَعَارِ
وِثُوبَ كُنْتُ أَلْبَسُهُ أَنْيَقَ
أَجْرُرُ ذَيْلَهُ بَيْنَ الْجَوَارِي

وما زادت على العشرين سنّي
فما عذُر المشيبِ إلى عذارِي؟!
ومنه الحديث النبوي، وهو: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

٨- الجناس المذيل:

وهو ما زاد أحد ركنيه على الآخر بحرف أو أكثر في طرفه الأخير، فكان له
بمثابة الذيل اللاحق بالثوب، ومنه قول أبي تمام:
يمدُّون من أيِّدِ عَوَاصِرِ عَوَاصِمِ
تصوُلُ بأسيافِ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ
ولحسان بن ثابت منه:

وكنّا متى يغزُّ النبيُّ قبيلةً

نصلُ جانبيها بالقنا والقنابل

٩- الجناس اللاحق: وهو ما أبدل من أحد ركنيه حرف واحد بغيره من
غير مخرجه، سواء كان الإبدال في الأول أو الوسط أو الآخر، قال البحتري:
عجبَ الناسُ لاغترابي وفي الأط

ـرافٍ تلقى منازل الأشرافِ

وقعودي عن التقلُّب والأر

ضُ لمثلي رحيلةُ الأكنافِ

ليس عن ثروة بلغت مداها

غير أنني امرؤ كفاني كفافي

ولأبي فراس الحمداني:

تعس الحريصُ وقلَّ ما يأتي به

عوضاً عن الإلحاح والإلحافِ

إنَّ الغنيَّ هو الغنيُّ بنفسه

ولو أنه عاري المناكب حافي

ما كلُّ ما فوق البسيطة كافياً
فإذا قنعت فكلُّ شيء كافٍ

١٠- الجناس المصحف :

وقد تقدم عند الكلام على الآية ، ولأبي فراس فيه روائع ، استمع إلى هذه المقطوعة :

ما كنتُ مذ كنتُ إلا طوع خلاني
ليست مؤاخذهُ الإخوان من شاني
يجني الخليلُ فاستحلي جنايته
حتى أدلَّ على عفوي وإحساني
إذا خليلي لم تكثر إساءته
فأين موقعُ إحساني وغفراني
يجني عليَّ وأحنو صافحاً أبداً
لا شيء أحسنُ من حانٍ على جاني

١١- الجناس التام :

وهو أن يتفق اللفظان في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها ، وهو قسمان :

آ - الجناس التام المتماثل : وهو أن يكون اللفظان من نوع واحد ، كاسمين ، أو فعلين ، أو حرفين ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثْوَغَعِرَ سَاعَةً ﴾ .

وقول أبي تمام :

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتبِ
في حدِّه الحدُّ بين الجددِ واللعبِ

فجانس بين حد السيف والحد الفاصل بين الشيئين ، وهما اسمان وقد تفنن الشعراء فيه ولا سيما في عصور الانحطاط كقول الملك الصالح داود :

عَيُونٌ مِنَ السَّحَرِ الْمِينِ تَبِينُ
لَهَا عِنْدَ تَحْرِيكِ الْجَفَوْنَ سَكُونُ
تَصُولُ بَيِضٌ وَهِيَ سَوْدٌ فَرْنَدَهَا
ذَبُولُ فَتَوْرٍ وَالْجَفَوْنَ جَفَوْنَ
إِذَا أَبْصَرْتُ قَلْباً خَلِيّاً مِنَ الْهَوَى
تَقُولُ لَهُ : كُنْ مَغْرَمًا فَيَكُونُ
ب - وَإِنْ كَانَ مِنْ نَوْعَيْنِ كَاسِمٍ وَفَعَلٍ ، أَوْ اسْمٍ وَحَرْفٍ ، أَوْ فَعَلٍ وَحَرْفٍ ،
سَمِيَ الْجَنَاسُ الْمُسْتَوْفَى ، كَقَوْلِ أَبِي الْفَضْلِ الْمِيكَالِيِّ :
يَا مَنْ يَضِيغُ عُمَرَهُ فِي اللَّهْوِ أَمْسِكْ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ ذَاهِبٌ كَذَاهِبِ أَمْسِكْ
فَجَانَسَ بَيْنَ أَمْسِكْ وَهُوَ فَعَلٌ أَمْرٌ ، وَأَمْسِكْ وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي قَبْلَ يَوْمِكَ .
* أَبُو تَمَامٍ وَالتَّجْنِيسُ :

وَقَدْ بَالِغَ أَبُو تَمَامٍ فِي اسْتِعْمَالِ التَّجْنِيسِ ، وَفِي مَا يَلِي طَائِفَةٌ مِنْهَا :
قَالَ :

فَأَصْبَحْتُ غَرْرُ الْأَيَّامِ مَشْرِقَةً
بِالنَّصْرِ تَضَحْكُ عَنْ أَيَّامِكَ الْغُرُورُ
فَالْغُرُورُ الْأَوَّلَى اسْتِعَارَةٌ مِنْ غُرْرِ الْوَجْهِ ، وَالْغُرُورُ الثَّانِيَةُ مَأْخُوذَةٌ مِنْ غُرَةِ
الشَّيْءِ : أَكْرَمَهُ . وَقَالَ فِي قَصِيدَتِهِ فَتَحَ عَمُورِيَّةَ :
عَدَاكَ حُرُّ الثُّغُورِ الْمُسْتَضَامَةِ عَنْ
بَرْدِ الثُّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الْخَصْبِ
فَالثُّغُورُ جَمْعُ ثَغْرٍ ، وَهُوَ وَاحِدُ الْأَسْنَانِ ، وَهُوَ أَيْضاً الْبَلَدُ الَّذِي عَلَى تَحُومِ
الْعَدُوِّ ، ثُمَّ قَالَ فِيهَا :
كَمْ أَحْرَزْتَ قُضْبُ الْهِنْدِيِّ مُضْلَتَةً
تَهْتَرُ مِنْ قُضْبٍ تَهْتَرُ فِي كُثْبِ

يَبِضُّ إِذَا انْتَضَيْتْ مِنْ حُجِّهَا رَجَعَتْ
أَحَقَّ بِالْبَيْضِ أَبْدَاناً مِنَ الْحُجْبِ
فالقضب: السيوف، والقضب: القدود، على حكم الاستعارة، وكذلك
البيض: السيوف، والبيض: النساء، وهذا من نادر أبي تمام الذي لا يتعلق به
أحد.

وقد أكثر أبو تمام من التجنيس في شعره، فمنه ما أغرب فيه وأحسن،
ومنه ما أتى مستثقلًا نايبًا، كقوله:

قَرَّتْ بِقَرَّانَ عَيْنُ الدِّينِ واشترت
بِالْأَشْتَرَيْنِ عُيُونُ الشَّرِّ فَاصْطُلِمَا

فجانس بين قرت من: قرت العين، أي: بردت سروراً، وقران: اسم
مكان، واشترت: انشقت، والأشترين: اسم مكان أيضاً، واصطلم: قطع
من أصله.

وأقبح من ذلك قوله:

فاسلم سلمت من الآفات ما سلمت
سلام سلمى ومهما أورك السلم

جناس البحري:

أما البحري فلم يسف إلى الحضيض الذي أسف إليه أبو تمام، ولم يأت
بالتجنيس إلا جميلاً مطبوعاً غير متكلف، كقوله:

إِذَا الْعَيْنُ رَاحَتْ وَهِيَ عَيْنٌ عَلَى الْهَوَى

فليس بسرٍّ ما تسرُّ الأضالع

فالعين: الجاسوس، والعين معروفة.

وما أجمل قول أبي العلاء المعري:

لَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ إِنْسَاناً يَلَاذُ بِهِ

فلا برحت لعين الدهر إنساناً

ولأبي تمام تجنيس متكرر في البيت الواحد، قال:

لِيَالِينَا بِالرَّقْمَتَيْنِ وَأَهْلُنَا

سقى العهد منك العهد والعهد والعهد

فالعهد الأول المسقى: هو الوقت، والعهد الثاني: هو الحفاظ، من قولهم: فلان ما له عهد، والعهد الثالث: الوصية، من قولهم: عهد فلان إلى فلان، وعهدت إليه، أي: وصاني وصيته، والعهد الرابع: المطر، وجمعه عهاد، قال ابن رشيق: استثقل قوم هذا التجنيس، وحقّ لهم.

* الفوائد:

(١) أفعال التصيير: هي التي تدل على التحويل والانتقال من حالة إلى أخرى، وهي تنصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر، هكذا قال النحاة، واعترض بعضهم ذلك بقوله: إن معمولي هذه الأفعال متغايران مفهوماً وخارجاً، فلا يصح أن يدعى كونهما مبتدأ وخبراً لوجود اتحادهما خارجاً، يبين لك ذلك أنك تقول: صيرت الفقير غنياً، والمعدوم موجوداً، ولا يخفى أن صدق أحدهما على الآخر ممتنع، ويجب أن نحو: الفقير غني صحيح، أي: الفقير فيما مضى تجدد له الغنى، وكذا: المعدوم موجود؛ إذ الوصف العنواني لا يشترط وجوده دائماً، بل يكفي وجوده في بعض الأوقات. وقال الشهابي القاسمي: ويمكن أن يجاب عن البحث بأن أريد أن أفعال التصيير لا يكون معموليها متغايرين مفهوماً وخارجاً، فهو ممنوع، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ فإن ترك هنا من أفعال التصيير مع صدق أحد مفعوليها على الآخر، وإيجاده معه خارجاً، فإن المائج يصدق على بعضهم، ويتحد معه خارجاً، وإن أريد أنه قد يكون معموليها كذلك فمسلّم، ولا يضير؛ لأن أفعال الباب لا يجب أن تدخل على المبتدأ والخبر، بل قد تدخل على غيرهما.

(٢) اعلم أن المميز يكون واحداً، ويكون جمعاً، فإذا وقع بعد عدد نحو

عشرين وثلاثين ونحوهما، لم يكن المميز إلا واحداً، نحو قولك: عندي عشرون ثوباً، وثلاثون عمامة، لأن العدد قد دل على الكمية، ولم يبق بنا حاجة إلا إلى بيان نوع ذلك المبلغ، وكان ذلك مما يحصل بالواحد، وهو أخف، وأما إذا وقع مفسراً لغير عدد، نحو: هذا أفره منك عبداً، وخير منك عملاً، جاز الأفراد والجمع؛ لاحتمال أن يكون له عبد واحد وعبيد، فإذا قلت: هو أفره منك عبيداً، أو خير منك أعمالاً، دللت بلفظ الجمع على معنيين: النوع وأنهم جماعة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾، فهم من ذلك النوع وأنه كان من جهات شتى لا من جهة واحدة، وإذا أفردت فهم منه النوع لا غير.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۖ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۖ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ۝١١﴾

☆ اللفظة:

﴿الْفِرْدَوْسِ﴾: الجنة من الكرم خاصة، وقيل: بل ما كان غالبها كرمًا. وقيل: كل ما حوط فهو فردوس، والجمع فراديس، وقال المبرد: والفردوس فيما سمعت من العرب: الشجر الملتف، والأغلب عليه من العنب، وحكى الزجاج أنها الأودية التي تنبت ضروباً من النبت، واختلف فيه، فقيل: هو عربي، وقيل: أعجمي، وقيل: هورومي، وقيل: فارسي، وقيل: سرياني، وفي القاموس والتاج: الفردوس: - بالكسر - الأودية التي تنبت ضروباً من النبت، والبستان يجمع كل ما يكون في البساتين تكون فيه الكروم، وقد يؤنث، عربية أو رومية نقلت أو سريانية، وروضة دون اليمامة لبني يربوع، وماء لبني تميم قرب الكوفة، وقلعة فردوس بقزوين. إلى أن يقول:

والفردسة: السعة، وصدر مفردس: واسع، أو ومنه الفردوس. قال شارحه: قوله: أو ومنه الفردوس. أي: اشتقاقه، كما نقله ابن القطاع، وهذا يؤيد كونه عربياً، ويدل له أيضاً قول حسان:

وإن ثواب الله كُلَّ مُوحِّدٍ جَنَّاتٍ مِنَ الْفِرْدَوْسِ فِيهَا يُخَلَّدُ

﴿حَوَلًا﴾: الحول: التحول، ويقال: حال من مكانه حولاً، كقولك: عادني حبها عوداً، يعني: لا مزيد عليه، والحول - بكسر الحاء وفتح الواو -: مصدر بمعنى التحول، يقال: حال عن مكانه حولاً، فهو مصدر كالعوج والصغر.

﴿مِدَادًا﴾: اسم ما تمد به الدواة من الخبر، وما يمد به السراج من السليط، ويقال: السماد مداد الأرض.

○ الإعراب:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ إن واسمها، وجملة آمنوا صلة، وجملة وعملوا الصالحات عطف على الصلة، وجملة كانت خبر إن، ولهم حال من نزلاً؛ لأنه كان صفة، وتقدم عليه، وجنات الفردوس اسم كانت، ونزلاً خبرها، ويجوز أن يكون لهم الخبر، ونزلاً حال ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ خالدين حال من الضمير في لهم، وفيها متعلقان بخالدين، وجملة لا يبغون حالية، وعنهما متعلقان بحولاً، وحولاً مفعول يبغون ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ لو شرطية، وكان البحر كان واسمها، ومداداً خبرها، ولكلمات صفة لمداد، واللام واقعة في جواب لو، وجملة نفد البحر جواب شرط غير جازم لا محل لها، وقيل: ظرف متعلق بنفد، وأن تنفد المصدر مضاف لقبول، وكلمات ربي فاعل، والواو لعطف ما بعده على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها، أي: لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته لو لم يحيى بمثله مدداً، ولو شرطية، وجئنا فعل الشرط، وجواب لو محذوف تقديره: لنفد،

ولم تفرغ، وبمثله متعلقان بجئنا، ومدداً تميز كقولك: لي مثله رجلاً، وسيأتي مزيد بحث في الفوائد عن جواب لو ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إنما كافة ومكفوفة، وأنا مبتدأ، وبشر خبر، ومثلكم صفة ﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدًا﴾ جملة يوحى صفة لبشر، وإلي متعلقان بيوحى، وإنما كافة ومكفوفة، ولكنها لم تخرج عن المصدرية، فهي وما بعدها في محل رفع نائب فاعل، وإلهكم مبتدأ، وإله خبر، وواحد صفة ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الفاء استئنافية، ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ، وكان فعل ماض ناقص، واسمها يعود على من، وجملة يرجو خبرها، ولقاء ربه مفعول به، فليعمل: الفاء رابطة لجواب الشرط، واللام لام الأمر، ويعمل فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعملاً مفعول مطلق، أو مفعول به، وصالحاً صفة، ولا يشرك لا ناهية، ويشرك فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وبعبادة ربه متعلقان بيشرك، وأحداً مفعول يشرك.

* الفوائد:

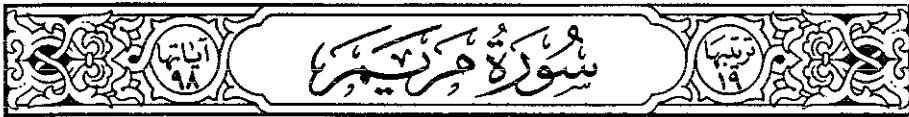
جواب لو:

سيأتي المزيد من أبحاث لو في هذا الكتاب، فهي من الأدوات التي يكثر فيها القول، ولذلك جعلناه موزعاً على الآيات، ونتكلم الآن عن جواب لو، فنقول: إن جوابها إما ماض معنى نحو: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه. أو ماض وضعاً، وهذا إما مثبت فاقتراانه باللام، نحو: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾ أكثر من تركها، نحو: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاجًا﴾ وهذه اللام تسمى لام التسويف؛ لأنها تدل على تأخير الجواب عن الشرط وتراخيه عنه، كما أن إسقاطها يدل على التعجيل، أي: أن الجواب يقع عقيب الشرط من غير مهلة، ولهذا دخلت في: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾ وحذفت في نحو: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاجًا﴾ أي: لوقته في المزن من غير تأخير، والفائدة في تأخير جعله حطاماً، وتقديم جعله أجاجاً تشديد العقوبة، أي: إذا استوى الزرع على سوقه، وقويت به الأطماع جعلناه حطاماً، أو لأن الزرع ونباته وجفافه

بعد النضارة حتى يعود حطاماً مما يحتمل أنه من فعل الزراع، ولهذا قال تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ أو أنه من سقي الماء وجفافه من عدم السقي وحرارة الشمس، أو مرور الأعصار، فأخبر سبحانه أنه الفاعل لذلك على الحقيقة، وأنه قادر على جعله حطاماً في حال نموه لو شاء، وإنزال الماء من السماء، مما لا يتوهم أن لأحد قدرة عليه غير الله تعالى، وهذا من عيون النكت، فاعرفه، وتدبره.

وإما أن يكون جواب لو منفياً بما، فالأكثر تجرده من اللام، ويقل اقترانه بها، فالأول نحو: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ والثاني نحو قوله: ولو نُعْطِيَ الْخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا ولكن لا خيارَ مع الليالي

فأدخل اللام على ما النافية، ولا تدخل اللام على ناف غيرها، وقيل: قد تجاب لو بجملة اسمية مقترنة باللام، نحو: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ فاللام في لمثوبة جواب لو، وأن بين الماضي والاسم تشابهاً من هذه الجهة، وقال الزمخشري: وإنما جعل جوابها جملة اسمية دلالة على استمرار مضمون الجزاء، ورد أبو حيان هذا في «البحر» فقال: اللام في «لمثوبة» لام الابتداء لا الواقعة في جواب لو، وهو أحد احتمالي الزمخشري، وقد تقدم ذلك في البقرة، أي: فتكون الجملة مستأنفة، أو جواب لقسم مقدم. وقال ابن هشام في «المغني»: والأولى أن تكون لام لمثوبة لام جواب قسم مقدر، بدليل كون الجملة اسمية، والقول بأنها لام جواب لو وأن الاسم استعيرت مكان الفعلية تعسف. وأقول: التعسف في تقديرها للقسم أكثر من جعل الجواب جملة اسمية.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَهَيْعَصَ ۚ﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۚ ﴿١﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ
 نِدَاءً خَفِيًّا ۚ ﴿٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ
 بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۚ ﴿٣﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا
 فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۚ ﴿٤﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِي يَعْقُوبَ ۚ وَاجْعَلْهُ رَبِّ
 رَضِيًّا ۚ ﴿٥﴾

☆ اللفظة:

﴿وَهَنَ﴾ : في المصباح : وهن يهن، من باب : وعد : ضعف، فهو واهن
 في الأمر، والعمل، والبدن، ووهنته : أضعفته، يتعدى ولا يتعدى في لغة :
 فهو موهون البدن والعظم، والأجود أن يتعدى بالهمزة، فيقال : أوهنته،
 والوَهْن - بفتحتين - لغة في المصدر، ووهن يهن - بكسرتين - لغة . قال
 أبو زيد : سمعت من الأعراب من يقرأ : فما وهنوا، بالكسر . وفي القاموس
 وغيره : وهنه يهنه وهناً، وأوهنه : أضعفه، ووهن وأوهن الرجل : دخل في

الوهن من الليل، ووهن ووهن يهن ووهن يوهن وهناً ووهناً ووهن يوهن وهناً: ضعف في الأمر، أو العمل، أو البدن. وتوهن البعير: اضطجع، والطائر: أثقل من أكل الجيف فلم يقدر على النهوض، والوهن مصدر، ومن الرجال أو الإبل: الغليظ القصير، والوهن من الليل: نحو منتصفه، أو بعد ساعة منه، والموهن من الليل كالوهن، والوهانة من النساء: الكسلى عن العمل تنعماً.

﴿الْمَوْلَى﴾: الذين يلونني في النسب كبني العم والموالي، جمع مولى، وهو: العاصب.

﴿عَاقِرًا﴾: لا تلد، قال في القاموس: عقرت تعقِر عَقْرًا وَعُقْرًا وَعُقَارًا وَعُقْرًا وعُقْرَت تعقُر عَقْرًا وَعَقَارًا وَعِقَارًا، وعُقْرَت المرأة أو الناقة: صارت عاقراً، أي: حبس رحمها فلم تلد، وعُقِر عَقْرًا الأمر: لم ينتج عاقبة، وعقِر عَقْرًا الرجل: دهش.

﴿وَلِيًّا﴾: ابناً، وهو أحد معانيه الكثيرة.

○ الإعراب:

﴿كَهَيَّعَ * ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُ زَكِرِيَّا﴾ كهيعص تقدم القول في فواتح السور وإعرابها ومعانيها فارجع إليه، وذكر خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا المتلو عليك من القرآن، أو مبتدأ محذوف الخبر، أي: فيما يتلى عليك ذكر، ورحمة ربك مضافة لذكر من إضافة المصدر لمفعوله، والفاعل مستتر، أي: ذكر الله رحمة عبده زكريا، وعبده مفعول به لرحمة، وزكريا بدل من عبده، أو عطף بيان له ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ إذ ظرف لما مضى من الزمن، وهو متعلق برحمة ربك، أي: رحمة الله إياه وقت أن ناداه، وقيل: العامل فيه ذكر، وقيل: هو بدل اشتمال من زكريا، وجملة نادى مضاف إليها الظرف، والفاعل مستتر تقديره: هو، ونداء مفعول مطلق، وخفياً صفة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ ربي نادى مضاف لياء

المتكلم المحذوفة، وإن واسمها، وجملة وهن العظم خبرها، ومنى حال، واشتعل عطف على وهن، والرأس فاعل، وشيئاً تمييز محول عن الفاعل، أي: انتشر الشيب في رأسي، وسيأتي سر هذه الاستعارة في باب البلاغة ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ الواو عاطفة، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وأكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلم، واسمها مستتر تقديره: أنا، وشقياً خبرها، وبدعائك متعلقان بشقياً، ورب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتْ أَمْرًا قَرِيبًا﴾ وإني عطف على: إني وهن، والياء اسم إن. وجملة خفت خبرها، والموالي مفعول به، ومن ورائي متعلقان بمحذوف، أو بمعنى الولاية في الموالي، ولا يجوز أن يتعلق بخفت لفساد المعنى، ووجه فساد: أن الخوف واقع في الحال لا فيما يستقبل، فلو جعل من ورائي متعلقاً بخفت لزم أن يكون الخوف واقعاً في المستقبل، أي: بعد موته، وهو كما ترى ظاهر الفساد. وعبرة الزمخشري: من ورائي: بعد موتي. وقرأ ابن كثير من وراي بالقصر، وهذا الظرف لا يتعلق بخفت لفساد المعنى، ولكن بمحذوف، أو بمعنى الولاية في الموالي، أي: خفت فعل الموالي، وهو تبديلهم، وسوء خلافتهم من ورائي، أو خفت الذين يلون الأمر من ورائي، وقرأ عثمان ومحمد بن علي وعلي بن الحسين - رضي الله عنهم - خفت الموالي من ورائي، وهذا على معنيين:

أحدهما: أن يكون ورائي بمعنى خلفي وبعدي، فيتعلق الظرف بالموالي، أي: قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين، فسأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولي يرزقه.

والثاني: أن يكون بمعنى قدامي، فيتعلق بخفت، ويريد أنهم خفوا قدامه ودرجوا، ولم يبق منهم من به تقوى واعتضاد.

وقال ابن هشام في «المعنى»: الثاني قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ﴾ فإن المتبادر تعلق من بخفت، وهو فاسد في المعنى، والصواب تعلقه بالموالي لما فيه من معنى الولاية، أي: وخفت ولا يتهم من بعدي وسوء

خلافتهم، أو بمحذوف هو حال من الموالي، أو مضاف إليهم، أي: كائين من ورائي، أو فعل الموالي من ورائي، وأما من قرأ خفت بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء فمن متعلقة بالفعل المذكور. وكانت امرأتي عاقراً: الواو عاطفة، وكان واسمها وخبرها ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ الفاء الفصيحة، أي: وإلا فهب لي، وهب فعل أمر، ولي متعلقان بهب، ومن لدنك حال، وولياً مفعول به لهب ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا﴾ جملة يرثني صفة لولياً، ولذلك رفعت، وقرئ بالجزم على أنه جواب الطلب، ويرث عطف على يرثني، ومن آل يعقوب متعلقان بيرث، ومفعول يرث محذوف تقديره: الشرع والحكمة والعلم؛ لأن الأنبياء لا تورث المال، وقيل: يرثني الحبورة، وكان حبراً، ويرث من آل يعقوب الملك، فعلى هذا تكون الياء في «يرثني» منصوبة بنزع الخافض، أي: يرث مني الحبورة، واجعله فعل دعاء وفاعل مستتر، ورب منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة، ورضياً مفعول به ثان لاجعله.

وقد استشكل بعضهم جملة «يرثني» صفة بناء على أن نبي الله يحيى مات قبل والده بأن دعاء النبي قد يتخلف، وذلك لأنه بموته قبله لم يرثه، ومعلوم ما يورث من الأنبياء، ورأى هذا المستشكل أن الجملة مستأنفة لا صفة، وأجيب بأن دعاء الأنبياء قد يتخلف، وقد وقع لنبينا محمد ﷺ أنه سأل في ثلاثة أمور، فاستجيب له في اثنين، وتأخرت الإجابة في الثالث، وقد اعترض القول بالاستئناف بأن مفاد الجملة حينئذ الإخبار، وإخبار الأنبياء لا يتخلف قطعاً، وأجيب بأن هذا الإخبار باعتبار غلبة الظن؛ لأن نبي الله زكريا لما كان مسناً غلب على ظنه أنه متى وهب له ولد يرثه. هذا؛ وقد ذكر الجلال السيوطي الإشكال في كتاب: «شرح عقود الجمان» وذكر مثل الجواب الذي أوردناه آنفاً، ثم قال: وأجاب الشيخ بهاء الدين بأن المراد إرث النبوة والعلم، وقد حصل في حياته. قال النبي ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث» ورواه البراز بلفظ: «نحن معاشر» الخ، وتمام الحديث: وجوباً تقديره: أخص.

وما تركناه: ما موصولة في محل رفع بالابتداء، وتركنا صلتها، والعائد محذوف أي: تركناه، وصدقة خبر ما، والحكمة في أن الأنبياء لا يرثون أنه وقد وقع في قلب الإنسان شهوة موت مورثه ليأخذ ماله، فنزه الله أنبياءه وأهاليهم عن ذلك، ولثلا يظن بهم مبطل أنهم يجمعون المال لورثتهم، ولأنهم كالآباء لأمتهم، فيكون مالهم لجميع الأمة، وهو معنى الصدقة العامة. وأما قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ وقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنْ﴾ فالمراد الوراثة في العلم والنبوة، وبهذا يندفع أن عدم الإرث يختص بنبينا ﷺ، فإن قيل: إن الله أخبر عن بعضهم بقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ إذ لا تخاف الموالى على النبوة، أجيب بأنه خاف من الموالى الاختلاف من بعده الرجوع عن الحق، فتمنى ولدًا نبيًا يقوم فيهم. بقي هنا شيء لا بد من التنويه به، وهو: أن الأنبياء هل يرثون؟ قال صاحب «التتمة»: إن النبوة مانعة من الإرث، وذكر البزاز الواعظ: أنه روي: «نحن معاشر الأنبياء لا نرث ولا نورث» ويعارضه ما ذكر الماوردي في «الأحكام السلطانية» أنه ﷺ ورث من أبيه أم أيمن الحبشية، واسمها بركة، وخمسة جمال، وقطعة من غنم، ومولاه شقران، واسمه صالح - وقد شهد بدرًا - وورث من أمه دارها، ومن خديجة دارها.

□ البلاغة:

في هذه الآيات فنون عديدة، نوجز القول فيها:

(١) الاحتراس في قوله: ﴿يَدَاءُ خَفِيًّا﴾ وقد تقدم القول فيه، وأنه عبارة عن أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه فيه دخل، أو لبس، أو إيهام، فيفطن لذلك حال العمل، فيأتي في صلب الكلام بما يخلصه من ذلك كله، وقد تقدمت أمثلة عديدة منه، كما ستأتي له نظائر مشبهة، وهو هنا في كلمة «خفيًا» فقد أتى بها مراعاة لسنة الله في إخفاء دعوته؛ لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان، فكان الأولى به أن يحترس مما يوهم الرياء أمام الناس؛ الذين يحكمون على الظاهر، ويجهلون حقيقة الدخائل، أو لثلا يلام على طلب الولد في إبان

الكبرة والشيخوخة، ودفعاً للفضول الذي يطلق الألسنة بمختلف أنواع الملام. وقيل: احترس من مواليه الذين خافهم، وقيل: ليس في الأمر احتراس، وإنما الكلام جار على حقيقته؛ لأن خفوت صوته ناتج عن ضعفه وهرمه، حيث يخفت الصوت، ويكل اللسان، وتعشى العينان، وتثقل الآذان، على حد قول عوف بن محلم الخزاعي:

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلَّغَتْهَا قَدْ أَحْجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجَانِ

وقد قيل في صفات الشيخ: صوته خفات، وسمعه تارات.

(٢) الاستعارة المكنية:

في قوله تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شبه الشيب بشواظ النار في بياضه، وإثارته، وانتشاره في الشعر، وفشوه فيه، وأخذه منه كل مأخذ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة المكنية، وأسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس، وأخرج الشيب مميزاً، ولم يصف الرأس، أي: لم يقل رأسي اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا، فمن ثم فصحت هذه الجملة، وشهد لها بالبلاغة، ونزید على ذلك وجوه الشبه الأربعة الكامنة في هذا الخيال البعيد، وهي:

أ- السرعة: وذلك أن النار حين تشتعل، وتندلع ألسنتها، فإنها تسرع في التهام ما تمتد إليه، وهكذا الشيب لا يكاد يخط الرأس حتى يمتد بسرعة عجيبة.

ب- تعذر التلافي: وذلك أن النار إذا شبت، وتدافع شؤبوبها، وتطاير لهيبها، اجتاحت كل ما تصادفه، وذل لها الصخر والخشب، على حد قول أبي تمام:

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشب

فيغنو لها الصخر، ويذل الخشب، ويستسلم لشؤبوبها كل ما يناله، دون أن تجدي في ذلك حيلة، وقد يتعذر على رجل الإطفاء إخماد لهيبها، وكثيراً

ما يصبح الماء بمثابة الحطب الذي يذكيها، وكذلك الشيب ينتشر بسرعة غريبة في أجزاء الرأس، ويتمادى في سرعته بحيث يتعذر بل يستحيل تلافيه، وكثيراً ما يجنح الذين أصيبوا بالشيب إلى تغطية شيبهم بالأصابع الكاذبة ليخفوا حقيقتهم، وليستهووا قلوب الغانيات، فلن يبدل ذلك شيئاً من الواقع الراهن.

جـ- الألم: وكما أن النار لذاعة، كواءة، تؤلم من تلامسه، فكذلك الشيب يؤلم الأشيب، وقد صدت عنه الغواني، واقتحمته العيون، على حد قول ابن الرومي:

وكنـت جـلاء للـعيونِ من القـذى

فقد أصبحت تقذي بشيبي وترمد

هي الأعينُ التَّجلُّ التي كنت تشكي

مواقعها في القلبِ والرأسِ أسود

وقول أبي تمام:

يـانـسـيـبُ الثَّـغـامِ ذنـبـكَ أبـقى

حسناتي عندَ الحسانِ ذُنُوبا

لو رأى الله أن في الشيب خيراً

جاورته الأبرارُ في الخلدِ شييا

وجميع ذلك منقول عن عمر بن أبي ربيعة:

رأين الغواني الشيبَ لاح بعوارضي

فأعـرَضـنَ عَنـي بالخـدودِ التَّواضـرِ

ويرحم الله شوقياً عندما جلس على ضفاف البردوني في زحلة،

واستمع إلى وشوشات الحلي، ووسوسات الأساور، وألفى نفسه يرتقي إلى السبعين فصرخ:

شِيعْتُ أحلامي بقلبِ باكٍ ولمتُ من طرق الملاح شباكي

ورجعتُ أدراج الشبابِ وورده أمشي مكانهما على الأشواك

وبجانبِي وإِهْ كَأَنَّ خَفَوْقَه لَمَّا تَلَفَتْ جَهشَةً التَّبَاكِي

د - المصير : وكما أن مصير النار بعد أن تفعل أفاعيلها، وتبلغ غايتها الحمود والانطفاء فالرماد، كذلك مصير الإنسان، وناهيك بهذا المصير إيلاماً للنفس، وارتقاضاً للقلب، فهذه أوصاف أربعة جامعة بين المشبه والمشبه به، فتأمل هذا الفصل، فله على سائر الفصول الفضل .

هذا؛ وقد أوجزنا القول في عدم إضافة الرأس بالاكْتِفَاء بعلم المخاطب، ولا بد من إيضاحه الآن، فنقول : إن للاستعارة مطلوبات ثلاثة : المبالغة في التشبيه والظهور والإيجاز، وكل استعارة تتناول واحداً من هذه المطلوبات، أما هذه الاستعارة فقد تناولت المطلوبات الثلاثة بكاملها، فإن الكلام أن يقال : شيب الرأس، ولو جاء الكلام كذلك لأفاد الظهور فقط دون المبالغة، واللفظ الأول يغطي عموم الشيب جميع نواحي الرأس، كما أنك إذا قلت : اشتعلت نار البيت، صدق ذلك على اشتعال النار في بعض نواحيه دون بقيته، بخلاف ما إذا قلت : اشتعل البيت ناراً، فإن مفهوم ذلك اشتعال النار على كل البيت بجميع أجزائه، فتنبه لهذا الفصل وإن طال بعض الطول، فإنه كالحسن غير مملول .

هذا؛ وقد اقتبس ابن دريد اشتعال الرأس شيباً، فقال في مقصورته :
واشتعلَ المبيضُ في مسودّه

مثل اشتعالِ النَّارِ في جِزْلِ الغَضِي

هذا؛ ولما كان الشيب عندهم عيباً، قالوا : هو أشيب، أي : وصفاً على غير قياس؛ لأن الوصف على أفعل إنما يكون من فعل كفرح، وشرطه الدلالة على العيوب أو الألوان . وقال الشهاب الخفاجي : إنه على وزن الوصف من المصائب الخلقية، فعذوه من العيوب . ولأبي الحسن الزوزني :

كفى الشيبُ عيباً أن صاحبه إذا

أردتَ به وَصفاً له قلتَ : أشيب

وكان قياسُ الأصل لو قلت شائباً
ولكنَّه في جُملة العيبِ يحسب
فشائب خطأ لم يستعمل .

هذا . وفي قوله : ﴿ وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ فن الإطناب ، فقد انتقل أولاً من : شخت الدَّال على ضعف البدن ، وشيب الرأس إجمالاً إلى هذا التفصيل لمزيد التقرير ، وثانياً من هذه المرتبة إلى ثالثة أبلغ منها ، وهي الكناية التي هي أبلغ من التصريح ، وثالثاً من هذه المرتبة إلى رابعة أبلغ في التقرير ، وهي : بناء الكناية على المبتدأ ، أي : قولك : أنا وهنت عظام بدني ، ورابعاً من هذه المرتبة إلى خامسة أبلغ ، وهي إدخال إن على المبتدأ ؛ أعني قولك : إني وهنت عظام بدني ، وخامساً إلى مرتبة سادسة وهي سلوك طريق الإجمال ، ثم التفصيل ، أعني : إني وهنت العظام من بدني ، وسادساً إلى مرتبة سابعة وهي ترك توسيط البدن لادعاء اختصاصها بالبدن ، بحيث لا يحتاج إلى التصريح بالبدن ، وسابعاً إلى مرتبة ثامنة وهي ترك جمع العظم إلى الأفراد لشمول الوهن العظام فرداً فرداً .

٣ - التجريد :

وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ * يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ ﴿ وقد قدمنا القول فيه مختصراً ، وسنورده الآن مستوفى : فنقول : إن التجريد هو أن ينتزع المتكلم من أمر ذي صفة أمراً آخر بمثاله له فيها ، مبالغة لكمالها فيه ، كأنه بلغ من الاتصاف بتلك الصفة إلى حيث يصح أن ينتزع منه موصوف آخر بتلك الصفة ، وهو أقسام :

أ - أن يكون بمن التجريدية ، كقولهم : لي من فلان صديق حميم ، ومنه الآية الكريمة ، ومثله للقاضي الفاضل في وصف السيوف :

تمدّا إلى الأعداء منها معاصمًا فترجع من ماء الكلي بأساور

ب - أن يكون بالباء التجريدية الداخلة على المنتزع منه ، نحو قول ابن

هانيء :

وضربتُم هامَ الكُماةِ ورعتم بيضَ الخُدور بكلِّ ليثٍ مخدر
وقال أبو تمام :

هتَكَ الظَّلَامَ أبو الوليد بغرَّة فتحتُ لنا بابَ الرِّجاءِ المقفل
بأتمَّ من قمرِ السَّماءِ وإن بدا بدرأً وأحسنَ في العيونِ وأجمل
وأجلَّ من قسٍّ إذا استنطقته رأياً والطف في الأمورِ وأجزل
والمراد بأتم من قمر السماء : نفس أبي الوليد .

ج- أن يكون بدخول في على المنتزع منه ، أو مدخول ضميره كقوله تعالى :
﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي : في جهنم ، وهي دار الخلد ، ولكنه انتزع منها داراً
أخرى للمبالغة . وقال المتنبي :

تمضي المواكب والأبصارُ شاخصةً

منها إلى الملكِ الميمونِ طائرُهُ
قد حزنَ في بشرٍ في تاجه قَمَرٌ في دِرْعِهِ أَسَدٌ تَدْمَى أَظْفِرُهُ
فإن الأسد هو نفس الممدوح ، ولكنه انتزع منه أسداً آخر تهويلاً لأمره ،
ومبالغة في اتصافه بالشجاعة والصولة .

د- أن يكون بدخول بين ، كقول ابن النبية :

يهتُرُ بين وشاحيها قضيبُ نقا حمائمِ الحلي في أفنانهِ صَدَحَتْ
هـ- ومنها أن يكون بدون توسط شيء ، كقول قتادة بن سلمة الحنفي :
فلئن بقيت لأرحلن بعزَّة تحوي الغنائمَ أو يموت كريم
عنى بالكريم نفسه ، فكأنه انتزع من نفسه كريماً مبالغة في كرمه ، ولذا لم
يقُل : أو أموت ، ولأبي تمام :

ولو تَراهُمُ وإِيانا وموقِفنا

في موقفِ البينِ لاستهلالنا زَجَلُ
من حُرْقَةٍ أَطْلَقَتْهَا فُرْقَةٌ أَسْرَتْ
قلباً ومن غَزَلٍ في نحره عَذَلُ

وقد طوى الشوق في أحشائنا بقرأ
عِيناً طَوَّتُهُنَّ فِي أَحْشَائِهَا الْكِلْ
ومراده بالبقرة العين الذين أخبر عنهم أولاً، بقوله: ولو تراهم، فكأنه
انتزع منهم موصوفين بهذه الصفة مبالغة فيها.

ز - ومنها أن ينتزع الإنسان من نفسه شخصاً آخر مثله في الصفة التي سيق
الكلام لها ثم يخاطبه، كقول أبي الطيب:
لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالُ
فَلْيُسْعِدِ التُّطُقُ إِن لَّمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

فكأنه انتزع من نفسه شخصاً آخر مثله في فقد الخيل والمال، ومنه قول
الأعشى:

وَدَّعَ هَرِيرَةً إِنَّ الرِّكْبَ مَرْتَحِلُ
وَهَلْ تَطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ؟!

وقال أبو نواس، وأبدع متغزلاً:

يَا كَثِيرَ النَّوْحِ فِي الدِّمَنِ لَا عَلَيْهَا بَلْ عَلَى السَّكَنِ
سُنَّةُ الْعِشَّاقِ وَاحِدَةٌ فَإِذَا أَحْبَبْتَ فَاسْتَنْنِ

ومراده الخطاب مع نفسه، ولذلك قال بعده:

ظَنَّ بِي مَنْ قَدْ كُلِّفْتُ بِهِ فَهُوَ يَجْفُونِي عَلَى الظَّنِّ
بَاتَ لَا يَعْنِيهِ مَا لَقِيتُ عَيْنُ مَنْنٍ مِنَ الْوَسَنِ
رَشَاءُ لَوْلَا مَلَا حُتُّهُ خَلَّتِ الدُّنْيَا مِنَ الْفِتَنِ

هذا؛ والتجريد كثير في الشعر، وستأتي أمثلة منه في مواضع أخرى من هذا
الكتاب.

﴿يَنْزَكِرْنَآ اِنَّا نَبْشُرُكَ بِعِلْمٍ اَسْمٰى يَحْيٰى لَمْ يَجْعَلْ لَّوْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّاۙ
قَالَ رَبِّ اَنِّىْ يَكُوْنُ لِىْ غُلَمٌۭ وَكَانَتْ اَمْرًاۙ قٰى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتَ مِنْ

الْكَبِيرِ عِيسَى ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَبِيعُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّنَ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

☆ اللغة:

﴿ سَمِيًّا ﴾ : السمي : المسمى ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وأصله : سميوا ، اجتمعت الياء والواو ، وسبقت إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت فيها الياء ، أي : مسمى يبيحي . قال الزمخشري : وهذا شاهد على أن الأسامي السنع جديرة بالأثرة ، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبز ، حتى قال القائل في مدح قوم :

سُنعُ الأسامي مُسبلي أزرٍ حُمُرٍ تَمَسُّ الأرضَ بالهُدْبِ

انتهى كلام الزمخشري . وسنع الأسامي ، أي : أسماؤهم حسنة ، يقال : سنع الرجل كظرف ، فهو سنيع ، أي : جميل ، وأسنع ، والمرأة سنعاء ، وسنع جمع أسنع ، كحمر في جمع أحر ، ومن السناعة وهي : الجمال ، كما أفاده في الصحاح ، أي : أسماؤهم حسنة ، فهي أنبه وأنوه وأنزه عن النبز . والحمر صفة الأزر ، وتمس صفة أخرى لها ، وهذب الشيء : طرفه ، والمناسب للمعنى أن المراد به الجمع ، ويمكن أن تكون ضمته مفرداً كقفل ، وجمعاً كفلك ، ويجوز أنه اسم جمع ؛ ولذلك جاء في واحده هذبه ، ومس الأرض بالأطراف كناية عن طولها ، بل عن غناها ، وقيل معنى السمي : المثل والشبيه والشكل والنظير ، كما في القاموس وغيره ، فكل واحد منهما سمي لصاحبه ، ونحو يحيى في أسمائهم يعمر ويعيش إن كانت التسمية عربية ، وقد سموا

ييموت أيضاً، وهو يموت بن المزرع، وقيل: هو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة.

﴿عَتِيًّا﴾ : في المختار: عتا من باب: سما، وعتياً أيضاً بضم العين وكسرهما، وهوعات، فالعاتي: المجاوز للحد في الاستكبار، وعتا الشيخ يعتو عتواً بضم العين وكسرهما: كبر وولى. وقال الزمخشري: أي: بلغت عتياً، وهو: اليبس، والجساوة في المفاصل والعظام، كالعود القاحل. يقال: عتا العود وعسا من أجل الكبر، والطعن في السن العالية، أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتياً.

﴿ءَايَةً﴾ : علامة على حمل امرأتي.

﴿الْمِحْرَابِ﴾ : في القاموس: المحراب: الغرفة، وصدر البيت، وأكرم مواضعه، ومقام الإمام من المسجد، والموضع ينفرد به الملك فيتباعد عن الناس. وأما المحراب: المعروف الآن، وهو طاق مجوف في حائط المسجد يصلي فيه الإمام، فهو محدث لا تعرفه العرب، فتسميته محراباً اصطلاح للفقهاء، هذا ما قاله الشهاب في حاشيته على البيضاوي، ولكن المعنى اللغوي الذي ذكره الفيروزبادي ينطبق عليه، وهو: مقام الإمام في المسجد.

﴿الْحُكْمِ﴾ : الحكمة، ومنه قول النابغة:

وَاحْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الْحَيِّ إِذْ نَظَرْتُ

إِلَى حَمَامٍ شِرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ

قالت: ألا ليتما هذا الحمام لنا

إِلَى حَمَامَتِنَا أَوْ نِصْفَهُ فَقَدْ

فَحَسَبُوهُ فَأَلْفَوْهُ كَمَا ذَكَرْتُ

ستاً وستين لم تنقُضْ ولم تَزِدْ

والفتاة التي حكمت هي زرقاء اليمامة؛ التي يضرب بها المثل في حدة

البصر، نظرت إلى حمام مسرع إلى الماء فقالت:

لَيْتَ الْحَمَامَ لَيْسَهُ إِلَى حَمَامَتِيهِ

وَنُصِّفَهُ قَدِيدَهُ تَمَّ الْحَمَامُ مِيَسَهُ

فوقع في شبكة صياد فحسبوه فوجدوه ستاً وستين حمامة ونصفه ثلاث وثلاثون، فإذا ضم الجميع إلى حمامتها صار مئة. وشراع بكسر الشين: ما يرفع، وبه سمي الشراع، وهو مثل الملاءة الواسعة يشرع وينصب على السفينة فتذهب فيه الرياح فتמضي بالسفينة، ويروى سراع جمع سريع، وصفه به لأنه جمع في المعنى، كما وصفه بوارد، وهو مفرد؛ لأنه مفرد في اللفظ. وروي الحمام أو نصفه بالرفع على إهمال ليتما، وبالنصب على إعمالها لأن ما الزائدة تكف إن وأخواتها، ما عدا ليت فيجوز إعمالها وإلغاؤها، وأو بمعنى الواو، وقد بمعنى حسب، فهي اسم أضيفت إلى ياء المتكلم بغير نون الوقاية، كما يقال: حسبي، والفاء زائدة لتحسين اللفظ كفاء فقط، وكلاهما بمعنى انت، وحسبوه بتشديد السين ليسلم البيت من الخبن، وهو نوع من الزحاف معيب، وقيل: الحكم العقل، وقيل: النبوة؛ لأن الله أحكم عقله في صباه، وأوحى إليه.

﴿وَحَنَانًا﴾: أي: رحمة لأبويه وغيرهما، وتعطفاً، وشفقة، وأنشد:

وقالت حنان: ما أتى بك ها هنا؟

أذو نسب أم أنت بالحي عارف؟

وهذا البيت لمنذر الكلبي، وقبله ليتسق معناه:

وأحدث عهد من أمانة نظرة

على جانب العلياء إذا أنا واقف

يقول: وأقرب عهد، أي: لقاء ورؤية لأمانة محبوبتي تصغير آمنة، هو نظرة مني لها بجانب تلك البقعة إذ أنا واقف هناك، أي: حين وقوفي بها، وفيه إشعار بأنه كان واقفاً يترقب رؤيتها، فلما رآته قالت له: حنان، أي: أمري حنان ورحمة لك، وهو من المواضع التي يجب فيها حذف المبتدأ لأنه مصدر محمول عن النصب، وقولها: ما أتى بك ها هنا؟ استفهام تعجبي، أذو نسب، أي: أنت ذو نسب، أم أنت عارف بهذا الحي؟ ويجوز أن يكون أذو

نسب بدلاً من ما الاستفهامية، أي: ما الذي حملك على المجيء هنا، أو الذي دلك عليه صاحب قرابة من الحي، أي: معرفتك به، ويجوز أن الاستفهام حقيقي حكته على لسان غيرها لتلقنه الجواب بقولها: أذو نسب، مع معرفتها سبب مجيئه، وهو حبها، فربما سأله أحد من أهلها فيجيبه بأحد هذين الجوابين. وقيل: حناناً من الله عليه، وحن بمعنى: ارتاح واشتاق، ثم استعمل في الرأفة والعطف، وقيل: لله حنان، كما قيل: رحيم على سبيل الاستعارة.

﴿عَصِيًّا﴾: صيغة مبالغة، وأصل عصياً عصياً بوزن فاعيل، أدغمت الياء فيه، وأتى بصيغة المبالغة لمراعاة الفواصل؛ لأن المنفي أصل العصيان لا المبالغة فيه.

○ الإعراب:

﴿يَرْكَرِيًّا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ يا حرف نداء، وزكريا منادى مفرد علم مبني على الضم، وقرئ زكرياء بالهمز على الأصل، وإنا: إن واسمها، وجملة نبشرك خبرها، والكاف مفعول به، وبغلام جار ومجرور متعلقان بنشرك، واسمه مبتدأ، ويحيى خبره، والجملة الاسمية صفة لغلام ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ الجملة صفة ثانية لغلام، وله مفعول نجعل الثاني، ومن قبل حال، وسمى مفعول نجعل الأول ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ رب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وأنى اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية، وهو متعلق بالاستقرار في خبر يكون، ولي جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر يكون المقدم، وغلام اسمها المؤخر، وكانت الواو للحال، وكانت امرأتى عاقراً: كان واسمها وخبرها، والجملة حالية، وقد بلغت من الكبر جملة حالية أيضاً، ومن الكبر متعلقان ببلغت، أو بمحذوف حال من عتياً لأنه كان صفة له. وتقدم عليه، وعتياً مفعول بلغت، ولا تلتفت إلى الأعراب التي تكلفها العربون كإعرابها حالاً، وتمييزاً، ومن زائدة، وهذا

لا يليق بكتاب الله ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ۖ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِن قَبْلُ ۖ وَلَمْ تَكُن شَيْئًا ۖ ﴾ قال فعل ماضٍ وفاعله مستتر، قيل: يعود على الله تعالى، وقيل: على جبريل، وكذلك خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك، أو نصب بقال، أو بفعل محذوف تقديره: أفعل كذلك، والإشارة إلى مبهم يفسره: هو علي هين، وقال ربك فعل وفاعل، وهو مبتدأ، وعلي متعلقان بهين، وهين خبر هو، ولقد: الواو حالية، وقد حرف تحقيق، وخلقته فعل وفاعل ومفعول به، ومن قبل متعلقان بخلقته، والواو حالية، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وتك فعل مضارع ناقص مجزوم بلم، وعلامة جزمه السكون المقدر على النون المحذوفة للتخفيف، واسم تك مستتر، وشيئاً خبر تك، وجملة ولم تك شيئاً حال متداخلة، وسوف يأتي بحث الشيء بين أهل السنة والمعتزلة، وبراعة المتنبي في هذا الباب ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً ۖ ﴾ رب منادى، وقد تقدم إعرابه، واجعل فعل أمر، ولي مفعول به ثان، وآية مفعول به أول ﴿ قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۖ ﴾ آيتك مبتدأ، وأن وما في حيزها خبر، والناس مفعول به، وثلاث ليال نصب على الظرف، والظرف متعلق بتكلم، وسوياً حال من فاعل تكلم، أي: حالة كونك بلا علة، وسليم الأعضاء، وقيل: سوياً نسب على الصفة لثلاث بمعنى أنها كاملات ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۖ ﴾ الفاء استئنافية، وخرج فعل وفاعل مستتر، وعلى قومه متعلقان بمحذوف حال، ومن المحراب متعلقان بخرج، فأوحى عطف على خرج، وأن تفسيرية لأنها وقعت بعد جملة فيها معنى القول، وسبحوه فعل أمر وفاعل ومفعول به، وبكرة ظرف زمان متعلق بسبحوه، وعشياً عطف على بكرة، ويجوز أن تكون أن مصدرية مفعولة بالإيحاء ﴿ يَتَجَنَّبُهَا الْكُتُبُ يَقُورُ وَآيَتُهُ الْحُكْمُ صَبِيًّا ۖ ﴾ يا يحيى منادى مفرد علم، وخذ الكتاب فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به، وبقوة حال من فاعل خذ، والباء للملابسة، أي: حال كونك متلبساً بقوة واجتهاد، وآتيناه الواو استئنافية، وآتيناه فعل وفاعل ومفعول به أول، والحكم مفعول به ثان، وصبيّاً حال من الهاء ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ

تَقِيًّا ﴿ وَحَنَانًا عَظَفَ عَلَى الْحَكَمِ، أَي: وَآتِنَاهُ حَنَانًا، أَي: رَحْمَةً، وَرَقَةً فِي قَلْبِهِ، وَعَظَفًا عَلَى الْآخَرِينَ، وَقِيلَ: مَفْعُولٌ مَطْلُوقٌ لِفِعْلِ مَحْذُوفٍ وَهُوَ بَعِيدٌ، وَمَنْ لَدُنَا مُتَعَلِّقَانِ بِمَحْذُوفٍ صِفَةُ لَحْنَانٍ، وَزَكَاةُ عَظَفَ عَلَى حَنَانًا، وَكَانَ تَقِيًّا عَظَفَ عَلَى آتِنَاهُ، وَكَانَ وَاسْمُهَا الْمُسْتَر، وَتَقِيًّا خَبَرَهَا ﴿ وَبَرًّا يُولَدِيهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ وَبَرًّا عَظَفَ عَلَى تَقِيًّا، وَبِوَالِدَيْهِ مُتَعَلِّقَانِ بَرًّا، وَلَمْ يَكُنْ عَظَفَ عَلَى: وَكَانَ تَقِيًّا، وَاسْمُ يَكُنْ مُسْتَرٌ تَقْدِيرُهُ: هُوَ، وَجَبَّارًا خَبَرَهَا، وَعَصِيًّا نَعَتْ ﴿ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ الْوَإِ اسْتِثْنَائِيَّةٌ، وَسَلَامٌ مُبْتَدَأٌ، وَسَاغَ الْإِبْتِدَاءُ بِهِ مَعَ أَنَّهُ نَكْرَةٌ لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى الدَّعَاءِ، وَعَلَيْهِ خَبَرٌ، وَيَوْمَ ظَرَفَ مُتَعَلِّقٌ بِسَلَامٍ، وَجُمْلَةٌ وَلَدَ مُضَافَةٌ لِلظَّرَفِ، وَمَا بَعْدَهُ عَظَفَ عَلَيْهِ وَحِيًّا حَالٌ.

□ البلاغة:

الإيجاز في قوله تعالى: ﴿ أَفَنُكُونُ لِي غُلَمٌ ﴾ فظاهر الكلام يوهم أنه استبعد ما وعده الله عز وجل بوقوعه، ولا يجوز لأحد بله النبي النطق بما لا يسوغ، أو بما في ظاهره الإيهام، فجاء الكلام موجزاً، وتقديره: هل تعاد لنا قوتنا وشبابنا فنزق بـغلام؟ أو هل يكون الولد لغير الزوجة العاقر؟ وإذن فالمستبعد هو مجيء الولد منهما بحالهما، ولكن الجواب أزال الإشكال، إذ قيل له سيكون لكما الولد وأنتما بحالكما.

* الفوائد:

اختلف أهل السنة والمعتزلة في الشيء، فالمعتزلة يعتقدون أن الشيء يتناول الموجود والمعدوم الذي يصح وجوده، فلا يتناول المستحيل إذن، أما أهل السنة فلا يتناول الشيء عندهم إلا الموجود، والآية تشهد لأهل السنة؛ لأن قوله: ﴿ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ﴾ صريحة في ذلك، وقد رمق المتنبى من طرف خفي بعيد هذا الخلاف، فاستعمله في وصف الجبان، وذلك في قصيدة مستجادة له في مديح سعيد بن عبد الله بن سعيد الكلابي المنبجي، وهي مما قاله في صباه، قال:

وضاقت الأرض حتى كاد هاربهم

إذا رأى غير شيء ظنّه رجلاً

وقد غفل شراحه عن حقيقة الخلاف المشتجر بين أهل السنة والاعتزال، فذهبوا في تفسير هذا البيت كل مذهب، قال ابن القطاع: قد أُوخذ في هذا البيت، فقليل: كيف يرى غير شيء، وغير شيء معدوم، والمعدوم لا يرى؟ وفيه تناقض. وليس الأمر كما قالوا، بل أراد غير شيء يعبأ به. وقال أبو بكر الخوارزمي: رأى في هذا البيت ليست من رؤية العين، وإنما هو من رؤية القلب، يريد به التوهم، وغير الشيء يجوز أن يتوهم، ومثله كثير. وقال الواحدي: إذا رأى غير شيء يعبأ به أو يفكر في مثله ظنه إنساناً يطلبه، وكذلك عادة الخائف الهارب، كقول جرير:

ما زال يحسب كلّ شيء بعدهم

خيلاً تكوّر عليهم ورجالا

قال أبو عبيد: لما أنشد الأخطل قول جرير هذا قال: سرقه والله من كتابهم: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ ويجوز حذف الصفة وترك الموصوف دالاً عليها، كقوله عليه الصلاة والسلام: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» أجمعوا على أن المعنى: لا صلاة كاملة فاضلة. ويقولون: هذا ليس بشيء، يريدون شيئاً جيداً. وقال بعض المتكلمين: إن الله خلق الأشياء من لا شيء فقليل: هذا خطأ؛ لأن لا شيء لا يخلق منه شيء، ومن قال: إن الله يخلق من لا شيء جعل لا شيء يخلق منه، والصحيح أن يقال: يخلق لا من شيء؛ لأنه إذا قال لا من شيء نفى أن يكون قبل خلقه شيء يخلق منه الأشياء. والصحيح ما قاله: أي: إذا رأى غير شيء يخاف منه، ومن هذا الوادي ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ معناه: يريده، أو يطلبه، أو يغنيه عن الماء، أي: شيئاً نافعاً مغنياً.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ فَأَتَّخَذَتْ

مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

☆ اللغة:

﴿أُنْتَبَذَتْ﴾ : الانتباز: الاعتزال والانفراد، فقد تخلت مريم للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس، أو من دارها، معتزلة عن الناس، وقيل: غير ذلك، والتفاصيل في المطولات. وفي المصباح: وانتبذت مكاناً: اتخذته بمعزل يكون بعيداً عن القوم.

﴿بَغِيًّا﴾ : البغي: الفاجرة التي تبغي الرجال، وهي فعول عند المبرد، أي: بغوي، فأدغمت الواو في الياء. وقال ابن جني في كتاب «التمام»: هي فعيل، ولو كانت فعولاً لقليل: بغو، كما قيل فلان: نهو عن المنكر. وبغت فلانة بغاء بكسر الباء، ومنه قيل للإماء: البغايا؛ لأنهن كنَّ يباغين في الجاهلية، يقال: قامت البغايا على رؤوسهم، قال الأعشى:

والبغايا يَرْكُضْنَ أَكْسِيَةَ الإِضْبِ رِيحٍ وَالشَّرْعَبِيَّ ذَا الْأَذْيَالِ

وفي القاموس وشرحه: بغى يبغي، من باب: ضرب الشيء، بغاء بضم الباء، وبغياً بفتحها، وبُغِيٌّ وبُغِيَّةٌ: طلبه، وبغى الرجل: عدل عن الحق وعصى، وبغى عليه: استطال عليه وظلمه، فهو باغ فلعل إطلاقهم كلمة البغاء على العهر والزنى مأخوذ من هذا المعنى؛ لأنه من دواعي ما يطلبه أهل الحنا والفجور.

○ الإعراب:

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ واذكر: الواو

استئنافية، واذكر فعل أمر وفاعل مستتر تقديره: أنت، وفي الكتاب جار ومجرور متعلقان باذكر، ومريم مفعول به، وإذ: قال أبو البقاء ما نصّه: في إذ أربعة أوجه: أحدها: أنها ظرف، والعامل فيه محذوف تقديره: واذكر خبر مريم إذ انتبذت. والثاني: أن تكون حالاً من المضاف المحذوف. والثالث: أن يكون منصوباً بفعل محذوف، أي: ويبيّن إذ انتبذت، فهو على كلام آخر كما قال سيبويه في قوله تعالى: ﴿أَنْتَهُوَ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ وهو في الظرف أقوى وإن كان مفعولاً به. والرابع: أن يكون بدلاً من مريم بدل اشتمال؛ لأن الأحيان تشتمل على الجثث، ذكره الزمخشري، وهو بعيد؛ لأن الزمان إذا لم يكن حالاً من الجثة، ولا خبراً عنها، ولا وصفاً لها لم يكن بدلاً منها. وقيل: إذ بمعنى أن المصدرية، كقولك: لا أكرمك إذ لم تكرمني، أي: لأنك لم تكرمني، فعلى هذا يصح بدل الاشتمال، أي: واذكر مريم انتبازها.

واضطرب قول ابن هشام فيها، فبينما يقول في صدد بحثه عن إذ: الوجه الثالث أن تكون بدلاً من المفعول نحو: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ﴾ فإذا بدل اشتمال من مريم على حد البدل في: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَفِتَالٍ فِيهِ﴾ يعود فيقول: وزعم الجمهور أن إذ لا تقع إلا ظرفاً أو مضافاً إليها، وأنها في نحو: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا﴾ ظرف لمفعول محذوف، أي: واذكروا نعمة الله إذ كنتم قليلاً، وفي نحو: ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ﴾ ظرف لمضاف إلى مفعول محذوف، أي: واذكر قصة مريم.

وقال شهاب الدين الحلبي المعروف بالسمين: وفي إذ أوجه: أحدها: أنها منصوبة باذكر، على أنها خرجت عن الظرفية، إذ يستحيل أن تكون باقية على مضيتها والعامل فيها ما هو نصّ في الاستقبال. والثاني: أنها منصوبة بمحذوف مضاف لمريم تقديره: واذكر خبر مريم أو نبأها إذ انتبذت، فإذا منصوبة بذلك الخبر أو النبأ. الثالث: أنها بدل من مريم بدل اشتمال. قال الزمخشري: لأن الأحيان مشتملة على ما فيها؛ لأن المقصود بذكر مريم وقتها لوقوع هذه القصة العجيبة فيه.

وجملة «انتبذت» مضافة إلى إذ، ومن أهلها حال، ومكاناً ظرف متعلق بانتبذت، أي: في مكان، وشرقياً نعت، ويجوز أن يعرب مكاناً مفعولاً به على أن معنى انتبذت: أتت، ونص المصباح يؤيد كونه مفعولاً به، فتأمله في باب: اللغة ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ الفاء عاطفة، واتخذت فعل ماض وفاعل مستتر، ومن دونهم مفعول به ثان، وحجاباً مفعول به أول، فأرسلنا عطف على فاتخذت، وإليها متعلقان بأرسلنا، وروحنا مفعول به، فتمثل عطف أيضاً، ولها متعلقان بتمثل، وبشراً حال، وسوياً نعت، وسوغ وقوع الحال جامدة وصفها، وسيأتي مزيد بحث عنها في باب: الفوائد ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَقِيًّا﴾ إن واسمها، وجملة أعوذ خبرها، والجملة مقول القول، وبالرحمن متعلقان بأعوذ، ومنك متعلقان بأعوذ أيضاً، وإن حرف شرط جازم وكنت فعل ماض ناقص، والتاء اسمها، وتقياً خبرها، وجواب الشرط محذوف، والمعنى: إن كان يرجي منك أن تتقي الله وتحشا وتحتفل بالاستعاذة به فإني عائدة به منك ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ إنما كافة ومكفوفة، وأنا مبتدأ، ورسول ربك خبر، واللام للتعليل، وأهب فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، ولك متعلقان بأهب، وغلاماً مفعول به، وزكياً صفة ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ أنى اسم استفهام بمعنى كيف، وقد تقدم إعرابه في قصة زكريا، ولم يمسسني: الواو حالية، ولم حرف نفي وقلب وجزم، ويمسسني مضارع مجزوم بلم، والياء مفعول به، وبشر فاعل. ولم أك بغياً: لم حرف نفي وقلب وجزم، وأك مضارع مجزوم، وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف، واسم أك مستتر، وبغياً خبرها ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كذلك خبر لمبتدأ محذوف، وقد تقدم إعراب نظيرها ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ لنجعله تعليل معلله محذوف، أي: فعلنا ذلك، أو هو معطوف على مضمّر، أي: لنبين به قدرتنا، ولنجعله آية، وآية مفعول به ثان لنجعله، وللناس صفة

لآية، ورحمة منا عطف على آية، وكان أمراً مقضياً كان، واسمها المستتر وخبرها، ومقضياً صفة.

❖ الفوائد:

☆ معنى «بشراً سوياً»:

تقدم بحث الحال الموطئة، وأنها أن تكون جامدة موصوفة، وهذا أحد شروطها التي تبرر كونها جامدة، وهو في الآية بشراً، فهو حال من فاعل تمثل وهو الملك، والاعتماد فيها على الصفة وهي سوياً، وهو اسم مشتق لأنه صفة مشبهة، وعبارة ابن هشام: الثاني: انقسامها بحسب قصدها لذاتها وللتوطئة بها إلى قسمين مقصودة، وهو الغالب، وموطئة وهي الجامدة الموصوفة نحو: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ واعترض بعضهم على هذا الإعراب فقال: إن دعوى الحال تقتضي أن المعنى متمثل لها في حال كونها بشراً، ولا يخفى أنه وقت التمثيل ملك لا بشر، فالأقرب أنه منصوب بنزع الخافض، أي: فتمثل لها ببشر، أي: تشبه به، وتصور بصورة.

واعلم أنه وقع هنا للبيضاوي ما لا يليق، حيث قال: أتاها جبريل عليه السلام بصورة شاب أمرد سوي الخلق لتستأنس بكلامه، ولعله ليهيج شهوتها، فتتحدث نطفتها إلى رحمها. فقله: ليهيج الخ عبارة غير لائقة بمريم، مع التحقيق أن عيسى عليه السلام كان من عالم الأمر، أي: أمر التكوين الممثل بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إذ ليس ثم قول، ولا كان، ولا يكون، وهذا وجه المماثلة بين عيسى وآدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ أي: في التكوين بالأمر من غير واسطة ولا نطفة، والنفخ المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ من قبيل التمثيل، استعير لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها. لا حقيقة النفخ التي هي إجراء الريح إلى جوف صالح لإمسакها والامتلاء بها.

ولا يصح الاعتذار للقاضي البيضاوي بأنه نظر إلى العادة الإلهية الجارية

بخلق المسببات عقب الأسباب ؛ لأن السبب لا بد أن يكون تاماً، ونطفة المرأة وحدها ليست بسبب تام لحصول الولد، وإنما تمثل لها بصورة حسنة لتأنس به، ولا تنفر منه، وتصغي إليه، وترهف السمع لسماع البشرى، وكان بصورة أمرد لإلف النساء إلى الأطفال، ومن قرب منهن، وعدم الاحتشام منهن. أما رواية الزمخشري فهي: وقيل: قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض، محتجبة بحائط، أو بشيء يسترها، وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها، فإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي في مغتسلها أتاها الملك في صورة آدمي شاب، وضيء الوجه، جعد الشعر، سوي الخلق، لم ينتقص من الصورة الأدمية شيئاً، أو حسن الصورة مستوي الخلق، وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه، ولا تنفر منه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت، ولم تقدر على استماع كلامه. واستأنف الزمخشري كلامه، فقال: ودل على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة، الفائقة الحسن، وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاء لها، وسبراً لعفتها، وقيل: كانت في منزل زوج أختها زكريا، ولها محراب على حدة تسكنه، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب، فمئنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها، فانفجر السقف لها، فخرجت، فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك.

ونختم هذا الفصل الذي خالفنا فيه شرط كتابنا لأهميته بتذييل للشيخ عبد الرزاق الكاشي، وهذا هو نصه: إنما تمثل لها بشراً سوي الخلق، حسن الصورة، لتتأثر نفسها به فتتحرك على مقتضى الجبلة، أو يسري الأثر من الخيال في الطبيعة، فتتحرك شهوتها، فتنزل كما يقع في المنام من الاحتلام، وإنما أمكن تولد الولد من نطفة واحدة؛ لأنه ثبت في العلوم الطبيعية: أن مني الذكر في تولد الجنين بمنزلة الأنفحة من الجبن، ومنى الأنثى بمنزل اللبن: أي: العقد من مني الذكر والانعقاد من منى الأنثى، لا على معنى أن مني الذكر ينفرد بالقوة العاقدة ومنى الأنثى ينفرد بالقوة المنعقدة، بل على معنى أن

القوة العاقدة في مني الذكر أقوى، وإلا لم يمكن أن يتحدا شيئاً واحداً، ولم ينعقد مني الذكر حتى يصير جزءاً من الولد، فعلى هذا إذا كان مزاج الأنثى قوياً ذكورياً، كما تكون أمزجة النساء الشريفة النفس القوية القوى، وكان مزاج كبدها حاراً كان المنى الذي ينفصل عن كليتها اليمنى أحر كثيراً من المنى الذي ينفصل عن كليتها اليسرى، فإذا اجتمعا في الرحم كان مزاج الرحم قوياً في الإمساك والجذب، قام المنفصل من الكلية اليمنى مقام مني الرجل في شدة قوة العقد، والمنفصل من الكلية اليسرى مقام مني الأنثى في قوة الانعقاد، فيخلق الولد. هذا؛ وخصوصاً إذا كانت النفس متأيدة بروح القدس، متقوية به، يسري أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن، ويغير المزاج، ويمد جميع القوى في أفعالها بالمدد الروحاني، فتصير أقدر على أفعالها بما لا يضبط في القياس.

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (٢٢) فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَتَادَبَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلًا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَى إِلَيْكِ جِذْعَ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ بِتَأَخُّتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

☆ اللغة:

﴿ قَصِيًّا ﴾: بعيداً من أهلها.

﴿فَأَجَاءَهَا﴾ : يقال : جاء وأجاء لغتان بمعنى واحد، والأصل في جاء أن يتعدى لواحد بنفسه، فإذا دخلت عليه الهمزة كان القياس يقتضي تعديته لاثنين، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل، فصار بمعنى ألجأه إلى كذا، ألا تراك لا تقول : جئت المكان، وأجاءني زيد، كما تقول : بلغت وأبلغني، ونظيره آتى، حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء، ولم تقل : أتيت المكان، وآتانيه فلان.

﴿الْمَخَاضُ﴾ : وجع الولادة. وفي القاموس : مخض يمحض بثلاث الخاء في المضارع، مخضاً : اللبن : استخرج زبده، فهو لبن مخيض ومخوض، ومخض الشيء : حركه شديداً، ومخض الرأي : قلبه وتدبر عواقبه حتى ظهر له الصواب، ومخضت بكسر الخاء تمخض بفتحها الحامل مخاضاً بكسر الميم، ومخاضاً بفتحها، ومخضت بالبناء للمجهول، ومخضت بتشديد الخاء، وتمخضت الحامل : دنا ولادها، وأخذها الطلق، فهي ماخض، والجمع مُخَضٌّ بضم الميم وتشديد الخاء، ومواخض. وللميم والخاء مجتمعتين معنى يكاد يكون متقارباً، فهي تشير إلى الانزلاق، ومنه : مخر البحر والماء، أي : شقه مع صوت، ومخط وامتخط معروفة.

﴿مِتُّ﴾ : بكسر الميم وضمها، يقال : مات يمات، ومات يموت.

﴿نَسِيًّا﴾ : النسي بفتح النون وكسرهما بمعنى : المنسي، كالذبح بمعنى المذبوح، وكل ما من حقه أن يطرح ويرمى وينسى.

﴿سَرِيًّا﴾ : السري فيه قولان أحدهما : أنه الرجل المرتفع القدر من : سرو يسرو، كشرف يشرف، فهو سري، فأعلل إعلال سيد فلامه واو، يقال : هو سري من السراة والسروات، قال بشامة بن حزن النهشلي :

وإن دعوتِ إلى جُلَى ومَكْرُمَةٍ يوماً سَرَاةَ كِرَامِ النَّاسِ فادْعِينَا

والثاني : أنه النهر الصغير، ويناسبه : فكلي واشربي، واشتقاقه من سري يسري ؛ لأن الماء يسري فيه، فلامه على هذا ياء، قال لبيد يصف حماراً وحشياً :

فَمَضَى وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً مِنْهُ إِذَا هِيَ عَرَّدَتْ إِقْدَامُهَا
 فَتَوَسَّطَا عُرْضَ السَّرِيِّ فَصَدَّعَا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قَلَامُهَا
 يقول: إنه مضى خلف أتانة نحو الماء وقدمها أمامه، وإقدامها: اسم
 كان، و ألحقها التاء لأنها بمعنى التقدمة، وعادة خبر كانت، والتعريد:
 التأخر والجنب، فتوسطا أي: الحمار والأتان عرض السري، أي: ناحية النهر
 الصغير، فصدعا: أي: شقاعينا مسجورة، أي: مملوءة.

﴿رُطْبًا جَنِيًّا﴾: الرُّطْب - بضم ففتح -: ما نضج من البسر قبل أن يصير
 تمرًا، والجني فيعمل بمعنى فاعل، أي: صار طرياً صالحاً للاجتماع.

﴿وَفَرَىٰ عَيْنًا﴾: أي: طيبي نفساً، ولا تغتمي، وارفضي ما أحزنك،
 يقال: قرت عينه تفر - بفتح العين وكسرهما في المضارع - وفي وصف العين
 بذلك تأويلان: أولهما: أنه مأخوذ من القر، وهو البرد، وذلك أن العين إذا
 فرح صاحبها كان دمعها بارداً، وإذا حزن كان دمعها حاراً، ولذلك قالوا في
 الدعاء عليه: أسخن الله عينك. والثاني: أنه من الاستقرار، والمعنى أعطاه
 الله ما يسكن عينه، فلا تطمح إلى غيره. وفي المصباح: وقرت العين، من
 باب: ضرب، قرّة بالضم وقروراً: بردت سروراً، وفي لغة أخرى: من باب:
 تعب.

﴿صَوْمًا﴾: صمتاً، وخيل صائمة وصيام، قال:
 خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ تَحْتَ الْعَجَاجِ وَأُخْرَى تَعْلُكُ اللَّجْمَا
 وقيل: المراد بصائمة وغير صائمة: واقفة وغير واقفة.

وصامت الريح: ركدت، وصام النهار وصامت الشمس: كبّدت،
 وجثته والشمس في مصامها، وشاخ فصامت عنه النساء.

﴿فَرِيًّا﴾: الفري: البديع، من فرى الجلد، والفري: العظيم من الأمر،
 يقال في الخير والشر، وقيل: الفري: العجيب، وقيل: المقتعل، ومن الأول
 الحديث في وصف عمر بن الخطاب: فلم أرى عبقرياً يفري فريه. والفري:

قطع الجلد للخرز والإصلاح. وفي المختار: فرى الشيء: قطعه لإصلاحه، وبابه: رمى، وفرى كذباً: خلقه، وافتراه، واختلقه، والاسم: الفرية، وقوله تعالى: ﴿شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي: مصنوعاً مختلفاً، وقيل عظيماً، وأفرى الأوداج: قطعها، وأفرى الشيء: شقه فانفري، وتفري، أي: انشق، وقال الكسائي: أفرى الأديم: قطعه على جهة الإفساد، وفراه: قطعه على جهة الإصلاح.

○ الإعراب:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ الفاء عاطفة على محذوف، تقديره: فنفخ جبريل في جيب درعها فحملته، وسيأتي سر هذا التعقيب في باب الفوائد فانتبذت عطف على فحملته وبه جار ومجرور في موضع نصب على الحال وقد رمق سماءه أبو الطيب المتنبي في قصيدة يمدح بها علي بن مكرم بن سيار التميمي، ويصف الخيل:

كَأَنَّ خِيُولَنَا كَانَتْ قَدِيمًا تُسْقَى فِي قُحُوفِهِمُ الْحَلِيَا
فَمَرَّتْ غَيْرَ نَافِرَةٍ عَلَيْهِمْ تَدُوسُ بِنَا الْجَمَاجِمَ وَالتَّرِيَا

يريد أن خيولهم لم تنفر منهم، كأنها كانت في صغرها تسقى في قحوف رؤوسهم اللبن، يعني: قحوف رؤوس الأعداء، والعرب كان من عاداتها أن تسقي كرام خيولها اللبن، وقحف الرأس: ما انضم على أم الدماغ، والجمجمة: العظم الذي فيه الدماغ، فوطئت رؤوسهم وصدورهم، ولم تنفر عنهم، فكأنها ألفتهم. والتريب والتربية: واحدة الترائب، وهو: موضع القلادة. ومن طريف الأخطاء أن بعضهم تصدى لشرح هذا البيت، ولما لم يعرف معنى التريب قال بالحرف: والتريب والتراب لغة في التراب. زاده الله فهماً!! ومكاناً مفعول فيه، أو مفعول به، وقد تقدم، وقصياً صفة. ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ الفاء عاطفة للتعقيب، وأجاءها فعل ماض، ومفعول به مقدم، والمخاض فاعل مؤخر، وإلى جذع النخلة متعلقان بمحذوف حال، وسيأتي السر في تعريف النخلة في باب البلاغة ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي

مِتْ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴿٢٢﴾ يا حرف نداء والمنادى محذوف، أو
يا المجرد التنبيه، وليت اسمها، وجملة مت خبرها، وهي فعل وفاعل،
والظرف منصوب؛ لأنه أضيف، وهو متعلق بمت وهذا مضاف إليه،
وكنْتُ: الواو عاطفة، وكان واسمها، ونسيًّا خبرها، ومنسيًّا تأكيد لنسيًّا لأنه
بمعناه، ولك أن تعربه نعتاً ﴿٢٣﴾ فَادْنَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
الفاء عاطفة، وناداهها فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الملك أو
عيسى، ومن تحتها متعلقان بناداهما، أي: في مكان أسفل من مكانها، أو
بمحذوف حال من فاعل، أي: ناداهما وهو تحتها، وأن مفسرة؛ لأن النداء فيه
معنى القول دون حروفه، ولا ناهية، وتحزني مجزوم بلا، ويجوز أن تكون
مصدرية، ولا نافية، وتحزني منصوب بها، وأن وما بعدها نصب بنزع
الخافض المتعلق بالنداء، والأول أسهل، وقد حرف تحقيق، وجعل ربك فعل
وفاعل، وتحتك ظرف متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني لجعل، وسريًّا هو
المفعول الأول، وسيأتي السر في علة انتزاع الحزن عنها بسبب وجود الطعام
والشراب ﴿٢٥﴾ وَهَزَيَ إِلَيْكَ الْجِنُّ النَّخْلَةَ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٦﴾ الواو عاطفة،
وهزي فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، والياء هي الفاعل، وإليك
متعلقان بهزي، وبجذع النخلة أورده ابن هشام في «مغني اللبيب» شاهداً على
زيادة الباء في المفعول به، وأكثر المعربين على ذلك، ولكن الزمخشري قال بعد
ذكر وجه الزيادة ما معناه: يحتمل أنه نزل هزي منزلة اللازم وإن كان متعدياً،
ثم عداه بالباء كما يعدى اللازم، والمعنى: افعلي به الهز، وتساقط مجزوم لأنه
جواب الطلب، وعليك متعلقان بتساقط، ورطباً مفعول به، وجنياً صفة،
وتساقط يتعدى بنفسه، ومن أمثلته لا من شواهد؛ لأن البحري غير محتج
بكلامه:

فَمِنْ لَوْلُؤٍ تَجَلَّوْهُ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا

وَمِنْ لَوْلُؤٍ عِنْدَ الْحَدِيثِ تُسَاقُطُهُ

وعن المبرد أن رطباً مفعول هزي، وباء بجذع النخلة للاستعانة،

ولا يخفى ما فيه من التكلف بتأخير ما في حيز الأمر عن جوابه، وستأتي أوجه زيادة الباء في باب: الفوائد ﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَفَرِّ عَيْنًا﴾ الفاء الفصيحة، أي: إذا تم لك هذا كله فكلي، وكلي فعل أمر، والياء فاعل، وما بعده عطف عليه، وعيناً تمييز من الفاعل؛ لأنه منقول عنه، إذ الأصل: لتقر عينك ﴿فَأَمَّا تَرِينَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ الفاء عاطفة، وإن شرطية أدغمت نونها بما الزائدة، وترين فعل الشرط، وأصله: ترأين بهمزة هي عين الفعل، وياء مكسورة هي لامه، وأخرى ساكنة هي ياء الضمير، والنون علامة الرفع، وقد حذفت لام الفعل لتحركها وانفتاح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فالتقت ساكنة مع ياء الضمير، فحذفت لالتقاء الساكنين، ومن البشر حال لأنه كان في الأصل صفة لأحدًا، وأحدًا مفعول به ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، وقولي فعل أمر مبني على حذف النون، والياء فاعل، وإن واسمها، وجملة نذرت خبرها، والجملة مقول القول، وسيرد إشكال أجبناً عنه في باب: الفوائد، وللرحمن متعلقان بنذرت، وصوماً مفعول به، فلن: الفاء استثنائية، ولن حرف نفي ونصب واستقبال، وأكلم منصوب بـلن، واليوم ظرف متعلق بأكلم، وإنسياً مفعول به ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ الفاء استثنائية، وأتت فعل وفاعل مستتر، والتاء للتأنيث، وبه علقه أبو البقاء بمحذوف حال، أي: مصحوبة به، وهو جميل، ولا نرى مانعاً بتعلقه بأتت، وقومها مفعول به، وجملة تحمله حال ثانية، إما من ضمير مريم، وإما من ضمير عيسى في: به، قالوا فعل وفاعل، ويا حرف نداء ومريم منادى، واللام جواب للقسم المحذوف، وقد حرف تحقيق، وجئت فعل وفاعل، وشيئاً مفعول به، أي: فعلت شيئاً، وفرياً نعت، ويجوز إعراب شيئاً على المصدرية، أي: نوعاً من المجيء غريباً ﴿يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ يا حرف نداء، وأخت هارون منادى مضاف، أي: يا شبيهته، وهارون رجل صالح شبهوها به في عفتها وصلاحتها، وليس المراد منه أخوة النسب، وقيل: إنما عنوا هارون أخا موسى؛ لأنها كانت من نسله، والعرب تقول للتميمي: يا أخا

تيم، وقيل غير ذلك مما تراه في المطولات، وما نافية، وكان أبوك امرأ سوء: كان واسمها وخبرها، وما كانت أمك بغياً عطف على الجملة التي سبقتها، أي: ما دمت بهذه المثابة من مظنة العفة والصلاح، فمن أين لك هذا الولد؟ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا﴾ الفاء عاطفة، وأشارت فعل وفاعل مستتر، وإليه متعلقان بأشارت، قالوا فعل وفاعل، وكيف اسم استفهام في محل نصب حال، ونكلم فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره: نحن، ومن اسم موصول مفعول به، وجملة كان صلة، واسم كان مستتر تقديره: هو، وفي المهد جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، وصبيّاً خبر كان، وقد اعتبرنا كان على بابها من النقصان، ودلالتها على اقتران مضمون الجملة في الزمن الماضي من غير تعرض للانقطاع، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَراً رَحِيماً﴾. وقد نشب بين علماء العربية خلاف حول «كان» هنا نذكره مبسوطاً في باب الفوائد لما تضمنه من فوائد ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَنِي الْكَتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ جملة إني عبد الله مقول القول، ولذلك كسرت همزة إن لوقوعها بعد القول، وإن واسمها، وعبد الله خبرها، وقد وصف نفسه بثماني صفات أولها: العبودية، وجملة آتاني الكتاب حالية، وهذه هي الصفة الثانية، والكتاب مفعول به ثان، وجعلني نبياً فعل ماض وفاعل مستتر ومفعولاه، وهذه هي الصفة الثالثة ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ وجعلني مباركاً عطف على وجعلني نبياً، وهذه هي الصفة الرابعة، وأينما اسم شرط جازم في محل نصب على الظرفية المكانية، والجواب محذوف مدلول عليه بما تقدم، أي: أينما كنت جعلني مباركاً وهو متعلق بالجواب المحذوف، وكان تامة، والتاء فاعلها، ويجوز أن تكون الناقصة، وأينما متعلق بمحذوف خبرها المقدم ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ما دمت: ما مصدرية ظرفية، ودمت فعل ماض ناقص، والتاء اسمها، وحياً خبرها. والمصدر المؤول نصب على الظرفية، والظرف متعلق بأوصاني، وهذه هي الصفة الخامسة ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾ وبراً بفتح الباء معطوف نسقاً على مباركاً، أي: وجعلني برّاً جعل ذاته برّاً لفرط بره، ولك أن تنصبه بفعل مقدر

بمعنى أوصاني تفادياً للفصل الطويل، وهذه هي الصفة السادسة، وبوالدتي متعلقان برباً، ولم يجعلني عطف على وجعني، وجباراً مفعول به ثان، وشقياً صفة، وهذه هي الصفة السابعة ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ السلام مبتدأ، وعلي خبره، واختلف في معنى (أل) الداخلة على السلام، فقيل: هي للعهد لأنه تقدم ذكر السلام الموجه إلى يحيى، فهو موجه إليه أيضاً، وقال الزمخشري: والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضاً باللفظة على متهمي مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود، وتحقيقه أن اللام للجنس وإذا قال وجنس السلام علي خاصة، فقد عرض بأن ضده عليكم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ يعني: أن العذاب على من كذب وتولى، وكان المقام مقام منكرة وعناد، فهو مئة لنحو هذا من التعريض. ويوم متعلق بمعنى الاستقرار المتعلق به علي، ولا يجوز نصبه للسلام للفصل بين المصدر ومعموله، وجملة ولدت مضافاً إليها الظرف، ويوم أبعث عطف على يوم ولدت، وكذلك يوم أبعث، وحياً حال، وهذه هي الصفة الثامنة والأخيرة.

□ البلاغة:

☆ التعريف:

وذلك في تعريف النخلة التي جاءها المخاض عندها، وهذا التعريف لا يخلو إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس، فإذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخيل، وإما أن يكون من تعريف الجنس، أي: جذع هذه الشجرة خاصة، كأن الله تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب؛ الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها، ولأن النخلة أقل شيء صبراً على البرد، وثمارها إنما هي من جمارها، فلموافقتها لها مع جميع الآيات فيها اختارها لها، وأجأها إليها.

* الفوائد :

(١) خلاصة قصة ميلاد عيسى في القرآن الكريم :

هذا؛ ولم يعن كتاب من الكتب الدينية بميلاد المسيح، والدفاع عن طهارة والدته العذراء، والإشادة بفضلها وتفضيلها على سائر النساء، كما عني القرآن الكريم، فقد وردت فيه عن ميلاد المسيح عليه السلام، وحياته وجهاده في سبيل الدعوة إلى الله، وإصلاح البشر، عدة آيات في عدد من السور، وقد أتى في براءة العذراء وقنوتها بما لم تأت به كتب أخرى، بل كانت السورة الثانية الكبرى من القرآن الكريم وهي سورة آل عمران، وعمران هو والد العذراء، وكان عالماً من علماء الدين، ولم تأت سورة من السور باسم سيدة من سيدات التاريخ غير اسم مريم، وهي تحتوي على عدة آيات في ميلاد المسيح، كما وردت آيات أخرى في هذا الحادث الجليل .

ولقد اصطفى الله آل عمران كما اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم على العالمين، وكان عمران أبو مريم رجلاً، تقياً، ورعاً، كما كانت زوجته صالحة تقية، فلما حملت نذرت إلى الله أن يكون حملها خادماً للهيكل، فلما وضعت، وتبين لها أنها أنثى، وليس الذكر كالأنثى، سميتها أمها مريم، ولكن الله تقبلها في الهيكل بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً .

ولم يعيش عمران حتى تشب مريم وتكبر، فتوفي وهي صغيرة، فكفلها زوج خالتها النبي زكريا، وكانت مريم صادقة مباركة يفيض الله عليها من رزقه من حيث تعلم ولا تعلم، فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً كثيراً، فیسألها قائلاً: يا مريم أنى لك هذا؟! فتجيب: هو من عند الله .

وكانت مريم تتعبد في الهيكل بعيداً عن أهلها وعن الناس، قد انتبذت مكاناً شريعاً في الناصرة من مدينة الجليل، وكانت مخطوبة لرجل من أبناء عمومته اسمه يوسف النجار، ولكن لم يتم زواجهما؛ لأنها وهبت نفسها إلى

الله، ولكن الله تعالى شاء أن يهب إلى البشر من هذه الفتاة الطاهرة الكريمة التقية نبياً كريماً، ورسولاً عظيماً، ويجعل منها ومن ابنها آية للناس، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ لم يتم زواج يوسف بمريم، وبعث الله جبريل فبشرها بحملها بالسيد المسيح، وهي في عزلتها تعبد الله، وتخلص له العبادة والتقوى، فعجبت لذلك، وأجفلت، وقالت: كيف يكون لي ولد ولم يمسنني بشر، فكان الجواب عليها كما جاء في القرآن، كما صور القرآن فزع مريم في سورة «مريم» حين جاءها الملك بهذه البشارة متمثلاً لها في صورة إنسان ظهر لها في عزلتها، على حين غرة من أمرها، فاستعاذت بالله منه، فهدأ من روعها، وأنبأها أنه مرسل من السماء؛ ليهب لها غلاماً زكياً، فجاء في هذه السورة: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ . الخ الآيات . وقد اتفق إنجيل لوقا وإنجيل برنابا والقرآن الكريم في حادث ولادة المسيح على أنه آية للناس، ولم يكن نتيجة اتصال مريم بخطيبتها يوسف النجار، كما جاء في بعض الأنجيل الأخرى كإنجيل متى الذي نصَّ على أن: يسوع بن يوسف النجار ابن يعقوب بن متان بن اليعاذر، ابن اليهود بن أخيم . . . إلى آخر هذا النسب الذي يصل إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .

فالقرآن الكريم نزل بأن مريم عذراء، وأنه بعد بشارة الملك لها بهذا الغلام الزكي حملت به، وانتبذت مكاناً بعيداً عن الناس، وعانت وحدها آلام وضعه حتى تمت الموت قبل هذا، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ﴾ الخ الآيات . خاطبها هذا الوليد الكريم في مهده، وهدأ من روعها، وطلب إليها أن تستعين على ضعفها بالرطب الجني، والماء الهني، أو خاطبها الملك .

وكان أن وقع ما خشيته مريم من اتهامها بالسوء، فلما جاءت به إلى قومها أنكروا عليها، واتهموها بما هي براء منه، فصامت عن الكلام، وتولى الطفل الصغير في مهده الدفاع عن أمه الطاهرة النقية، كما جاء في القرآن الكريم .

(٢) أسرار الفاءات:

وعندنا أن نتحدث عن أسرار الفاءات في قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهَا مَكَانًا قَصِيًّا﴾ فاجاءها المَخَاضُ ﴿فِي هَذِهِ الْفَاءَاتِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ حَمْلَهَا بِهِ وَوَضَعَهَا إِيَّاهُ؛ لِأَنَّهُ عَطَفَ الْحَمْلَ وَالِانْتِبَازَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي مَضَتْ إِلَيْهِ، وَالْمَخَاضَ الَّذِي هُوَ الطَّلُقُ بِالْفَاءِ، وَهِيَ لِلْفُورِ، وَلَوْ كَانَتْ كغَيْرِهَا مِنْ النِّسَاءِ لَعَطَفَ بِشَمِّ الَّتِي هِيَ لِلتَّرَاخِي وَالْمَهْلَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْآخِرَى: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ﴾ فلما كان بين تقديره في البطن وإخراجه مدة متراخية عطف ذلك بشم، وهذا بخلاف قصة مريم عليها السلام، فإنها عطفت بالفاء. وقد اختلف الناس في مدة حملها فقليل: إنه كحمل غيرها من النساء، وقيل: لا، بل مدة ثلاثة أيام، وقيل: أقل، وقيل: أكثر. وهذه الآية مزيلة للخلاف؛ لأنها دللت صريحاً على أن الحمل والوضع كانا متقاربين على الفور من غير مهلة، وربما كان ذلك في يوم واحد، أو أقل، أخذاً بما دللت عليه الآية. هذا ما ورد في «المثل السائر» لابن الأثير، وقد ردّ ابن أبي الحديد في «الملك الدائر» على ذلك بما أورده في سورة النحل من أن التعقيب على حسب ما يصح إما عقلاً وإما عادة، إلى أن يقول: وليست الفاء للفور الحقيقي؛ الذي معناه حصول هذا بعد هذا بغير فصل ولا زمان، كما توهمه هذا الرجل. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿تَقَفَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحَتْكُمْ بِعَذَابٍ﴾ فإن العذاب متراخ عن الافتراء، فلا يدلّ قوله تعالى في قصة مريم على أن الحمل والمخاض كانا في يوم واحد.

قلت: بحث ابن أبي الحديد متجه، والذي قاله ابن الأثير لا يخلو من ضعف، وقد اختلف المفسرون في مدة حملها، فقال ابن عباس: تسعة أشهر كما في سائر النساء، وقال عطاء وأبو العالية والضحاك: سبعة أشهر، وقال ابن عباس أيضاً: في ساعة واحدة، وقال آخر: لثمانية أشهر، وقال آخرون: ستة أشهر، وقال آخرون: ثلاث ساعات. ورجّح الإمام الرازي أنه في ساعة، وقال: (ويمكن الاستدلال له بوجهين) وذكر في الوجه الأول ما قاله

ابن الأثير، وذكر في الوجه الثاني: إن الله تعالى قال في وصفه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فثبت أن عيسى - عليه السلام - لما قال الله له كن فكان، وهذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل، إنما تعقل تلك المدة في حق من يتولد من النطفة.

ومذهب الشافعية أن أكثر مدة الحمل أربع سنين، وأقله ستة أشهر. وقد ولد الضحاك بن مزاحم لستة عشر شهراً، وشعبة ولد لسنتين، وهرم بن سنان ولد لأربع سنين، ولذلك سمي هرماء. ومالك بن أنس حمل به أكثر من ثلاث سنين، والحجاج بن يوسف ولد لثلاثين شهراً، ويقال: إنه كان يقول: اذكروا ليلة ميلادي. ويقال: إن عبد الملك بن مروان حمل به ستة أشهر، والشافعي حمل به أربع سنين أو أقل، والحنفية يقولون للشافعية: ما جسر إمامكم أن يظهر إلى الوجود حتى توفي إمامنا، ويحييهم الشافعية بقولهم: بل إمامكم ما ثبت لظهور إمامنا.

القول الفصل في الفاء العاطفة:

والفاء في أصل وضعها للترتيب المتصل، والترتيب على ضربين:

١ - الترتيب في المعنى: هو أن يكون المعطوف بها لاحقاً متصلاً بلا مهلة، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ والأكثر كون المعطوف بها متسبباً عما قبله، كقولك: أملتة فمال، وأقمتة فقام.

٢ - الترتيب في الذكر: وهو نوعان: أحدهما عطف مفصل على مجمل هو هو في المعنى، كقولك: توضأ فغسل وجهه ويديه ومسح رأسه ورجليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي...﴾ الآية.

وتكون عطفاً لمجرد المشاركة في الحكم بحيث يحسن بالواو، كقول امرئ القيس:

... بين الدخول فحومل

وتختص الفاء بعطف مالا يصلح كونه صلة على ما هو صلة، كقولك:

الذي يطير فيغضب زيد الذباب، فلو جعلت موضع الفاء واواً أو غيرها، فقلت: الذي يطير ويغضب زيد، أو: ثم يغضب زيد الذباب، لم تجز المسألة؛ لأن يغضب زيد جملة لا عائد فيها على الذي، فلا يصلح أن يعطف على الصلة؛ لأن شرط ما يعطف على الصلة أن يصلح وقوعه صلة، فإن كان العطف بالفاء لم يشترط ذلك؛ لأنها تجعل ما بعدها مع ما قبلها في حكم جملة واحدة لإشعارها بالسببية، كأنك قلت: الذي إن يطير يغضب زيد الذباب، وقد يعطف بالفاء متراحياً كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿إِما لتقدير متصل قبله، وإما لحمل الفاء على ثم.

الفاء الفصيحة:

وقد تحذف الفاء مع المعطوف بها إذا أمن اللبس، وكذلك الواو، فمن حذف الفاء قوله تعالى: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ التقدير: فامثلتم فتاب عليكم. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ معناه: فأفطر فعليه عدة. وهذه العاطفة على الجواب المحذوف يسميها أرباب المعاني: «الفاء الفصيحة». قال صاحب «الكشاف» في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تقديره: فعملما به وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة، وقالوا: الحمد لله.

وقال صاحب «المفتاح»: هو إخبار عما صنع بهما وعما قالاه، كأنه قيل: نحن فعلنا الإيتاء، وهما فعلا الحمد، وهذا الباب كثير في القرآن، وهو من جملة فصاحته، ولهذا أسماها أرباب المعاني: الفاء الفصيحة.

أما ابن الحاجب فقد قال: إن المعتبر ما يعدّ في العادة مرتباً من غير مهلة، فقد يطول الزمان والعادة تقضي في مثله بانتفاء المهلة وقد تقصر والعادة تقضي بالعكس، فإن الزمن الطويل قد يستغرب بالنسبة إلى عظم الأمر فتستعمل الفاء، وقد يستبعد الزمن القريب بالنسبة إلى طول أمر يقضي العرف بحصوله في زمان أقل منه، والذي يظهر من كلام الجماعة أن استعمال الفاء فيما تراخي

زمانه ووقوعه من الأول سواء قصر في أولا ، وإنما هو بطريق المجاز .

وقال الجرمي : لا تفيد الترتيب في البقاع ولا في الأمصار ، بدليل : « بين الدخول فحومل » مطرنا مكان كذا فمكان كذا إذا كان وقوع المطر فيهما في وقت واحد ، واعترض على معنى التعقيب بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾ فَإِنْ إخراج المرعى لا يعقبه جعله غثاء أحوى ، أي : يابساً أسود ، والجواب من وجهين :

أ - إن جملة ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾ معطوفة على جملة محذوفة ، وإن التقدير : فمضت مدة فجعله غثاء .

ب - إن الفاء نابت عن ثم ، والمعنى : جعله غثاء ، وسيأتي تفصيل ذلك في حينه .

٣ - لماذا انقشع الحزن عنها بسبب وجود الطعام والشراب ؟

ولا بُدَّ هنا من الإجابة على سؤال قد يرد ، فإن ظاهر الكلام يدلّ على أنّ حزنها سينقشع بسبب وجود الطعام والشراب ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ ومعلومٌ بأن حزنها لم يكن بسبب ذلك ، ولا هو ناجم عن فقدان الطعام والشراب ، ولكن السرّ في ذلك أن التسلية ونسيان الحزن لم يقعا بها من حيث أنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث أنهما معجزة باهرة ترهص لها ، وتدحض باطل القوم ، وتثبت كذبهم وإرجافهم ، كما تثبت أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة ، وأنها بمعزل عما قرفوها به ، ثم إنّ الأمور الخارجة عن العادات لا يمكن إلا أن تكون إلهية وحكمة نجهلها ، ومن ذلك ولادتها عيسى من غير فحل ، وهذا من عجائب الأساليب .

لماذا منعت من الكلام ؟

وهناك سؤال آخر قد يثب إلى الذهن بعد هذا كله ، وهو : أن الله أمرها بأن تمتنع من الكلام لأمرين :

أ - أن يكون عيسى - عليه السلام - هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها ،

وأرخص للمعجزة، وبالتالي لإزالة عوامل الريبة المؤدية إلى اتهامها بما يشين.

ب - تشريع الكراهية لأية مجادلة مع السفهاء، وقد رمق الشاعر سماء هذا المعنى فقال:

يُخاطبني السَّفِيهُ بكلِّ قُبْحٍ وأكرهُ أن أكونَ له مُجيباً

٤ - مواضع زيادة الباء:

أ - في الفاعل وزيادتها تكون واجبة في فعل التعجب الوارد على صيغة الأمر، نحو: أحسن بزيد، وعلة الزيادة إصلاح اللفظ، وإعرابه: أحسن: فعل ماض مبني على فتح مقدر على آخره منع من ظهوره اشتغال المحل بالسكون العارض لأجل الصيغة، وبزيد: الباء حرف جر زائد، وزيد فاعل مرفوع بضمه مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، وتكون غالبية، وذلك في فاعل كفى التي بمعنى حسب، والتي هي فعل لازم، نحو: كفى بالله شهيداً، ولا تزداد الباء في فاعل كفى التي بمعنى أجزاء، أو: أغنى، ولا التي بمعنى وقى، والأولى متعدية لواحد نحو:

قليلٌ منك يكفيني ولكن قليلُك لا يقالُ له قليلٌ

والثانية متعدية لاثنين، كقوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾.

قال ابن هشام: ووقع في شعر المتنبي زيادة الباء في فاعل كفى المتعدية لواحد، قال:

كفى تُعلاً فخراً بأتك منهم

ودهرٌ لأن أمسيت من أهله أهل

ولم أر من انتقد عليه. وقد استعجل ابن هشام بهذا الحكم، فقد انتقد عليه ذلك أبو البقاء في شرحه الممتع للديوان، وأفاض في إعراب البيت، كما انتقده المعري أيضاً، ولسنا بصدد التحقيق في ذلك، فلعلك ترجع إلى شرح أبي البقاء، وإلى «مغني اللبيب».

ب- في المفعول به، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقْلُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾ ﴿وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِحِجَابِ النَّحْلَةِ﴾ وقول أبي الطيب:

كفى بجسمي نحولاً أنثي رجلاً

لولا مخاطبتي إياك لم ترني

ج- في المبتدأ، نحو: بحسبك درهم، وخرجت فإذا بزيد، وكيف بك، فكيف: اسم استفهام خبر مقدم، وبك: الباء حرف جر زائد، والكاف في محل جر بالباء، وفي محل رفع بالابتداء، وقد نابت الكاف عن أنت لدخول حرف الجر، والمعنى: كيف أنت إذا كان الأمر حاصلًا؟

د- في الخبر، وهو ينقاس في غير الموجب، نحو: ليس زيد بقائم، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون، وفي غير الموجب متوقف على السماع.

ه- في الحال المنفي عاملها، كقوله:

فما رجعت بخائبة ركاباً حكيماً بن المصيب متهاهها

و- في التوكيد بالنفس والعين، نحو: جاء زيد بنفسه وبعينه.

٥ - مبحث هام حول كان:

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُنَكِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ جرينا في إعرابها على أنها ناقصة، واسمها مستتر، تقديره: هو، وصبيها: خبرها، ومن أعربها كذلك الزمخشري، ووعدنا أن ننقل الخلاف الذي ثار حولها لطرافته، ولما فيه من رياضة ذهنية:

أما أبو البقاء فقد أعربها زائدة، أي: من هو في المهد، وصبيها حال من الضمير في الجار والضمير المنفصل المقدر كان متصلاً بكان، وقيل: كان الزائدة لا يستتر فيها ضمير، فعلى هذا لا تحتاج إلى تقدير هو، بل يكون الظرف صلة من، وقيل: ليست زائدة، بل هي كقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وقيل: هي بمعنى صار، وقيل هي التامة، ومن بمعنى الذي، وقيل: شرطية، وجوابها كيف.

وقال الشهاب الحلبي المعروف بالسّمين : في كان هذه أقوال :

أ - إنها زائدة، وهو قول أبي عبيد، أي : كيف نكلم من في المهد، وصبيّاً على هذا نصب على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور، والواقع صلة .

ب - إنها تامة بمعنى حدث ووجد، والتقدير : كيف نكلم من وجد صبيّاً، وصبيّاً حال من الضمير في كان .

ج - إنها بمعنى صار، أي : كيف نكلم من صار في المهد صبيّاً، وصبيّاً على هذا خبرها .

د - إنها الناقصة على بابها من دلالتها على اقتران مضمون الجملة بالزمان الماضي من غير تعرض للانقطاع، كقوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ولذلك يعبر عنها بأنها ترادف لم يزل .

وقال ابنُ الأنباري في «أسرار العربية» كان هنا تامة، وصبيّاً منصوب على الحال، ولا يجوز أن تكون ناقصة؛ لأنه لا اختصاص لعيسى - عليه السلام - في ذلك؛ لأن كلاً كان في المهد صبيّاً، ولا عجب في تكليم من كان فيما مضى في حال الصّبا .

وبعد كتابة ما تقدّم وقعت على ما قاله أبو طاهر حمزة في رسالة له سمّاها : «المنيرة المعربة عن شرف الإعراب» وأنقل لك خلاصته، ففيه وجاهة وطرافة، وهي تؤيد ما ذهبنا إليه من بقاء كان على وجهها قال : لكن الوجه إن كان من قصد الخبر الآن عن حالهم . لأنهم أكبروا ذلك في وقت كونه في المهد، فكأنه قال : أكبروا تكليم صبي كائن في المهد طفلاً، فيكون الكون من لفظ المخبر لا من لفظهم، كقول الخطيئة يصف الرياض :

يظلُّ بها الشيخُ الذي كان فانياً

يدبُّ على عوجٍ له نخرات

فلم يك فانياً قبل ديبه بل وقت ديبه، فذكر الكون من لفظ المخبر .

قلت :

وهذا كله دندنة في غير طائل ، والأجود ما اخترناه ، واختاره الزمخشري ، ويأتي في المرتبة بعده أن تكون زائدة ، أما تقديرها تامة فبعيد جداً ؛ لأن عيسى لم يخلق ابتداء في المهد .

٦ - بغياً : أصله بغوياً ، اجتمعت فيه الواو والياء ، وسبقت إحداها بالسكون فقلبت الواو ياء ، ثم أدغم الياء في الياء ، وإلا لو كان فعلاً بمعنى فاعل لحقته التاء . وقال البيضاوي : وهو فعول ، من : البغي ، قلبت واوه وأدغمت ، ثم كسرت العين إتباعاً ، ولذلك لم تلحقه التاء ، أو : فعيل بمعنى فاعل لم تلحقه التاء . لأنه للمبالغة ، أو : للنسب كطالق . وقال بعضهم : البغي خاص بالمؤنث ، فلا يقال : رجل بغي ، إنما يقال : امرأة بغي ، لكن نقل بعضهم عن «المصباح» أنه يقال : رجل بغي ، كما يقال : امرأة بغي .

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ٣٥ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٣٦ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٣٧ فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابَ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٣٨ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٣٩ وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٤٠ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ٤١ ﴾

○ الإعراب :

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ ذلك اسم إشارة ، مبتدأ ، وعيسى خبره ، وابن مريم بدل ، وقول الحق مفعول مطلق لفعل محذوف ، أي : قلت ، أو : مصدر مؤكد لمضمون الجملة ، كقولك : هو عبد الله حقاً ، واختار الزمخشري أن يكون منصوباً على المدح بفعل محذوف ، تقديره : امدح . هذا وقد فرق أبو حيان بين الإعرابين فقال : وانتصاب قول على أنه

مصدر مؤكد لمضمون الجملة، أي: هذه الأخبار عن عيسى ابن مريم ثابت صدق، ليس منسوباً لغيرها، أي: إنها ولدته من غير مسّ بشر، كما تقول: هذا عبد الله الحق لا الباطل، أي: أقول الحق، وأقول قول الحق، فيكون الحق هو الصدق، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة. والذي نعت للقول إن أريد به عيسى، وسمّي قولاً، كما سمّي كلمة؛ لأنه عنها نشأ، أو: صفة للحق نفسه، وفيه متعلقان يمترون، وجملة يمترون صلة الموصول. ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ ما نافية، وكان فعل ماض ناقص، والله خبرها المقدم، وأن يتخذ مصدر مؤول اسم كان، ومن زائدة، وولد مجرور بمن لفظاً مفعول به منصوب محلاً، وسبحانه مفعول مطلق لفعل محذوف. ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ تقدم إعراب أمثالها كثيراً، ونعيد إعراب فيكون: الفاء: استثنائية، ويكون مرفوع، أي: فهو يكون، وكان - هنا - تامة، وقرىء بنصب فيكون بأن مضمرة بعد فاء السببية الواقعة بعد الطلب. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ الواو استئنافية، والجملة مستأنفة، ولذلك كسرت همزة إن، وقرىء بفتحها بحذف حرف الجر، وإن واسمها، وربى خبرها، وربكم عطف على ربي، فاعبدوه: الفاء الفصيحة، وقد تقدم بحثها، واعبدوه: فعل أمر، وفاعل، ومفعول به، وهذا مبتدأ، وصراط خبر، ومستقيم صفة لصراط، والجملة حالية، وسمّي القول صراطاً مستقيماً تشبيهاً له بالطريق الآيل للنجاة. ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ الفاء استئنافية، واختلف الأحزاب فعل وفاعل، ومن بينهم حال من الأحزاب، والمعنى: حال كون الأحزاب بعضهم. وتفصيل اختلافهم، وأنواع فرقهم يرجع إليها في «الملل والنحل» للشهرستاني، وفي «الفصل بين الملل والنحل» لابن حزم الأندلسي، وفي المطولات. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الفاء عاطفة، وويل مبتدأ، وساغ الابتداء بالنكرة لتضمنها معنى الدعاء، وللذين خبر ويل، وجملة كفروا صلة، ومن مشهد متعلقان بويل، ومشهد مصدر ميمي، أي: من شهودهم بمعنى حضورهم، ويجوز أن يكون اسم زمان أو مكان. ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّاكَ لِكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أسمع فعل

ماض أتى على صيغة الأمر، أو: مبني على الفتح المقدر على الآخر الساكن، والباء حرف جر زيدت في الفاعل الذي أتى ضمير نصب، أو: جر لمناسبة الباء، وقد تقدم بحث التعجب مفصلاً، والتعجب هنا مصروف إلى المخاطبين، لكن مخففة مهملة، والظالمون مبتدأ، وفي ضلال خبر، ومبين صفة، وأوقع الظاهر موقع المضمر إشعاراً بأن ظلمهم بلغ الغاية، وأربى على النهاية، ويوم يأتوننا متعلق بأسمع وأبصر. ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أنذرهم فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول، ويوم الحسرة ظرف متعلق بأنذرهم، والأحسن أن يكون مفعولاً به، أي: خوفهم نفس اليوم، وإذ متعلق بالحسرة، والمصدر المعرف بأل يعمل في المفعول الصريح فكيف بالظرف، ويجوز أن يكون بدلاً من يوم الحسرة، فيكون معمولاً لأنذر، وبذلك يتأكد أن يوم الحسرة مفعول به لا ظرف، وهم الواو حالية، وهم مبتدأ، وفي غفلة خبر، وهم لا يؤمنون جملة حالية منتظمة مع سابقتها، والحالان إما من الضمير المستتر في قوله: ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: استقروا في ضلال مبين على هاتين الحالين السيئتين، فتكون جملة وأنذرهم اعتراضاً، وأما من المفعول في أنذرهم على هاتين الحالين السيئتين، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ إن واسمها ونحن تأكيد لاسم إن الذي هو بمعنى نحن؛ لأنه بمعناه؛ وجملة نرث الأرض خبر إنا، ومن عطف على الأرض، وعليها متعلقان بمحذوف صلة من، وإلينا متعلقان بيرجعون، ويرجعون فعل مضارع مبني للمجهول، والواو نائب فاعل، ولك في الواو بقوله وإلينا أن تجعلها حالية، أو: عاطفة.

□ البلاغة:

المجاز المرسل في قوله: ﴿لَكِنَّ الْأَظْلِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ والعلاقة الحالية، والمراد جهنم، فأطلق الحال وأريد المحل؛ لأن الضلال لا يحل فيه، وإنما يحل في مكانه، وكذلك قوله: وهم في غفلة، والغفلة لا يحل فيها أيضاً، وإنما يحل بالمتالف التي توقع الغفلة أصحابها فيها.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَت لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢ يَتَابَت إِلَيَّ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣ يَتَابَت لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤ يَتَابَت إِلَيَّ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ هَٰذَا إِبْرَاهِيمَ لَمَّا تَنَزَّهَ لَا رَجْمَ لَكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ٤٦ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ٤٧ وَأَعْتَزُّكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨ فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمُ اسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩ وَوَهَبْنَا لَهُمُ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ٥٠﴾

☆ اللفظة:

(الصَّدِّيق): من أبنية المبالغة، ونظيره: الضَّحِيك، والنَّطِيق، والمراد: أنه بليغ الصدق في أقواله وأفعاله، وفي تصديق غيوب الله تعالى، وآياته، وكتبه، ورسله.

﴿مَلِيًّا﴾: دهرًا طويلاً.

﴿حَفِيًّا﴾: في المختار: وحفي به - بالكسر - حفاوة - بفتح الحاء - فهو حفي، أي: بالغ في إكرامه، وإلطافه، والعناية بأمره، والحفي أيضاً: المستقصي في السؤال. ومن الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ ومن الثاني قوله تعالى: ﴿كَانَكَ حَفِيًّا عَنْهَا﴾.

○ الإعراب:

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ الواو استئنافية، واذكر فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره أنت، وفي الكتاب متعلقان باذكر، وإبراهيم

مفعول به، وإن واسمها وجملة كان خبرها، واسم كان مستتر تقديره: هو، وصديقاً خبر كان الأول، ونبيّاً خبرها الثاني. ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ إذ اختلف العربون فيها، فعلقها الزمخشري وأبو البقاء وغيرهما بكان أو بصديقاً نبياً، أي: كان جامعاً لخصائص النبيين والصديقين حين خاطب أباه تلك المخاطبات، وهذا مبني على عمل كان الناقصة وأخواتها في الظرف غير خبرها واسمها، وفيه خلاف، وأعربها الزمخشري وأبو البقاء وغيرهما أيضاً بدلاً من إبراهيم بناء على حذف مضاف، أي: نبأ إبراهيم، فتكون جملة إنه كان صديقاً نبياً معترضة، وفيه أيضاً أنه مبني على تصرف إذ، وقد تقدم بحثها، والقول بأنها لا تتصرف، وجملة قال مضافة إليها الظرف، ولأبيه متعلقان بقال، ويا حرف نداء، وأبت منادى مضاف لياء المتكلم المعوض عنها بالتاء، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك، ولا يجوز الجمع بين المعوض والمعوض عنه، فلا يقال: يا أبتي، ويقال: يا أبتا؛ لكون الألف بدلاً من الياء، وشبه ذلك سيبويه بأينق وتعويض الياء فيه عن الواو الساقطة، وسيرد المزيد من هذا البحث في باب الفوائد مع ترجمة مستفيضة لسيبويه.

وَلَمْ: أصلها اللام الجارة وما الاستفهامية، وقد تقدم أن ألفتها تحذف إذا سبقها حرف جر، وتنزل اللام معها منزلة الكلمة الواحدة، فتكتب الألف ياء، فتقول: إلام، وعلام، وحتام، وهي متعلقة مع مجرورها بتعبد، وفاعل تعبد ضمير مستتر تقديره أنت، وما اسم موصول مفعول به، وجملة لا يسمع صلة وما بعدها معطوفة عليها، وشيئاً مفعول به، أو مفعول مطلق، وقد تقدم تقريره.

﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ يا أبت تقدم إعرابها، وإن واسمها وجملة قد جاءني خبرها، ومن العلم متعلقان بجاءني، ومن للتبعيض، وما اسم موصول فاعل، وجملة لم يأتك صلة، فاتبعني الفاء الفصيحة، أي: إن شئت الهداية والنجاة، واتبعني فعل أمر

وفاعل مستتر ومفعول به، وأهدك جواب الطلب، ولذلك جزم، والكاف مفعول به، وصراطاً مفعول به ثان، أو منصوب بنزع الخافض، وسوياً صفة لصراطاً. ﴿يَتَأَبَّيْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ لا ناهية، وتعبد فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، والفاعل مستتر تقديره أنت، والشيطان مفعول به، وإن واسمها، وجملة كان خبرها، واسم كان مستتر، وللرحمن متعلقان بعصياً، وعصياً خبر كان. ﴿يَتَأَبَّيْ إِذْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ إن واسمها، وجملة أخاف خبرها، وأن يمسك ظرف مؤول مفعول به لأخاف، وعذاب فاعل يمسك، ومن الرحمن صفة لعذاب، فتكون عطف على أن يمسك، واسم تكون مستتر تقديره أنت، وللشيطان متعلقان بولياً، وولياً خبر تكون، ومعنى الولي هنا القرين. ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَقِي يَتَابَرِهِي﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، وراغب مبتدأ، وسوغ الابتداء اعتماده على أداة الاستفهام، وأنت فاعل سد مسد الخبر، وأعربه الزمخشري خبراً مقدماً، وأنت مبتدأ مؤخراً، ولا موجب لذلك بعد وجود القاعدة، وسيأتي تقريرها في باب الفوائد، وما تحللها من أبحاث تذهل الأبواب، ويا حرف نداء، وإبراهيم منادى مفرد علم مبني على الضم ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنَّكَ﴾ اللام موطئة للقسم، وإن شرطية، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وتنته فعل مضارع مجزوم بلم، ولأرجمك اللام واقعة في جواب القسم كما هي القاعدة في اجتماع القسم والشرط، وأرجمك فعل مضارع مبني على الفتح، والفاعل مستتر تقديره أنا، والكاف مفعول به، واهجري: الواو عاطفة، واهجري معطوف على محذوف عند من يمنع عطف الإنشائية على الخبرية، والتقدير: فاحذرنى واهجري، على أن سبويه يميز عطف الجملة الخبرية على الجملة الإنشائية، فليس هذا التقدير بلازم، وملياً ظرف زمان متعلق باهجري، وقيل: هو حال من فاعل اهجري، ومعناه سالماً سوياً لا يصيبك من معرة ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَفِئًا إِنَّكَ كَانَتْ فِي حَفِيًّا﴾ سلام مبتدأ، وسوغ الابتداء به ما فيه من معنى الدعاء، والمراد بالدعاء هنا: التوديع والإزماع على الفراق، وعليك خبر، وسأستغفر السين للاستقبال،

وأستغفر فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره أنا، وإنما جاز له الاستغفار للكافر الرجاء بأن يوفق إلى الإيمان الموجب لغفران الذنوب، ولك متعلقان بأستغفر، وربى مفعول به، وجملة إنه تعليلية لا محل لها، وإن واسمها، وجملة كان خبرها، واسم كان مستتر تقديره: هو، وحنياً خبرها، وبى متعلقان بحنياً ﴿وَأَعْتَزَّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الواو عاطفة، وأعتزلكم، أي: أترككم مرتحلاً من بلادكم، والفاعل مستتر، والكاف مفعول به، وما الواو حرف عطف، وما يجوز أن تكون موصولة أو مصدرية، وعلى كل حال موضعها نصب عطف على الكاف، أو مفعول معه، وجملة تدعون صلة، ومن دون الله حال. ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ وأدعو عطف على أعتزلكم، وفاعله مستتر تقديره أنا، وربى مفعول به، وعسى فعل ماض من أفعال الرجاء، واسمها مستتر، وأن وما في حيزها هي الخبر، واسم أكون مستتر تقديره أنا، وبدعاء متعلقان بشقياً، وربى مضاف لدعاء، وشقياً خبر أكون ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَّلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ لما ظرفية حينية أو رابطة، واعتزلهم فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، وما يعبدون من دون الله تقدم إعرابها، أي: تركهم فعلاً من بابل إلى الأرض المقدسة، وجملة وهبنا لا محل لها لأنها جواب لما، وله متعلقان بوهبنا، وإسحق: مفعول وهبنا، ويعقوب عطف على إسحق، وكلّ مفعول به أول لجعلنا، ونبياً هو المفعول الثاني ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ ووهبنا عطف على وهبنا الأولى، ولهم متعلقان بوهبنا، أي: لإبراهيم وولديه، ومن رحمتنا متعلقان بوهبنا أيضاً، وجعلنا عطف على وهبنا، ولهم في موضع المفعول الثاني لجعلنا، ولسان صدق هو المفعول الأول، وعلياً صفة للسان، وهو الثناء الحسن كما سيأتي في باب البلاغة.

□ البلاغة:

١ - فن الاستدراج:

بلغت هذه الآيت ذروة البلاغة، وانطوت على معاجز تذهل العقول،

فأول ما يطالعنا منها فن يعرف بالاستدراج، وهو يقوم على مخادعة المخاطب، تقوم فيه الأقوال مقام الأفعال، فلا يزال يترفق بالمخاطب، ويداوره، ويلالينه حتى يسقط في يده، ويستلين، ويعلن استسلامه، وهو يشبه أصحاب الجدل في الكلام والمنطق والفلسفة، ولكن أولئك يتصرفون في المغالطات القياسية، أما الشاعر أو الكاتب فهو في استدراجه يتصرف في المغالطات الخطابية. وقد أحسن الإمام الزمخشري في تحليل هذا الفن وإن لم يسمه، فحلل هذا الفصل تحليلاً عجبياً، وقد شاء ضياء الدين بن الأثير - الذي استخرج هذا الفن - أن يغير على فصل الزمخشري فنسفه برمته، ونسبه إليه، وسننصف الزمخشري من سالبه، فننقل فصله برمته وعلى طوله، فهو كالحسن غير مملول:

انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم، والارتكاب الشنيع، الذي عصى فيه أمر العقلاء، وانسلخ عن قضية التمييز، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة، واللفظ، والرفق، واللين، والأدب الجميل، والخلق الحسن، منتصباً في ذلك بنصيحة ربه عز وعلا... وذلك أنه طلب منه أولاً العلة في خطئه طلب منه على تمامه، موقظ لإفراطه وتناهيه؛ لأن المعبود لو كان حياً مميّزاً سميعاً بصيراً مقتدرّاً على الثواب والعقاب، نافعاً ضارّاً، ولو أنه يمتلك بعض الحسن لاستخفّ عقل من أهله للعبادة، ووصفه بالربوبية، ولسجل عليه بالغي المبين، والظلم العظيم، وإن كان أشرف الخلق، وأعلاهم منزلة... فما ظنك بمن وجه عبادته إلى جماد ليس به حس ولا شعور، فلا يسمع - يا عابده - ذكرك له، وثناءك عليه، ولا يرى هيئات خضوعك وخشوعك له، فضلاً أن يغني عنك بأن تستدفعه بلاء فيدفعه، أو تسنح لك حاجة فيكفيكها، ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك، وذلك علم الدلالة

على الطريق السوي، فلا تستنكف، وهب أني وإياك في مسير، وعندى معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أنجك من أن تضلّ وتتيه.

ثم ثلث بتثييطه ونهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي استعصى على ربك الرحمن؛ الذي جميع ما عندك من النعم من عنده، وهو عدوك الذي لا يريد بك إلا كل هلاك، وخزي، ونكال، وعدو أبوك آدم وأبناء جنسك كلهم هو الذي ورطك في هذه الضلالة، وأمرك بها، وزيتها لك، فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان. إلا أن إبراهيم - عليه السلام - لإمعانه في الإخلاص، ولارتقاء همته في الربانية لم يذكر من جنائتي الشيطان إلا التي تختصّ منهما برب العزة من عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذريته، كأن النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره، وأطبق على ذهنه.

ثم ربح بتخويفه سوء العاقبة، وبما يحجره ما هوفيه من التبعية والوبال، ولم يخل ذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له، وأن العذاب لاصق به، ولكنه قال: ﴿أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ فذكر الخوف والمس، ونكّر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب، وذلك أن رضوان الله أكبر من الثواب نفسه، وسماه الله تعالى المشهود له بالفوز العظيم... فكذلك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم، وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: ﴿يَتَأْتِ﴾ توسلاً إليه، واستعطافاً... أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر، وغلظ العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل قوله يا أبت بقوله يا بني، وقدم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿أَرَاغِبُ أَنْتَ﴾ لأنه كان أهم عنده، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته.

٢ - المجاز المرسل:

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ مجاز مرسل من إطلاق اسم الآلة، وهي اللسان؛ لأنها آلة الكلام، وإرادة ما ينشأ عنها، فعبر

باللسان عما يوجد باللسان، كما عبر باليد عما يطلق باليد، وهو العطاء، فهو مجاز علاقته السببية.

✽ الفوائد:

١ - المبتدأ الصفة:

قد يرفع الوصف بالابتداء إن لم يطابق موصوفه تشنية أو جمعاً، فلا يحتاج إلى خبر، بل يكفي بالفاعل أو نائبه، فيكون مرفوعاً به ساداً مسد الخبر، بشرط أن يتقدم الوصف نفياً أو استفهام، وتكون الصفة حينئذ بمنزلة الفعل، فلا تشني، ولا تجمع، ولا توصف، ولا تصغر، ولا تعزف.

ويتناول الوصف: اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، واسم التفضيل، والمنسوب، ولا فرق بين أن يكون الوصف مشتقاً نحو: ما ناجح الكسولان، وهل محبوب المجتهدون، أو اسماً جامداً فيه معنى الصفة، نحو: هل صخر هذان المعاندان، فصخر مبتدأ، وهو اسم جامد بمعنى الوصف؛ لأنه بمعنى صلب قاس، وهذان فاعل لصخر أغنى عن الخبر، وما وحشي أخلاقك، فوحشي مبتدأ، وهو اسم جامد، فيه معنى الصفة؛ لأنه اسم منسوب فهو بمعنى اسم المفعول، وأخلاقك نائب فاعل له أغنى عن الخبر، ولا فرق بين أن يكون النفي والاستفهام بالحرف أو بغيره، نحو: ليس كسول ولداك، وغير كسول أبناؤك، وكيف سائر أخواك، غير أنه مع ليس يكون الوصف اسماً لها، والمرفوع بعده مرفوعاً به ساداً مسد الخبر، ومع غير ينتقل الابتداء إليها، ويجر الوصف بالإضافة إليها، ويكون ما بعد الوصف مرفوعاً به ساداً مسد الخبر، وبذلك ينحل الإشكال الوارد في بيت أبي نواس:

غيرُ مأسوفٍ على زمنٍ ينقضي بالهمِّ والحَزَنِ

فغير مبتدأ لا خبر له، بل لما أضيف إليه مرفوعاً يغني عن الخبر، وذلك لأنه في معنى النفي والوصف بعده مجرور لفظاً، وهو في قوة المرفوع بالابتداء، أي: فحركة الرفع التي على غير هي التي يستحقها هذا الاسم بالأصالة، لكنه لما كان مشغولاً بحركة الجر لأجل الإضافة جعلت حركته التي كانت له بطريق

الأصالة، من حيث هو مبتدأ على غير بطريق العارية، وعلى زمن في محل رفع نائب فاعل لمأسوف سد مسد الخبر، وجملة «ينقضي بالهم والحزن» صفة لزمن. وقد أورد ابن هشام هذا البيت في مغني اللبيب، وأورد وجهين آخرين تراهما بعيدين كل البعد، وخاصة الثالث الذي اعترف ابن هشام بتعسفه، فليرجع إليهما.

فإن لم يقع الوصف بعد نفي أو استفهام، فلا يجوز هذا الاستعمال فلا يقال: مجتهد غلاماك، بل تجب المطابقة، نحو: مجتهدان غلاماك، وحيثذ يكون خبراً مقدماً، وما بعده مبتدأ مؤخراً، وأجازه الكوفيون لأنهم لم يشترطوا اعتماد الصفة على النفي والاستفهام، واستشهدوا بقوله:

خير بنو لهب فلا تكُ ملغياً مقالة لهبي إذا الطيرُ مرّت

فأعربوا قوله بنو لهب فاعلاً لخير، دون أن يعتمد على نفي أو استفهام، واعتذر البصريون عن البيت بأن خبيراً على وزن فعيل، وفعل على وزن المصدر كصهيل وزئير، والمصدر يخبر به عن المفرد أو المثني والجمع، فأعطي حكم ما هو على زنته، فهو على حد قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ وقد شايع أبو الطيب الكوفيون لأنه من الكوفة، ولأن له كلفاً بمراغمة النحاة، كما أشرنا إلى ذلك غير مرة، فقال بيته الممتع:

دع النفس تأخذ وسعها قبل بينها

فمفترق جاران دارهما العمر

فمفترق مبتدأ، وجاران فاعل سد مسد الخبر، ولا يجوز أن تقول إن مفترقاً خبر مقدم؛ لأنه كان يجب أن يطابق قوله جاران، والحاصل:

أنه إذا رفع الوصف ما بعده، فله ثلاثة أحوال:

١ - وجوب الابتداء إذا لم يطابق ما بعده في التثنية والجمع، نحو: أقائم أخواك؟

٢ - وجوب الخبرية إذا طابق ما بعده في التثنية والجمع، نحو: أقائم
أخوك؟

٣ - جواز الوجهين إذا طابق ما بعده في التذكير والتأنيث، نحو: أقائم
أخوك؟ و: أقائمة أختك؟

ومحل جواز الوجهين ما لم يوجد مانع، وجعل بعض العلماء من الموانع في
قوله تعالى: ﴿أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي﴾ فتتعين الابتدائية للزوم الفصل إذا
جعلته خبراً بينه وبين معموله، وهو الجار والمجرور، ورد ذلك آخرون
مدافعين عن الزمخشري بأن قوله ﴿عَنْ آلِهَتِي﴾ متعلق آخر. أما الزمخشري
وابن الحاجب فقد اشترطا في الأصل أن يكون المرفوع اسماً ظاهراً، ولكن
الزمخشري نفسه أجاز إعراب أنت فاعلاً لراغب.

٢ - عود إلى ﴿يَتَأَبَّتْ﴾ :

تحدثنا عن اللغات في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم، فأما التاء في
يا أبت، ويا أمت: فتاء التأنيث بمنزلة التاء في قائمة، وامرأة. قال
سيبويه: سألت الخليل عن التاء في يا أبت لا تفعل، ويا أمت، فقال: هذه
التاء بمنزلة الهاء في خالة وعمة، يعني: أنها للتأنيث، والذي يدل على أنها
للتأنيث أنك تقول في الوقف: يا أبه، ويا أمه، فتبدلها هاء في الوقف كقاعد
وقاعدة، على حد: خال وخالة، وعم وعمة، ودخلت هذه التاء كالعوض
من ياء الإضافة، والأصل: يا أبي، ويا أمي، فحذفت الياء اجتزاء بالكسرة
قبلها، ثم دخلت التاء عوضاً عنها؛ ولذلك لا تجتمعان، فلا تقول: يا أبتي،
ولا يا أمتي لثلا يجمع بين المعوض والمعوّض عنه، ولا تدخل هذه التاء فيما له
مؤنث من لفظه، فلو قلت في: يا خالي ويا عمي: يا خالت، ويا عمت؛ لم
يجز؛ لأنه كان يلتبس بالمؤنث، فأما دخول التاء على الأم فلا إشكال فيها؛
لأنها مؤنثة، وأما دخولها على الأب فلمعنى المبالغة، كما في: رواية،
وعلامه.

٣ - من هو سيبويه :

وقد تردّد اسمُ سيبويه كثيراً، ولا بُدَّ لنا من إلقاء نظرة عاجلة على قصة حياته ؛ لأن فيها فائدة، ولأنه ترك لنا في نحو البصريين الكتاب الذي خلد إلى يومنا هذا، وكان كتاب النحو الجامع حتى قيل فيه : قرآن النحو .

فهو أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، وهي نسبة إلى الحارث بن كعب، قبيلة يمنية، وهذه النسبة بالولاء، فقد كان سيبويه فارسياً، فأما لقبه فسيبويه، وقد غلب عليه، وهو فارسي مركب مزجي من سيب، أي : التفاح، وبوي، أي : الرائحة، فمعناه : رائحة التفاح على قاعدة الأوصاف باللغة الفارسية، سمي بذلك لطيب رائحته، أو لجماله، وحسن خلقه . وقيل : مركّب من سيب وويه : اسم صوت، ويذكر بعض العارفين باللسان الفارسي أن : ويه في هذا اللسان معناها مثل، وشبه، فمعنى التركيب : مثل التفاح، وهكذا نفطويه : مثل النفط، وعمرويه : مثل عمرو .

☆ حكم سيبويه :

والجاري على الألسنة سِيبَوِيَّةٌ بفتح الباء والواو والهاء مكسورة، وهذا حكم شائع في الأعلام المختومة بويه، جاء في الكتاب قول سيبويه : وعمرويه عندهم بمنزلة حضرموت في أنه ضم الآخر إلى الأول، وعمرويه في المعرفة مكسور في حال الجر والرفع والنصب غير منون، وفي النكرة تقول : هذا عمرويه آخر، ورأيت عمرويه آخر .

وتراه في الكتاب اقتصر على المشهور عند الناس، وقد ينطق سِيبَوِيَّةٌ بضم الباء وفتح الياء وسكون الهاء، ويُعزى هذا إلى العجم، تجنبوا الصورة الأولى ؛ لأن ويه صوت ندبة .

☆ مولده ونشأته :

ولد سيبويه في البيضاء من كورة إصطخر بفارس من أبوين فارسيين، ولا يعرف على وجه اليقين تاريخ ولادته، وقد انتقل إلى البصرة فتلقى العلم

فيها، وكانت هي والكوفة المصريّين المبرزين في علوم العربية والدين، ولا يُعرف شيئاً عن أسرته إلا ما ذكر أنه مات بين يدي أخيه، ولا ندرى هل انتقلت معه إلى البصرة أسرته، ونحن لا نرى لأبيه ذكراً، ونرى بشاراً يهجوّه حين اشتهر أمره فيقول:

ظَلَلْتَ تُغْنِي سَادِراً فِي مَسَاءِي وَأَمَلَكَ بِالْمَصْرَيْنِ تَعْطِي وَتَأْخُذُ

ويظهر من هذا أن أمه كانت معه في العراق، ولا ندرى هل تزوج؟ وفي حديث للفراء أن سيبويه كانت له جارية تخدمه. وفي «طبقات النحاة» أن جاريته مزّقت جزازات كتابه، فطلقها، فهل يريد بجاريته زوجته، أو يريد بتطليقها إخراجها من بيته؟ والظاهر أنه لم يكن له زوج ولا ولد، وآية ذلك أنه بعد أن أخفق في بغداد في قصّته مع الكسائي - على ما يأتي - لم يعد إلى منزله بالبصرة.

☆ كيف طلب النحو؟

اختلف سيبويه إلى حماد بن سلمة شيخ الحديث والرواية في البصرة في عصره، فألقى عليه حماد الحديث: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحدٍ من أصحابي إلا أخذت عليه ليس أبا الدرداء» فقال سيبويه، وكان قد شدا شيئاً من النحو: ليس أبو الدرداء، فقال حماد: لحت يا سيبويه، فقال سيبويه: لا جرم لأطلبن علماً لا تلتحنني فيه أبداً، واتجه لدرس النحو، فلزم الخليل، وقد ظن سيبويه أن الواجب رفع ما بعد ليس ليكون اسماً لها، ولم يكن عرف أسلوب ليس في الاستثناء، وقد عرض سيبويه لذلك في الكتاب، وأشبعه بياناً وتعليلاً.

☆ بوادر نبوغه، وحرية فكره:

وكان أكثر تلقّيه عن الخليل، حتى إنه إذا قال: قال أو سألته، فإنه يعني: الخليل، وكان الخليل قد عرف له قدره، وثقابة ذهنه، وقوة فطنته، فأبّته علمه، ونصح له في التعليم. وأخذ عن غير الخليل: أخذ عن عيسى بن عمر، ويونس بن حبيب، والأخفش الكبير أبي الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد،

ويذكر أبو زيد الأنصاري أنه إذا قال سيبويه: أخبرني الثقة فإنما يعنيه، وأول ما ظهر من بوادر نبوغه ما حدث به الأخفش، قال: كنت عند يونس فقيل له: قد جاء سيبويه، فقال: أعوذ بالله منه، فجاء فسأله، فقال: كيف تقول: مررت به المسكين؟ فقال: جائز أن أجره على البذل من الهاء، فقال له: فمررت به المسكين بالرفع على معنى: المسكين مررت به، فقال: هذا خطأ؛ لأن المضمر قبل الظاهر، فقال له: إن الخليل أجاز ذلك، وأنشد فيه أبياتاً، فقال: هو خطأ، قال: فمررت به المسكين بالنصب؟ فقال: جائز، فقال: على أي شيء؟ فقال: على الحال، فقال: أليس أنت أخبرتني أن الحال لا تكون بالألف واللام، فقال: صدقت، ثم قال لسيبويه: فما قال صاحبك فيه؟ يعني: الخليل، فقال سيبويه: قال: إنه ينصب على الترحم، فقال: ما أحسن هذا! ورأيت مغموماً بقوله: نصبته على الحال.

وكان سيبويه مع إجلاله للخليل يزيّف قوله، ففي الكتاب: وزعم الخليل أنه يجوز أن يقول الرجل: هذا رجل أخو زيد، إذا أردت أن تشبهه بأخي زيد، وهذا قبيح لا يجوز إلا في موضع الاضطرار، ولو جاز هذا لقلت: هذا قصير الطويل، تريد مثل الطويل، فلم يميز هذا، كما قبح أن تكون المعرفة حالاً كالنكرة إلا في الشعر.

☆ بين سيبويه والكسائي:

وأتى الحظ والسعادة الكسائي وأصحابه، فحلّوا في بغداد محلاً رفيعاً، وكان منهم مؤدبو أولاد الخلفاء، وكانوا عند البصريين في النحو والأدب أقل منهم معرفة وأضعف أسباباً، وقد رأى سيبويه - وهو إمام البصريين - أن يزاحمهم في مركزهم، فقصّد بغداد، وعرض على البرامكة أن يجمعوا بينه وبين الكسائي وينظره، وكان واثقاً أنه سيكون له الفلح والظفر، وبلغ الكسائي مقدّم سيبويه، وخشي مغبة المناظرة أن يزول سلطانه في بغداد، فأتى جعفر بن يحيى بن برمك والفضل أخاه وقال: أنا وليكما وصاحبكما، وهذا الرجل إنما قدم ليذهب محلي، قالوا: فاحتل لنفسك، فإننا سنجمع بينكما. ويبدو أن

فارسية سيبويه يقابلها فارسية الكسائي، فهو أيضاً فارسي من ولد بهمن بن فيروز، وكان أسدياً بالولاء، فلم يكن لسيبويه ما يجعله أقرب إلى قلوب البرامكة من الكسائي، فدبر هو وأصحابه خطة كان لها ما توقعوه، وهي: أن يتقدمه في مجلس المناظرة أصحابه، فيسألوا سيبويه أسئلة، ويتألبوا فيها عليه حتى إذا فترت همته، وبان كلاله جاء الكسائي، فوجد قرناً ذهب حده، وعزب نشاطه، فكان له ما أراد من صرعه، وقد تقدمت قصة المسألة الزنبورية في موضع آخر من هذا الكتاب.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۖ وَنَذِيرًا مِّن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۖ﴾ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۖ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۖ﴾ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۖ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۖ﴾

○ الإعراب:

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ اذكر فعل أمر، وفي الكتاب جار ومجرور متعلقان باذكر، وموسى مفعول به، وإن واسمها، وجملة كان خبرها، ومخلصاً خبر كان، وكان رسولا نبياً عطف على كان الأولى. ﴿وَنَذِيرًا مِّن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا﴾ ونادينا عطف على ما سبق، وهو فعل وفاعل ومفعول به، ومن جانب متعلقان بنادينا، والطور مضاف إليه، والأيمن صفة لجانب قالوا لأنه كان يلي يمين موسى حين أقبل من مدين، وقربناه عطف على نادينا، ونجياً حال من أحد الضميرين في نادينا أو قربناه، وهو فاعيل بمعنى فاعل، أي: مناجياً. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا

أَخَاهُ هَزُونٌ نَبِيًّا ﴿٥١﴾ ووهبنا عطف أيضاً، وله متعلقان بوهبنا، ومن رحمتنا متعلقان بوهبنا أيضاً، ومعنى من هنا التبعض، أي: بعض رحمتنا، أو: للتعليل، أي: من أجل رحمتنا، وأخاه مفعول به لوهبنا، وهارون بدل، ونبياً حال. ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ إعرابها ظاهر، وقد تقدم، وجملة إنه كان تعليلية. ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ جملة يأمر خبر كان، وأهله مفعول به، وبالصلاة متعلقان بيأمر، وكان فعل ماض ناقص، واسمها مستتر تقديره هو، وعند ربه متعلقان بمرضياً، ومرضياً خبر كان اجتمعت الياء، والواو فقلبت الواو ياء وأدغمت في الأخرى. ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ تقدم إعراب مثيلاتها، ولا بأس بذكر ما قاله الزمخشري بصدد إدريس، وهذا نصه:

قليل: سمي إدريس لكثرة دراسته كتاب الله عز وجل، وكان اسمه أخنوخ، وهو غير صحيح؛ لأنه لو كان إفعيلاً من الدرس، لم يكن فيه إلا سبب واحد، وهو العلمية، فكان منصرفاً، فامتناعه من الصرف دليل العجمة، وكذلك إبليس أعجمي، وليس من الإبلاس كما يزعمون، ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بإسرا، كما زعم ابن السكيت، ومن لم يحقق، ولم يتدرب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات، ويجوز أن يكون معنى إدريس في تلك اللغة قريباً من ذلك، فحسبه الراوي مشتقاً من الدرس. وما أجمل حرية الرأي!

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ رفعناه فعل وفاعل ومفعول به، ومكاناً ظرف متعلق برفعناه، وعلياً صفة. وقد رويت أساطير كثيرة حول هذا الرفع، ومرجعها المطولات. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ أولئك مبتدأ، أي: الأنبياء العشرة المذكورون في السورة، والذين خبر، أو بدل من اسم الإشارة، وجملة أنعم الله عليهم صلة، ومن النبيين حال، ومن ذرية آدم بدل بإعادة الجار. ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبَيْنَا﴾ عطف على ما تقدم. ﴿إِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ جملة إذا

تتلى عليهم، وجوابها استثنائية لا محل لها إذا أعربنا الذين خبراً، وإذا أعربنا الذين بدلاً فتكون هي الخبر، وجملة خرّوا لا محل لها؛ لأنها جواب إذا، والواو في خرّوا فاعل، وسجداً حال من الفاعل، وبكياً عطف على سجداً، جمع ساجد وباك، والثاني شاذ؛ لأن قياس فاعل من المنقوص أن يجمع على فعله كقاض وجمعه قضاة، وباك وجمعه بكاة.

﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ٦٠ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْعَذَابِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعْدُ مَا بَيَّنَّا ٦١ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ٦٢ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ٦٣﴾

☆ اللفظة:

﴿خَلَفَ﴾ : أي : عقب، وبعض اللغويين يستعملون الخلف بسكون اللام كما هنا في الشر، فيقال : خلف سوء، وبفتحها في الخير، فيقال : خلف صالح، قال في «الكشاف» : خلفه : إذا عقبه، ثم قيل في عقب الخير : خلف بالفتح، وفي عقب السوء خلف بالسكون، كما قالوا : وعد في ضمان الخير، ووعد في ضمان الشر. وقال اللحياني : الخلف - بفتحتين - : الولد الصالح، والخلف - بفتح فسكون - : الرديء.

﴿غِيًّا﴾ : كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد، قال المرقش الأصغر :

أمن حلم أصبحت تنكت واجها

وقد تعتري الأحلام من كان نائما

فمن يلقَ خيراً يحمِدُ الناسُ أمره

ومن يغو لا يعدُّم على الغي لائما

يقال: غوي يغوى، من باب: ضرب، انهمك في الجهل.

○ الإعراب:

﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾
 الفاء عاطفة وخلف فعل ماضٍ، ومن بعدهم حال، وخلف فاعل، وجملة
 أضاعوا الصلاة صفة لخلف، واتبعوا الشهوات عطف على أضاعوا الصلاة،
 والفاء الفصيحة، أي: إن شئت أن تعلم عاقبتهم، وسوف حرف استقبال،
 ويلقون فعل مضارع وفاعل، وغياً مفعول به. ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾
 فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿ إلا: أداة استثناء، و«من» إن جعلنا
 الاستثناء منقطعاً كانت إلا بمعنى لكن، ومن مستثنى واجب النصب، ووجه
 الانقطاع: أن المستثنى منه كفار، والمستثنى مؤمنون، وهذا اختيار الزجاج،
 واختار أبو حيان الاتصال، وربما كان أظهر؛ لأنه خطاب صالح لكل أمة،
 فيها من آمن ومن كفر، وعلى كل حال هو واجب النصب؛ لأن الكلام تام
 موجب، وجملة تاب صلة، وآمن عطف على تاب، وعمل عطف أيضاً،
 وصالحاً يجوز أن يكون مفعولاً به، وأن يكون مفعولاً مطلقاً، أي: عملاً
 صالحاً، فأولئك الفاء الفصيحة، وأولئك مبتدأ، وجملة يدخلون خبر،
 والجنة مفعول به على السعة، ولا يظلمون عطف على يدخلون، وشيئاً
 مفعول مطلق، ولك أن تجعله مفعولاً ثانياً بتضمين يظلمون معنى ينقصون.
 ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ جنات بدل من الجنة، وعدن
 مضاف إليه، من عدن بالمكان، أي: أقام، وقد جرى مجرى العلم؛ ولذلك
 ساغ وصفها بالتي، والتي صفة لجنات عدن، وجملة وعد صلة، والرحمن
 فاعل وعد، وعباده مفعول، وبالغيب حال من عباده، أي: من المفعول،
 والمعنى: غائبة عنهم لا يشاهدونها، ويحتمل أن يكون حالاً من ضمير الجنة،
 وهو الضمير العائد على الموصول، أي: وعدّها، وهم غائبون عنها
 لا يرونها. ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعْدُ مَا يُبْأَى ﴾ إن واسمها والضمير يعود على الله تعالى،
 أي: الرحمن، والمعنى: أن الرحمن كان وعده مأتياً، أو أنه ضمير الشأن؛ لأنه

مقام تعظيم وتفخيم، والجملة تعليلية مستأنفة، وجملة كان خبر إن، واسم كان يعود على الله تعالى أيضاً، ووعدته بدلاً من ذلك الضمير بدل اشتمال، ومأتياً خبرها، ويجوز ألا يكون فيها ضمير، ووعدته اسمها، ومأتياً خبرها، واختار الجلال وشراحه أن يكون مأتياً مفعول بمعنى فاعل، أي: آتياً، ولم يرتضه الزمخشري، فإنه قال:

قيل في مأتياً مفعول بمعنى فاعل، والوجه: أن الوعد هو الجنة، وهم يأتونها.

والحق مع الزمخشري لأن ما تأتیه فهو يأتیک، فلا موجب للتأويل.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ الجملة حال من جنات عدن، ولا نافية، ويسمعون فعل مضارع، والواو فاعل، وفيها متعلقان بمحذوف حال، أي: حالة كونهم في الجنة، ولغواً مفعول به، أي: مالا طائل تحته من الكلام، وهو ما يشقشق به أكثر الناس في مجالسهم من ثلب للآخرين، وتدخل في شؤون الناس، أو من حديث تافه أشبه بالفضول، وإلا أداة حصر، وسلاماً بدل من لغواً، أو يحمل على الاستثناء المنقطع، وسيأتي تفصيل ذلك في باب البلاغة، ولهم خبر مقدم، ورزقهم مبتدأ مؤخر، وفيها حال، وبكرة ظرف متعلق بمعنى الاستقرار المستكن في الخبر المقدم، وعشيّاً عطف على بكرة. ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ اسم الإشارة مبتدأ، والجنة خبر، والتي صفة للجنة، وجملة نورث صلة، ومن اسم موصول مفعول نورث، وجملة كان صلة، واسم كان مستتر تقديره: هو، وجملة تقيّاً خبر كان.

□ البلاغة:

١ - توكيد المديح بما يشبه الذم وعكسه:

في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ فن رفيع من فنون البلاغة،

وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وقد سبقت الإشارة إليه في المائة ، ولم نقسمه آنذاك ، فنقول : إنه ينقسم إلى نوعين :

أ - أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح لذلك الشيء بتقدير دخولها في صفة الذم المنفية ، ومنه قول النابغة الذبياني :

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفَهم بهنَّ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ

فقد جعل الفلول عيباً على سبيل التجوز بتألفي العيب بالكلية ، كأنه يقول : إن كان فلول السيف من القراع عيباً ، فإنهم ذوو عيب ، معناه : إن لم يكن عيباً فليس فيهم عيب البتة ؛ لأنه لا شيء سوى هذا ، فهو بعد هذا التجوز والفرض استثناء متصل .

ب - إن ثبت لشيء صفة مدح ، وتعقب ذلك بأداة استثناء يليها صفة مدح أخرى لذلك الشيء ، نحو : أنا أفصح العرب بيد أي من قريش ، وقال النابغة أيضاً :

فتى كملت أوصافه غير أنه جوادٌ فما يُبقي على المالِ باقيا

وأصل الاستثناء في هذا الضرب أن يكون منقطعاً ، لكنه لم يقدر متصلاً ، بل بقي على حاله من الانقطاع ؛ لأنه ليس في هذا الضرب صفة ذم منفية عامة يمكن تقدير دخول صفة المدح فيها ، فيحتثد لا يستفاد التوكيد فيه إلا من الوجه الثاني من الوجهين المذكورين في الضرب الأول ؛ ولهذا كان الضرب الأول أبلغ لإفادته التأكيد من الوجهين .

إذا عرفت هذا ، فاعلم أن في الآية الكريمة : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًّا إِلَّا سَلَامًا ﴾ ثلاثة أوجه :

أ - أن يكون معناه : إن كان تسليم بعضهم على بعض ، أو تسليم الملائكة لغواً ، فلا يسمعون لغواً إلا ذلك ، وهو بهذا من وادي قول النابغة :

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفَهم بهنَّ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ

ب - أنهم لا يسمعون فيها إلا قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة، وهذا يتعين فيه الاستثناء المتقطع .

ج - أن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة، وهي دار السلامة، وأهلها أغنياء عن الدعاء بالسلامة، فكان ظاهره من باب اللغو، وفضول الحديث، لولا ما فيه من فائدة الإكرام، ففي الوجه الأول والثالث يتعين الاتصال في الاستثناء، أما الأول فلجعل ذلك لغواً على سبيل التجوز والفرض، وأما الثاني فواضح؛ لأنه فيه إطلاق اللغو على السلام، وأما الثالث فلحمل الكلام على ظاهره من دون تجوز، أو فرض .

٢ - التشبيه التمثيلي البليغ :

وذلك في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ فقد شبه عطاء الجنة لهم بالعطاء الذي لا يرد، وهو الميراث الذي يرثه الوارث، فلا يرجع فيه المورث، أي : نبقىها عليهم من ثمرة تقواهم كما يبقى على الوارث مال مورثه، والوراثة أقوى لفظ يستعمل في التملك والاستحقاق من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع، ولا تبطل برّد ولا إسقاط، والإرث في اللغة : البقاء، قال عليه الصلاة والسلام : «إنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم» أي : على بقية من بقايا شريعته . والوارث : الباقي، من أسماء الله تعالى، أي : الباقي بعد فناء خلقه، وهو في الشرع : انتقال مال الغير إلى الغير على سبيل الخلافة .

﴿ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ وَمَا هُمْ بِبِائِسِينَ بِذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾

○ الإعراب :

﴿ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الجملة مستأنفة مسوقة لحكاية قول جبريل

حيث استبطأه الرسول ﷺ لما سُئِلَ عن قصة أهل الكهف، وذوي القرنين، والروح، ولم يدرِ ما يجيب، كما تقدم، فأبطأ عليه خمسة عشر يوماً، وقيل: أربعين، حتى قال المشركون: ودعه ربه، وقلاه، فالواو استئنافية، وما نافية، وتتنزل فعل مضارع مرفوع، وفاعله مستتر تقديره: نحن، وإلا بأمر ربك استثناء من أعم الأحوال، فلا أداة حصر، وبأمر متعلقان بمحذوف حال، فالتنزل نزول فيه إبطاء، أو: بمعنى النزول على الإطلاق، قال الشاعر:

فَلَسْتُ لِإِنْسِيٍّ وَلَكِنْ لِمَلَأُكٍ تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

وهذا البيت لرجل من عبد القيس يمدح الملك النعمان بن المنذر، وقيل لأبي وجرة يمدح عبد الله بن الزبير، وقبله:

تَعَالَيْتَ أَنْ تُعْزَى إِلَى الْإِنْسِ جَلَّةٌ

وللإنس من يعزوك فهو كذوبٌ

أي: لست منسوباً لإنسي، ولكن لملك، وبالغ في ذلك حتى جعله نازلاً من جهة السماء يصوب، أي: يقصد إلى جهة معينة، والملاك: معفل بتقديم العين، من الألوكة بالفتح، وهي: الرسالة. وقال أبو عبيدة: هو مفعل على اسم المكان من لأك إذا أرسل، ولعله جاء على مفعل لتصوير أن الرسول مكان الرسالة. وقال ابن كيسان: هو فعأل، من الملك، فالهمزة زائدة، وعلى كل يخفف بالنقل، فيقال: ملك.

﴿لَمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ له خبر مقدم، وما موصول مبتدأ مؤخر، والجملة حال من ربك، والظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول، وأيدينا مضافة للظرف، وما خلفنا عطف على ما بين أيدينا، وما بين ذلك عطف أيضاً. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ الواو حرف عطف، وما نافية، وكان واسمها وخبرها. ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ رب السموات والأرض خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو رب السموات والأرض ويجوز أن يعرب بدلاً من ربك. ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعَالَى لَمْ سَمِيًّا﴾ الفاء

هي الفصيحة، ولا حاجة لتأويل الكلام بجعلها عاطفة من باب عطف الإنشاء على الخبر، أي: إذا عرفت ربوبيته الكاملة فاعبده، واصطبر عطف على عبده، ولعبادته متعلقان باصطبر. وقد أحسن الزمخشري في الفهم حيث جعل العبادة بمنزلة القرن، تقول للمحارب: اصطبر لقرنك، أي: اثبت له فيما يورد عليك من شداته وصولاته، والمراد: لا تضق ذرعاً، ولا تهن قوة إذا تأخر عنك الوحي، ولا تبتئس لشماتة الكافرين، فما هي إلا غمرة ثم تنجلي، وظلمة ثم تنحسر، وهل حرف استفهام معناه النفي، وتعلم فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: أنت، وسمياً مفعول به، والسمي هو الشريك في الاسم.

* الفوائد:

عطف الإنشاء على الخبر وبالعكس:

منعه البيانيون وبعض النحاة، وأجازه بعض النحاة، قال أبو حيان: وأجاز سيبويه ذلك، واستدل بقول امرئ القيس:

وإن شِفائي عِبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ وهل عند رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلٍ

فجملة «إن شِفائي... الخ» خبرية، وجملة «وهل عند رسم... الخ» جملة إنشائية عطفاً على الخبرية.

وقول الآخر:

تُناغي غَزالاً عند بابِ ابنِ عامرٍ

وكَحْلٍ مَأْقِيكَ الحِسانَ بِإِثْمِدٍ

وقول الآخر:

وقائِلَةٌ خَوْلَانٌ فَانكِحْ فَتَاتَهُمْ وأكرومَةُ الحيينَ خلَوْ كما هيا

ورد ابن هشام هذه الأقوال، فقال رداً على أبي حيان: وأما ما نقله أبو حيان عن سيبويه فغلط عليه، وأما بيت امرئ القيس فالاستفهام خرج معناه إلى النفي كما ذكرنا، وأما قوله: فانكح فتاتهم فهو معطوف على

فعل أمر محذوف مفهوم من المبتدأ، أي: تنبه لخلوان، وأما: وكحل مآقيك... الخ فيتوقف على النظر فيما قبله من الأبيات، وقد يكون معطوفاً على أمر مقدر يدل على المعنى، أي: فافعل كذا، وكحل، كما قيل في ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي﴾: أن التقدير فاحذرنى، واهجرني ملياً؛ لدلالة: لأرجمك.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ إِذَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۖ﴾ ١١ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۖ﴾ ١٢ ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ۖ﴾ ١٣ ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًا ۖ﴾ ١٤ ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًا ۖ﴾ ١٥ ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ﴾ ١٦ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ۖ﴾ ١٧

☆ اللفظة:

﴿جِثِيًا﴾: بضم الجيم وكسر ها، وبهما قرىء، جمع جاث، من جثا يجثو أجثي ويجثي لغتان: أي: جلس على ركبتيه، أو قام على أطراف أصابعه، فهو جاث.

﴿صِلِيًا﴾: بكسر الصاد وضمها، وبهما قرىء، مصدر صلي - بكسر اللام وفتحها - النار، أي: دخلها.

○ الإعراب:

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ إِذَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ الواو استئنافية، ويقول الإنسان فعل مضارع وفاعل، وأل فيه للجنس، والهمزة للاستفهام بمعنى النفي، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متعلق بفعل محذوف دلّ عليه قوله: لسوف أخرج؛ لأن اللام تمنع من تعليقه بأخرج المذكورة؛ لأن ما بعدها لا يعمل فيما قبلها، وما زائدة، وجملة مت صلة، واللام لام الابتداء، وسوف حرف استقبال، وأخرج فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل

مستتر تقديره: أنا، وحيأ حال، وساغ اجتماع اللام، وهي تمحض الفعل للحال، وسوف وهي تمحضه للاستقبال أن اللام هنا مجرد التوكيد، وإنما جردت اللام من معناها لتلائم سوف دون أن تجرد سوف من معناها لتلائم اللام؛ لأنه لو عكس هذا للغت سوف؛ إذ لا معنى لها سوى الاستقبال، وأما اللام فإنها إذا جردت من الحال بقي لها التوكيد فلم تلغ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ أولاً: الهمزة للاستفهام الإنكاري، والواو عاطفة، ولا نافية، ويذكر فعل مضارع معطوف على يقول، ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف، والإنسان فاعل، وأنا: إن واسمها، وجملة خلقناه خبر أنا، وأن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول يذكر، ومن قبل الجار والمجرور متعلقان بذكر، ولم: الواو حالية، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وبك فعل مضارع مجزوم بلم، وعلامة جزمه السكون المقدر على النون المحذوفة للتخفيف، واسمها ضمير مستتر تقديره: هو، وشيئاً خبر يكن، والمضاف إلى قبل محذوف تقديره: قبل الحالة التي هو فيها، وهي حالة بقائه، وقدره بعضهم: قبل بعثه ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ الفاء عاطفة، والواو للقسم، وربك مجرور بواو القسم، وهما متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم، وفائدة هذا القسم سترد في باب البلاغة واللام واقعة في جواب القسم، ونحشرنهم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والفاعل ضمير مستتر تقديره: نحن، والهاء مفعول به، والشياطين عطف على الهاء، أو الواو بمعنى مع، والشياطين مفعول معه ﴿ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ ثم حرف عطف للتراخي، ولنحضرنهم عطف على لنحشرنهم، وحول ظرف مكان متعلق بنحضرنهم، وجهنم مضاف إليه، وجثياً حال ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًا﴾ ثم لننزعن عطف على لنحضرنهم، ومن كل شيعة متعلقان بننزعن، وأيهم اسم موصول بمعنى الذي، وحركتها عند سيبويه حركة بناء لخروجها عن النظائر، أي: لأنها أضيفت، وحذف صدر صلتها، وهي في محل نصب مفعول به لننزعن، وأشد خبر لمبتدأ محذوف، والجملة صلة أي: وعتياً تمييز، وعلى

الرحمن متعلقان بأشد، أو بمحذوف حال، وسيأتي مزيد بحث في هذه الآية في باب الفوائد ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ ثم حرف عطف للترتيب والتراخي، واللام للابتداء، ونحن مبتدأ، وأعلم خبر، وبالذين متعلقان بأعلم، وهم مبتدأ، وأولى خبر، والجملة صلة، وبها متعلقان بأولى، وصلياً تمييز، وقيل: صلياً جمع صال فانتصب على الحال، وفي التمييز فائدة وهي التخصيص بشدة العذاب، لا التخصيص بأصل العذاب لاشتراكهم فيه ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ الواو عاطفة، وإن نافية، ومنكم صفة لمبتدأ محذوف تقديره: أحد، أي: ما منكم أحد، وإلا أداة حصر، وواردها خبر، وكان فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر تقديره: هو، أي: الورد، وحتماً خبرها، ومقضياً صفة لحتماً. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ ثم ننجي عطف على ما تقدم، وفاعل ننجي مستتر تقديره نحن، والذين موصول مفعول، واتقوا صلة، ونذر عطف على ننجي، والفاعل مستتر تقديره نحن، والظالمين مفعول به، وفيها متعلقان بنذر أو بجثياً، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من جثياً؛ لأنه في الأصل صفة لنكرة قدم عليها فنصب على الحال، وجثياً حال، أو تجعلها مفعولاً ثانياً لنذر، أي: نتركهم فيها جثياً.

□ البلاغة:

١ - فن القسم:

في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ فن القسم، وهو أن يريد المتكلم الحلف على شيء، فيحلف بما يكون فيه فخر له، وتعظيم لشأنه، أو تنويه لقدره، أو ما يكون ذماً لغيره، أو جارياً مجرى الغزل والترقق، أو خارجاً مخرج الموعظة والزهد، فقد أفاد القسم هنا أمران:

أحدهما: أن العادة جرت بتأكيد الخبر باليمين.

والثاني: أن في إقسام الله تعالى باسمه مضافاً إلى رسوله ﷺ رفعاً منه

لقدره، وتنوياً بشأنه، كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ وسيأتي تحقيق ذلك في مواضعه.

وقد توسّع الشعراء في القسم لأن فيه حلاوة، ورفعاً لشأن المتغزل به، وما أَلطف قول عبد المحسن الصوري، وهو من أبرع ما سمعنا:

يا غزالاً قد رمى باللحظ	قلبي فأصابا
بالذي ألهم تعذبي	ثناياك العذابا
والذي ألبس خديك	من الورد نقابا
والذي أودع فيه	ك من الشهد شرابا
والذي صيّر حظي	منك هجراً واجتنابا
ما الذي قالته عينا	ك لقلبي فأجابا؟!

ولابن خفاجة الأندلسي:

لا وسحر بين أجفانكم	فتن الحبّ به من فتنا
وحديث من مواعيدكم	تحسّد العين عليه الأذنا
ما رحلت العيس عن أرضكم	فرأت عيناى شيئاً حسنا

وبلغ العباس بن الأحنف الغاية بقوله:

وإنّي ليرضيني قليل نوالكم	وإن كان لا أرضى لكم بقليل
بحرمة ما قد كان بيني وبينكم	من الودّ إلا عُدتم بجميل

وأبدع أبو الطيب بقوله:

أحيا وأيسر ما قاسيتُ ما قتلا
والبيّن جارٍ على ضعفي وما عدّلا
والوجدُ يقوى كما تقوى التّوى أبداً
والصبرُ ينحلُّ في جسمي كما نحلا
لولا مفارقة الأحباب ما وجدت
لها المنايا إلى أرواحنا سُبُلا

بما بجفنيك من سحرٍ صلي دنفاً
يهوى الحياةَ وأما إن صددت فلا

٢ - الافتنان :

وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾
والافتنان هو أن يفتن المتكلم، فيأتي في كلامه بفنين إما متضادين، أو مختلفين،
أو متفقين. والآية التي نحن بصدها جمعت بين المتضادين: جمعت بين الوعد
والوعيد، بين التبشير والتحذير وما يلزم من هذين الفنين من المدح
للمختصين بالبشارة والذم لأهل النذارة، وستأتي منه أمثلة عديدة في القرآن
الكريم.

ومن الجمع بين المتضادين في الشعر قول عبد الله بن طاهر بن الحسين،
ونسبهما في الكامل لأبي دلف:

أحبُّك يا ظلوم وأنت مني مكان الرُّوح من جسدِ الجبان
ولو أتني أقولُ مكان رُوحِي خشيتُ عليك بادرة الطَّعان

فانظر كيف جمع في هذا الشعر بين الغزل والحماسة، والغزل لين والحماسة
شدة. وقال عنتره وأبدع:

إن تغدفي دوني القناعَ فإنني طبُّ بأخذِ الفارسِ المستلثمِ

وهذا من أحسن ما قيل في هذا الباب فإنه جمع فيه بين الغزل والحماسة،
والجد والهزل، فأتى فيه بنادرة طريفة، وطرفة غريبة، حيث قال بعد وصفها
بستر وجهها دونه بالقناع، حتى صار ما بين بصره وبين وجهها كالليل
المغدف؛ الذي يحول بين الأبصار والمبصرات: إنني طب بأخذ الفارس
المستلثم، يقول: إن تبرقعي دوني فإنني خير لدربتي بالحرب بأخذ الفارس
الذي سترته لأمته، وحالت دوني ودون مقاتلته، فأبرز الجد في صورة الهزل،
فجاء في بيته مع الافتنان التندير الطريف، وعبر عن معناه اللطيف بهذا اللفظ
الشريف.

وجمع الخطيئة بين المدح والهجاء في بيت واحد من قصيدة يمدح بها بغيضاً، ويهجو الزبرقان، وقد شكاه الزبرقان بسببها إلى عمر بن الخطاب:

قد ناضلونا وسلّوا من كِنانتهم

مجدداً تليداً ونبلاً غير أنكاسٍ

ومعنى هذا البيت لا يعرفه إلا مَنْ عرف أن عادة العرب إذا منّوا على أسير أعطوه نبلاً من نبلهم عليها إشارة تدلّ على أنها لأولئك القوم لا تزال في كِنانتهم، فقال الخطيئة لهذا الممدوح الذي عناه بهذا المدح: إن عداك لما فاخروك سلّوا من كِنانتهم تلك التي أعطيتها لهم، حين مننت عليهم تشهد لك بأنهم عتقاؤك، فكان هذا مجدداً تليداً لك، لا يقدرّون على جحده، تثبته لك هذه النبل التي ليست بأنكاس، يعني: الصائبات التي لا تنكب إذا ناضلت بها عن الغرض، وهذا غاية المدح للمدوح، ونهاية الهجاء لعداه؛ إذ أخبر بأنهم مع معرفتهم بفضله عليهم، يفاخرونه بما إذا أظهره أثبت له الفضل عليهم، وهذا غاية الجهل منهم والغباوة.

ومن الجمع بين الهجاء والمدح أو الفخر قول أبي العلاء المعري:

بأيّ لسانٍ دامنٍ متجاهلٍ عليّ وخفق الريح فيّ ثناء
تكلم بالقولِ المضللِّ حاسداً وكلُّ كلامٍ الحاسدين هراء
أتمشي القوافي تحت غير لوائنا ونحن على قوالها أمراء؟
ولا سار في عرض السّماوة بارقٌ وليس له من قومنا خفراء

فهو إذ يفخر بنفسه يهجو أبناء جنسه الذين يتناولون وهم قصار، ويدّعون المعرفة والجهل يكتنفهم، أو لم يقل لهم مخاطباً:

غدوت مريضَ العقلِ والدّينِ فالقني لتخبرَ أبناءَ العقولِ الصّحاح

والروح العلائقية معروفة، فلا لزوم للشرح والتبسط.

أما الجمع بين التهنئة والتعزية فهو غريب حقاً، وهو يحتاج إلى الكثير من شغوف الطبع، ورهافة الحس للإجادة فيه. ومن أجل ما سمعنا منه مثل قول

المعزّي ليزيد بن معاوية عندما جلس في دست الخلافة، وأتت الوفود مهتة
معزية بأبيه، فلما اجتمعوا لم يفتح على أحد بما فتح به لهم باب القول، حتى
تقدم هذا المتقدم ذكره، فاستأذن في الكلام، فلما أذن له قال: أجرك الله
يا أمير المؤمنين على الرزية، وبارك الله لك في العطية، فلقد رزئت عظيمًا
وأعطيت جسيمًا، رزئت خليفة الله، وأعطيت خلافة الله، فاصبر على
ما رزئت، واشكر على ما أعطيت، وأنشد:

اصبرْ يزيد فقد فارقْتَ ذا ثقةٍ

واشكر حباءَ الذي بالملك أصفاكَا

لا رزء أصبحَ في الأقوام تعلمه

كما رزئتَ ولا عقبى كعقباكَا

أصبحتَ راعي أمورِ النَّاسِ كلُّهم

فأنت ترعاهم واللَّهُ يرعاكَا

وفي معاوية الباقي لنا خلفٌ

إذا نعت ولا نسمع بمنعاكَا

ففتح للناس باب القول فقالوا، وكان له فضل سبق.

وقال أبو نواس للعباس بن الفضل يعزّيه بالرشيد، ويهتته بخلافة
الأمين:

تعزّ أبا العباس عن خير هالك

بأكرم حيّ كان أو هو كائن

حوادث أيام تدورُ صروفُها

لهنّ مساوٍ مرةً ومحاسن

وفي الحيّ بالميت الذي غيب الثرى

فلا أنت مغبونٌ ولا الموتُ غابن

٣ - فن الالتفات :

في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا...﴾ الخ، التفات على أحد

القولين، وهو مفرع على إرادة العموم من الأول، فيكون المخاطبون أولاً هم المخاطبين ثانياً، إلا أن الخطاب الأول بلفظ الغيبة، والثاني بلفظ الحضور، وأما إذا بنينا على أن الأول إنما أريد منه خصوص على التقديرين جميعاً فالثاني ليس التفاتاً، وإنما هو عدول عن خطاب خاص لقوم معينين إلى خطاب العامة، والقول في الورود على جهنم طويل يرجع فيه إلى المطولات.

* الفوائد:

نقاش طويل حول أيهم:

وعندنا كمزيد من البحث حول أيهم في قوله تعالى: ﴿لَنَزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَذَابًا﴾ قال أبو حيان في «شرح التسهيل»: وسأل الكسائي في حلقة يونس: لم لا يجوز أعجبي أيهم قام؟ فقال: أي: كذا خلقت. أي: كذا وضعت. وقال ابن السراج موجهاً قول الكسائي بالمنع ما معناه: إن أياً وضعت على العموم والإبهام، فإذا قلت: يعجبي أيهم يقوم، فكأنك قلت يعجبي الشخص الذي يقع منه القيام كائناً من كان، ولو قلت: أعجبي أيهم قام؟ لم يقع إلا على الشخص الذي قام، فأخرجها ذلك عما وضعت له من العموم؛ ولذلك يشترط في عاملها أن يكون مستقبلاً متقدماً عليها، نحو: ﴿لَنَزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ وذلك لأجل الفرق بين الشرطية والاستفهامية وبين الموصولة؛ لأن الشرطية والاستفهامية لا يعمل فيهما إلا متأخر، والمشهور عند الجمهور إفرادها وتذكيرها، وقد تؤنث وتثنى وتجمع عند بعضهم، فتقول: أية، وأيان، وأيتان، وأيون، وأيات، وهي معربة ففيل: مطلقاً، وهو قول الخليل، ويونس، والأخفش، والزجاج، والكوفيين. وقال سيبويه: تبنى على الضم إذا أضيفت لفظاً، وكان صدر صلتها ضميراً محذوفاً. وقال الزجاج مستنكراً: ما تبين لي أن سيبويه غلط إلا في موضعين هذا أحدهما، فإنه يسلّم أنها تعرب إذا أفردت، فكيف يقول ببنائها إذا أضيفت؟

وزعم المانعون أن أياً في الآية استفهامية، وأنها مبتدأ، وأشد خبره، ثم

اختلفوا في مفعول ننزع، فقال الخليل: محذوف، والتقدير: لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد، وقال يونس: المفعول الجملة، وعلقت ننزع عن العمل فيها. وقال الكسائي والأخفش: المفعول كل شيعة، ومن زائدة. وقد رد ابن هشام هذه الأقوال كلها، حيث قال: ويرد أقوالهم أن التعليق مختص بأفعال القلوب، وأنه لا يجوز أن يقال: لأضربن الفاسق بالرفع بتقدير الذي يقال فيه: هو الفاسق، وأنه لم يثبت زيادة من في الإيجاب.

ونورد هنا ما قاله أبو البقاء لوجازته وشموله، قال:

قوله: أيهم أشد يقرأ بالنصب شاذاً، والعامل فيه لننزعن، وهي بمعنى الذي، ويقرأ بالضم، وفيه قولان:

أحدهما: أنها ضمة بناء، وهو مذهب سيويه، وهي بمعنى الذي، وإنما بنيت - ها هنا - لأن أصلها البناء؛ لأنها بمعنى الذي، ومن الموصولات؛ إلا أنها أعربت حملاً على كل أو بعض، فإذا وصلت بجملة تامة بقيت على الإعراب، وإذا حذف العائد عليها بنيت لمخالفتها بقية الموصولات، فرجعت إلى حقها من البناء بخروجها عن نظائرها، وموضعها نصب بنزع الخافض.

والقول الثاني: هي ضمة الإعراب، وفيه خمسة أقوال:

أحدها: أنها مبتدأ، وأشد خبره، وهو على الحكاية، والتقدير: لننزعن من كل شيعة الفريق الذي يقال أيهم، فهو على هذا استفهام، وهو قول الخليل.

والثاني: كذلك في كونه مبتدأ وخبراً واستفهاماً، إلا أن موضع الجملة نصب بنزعن، وهو فعل معلق عن العمل، ومعناه التمييز، وهو قريب من معنى العلم الذي يجوز تعليقه، كقولك: علمت أيهم في الدار، وهو قول يونس.

والثالث: أن الجملة مستأنفة، وأي استفهام، ومن زائدة، أي: لننزعن كل شيعة، وهو قول الأخفش والكسائي، وهما يجيزان زيادة من في الواجب.

والرابع: أن أيهم مرفوع بشيعة؛ لأن معناه تشيع، والتقدير: لنزاعن من كل فريق يشيع أيهم، وهو على هذا بمعنى الذي، وهو قول المبرد.

والخامس: أن نزع علقته عن العمل؛ لأن معنى الكلام معنى الشرط، والشرط لا يعمل فيما قبله، والتقدير: لنزع عنهم تشيعوا أم لم يتشيعوا، أو إن تشيعوا، ومثله لأضربن أيهم غضب، أي: إن غضبوا أو لم يغضبوا، وهو قول يحيى عن الفراء، وهو أبعدهما عن الصواب.

﴿وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۚ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ۚ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۚ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ هَدَىٰ الصَّالِحِينَ الْبَقِيَّةَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۚ﴾

☆ اللفظة:

﴿مَقَامًا﴾ بفتح الميم - اسم مكان، من قام: أو: مصدر ميمي، وقرىء مقاماً بالضم، فيكون أيضاً اسم مكان، أو مصدراً ميمياً، من أقام الرباعي المزيد، والمراد - هنا - موضع القوم.

﴿نَدِيًّا﴾: الندي: المجلس، ومجتمع القوم، وحيث يتندون. ويقال: النادي.

﴿أَثْنًا﴾: الأثاث: متاع البيت والمال، ويقال: أثّ، يثّ، ويأثّ، ويؤثّ، أثناً، وأثوئاً، وأثانة النبات أو الشعر: التفّ وكثر، فهو أثّ، وأثيث.

﴿وَرِيًّا﴾: فعل بمعنى مفعول، ومعناه: المنظر، فهو كالطحن والذبح بمعنى المطحون والمذبوح، من: رأيت على القلب، كقولهم راء في رأى، أو

من الري الذي هو النعمة والترف، من قولهم: ريان النعيم.

○ الإعراب:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الواو استئنافية، وإذا شرط مستقبل، وجملة تتلى مضافة للظرف، وعليهم متعلقان بتلى، وآياتنا نائب فاعل، وبيّنات حال من آياتنا، أي: واضحات مبينات المقاصد والمعاني، وجملة قال الذين كفروا لا محل لها لأنها جواب. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ للذين آمنوا متعلقان بقال، وجملة آمنوا صلة، وأي استفهامية مبتدأ، وخير خبر، ومقاماً تمييز، وأحسن عطف على خير، وندياً تمييز. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْثًا وَرِئَاءً﴾ كم خبرية في محل نصب مفعول أهلكنا، وأهلكنا فعل وفاعل، ومن قرن تمييز غير صريح لكم؛ لأن تمييز كم الخبرية كثيراً ما يكون مجروراً بمن، وسيأتي تفصيل لذلك. وهم مبتدأ، وأحسن خبر، والجملة في محل نصب صفة لكم الخبرية، ألا ترى أنك لو تركت هم لم يكن لك بدّ من نصب أحسن على الوصفية، هذا ما ذكره الزرخشري، وتابعه أبو البقاء على أنّ هم أحسن صفة لكم، ونصّ أصحابنا على أن كم الاستفهامية والخبرية لا توصف ولا يُوصف بها، وأثاثاً تمييز، وريئاً عطف عليه، ويجوز أن يكون صفة لقرن. ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ من اسم شرط جازم مبتدأ، وكان فعل الشرط، وهو فعل ماض ناقص، واسمها مستتر يعود على من، وفي الضلالة خبر كان، والفاء رابطة للجواب، واللام لام الأمر، ويمدد فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وله متعلقان بيمدد، والرحمن فاعل، ومدّاً مفعول مطلق ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ حتى حرف غاية وجر متعلق بالجواب، وهو: فسيعلمون، وقيل: مستأنفة، أي: تبدأ بعدها الجمل. قال الشهاب في «حاشية البيضاوي»: وحتى - هنا - حرف ابتداء، أي تبدأ بعدها الجمل، أي: تستأنف، فليست جارة ولا عاطفة، وهكذا حيث دخلت على إذ الشرطية، وجملة رأوا مضافة للظرف، وما مفعول به، وجملة يوعدون صلة،

وإما حرف شرط وتفصيل، والعذاب والساعة بدل من ما، والمعنى: يستمرون في الطغيان إلى أن يعلموا إذا رأوا العذاب أو الساعة من هو شر مكاناً، وأضعف جنداً ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ الفاء واقعة في جواب إذا، وهذا ما يرجح جعل إذا للغاية، وسيعلمون فعل مضارع مرفوع، والواو فاعل، ومن موصولة مفعول به، وهو مبتدأ، وشر خبر، والجملة صلة، ويجوز أن تكون من استفهامية في محل رفع بالابتداء، وهو مبتدأ ثان، وشر خبر المبتدأ الثاني، وهو وخبره خبر من، وعندئذ تكون الجملة معلقة لفعل الرؤية فالجملة في محل نصب مفعول يعلمون ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ لك أن تجعل الواو استئنافية، فتكون الجملة مستأنفة، ولك أن تجعلها عاطفة، فتعطف الجملة على جملة الشرط المحكية بالقول، أي: وقل يزيد الله، ويزيد الله الذين اهتدوا فعل مضارع وفاعل ومفعول به، وجملة اهتدوا صلة، وهدي تمييز أو مفعول به ثان ليزيد. ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ والباقيات مبتدأ، والصالحات صفة، وخير خبر الباقيات، وعند ربك الظرف متعلق بخير، وثواباً تمييز، وخير مردأ عطف على خير ثواباً، أي: مرجعاً، وعاقبة، ومغبة.

* الفوائد:

(١) من الداخلة على التمييز:

اختلف في معنى من التي يصرح بها مع التمييز، فقليل: للتبويض، ولذلك لم تدخل في نحو: طاب نفساً؛ لأن نفساً ليست أعم من المبهم الذي انطوت عليه الجملة. وقال الشلويين: زائدة عند سيويوه لمعنى التبويض، ويدل على صحته أنه عطف على موضعها نصباً، قال الخطيئة:

طافت أمانة بالركبان آونةً يا حسنه من قوام ما ومنتقبا

وأمانة - بضم الهمزة - اسم امرأة، وآونة بالمد نصب على الظرفية، والشاهد في قوله من قوام، فإنه تمييز جر بمن الزائدة في الكلام الموجب،

ولهذا عطف منتقياً على محلها بالنصب، وما زائدة لتوكيد الكلام. وقال ابن هشام: إنها لبيان الجنس، وقد سبقه الزخشي إلى ذلك؛ لأن المشهور من مذاهب النحويين ما عدا الأخفش أن من لا تزداد إلا في غير الإيجاب.

(٢) معنى التفضيل:

قل: ما معنى التفضيل في قوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾؟ وهل ثمة من شك؟ وهل للمفاخر شرك في الثواب والمرد؟ وأجيب بجوابين:

أولهما: أنه من وجيز كلامهم، يقولون: الصيف أحر من الشتاء في برده.

وثانيهما: أن اسم التفضيل ذكر على سبيل المشاكلة لكلامهم السابق. وقال الشهاب في حاشيته على البيضاوي: وهذا جواب عما تخيل كيف فضلوا عليهم في خيرية الثواب والعاقبة، والتفضيل يقتضي المشاركة، وهم لا ثواب لهم، وعاقبتهم لا خير فيها.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۚ ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۚ ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۚ ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۚ ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۚ ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۚ ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوزُّهُمْ أَزًّا ۚ ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ۚ ﴿٨٤﴾﴾

☆ اللغة:

﴿أَطَّلَعَ﴾: أصله: أطلع، حذف همزة الوصل، وبقيت همزة الاستفهام المفتوحة، واطلع يتعدى بنفسه وبحرف الجر، يقال: اطلع الأمر، وعليه: علمه، ويقال أيضاً: اطلع طلع العدو - بكسر الطاء وسكون اللام -: عرف

باطن أمرهم . وقد توهم بعضهم أنه لا يتعدى إلا بعلى ، فأعرب الغيب بنزع الخافض ، وإنما هو من قولهم : اطلع الجبل ؛ إذا ارتقى إلى أعلاه ، وطلع الثنية ، قال جرير :

إني إذا مُضِرَّ عليَّ تحدَّثْتُ لا قَيْتُ مُطَّلِعِ الجِبَالِ وعُورا

فمطلع اسم مكان من اطلع المشدّد، أصله : اطلع على بناء الافتعال ، فقلبت التاء طاء ، وأدغمت فيما قبلها ، وهو في البيت نصب على الظرفية . والوعور : جمع وعر ، أي : صعب ، مفعول لا قيت ، أو مطلع هو المفعول به ، ووعوراً حال . يقول : إذا تقولت عليّ مضر مالا أرتضيه ، أو حدثتها نفسها بقتلي تمرّست بالصعاب ولا أبالي بها . وسيأتي مزيد بحث عن استعمالها في الآية في باب البلاغة .

﴿وَنَمِدُّ﴾ : مضارع مَدَّ الشيء يمدّه ، من باب نصر ، أطاله ، وبسطه ، وجذبه ، ومدّ الحبل فامتدّ ، وهذا ممدّ الحبل ، قال ابن مقبل :

وللشمس أسبابٌ كأنَّ شعاعها مَمَدَّ حبالٍ في خباء مطنّب

وتمدّد الأديم ، وطراف ممدّد ، وأمد الجيش ، وضم إليه ألف رجل مدداً ، وللميم مع الدال خاصة التمدد ، كأن أصل المادة يشمل غيرها من الفروع ، وهذه من ميزات لغتنا العربية الخالدة ، ويقال : مدحه ، وامتدحه : أطال الشئ عليه ، ومدخ فلاناً - بالخاء المعجمة - : أمدّه بالعون خيراً كان أم شراً عمله ، وتمدخ : تكبر ، وتطاول . ولا يخفى ما في الكبرياء والتطاول من تمدّد ، وانتفاخ ، ومدر المكان : طاله ، وامتد إليه ، ومدر الخوض : شد خصائص حجارته بالمدر ، وهو الطين العلك الذي لا يخالطه رمل ، وهو سريع الامتداد إذا طيّنت به الحائط ، أو سيعته ، ومدس الجلد ونحوه ذلك ليتمد ، ومدشت عينه : امتد عليها الظلام ، وارتخى عصبها ، ومدشت يده : نحلت ، وضوّلت ، فظهرت للرائي ممتدة لقلة اللحم عليها . والمدش - بفتحيتين - : ظلمة تمتد على العين من جوع ورخاوة عصب اليد ، وتمدل بالمنديل : شده على رأسه ، أو اعتم به وهو قريب من معنى الامتداد ، ومدّن المدائن : بناها ،

ومصرّها، وجدّد بناءها، فامتدت عرضاً وطولاً. والمدينة: مجتمع بيوت زادت وامتدت، فسميت مدينة، ومنها سميت مدينة يثرب، ومدينة السلام، أي: بغداد، والمدائن: مدينة قرب بغداد، كان فيها إيوان كسرى، وسميت بالجمع لكبرها وامتدادها، وفيها يقول البحري سينيته، ويشير إليها بقوله:

حضرت رحلي الهموم فوجّه ت إلى أبيض المدائن عني
أتسلى عن الهموم وآسى لمحلّ من آل ساسان دّرس

ومدهه، أي: مدحه، وقد تقدم. والمدى: الغاية الطويلة الممتدة، وأمدى فلاناً، وماداه: أمهله، وأمدى الرجل: تقدمت به السن وامتدت، وتمادى في غيه: دام على فعله، وامتد في فجوره. والمدية - بضم الميم -: الشفرة الكبيرة الممتدة، وهذا من غريب أمر لغتنا الشريفة.

﴿وَنَرِئُهُ﴾: أي: نسلبه منه، ونأخذه بأن نخرجه من الدنيا خالياً من ذلك، والمراد: نزوي عنه ما يقوله من أنه سيناله في الآخرة.

﴿تَوَزُّهُمْ﴾: الأز: الاستفزاز، والتهيج، وشدة الازعاج، وهذه من أغراب مواد اللغة العربية، كلها تدل على هذا المعنى. والأز أيضاً: شدة الصوت، ومنه أز الرجل أزاً وأزيراً، أي: غلا، واشتد غليانه حتى سمع له صوت. وفي الحديث: «فكان له أزيز». وفي القاموس: وأزّت القدر تؤز - بالضم - وتثر - بالكسر - أزاً وأزيراً وأزازاً - بالفتح -: اشتد غليانها. وأز النار: أوقدها، وأز الشيء: حركه شديداً. وفي اللسان والأساس وغيرهما: هالني أزيز الرعد، وصدّعني أزيز الرحي، وهزيزها، وأزه على كذا: أغراه به، وحمله عليه بإزعاج، وهو يأتز من كذا: يمتعض منه، وينزعج. وتأزر المجلس: هاج بمن فيه، جميع ذلك يدل على الحركة والانزعاج، وأزب الماء يأزب - بالضم والكسر -: جرى مسرعاً. والمثزاب: مجرى الماء، والجمع مآزيب، وأزج البيت: بناه طولاً وعرضاً، وأزحت قدمه: زلت، وأزر يأزر - بالكسر - بالشيء أحاط به، والنبات: التف، وأزره مؤازرة: عاونه، وبادر إلى إغاثته. والأزر: القوة والظهر، يقال: شد به أزره، أي: ظهره، والمثزر

معروف، ويقال: شد للأمر مئزره؛ إذا تشمر له، وسارع إليه. وأزف يأزف - بالفتح - أزفاً وأزوفاً: اقترب، وأزف الرجل: عجل، وآزفه إنزافاً: أعجله، وأزفت الآزفة: اقتربت القيامة، وفلان يمشي الآزق - بثلاث حركات - أي: يمشي سريعاً، والمأزق: المضيق، وموضع الحرب، وأزل يأزل: وقع في ضيق وشدة، وأزمه أزمأً وأزوماً: عضه، والحبل: أحكم قتله، وتآزم القوم: أصابتهم أزمة، والأزمة - بفتح الهمزة وسكون الزاي - والأزمة: الشدة والضيقة، وأزى الرجل: حاذاه، وداناه، وجلس إزاءه، أي: أمامه. وفي كل ذلك ما يدل على الحركة، وحرف الزاي إجمالاً يدل على ذلك، وما هو قريب منه، وسيأتيك ما هو معجب من غريب أمره.

﴿وَوَلَدًا﴾ : الولد: اسم مفرد قائم مقام الجمع، والولد بضم الواو وسكون، وقد قرئ بها بمعنى الولد، فهما لغتان، وقيل: بل هي جمع الولد، نحو: أسد وأسد، وعُزب وعُرب.

○ الإعراب:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ الهمزة للاستفهام التعجبي، والفاء على حالها من التعقيب، كأنه قال: أخبرك أيضاً بقصة هذا الكافر عقب حديث أولئك، ورأيت هنا بمعنى أخبرني، وقد تقدم بحثها مفصلاً، والذي هو مفعولها الأول، وجملة كفر بآياتنا صلة، وقال عطف على كفر، لأوتين اللام جواب لقسم مقدر، ونائب الفاعل مضمّر تقديره: أنا، ومالاً مفعول به ثان لأوتين، وولداً عطف على مالاً. ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ الهمزة للاستفهام، واطلع فعل ماضٍ، وفاعله هو يعود على الكافر، قيل: هو العاصي بن وائل، وستأتي قصته في باب الفوائد، وأم حرف عطف معادل للهمزة، واتخذ فعل ماضٍ، وفاعله مستتر يعود عليه، وعند الرحمن مفعول به ثان لاتخذ، وعهداً مفعول به أول. ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ كلا حرف ردع وزجر، وفيها أقوال كثيرة سنوردها في باب الفوائد، وسنكتب فعل مضارع مرفوع، وفاعله مستتر

تقديره: نحن، وصدره بالسين من باب ما يقوله المتوعد لخصمه: سوف أنتقم منك، يعني: لا تغتر بطول الزمان فإن الانتقام آتيك، أو سنظهر له، ونعلمه أنا كتبنا، وما مفعول به، وجمله يقول صلة، ونمد عطف على نكتب، وله متعلقان بنمد، ومن العذاب حال؛ لأنه كان صفة لمدأ، ومدأ مفعول مطلق، أو مفعول به إن كان بمعنى المدد. ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ ونرثه عطف على نمد، والفاعل نحن، والهاء منصوب بنزع الخافض، وما مفعول به، والتقدير: ونرث منه ما يقوله، ويجوز أن تكون الهاء هي المفعول به، وما بدل اشتمال من الهاء، والمعنى: نرث ما عنده من المال، والأهل، والولد، وجمله يقول صلة، ويأتينا عطف على ما تقدم، والفاعل مستتر تقديره: هو، ونا ضمير فصل فاعل، وفرداً حال ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّكُونُوا لَهُم عَزًّا﴾ واتخذوا فعل وفاعل، وحذف المفعول الأول، وهي الأوثان المفهومة من سياق الحديث، ومن دون الله حال، وآلهة هي المفعول الثاني؛ ليكونوا اللام لام التعليل، ويكونوا فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد اللام، والواو اسمها، ولهم حال، وعزاً خبر يكونوا. ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ كلا تقدم أنها حرف ردع وزجر لتعززهم بها، سيكفرون فعل مضارع مرفوع، وعبادتهم متعلقان بيكفرون، أي: سيجحدون عبادتها، وينكرونها، فالمصدر أضيف إلى مفعوله، ويكونون عطف على يكفرون، والواو اسمها، وعليهم حال، وضدأ خبر يكونون، ووحد، وهم جمع لمحا لأصله؛ لأنه في الأصل مصدر، والمصادر لا تشن ولا تجمع، أو لأنه مفرد في معنى الجمع. وللمخشري في توحيد الضد كلام حسن سننقله في باب البلاغة. ﴿الَّذِينَ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ ألم الهمزة للاستفهام التقريري، ولم حرف نفي وقلب وجزم، وتر فعل مضارع مجزوم بلم، وفاعله أنت، وأن وما في حيزها سدّت مسد مفعولي تر، وأن واسمها، وجمله أرسلنا خبرها، والشياطين مفعول به، وجمله تؤزهم حالية، وأزاً مفعول مطلق. ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذًّا﴾ الفاء الفصيحة، أي: إن عرفت هذا كله

فلا تعجل، وعليهم متعلقان بتعجل، وإنما كافة ومكفوفة، وجملة نعدّ لهم حالة، وعداً مفعول مطلق.

□ البلاغة:

(١) الاستعارة المكنية:

١ - الاستعارة المكنية في قوله: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ﴾ فقد شبه الغيب المجهول المثلث بالأسرار بجبل شامخ الذرا، لا يرقى الطير إلى مداه، فهو مجهول تتحطم عليه آمال الذين يريدون استشفاف آفاقه، وإدراك تهاويله. ثم حذف الجبل، أي: المشبه به، وأخذ شيئاً من خصائصه ولوازمه، وهو الإطلاع، والارتقاء، واستشراف مغيباته، والغرض من هذه الاستعارة: السخرية البالغة كأنه يقول: أو بلغ هذا مع حقارته، وتفاهة أمره، وصغار شأنه أن ارتقى إلى الغيب المحجب بالأسرار المطلسم بالخفاء.

(٢) توحيد الضد:

قال الزمخشري: فإن قلت: لم وحد؟ قلت: وحد توحيد قوله ﷺ: «وهم يدّ على من سواهم» لاتفاق كلمتهم، وأنهم كشيء واحد لفرط تضامهم، وتوافقهم.

والواو في يكفرون يجوز أن تعود على الآلهة، أي: يحدون عبادتهم لها أو للمشركين، أي: ينكرونها لسوء المغبة، والمصير.

* الفوائد:

أوجه كلا:

للنحاة في هذه اللفظة مذاهب ستة:

أ - مذهب جمهور البصريين كالخليل، وسيبويه، أبي الحسن الأخفش، وأبي العباس المبرد أنها حرف ردع وزجر، وهذا معنى لاثق بها حيث وقعت في

القرآن الكريم . وقد زجر بها العشاق لائميهم ، فقال أحدهم وهو عروة بن أذينة على الأرجح :

يقلن لقد بكيت فقلت : كلاً وهل يبكي من الطرب الجليد ؟ !
ولكن أصاب سواد عيني عويد قذى له طرف حديد
فقلن : فما لدمعهما سواء أكلتا مقلتيك أصاب عود ؟

٢ - مذهب النضر بن شميل أنها حرف تصديق بمعنى نعم ، فتكون جواباً ، ولا بد حينئذ من شيء يتقدمها لفظاً ، أو : تقديرأ .

٣ - مذهب الكسائي ، وأبي بكر بن الأنباري ، ونصر بن يوسف ، وابن واصل : أنها بمعنى حقاً .

٤ - مذهب أبي عبد الله البايلي : أنهارد لما قبلها ، وهذا قريب من الأول .

٥ - أنها صلة في الكلام بمعنى إي ، كذا قيل ، وفيه نظر ؛ فإن إي حرف جواب مختص بالقسم .

٦ - أنها حرف استفتاح ، وهو قول أبي حاتم .

هذا وقد ذكرت كلاً في خمس عشرة سورة مكية ، وجملة ما ذكرت ثلاث وثلاثون مرة .

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْنِ وَفَدًا ۝٨٥ وَنَسْوَاقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا ۝٨٦﴾
لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْنِ عَهْدًا ۝٨٧ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَبْغِي لِلرَّحْنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝٩٥ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْنُ وُدًّا ۝٩٦ فَإِنَّمَا يَسْرُنْهُ لِبَاسُكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ

الْمُتَّقِينَ وَنُذِرْ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ٩٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ٩٨ ﴿٩٨﴾

☆ اللفظة:

﴿وَفَدَّ﴾: الوجد مصدر وجد، يَفِدُّ، وفدًا، ووفودًا، ووفادة، وإفادة؛ إلى أو على الأمير: قدم، وورد رسولاً، فهو وafd، وجمع وafd، وهم القوم يجتمعون، فيردون البلاد، ويفدون على الأمير ونحوه.

﴿وَرَدَّ﴾: القوم الواردون إلى الماء عطاشاً قد تقطعت أعناقهم من العطش.

﴿إِذَا﴾: - بالكسر والفتح - العجب. وقيل: العظيم المنكر، والإدّة: الشدة. وآداني الأمر: أثقلني، وعظم علي إدًا. وفي القاموس: الإد والإدّة بكسرهما: العجب، والأمر الفظيع، والداهية، والمنكر كالإدّاضح بالفتح، وأدته الداهية تؤده بالضم، وتثده بالكسر، وتأده بالفتح: دهرته.

﴿وُدَّ﴾: مودة ومحبة. وفي المصباح: وودته أوده، من باب تعب ودّأ بفتح الواو، وضمها: أحببته، والاسم: المودة، وودت لو كان كذا أيضاً، ودًا، وودادة: تمنيته. وفي المختار: الود بضم الواو وفتحها وكسرهما: المحبة، فهي مثلثة الواو، والأرجح الضم، وبها قرأ السبعة، وقرئ في غير السبعة بفتحها وكسرهما، ويحتمل أن يكون المفتوح مصدرًا، والمضموم والمكسور اسمين.

﴿لَّدَا﴾: جمع ألد، أي: شديد الخصومة، وجميل قول الزمخشري: اللد: الشداد، والخصومة بالباطل، الآخذون في كل لديد، أي: في كل شق من المراء والجدال لفرط لجاجهم. وفي الأساس: رجل ألد، وألندد، ويلندد، وفيه لدد، وقوم لُدّ، ولادّه، وملادة، ولدادًا، وهو شديد اللداد، وتركت فلانًا يتردد، ويتلدد: يتلفت. وضربه على لذيدي عنقه، وهما صفحتاهما، وضربه على متلدده على عنقه. قال:

ولو شئت نجتني من القوم جسرًا

بَعِيدَةٌ بَيْنَ الْعَجَبِ وَالْمُتَلَسِّدِ

﴿رَكْزًا﴾ : الركز: الصوت الخفي، ومنه ركز الرمح: إذا غيب طرفه في الأرض، والركاز: المال المدفون.

﴿تُحْسَنُ﴾ : - بضم التاء - مضارع أحسن، وفي المصباح: الحس والحسيس: الصوت الخفي، وحسه حساً فهو حسيس، مثل قتله قتلاً، فهو قتيل. وأحس الرجل الشيء إحساساً: علم به، يتعدى بنفسه مع الألف. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾، وربما زيدت فيه الباء فقليل: أحس به، على معنى: شعر به، وحسست به من باب قتل، لغة فيه، والمصدر: الحس بالكسر، تعدى بالباء على معنى: شعرت أيضاً.

○ الإعراب:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ الظرف منتصب بفعل محذوف، قدره بعضهم باذكر، وقدره الزمخشري بقوله: نصب يوم بمضمر، أي: يوم نحشر، ونسوق، نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف. وقال غيره: العامل فيه قوله فيما بعد «لا يملكون» وجملة نحشر مضافة إلى الظرف، وفاعل نحشر ضمير مستتر تقديره: نحن، والمتقين مفعول به، وإلى الرحمن متعلقان بنحشر، ووفداً حال، وقد تكرر ذكر الرحمن في هذه السورة ست عشرة مرة. ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ عطف على الجملة السابقة، وورداً حال أيضاً، أي: واردين، كما يرد العطاش إليهم مشاة عطاشاً يكاد يقتلهم الظما. ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير حال الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، ولا علاقة لها بالفريقين المتقدمين، فلا نافية، ويملكون فعل مضارع مرفوع، والواو فاعل تعود على الناس كلهم، والشفاعة مفعول به، وإلا أداة حصر، ومن اسم موصول محله الرفع على البدل من الواو أو النصب على الاستثناء المتصل، وجملة اتخذ صلة، وعند الرحمن ظرف متعلق بمحذوف هو المفعول الثاني لاتخذ، وعهداً هو

المفعول الأول، واختار أبو البقاء، والزمخشري أن يكون الاستثناء منقطعاً، هذا وقد اضطربت الأقوال في هذه الآية، ولهذا سنفردها بحثاً خاصاً في باب الفوائد. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ جملة اتخذ الرحمن ولداً مفعول القول، واتخذ الرحمن ولداً فعل وفاعل ومفعول به. ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ اللام موطئة للقسم، وقد حرف تحقيق، وجئتم فعل وفاعل، وشيئاً مفعول به، وإداً صفة ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ تكاد من أفعال المقاربة العاملة عمل كان، والسماوات اسمها، وجملة يتفطرن خبرها، والنون فاعل، ومنه جار ومجرور متعلقان بيتفطرن، وتنشق الأرض فعل مضارع وفاعل، وتخِرُّ الجبال فعل مضارع وفاعل، وهذا مصدر في موضع الحال، أي: مهودودة، أو مفعول مطلق؛ لأنه مصدر على غير لفظ الفعل، وإنما هو مرادفه؛ لأن الخرور هو السقوط والهدم، واختار الزمخشري أيضاً أن يكون مفعولاً لأجله، أي: لأن تهد، وهذا يستعمل متعدياً ولازماً، فعلى الوجه الأول هو متعد؛ لأنه صيغ منه معنى اسم المفعول، وعلى الثاني هو لازم؛ لأن خر لازم، ومرادفه يجب أن يكون مثله، فتأمل هذا فإنه دقيق ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ أن وما في حيزها مصدر فيه ثلاثة أوجه البدلية من الهاء في منه، فهو كقوله:

على حالة لو أن في القوم حاتماً على جوده لضعن بالماء حاتم

فقد روي حاتم مجروراً لأنه بدل من ضمير جوده - وستحدث في باب الفوائد عن هذا البيت - والنصب بنزع الخافض، والجار والمجرور في محل نصب مفعول لأجله علل الهد بدعاء الولد للرحمن، والرفع بأنه فاعل هداً، أي: هدها دعاء الولد للرحمن. ودعوا فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، وللرحمن متعلقان بدعوا، وولداً مفعول دعوا الثاني، والأول محذوف تقديره: معبودهم؛ لأن معنى دعوا سموا، وهي تتعدى لاثنين، ويجوز دخول الباء على الثاني، تقول: دعوت ولدي يزيد، ودعوت ولدي زيدا، وقال الشاعر:

دعنتي أخاها أم عمرو ولم أكن أخاها ولم أرضع لها بلبان
وقال آخر:

ألا رب من يدعى نصيحاً وإن يغب

تجذه بغيب منك غير نصيح

وقال الزمخشري: اقتصر على أحدهما الذي هو الثاني طلباً للعموم
والإحاطة بكل ما دعا له ولدأ، أو من دعا بمعنى الذي مطاوعه ما في قوله
عليه الصلاة والسلام: «من ادعى إلى غير مواليه» وقول الشاعر:

إثنا بني نهشل لا ندعي لأبٍ عنه ولا هو لا بالأبناء يشرينا
أي: لا نتسب إليه.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ الواو حالية أو عاطفة، وما نافية،
وينبغي فعل مضارع، وللرحمن متعلقان به، وأن يتخذ مصدر مؤول في محل
رفع فاعل، وولدأ مفعول به. ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ
عَبْدًا﴾ إن نافية، وكل مبتدأ، ومن مضاف إليه، وفي السموات والأرض
متعلقان بمحذوف صلة من، ويجوز أن تكون من نكرة موصوفة بالجار
والمجرور؛ لأنها وقعت بعد كل نكرة، ولعله أولى، وإلا أداة حصر، وآتى
الرحمن خبر، وعبدأ حال من الضمير المستتر في آتى. ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾
اللام موطئة للقسم، وقد حرف تحقيق، وأحصاهم فعل وفاعل مستتر
ومفعول به، وعدهم عطف على أحصاهم، وعدأ مفعول مطلق. ﴿وَكُلُّهُمْ
ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ الواو عاطفة، وكلهم مبتدأ، وآتى خبر، وكل إذا
أضيف إلى معرفة ملفوظ بها نحو كلهم وكل الناس فالمنقول أنه يجوز أن يعود
الضمير مفرداً على لفظ كل، فتقول: كلكم ذاهب، ويجوز أن يعود جمعاً
مراعاة للمعنى، فتقول: كلكم ذاهبون، أما إن حذف المضاف المعرفة،
فالمسموع من العرب الوجهان؛ لأن الأول أنكره بعضهم، ويوم القيامة ظرف
متعلق بآتى، وفردأ حال. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ إن واسمها، وجملة آمنوا صلة، وجملة عملوا الصالحات عطف

على آمنوا، وجلة سيجعل خبر إن، ولهم مفعول يجعل الثاني، والرحمن فاعل، ووداً مفعول يجعل الأول، وهذا الجعل بالنسبة للدنيا طبعاً، أي: يزرع في قلوبهم مودة من غير تودّد منهم. ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ لِّلسَّانِ لِكِتَابِهِ الْمُتَقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ الفاء الفصيحة لأنها عطفت على مقدر، كأنه قيل: بلغ هذا المنزل عليك، وبشّر به، وأنذر، فإنما يسرناه، وإنما كافة ومكفوفة، وقد أفادت التعليل لهذا المقدر، ويسرناه فعل ماض وفاعل ومفعول به، وبلسانك متعلقان بمحذوف حال، أي: جارياً، لتبشر اللام للتعليل، وتبشر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وبه متعلقان بتبشر، والمتقين مفعول به، وتنذر معطوف، وبه متعلقان بتنذر، وقوماً مفعول به، ولداً صفة ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ﴾ كم خبرية مفعول مقدم لأهلكنا، وقبلهم ظرف متعلق بأهلكنا، ومن قرن تمييز، وقد تقدم تقريره، والمراد: أمة. ﴿هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ هل حرف للاستفهام الإنكاري، وتحس فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: أنت، ومنهم حال لأنه كان صفة لأحد، ومن حرف جر زائد، وأحد مجرور بمن لفظاً مفعول به منصوب محلاً، أو حرف عطف، وتسمع عطف على تحس، ولهم حال، وركزاً مفعول به.

□ البلاغة:

انطوت خواتيم سورة مريم على فنون عديدة:

أولها: التكرار، فقد تكرر ذكر الرحمن، كما قلنا ست عشرة مرة في السورة، معظمها في خواتيمها، والفائدة فيه أنه هو الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره، وخلق لهم جميع متطلباتهم التي بها قوام معاشهم، فهل اعتبر الإنسان؟ أم لا يزال الغطاء مسدولاً على عينيه، والوقر يغشى أذنيه؟ فمن أضاف إليه ولداً جعله كالأناسي المخلوقة، وأخرجه بذلك عن استحقاق هذا الاسم الجدير به وحده.

وثانيها: الالتفات في قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ التفت من الغيبة إلى الخطاب

لمشافهتهم بالأمر المنكر الذي اجتروحه، والبدع العجيب الذي ارتكبه.

* الفوائد:

١ - قلنا: إن أقوال المعربين اضطربت في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ﴾ إلى آخر الآية، وقد اخترنا ما رأيناه - في نظرنا - أمثل الأوجه، وننقل فيما يلي لمعاً من أقوالهم مع التعليق عليها بما يناسب المقام، فقد تورط الرخشري - وجلّ المعصوم - بقوله: ويجوز أن تكون - أي الواو في يملكون - علامة للجمع كالتي في أكلوني البراغيث؛ من جهتين:

الأولى: إنه نسب إلى القرآن - وهو أبلغ الكلام - أردأ اللغات، وأشدّها نكراً، حتى لقد ضرب المثل بقبحها.

والثانية: إنه إذا جعله علامة لمن فقد كشف معناه، وأفصح بأنها متناولة جمعاً، ثم أعاد على لفظها بالافراد ضمير اتخذ، ففيه الإعادة على لفظها بعد الإعادة على معناها بما يخالف ذلك، وهو مستنكر عندهم؛ لأنه إجمال بعد إيضاح، وذلك تعكيس على طريق البلاغة، وإنما محجتها الواضحة الإيضاح بعد الإجمال.

وقال البيضاوي: «إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً» إلا من تحلّى بما يستعد به، ويستأهل أن يشفع للعصاة من الإيمان، والعمل الصالح على ما وعد الله تعالى، أو إلا من اتخذ من الله إذناً فيها، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ من قولهم: عهد الأمير إلى فلان بكذا: إذا أمره به، ومحل الرفع على البدل من الضمير، أو النصب على تقدير مضاف، أي: إلا شفاعة من أخذ. وهو شبيه بالرأي الذي جنحنا إليه، إلا أنه جنح إلى القول بأن الاستثناء منقطع.

وعبارة أبي حيان: والضمير في «لا يملكون» عائد على الخلق الدال عليهم ذكر المتقين والمجرمين إذ هم قسماء، والاستثناء متصل، ومن بدل من ذلك

الضمير، أو نصب على الاستثناء، ولا يملكون استثناء إخبار. ثم أورد أقوالاً عديدة نضرب عنها صفحاً.

وقال أبو البقاء: لا يملكون حال إلا من اتخذ في موضع نصب على الاستثناء المنقطع، وقيل: هو متصل على أن يكون الضمير في يملكون للمتقين والمجرمين، وقيل: هو في موضع رفع بدلاً من الضمير في يملكون.

وفي الكرخي شارح الجلالين: قوله - أي: الناس - قدره تمهيداً لجعل الاستثناء في قوله «إلا من اتخذ» متصلاً لدلالة ذكر الفريقين المتقين والمجرمين إذ هما قسماه، وقيل: ضمير يملكون عائد على المجرمين المراد بهم الكفار، قال بعضهم: لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم كما يملك المؤمنون. وحسبنا ما تقدم، فقد طال مجال القول.

٢ - عودة إلى بيت الفرزدق:

ونعودُ إلى بيت الفرزدق، وهو من أبيات له يعتذر عما وقع منه في السفر مع دليله عاصم العنبري، حين ضلَّ عن الطريق، والأبيات هي:

فلما تصافناً الإداوة أَجْهَشْتُ إِلَيَّ غُضُونُ الْعَنْبَرِيِّ الْجَوَاضِمِ
فجاء بجلمودٍ له مثل رأسه ليشرب ماء القوم بين الصَّرائِمِ
على حالةٍ لو أنَّ في القوم حاتمًا على جوده لَضَنَّ بالماء حاتم

والتصافن: اقتسام الماء القليل بالصفن، وهو وعاء صغير لنحو الوضوء، والإداوة: ظرف الماء، وجمعها أداوي، وإيقاع التصافن عليها مجاز؛ لأنها محل الماء، والمراد: تقاسمنا الماء، فهو مجاز مرسل علاقته المحلية. والجهش والإجهاش: تضرع الإنسان إلى غيره، وتهيته للبكاء إليه كالصبي إلى أمه وغضون الجلد: مكاسره، وإسناد الإجهاش إليها مجاز عقلي، أو مجاز مرسل علاقته المحلية أيضاً؛ لأنها محل ظهور أثره، والجراضم: واسع البطن، كثير الأكل، والمراد بالجلمود: إناء صلب كبير مثل رأسه، أي: رأس العنبري، وفيه إشارة بارعة إلى حمقه؛ لأن إفراط الرأس في العظم أمانة البلادة، وفي الصلابة أيضاً إشارة إلى ذلك، وقوله بين الصرائم جمع صريمة، وهي: منقطع

الرميل إشارة إلى أنهم كانوا في مفازة عمياء، لا ماء بها على حالة ضنكة، بحيث لو ثبت في تلك الحالة أن حاتمًا في القوم مع جوده المشهور لبخل بالماء، وعلى بمعنى في، ورواية المبرد في «كامله»: على ساعة.

* * *

سُورَةُ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طه ١ ﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشَفَى ۖ ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ۚ ﴿٣﴾ تَزِيلًا
مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۖ ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۚ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۚ ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ
السِّرَّ وَأَخْفَى ۚ ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۚ ﴿٨﴾

☆ اللغة:

﴿ الْعُلَى ﴾ : ويجوز كتابتها بالياء والألف ؛ لأن الفعل علا يعلو، وعلي
يعلو، وهي المرتبة والرفعة. وقال السيوطي وأبو البقاء: هي جمع عليا
ككبرى، وكبر، فكتبت بالياء.

﴿ اسْتَوَى ﴾ : لها في اللغة معان كثيرة، قال في القاموس: استوى الشيء:
اعتدل واستقام، يقال: سويت الشيء فاستوى، واستوى الرجل: استقام
أمره، وانتهى شبابه، وبلغ أشده، واستوى عليه: ظهر واستولى، واستوى

على ظهر الدابة: استقر، يقال: استوى على سرير الملك كناية عن التملك، واستوى إلى الشيء: قصده: واستوت به الأرض: هلك ودفن فيها، واستوى الطعام: نضج. وأصل الفعل الثلاثي سَوَى يَسْوِي سَوًى الرجل: استقام أمره.

وقال في الأساس: استوى الشيئان، وتساويا، وساوى أحدهما صاحبه وفلان يساويك في العلم، وساوى بين الشيئين، وسوى بينهما، وساويت هذا بهذا، وسويته. قال الراعي:

بَجُرْدٍ عَلَيْهِنَّ الْأَجَلَّةُ سُوِّيتَ

بضيف الشتاء والبنين الأصاغر

أي: يصونها صيانة الضيوف والأطفال. وسويت الموج فاستوى، ورزقك الله تعالى ولداً سوياً: لا داء به ولا عيب، وهما على سوية من الأمر وسواء، وفيه النصفة والسوية، وهما سَوَاء، وهم سواسية في الشر، وأنتما سيان، وما هو بسّي لك، وفعل القوم كذا، ولا سيما زيد، ومكان سَوًى: وسط بين الحدين، وجاؤوا سوى فلان وسَوَاءَهُ ﴿قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ في وسطها، وضرب سَوَاءَهُ: وسطه، وضربه على مستوى مَفْرِقَهُ، قال بعض بني أزنم:

نَحْنُ مِنْ خَيْرِ مَعَدٍّ نَسْباً وَلَنَا قَدَمًا عَلَى النَّاسِ الْمَهْلُ
إِذْ ضَرَبْنَا الصَّمَّةَ الْخَيْرَ عَلَى مُسْتَوًى مَفْرِقَهُ حَتَّى انْجَدَلُ

ورجل سَوَاءَ الْقَدَمِ: مستويها ليس لها أَحْصَص. ومن المجاز: إذا صليتُ الفجر استويتُ إليك: قصدتك قصداً لا ألوي على شيء ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ واستوى على الدابة، والفراش، والسرير، وانتهى شبابه، واستوى، واستوى على البلد. وسيأتي المراد به في الآية في باب البلاغة.

﴿الْثَرَى﴾: في المصباح: الثرى وزان الحصى: ندى الأرض، وأثرت الأرض بالألف: كثر ثراها، والثرى أيضاً: التراب الندي، فإن لم يكن ندياً فهو تراب، ولا يقال له حينئذ ثرى. وفيه أيضاً: نديت الأرض ندى، من

باب تعب، فهي ندية مثل تعب، ويعدّى بالهمز والتضعيف، وأصابها نداوة ونُدوة بالضم والتثقيل. وفي الأساس واللسان وغيرهما: شهر تُرى، وشهر تَرى، وشهر مَزعى، أي: تكون الأرض ندية أولاً، ثم تُرى الخضرة، ثم يطول النبات حتى يصلح للزراعة، وتُرى المطر التراب يثريه وهو مَثري، وثرى التراب فهو ثَرٌّ، وثرّيت التراب نديته، وثرّيت السويق.

﴿وَأَخْفَى﴾ سيأتي الكلام فيها في باب الإعراب.

○ الإعراب:

﴿طه﴾ تقدم القول في فواتح السور وإعرابها. ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ما نافية، وأنزلنا فعل وفاعل، وعليك متعلقان بأنزلنا، والقرآن مفعول به، ولتشقى اللام للتعليل، وتشقى فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وسيأتي المراد بالشقاء في باب الفوائد. ﴿إِلَّا نَذْكُرَ لِمَن يَخْشَى﴾ إلا أداة حصر، وتذكُر مفعول لأجله، والاستثناء منقطع، قال أبو البقاء: ولا يجوز أن يكون مفعولاً من أجله لأنزلنا المذكورة؛ لأنها قد تعدّت إلى مفعول له وهو لتشقى، فلا تتعدى إلى آخر من جنسه، ولا يصح أن يعمل فيها لتشقى لفساد المعنى، وقيل: تذكُر مصدر في موضع الحال، واختار الزمخشري أن تكون تذكُر مفعولاً لأجله، قال:

وكل واحد من لتشقى وتذكُر علة للفعل، إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام؛ لأنه ليس لفاعل الفعل المعلن، ففاته شريطة الانتصاب على المفعولية، والثاني جاز قطع اللام عنه، ونصبه لاستجماع الشرائط.

وعلى هذا جرى معظم المعربين والمفسرين، قال الكرخي في تعليقه على عبارة الجلال السيوطي: «أشار إلى أن الاستثناء منقطع، وأن تذكُر مفعول من أجله، والعامل أنزلناه المقدر لا المذكور وكل واحد من لتشقى وتذكُر علة لقوله ما أنزلنا وتعدى في لتشقى باللام لاختلاف العامل؛ لأن ضمير أنزلنا لله، وضمير لتشقى للنبي، فلم يتحد الفاعل، واتحد في تذكُر؛ لأن المذكور هو الله تعالى، وهو المنزل فنصب بغير لام.

وأنكر أبو علي الفارسي أن يكون مفعولاً لأجله، أو بدلاً من لتشقى قال : وإنما هو منصوب على المصدرية، أي : أنزلناه لتذكر به تذكرة، وإنما أوردنا هذه الأقوال على تباينها وتدافعها؛ لأننا لم نستطع الترجيح بينها.

﴿ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف، وتقديره : نزلناه تنزيلاً، فحذف وجوباً على حد قول ابن مالك :

والحذف حَتَّمْ مَعَ آتٍ بَدَلًا مِنْ فِعْلِهِ كَنَدَلًا اللَّذْ كَانَدَلًا

وأجاز الزمخشري فيه وجوهاً كلها واردة فقال : في نصب تنزيلاً وجوه : أن يكون بدلاً من تذكرة إذا جعل حالاً، لا إذا كان مفعولاً له ؛ لأن الشيء لا يعلل بنفسه، وأن ينصب بنزل مضمراً، وأن ينصب بأنزلنا؛ لأن معنى ما أنزلناه إلا تذكرة أنزلناه تذكرة، وأن ينصب على المدح والاختصاص، وأن ينصب بيخشى مفعولاً به، أي : أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله، وهو معنى حسن وإعراب بين «ومن متعلقان بتنزيلاً، وجمله خلق الأرض، والسموات صلة، والعلی صفة. ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ الرحمن خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هو، أو مبتدأ، وعلى العرش متعلقان باستوى، وجمله استوى خبر ثان لـ «هو» المقدر، أو خبر الرحمن، وسيأتي معنى الاستواء على العرش في باب الفوائد. ﴿لَمْ يَلَمَّْا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ له خبر مقدم، وما مبتدأ مؤخر، وفي السموات صلة، وما في الأرض عطف على ما في السموات وما بينهما كذلك، وما عطف على ما، وتحت الثرى ظرف متعلق بمحذوف صلة ما. ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِقَوْلٍ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ الواو استئنافية مسوقة لبيان شرع الله تعالى في دعائه، وإن شرطية، وتجهر فعل الشرط، وفاعله مستتر تقديره : أنت، وبالقول جار ومجرور متعلقان بتجهر، فإنه : الفاء رابطة لأن الجواب جملة اسمية، وإن واسمها، وجملة يعلم السر خبرها، وأخفى عطف على السر، أي : أخفى منه، فهو اسم تفضيل من خفي بمعنى استتر وغاب، وأجاز بعضهم أن يكون فعلاً ماضياً، أي : وأخفى الله من عباده غيبه، وعندنا أن ذلك غير جائز ؛ لأنه

من جهة اللفظ يلزم منه عطف الفعلية على الاسمية إن كان المعطوف عليه، هو الجملة الكبرى، أو عطف الماضي على المضارع إن كان المعطوف عليه الجملة الصغرى، وكلاهما دون الأحسن، ومن جهة المعنى واضح أن المقصود الحُضُّ على ترك الجهر بإسقاط فائدته من حيث إن الله يعلم السر، وما هو أخفى منه، فكيف يبقى للجهر فائدة، وكلاهما على هذا التأويل مناسب لترك الجهر، وأما إذا جعل فعلاً، فيخرج عن مقصود السياق، واعلم أنهم قد يحذفون من من افعِلْ؛ إذا أريد به التفضيل، ومعنى الفعل وهم يريدونها، فتكون كالمنطوق بها، نحو: زيد أكرم وأفضل، فلم تأت بألف ولا م، كما لم تأت بها مع من؛ لأن الوجود حكماً كالوجود لفظاً، أي: يعلم السر وأخفى منه، والذي يدل على إرادة من أن أخفى لا ينصرف، كما لا ينصرف آخر، من قولك: مررت برجل آخر؛ إذا أردت من معه وإن لم تذكره، وإنما نكره للمبالغة في الخفاء. ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الله مبتدأ، وجملة لا إله إلا هو الاسمية خبر، وقد تقدم إعراب لا إله إلا هو مفصلاً، وله خبر مقدم، والأسماء مبتدأ مؤخر، والحسنى صفة للأسماء، والجملة خبر ثان. ومعلوم أن جمع التكسير في غير العقلاء يُعامل معاملة المؤنثة الواحدة.

* الفوائد:

١ - روى التاريخ: أن أبا جهل والنضر بن الحارث قالوا له: إنك شقي؛ لأنك تركت دين آبائك، فأريد ردّ ذلك بأن دين الإسلام، وهذا القرآن هو المعلم إلى نيل كل فوز، والسبب في إدراك كل سعادة وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها. وروي أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى اسمغدت قدماء، أي: تورمت كما في الصباح، فقال له جبريل عليه السلام: أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً، ويحتمل أن يراد: لا تتعب نفسك بفرط أسفك على كفر قريش؛ إذ ما عليك إلا البلاغ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا بعد أن لم تفرط في أداء الرسالة، وإسداء الموعدة الحسنة. والشقاء يجيء في

معنى التعب . قال ابن كيسان : وأصل الشقاء في اللغة : العناء والتعب ، ومنه قول المتنبي :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

٢ - الاستثناء المنقطع :

استثناء الشيء من غير جنسه لا معنى له ، ولا مورد من ذلك ، فليس فيه «إلا» للاستثناء على سبيل الأصل ، وإنما هي بمعنى «لكن» ، وهو ما يسمونه «الاستثناء المنقطع» ومع ذلك فلا بُدَّ من الارتباط بين المستثنى منه والمستثنى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ * إِلَّا نَذْكُرَكَ لِمَنْ يَحْشَى ﴾ أي : لكن أنزلناه تذكرة ، فتذكرة مستثنى من المصدر المؤول من تشقى بأن المضمر بعد لام التعليل ؛ لأن المعنى : ما أنزلنا القرآن لشقائك .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ١ : إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ٢ : فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ٣ : إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ٤ : وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ٥ : إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ٦ : إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ٧ : فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ٨ : ﴿

☆ اللفظة :

﴿ آنَسْتُ ﴾ : أبصرت ، والإيناس : الإبصار البين الذي لا شبهة فيه ، ومنه إنسان العين ؛ لأنه يبصر به الأشياء ، وقال جرير :

إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ

قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا

يَضْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ
وَهَنَّ أضعفُ خَلَقِ اللَّهِ إِنْسَانًا
وفي قوله «إنسانا» تورية بديعة .

﴿يَقْبَسِينَ﴾ : القبس : الجذوة من النار .

﴿طَوَى﴾ : اسم علم للوادي ، ويقرأ بغير تنوين على أنه معرفة مؤنث علم للبقعة ، وقيل : هو معدول وإن لم يعرف لفظ المعدول عنه ، فكأن أصله طاوي ، فهو في ذلك كجمع وكتع . وقال في القاموس : وطوى - بالضم والكسر ، وينون - وإد بالشام . وقال علماء النحو : وأما طوى فمن منع صرفه فالمعتبر فيه التأنيث باعتبار البقعة لا العدل عن طاو ، ولأنه - أي : العدل - قد أمكن غيره ، وهو التأنيث ، فلا وجه لتكلف العدل .

﴿أُخْفِيَا﴾ : سيأتي الكلام عنها في الإعراب .

﴿فَتَرَدَّى﴾ : في «المختار» : ردي من باب صدي ، أي : هلك ، وأرداه غيره ، وردي في البئر ، تردي ، يردي : إذا سقط فيها ، أو : تهوّر من جبل .

○ الإعراب:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ الواو للاستئناف ، والجملة استئنافية مسوقة لسرد قصة موسى ؛ ليتأسى به النبي ﷺ في تحمّل أعباء النبوة ، وتكاليف الرسالة ، والصبر على مقاساة الشدائد ، ومعاناة الأهوال ، وأتاك فعل ومفعول به ، وحديث موسى فاعل ، والاستفهام للتقرير ، ومعناه : أليس قد أتاك حديث موسى ؟ وقيل معناه : قد أتاك حديث موسى . ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ الظرف متعلق بالحديث ؛ لأنه حدث أو بمضمّر تقديره : اذكر ، وجملة رأى مضاف إليها الظرف ، وناراً مفعول به ، فقال عطف على رأى ، ولأهله متعلقان بقال ، وجملة امكثوا مفعول القول ، وجملة إني تعليل للأمر بالمكوث ، وإن واسمها ، وجملة آنست خبرها ، وناراً مفعول به . ﴿لَعَلِّيَ أَنبِئُكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ لعل واسمها ، وجملة آتاكم

خبرها، ومنها متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان في الأصل صفة للقبس، أو حرف عطف، وأجد معطوف على آتيكم، وفاعل أجد مستتر تقديره: أنا، وعلى النار جار ومجرور متعلقان بأجد، وهي على مكانها للاستعلاء، على حد قول الأعشى:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرةً إلى ضوء نارٍ في يفاع تحرقُ
تُشبُّ لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمُحَلَّقُ

أي أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها، كما قال سيويه في: مررت بزيد أنه لصوق بمكان يقرب من زيد. وهدى مفعول به، أي: يهديني الطريق، ويدلني عليها. قال الفراء: أراد هادياً، فذكره بلفظ المصدر، أو عبر بالمصدر لقصد المبالغة على حذف المضاف، أي: ذا هدى. ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَى﴾ الفاء عاطفة على محذوف، والتقدير: فيمم شطر النار، ولما ظرفية حينية، أو رابطة، وأتاها فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، وجملة نودي لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم، ويا موسى حرف نداء ومنادى. ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ إن واسمها، وأنا تأكيد للضمير، أو مبتدأ، وربك خبر إني، أو خبر أنا، والجملة خبر إن، والأولى، فاخلع الفاء الفصيحة، واخلع فعل أمر، وفاعل مستتر، ونعليك مفعول به، وجملة إنك تعليل للخلع، وإن واسمها، وبالوادي خبرها، والمقدس صفة، وطوى بدل أو عطف بيان، وقد تقدم القول في منعه من الصرف، أو عدم منعه في باب اللغة. ﴿وَأَنَا اخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ الواو عاطفة، وأنا مبتدأ، وجملة اخترتك من الفعل والفاعل والمفعول به خبر، فاستمع: الفاء عاطفة، واستمع فعل أمر، والفاعل مستتر تقديره: أنت، ولما متعلقان باستمع، وجملة يوحى صلة، ويوحى بالبناء للمجهول. ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ الجملة بدل من «ما» في «لما يوحى»، وإن واسمها، وأنا تأكيد للضمير، أو مبتدأ، والله خبر إنني، أو خبر أنا، والجملة خبر إن، وجملة لا إله إلا أنا خبر ثان، فاعبديني: الفاء الفصيحة،

واعبدني فعل أمر، وفاعل مستتر، والنون للوقاية، والياء مفعول، وأقم الصلاة عطف على اعبدني، ولذكري متعلقان بأقم، وهو مصدر مضاف للمفعول، أي: لتذكرني فيها، وقيل: المصدر مضاف للفاعل، أي: لذكري إياك. ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ إن واسمها وخبرها، وأكاد فعل مضارع ناقص من أفعال المقاربة، واسمها مستتر تقديره: أنا، وجملة أخفيها خبر أي، أريد إخفاء وقتها، أو أقرب أن أخفيها، فلا أقول إنها آتية، ويجوز أن يراد أكاد أظهرها، وفعل أخفي من الأضداد، وسيرد له مزيد بحث في باب البلاغة، ولتجزى: اللام للتعليل، وتجزى فعل مضارع منصوب بأن مضمرة، وهو متعلق بأخفيها أو بآتية، وجملة أكاد أخفيها اعتراضية بينهما، وكل نفس نائب فاعل، وبما متعلقان بتجزى، وجملة تسعى صلة، ويجوز أن تكون ما مصدرية، أي: بجزاء سعيها على حذف مضاف. ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ الفاء الفصيحة، ولا ناهية، ويصدنك فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وهو في محل جزم بلا الناهية، والكاف مفعول به، وعنها متعلقان بيبصدنك، ومن فاعل وجملة لا يؤمن صلة وبها متعلقان بيؤمن، واتبع هواه فعل وفاعل مستتر ومفعول به، فتردى: الفاء فاء السببية، وتردى فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء بفتحة مقدرة على الألف.

□ البلاغة:

فن الإبهام:

في قوله تعالى: ﴿لَعَلِّيَ آتِيَكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ وهو فن رفيع ينطوي على الكثير من جلائل المعاني ودقائقها، وهو ضد الإيجاز، وضد الإطناب، وحده أن يأتي المتكلم إلى المعنى الواحد الذي يمكنه الدلالة عليه باللفظ القليل، فیدلّ عليه باللفظ الكثير، لا لقصد إفهام البليد، وسماع البعيد، ولا للتقرير والتوكيد، بل للإتيان بمعنى يتشعب إلى عدة أمور، كل واحد منها مستقل المفهومية، فقد قال: لَعَلِّيَ آتِيَكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ، ولم يبت في

الأمر ؛ لئلا يعد ما ليس بمستيقن من الوفاء به . وما أجملها حكمة تكون درساً للذين يكيلون الوعود جزافاً ، ولا يفكرون في الوفاء بها ! ثم قال : لعلّي أجد على النار هدى ، وهذا يحتوي على معنى آخر ، ثم يتشعب ، فالهداية هي المعنى الرئيسي ، ثم إن الهداية قد تكون بالنار نفسها بخاصة الإضاءة الكامنة فيها ، وإما بواسطة القوم ؛ الذين يقومون بإيقادها ، ويفهم من هذا ضمناً أنه ضلّ مع أهله الذين يرافقونه ، وهم امرأته بنت شعيب ، وقد ولدت في الطريق ابناً في ليلة شاتية مظلمة باردة ، وقيل : مثلجة ، فلما أسقط في يده آنس النار ، فقال ما قال ، ثم قد يقصد بالهداية معناها المجازي الآخر ، أي : لعلّي أهتدي بنور العلم ؛ لأن أفكار الأبرار مغمورة بالهمم ، فتبارك قائل هذا الكلام .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ إبهام ، وهو فن عجيب يقول فيه المتكلم كلاماً يحتمل معنيين متغايرين ، لا يتميز أحدهما عن الآخر ، فكلمة أخفيها أولاً تعني أمور منها :

أ - أي : أكاد أخفيها ، فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفاءها ، ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به .

ب - أكاد أخفيها عن نفسي .

ثم إنه جاء في بعض اللغات أخفاه بمعنى خفاه ، فهي من الأضداد ، أي : أكاد أظهرها لقرب وقتها ، وبه فسر قول امرئ القيس :

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لَا تَخْفِهِ وَإِنْ تَبْعَثُوا الْحَرْبَ لَا تَقْعُدِ

أي : إن تكتموا الضغائن التي بيننا نكتمها نحن أيضاً ، ولا نظهرها .

على أن أحسن محامل الآية الكريمة هو أن يكون المراد : أكاد أزيل خفاءها ، أي : أظهرها ؛ إذ الخفاء الغطاء ، وهو أيضاً ما تجعله المرأة فوق ثيابها يسترها ، ثم تقول العرب : أخفيت ؛ إذا أزلت خفاءها ، كما تقول : أشكيت ، وأعتبته ؛ إذا أزلت شكايته ، وعتبه .

قال أبو علي القالي : وقال اللحياني : خَفَيْتُ الشَّيْءَ أَخْفَيْهِ خَفِيًّا وَخُفِيًّا : إِذَا

استخرجته وأظهرته ، وأنشد لامرئ القيس :

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَدَقُّ مِنْ سَحَابٍ مُرْكَبٍ

قال أبو علي : وغيره يروي : مِنْ عَشِيٍّ مُجَلَّبٍ ، أي : مصوت . ويقال : اختفيت الشيء ، أي : أظهرته ، وأهل الحجاز يسمون النباش : المختفي لأنه يستخرج أكفان الموتى ، وأخفيت الشيء أخفيه إخفاء ؛ إذا سترته ، قال الله عز وجل : ﴿ أَكَادُ أَخْفِيهَا ﴾ وهي قراءة العامة ، أي : أظهرها . وقال أبو عبيدة : أخفيت الشيء : كتمته وأظهرته ، ويقال : دعوت الله خُفِيَةً وخَفِيَةً ، أي : في خفض .

مجموعة من الأضداد في اللغة :

هذا ، ومن الأضداد : الجلل للعظيم وَلِلْهَيْئِ ، فمن الأول قول الشاعر :

وَلِئِنْ عَفَوْتُ لَأَغْفُونَ جَلًّا وَلِئِنْ سَطَوْتُ لَأُوهِنَنَّ عَظْمِي

ومن الثاني قول امرئ القيس لما قتل أبوه :

يَقْتُلِ بَنِي أَسَدٍ رَبَّهُمْ أَلَّا كُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ جَلَلٍ

ومنها : غابر : للذاهب والآتي ، والجون : للأبيض والأسود ، واليين : للبعد والقرب ، والصريم : الليل والنهار ، والناصع : الأبيض والأسود ، والأُمم : للعظيم واليسير ، والناهل : للريان والظمان ، ووراء : بمعنى قدام وخلف ، وبعث الشيء : إذا بعته من غيرك ، وبعته : اشتريته ، وشعبت الشيء : أصلحته وشققته ، والصارخ : للمستغيث والمغيث ، والهاجد : للمصلي بالليل والنائم ، والوهدة : الارتفاع والانحدار ، والتعزيز : للإكرام والإهانة ، والتقريظ : للمدح والذم ، وترب : للغني والفقير ، والإهماد : للسرعة في السير والإقامة ، وعسces : إذا أقبل وإذا أدبر ، والقرء : للحيض والطهر .

﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَحْمُوسَىٰ ۚ ١٧ ۚ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ

بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لَنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

☆ اللغة:

﴿وَأَهْشُ﴾ : في المصباح: هَشَّ الرجل هَشًّا من باب رد: صال بعصاه، وفي التنزيل: ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ وهش الشجرة هَشًّا: ضربها ليتساقط ورقها، وهش الشيء يهش من باب تعب هشاشة: لان واسترخى، فهو هش. وهش العود يهش أيضاً هشوشاً: صار هشاً؛ سريع الكسر، وهش الرجل هشاشة: إذا ابتسم، من بابي: تعب، وضرب.

﴿جَنَاحِكَ﴾ : سيأتي تفسيرها في باب البلاغة.

○ الإعراب:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى﴾ الواو عاطفة، وما اسم استفهام للتقرير مبتدأ، وتلك خبره، وبيمينك متعلق بمحذوف حال، وهي تشبه قوله تعالى: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْحًا﴾ والعامل في الحال المقدرة اسم الإشارة، ويا موسى نداء، فما اسم نكرة في موضع رفع بالابتداء، والتقدير: أي: شيء تلك بيمينك، وهي مبنية لتضمنها همزة الاستفهام، وإنما جيء بها لضرب من الاختصار، وذلك أنك إذا قلت: ما بيدك؟ فكأنك قلت: أعصا بيدك أم سيف أم خنجر؟ ونحو ذلك مما يكون بيده، وليس عليه إجابتك عما بيده إذا لم تأت على المقصود، فجاءوا بما، وهو اسم واقع على جميع ما لا يعقل مبهم فيه، وضمّنه همزة الاستفهام، فاقتضى الجواب من أول وهلة، فكان فيه من الإيجاز ما ترى. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ هي مبتدأ، وعصاي خبره، وجملة أتوكأ عليها حالية، وقيل: مستأنفة، وأهش بها على غنمي عطف على أتوكأ عليها، وبها متعلقان بأهش، وكذلك على غنمي، وتعدية أهش بعلی يفيد معنى التهويل والتخويف للغنم. ﴿وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ

أُخْرَى ﴿ هذا هو الجواب الرابع الذي أجاب به موسى عن سؤال واحد، وسيأتي سرُّ ذلك في باب البلاغة، ولي خبر مقدم، وفيها حال، ومآرب جمع مآربة بثلاث الراء مبتدأ مؤخر، وأخرى صفة لمآرب، وهذه المآرب الأخرى سيرد قسم كبير منها في باب البلاغة، كما يرد تلخيص مفيد لكتاب العصا للجاحظ. ﴿ قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَى ﴾ جملة ألقها مقول القول، ويا موسى نداء. ﴿ فَأَلْقَنَهَا إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ ألقاها فعل وفاعل ومفعول به، والفاء عاطفة، وإذا للمفاجأة، وهل هي ظرف أم حرف؟ تقدّم بحث ذلك مفصلاً، وهي مبتدأ، وحية خبر، وجملة تسعى حال، أو خبر ثان، وقد تقدّم ذكرُ المسألة الزنبورية بين سيويه والكسائي. ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفَّ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ جملة خذها مقول القول والواو حرف عطف، ولا ناهية، وتخف فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، والسين حرف استقبال، ونعيدها فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: نحن، وسيرتها منصوب بنزع الخافض، أي: إلى سيرتها، وهذا أسهل الأعراب، وقيل: هي ظرف، قالوا: السيرة من السير كالركبة من الركوب، يقال: سار فلان سيرة حسنة، ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة، وقيل: سير الأولين فنصبت على الظرف، أي: سنعيدها في طريققتها الأولى. وأجاز آخرون كأبي البقاء، وبه بدأ أن تكون بدل اشتمال من ضمير المفعول؛ لأن معنى سيرتها: صفتها وطريققتها، وأتى الزمخشري بإعراب آخر مهّد له وحسنه قال: ووجه ثالث حسن، وهو أن يكون سنعيدها مستقلاً بنفسه غير متعلق بسيرتها، بمعنى أنها أنشئت أول ما أنشئت عصا، ثم ذهبت وبطلت بالقلب حية، فسنعيدها بعد ذهابها كما أنشأناها أولاً، ونصب سيرتها بفعل مضمر، أي: تسير سيرتها الأولى. والأولى صفة لسيرتها على كل حال. ﴿ وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ واضمم عطف على ألقها، ويدك مفعول به، والفاعل مستتر تقديره: أنت، وإلى جناحك جار ومجرور متعلقان باضمم، وتخرج جزم لأنه جواب الطلب، وببيضاء حال، ومن غير سوء متعلقان ببيضاء لما فيها من معنى الفعل، نحو: ابيضت من غير سوء، وليكون الاحتراس كاملاً كما

سيأتي في باب البلاغة، أو متعلقان بتخرج، وآية حال ثانية من فاعل تخرج أيضاً، وأخرى صفة لآية، واختار الزمخشري وجهاً آخر لنصب آية وهو: بإضممار، نحو: خذ أو دونك، وما أشبه ذلك ولا نرى داعياً لذلك. ﴿لِزُرِكَ مِنْ عَيْنِنَا الْكُبْرَى﴾ اللام للتعليل، ونريك فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وهو تعليل لمحذوف متعلق به، أي: أمرناك بما ذكرنا لنريك بها، أي: بيدك، ومن آياتنا متعلقان بمحذوف على أنه حال من الكبرى، وتكون الكبرى على هذا مفعولاً ثانياً لنريك، أو صفة للمفعول الثاني على الأصح، والتقدير: لنريك الآية الكبرى من آياتنا، أي: حال كونها من آياتنا، وقيل غير ذلك، وما ذكرناه أولى، فلا داعي لذكره.

□ البلاغة:

قد تستوعب هذه الآية أجلاً ضخمه؛ لما انطوت عليه من ضروب البلاغة، وذلك ما لانهدف إليه من كتابنا، ولكننا سنجتزئ بقدر الإمكان فنقول:

١ - فن التلخيص:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَّاكَ يَسْمِينُكَ يُمُوسَى﴾ إلى آخر ما أجاب به موسى صلوات الله عليه من الأجوبة الأربعة فن طريف، لم يرد ذكره حتى الآن، وهو فن التلخيص، وحده: إخراج الكلم مخرج التعليم بحكم أو أدب لم يرد المتكلم ذكره، وإنما قصد ذكر حكم خاص داخل في عموم الحكم المذكور الذي صرح بتعليمه. وهذا التعريف المطول نعتقد أنه يحتاج إلى بيان، وهو أن يسأل السائل عن حكم هو نوع من أنواع جنس تدعو الحاجة إلى بيانها كلها، أو أكثرها، فيعدل المسؤول عن الجواب الخاص عما سُئِلَ عنه من تبين ذلك النوع، ويحيب بجواب عام يتضمن الإبانة على الحكم المسؤول عنه وعن غيره بدعاء الحاجة إلى بيانه، فقول موسى جواباً عن سؤال الله تعالى له: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ هو الجواب الحقيقي للسؤال، ثم قال: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ فأجاب عن سؤال مقدر، كأنه توهم أن يقال له: وما تفعل

بها؟ فقال معدداً منافعها، ولم يقع ذلك من موسى عليه السلام إلا لأمر ثلاثة :

أ- بغية الشكر لله تعالى ؛ الذي رزقه تلك العصا التي وجد فيها من المآرب ما لا يُوجد في مثلها .

ب- أن المقام مقام خطاب الحبيب ، وهو يقتضي البسط والإسهاب .

ج- تعظيم مسألة ربه له عن منافعها ، فابتدأه بالجواب عن السؤال المقدر قبل وقوعه أدباً مع ربه .

والواقع أن السؤال إذا كان وارداً على شيء ظاهر ، فذلك السؤال إنما يتوجه إلى أمر يتعلق به بحسب مقتضى الحال ، وإلا كان عبثاً لظهوره ، كما إذا سألت شخصاً عن لبس ثياب السفر بقولك : ما هذا الثوب؟ فإنك لا تسأل عن نفس الثوب وما هيته ، بل إنما سألت عن سبب لبسه ، فكأنك قلت : ما سبب عزيمتك؟ فجواب اللابس حينئذ أن يقول : أريد سفر كذا ، ولو أجاب بأنه كتان مثلاً عدّ لاغياً ، فكذلك ها هنا لما كان السؤال عن أمر ظاهر ، فيكون متوجهاً إلى ما يتعلق بالعصا من منافعها ، فكأنه قال : ما تفعل بما في يمينك يا موسى؟ فلذلك قال : ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا . . . ﴾ الآية ، فإن قلت : لو كان قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ سؤالاً عما يتعلق بالعصا ، فكان حق الجواب أن يقول : أريد أن أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمي ، ولكان قوله : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ ضائعاً غير مطابق للسؤال ، كما في السؤال عن لبس السفر .

قلت : هذا السؤال وإن كان عما يتعلق بالعصا ، لكنه تعالى لما علم أنه سيرد عليها الصورة الثعبانية عند سحر السحرة ، وكان ذلك مقام أن يخاف موسى بمشاهدة الصورة المنكرة ؛ التي ليس يعهدها ، فأراد تثبيت ماهيتها وعوارضها في نفسه لئلا يدهش عند ورودها عليه ، فلذلك قال : ما تلك ليجيب عن ماهيتها أيضاً : كما يجيب عن منافعها لزيادة التثبيت ، فحاصل معنى الجواب حينئذ : هي عصاي أعرفها بالذات ، والعوارض وإن صورتها

مقررة في نفسي لا تنفع إلا منافع أمثالها، فإنني قديماً أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى.

واختار «تلك» مع قرب المشار إليه إما لتحقيره بالنسبة إلى جناب كبريائه، أو للتعظيم لاشتمالها على الأمور العجيبة، والمنافع الكثيرة.

٢ - التقرير :

وفيها أيضاً التقرير، وهو بالاستفهام، فإنه سبحانه عالم بما يمينه، وإنما أراد أن يقر موسى، ويعترف بكونها عصا، ويزداد علمه بما يمنحه الله في عصاه، فلا يعتريه شك إذا قلبها الله ثعباناً، بل يعرف أن ذلك كائن بقدرة الله، وأنه هين عليه يسير.

عصا موسى وما فيها من أقوال :

هذا؛ وقد صنف الجاحظ كتاباً سماه كتاب العصا، وهو جزيل الفائدة، ونورد فيما يلي أضماميم منه، فقد جمع الله لموسى بن عمران في عصاه من البرهانات العظام، والعلامات الجسام ما عسى أن يفني ذلك بعلامات عدة من المرسلين، قال الله تبارك وتعالى فيما يذكر في عصاه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ فلذلك قال الحسن بن هانئ - أبو نواس - في شأن خصيب وأهل مصر حين اضطربوا عليه:

منحتكم يا أهل مصر نصيحتي

ألا فخذوا من ناصح بنصيب

ولا تشبوا وثب السفاه فتركبوا

على حدّ حامي الظهر غير ركوب

فإن يك باقٍ إفك فرعون فيكم

فإنّ عصا موسى بكفّ خصيب

رماكم أمير المؤمنين بحية

أقول لحيات البلاد شروب

ألم تر أن السحرة لم يتكلفوا تغليط الناس والتمويه عليهم إلا بالعصا، ولا عارضهم موسى إلا بعصاه؟! ألا ترى أنهم لما سحروا أعين الناس، واسترهبوهم بالعصي والحبال، لم يجعل الله للحبال من الفضيلة في إعطاء البرهان ما جعل للعصا؟! وقدرة الله على تصريف الحبال في الوجوه كقدرته على تصريف العصا.

ثم تحدّث الجاحظ بأسلوبه العذب السمح عن الشجر ومنافعها مما تأتي الإشارة إليه في حينه، وأورد قصصاً مأثورة عن الانتفاع بالعصا، وما كان لها عند العرب من شأن، فأورد قصة عامر بن الظرب العدواني - حكّم العرب في الجاهلية - لما أسنّ، واعتراه النسيان أمر بنته «عمرة» أن تقرع بالعصا إذا هوفت عن الحكم، وجار عن القصد، وكانت من حكيّمات بنات العرب، حتى جاوزت في ذلك مقدار صُخر بنت لقمان، وهند بنت الحُس، وخمعة بنت حابس، وكان يقال لعامر: ذو الحلم، ولذلك قال الحارث بن وَعلة:

وَزَعَمْتُمْ أَنْ لَا حُلُومَ لَنَا إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِي الْحِلْمِ

وقال الفرزدق:

فَإِنْ كُنْتُ أَنْسَانِي حُلُومٌ مَجَاشِعُ

فَإِنَّ الْعَصَا كَانَتْ لِذِي الْحِلْمِ تُقْرَعُ

قلت:

قلت: هذا ما رواه الجاحظ بصدد قرع العصا، وليس هذا القول حاسماً، ففي أول من قرعت له العصا خلاف طويل، فقليل: هو عامر ابن الظرب كما ذكر الجاحظ، وقيل: هو قيس بن خالد ذو الجدين، وقيل: هو عمرو بن حمّة الدوسي، ولكن الأشهر ما رواه الجاحظ.

وذكر العصا عندهم يجري في معان كثيرة، تقول العرب: «العصا من العصية، والأفعى بنت حية» تريد: أن الأمر الكبير يحدث عن الأمر الصغير، ويقال: طارت عصا فلان شققاً، ويقال: فلان شق عصا المسلمين،

ولا يقال: شق ثوباً ولا غير ذلك مما يقع عليه اسم الشق، وقال المضرس الأسدي:

وأَلَقْتُ عصاها واستَقَرَّ بها النَّوى

كما قَرَّ عَيْناً بالإيابِ المسافرُ

ويقال لبني أسد «عبيد العصا» يعني: أنهم ينقادون لكل من حالفوا من الرؤساء، وتسمي العرب كل صغير الرأس «العصا»، وكان عمرو بن هبيرة صغير الرأس، قال سويد بن كراع العكلي:

فمن مبلغُ رأسِ العصا أن بيننا

ضغائن لا تُنسى وإن قَدَّمَ الدَّهرُ

وكان والبة بن الحباب الأسدي أحد من أخذ عنهم أبو نواس، وكان شاعراً ماجناً صغير الرأس، فقال أبو العتاهية في رأس والبة ورؤوس قومه:

رؤوس عصيّ كنّ من عودِ أثلة

لها قاذحٌ يفري وآخر مخرب

قلت:

قلت: هذا، وكان والبة قد هاجى بشاراً وأبا العتاهية فغلباه، وفرّ إلى الكوفة منهما، ومّا قاله في أبي العتاهية:

كان فينا يُكنى أبا إسحاق وبها الركبُ سار في الآفاق

فتكنى معتهماً بعتاه يا لها كنية أتت باتفاق

خلق اللهُ لحيّةً لك لا تنفكُ معقودةً بداءِ الحلاق

ودخل عمرو بن سعد بن أبي وقاص على عمر بن الخطاب حين رجع إليه من عمل حمص وليس معه إلا جراب، وإداوة، وقصعة، وعصا، فقال له عمر: ما الذي أرى بك من سوء الحال، أم ما تصنع؟ فقال: وما الذي تراني؟ أَلَسْتُ تراني صحيح البدن، معي الدنيا بحذافيرها؟ قال: وما معك من الدنيا؟ قال: معي جراي أحمل فيه زادي، ومعني قصعتي أغسل فيها ثوبي، ومعني إداوتي أحمل فيها مائي لشراي، ومعني عصاي إن لقيت عدواً قاتلته،

وإن لقيت حية قتلتها، وما بقي من الدنيا تبع لما معي .

ومن جميل القول في العصا وما يجوز فيها من المنافع والمرافق تفسير شعر غنية الأعرابية في شأن ابنها، وذلك أنها كان لها ابنٌ شديد العرامة، كثير التلفت إلى الناس مع ضعف أسر، ودقة عظم، فواثب مرة فتي من الأعراب فقطع الفتى أنفه، وأخذت غنية دية أنفه، فحسنت حالها بعد فقر مدقع، ثم واثب آخر، فقطع أذنه فأخذت الدية، فزادت دية أذنه في المال، وحسن الحال، ثم واثب بعد ذلك آخر فقطع شفته، فلما رأت ما قد صار عندها من الإبل والغنم والمتاع والكسب بجوارح ابنها حسن رأيها فيه، فذكرته في أرجوزة لها تقول فيها:

أحلفُ بالمروة حقاً والصفَا أنك خيرٌ من تفاريق العصا
ف قيل لابن الأعرابي: ما تفاريق العصا؟ قال: العصا تُقطع ساجوراً،
وتقطع عصا الساجور فتصير أوتاداً، ويفرق الوند فتصير كل قطعة شِظاظاً،
فإن كان رأس الشِظاظ كالعلكة صار للنجتي مهراً، وهو العود الذي يدخل
في أنف النجتي (والنجتي: الجمل الخراساني) وإذا فرق المهار جاءت منه تواد،
والسواجير تكون للكلاب والأسرى من الناس .

وسئل عن قوله: ﴿وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى﴾ قال: لستُ أحيط بجميع مآرب موسى - عليه السلام - ولكني سأنبئكم جُملاً تدخل في باب الحاجة إلى العصا من ذلك: إنها تُحمل للحية، والعقرب، والذئب، والفحل الهائج، ولعير العانة في زمن هيج الفحول، وكذلك فحول الجحور في المروج، ويتوكأ عليها الكبير الدانف، والسقيم المدنف، والأقطع الرجل، والأعرج، فإنها تقوم مقام رجل أخرى، وقال أعرابي مقطوع الرجل:

الله يعلمُ أني من رجالهم وإن تخذد عن متني أطماري
وإن رزئت يداً كانت تجملني وإن مشيتُ على زجٍّ ومسمار

والعصا تنوب للأعمى عن قائده، وهي للقصار، والفاشكار، والدباغ، ومنها المفاد للملّة (أي: الخشبة يحرك بها الرماد الحار) والمحراك للتنور، وهي

لدق الجص، والجبسين، والسسم، ولخبط الشجر، وللفيج (ساعي البريد والدولة) وللمكاري، فإنهما يتخذان المخاصر، فإذا طال الشوط، وبعدت الغاية استعانا في حضرهما وهرولتهما في أضعاف ذلك بالاعتماد على وجه الأرض، وهي تعدل من ميل المفلوج، وتقيم من ارتعاش المبرسم (المصاب بمرض البرسام) ويتخذها الراعي لغنمه، وكل راكب لمركبه، ويدخل عصاه في عروة المزود، ويمسك بيده الطرف الآخر، وربما كان أحد طرفيها بيد رجل، والطرف الآخر بيد صاحبه، وعليها حمل ثقيل، وتكون - إن شئت - وتبدأ في حائط، وإن شئت ركزتها في الفضاء، وجعلتها قبله، وإن شئت جعلتها مظلة، وإن جعلت فيها زُجاً كانت عنزة، وإن زدت فيها شيئاً كانت عكازاً، وإن زدت فيها شيئاً كانت مطرداً، وإن زدت فيها شيئاً كانت رمحاً، والعصا تكون سوطاً وسلاحاً.

ونجتزىء بما تقدم من كتاب الجاحظ، ونعود إلى مآرب موسى فقد ذكر في الكشف: وقيل في المآرب: كانت ذا شعبتين ومحجن، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين، وإذا سار ألقاها على عاتقه، فعلق بها إدواته من: القوس، والكنانة، والحلاب، وغيرها، وإذا كان في البرية ركزها، وعرض الزندين على شعبتيها، وألقى عليها الكساء، واستظل، وإذا قصر رشأؤه وصله بها، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه.

٣ - الاستعارة المكنية:

في قوله: ﴿وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ الجناح معروف، وقيل لكل ناحيتين: جناحان كجناحي العسكر، وجناحا الإنسان: جنباه، والأصل المستعار منه: جناحا الطائر، سميًا جناحين لأنه يجنحهما عند الطيران، أي: يميلهما، والمراد: إلى جنبك تحت العضد دل على ذلك قوله: ﴿تَخْرُجُ﴾.

٤ - الاحتراس والكناية:

وفي قوله: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ﴾ فن الاحتراس، وقد تقدم ذكره. والسوء: الرداءة والقبح في كل شيء، فكني به عن البرص، كما كني عن

العورة بالسوء، وكان جذيمة بن الوضاح أبرص، فكنوا عنه بالأبرص؛ لأن البرص أبغض شيء إلى العرب، وبهم عنه نفرة عظيمة، فكان جديراً أن يكنى عنه، ولا أحسن ولا ألطف من كنيات القرآن كما يأتي، ولو أنه لم يذكر من غير سوء لتوهم أن البياض قد ازداد حتى صار برصاً، فأتى بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ دفعاً لذلك التوهم.

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ٢٤ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ٢٦ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ٢٨ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ٢٩ هَٰزُونَ أَخِي ٣٠ أَشَدُّ بِهِ ٣١ أَزْرَى ٣٢ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ٣٣ كَىٰ سَعْيِكَ كَثِيرًا ٣٤ وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا ٣٥ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ٣٥﴾

☆ النِّقْطَةُ:

﴿وَزِيرًا﴾: مشتق من الوزر؛ لأنه يتحمل عن الملك أوزاره، أي: أثقاله، فهو معين على أمر الملك، وقائم بأمره، وقيل: بل هو مشتق من الوزر - بفتحين - وهو الملجأ، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾. وقيل: بل هو مشتق من المؤازرة، وهي المعاونة. وفي القاموس: الأزر: الإحاطة، والقوة، والضعف، فهو من الأضداد، والتقوية، والظهر.

○ الإِعْرَابُ:

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ اذهب فعل أمر، والفاعل مستتر تقديره: أنت، وإلى فرعون متعلقان باذهب، وإن واسمها، وجملة طغى خبرها، وجملة إنه طغى تعليلية لا محل لها ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ قال فعل ماض، وفاعله مستتر تقديره: هو، ورب منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة، واشرح فعل دعاء، ولي متعلقان باشرح، وصدري مفعول به، وذكر كلمة لي لفائدة سترد في باب البلاغة ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ عطف على اشرح لي صدري ﴿وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي﴾ عطف على اشرح، وعقدة مفعول به، ومن لساني

متعلقان بمحذوف صفة لعقدة، كأنه قيل: عقدة من عقد لساني، وسيأتي ما قيل في العقدة في باب البلاغة ﴿يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ يفقهوا فعل مضارع مجزوم؛ لأنه جواب الطلب والواو فاعل، وقولي مفعول به ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هَٰؤُلَاءِ أَخِي ﴿الواو عاطفة، واجعل فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، ولي في محل نصب مفعول ثان، ووزيراً مفعول به أول، ومن أهلي صفة لوزيراً، وهارون بدل من وزيراً، وأخي بدل من هارون، ويجوز أن يكون وزيراً مفعولاً ثانياً، وهارون مفعولاً أول، وقدم الثاني عليه اعتناء بأمر الوزارة، ولي متعلقان بمحذوف حال، أو بنفس الجعل، ومن أهلي صفة، ويجوز أن يكون وزيراً هو المفعول الأول، ومن أهلي هو الثاني، وجميع هذه الأوجه متساوية الرجحان ﴿أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿اشدد فعل دعاء، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنت، وبه متعلقان بأشدد، وأزري مفعول به، وأشركه عطف على اشدد، والهاء مفعول به، وفي أمري متعلقان بأشركه، وقرىء اشدد، وأشركه مضارعين مجزومين بالطلب ﴿كَيْ تُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ وَنَذْكَرَكَ كَثِيرًا ﴿كي حرف مصدرية ونصب واستقبال، وسيأتي بحثها في باب الفوائد، ونسبحك فعل مضارع منصوب بكي، وفاعل نسبحك ضمير مستتر تقديره: نحن، وكثيراً صفة لمصدر محذوف، أو صفة لظرف محذوف فهي مفعول مطلق، أو مفعول فيه، ونذكرك كثيراً عطف على نسبحك كثيراً ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ إن واسمها، وجملة كنت خبر، والتاء اسم كنت، وبنا متعلقان ببصيراً، وبصيراً خبر كنت.

□ البلاغة:

١ - الزيادة:

زيادة «لي» في قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَسْرِحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ والكلام تام بدونها، وقد ذكر الزمخشري سراً، ونذكر الثاني فيما بعد، قال: فإن قلت «لي» من قوله: ﴿رَبِّ أَسْرِحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ ما جدواه والكلام مستتب بدونه؟ قلت: قد أبهم الكلام أولاً، فقليل: اشرح لي، ويسر لي فعلم أن ثم

مشروحاً وميسراً، ثم بين، ورفع الإبهام بذكرهما، فكان أكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره. أما السر الثاني فهو أن تكون فائدتها: الاعتراف بأن منفعة شرح الصدر وتيسير الأمر راجعة إليه، وعائدة عليه، فإن الله - عز وجل - لا ينتفع بإرساله، ولا يستعين بشرح صدره، تعالى، وتقدس.

٢ - التنكير:

وفي تنكير العقدة من قوله تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي﴾ دلالة على أنه لم يسأله حلّ جميع عقد لسانه، بل حلّ بعضها الذي يمنع الإفهام، بدليل قوله: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ كأنه قال: واحلل عقدة من عقد لساني، وهذه العقدة ناشئة كما يُروى عن جمره وضعها في فمه وهو صغير، وقصّتها في المطولات.

* الفوائد:

بحث كي:

﴿كي﴾ أحد أحرف النصب، وهي قسمان:

١ - المصدرية، وهي الداخلة عليها اللام لفظاً نحو: ﴿لكي لا تأسوا﴾ أو تقديرأ: نحو جئتك كي تكرمني إذا قدرت الأصل لكي، وأنتك حذف اللام استغناء عنها بنيتها، فإن لم تقدر اللام فهي:

٢ - التعليلية.

فأما المصدرية فناصبة بنفسها، وأما التعليلية فجارة، والناصب بعدها أن مضمرة لزوماً في النشر، وقد تظهر في الشعر:

فقال: أكل الناس أصبحت مانحاً

لسانك كيما أن تغر وتخدعاً؟

وهذا مذهب سيوييه، والخليل، وجمهور البصريين، أما الكوفيون فيرون أن كي ناصبة دائماً تقدّمها اللام، أو لم تتقدمها.

قال أبو حيان: وأجمعوا على أنها يجوز الفصل بينها وبين معمولها بلا

النافية وما الزائدة، وأما الفصل بغير ما ذكر فلا يجوز عند البصريين .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾ ٣٦ ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ ٣٧ ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴾ ٣٨ ﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ ٣٩ ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَى ﴾ ٤٠ ﴿

☆ اللغة:

(السؤال): الطلبة، وهو فُعل بمعنى مفعول، كالخبز بمعنى المخبوز، والأكل بمعنى المأكول.

﴿ التَّابُوتِ ﴾ : الصندوق من خشب .

﴿ الْيَمِّ ﴾ : البحر، وأراد به : نهر النيل .

○ الإعراب:

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾ جملة قد أوتيت مقول القول، وأوتيت فعل ماض مبني للمجهول، والتاء نائب فاعل، وسؤلك مفعول به ثان لأوتيت .
﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ الواو استئنافية، واللام جواب للقسم المحذوف، وقد حرف تحقيق، ومننا فعل وفاعل، وعليك متعلقان بمننا، ومرة ظرف أو مفعول مطلق، وأخرى صفة لمرة . ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴾ إذ ظرف يفيد هنا التعليل، وهو متعلق بمننا، وجملة أوحينا مضافة إليها الظرف، وإلى أمك متعلقان بأوحينا، وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر هو مفعول مطلق، أو موصولة فهي نائب فاعل، وجملة يوحى صلة، وهي تفيد الإيهام، وسترده في باب البلاغة . ﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أن مفسرة لأن

الوحي بمعنى القول، واقدفيه فعل أمر وفاعل ومفعول به، وفي التابوت متعلقان باقدفيه، فاقدفيه في اليم عطف على ﴿أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ ولم تختلف الضمائر لأن المقدوف هو موسى - عليه السلام - . ﴿فَلْيَلْقِهِ إِلَيمُ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ الفاء عاطفة، واللام لام الأمر، ويلقه فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامه جزمه حذف حرف العلة، والهاء مفعول به، واليم فاعل، وهذا أمر معناه الخبر، ولكونه أمراً لفظاً جزم جوابه في قوله ﴿يَأْخُذْهُ﴾ وسيأتي مزيد بيان له في باب البلاغة، وبالساحل متعلقان بيلقه، أو بمحذوف حال، أي: متلبساً به، ويأخذه جواب الطلب، والهاء مفعول، وعدو فاعل، ولي صفة، وعدو له عطف على «عدولي». ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ الواو حرف عطف، وألقيت فعل وفاعل، وعليك متعلقان بألقيت، ومحبة مفعول به، ومني صفة لمحبة، أي: محبة عظيمة كائنة مني، فلا جرم أحبك كل من رآك، ويجوز تعليق مني بألقيت، ولتصنع: عطف على علة مضمرة مفهومة من سياق الكلام، أي: لتحب من الناس، ولتصنع: اللام للتعليل، وتصنع فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وعلى عيني حال، أي: لتربي، ويحسن إليك، وأنا مراعيك ومراقبك، وكالتك، وسيأتي بحث المجاز المرسل هنا في باب البلاغة. ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ﴾ إذ ظرف للتعليل متعلق بألقيت، أو بتصنع، أو بمحذوف تقديره: اذكر، وجملة تمشي مضاف إليها الظرف، وأختك فاعل، فتقول: عطف على تمشي، وهل حرف استفهام، وأدلكم فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: أنا، والكاف مفعول به، وعلى من متعلقان بأدلكم، وجملة يكفله صلة. ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ الفاء عاطفة على محذوف للإيجاز تقديره: فأجيبت إلى طلبها، فجاءت أمه فقبل موسى ثديها، ورجعناك فعل وفاعل ومفعول به، وإلى أمك متعلقان برجعناك، وكى حرف ناصب، وتقر منصوب بكى، وعينها فاعل، ولا تحزن عطف على كي تقر. ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَنَّكَ فَتَوَنَّأَ﴾ وقتلت فعل وفاعل، ونفساً مفعول قتل، وقد قتل موسى القبطي بمصر، واسمه قاب

قان، وكان طباحاً لفرعون، وكانت سن موسى إذ ذاك ثلاثين سنة، فنجيناك: الفاء عاطفة، ونجيناك فعل وفاعل ومفعول به، ومن الغم متعلقان بنجيناك، وفتناك فعل وفاعل ومفعول به، وفتونا مفعول مطلق إذا كان مصدراً، وهو الأرجح كالقعود، والجلوس، والشكور، والشبور، واللزوم، أو منصوب بنزع الخافض إذا كان جمع فتنة، أي: بضروب من الفتن، والمعنى: ابتليناك، وامتحانك بأنواع من الشدائد. ﴿فَلَيْتَ سَيْنَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَى﴾ الفاء عاطفة، ولبثت فعل وفاعل، وسنين ظرف زمان متعلق بلبثت، وقيل: مكث عند النبي شعيب في مدين عشر سنوات، وتزوج خلالها ابنته، وقيل ثمانياً وعشرين سنة، منها مهر ابنته، وهو عشر حجج حيث قضى أوفى الأجلين، وفي أهل مدين متعلقان بلبثت، ومدين مضاف لأهل، ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، ثم حرف عطف، وجئت فعل وفاعل، وعلى قدر حال، أي: موافقاً لما قدر لك، أو مستقراً على قدر معين، ويا موسى نداء، وقد اقتبس هذا التركيب جرير بقوله مادحاً عمر بن عبد العزيز:

أتى الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربّه موسى على قدرٍ

□ البلاغة:

فنون هذه الآيات البيانية كثيرة جداً، نورد أهمها فيما يلي:

١ - التفسير بعد الإبهام:

فأولها التفسير بعد الإبهام، وهذا النوع يؤتى به لتفخيم أمر المبهم وإعظامه؛ لأنه يطرق السمع بعد أن كان متعلقاً بشيء مبهم فتترنح الجوارح، ويذهب بلبّ السامع كل مذهب، وعلى هذا النحو جاء قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَى﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿فأبهم الكلام، وأتى به مجملاً ليتعلق الذهن، ويتطلع ما عسى أن يكون السؤال؟ وما هي المنّة الأخرى؟ وما عسى أن يردفها من منن وآلاء؟ إنه يتشوف للمعرفة، ويحاول اكتناه الحقيقة، فيأتي قوله بعد ذلك مفسراً ما أبهم، فيقول: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا

يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي الْتَابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴿٣٩﴾ فَإِنْ قُلْتَ مَا هِيَ الْمُنَّةُ الْأُولَى؟ وما هي المنّة الثانية؟ وهل بعد ذلك من ممن؟ قلت: إن مجموع المنن التي امتن الله بها على نبيه موسى ثمانى ممن:

أ- قوله ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَعَدُّوْهُمْ﴾ .

ب- قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ . . الخ

ج- قوله: ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنَيْ﴾ إلى قوله: ﴿مَنْ يَكْفُلُهُمْ﴾

د- قوله: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمَمِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾

هـ- قوله: ﴿وَقَلَّلْتَ نَفْسًا فَجِئْنَاكَ مِنَ الْغَمْرِ﴾ .

و- قوله: ﴿وَفُتْنَاكَ فُتُونًا﴾

ز- قوله: ﴿فَلَيْسَتْ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ إلى قوله: ﴿يَمُوسَى﴾

ح- قوله: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ .

٢ - الإيهام:

أما الإيهام المجرد فقوله: ﴿مَا يُوحَى﴾ وهو كثير شائع في القرآن الكريم، ومثله في الشعر قول دريد بن الصمة في رثاء أخيه:

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ

فلما علاه قال للباطل: ابعِدْ

وسيرد منه المزيد المطرب .

٣ - المجاز العقلي:

المجاز العقلي: في قوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ أسند الإلقاء إلى اليم وهو لا يعقل، ولكنه يمثل مشيئة الله وإرادته التي لا تخطيء، ولا يعزب عنها شيء، أسند إليه الإفضاء المقرر في عالم الغيب ودنيا المشيئة، كأنه ذو تمييز يطيع الأمر، ويمثل رسمه .

٤ - التنكير :

نكر المحبة ، وأسندها إليه سبحانه ، لأمرين هامين :

١ - ما في التنكير من الفخامة الذاتية ، كأنها محبة تعلو على الحب المتعارف المتبادل بين المخلوقات .

٢ - ما في إسنادها إليه من الفخامة الإضافية ، أي : محبة عظيمة مني ، قد زرعتها في القلوب ، وركزتها في السرائر ومنطويات الضمائر ، فسبحان المتكلم بهذا الكلام .

٥ - المجاز المرسل :

في قوله : ﴿ عَلَى عَيْنِي ﴾ مجاز مرسل ، فقد أراد بالعين المحبة ، أي : على المحبة مني ؛ لأن العين رائدها وسببها ، فالعلاقة السببية . قال أبو عبيدة وابن الأنباري : إن المعنى : لتغذى على محبتي وإرادتي ، تقول : أتخذ الأشياء على عيني ، أي : على محبتي ، قال ابن الأنباري : العين في هذه الآية يقصد بها قصد الإرادة والاختيار ، من قول العرب : فلان على عيني ، أي : على المحبة مني ، قيل : واللام متعلقة بمحذوف ، أي : فعلت ذلك لتصنع ، وقيل : متعلقة بالقيت .

﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۚ (٤١) أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِمَا كُنْتُمْ فِي دِينِكُمْ يُدْرِكُنِ (٤٢) أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى (٤٦) فَإِنِّيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِمَّنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) ﴾

☆ النسخة :

﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ ﴾ : اخترتك لي من بين الناس جميعاً ، وسيأتي المزيد من بحث المجاز في هذا التعبير الرشيق .

﴿ثَنِيًّا﴾ : تفترا، والونى : الفتور والتقصير، يقال : ونى يني ونياً كوعد يعد وعداً؛ إذا فتر، والاسم : الونى وهو الفتور، وونى فعل لازم لا يتعدى، وزعم بعض النحاة أنه يكون من أخوات زال وانفك، فيعمل عملهما بشرط النفي . يقال : ما ونى زيد قائماً، أي : ما زال زيد قائماً . وفي المصباح : ونى في الأمر ونياً، من باب : تعب ووعد : ضعف وفتر، فهو وان، وفي التنزيل : ﴿وَلَا ثَنِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ وتوانى في الأمر توائياً : لم يبادر إلى ضبطه، ولم يهتم به، فهو متوان، أي : غير مهتم ولا محتفل . وهو في الآية من باب وعد لأجل كسر النون، إذ لو كان من باب تعب لكان بفتحها، وقد أشار في الأساس إلى إمكان عمل هذا الفعل عمل لا يزال، قال : ولا يني يفعل : لا يزال يفعل، وامرأة وَنَاةٌ : فيها فتور . وفي القاموس : الونى : كفتى : التعب والفترة، ضد، ويمد وَنَى يني، وَنِيًّا، وَوُنِيًّا، وَوِنَاءً، وَوِنِيَّةً، وَوِنِيَّةً، وَوِنِيًّا، وتوانى هو، وناقاة وانية : فاترة طليح، وامرأة وَنَاةٌ، وَأَنَاةٌ، وَأْنِيَّةٌ : حليلة، بطيئة القيام والقعود والمشي، والمينا : مرفأ السفينة، ويمد، وجوهر الزجاج، والونية كاللؤلؤة كالوناة، أو العقد من الدر .

﴿يَقْرُطُ﴾ : يقال : قرط يقرط، من باب : قعد، علينا فلان؛ إذا عجل بمكروه .

○ الإعراب:

﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ فعل ماض وفاعل ومفعول به، ولنفسى متعلقان به . ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا ثَنِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ اذهب فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره : أنت، وأنت ضمير منفصل تأكيد للضمير المستتر، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير المراد بالاصطناع، وأخوك عطف على الضمير المرفوع، وعلامة رفعه الواو، والكاف مضاف إليه، وبآياتي حال لأن الباء للمصاحبة، أي : مصحوبين بآياتي، ومعتصمين بها، وليست للتعدية؛ لأن المراد إظهار الآيات للناس لا مجرد الذهاب إلى فرعون، والواو حرف عطف، ولا ناهية، وتنيا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، والألف فاعل، وفي ذكرى متعلقان بتنيا،

قيل: «في» هنا بمعنى عن، أي: عن عبادتي، ولم أره لأحد، فالأولى أن تبقى
 على حقيقتها من الظرفية، كأنه اشتمل على التقصير، لكن قال في المغني:
 والظاهر أن معنى ونى عن كذا: جاوزه، ولم يدخل فيه، وونى فيه: دخل
 فيه، وفتر. وهذا يرجح أنها للظرفية لا للمجازة. ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
 طَغَىٰ﴾ اذهبا فعل وفاعل، وإلى فرعون متعلقان باذهبا، وإن واسمها، وجملة
 طغى خبرها. ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ الفاء عاطفة، وقولا فعل
 أمر وفاعل، وله متعلقان بقولا، وقولا مفعول مطلق، ولينا صفة، ولعل
 واسمها، وجملة يتذكر خبرها، أو حرف عطف، ويخشى عطف على يتذكر،
 وسيأتي معنى الترجي هنا وبصورة عامة في باب الفوائد. ﴿قَالَ رَبِّنَا إِنَّا نَخَافُ
 أَنْ يُقْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْعَنَ﴾ قالوا فعل ماض وفاعل، وربنا منادى مضاف، وإن
 واسمها، وجملة نخاف خبرها، وأن وما في حيزها مفعول نخاف، وعلينا
 متعلقان بيفرط، أو حرف عطف أن يطغى عطف على أن يفرط. ﴿قَالَ لَا تَخَافَا
 إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَىٰ﴾ لا ناهية، وتخافا فعل مضارع مجزوم بلا،
 والألف فاعل، وجملة لا تخافا مقول القول، وجملة إنني معكما تعليلية لعدم
 الخوف، وإن واسمها، والظرف متعلق بمحذوف خبرها، وجملة أسمع خبر
 ثان، أو حالية، وأرى عطف على أسمع. ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾
 فأتياه: الفاء هي الفصيحة، وأتياه فعل أمر وفاعل ومفعول به، فقولا عطف
 على فأتياه، وإن واسمها، ورسولا خبرها، وربك مضاف إليه. ﴿فَارْسِلْ مَعَنَا
 بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِبْهُمْ﴾ الفاء هي الفصيحة أيضاً، وأرسل فعل أمر، والفاعل
 مستتر تقديره: أنت، ومعنا ظرف مكان متعلق بأرسل، وبني إسرائيل مفعول
 به، ولا تعذبهم: لا ناهية، وتعذبهم مجزوم بلا، والهاء مفعول به. ﴿قَدْ
 جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ جملة قد جئناك حالية جرت من
 جملة إنا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير؛ لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا
 مدعومة بالآيات والدلائل الظاهرة الدالة عليها، وقد حرف تحقيق، وجئناك
 فعل ماض وفاعل ومفعول به، وبآية متعلقان بجئناك، ومن ربك صفة لآية،
 والواو استئنافية، والسلام مبتدأ، وعلى من اتبع الهدى خبر.

* الفوائد :

اهتم العلماء اللغويون والنحاة بمعنى الرجاء في قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ وسنلخص الأوجه التي ذكرها هؤلاء ؛ لأن إيرادها بنصوصها لا يتسع له المجال ، فالرجاء يحتمل الأمور التالية :

١ - أن يكون الترجي هنا على بابه ، وذلك بالنسبة إلى المرسل وهو موسى وهارون ، أي : اذهبا على رجائكما في إيمانه ، وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ، فهو يفرغ جهده ، ويبذل ما في وسعه ، ويستحيل أن يرد ذلك في حق الله تعالى ؛ إذ هو عالم بالعواقب والمغاب ، وعن سيئويه : كل ما ورد في القرآن من لعل وعسى فهو من الله واجب . وهذا صريح في أن الترجي يستحيل بقاؤه على معناه في حق الله تعالى .

٢ - إن لعل تفيد التعليل ، فهي بمثابة كي ، وهذا قول الفراء ، قال : كما تقول : اعمل لعلك تأخذ أجرك ، أي : كي تأخذ أجرك .

٣ - إنها استفهامية ، أي : هل يتذكر ويخشى ، وهذا قول مردود ؛ لأنه يستحيل الاستفهام في حق الله تعالى .
ما يقوله النحاة :

ويقول النحاة : إن لعل للتوقع ، وعبر عنه قوم بالترجي في الشيء المحبوب ، نحو : لعل الحبيب قادم ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ والإشفاق في الشيء المكروه نحو : ﴿فَلَعَلَّكَ بَئِيعٌ نَفْسَكَ﴾ أي : قاتل نفسك ، والمعنى : أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك ، وقد تقدم بحثه . والإشفاق لغة : الخوف ، يقال : أشفقت عليه بمعنى خفت عليه ، وأشفقت منه بمعنى خفت منه ، وحذرتة .

وقال الأخفش والكسائي : وتأتي لعل للتعليل ، نحو : ما يقول الرجل لصاحبه : افرغ من عملك لعلنا نتغدى ، واعمل عملك لعلك تأخذ أجرك ، أي : لتغدى ، ولتأخذ ، ومنه : ﴿لَعَلَّكَ يَتَذَكَّرُ﴾ أي : ليتذكر ، وقال في

«المغني»: ومن لم يثبت ذلك يحمله على الرجاء، ويصرفه للمخاطبين، أي: اذهبا على رجائكما.

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ ﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْؤُسِ ۖ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ۖ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ۖ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ۖ ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ ﴿٥٣﴾ كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ۖ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٥﴾ مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۖ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٧﴾

○ الإعراب:

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ ﴾ إن واسمها، وجملة قد أوحى خبر، وإلينا متعلقان بأوحى، وأن وما في حيزها في تأويل مصدر نائب فاعل لأوحى، وأن واسمها، وعلى من خبرها، وجملة كذب صلة، وتولى عطف على كذب. ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْؤُسِ ۖ ﴾ أي: فأتياه وقالوا جميع ما ذكر، فالفاء عاطفة على مقدر، ومن اسم استفهام مبتدأ، وربكما خبر، والجملة مقول القول، ولم يذكر هارون لأنه تبع، وردء، ووزير له، وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته. ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ۖ ﴾ ربنا مبتدأ، والذي خبره، وجملة أعطى صلة، وكل شيء مفعول به أول، وخلقه مفعول به ثان، وقيل: خلقه أول مفعولي أعطى، وكل شيء ثانيهما، وقدم للاهتمام، أي: أعطى خليقته - وهي جمع الخلائق - كل شيء يحتاجون إليه، وقرىء خلقه على أنه فعل، والمفعول الثاني محذوف للعلم. ثم هدى عطف على أعطى، أي: أعطى كل شيء صورته، وأفرغه في مسلاخه الخلق بما نيظ به من خصائص، ومنافع، وهدى كل مخلوق إلى ما خلق له، وفي هذا الإيجاز كلام طويل، يطالعه القارئ في باب البلاغة. ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ۖ ﴾ الفاء عاطفة،

وما استفهام مبتدأ، وبال خبر، والقرون مضاف إليه، والأولى صفة. ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ علمها مبتدأ، وعند ربّي الظرف متعلق بمحذوف خبر، وفي كتاب حال، أو في كتاب هو الخبر، وعند ربّي حال، أو هما خبران، أو هما خبر واحد على حدّ قولك: الرمان حلّو حامض، أي: مز، وجملة لا يضل مستأنفة، وقيل: صفة لكتاب، والعائد محذوف تقديره: في كتاب لا يضلّه ربّي، أو: لا يضل حفظه ربّي، وربّي فاعل يضل ولا ينسى، عطف على لا يضل، وسيأتي في باب الفوائد ما قاله العلماء في معنى هذه الآية. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ الذي خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو، وجملة جعل صلة، ولكم حال لأنه كان صفة لمهاداً، والأرض مفعول به أول، ومهاداً مفعول به ثان، وسلك فعل ماض، والفاعل مستتر تقديره: هو، ولكم متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان صفة لسبلاً، وفيها متعلقان بسلك، وسبلاً مفعول به. ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ وأنزل عطف على ما تقدم، ومن السماء متعلقان بأنزل، وماء مفعول به، فأخرجنا: الفاء عاطفة، وأخرجنا فعل وفاعل، وبه متعلقان بأخرجنا، وأزواجاً مفعول به، ومن نبات صفة لأزواجاً، وشتى صفة لأزواجاً، أو حال منه؛ لأنه وصف، وأجاز الزنجشري أن يكون صفة للنبات ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ كلوا فعل أمر وفاعل، والجملة معمولة لحال محذوفة، أي: قائلين، أو آذنين في الانتفاع بها، مبينين أن تأكلوا بعضها، وتعلفوا بعضها، وارعوا عطف على كلوا، وأنعامكم مفعول به لارعوا، وإن حرف مشبه بالفعل، وفي ذلك خبر إن المقدم، ولآيات اللام المرحقة، وآيات اسم إن المؤخر، ولأولي النهي صفة لآيات، والنهي مضاف لأولي، وهي جمع نهيّة، وقيل: اسم مفرد ﴿وَمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ منها متعلقان بخلقناكم، وفيها متعلقان بنعيدكم، ومنها متعلقان بنخرجكم، وتارة ظرف متعلق بنخرجكم، وأخرى صفة لتارة.

□ البلاغة:

١ - الإيجاز:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ إيجاز بليغ؛ لأنه حذف جملاً لا يقع عليها الحصر لأنه ليس بالمتاح إحصاء المخلوقات الحية وغير الحية، العاقلة وغير العاقلة التي خلقها الله، ولكل منها عمله الميسر له على حدّ قوله ﷻ: «كل ميسر لما خلق له» فمن العسير، بل من المستحيل أن يتحدّث أحد عن المرتفعات العامة، وإعطاء كل مرتفق إلى صاحبه المخلوق له الذي عرف كيف يرتفق بما أعطي، وكيف يتوصل إليه، ولهذا أحسن الزخشي بقوله: والله درّ هذا الجواب ما أخصره، وما أجمعه، وما أبينه لمن ألقى الذهن، ونظر بعين الإنصاف، وكان طالباً للحق.

ثم إن للإيجاز فائدة أخرى، وهي: أن فرعون أراد أن يصرف موسى - عليه السلام - بعد أن أوشك أن يفضحه، ويبطل خرافاته، إلى ما لا يعنيه من الأمور التي لا تعلق لها بالرسالة من الحكايات والأساطير، فأجابه موسى بأن ذلك ليس من خصائص الرسالة، وإنما علمه عند ربي، فلما سأله عن ربه أوجز الكلام على هذا الشكل البديع.

٢ - الالتفات:

من الغيبة إلى لفظ التكلم على الحكاية لكلام الله - عز وجل - والفائدة منه: التنبيه على ظهور ما في الأرض من الدلالة على كمال القدرة الإلهية، والحكمة التي لا تطيش، وانقياد المخلوقات جميعاً لمشيئته، وقيل: لا الالتفات في الكلام؛ لأنه يشترط في الالتفات أن يكون في كلام المتكلم الواحد يصرف كلامه على وجوه شتى، وما نحن فيه ليس من ذلك؛ فإن الله تعالى حكى عن موسى - عليه السلام - قوله لفرعون: ﴿عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلى قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ فيما أن يجعل من قول موسى، فيكون من باب قول

خواص الملك : أمرنا ، وعمرنا ، وإنما يريدون الملك ، وليس هذا بالتفات ، وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله : ولا ينسى ، ثم ابتداء الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه ، فليس التفاتاً أيضاً ، وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب .

وقد يبدو هذا الرد وجيهاً لأول وهلة ، ولكن نذكر أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة ، فقال : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ تَبَاتٍ شَقٍ ﴾ فلما حكاها الله تعالى عنه أسند الضمير إلى ذاته ؛ لأن الحاكي هو المحكي في كلام موسى ، فمرجع الضميرين واحد ، وهذا الوجه دقيق ، وهو أقرب الوجوه إلى الالتفات .

* الفوائد :

حول ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ :

أقرب ما يقال في نفي الضلال والنسيان عن الله تعالى - وهو غني عن النفي ؛ لأنه علام الغيوب - أن يقال : هو من باب التعريض ، والمعنى : إن كل كائن محيط به علمه ، وهو مثبت عنده في كتاب ، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان ، كما يجوز عليك أيها العبد الذليل ، والبشر الضئيل ، أي : لا يضل كما تضل أنت يا مدعي الربوبية بالجهل ، والصلف ، والوقاحة .

وقال القفال : هناك فرق بين يضل وينسى ، أي : لا يضل عن الأشياء ومعرفتها ، وما علمه من ذلك لم ينسه ، فاللفظ الأول إشارة إلى كونه عالماً بكل المعلومات ، واللفظ الثاني دليل على بقاء ذلك العلم أبد الآباد ، وهو إشارة إلى نفي التغير .

هذا ، واختلف في معنى ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ على أقوال :

الأول : أنه ابتداء كلام تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين ، وقد تم الكلام عند قوله : ﴿ فِي كِتَابٍ ﴾

الثاني: أن معنى لا يضل: لا يخطيء.

الثالث: أن معناه: لا يغيب.

الرابع: أن معناه: لا يحتاج إلى كتاب، ولا يضل عنه علم شيء من الأشياء، ولا ينسى ما علمه منها.

الخامس: أن هاتين الجملتين صفة لكتاب، والمعنى: أن الكتاب غير ذاهب عن الله، ولا هوناسٍ له.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۚ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ ۚ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ۚ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَعْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ۚ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۚ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ۚ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَبِلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ۚ فَلَنَنْزِعُوهُنَّ مِنْهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرِوهُنَّ النَّجْوَىٰ ۚ قَالُوا إِن هَٰذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثُلَىٰ ۚ﴾

☆ اللفظة:

﴿ضُحًى﴾: الضحى: شروق الشمس بعد طلوعها، وقد سمّت العرب ساعات النهار بأسماء، فالأولى الذرور، ثم البروغ، ثم الضحى، ثم الغزالة، ثم الهاجرة، ثم الزوال، ثم الدلوك، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم الصبوب، ثم الحدور، ثم الغروب.

ويقال فيها: البكور، ثم الشروق، ثم الإشراق، ثم الرأد، ثم الضحى، ثم المتوع، ثم الزوال، ثم الهاجرة، ثم الأصيل، ثم العصر، ثم الطفل، ثم الغروب.

﴿فَيَسْحَرُكُمْ﴾ : يهلككم، من أسحت الرباعي، وهي لغة نجد وتميم، أي: أهلك، ويقال: سحت وهي لغة الحجاز، وأصل هذه المادة تدل على الاستقصاء والنفاذ، ومنه: سحت الخالق الشعر، أي: استقصاه فلم يترك منه شيئاً، ويستعمل في الإهلاك والإذهاب. وفي القاموس: سحت يسحت من باب فتح، وسحت بالتشديد: اكتسب السحت، أي: المال الحرام، وسحته: أهلكه، واستأصله، وذبحه، وسحت الشحم عن اللحم: قشره، وسحت وجه الأرض: محاه، وأسحته: أفسده، وأهلكه، واستأصله.

○ الإعراب:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ اللام جواب لقسم محذوف، وقد حرف تحقيق، وأريناه فعل ماض من رأى البصرية، ولكنها تعدت إلى اثنين لدخول همزة النقل عليها، ونا ضمير متصل في محل رفع فاعل، والهاء مفعول به أول، وآياتنا مفعول به ثان، وكلها تأكيد لآياتنا، فكذب وأبى عطف على أريناه، وقد مرّت آيات موسى التسع، ثم الآيتان الأخيرتان، وهما: العصا، ونزع اليد. ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَكْمُوسِي﴾ قال فعل ماض، وفاعله مستتر تقديره: هو، أي: فرعون، وجملة أجئتنا مقول القول، والهمزة للاستفهام الإنكاري، وجئنا فعل وفاعل ومفعول به، ولتخرجنا اللام للتعليل، وتخرج فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، ونا مفعول به، ومن أرضنا متعلقان بتخرجنا، وبسحرك متعلقان بتخرجنا ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ سِحْرٌ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ الفاء الفصيحة، واللام جواب قسم محذوف تقديره: والله لنأتينك، وبسحر متعلقان بنأتينك، ومثله صفة لسحر، ويجوز أن يتعلق بسحر بمحذوف حال، أي: متلبسين بسحر مثله في الغرابة يعارضه، ويدحضه، فاجعل: الفاء عاطفة، واجعل فعل أمر، وفاعله أنت، وبيننا ظرف متعلق بمحذوف مفعول به ثان، وبينك عطف، وموعداً مصدر ميمي مفعول به أول، وجملة لا نخلفه صفة لموعداً، ونحن تأكيد للضمير في نخلفه، والواو

عاطفة، ولا نافية، وأنت عطف على الضمير في نخلفه، ومكاناً بدل من موعداً بتقدير مضاف، أي: مكان موعد، أو تعرب مكاناً منصوباً بنزع الخافض، أي: في مكان، أو تنصبه بالمصدر، وهو موعد. وسوى صفة، أي: وسطاً، وهو بضم الواو وكسر ها، وهذا وجهٌ من أعاريب أخرى ستأتي في باب الفوائد. ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ موعدكم مبتدأ، ويوم الزينة خبر، وأن وما بعدها عطف على يوم الزينة، إما على اليوم فيكون محل المصدر الرفع، وإما على الزينة، فيكون محله الجر، والناس نائب فاعل، وضحى ظرف متعلق بيحشر، وسيأتي بحث يوم الزينة، والعلة في اختياره. ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ الفاء عاطفة، وتولى فعل ماض، وفرعون فاعل، فجمع عطف على فتولى، وكيده مفعول به على حذف مضاف، أي: ذوي كيده، وهم السحرة، ثم حرف عطف، وأتى عطف على جمع، وعبر بثم للدلالة على أنه استغرق وقتاً في جمع السحرة، ورسم الخطط ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَايْلَكُمْ لَا تَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قال فعل ماض، ولهم متعلقان به، وموسى فاعل، وويلكم مصدر للدعاء أمارت العرب فعله، فهو منصوب بفعل محذوف، ولا ناهية، وتفتروا فعل مضارع مجزوم بلا، وعلى الله متعلقان بتفتروا، وكذباً مفعول به. ﴿فَيَسْحَتُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ الفاء السببية، ويسحتكم مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية المسبوقة بالنهي، وبعذاب متعلقان بيسحتكم، وقد الواو حالية، وقد حرف تحقيق، وخاب فعل ماض، ومن فاعل، وجهلة افتري صلة. ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ الفاء عاطفة، وتنازعوا فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو فاعل، وأمرهم مفعول به، أو منصوب بنزع الخافض، وبينهم ظرف متعلق بمحذوف حال، وأسروا عطف على تنازعوا، والنجوى مفعول به، أي: أخفوها، أي: إنهم تشاوروا في السر ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سَحَرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ إن مخففة من الثقيلة ومهملة، وهذان اسم إشارة للمثنى في محل رفع مبتدأ، واللام الفارقة، وساحران خبر هذان، وجهلة يريدان صفة لساحران، وأن

وما في حيزها مفعول يريدان، ومن أرضكم متعلقان بيخرجاكم، بسحرهما حال، أي: متلبسين بسحرهما، ويذهبا عطف على يخرجاكم، وبطريقتكم متعلقان بيذهبا، والمثل صفة لطريقتكم.

□ البلاغة:

في قوله: ﴿لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ فن رد العجز على الصدر، وسماه المتأخرون: التصدير، وهو أخف على السمع، وأليق بالمقام، وقد تقدم البحث فيه، ونضيف هنا أن ابن المعتز قسمه ثلاثة أقسام:

الأول: ما وافق آخر كلمة في المصراع الأول آخر كلمة في المصراع الثاني، أو كانت مجانسة لها، كقول بعضهم:

يلقى إذا ما كان يوم عرمم في جيش رأي لا يقلّ عرمم
والقسم الثاني: ما وافق آخر كلمة في البيت أول كلمة منه، كقول الآخر:
سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعي الندى سريع
القسم الثالث: ما وفق آخر كلمة في البيت بعض كلمة في الصدر منه، كقوله:

سقى الرمل صوب مستهل غمامه

وما ذاك إلا حب من حبل بالرمل

وقال الشيخ زكي الدين بن أبي الإصبع: والذي يحسن أن يسمى القسم الأول: تصدير التقفية، والثاني: تصدير الطرفين، والثالث: تصدير الحشو. والأمثلة على ذلك كثيرة.

* الفوائد:

كثر اختلاف المعربين في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُمْ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا﴾ والحق أنه من معضلات التراكيب، وقد اخترنا في

الإعراب أمثل الوجوه، وأقربها إلى المنطق، وأدناها إلى السهولة، بقيت هناك أمور لا بد من إيضاحها:

موعداً: اختلف فيه على الأوجه التالية:

أ - اسم زمان، ويرجح قوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ والمعنى: عَيَّنْ لنا وقت اجتماع؛ ولذلك أجابهم بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾.

ب - اسم مكان، ويرجح قوله: ﴿مَكَانًا سَوًى﴾ والمعنى يَبِينُ لنا مكاناً معلوماً نعرفه نحن وأنت، فنأتيه.

ج - مصدر ميمي بمعنى الوعد، ويقدر مضاف محذوف، أي: مكان وعد، ويؤيد هذا قوله: ﴿لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ لأن المواعدة توصف بالخلف وعدمه، وهذا ما اخترناه.

فإن جعلته زماناً لزمك شيان: أن تجعل الزمان مخلفاً، وأن يفضل عليك ناصب مكاناً، وإن جعلته مكاناً لزمك أيضاً أن توقع الإخلاف على المكان، وألا يطابق قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ فبقي أن يجعل مصدراً بمعنى الوعد، ويقدر مضاف محذوف، أي: مكان موعد، ويجعل الضمير في نخلفه للموعد، ومكاناً بديل من المكان المحذوف.

وجوّز أبو علي الفارسي وأبو البقاء أن ينتصب مكاناً على المفعول الثاني لاجعل قالاً: وموعداً على هذا مكان أيضاً، ولا ينتصب بموعداً لأنه مصدر قد وصف، يعني: أنه يصح مفعولاً ثانياً، ولكن بشرط أن يكون الموعد بمعنى المكان ليطابق الخبر.

وجعل الحوفي انتصاب مكاناً على الظرف، وانتصابه باجعل، فتحصل في نصب مكاناً خمسة أوجه:

١ - أنه بديل من مكاناً المحذوف.

٢ - أنه مفعول ثان لاجعل.

٣ - أنه نصب بإضممار فعل.

٤ - أنه منصوب بنفس المصدر .

٥ - أنه منصوب على الظرف بنفس اجعل .

وإنما أوردنا هذه الأقوال لأنها قريبة ، ولأن استيعابها مفيد للغاية ، فتدبر .

﴿ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْعَلَى ﴾ (١٩) قَالُوا يَمْوَسَىٰ
إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يَخِيلُ
إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْعَىٰ ﴿٢١﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَىٰ ﴿٢٢﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٣﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٢٥﴾

☆ اللغة:

﴿ فَاجْمَعُوا ﴾ : أي : أزمعوا كيدكم ، واجعلوه مجمعا عليه حتى لا تختلفوا
كالمسألة المجمع عليها ، ويقال : اجمعوا الأمر ، واجمعوا عليه ، وفلانة بجمع ،
أي : عذراء ، وضربه بجمع كفه ، واستجمع لفلان أمره ، واستجمع السيل ،
واستجمع الفرس جريا ، وقال يصف السراب :

وَمُسْتَجْمَعٌ جَزِيًّا وَلَيْسَ بِيَارِحٍ تُبَارِيهِ فِي ضَاحِي الْمِتَانِ سَوَاعِدُهُ

أي : مجاريه ، واستجمع الوادي : إذا لم يبق منه موضع إلا سال . وعن
بعض العرب : الرُّمَّة وفلجٌ لا يستجمعان ، إنما يسيلان في نواحيهما
وأضواجهما ، واستجمع القوم : ذهبوا كلهم ، وجمعوا لبني فلان : إذا
حشدوا لقتالهم ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ وأجمعت القدر غليا ، قال
امرؤ القيس :

وَنَحْشُ تَحْتَ الْقِدْرِ نُوقِدُهَا بِغَضَا الْغَرِيفِ فَاجْمَعَتْ تَغْلِي

ومن الكناية: فلانة قد جمعت الثياب، أي: كبرت؛ لأنها تلبس الدرع، والخمار، والملحفة.

﴿فَأَوْجَسَ﴾: الإيجاس: الإضمار، وإيجاس الخوف: إضمار شيء منه، وكذلك توجس الصوت: تسمع نبأ يسيرة منه، وكان ذلك لطبع الجبلة البشرية.

﴿لَلْقَفْ﴾: تبتلع، وأصله: التناول بسرعة. قال في القاموس: لِفَف يَلْقَف، من باب: تعب لِقْفًا، وتلقف الشيء: تناوله بسرعة.

○ الإعراب:

﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى﴾ الفاء الفصيحة، أي: إذا كان الأمر كما ذكر من كونهما ساحرين... الخ، فأجمعوا كيدكم، واجعلوه مجمعاً بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم، وأجمعوا فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، وكيدكم مفعول به إذا اعتبرت أجمعوا متعدية، وبعضهم لم يعتبرها متعدية، فيكون كيدكم منصوباً بنزع الخافض، ثم اتوا عطف على أجمعوا، وصفاً حال، وإنما أمرهم بذلك لإدخال الرهبة في صدور الرائين، وقال أبو عبيدة: الصف: موضع المجمع، ويسمى المصلى الصف. قال الزجاج: وعلى هذا معناه: ثم اتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم، يقال: أتيت الصف بمعنى أتيت المصلى، فعلى هذا يكون انتصابه على المفعولية. وقد: الواو اعتراضية، وقد حرف تحقيق، وأفْلَحَ فعل ماضٍ، واليوم ظرف متعلق بأفْلَحَ، ومن فاعل أفْلَحَ، وجملة استعلى صلة. ﴿قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ إما حرف شرط وتفصيل، ومعناها - هنا - التخير، ولا يكون إلا بعد الطلب، وأن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بفعل محذوف، تقديره: اختر أحد الأمرين، أو مرفوع بأنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: الأمر إلقاؤك، أو مبتدأ والخبر محذوف، والتقدير: إلقاؤك أول، وإما أن تكون عطف على ما تقدم، واسم تكون مضمّر تقديره: نحن،

وأول خبرها، ومن مضاف إليه، وجملة ألقى صلة. ويجوز أن تكون أن وما في حيزها في محل نصب بفعل مضمّر، أي: اختر إلقاءك أولاً، أو إلقاءنا ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ بل حرف إضراب وعطف، وألقوا فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، فإذا الفاء عاطفة على محذوف تقديره: فألقوا، فإذا، وإذا هذه للمفاجأة، وقد تقدم أنها حرف، أو ظرف، ثم اختلف أهو ظرف مكان أو زمان، وسننقل قول الزمخشري فهو غاية الغايات، قال:

والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها، وجملة تضاف إليها خست في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً، وهو فعل المفاجأة، والجملة ابتدائية لا غير، فتقدير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ ففاجأ موسى وقت تخيل سعي جبالهم وعصيتهم، وهذا تمثيل، والمعنى: على مفاجأته جبالهم وعصيتهم بخيلة إليه السعي.

وجبالهم مبتدأ، وعصيتهم عطف عليه، وجملة يخيل إليه خبر جبالهم، وإذا جعلت إذا خبراً، فتكون جملة يخيل إليه حال، ومن سحرهم متعلقان بيخيل، وأنها: وأن واسمها، وجملة تسعى خبر أن، وأن وما بعدها في تأويل مصدر نائب فاعل ليخيل، أي: يخيل إليه سعيها، وجعل الزمخشري المصدر بدل اشتمال من الضمير في جبالهم، وعصيتهم ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ الفاء عاطفة، وأوجس فعل ماض، وفي نفسه متعلقان بأوجس، وخيفة مفعول به، وموسى فاعل ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ قلنا: فعل وفاعل، وجملة لا تخف مقول القول، ولا ناهية، وتخف فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، والفاعل مستتر تقديره: أنت، وجملة إنك مستأنفة كتعليل للنهي عن الخوف الذي ساوره لطبع البشرية من ضعف القلب، وإن كان متيقناً من أن الله ناصره، وأنهم لن يصلوا إليه بسوء، وإن واسمها، وأنت تأكيد، أو ضمير فصل، أو مبتدأ، والأعلى خبر إن، أو خبر أنت، والجملة خبر إن، وسيأتي الكلام على المبالغة في هذا التعبير في باب البلاغة. ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا

صَنَعُوا ﴿٦٤﴾ وألق: الواو عاطفة، وألق فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، والفاعل مستتر تقديره: أنت، وما مفعول به، وفي يمينك متعلقان بمحذوف صلة ما، وسيأتي سر هذا الإبهام في باب البلاغة، وتلقف جواب الطلب مجزوم وعلامة جزمه السكون، وفاعل تلقف ضمير مستتر تقديره: هي، وما مفعول به، وجملة صنعوا صلة، أي: ما زوروه، وكذبوا فيه. ﴿٦٥﴾ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرِ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَنَ ﴿٦٦﴾ تعليل لقوله تلقف، وإن واسمها، وجملة صنعوا صلة، وكيد ساحر خبر إن، وقد درج المصحف على كتابة ما متصلة بأن، ويجوز أن تكون ما مصدرية، والإعراب واحد، ولا الواو حالية، أو: عاطفة، ولا نافية، ويفلح الساحر فعل مضارع وفاعل، وحيث ظرف مكان مبني على الضم متعلق بيفلح، وجملة أتى مضافة إلى الظرف. ﴿٦٧﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٦٨﴾ الفاء عاطفة على جملة محذوفة تقديرها: فألقى موسى عصاه فتلقفت كل ما صنعوه، فألقى السحرة فعل ماض مبني للمجهول، والسحرة نائب فاعل، وسجداً حال من السحرة، قالوا فعل وفاعل، وجملة آمنا مقول القول، وهو فعل وفاعل، وبرب هارون وموسى متعلقان بآمنا.

□ البلاغة:

في هذه الآيات فنون من البيان تذهل العقول، فأولها:

١ - فن الاستدراج، وقد تقدم القول فيه، وهو بالإضافة إلى ما فيه من البلاغة ينطوي على نكت دقيقة في استدراج الخصم، واضطراره إلى الإذعان والتسليم، فقد شاء السحرة في بادئ الأمر استدراج موسى ثقة منهم بأنهم فائزون عليه، وكأنما ألهمهم الله حسن الأدب مع موسى في تخييره، وإعطائه النصفة من أنفسهم عندما قالوا: ﴿٦٥﴾ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَى ﴿٦٦﴾ ففوضوا ضرب الموعد إليه، ولكن موسى استدرجهم بإلهام من الله عز وجل أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم؛ ليكون الحق أبلغ على رؤوس الأشهاد، فيكون أفصح لكيدهم، وأهتك لسترهم، ولما

استدرجوه إلى التخيير في الإلقاء أيكون هو البادىء، أم يكونون هم البادئين، أم تدرجهم هو إلى أن يجعلهم مبتدئين بما معهم ليكون إلقاءه العصا بعد قذفاً بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، فما أروع هذا الكلام!

٢ - فن تأكيد الضميرين، وقد تتساءل: وما علاقة البحث النحوي بالبلاغة؟ والضمائر، وتوكيد بعضها لبعض مذكورة في كتب النحو، ونقول: إن المسألة أجلّ، وأسمى من النحو، والنحاة بمعزل عن هذا الفن الرفيع، ونعني بتوكيد الضميرين أن يؤكد المتصل بالمنفصل، كقولك: إنك أنت، أو يؤكد المنفصل بمنفصل مثله، كقولك أنت أنت، أو يؤكد المتصل بمتصل مثله، كقولك: إنك إنك لعالم، وإنما يؤتى بمثل ذلك في معرض المبالغة، وهو من أسرار علم البيان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ فإن إرادة السحرة الإلقاء قبل موسى لم تكن معلومة عنده؛ لأنهم لم يصرحوا بما في أنفسهم من ذلك، لكنهم لما عدلوا عن مقابلة خطابهم موسى بمثله إلى توكيد ما هو لهم بالضميرين اللذين هما نكون، ونحن دلّ ذلك على أنهم يريدون التقدم عليه، والإلقاء قبله؛ لأن من شأن مقابلة خطابهم موسى بمثله إن كان قالوا: إما أن تلقى، وإما أن نلقى؛ لتكون الجملتان متقابلتين، فحيث قالوا عن أنفسهم: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ استدل بهذا القول على رغبتهم في الإلقاء قبله، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى؛ فتوكيد الضميرين - ها هنا - في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ أنفى للخوف من قلب موسى، وأثبت للغلبة والقهر، ولو قال: لا تخف إنك الأعلى أنت الأعلى لم يكن له من التقرير والإثبات لنفي الخوف ما لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾.

وفي هذه الكلمات الثلاث ست فوائد:

١ - «إن» المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها وتأكيد، وقد نصّ علماء المعاني على أن الخبر يكون مع إن طلبياً أو إنكارياً لا ابتدائياً، كقولك:

زيد قائم، ثم تقول: إن زيداً قائم، ففي قولك: إن زيداً قائم من الإثبات لقيام زيد ما ليس في قولك: زيد قائم.

٢ - تكرير الضمير في قوله: «إِنَّكَ أَنْتَ» ولو اقتصر على أحد الضميرين لما كان بهذه المثابة في التقرير لغلبة موسى، والإثبات لقهره.

٣ - لام التعريف في قوله: ﴿الْأَعْلَى﴾ ولم يقل أعلى أو عال؛ لأنه لو قال ذلك لكان قد نكره، وكان صالحاً لكل واحد من جنسه، كقولك: رجل، فإنه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال، وإذا قلت: الرجل، فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف، وجعلته علماً فيهم، وكذلك جاء قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ أي: دون غيرك.

٤ - لفظ أفعل الذي من شأنه التفضيل، ولم يقل العالي، فهو أعلى من كل عال.

٥ - لفظ العلو الدال على أن الغلبة ثابتة له من جهة العلو، ومعلوم أن الغرض من قوله: ﴿الْأَعْلَى﴾ الغلبة، إلى أن في الأعلى زيادة، وهي كونها صادرة عن مكان عال.

٦ - الاستئناف، وهو قوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ ولم يقل: لأنك أنت الأعلى، فكان ذلك أبلغ في إيقان موسى - عليه السلام - بالغلبة والاستعلاء، وأثبت ذلك في قرارة نفسه بما لا يدع أي مجال للشك.

هذا، وقد تقدّم نوع من هذا الفن، وسيرد غيره في حينه ومواضعه إن شاء الله، بقي أن نتحدث عن اختيار موسى يوم الزينة، فما هو هذا اليوم؟

يوم الزينة:

قيل فيه: يوم عاشوراء، ويوم النيروز، ويوم عيد كان لهم في كل عام، وكانوا يتخذون فيه سوقاً، ويتزينون، ويظهرون فيه كل بهارجهم؛ إذ يحشر فيه الناس منذ ضحوة النهار حتى المساء.

٣ - فن الإبهام:

وذلك في قوله: ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ فقد أبهمها لأمرين متضادين:

أولهما: استصغار أمرها، أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصبيهم، وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي بيدك، فإنه بقدره الله تعالى يتلقفها على وحدته وكثرتها، وصغره وعظمها.

وثانيهما: تعظيم أمرها، أي: لا تعباً بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة، فإن في يمينك شيئاً هو أعظم منها كلها، فألقها تمحقها، وتطح بها بإذن الله، وقد يقول قائل: كيف يحتقر العصا؟

والجواب: إن المقصود بتحقيرها في جنب القدرة الإلهية تحقير كيد السحرة بطريق الأولى؛ لأنها إذا كانت، وهي الحقيرة الضئيلة التي لا يؤبه بها بالنسبة للقدرة الإلهية، قد طاحت بما أتوا به من أضاليل مموهة وأكاذيب مخترعة، فما ظنك بكيدهم، وأقل شيء يذهب به، وهذا معنى دقيق، قلّ من يتفطن له، وقد رmq سماءه شاعر الخلود أبو الطيب المتنبي، فقال من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار، ويذكر الأسد، وقد أعجله فضربه بسوطه:

أمعفّر الليث الهزبر بسوطه لمن أدّخرت الصّارمَ المصقُولاً؟

والمعنى: إذا كنت تلقى هذا الأسد - وهو أقوى الحيوانات، وأشجعها - بسوطك، فلمن خبأت صارمك المصقول؟

ولأصحاب البلاغة أيضاً طريق في علو المدح بتعظيم جيش عدو الممدوح، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح، وقد قهره، واستولى عليه.

وقد رmq سماءه أبو الطيب إذ وصف جيش الروم؛ الذي لاقاه سيف الدولة، فبالغ في تعظيم أمره، وتصوير عدده البالغة، والغاية هي أن يتناهى في تعظيم أمر سيف الدولة وجيشه، فقال في وصف جيش الروم:

أتوك يجزّون الحديد كأنّهم سرّوا بجياد ما لهنّ قوائم
إذا برقوا لم تعرف البيض منهم ثيابهم من مثلها والعمائم

جعل الروم يبرقون لكثرة ما عليهم من الحديد، ولم يفرق بين سيوفهم وبينهم؛ لأن على رؤوسهم البيض، والمغافر، وثيابهم الدروع، فهم كالسيوف، وأشار بهذا الوصف إلى كثرة سلاح هذا الجيش تمهيداً للإشارة إلى قوته:

خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زحفه
وفي أذنِ الجوزاءِ منه زَمَازُمُ
تجمعَ فيه كلُّ لسنٍ وأُمَّةٍ
فما تُفهِمُ الحُدَّاثَ إلا التراجُمُ
فلله وقتٌ ذَوَّبَ الغشَّ ناره
فلم يبقَ إلا صارمٌ أو ضارمٌ

وستأتي تتمّة هذا الوصف البديع في موطن آخر من مواطن البلاغة؛ التي رmq أبو الطيب سماء القرآن فيها.

❖ نكتة أخرى في الإيهام:

وهناك نكتة أخرى سوى قصد التعظيم والتحقير، وهي أن موسى - عليه السلام - أوّل ما علم أن العصا آية من الله تعالى عندما سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَكْمُوسَنِي﴾ ثم أظهر له تعالى آيتها، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها، قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذي قال الله تعالى له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ وقد أظهر له آيتها، فيكون ذلك تنبيهاً له، وتأنيساً حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها، وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت في موقف يزايل الوقار أشد النفوس قوة ورباطة.

٤ - فن التكرير:

وقد تقدّم كثيراً بحثه والإشارة إليه، وذكر نماذج رائعة منه، وسيأتي المزيد والأكثر، وهنا في هذه الآيات تكرر لفظ الإلقاء، ولكنه تكرر لم يطرّد

على وتيرة واحدة، وإنما هو لفظ واحد في معنيين متضادين متناقضين نقل بهما سبحانه عبادته من غاية الكفر والعناد، إلى نهاية الإيمان والسداد، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين! لقد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود.

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ آذَنْ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقَطِّعُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبُوا فِي جُنُودِ النَّحْلِ وَلِنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبُّهُمُ فِي جَهَنَّمَ لَمْ يَمُوتُوا فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾ ﴾

○ الإعراب:

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ آذَنْ لَكُمْ ﴾ جملة آمتم مقول القول، والقائل هو فرعون، وآتمتم: الهمزة للاستفهام والتقريع والتوبيخ، حذفت الهمزة الأولى، وسهلت الثانية، وهو فعل ماضٍ وفاعل، وله متعلقان بآتمتم، وقبل ظرف متعلق بآتمتم أيضاً، وأن آذن لكم المصدر المؤول مضاف لقبل. ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ إن واسمها، واللام المزحلقة، وكبيركم خبرها، والذي صفة، وجملة علمكم السحر صلة، والسحر مفعول به ثانٍ لعلمكم، أي: إن موسى لكبيركم، أي: معلمكم، وأستاذكم، وأعلامكم درجة في صناعة السحر، قال الكسائي: الصبي بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال: جئت من عند كبير. وقال الواحدي: والكبير في اللغة: الرئيس، ولهذا يقال للمعلم: الكبير، وأراد فرعون من ذلك إلقاء الشبهة على الناس، وإدخالها في صدورهم ليستريبوا ولا يؤمنوا، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من

موسى، ولا كان رئيساً لهم، ولا صلة بينه وبينهم ﴿فَلَا قَطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ الفاء الفصيحة، واللام موطئة للقسم، وأقطعن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والفاعل مستتر تقديره: أنا، وأيديكم مفعول به، وأرجلكم عطف على أيديكم، ومن خلاف حال بمعنى مختلفة، ومن ابتدائية؛ كأن القطع ابتدئ من مخالفة العضو للعضو. ﴿وَلَا أَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ الواو: حرف عطف، ولأصلبنكم عطف على لأقطعن، وفي الظرفية، شبه تمكن المصلوب بالجذع بتمكن المظروف في الظرف، وهو متعلق بأصلبنكم، وسيأتي مزيد بحث عنه في باب البلاغة. ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ولتعلمن عطف على لأصلبنكم، وأينا استفهامية مبتدأ، وأشد خبر، الجملة في محل نصب سادة مسدّ مفعولي تعلمن؛ لأن الفعل علق بأي الاستفهامية، ويجوز أن تكون أي موصوليّه، وبنيت لأنها أضيفت، وحذف صدر صلتها، وقد تقدمت نظائرها كثيراً، وعندئذ تكون هي المفعول به لتعلمن، وأشد خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: هو، وجملة أشد صلة الموصول، وأبقى عطف على أشد. ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾ لن حرف نفي ونصب واستقبال، ونؤثرك مضارع منصوب بلن، والكاف مفعول به، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والجملة مقول قولهم، وعلى ما متعلقان بنؤثرك، وجملة جاءنا صلة، ومن البيّنات متعلقان بمحذوف حال، والذي عطف على ما، وأخروا ذكر الباري من باب: تقديم الأدنى على الأعلى، وسيرد بحث التقديم والتأخير في باب البلاغة، وقيل: الواو للقسم، والذي مجرور بواو القسم، أي: مقسم به، وهو الله تعالى، وفطرنا صلة، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره: أقسم، وجواب القسم محذوف تقديره: لا نؤثرك على الذي جاءنا من الحق. ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الفاء الفصيحة، واقض فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنت، وما مفعول به، وأنت مبتدأ، وقاض خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، وجملة أنت قاض صلة،

والعائد محذوف، أي: قاضيه، وإنما كافة ومكفوفة على الأرجح، وتقضي فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: أنت، ومفعول تقضي محذوف تقديره: لبانتك، أو مأربك، وهذه ظرف، والحياة بدل، والدنيا صفة، والظرف متعلق بتقضي، ويجوز أن تكون ما موصولة أو مصدرية، وهي اسم إن، والخبر هو الظرف، ويجوز إعراب هذه الحياة الدنيا مفعولاً به على السعة.

﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ إن واسمها، وجملة آمنا خبرها، وبربنا متعلقان بآمننا، واللام للتعليل، ويغفر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، ولنا متعلقان بيغفر، وما عطف على خطايانا، أي: ليغفر لنا خطايانا، ويغفر لنا أيضاً الذي أكرهتنا عليه، ولك أن تجعل الواو ابتدائية، وما مبتدأ، وجملة أكرهتنا صلة، والخبر محذوف، أي: مرفوع عنا، وملقى عن كواهلنا، وعليه متعلقان بأكرهتنا، ومن السحر حال، والله مبتدأ، وخير خبر، وأبقى عطف على خير

﴿إِنَّكُمْ مِّن يَّاتٍ رَبِّكُمْ مُّجْرِمًا فَإِنَّ لَكُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ إن واسمها، ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ، ويأت فعل الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وفاعل يأت مستتر تقديره: هو، وربّه مفعول به، والهاء مضاف إليه، ومجرماً حال من فاعل يأت؛ فإن الفاء رابطة لجواب الشرط، وإن حرف مشبه بالفعل، وله خبرها المقدم، وجهنم اسمها المتأخر، وجملة لا يموت فيها حالية من الهاء في له، أو من جهنم، وفيها متعلقان بيموت، ولا يحيا عطف على يموت.

﴿وَمَن يَأْتِهِمُ مَّوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ ومن يأت مؤمناً تقدم إعراب نظيرها، وجملة قد عمل الصالحات صفة للمؤمناً، فأولئك الفاء رابطة، وأولئك اسم إشارة مبتدأ، ولهم خبر مقدم، والدرجات مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية خبر أولئك، وجملة فأولئك في محل جزم جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه خبر من، والعلی صفة للدرجات.

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن كَرِهَ جَنَاتِ عَدْنٍ مِن الدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ﴾ جنات عدن بدل من الدراجات العلی، أو خبر لمبتدأ محذوف، وجملة تجري من تحتها الأنهار صفة لجنات، وخالدين فيها حال من «من»، وفيها متعلقان بخالدين، وذلك

مبتدأ، وجزاء خبر، ومن مضاف إليه، وجملة تزكى صلة.

□ البلاغة:

معنى: ﴿وَلَا صَلَّيْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ :

قوله: ﴿وَلَا صَلَّيْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ في الكلام استعارة مكنية تبعية، وتقريرها: أنه شبه استعلاء المصلوب على الجذع بظرفية المقبور في قبره، ثم استعمل في المشبه «في» الموضوع للمشبه به، أعني: الظرفية، فجرت الاستعارة في الاستعلاء والظرفية، وبتبعيتها في على وفي، وإذا: ففي على بابها من الظرفية، وهذا أصح الأقوال فيها، وقيل: إن في بمعنى على، فلا يكون في الكلام استعارة.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى ۚ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ۚ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۚ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۚ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَبْحَيْنَكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدَكُم جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوىٰ ۚ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ۚ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾

☆ اللفظة:

﴿يَبَسًا﴾ : - بفتحين - قال في القاموس: يبس الشيء يبس، من بابي: علم، وحسب، يبساً ويُبساً، واتبس: كان رطباً فجف، فهو يبس، ويبس، ويابس، ويوس، ويبس وأيبس. وسمع بعض العرب: جمرت الخبز كي يابس ظهره: جعلت عليه الجمر، وقد يبتس: إذا ذهب نداها، وعود يابس، وعيدان يبس، والسفينة لا تجري على يبس ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ وهي ترعى اليبس، واليبس: ما يبس من النبات، فاستعمال العامة للنبات اليبس

ليطبخ في غير أوانه لا غبار عليه . ومن المجاز : قد يبس ما بينهما : إذا تقاطعا ، ولا توبس الثرى بيني وبينك . قال جرير :

أَتَغْلِبُ أُولَى حَلْفَةٍ مَا ذَكَرْتَكُمْ بِسَوْءٍ وَلَكِنِّي عَتَبْتُ عَلَى بَكْرِ
فَلَا تَوْبَسُوا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الثَّرَى فَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مُثْرِي

﴿ دَرَكًا ﴾ : - بفتحيتين - أي : أن يدركك فرعون وجنوده ، والدَّرَك والدَّرَك - بفتحيتين ، وبفتح الدال وسكون الراء - : اللحاق ، وإدراك الحاجة ، وأقصى قعر الشيء . يقال : بلغ الغواص درك البحر ، ويقال : فرس درك الطريدة ، أي : يدركها . ومنه قولهم : ما لحقك من درك فعلي خلاصه ، فاستعمال رجال الدرك صحيح لا غبار عليه .

○ الإعراب :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ الواو عاطفة ، أو استئنافية ، واللام جواب للقسم المحذوف ، وأوحينا فعل وفاعل ، وإلى موسى متعلقان بأوحينا ، وأن مفسرة ، وأسر بقطع الهمزة من أسرى ؛ فعل أمر مبني على حذف حرف العلة ، وبعبادي متعلقان بأسر ، أي : سر بهم ليلاً . ﴿ فَأَضْرَبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ فاضرب عطف على أسر ، أي : اجعل ، من قولهم : ضرب له في ماله سهماً ، وضرب اللبن عمله ، فقول العامة : ضرب لبناً لا غبار عليه . ولهم متعلقان باضرب ، أي : قائم مقام المفعول الثاني ، وطريقاً مفعول به أول ، وفي البحر صفة ، وبساً صفة ثانية ، وهو وصف لما يؤول إليه ، كما سيأتي في باب البلاغة ، أو مصدر وصف به مبالغة ، كرجل عدل وصدق ، وجملة لا تخاف حالية من فاعل اضرب ، أي : اضرب غير خائف ، أو صفة لطريقاً ، والعائد محذوف ، أي : لا تخاف فيه ، أو هي جملة مستأنفة ، والأول أظهر ، ولا نافية ، وتخاف فعل مضارع مرفوع ، وفاعله أنت ، ودركاً مفعول به ، وجملة ولا تخشى عطف على لا تخاف . ﴿ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ الفاء عاطفة ، وأتبعهم فعل ماض متعد لاثنين حذف ثانيهما ، والتقدير : فأتبعهم فرعون عقابه ، والهاء

هو المفعول الأول، وقيل: الباء زائدة في المفعول الثاني، والتقدير: فأَتبعهم
 فرعون جنوده، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ واتبع قد جاء
 متعدياً إلى اثنين مصرح بهما، قال: ﴿وَأَتَّبَعَهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ وقيل: هو بمعنى تبع،
 يتعدى لواحد، فتكون بجنوده في محل نصب على الحال، فغشيهم: الفاء
 عاطفة، وغشيهم فعل ماضٍ، والهاء مفعول، أي: غمرهم، وما فاعل،
 وجملة غشيهم صلة، وهو من الإيهام، وسيأتي الكلام عنه مرة ثانية في باب
 البلاغة. ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ الواو: عاطفة مع تقديم وتأخير في
 الكلام؛ لأن إضلاله قومه كان قبل الفرق طبعاً، وأضل فعل ماضٍ، وفرعون
 فاعل، وقومه مفعول به، وجملة وما هدى عطف على أضل، وسيأتي الكلام
 عن هذا العطف في باب البلاغة. والتهكم فيه. ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ
 عَدُوِّكَ﴾ يا: حرف نداء، وبني إسرائيل منادى مضاف، وقد حرف تحقيق،
 وأنجيناكم فعل ماضٍ، وفاعل ومفعول به، ومن عدوكم متعلقان
 بأنجيناكم. ﴿وَوَاعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى﴾
 وواعدناكم عطف على أنجيناكم، وواعدناكم فعل وفاعل ومفعول به أول،
 وجانب الطور مفعول به ثانٍ على حذف مضاف، أي: إتيان جانب،
 ولا يكون ظرفاً لأنه محدود، والأيمن صفة لجانب، ونزلنا عطف على ما قبله
 لتتمة تعداد النعم الدنيوية والدينية المترادفة عليهم، وعليكم متعلقان بنزلنا،
 والمن مفعول به، والسلاوى عطف على المن، وقد تقدم ذكرهما، والنداء إما أن
 يكون لبني إسرائيل بعد إنجائهم من البحر وإهلاك فرعون وجنوده، وإما أن
 يكون موجهاً إلى اليهود في زمن النبي ﷺ، خوطبوا بما أنعم الله به على
 أجدادهم، ومع ذلك كفروا بالنعمة، وغمطوها، وجحدوها، فهم علّة
 العلل في مختلف ظروف الزمان والمكان، وهم أداة تعطيل السلام في كل آن.
 ﴿كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ كلوا فعل أمر مبني
 على حذف النون، والواو فاعل، ومن طيبات متعلقان بكلوا، وما مفعول به،
 وجملة رزقناكم صلة، ولا تظغوا: الواو عاطفة، ولا ناهية، وتظغوا فعل
 مضارع مجزوم بلا الناهية، والواو فاعل، وفيه متعلقان بتظغوا، فيحل: الفاء

السببية، ويحل فعل مضارع منصوب بأن مضمرة لأنه وقع في جواب النهي، وعليكم متعلقان بيحل، وغضبي فاعل، وقيل: هو معطوف، فيكون نهياً أيضاً. ﴿وَمَنْ يَحْلَلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ والواو: عاطفة، ومن شرطية مبتدأ، ويحلل فعل الشرط، وعليه متعلقان بيحلل، وغضبي فاعل يحلل، والفاء: رابطة لجواب الشرط، وقد حرف تحقيق، وهوى فعل ماضٍ، أي: هلك، والجملة في محل جزم جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه خبر من على التحقيق. ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ الواو: عاطفة، وإن واسمها، واللام المرحلة، وغفار خبر إن، ولمن متعلقان بغفار، وجملة تاب صلة وآمن، وعمل عطف، وصالحاً مفعول به، أو صفة لمصدر محذوف، أي: عمل عملاً صالحاً، ثم اهتدى عطف متأخر باعتبار الانتهاء لبعده عن أول الاهتداء، أو للتفاوت بين المرتبتين؛ فإن الاستمرار في التوبة والإيمان والعمل الصالح هو الشرط الأساسي لقبول الأعمال.

□ البلاغة:

في هذه الآيات أفانين متنوعة من الفنون ندرجها فيما يلي:

١ - المجاز المرسل:

وذلك في قوله ﴿يَبْسًا﴾ لأنه لم يكن حين خاطبه الله تعالى يبساً، ولكن باعتبار ما يؤول إليه، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَنِي أَغْصِرُ خَمْرًا﴾ وقد تقدم القول فيه مفصلاً.

٢ - الإبهام:

وذلك في قوله: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: علاهم وغمرهم من الأمر الهائل؛ الذي ليس في طوقهم احتمال، ما لا يمكن إدراك كنهه، ولا سبر غوره، وهو من جوامع الكلم التي يقل لفظها، ويتشعب القول في معناها.

٣ - التهكم :

تقدم القول فيه مراراً، وهو هنا في قوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ والمعروف أن التهكم هو أن يأتي المتكلم بعباراة، والمقصود عكس معناها، كقوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ وغرضهم وصفه بضد هذين الوصفين، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ فمضمونه هو الواقع، فهو حيثنذ مجرد إخبار عن عدم هدايته لقومه، فأين التهكم؟ ولكن العرف في مثل: ما هدى زيد عمراً، بثبوت الهداية لزيد في نفسه، ولكنه يؤخذ عليه أنه لم يهد عمراً، ولكن فرعون ضالاً في نفسه، بل إن الضلال مركز في سليقته، كامن فيه كمن الطباع الأصلية، فكيف يتوهم أنه يهدي غيره، وإذا فهو جمع بين المثلبتين، واكتنفته الشر من ناحيتين، فحق لمثله، وقد صار مهزأة: أن يتهكم به، ويكون أداة للتهكم.

٤ - المجاز العقلي :

وفي قوله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَاهُ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ فإن لقائل أن يقول: إن المواعدة كانت لموسى - عليه السلام - فكيف أضيف إليهم، وإيضاح الجواب الدقيق الذي لم أر من وقاه حقه أنه مجاز عقلي، أسند المواعدة إليهم من قبل الله كما تسند الأمور المدركة إلى من ليس له إدراك على حد المجاز العقلي، وهذا من أسمى ما يصل إليه الأسلوب اللبق، تقول لابن صديقك المتعسف، المرتطم في حماة الهوان: لقد عرفتمكم أهل حجا وتصون، تريد أن تنسب إليه ما هو بعيد عنه بعد الأمور المدركة عن غير العقلاء حين تنسب إليهم على طريق المجاز العقلي.

﴿وَمَا أَصْبَلْتَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَّىٰ﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفُطِلَالٌ

عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمُ مَّوْعِدِي ﴿٨١﴾

☆ اللغة:

﴿عَلَى أَثَرِي﴾: الأثر: بقية الشيء - والجمع: آثار، وأثر - والخبر. وخرج في أثره، وإثره: بعده، واثثره، وتأثره: تبع أثره، والأثر: فرند السيف، ويكسر كالأثير، والجمع: أثور.

﴿السَّامِرِيُّ﴾: في القاموس: الذي عبد العجل، وكان علجاً من كرمان، أو عظيماً من بني إسرائيل، ينسب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة، نسبة إلى مقاطعة في فلسطين. قال في المنجد: وهم قوم يخالفون اليهود في نقاط دينية جوهرية، منها أنهم لا يقرؤون من كتب الوحي إلا أسفار موسى الخمسة المعروفة بالتوراة، وأنهم يقولون بواجب العبادة لا في أورشليم، ولكن على جبل جريزيم جنوبي شكيم. وقال في الخازن: واسمه: موسى بن ظفر.

○ الإعراب:

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ الواو عطف على محذوف يفهم من السياق، والتقدير: فسار موسى لحضور الميقات مع قوم مخصوصين، وهم السبعون الذين اختارهم موسى من بين قومه ليذهبوا معه إلى جبل الطور ليأخذوا التوراة، عجل من بينهم شوقاً إلى كلام ربه، وتنجز ما وعد به بناء على اجتهاده، وخلفهم وراءه، فقال له تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ﴾؟ وسيأتي المزيد عن هذا السؤال في باب البلاغة.

وما اسم استفهام مبتدأ، وأعجل فعل ماض، وفاعل مستتر تقديره: هو، يعود على ما، والكاف مفعول به، والجملة خبر ما، وعن قومك متعلقان بأعجلك. ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ هم مبتدأ، وأولاء خبر، وعلى أثري خبر ثان، أو حال، وعجلت فعل وفاعل، والواو حالية

بتقدير: قد، أو عاطفة، وإليك متعلقان بعجلت، ورب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وحرف النداء محذوف، ولترضى اللام للتعليل، وترضى فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بعجلت أيضاً، كأنه تعليل لعجلته. ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ قال فعل ماض، وفاعله مستتر يعود على الله، والفاء الفصيحة، أي: إن شئت أن تعلم مصير قومك، وإن واسمها، وجملة قد فتنا خبرها، وهي فعل وفاعل، وقومك مفعول به، وأضلهم السامري فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر. ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ تقدم القول في فاء التعقيب أنها قد تتخلف في وقتها دون أن يحدث فاصل، فلم يرجع موسى إلا بعد أن استوفى الأربعين يوماً، وأخذ التوراة، ورجع فعل ماض، وموسى فاعل، وإلى قومه متعلقان برجع، وغضبان أسفاً حالان.

﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ يا حرف نداء، وقوم منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، ألم الهمزة للاستفهام الإنكاري، ويعدكم فعل مضارع مجزوم بلم، والكاف مفعول به، وربكم فاعل، ووعداً مفعول مطلق، وحسناً صفة. ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء حرف عطف على محذوف، وطال فعل ماض، وعليكم متعلقان بطل، والعهد فاعل، وأم حرف عطف معادل للهمزة، وأردتم فعل وفاعل، وأن وما في حيزها مفعول أردتم، وعليكم متعلقان بيحل، وغضب فاعل يحل، ومن ربكم صفة لغضب، فأخلفتم الفاء حرف عطف، وأخلفتم عطف على أردتم، وموعدي مفعول أخلفتم.

□ البلاغة:

الاستفهام من الله تعالى لا يقع لاستدعاء المعرفة، ولكنه يخرج عن معناه الأصلي لأغراض أخر تدرك من سياق الكلام، وقد أفاد السؤال هنا أغراضاً، نوجزها فيما يلي:

أ - لتعريف المسؤول بما يجمله من أمور، وقد أراد سبحانه تعريفه بفتنة قومه، فقد قيل: إنهم كانوا نحو ستمئة ألف نفس، ما نجا منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً.

ب - تبكيت المسؤول، وتفهيمة، وتنبيهه إلى خطر ما جاء به من ترك القوم، وإفساح المجال للسامري كي يضلهم؛ لأنه مغرق في الضلالة، وماهر في الإضلال.

ج - تعليم المسؤول آداب السفر، وهي: أنه ينبغي على رئيس القوم أن يتأخر عنهم في المسير ليكون نظره محيطاً بهم، وناظراً فيهم، ومهيماً عليهم، وقاطعاً الطريق على كل فتنة قد تسرب إلى صفوفهم.

على أن موسى - عليه السلام - أغفل هذه الأمور، ولعله ملئ بها، ومطلع عليها، ولكن الشوق إلى لقاء الله، والمسارة إلى ميعاده ألهب قلبه، فلم يملك عنان صبره الجامح، وذلك شأن الموعود بما طال حنينه إليه يودّ لو امتطى أجنحة الطير، واستبق الساعات، وهل ثمة ما يلهب الشوق مثل مواعدة الله؟

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ٨٧ فَخَرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ٨٨ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ٨٩ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ٩٠ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ٩١ قَالَ يَهْزُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ ٩٣ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ٩٤ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرُ ٩٥ قَالَ بَصُرْتُ

يَمَّا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ
 سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ وَإِنَّ
 لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلِهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ
 لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ
 شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴿٩٨﴾

☆ اللفظة:

﴿يَمْلِكُنَا﴾ : بقدرتنا، مصدر ملك، وهو مثلث الميم، وفي القاموس
 وشرحه التاج: ملك يملك، من باب تعب، ملكاً، ومُلكاً، ومِلْكَاً بفتح الميم
 وضمها وكسرها، ومملكة ومملكة بفتح اللام، ومملكة بكسرها، ومملكة
 بضمها: الشيء احتواه قادراً على التصرف، والاستبداد به، وملك على القوم:
 استولى عليهم، وملك على فلان أمره: استولى عليه، وملك نفسه قدر على
 حبسها، وملك المرأة تزوجها.

﴿أَوْزَارًا﴾ : أثقالاً، وأرادوا بها حلي القبط التي استعاروها منهم، وأرادوا
 بالأوزار أنها آثام، وتبعات؛ لأنهم استعاروها منهم، وليس لهم فيها حق.

﴿خَوَارٌ﴾ : بضم الخاء: صوت البقر والعجاجيل، وعبر بالجسد مع أنه
 لا يقال للعقل، ولأن الجسد لا يقال إلا للإنسان تغليبا وتشبيهاً له بالعقل،
 كأنه غاير البقر، ولا يقال جسد لغير الإنسان إلا للزعفران، ويقال: جَسَادُ
 بفتح الجيم أيضاً، وللدم إذا يبس، ويقال له جاسد أيضاً.

﴿يَبْنُومٌ﴾ : سيأتي في باب الفوائد.

﴿فَقَبَضْتُ﴾ : قبض يقبض، من باب: جلس بيده الشيء، وعلى الشيء:
 أمسكه بيده، وضم عليه أصابعه، وقبض يده عن الشيء: امتنع عن إمساكه،
 وقبضه عن الأمر: أنحاه، وقبضه الله: أماته، وقبض الشيء: خلاف بسطه
 ووسعه، وقبض الطائر جناحه: جمعه، وقبض الدار ونحوها: تسلمها،

وقبض منه المال: أخذه لنفسه، وقبض قبضة: أخذها، ويقال: قبض بالصاد المهملة؛ لأنهما تتعاقبان في كثير من الكلمات، نورد أهمها فيما يلي:

قال يعقوب بن السكيت: وقبضت قبضة، وقبضت قبضة، ويقال: إن القبضة أقل من القبضة. وقال غيره: القبض: بأطراف الأصابع، والقبض بالكف كلها، ويقال: عاد إلى ضئضئه وضئضئه، أي: إلى أصله، والهمز الأصل، وأنشد:

أنا من ضئضئ صدق بخ ومن أكرم جذل
من عزائي قال: به به سنخ ذا أكرم أصل

الجذل: الحجر، وقال اللحياني: بخ بخ، وبه به تقال للإنسان إذا عظم. وقال أبو عمرو: ما يتنوض بحاجة، وما يقدر على أن يتنوص، أي: يتحرك، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَجِدَ مَنَاصِرَ﴾ ومناص ومناض واحد، ويقال: أنقاص وأنقاض بمعنى واحد، وقال الأصمعي: المنقاض: المنقعر من أصله، والمنقاص: المنشق طويلاً، وقال أيضاً: مضمض لسانه، وممصص لسانه: إذا حركه. وقال اللحياني: يقال: إنه لصلل أصلال، وضلل أضلال، والصل، الحية التي تقتل إذا نهشت من ساعتها، ويقال: مصمص إناءه ومضمضه؛ إذا غسله، فقول العامة: مصمص العظم صحيح لا غبار عليه.

﴿بَصَّرْتُ﴾: بصّر بالشيء - بضم الصاد - وأبصره بمعنى: علمه، وهو من باب ظرف، ويقال: بصّر - بالكسر - من باب: علم.

﴿مَسَّاسٌ﴾: - بكسر الميم - مصدر ماس، وستأتي حقيقة هذا التركيب في باب: الإعراب.

○ الإعراب:

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ قالوا فعل وفاعل، وما نافية، وأخلفنا فعل وفاعل، وموعدك مفعول به، وبملكنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، أي: حال كوننا مالكين أمرنا، ولكننا غلبنا على أمرنا من جهة

السامري، وكيده. ﴿وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوَى﴾ الواو عاطفة، ولكن واسمها، وحملنا فعل ماضي بالبناء للمجهول، ونا نائب فاعل، وأوزاراً مفعول به ثان، ومن زينة القوم صفة. ﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ الفاء عاطفة، وقذفناها فعل وفاعل ومفعول به، وهو معطوف على محذوف، أي: فقال لنا السامري: اقدفوها في النار؛ لأن موسى تأخر عنكم بسببها: فقذفناها: الفاء حرف عطف، وكذلك نعت لمصدر محذوف، وقد تقدم كثيراً، وألقى السامري فعل وفاعل. ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لِّمُخَوَّرِ﴾ الفاء عاطفة، وأخرج فعل ماض، وفاعله مستتر تقديره: هو يعود على السامري، والعطف على فأصلهم السامري؛ لئلا يتوهم أنه من كلامهم، ولهم متعلقان بأخرج، وعجلاً مفعول به، وجسداً حال من عجلاً، ولكن يشكل على هذا الإعراب الذي اختاره عدد من المفسرين أن صاحب الحال لا يكون إلا معرفة، ولعل هذا العجل الذي أخرجه السامري من الحفرة التي فيها تراب إثر حافر الرسول إلى موسى، كما سيأتي، صار بحكم المعرفة، نقول: ولا مانع من إعرابه بدلاً من عجلاً، وجملة له خوار من الخبر المقدم، والمبتدأ المؤخر صفة. ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ قَنَسَىٰ﴾ الفاء حرف عطف، وقالوا فعل وفاعل، وهذا مبتدأ، وإلهكم خبر، وإله موسى عطف على إلهكم، فني الفاء حرف عطف، ونسي فعل ماض، وفاعله مستتر تقديره: هو، يعود على موسى، أي: نسي ربه، فذهب يطلبه، وقيل: الضمير يعود على السامري، أي: ترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر. ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء حرف عطف، ولا نافية، ويرون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، وأن مخففة من الثقيلة، ولا نافية، ويرجع فعل مضارع، واسم أن المخففة ضمير الشأن أي: أنه، وفاعل يرجع مضمرة تقديره: هو، يعود على العجل، وإليه متعلقان يرجع، وقولاً مفعول به. ولهذا ارتفع الفعل بعدها. ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ﴾ الواو حرف عطف، واللام موطئة للقسمة، وقد حرف تحقيق، وقال لهم هارون فعل ماض وفاعل، ومن قبل متعلقان بمحذوف

حال، أي: قبل رجوع موسى. ﴿يَقُومِرَ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ يا حرف نداء، وقوم منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وإنما كافة ومكفوفة، وفتنتم فعل ماض مبني للمجهول، والتاء نائب فاعل، والميم علامة جمع الذكور، وبه متعلقان بفتنتم، وإن ربكم الرحمن إن واسمها وخبرها، والفاء الفصيحة، واتبعوني فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون للوقاية، والياء مفعول به، وأطيعوا أُمري عطف على اتبعوني. ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ لن حرف نفي ونصب واستقبال، ونبرح فعل مضارع ناقص منصوب بلن، واسمها ضمير مستتر تقديره: نحن، وعليه متعلقان بعاكفين، وعاكفين خبر نبرح، حتى حرف غاية وجر، ويرجع فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، وإلينا متعلقان بيرجع، وموسى فاعل، وهذا التعليق الذي جعلوه غاية لعكوفهم لم يكن منهم إلا تسويقاً وتعللاً، ليس من قبيل الوعد بترك عبادته بعد رجوع موسى. ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، وجملة منعك خبر، وإذ ظرف متعلق بمنعك، وجملة رأيتهم مضافة للظرف، ورأيتهم فعل وفاعل ومفعول به، وجملة ضلوا حالية، أو مفعول به ثان لرأيتهم إذا اعتبرتها قلبية. ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أن حرف مصدري ونصب، ولا مزيدة أي: أي شيء منعك من اتباعي في الغضب لله، وهلا قاتلت من كفر بمن آمن، والهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء عاطفة على مقدر، وعصيت فعل ماض وفاعل، وأُمري مفعول به. ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ يا بن أم يا حرف نداء، وابن أم اسمان مبنيان على الفتح لتركبهما تركب الأعداد مثل خمسة عشر أو الظروف مثل صباح مساء، فعلى هذا ليس ابن مضافاً إلى أم، بل هو مركب معها فحركاتهما حركة بناء، وقد تقدم تفصيل هذا التركيب في «الأعراف»، وعلى كل فهما في محل نصب منادى، وإنما اقتصر في خطابه على الأم مع أنه شقيقه؛ لأن ذكر الأم أعطف لقلبه، ولا ناهية، وتأخذ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، والفاعل مستتر تقديره: أنت، وبلحيتي متعلقان بتأخذ، ولا برأسي عطف على بلحيتي.

قيل: كان موسى مجبولاً على الحدة والغضب لله ولدينه، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون غير الله أن أخذ برأس أخيه، وبشعر وجهه يجره إليه. ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ إن واسمها، وجملة خشيت خبر إن، وأن وما في حيزها مفعول خشيت، وجملة فرقته مفعول خشيت، وبين ظرف مكان متعلق بفرقت، وبني إسرائيل مضاف إليه، ولم ترقب قولي عطف على فرقته، أي: وخشيت أن تقول: لم ترقب قولي، وعلى هذا يكون الضمير في قولي واقعاً على موسى، ويجوز عطفها على خشيت، فيكون الضمير في قولي واقعاً على هارون. ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرُ﴾ قال فعل ماض، وفاعله مستتر تقديره: هو، يعود على موسى، والفاء عاطفة، أو استئنافية، وما استفهامية مبتدأ، وخطبك خبر، ويا حرف نداء، وسامري منادى مفرد علم. ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ جملة بصرت مفعول القول، وفاعل قال هو، أي: السامري، وبما متعلقان ببصرت، وجملة لم يبصروا به صلة، فقبطت عطف على بصرت، وقبضة مفعول به، وهي مصدر مرة من قبض، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر، ومن أثر صفة لقبضة، وأثر مضاف، والرسول مضاف إليه على تقدير محذوفين، أي: من أثر حافر فرس الرسول، والمعنى: من تربة موطئه، وتفصيل القصة في المطولات، وسنلخص لك ما قالوه في باب البلاغة ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ فنبدتها عطف على قبضت، أي: ألقيتها، وكذلك نعت لمصدر محذوف، وقد تقدم، وسولت لي نفسي فعل وفاعل، أي: زينت لي نفسي. ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قال فعل ماض، وفاعله يعود على موسى، فاذهب الفاء عاطفة، واذهب فعل أمر فاعله أنت، فإن: الفاء عاطفة، وإن حرف مشبه بالفعل، ولك خبرها المقدم، وفي الحياة متعلقان بمحذوف حال، وأن وما بعدها اسم إن، ولا نافية للجنس، ومساس اسم لا، والخبر محذوف، فهو مبني مع لا الجنسية، والمراد به: النهي: أي: لا تمسني ولا أمسك، ومساس مصدر ماس كقتال مصدر قاتل، قال الزمخشري: عوقب في الدنيا

بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً ، وحرّم عليهم ملاقاته ، ومكالمته ، ومبايعته ، ومواجهته ، وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً ، وإذا اتفق أن يماس أحداً رجلاً أو امرأة ، حمّ الماس والممسوس ، فتحامى الناس وتحاموه . ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ ﴾ وإن حرف مشبه بالفعل ، ولك خبرها المقدم ، وموعداً اسمها المؤخر ، ولن حرف نفي ونصب واستقبال ، وتخلفه منصوب بلن ، ونائب الفاعل مستتر تقديره : أنت ، والهاء مفعول به ثان . ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنْتَحَرِقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ وانظر الواو عاطفة ، وانظر فعل أمر ، وفاعله مستتر تقديره : أنت ، وإلى إلهك متعلقان بانظر ، والذي صفة ، وجملة ظلت صلة ، وظلت فعل ماض ناقص ، وأصله ظلتت بلامين ، وأولاهما مكسورة حذفت تخفيفاً ، وعليه متعلقان بعاكفاً ، وعاكفاً خبر ظلت ، ولنحرقته اللام موطئة للقسم ، ونحرقته فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد ، والفاعل مستتر تقديره : نحن ، والهاء مفعول به ، ثم حرف عطف لنسفته مثل نحرقته ، وفي اليم متعلقان بنسفته ، ونسفاً مفعول مطلق . ﴿ إِنَّكَ إِلَهِكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ إنما كافة ومكفوفة ، وإلهكم مبتدأ ، والله خبره ، والجملة مستأنفة ، والذي نعت ، وجملة لا إله إلا هو صلة ، وقد تقدم إعرابها كثيراً ، ووسع فعل ماض ، وفاعله مستتر تقديره : هو ، وكل شيء مضاف إليه وعلماً تمييز من فاعل وسع .

□ البلاغة:

الإيجاز في هذه الآيات واضح جداً ، وهو في كل واحدة ؛ لأن تسلسل الحوادث يقتضي تقدير جمل لا بد منها ، وقد أشرنا إليها إشارات واضحة تجزئ عن إعادتها ، ولكننا نورد هنا إيجازاً بالحذف ورد في قوله تعالى : ﴿ فَكَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ فقد حذف المضاف مكرراً هنا ، والتقدير : من أثر حافر فرس الرسول ، وهذا الحذف شائع كثيراً في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْآلِ مِنِّي أَتَقَى ﴾ وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ

وَمَا جُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٨٧﴾ فحذف المضاف إلى يأجوج ومأجوج، وهو سدهما، كما حذف المضاف إلى القرية في قوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: أهل القرية، وقد ورد في الشعر أيضاً، ومما جاء منه قول الخزيمي يرثي أبا الهندام، وهو من شعراء الحماسة:

إذا لاقيت قومي فاسألهم كفى قوماً بصاحيهم خبيراً

هل أعفو عن أصول الحق فيهم إذا عسر وأقتطع الصدورا؟

أراد: أنه يقتطع ما في الصدور من الضغائن، أي: يزيل ذلك بإحسانه من عفو وغيره، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، وحذف المضاف أكثر من حذف المضاف إليه. ومما جاء من حذف المضاف إليه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأُمُورُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي: من قبل الغلب ومن بعده.

خلاصة قصة السامري:

هذا، وسنخرج عن النطاق الذي ترسمناه في هذا الكتاب، وهو نطاق الإعراب، واللغة، والبيان، فنورد لمحة خاطفة عن قصة السامري لعلاقتها بما نحن بصدد، تاركين للقارئ مجال الرجوع إلى المطولات.

ففي الوقت الذي حلّ ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل الله إلى موسى جبريل راكباً حيزوم - فرس الحياة - ليذهب به، فأبصره السامري فقال: إن لهذا شأنًا فقبض قبضة من أثر تربة موطئه، فلما سأله موسى عن قصته قال: قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد، ولعله لم يعرف أنه جبريل، وقيل: إنه كلما وضعت الفرس حافرها على شيء اخضر، فعرف أن للتراب الذي تضع الفرس حافرها عليه شأنًا، وقيل غير ذلك مما لا تطمئن إليه النفس، ويحتاج إلى كثير من التمهيص.

* الفوائد:

صاحب الحال:

الأصل في صاحب الحال التعريف؛ لأنه محكوم عليه بالحال، وحق

المحكوم عليه أن يكون معرفة؛ لأن الحكم على المجهول لا يفيد غالباً، ويقع صاحب الحال نكرة بمسوغ يقربه من المعرفة، وذلك في المواضع التالية:

١- إذا تقدمت عليه الحال، نحو: في الدار جالساً رجل، وقول كثير عزة:

لَيْتَ مَوْحِشاً طَلَلُ يَلُوحُ كَأَنَّهُ خِلَلُ

وفي المغني: إن تقديم حال النكرة عليها ليس لأجل تسويغ الحال فيها بل، لئلا يلتبس الحال بالصفة.

٢- أن يكون صاحبها مخصوصاً بوصف، كقول الشاعر:

نَجِيتَ يَا رَبَّ نَوْحاً وَاسْتَجِبْتَ لَهُ فِي فَلَكَ مَا خَرَّ فِي الْيَمِّ مَشْحُونَا

فمشحوناً حال من فلك لوصفه بما خر.

٣- أن يكون صاحبها مخصوصاً بإضافة، كقوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِّلْسَائِلِينَ﴾ فسواء حال من أربعة لاختصاصها بالإضافة إلى أيام.

٤- أن يكون صاحبها مخصوصاً بمعمول، نحو: عجبت من ضرب أخوك شديداً، فشديداً حال من ضرب لاختصاصه بالعمل في الفاعل، وهو أخوك.

٥- أن يكون صاحبها مخصوصاً بعطف، نحو: هؤلاء أناس وعبد الله منطلقين، فمنطلقين حال من أناس لاختصاصه بالعطف عليه، وهو عبد الله.

٦- أن يكون صاحبها مسبوقاً بنفي، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ فجملة ولها كتاب معلوم حال من قرية لكونها مسبوقة بالنفي، وقد مرّ أن الزمخشري يرد هذا القول، ويجعل الجملة صفة لقرية، وإنما توسطت الواو بينهما لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف.

٧- أن يكون صاحبها مسبوقاً بنهي، كقول الطرماح:

لَا يَرْكَنَنَّ أَحَدٌ إِلَى الْإِحْجَامِ يَوْمَ الْوَعَى مَتَخَوِّفًا لِجَحَمَامِ

فمتخوفاً حال من أحد؛ لأنه مسبوق بالنهي.

٨- أن يكون صاحبها مسبوقاً باستفهام، كقول أحد الطائيين:

يا صاح هل حُمَّ عَيْشٌ باقياً فَتَرَى

لنَفْسِكَ العُذْرَ في إِبْعَادِهَا الأَمَلَا

فباقياً حال من عيش لكونه مسبوقاً بالاستفهام بهل ، وصاح منادى مرخم صاحب على غير قياس ، وحـم - بالحاء المهملة - بمعنى قدر ، والإبعاد مصدر أبعد ، والأمل مفعوله .

هذا ؛ وقد يقع صاحب الحال نكرة بلا مسوغ ، كقولهم عليه مئة بيضاً ، فييضاً بلفظ الجمع حال من مئة ، وليس تمييزاً خلافاً للمبرد ؛ لأن تمييز المئة لا يكون جمعاً منصوباً ولا مجروراً ، وهو من أمثلة سيبويه ، وفي الحديث : صلى رسول الله ﷺ قاعداً ووراءه رجال قياماً ، فقياماً حال من رجال ، وهو نكرة بلا مسوغ .

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۚ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۚ ۝١٠١ خَلَّيْنِ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۝١٠٢ يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٣ يَخْلَقُوكَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٤ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝١٠٥ ﴾

☆ اللفظة:

﴿ وِزْرًا ﴾ : حملاً ثقيلاً ، والمراد بها - هنا - : العقوبة الثقيلة المرهقة الباهظة ، سمّاها وزراً تشبيهاً لها في ثقلها على من يحلّ به العقاب بالحمل الثقيل ، ينوء به الكاهل ، ويرزح الحامل تحت عبئه الفادح .

﴿ زُرْقًا ﴾ : جمع أزرق ، وسبب اختياره لعيونهم يوم القيامة لوجهين :

١ - أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب ؛ لأن الروم كانوا أعداءهم ، وهم زرق العيون . ومن أقوالهم في صفة العدو : أسود الكبد ،

أصهب السبال، أزرق العين. فأصهب من الصهبه - بالصاد المهملة - وهي حمرة أو شقرة في الشعر، والسبال: ما على الشارب من الشعر، ومقدم اللحية، والاثنان مرادان بها هنا. وقال بشار في وصف البخيل:

وللبخيل على أمواله عِلَل زرق العيون عليها أوجهٌ سود
وهو من أبيات ممتعة نوردها بكاملها:

ظلّ اليسارُ على العباس ممدودٌ وقلبه أبدأً بالبخلِ معقود
إنَّ الكريمَ ليخفي عنك عسرته حتى تراه غنياً وهو مَجْهُود
وللبخيل على أمواله عِلَل زرق العيون عليها أوجهٌ سود
إذا تكرّحت أن تعطي القليلَ ولم تقدّرْ على سعة لم يظهرِ الجود
أورق بخير ترجي للنوالِ فما ترجى الثّمار إذا لم يورقِ العود
بُثَّ الثّوالَ ولا تمنعك قلّته فكلّ ما سدّ فقرأ فهو محمود

٢ - أن المراد العمى؛ لأن حدقة من يذهب نور بصره تزرق. ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يخفضون أصواتهم، ويخفونها لما لحقهم من الرعب والهول. وفي المختار: خفت الصوت: سكن، وبابه: جلس، والمخافتة والتخافت والخفت بوزن السبت: إسرار المنطق.

﴿أَمْثَلُهُمْ﴾: أفضلهم وأعدلهم رأياً، أو عملاً في الحياة الدنيا، وجمعه: أمائل، ومُثْل، ومؤنثه مثلى، وأمائل القوم: خيارهم، والطريقة المثلى: الشبهى بالحق، ويقال: المريض اليوم أمثل، أي: أحسن حالة، وقال امرؤ القيس يصف الليل من معلقته:

وليلِ كموجِ البحرِ أرخى سُدُولَه عليّ بأنواعِ الهُُمومِ ليتلي
فقلتُ له لَمّا تَمَطَّى بَصْلُه وأردفَ أعجازاً وناءً يَكَلْكَلِ
ألا أيُّها الليلُ الطَّويلُ ألا انجَلِ بَصْبُحٍ وما الإصباحُ منك بأمثَلِ

○ الإعراب:

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ كذلك:

نعت لمصدر محذوف، أي: كما قصصنا يا محمد هذه القصة، ونقص فعل مضارع فاعله مستتر تقديره: نحن، وعليك متعلقان بنقص، ومن أنباء صفة لموصوف محذوف هو مفعول به لنقص، أي: نقص نبأ من أنباء، وما مضاف إليه، وجملة قد سبق صلة، وقد الواو عاطفة، وقد حرف تحقيق، وآتيك فعل ماض وفاعل ومفعول به، ومن لدنا حال لأنه كان صفة لذكرأ، وذكرأ مفعول به ثان، أي: قرأنا. ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ من شرطية في محل رفع مبتدأ، وأعرض فعل ماض في محل جزم فعل الشرط، وفاعله ضمير مستتر تقديره: هو، وعنه متعلقان بأعرض، والفاء رابطة، وإن واسمها، وجملة يحمل خبرها، والفاعل مستتر تقديره: هو، ويوم القيامة ظرف متعلق بيحمل، ووزراً مفعول، وجملة من أعرض في محل نصب نعت لذكرأ، أي: قرأناً منظوياً مشتملاً على هذه القصص يحمل المعرض عنها وزراً كاملاً يوم القيامة. ﴿خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ خالدين حال، وفيه متعلقان بخالدين، والضمير يعود للوزر، أي: في العقاب المتسبب عنه، ففي الكلام مجاز كما سيأتي، وساء: الواو حالية، أو عاطفة، وساء فعل ماض من أفعال الذم، وقد تقدّم كثيراً، وفاعله مستتر مميّز بنكرة، وهو حملاً، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: وزرهم، ولهم متعلقان بقول مقدر، أي: يقال لهم هذا الكلام، وقيل: هي كاللام في هيت لك، أي: لمجرد البيان، فراجع سورة يوسف. ويوم القيامة ظرف متعلق بساء، وحملاً تمييز.

﴿يَوْمَ يُفْخِ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ الظرف بدل من يوم القيامة، وجملة ينفخ مضافة إلى الظرف، وينفخ فعل مضارع بالبناء للمجهول، وفي الصور متعلقان بينفخ، ونحشر: الواو عاطفة، ونحشر فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: نحن، والمجرمين مفعول به، ويوم ظرف أضيف إلى ظرف مثله متعلق بنحشر، والتنوين في إذ عوض عن جملة، وزرقاً حال من المجرمين. ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ الجملة حال من المجرمين، أو مستأنفة مسوقة لبيان حالهم في ذلك اليوم، ويتخافتون فعل

مضارع مرفوع بثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعل، وبينهم ظرف متعلق بـيتخافتون، وإن لبشتم جملة منصوبة بقول دلّ عليه يتخافتون، والقول نصب على الحال، أي: قائلين في السر، وإن نافية، ولبشتم فعل وفاعل، وإلا أداة حصر، وعشراً ظرف زمان ذهاباً إلى الليالي؛ لأن الشهور غررها الليالي، فتكون الأيام داخلة تبعاً، وتخافتهم ناجم عن الرعب الذي داخلهم، فكأن أيام الدنيا لم تكن شيئاً مذكوراً، فهم يتذكرون أيام السرور التي سنحت لهم في الدنيا كيف مرّت عليهم كظل الطائفة.

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لِّبْشَتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ نحن مبتدأ، وأعلم خبر، وبما متعلقان بأعلم، وجملة يقولون صلة، وإذ ظرف متعلق بأعلم، وجملة يقول مضافة إلى الظرف، وأمثلهم فاعل، وطريقة تمييز، وإن نافية، ولبشتم فعل وفاعل، وإلا أداة حصر، ويوماً ظرف متعلق بلبشتم.

□ البلاغة:

المجاز المرسل في قوله: ﴿ خَلِيدِينَ فِيهِ ﴾ أي: في الوزر، والوزر لا يقام فيه، ولكن أراد العقاب المتسبب عن الوزر، فالعلاقة فيه السببية.

﴿ وَاسْأَلْنَاكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۚ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۚ يَوْمَئِذٍ تَبْنَعُ الدَّاعِي لَآ عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۚ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَلَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ عِلْمًا ۚ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۚ فَتَعَالَى اللَّهُ

أَلَمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ
زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

☆ اللغة:

﴿قَاعًا﴾ : القاع : أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام،
والجمع : أقواع، وأقوُع، وقيع، وقيعان، وقiece، وقيل : هو المنكشف من
الأرض، وقيل : المستوي الصلب منها، وقيل : ما لا نبات فيه ولا بناء .

﴿صَفْصَفًا﴾ : الصفصف : الأرض المستوية الملساء، كأن أجزاءها صف
واحد من كل جهة . وفي القاموس : المستوي من الأرض، وقاع صفصف :
مستو مطمئن، فهو بمثابة التأكيد للقاع ؛ لأنه بمعناه .

﴿أَمْتًا﴾ : الأمت هو : التوَّاليسير، يقال : مدَّ حبله حتى ما فيه أمت،
وقيل : الأمت هو التل، وهو قريب من الأول، وقيل : الشقوق في الأرض،
وقيل : الآكام . وفي القاموس : أَمْتَه يَأْمَتُه قدره وحزره كأَمْتَه وقصدته، وأجل
مأموت : مؤقت، والأمت : المكان المرتفع، والتلال الصغار، والانخفاض،
والارتفاع، والاختلاف في الشيء . والجمع : أَمَاتٌ، وأموتٌ، والضعف،
والوهن، والطريقة الحسنة، والعوج، والعيب في الفم وفي الثوب والحجر،
وأن يغلظ مكان ويرقّ مكان . والمؤمَّت : المملوء، والمتهم بالشر، ونحوه،
والخمر حرمت لا أمت فيها، أي : لا شك في حرمتها .

﴿هَمْسًا﴾ : الهمس : الصوت الخفي، وهو مصدر همست الكلام، من
باب : ضرب إذا أخفيته، ومنه الحروف المهموسة، وقيل : هو من همس
الإبل، وهو : صوت أخفافها إذا مشت .

﴿وَعَنَتِ﴾ : في المختار : عنا يعنو، من باب : سما يسمو سموًا،
فالآلف محذوفة قبل تاء التانيث لالتقاء الساكنين إذا ذل وخضع، ومنه العناة،
جمع عان، وهو : الأسير .

﴿هَضْمًا﴾ : الهضم : النقص، تقول العرب : هضمت لزيد من حقه،

أي: نقصت منه، ومنه هضيم الكشحين، أي: ضامرهما، قال امرؤ القيس:
 إذا قلتُ هاتي نولينِي تمايلتُ عليَّ هضيمُ الكشحِ ريًا المُخلخلِ
 ورجل هضيم ومهتضم، أي: مظلوم، وهضمته، واهتضمته، وتهضمته
 كله بمعنى.

○ الإعراب:

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ الواو للاستئناف، والجملة
 مستأنفة مسوقة لتقرير تعنتهم وإصرارهم على الجدل، والمكابرة،
 والاستهزاء، ويسألونك فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل،
 والكاف مفعول به، فقل الفاء عاطفة، وقل فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره:
 أنت، وجملة ينسفها مقول القول، والهاء مفعول به مقدم، ورب فاعل مؤخر،
 ونسفاً مفعول مطلق. ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ الفاء عاطفة، ويذرها فعل
 مضارع، والفاعل مستتر تقديره: هو، أي: الله تعالى، والهاء مفعول به،
 وقاعاً لك أن تعربها حالاً من الضمير المنصوب، أو مفعولاً به ثانياً؛ لتضمين
 يذر معنى التصيير، وصفصفاً حال ثانية، أو بدل من المفعول الثاني، وأعربها
 بعضهم صفة له. ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ الجملة حال ثالثة، أو حال
 أولى، ولا نافية، وترى فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: أنت، وفيها
 متعلقان بترى، وعوجاً مفعول به، ولا أمتاً عطف. وسيأتي مزيد من التقرير
 حول هذه الآية في باب البلاغة. ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ الظرف
 متعلق بيتبعون، أو بدل من يوم القيامة المتقدم، وقد تقدم تقرير إضافة يوم إلى
 الظرف، ويتبعون الداعي فعل مضارع وفاعل ومفعول به، ولا نافية
 للجنس، وعوج اسمها مبني على الفتح، وله خبرها، وجملة لا عوج له حال
 من الداعي، أو صفة لمصدر محذوف، أي: يتبعونه اتباعاً لا عوج له، ويجوز
 أن تكون مستأنفة، والأول أظهر؛ لأن الضمير في له يعود عليه، أي: لا عوج
 لدعائه، بل يسمع جميعهم، فلا يميل إلى أناس دون أناس. ﴿وَخَشَعَتِ
 الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ الواو عاطفة، وخشعت الأصوات فعل

وفاعل، وللرحمن متعلقان بخشعت، والفاء عاطفة، ولا نافية، وتسمع فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: هو، وإلا أداة حصر، وهمساً مفعول به؛ لأن الاستثناء مفرغ. ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ الظرف متعلق بتنفع، وإذ مضاف، ولا نافية، وتنفع الشفاعة فعل مضارع وفاعل، وإلا أداة حصر، ومن يجوز فيه أن يكون مفعولاً لتنفع، وعندئذ تكون من واقعة على المشفوع، ويجوز أن يكون بدلاً من الشفاعة على قاعدة المستثنى المنفي، أو النصب على الاستثناء المتصل من الشفاعة، ولا بد في هذين الوجهين من تقدير مضاف تقديره: إلا شفاعة من أذن له، وإذا اعتبر مستثنى منقطعاً وجب نصبه، فتلخص فيه أربعة أوجه متقاربة الرجحان، ورجح الزمخشري الرفع على البدلية، وتبعه القاضي البيضاوي.

وجملة أذن له الرحمن صلة، ورضي له قولاً عطف على أذن له، ورجح أبو البقاء النصب على المفعولية. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ الجملة استئنافية مسوقة لتقرير علمه تعالى ما تقدمهم من الأحوال، وما يستقبلهم، ويعلم فعل مضارع مرفوع، وفاعله مستتر تقديره: هو، وما مفعول به، وبين ظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول، وأيديهم مضافة لبين، وما خلفهم عطف على ما بين أيديهم، ولا يحيطون لك أن تجعل الواو عاطفة، ولك أن تجعلها حالية، ويحيطون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، وبه متعلقان بيحيطون، وعلماً مفعول به. ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ وعنت الوجوه فعل وفاعل، وللحي متعلقان بعنت، والقيوم صفة، وسيأتي المراد بالوجه في باب البلاغة، والواو حالية، وجملة وقد خاب حالية، ومن فاعل خاب، وجملة حمل ظلماً صلة. ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ الواو عاطفة على وقد خاب، ومن شرطية مبتدأ، ويعمل فعل الشرط، ومن الصالحات صفة لمفعول به محذوف، أي: ومن يعمل أعمالاً من الصالحات، والواو حالية، وهو مبتدأ، ومؤمن خبر، والفاء رابطة لجواب الشرط، ولا نافية، ويخاف فعل مضارع،

وفاعله مستتر تقديره: هو، وظلماً مفعول به، ولا هضماً عطف على ظلماً، وجملة لا يخاف خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: فهو لا يخاف، وجملة فهو لا يخاف في محل جزم جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه خبر من ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ الكاف صفة لمصدر محذوف، أي: مثل ذلك الإنزال أنزلناه، وقرآنًا حال، وعربياً صفة ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وصرفنا فعل وفاعل، وفيه متعلقان بصرفنا، ومن الوعيد صفة لمفعول محذوف، أي: صرفنا وعيداً من الوعيد، ولعل واسمها، وجملة يتقون خبرها، وأو حرف عطف، ويحدث عطف على يتقون، ولهم متعلقان يحدث، وذكرأ مفعول به، وفاعل يحدث هو، أي: القرآن ﴿فَنَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ الفاء استئنافية، وتعالى الله فعل ماض وفاعل، والمالك الحق صفتان لله، ولا تعجل: الواو عاطفة، ولا ناهية، وتعجل فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وبالقرآن متعلقان بتعجل، ومن قبل متعلقان بتعجل، وأن يقضي المصدر المؤول مضاف لقبل، وإليك متعلقان بيقضى، ويقضى فعل مضارع مبني للمجهول، ووحيه نائب فاعل، وقل عطف على لا تعجل، ورب منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة، وزدني فعل أمر، والنون للوقاية، والياء مفعول به أول، وعلماً مفعول به ثان، أو تمييز.

□ البلاغة:

في قوله تعالى: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ فن طريف يذهل العقول، ويسكر العواطف، ولا يكاد يدركه إلا من أودع الله فيهم سرّ البيان، وارتاضوا بالمعاناة والدربة على إدراك النكت التي تعزّ على من رامها وتطول، وهذا الفن سموه فنّ «التنكيث» وحدّه: أن يخصّ المتكلم شيئاً بالذكر دون غيره مما يسدّ مسدّه، وما يقتضيه ظاهر الكلام لأجل نكتة في المذكور ترجّح مجيئه على سواه، وهو كثير في القرآن الكريم، وسيرد في موطنه، أما في هذه الآية فقد تقدّم في الكهف أن أهل اللغة فرقوا بين العوج والعوج، فقالوا:

العِوَج بالكسر في المعاني والعَوَج بالفتح في الأعيان، ولذلك قال في الكهف: ﴿الْحَبْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ أما في هذه الآية فالأرض عين، فكيف صحَّ فيها المكسور العين؟ أوليس مقتضى اللغة يوجب أن يستعمل العوج بالفتح؟

وهنا يأتي هذا الفن ليسبر غور هذه النكتة؛ التي تدق على النظرة السطحية الأولى، ولا تقف عند التقارير اللغوية، فنقول:

إنَّ اختيار العوج بالكسر في الآية له موضع حسن بديع في استواء الأرض، ووصفها بالملاسة، وانتفاء الاعوجاج عنها على أبلغ وجه، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة من الأرض فسوّيتها، وبالغت في تسويتها على عينك، وعلى عيون البصراء بالأراضي، واتفقتم بالإجماع على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم عمدت إلى المهندس تستطلع رأيه لا بحسب الحدس، والتخمين، والنظر المجرد، بل بحسب المقاييس الهندسية المبنية على العلم الدقيق لعثر فيها على عوج في غير موضع، لا يدرك ذلك بحاسة البصر، ولكن بالقياس الهندسي الذي لا يضلّ، ولا يعزب عنه القليل النادر. فنفى الله سبحانه ذلك العوج؛ الذي دقّ ولطف عن الإدراك والفهم، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الاحساس، ولحق بالمعاني، وسما عن الأعيان، فقليل فيه: عِوَج بالكسر.

وقد مرّ معنا، وسيمرّ في هذا الكتاب نماذج رائعة لهذا التنكيث؛ الذي ظهر لك في هذه الآية الكريمة؛ ممّا لا يدركه إلا الخذاق الملهمون، فلنرجى القول فيها، وسنعرض الآن على ناظريك نماذج من الشعر الجميل؛ التي اشتملت على نكتة بارعة؛ لتكون لك معالم صبح تحتذيها، فمن ذلك قول الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا وأذكره لكلِّ غروبِ شَمْسٍ

وقد سئل الأصمعي عن قولها هذا: لم اختصت فيه طلوع الشمس وغروبها دون أثناء النهار؟ فقال: لأن طلوع الشمس وقت الركوب إلى

الغارات، وغروب الشمس وقت قرى الضيفان.

ومنه قول الحسن بن هانئ، أبي نواس:

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ

ولا تسقني سِرًّا إِذَا أَمَكَّنَ الْجَهْرُ

فقال: «وقل لي هي الخمر» وذلك لأن الحواس الأربع قد التذت حين شربها، وبقيت حاسة واحدة لم تستكمل لذاتها، وهي حاسة السمع، فقال: «وقل لي هي الخمر» ليسمع ذلك فتكمل له اللذة بجميع حواسه. ونكتفي الآن بما تقدّم، ولنا عودة إلى هذا الفن الجميل.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٥ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلْنَا يَنْتَادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ۝١١٩ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنْتَادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣﴾

☆ **الفئة:**

﴿تَصْحَىٰ﴾: يتتابك حر الشمس في الضحى. وفي القاموس: وضحا يضحو كغزا يغزو ضحواً: برز للشمس، وكسعى، ورضي ضحواً وضحياناً: أصابته الشمس.

﴿فَوَسَّوَسَ﴾: وسوسة الشيطان، كلولولة الثكلي، ووعوعة الذئب في أنها حكايات للأصوات، وستحدث عن أسماء الأصوات، وحكاياتها في

باب الفوائد. وجاء في القاموس: وسوس وسواساً ووسوسة الشيطان له وإليه: حدثه بشر، أو بما لا نفع فيه ولا خير، ووسوس الرجل: أصيب في عقله، وتكلم بغير نظام، وأصابته الوساس فهو وسوس، وتكلم بكلام خفي، والوسواس: صوت الحلي، ووسوس الرجل: كلمه كلاماً خفياً، ووسوس به بالبناء للمجهول: اختلط كلامه، ودهش، والوسواس: الاسم من وسوس، والوسواس: الشيطان، والوسواس: مرض يحدث من غلبة السوداء، ويختلط معه الذهن، ويقال لما يخطر بالقلب من شر، أو لما لا خير فيه وسواس، وجمعه: وساس.

﴿سَوَّاهُمَا﴾: عوراهما، وقد تقدمت.

﴿يَخْصِفَانِ﴾: أي: يلزقان، من خصف النعل، وهو: أن يخرز عليها الخصاف، أي: يلزقان ورق الشجر بعضه ببعض حتى يصير عريضاً، صالحاً للاستتار.

﴿أَجْنَبَهُ﴾: اصطفاه، وقربه، من جنى إلى كذا فاجتبته، فالمجتبى كأنه في الأصل: من جمعت فيه المحاسن حتى اختاره غيره.

○ الإعراب:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ جملة مستأنفة، مسوقة لتقرير مساوىء النسيان الذي هو صنو الجهل وقرينه؛ ولذلك يجب التحوط منه، والدعاء دائماً بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾. واللام جواب للقسم المحذوف، وقد حرف تحقيق، وعهدنا فعل وفاعل، وإلى آدم جار ومجرور متعلقان بعهدنا، ومن قبل متعلقان بمحذوف حال، فنسي عطف على عهد، أي: نسي ما أمرناه به، أي: أن النسيان أمر مركوز في طباع بني آدم، ولم نجد: الواو عاطفة، ولم حرف نفي وقلب وجزم، والفاعل مستتر تقديره: نحن، وعزماً مفعول به. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ أَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ الظرف متعلق باذكر مقدراً، أي: واذكر وقت ما جرى على آدم من معاداة إبليس، ووسوسته له، وتزيينه له الأكل من

الشجرة، ومبادرة آدم بالطاعة له بعد ما سلف من النصيحة البالغة، والتحذير من الشيطان، ومكره، وأحاييله. وقد تقدم إعراب الآية كثيراً فلا حاجة إلى الإعادة، ولا تنس اختلاف العلماء في اتصال الاستثناء، وانقطاعه. وجملة أبي حالية. ﴿فَقُلْنَا يَنَادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ الفاء عاطفة، وقلنا فعل وفاعل، ويا آدم نداء، وجملة إن مقول القول، وهذا اسم إن، وعدو خبرها، ولك صفة لعدو ولزوجك عطف على لك. ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ الفاء عاطفة، ولا ناهية، ويخرجنكما فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم بلا، والكاف مفعول به، والفاعل مستتر، وهو إبليس، والميم والألف للتثنية، فتشقى: الفاء فاء السببية، وتشقى فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية، والفاعل مستتر تقديره: أنت، وأسند فعل الشقاء إلى آدم وحده؛ لأن شقاء زوجه منوط بشقائه، كما أن سعادتها منوطة بسعادته، فاختصر الكلام مع المحافظة على الفاصلة. ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ إن حرف مشبه بالفعل، ولك خبر مقدم، وأن وما في حيزها اسمها المؤخر، وفيها متعلقان بتجوع ولا تعرى عطف على لا تجوع. ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ عطف على سابقتها، وسيأتي كلام بديع حول فصل الجوع عن الظمأ، والعري عن الضحو، والسر البياني الذي تنقطع دونه الأعناق في باب البلاغة.

بقيت هناك مشكلة وهي عطف «أنك» على «أن لا تجوع» فكأنها اسم لإن بالكسر، وهذا ممتنع، فلا يقال: إن أن زيدا منطلق، ولكن لما فصل - هنا - بينهما جاز، فتقول: إن عندي أن زيدا قائم، فعندي هو الخبر، قدم على الاسم، وهو أن وما في حيزها لكونه ظرفاً. والآية من هذا القبيل، ورأى الزمخشري رأياً آخر، فقال: فإن قلت: إن لا تدخل على أن، فلا يقال: إن أن زيدا منطلق، والواو نائبة عن أن، وقائمة مقامها، فلم أدخلت عليها؟ قلت: الواو لم توضع لتكون أبداً نائبة عن إن، إنما هي نائبة عن كل عامل، فلما لم تكن حرفاً موضوعاً للتحقيق خاصة، كأن لم يمتنع اجتماعهما، كما امتنع اجتماع إن وأن.

قال ابن هشام في صدد الحديث عن المواضع التي يجوز فيها كسر همزة إن وفتحها: السادس أن تقع بعد واو مسبوقة بمفرد صالح للعطف عليه، نحو: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ ﴿١١٥﴾ قرأ نافع وأبو بكر بالكسر في: «وأنت لا تظماً» إما على الاستثناف، فتكون جملة منقطعة عما قبلها، أو بالعطف على جملة إن الأولى، وهي إن لك أن لا تجوع، وعليهما فلا محل لها من الإعراب، وقرأ الباقر من السبعة بالعطف على أن لا تجوع من عطف المفرد على مثله، والتقدير: أن لك عدم الجوع وعدم الظماً.

﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ ﴿١١٦﴾ فوسوس: الفاء: عاطفة، ووسوس فعل ماضٍ، وإليه متعلقان بوسوس، والشيطان فاعل، قال يا آدم فعل ماضٍ ونداء، وهل حرف استفهام، وأدلك فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: أنا، والكاف مفعول به، وعلى شجرة الخلد متعلقان بأدلك، وملك عطف على شجرة، وجملة لا يبلى صفة للملك. ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءُ تَهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ ﴿١١٧﴾ فأكلا فعل ماضٍ، والألف فاعل، ومنها متعلقان بأكلا، فبدت عطف على أكلا، ولهما متعلقان ببدت، وسوءاتهما فاعل، وطفقا فعل ماضٍ من أفعال الشروع العاملة عمل كاد في وقوع الخبر فعلاً مضارعاً، والألف اسمها، وجملة يخصفان خبر طفقا، وعليهما متعلقان بيخصفان، ومن ورق الجنة صفة لموصوف محذوف هو المفعول به، أي: ورقاً من ورق الجنة، قيل: هو التين، والأولى أن يكون عاماً ليشمل جميع أوراق الأشجار، وعصى آدم ربه فعل وفاعل ومفعول به، فغوى عطف على عصى. ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ ﴿١١٨﴾ ثم حرف عطف، واجتباه فعل ومفعول به، وربّه فاعل، فتاب عليه عطف على اجتباه، وهدى عطف على تاب. ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ﴿١١٩﴾ اهبطا فعل أمر مبني على حذف النون، والألف فاعل، ومنها متعلقان باهبطا، وجميعاً حال، وبعضكم مبتدأ،

ولبعض حال؛ لأنه كان صفة لعدو، وعدو خبر، وجملة بعضكم لبعض عدو في محل نصب على الحال. ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشَقَّ﴾ الفاء عاطفة، وإن شرطية، وما زائدة، ويأتينكم فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والكاف مفعول به، ومني متعلقان بيأتينكم، وهدي فاعل يأتينكم، فمن اتبع: الفاء رابطة، ومن شرطية مبتدأ، واتبع فعل ماض في محل جزم فعل الشرط، وهداي مفعول به، والفاء رابطة للجواب، وجملة لا يضل في محل جزم جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه خبر من، وجملة من اتبع في محل جزم جواب إن.

□ البلاغة:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ * وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى فن بديع يسمى: قطع النظير عن النظير، وذلك أنه قطع الظماً عن الجوع والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب، والغرض من ذلك: تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها، ولو قرن كلاً بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة. ويسميه بعض علماء البيان: «فن التوهم» وقد سبقت الإشارة إليه، وهو: أن يأتي المتكلم بكلمة يوهم ما بعدها من الكلام: أن المتكلم أراد تصحيفها، وهو يريد غير ذلك، ومنها: أن يأتي في ظاهر الكلام ما يوهم أن فيه لحنًا خارجاً عن اللسان، ومنها: ما يأتي ظاهره يوهم أن الكلام قد قلب عن وجهه لغير فائدة، ومنها: ما يأتي دالاً على أن ظاهر الكلام فاسد المعنى، وهو صحيح.

وهذه الآية من القسم الذي يوهم ظاهره أن نظم الكلام جاء على غير طريق البلاغة؛ لكون لفظه غير مؤتلف بمعناه؛ لما ترى في الألفاظ من عدم ملائمة، وإذا تأمله المتأمل حق التأمل وجده جارياً على منهج البلاغة، بحيث لو جاء على ما توهمه المعارض لكان النظم معيباً. وفي الآية يقول المتوهم: لو قيل: لا تجوع، ولا تظمأ، ولا تصحى، ولا تعرى؛ لكان ذلك جارياً على ما توجهه البلاغة من الملائمة، والجواب: إن مجيئها على ما توهمه المتوهم يفسد

معنى النظم؛ لأنه لو قيل: إن لك أن لا تجوع فيها ولا تنظم، لوجب أن يقول: وإنك لا تعري فيها ولا تضحى، والتضحى: البروز لشمس بغير سترة. قال الهذلي، وقيل للمجنون كما في «أُمالي القالي»:

سلبت عظامي لحمها فتركتهـا مجرّدة تضحى لديك وتخصر

أي: تلقى الشمس الضاحية مجرّدة، فينالك منها حرها، وتلقى برد الليل مجرّدة، فينال منها برده، فهي معذبة ليلها ونهارها.

وإذا كان التضحى: البروز للشمس بغير سترة، كان معناه: التعري، فيصير معنى الكلام: وأنت لا تعري فيها ولا تعري، وهذا فساد ظاهر، ولما كان هذا الفساد لازماً للنظم على الوجه الذي توهمه المتوهم، ويجب العدول عنه إلى لفظ القرآن، وهو أن يضم سبحانه لنفي الجوع نفي العري لتطمئن النفس بسد الجوع، وستر العورة؛ اللذين تدعو إليهما ضرورة الحياة، وتطلبهما طبيعة الإنسان بالجبلة، ولما كان الجوع مقدماً على العطش كتقديم الأكل على الشراب، أوجبت البلاغة تأخر ذكر الظمّ عن الجوع، وتقديمه على التضحى؛ لأنه مهم يجب أن يتقدم الوعد بنفيه، كما تقدم الوعد بنفي الجوع، ويتأخر ذكر التضحى، كما تأخر ذكر العري عن الجوع؛ لأن التضحى من جنس العري، والظمّ من جنس الجوع، فإن قيل: لم ذكر التضحى وهو عري في المعنى، وقد أغنى ذكر العري؟ قلت: في ذكر التضحى فائدة كبيرة، وهي وصف الجنة بأنها لا شمس فيها، كما قال سبحانه: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا﴾ فإن التضحى عري مخصوص، مشروط بالبروز إلى الشمس وقت الضحى؛ لذلك سمي تضحياً، والانتقال من الأعم إلى الأخص بلاغة؛ لاختصاص الأخص بما لا يوجد في الأعم.

وقال العز بن عبد السلام في «الأُمالي»: كان المناسب من طريق المجاز أن لا تجوع ولا تنظم ولا تعري ولا تضحى؛ للجمع بين المتماثلين، فلم عدل عن هذا؟ والجواب: إن في الآية جناساً خيراً من هذا، وذلك أن الجوع تجرّد الباطن من الغذاء، والعري تجرّد الظاهر من الغشاء، فجانس في الآية بين

التجردين، وكذلك الظمأ: حرّ الباطن، والضحى - وهو الظهور للشمس -: حرّ الظاهر، فجانس بالجمع بين الحرّين .

وقد رمق أهلُ البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً، فقال أبو الطيب المتنبي:

وقفت وما في الموتِ شكٌّ لواقفٍ
كأنك في جفنِ الردى وهو نائمٌ
تمرُّ بك الأبطالُ كلِّمى هزيمةً
ووجهُك وضَّاحٌ وثغركَ باسمٌ

يُحكى أنه لما استنشده سيف الدولة يوماً قصيدته التي أولها:
على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ
وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ
فلما بلغ إلى هذين البيتين قال سيف الدولة: قد انتقدتهما عليك كما انتقد على امرئ القيس قوله:

كأني لم أركبَ جواداً للذةٍ ولم أبتطنَ كاعباً ذات خلخالٍ
ولم أسبأ الزقَّ الرّوي ولم أقلَّ لخلي كرىً كرىً بعد إجفالٍ
فبيتاك لم يلتئم شطراهما، كما لم يلتئم شطرا بيتي امرئ القيس، وكان ينبغي لك أن تقول:

وقفت وما في الموتِ شكٌّ لواقفٍ
ووجهُك وضَّاحٌ وثغركَ باسمٌ
تمرُّ بك الأبطالُ كلِّمى هزيمةً

كأنك في جفنِ الردى وهو نائمٌ

فقال المتنبي: إن صحَّ أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا هو أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولاي يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك؛ لأن البزاز يعرف جملته، والحائك يعرف تفاصيله، وإنما قرن امرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة

بسبب الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء، وكذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى في آخره؛ ليكون أحسن تلاؤماً، ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوساً، وعينه باكية، قلت: «ووجهك وضاح وثرعك باسم» لأجمع بين الأضداد.

على أن في هذه الآية سرّاً لذلك زائداً على ما ذكر، وهو أنه قصد تناسب الفواصل، ولو قرن الظماً بالجوع لانتشر سلك رؤوس الآي، وأحسن به منتظماً.

* الفوائد:

أسماء الأصوات:

وعندناك ببحث أسماء الأصوات، ونرى أن نتوسع فيها قليلاً لأن كتب النحو قلما تهتم لها، فهي تجري مجرى أسماء الأفعال لأنها متواخية معها، وهي مبنية، وتنقسم إلى قسمين:

أ - ما خوطب به مالا يعقل مما يشبه اسم الفعل في الاكتفاء به، ولكن اسم الفعل مركب، واسم الصوت مفرد؛ لعدم تحمله الضمير، كقولهم في دعاء الإبل لشرب: جىء جىء بكسر الجيم فيهما مكررين مهموزين، وفي المحكم أنهما أمر للإبل بورود الماء، يقال: جأجأت الإبل إذا دعوتها لشرب، فقلت: جىء جىء، نقله الجوهري عن الأموي، وكقولهم في دعاء الضأن: حا حا، وفي دعاء المعز: عا عا غير مهموزين، والفعل منهما: حاحيت، وعاعيت، قال سيويه: وأبدلوا الألف من الياء لشبهها بها؛ لأن قولك حاحيت إنما هو صوت بنيت منه فعلاً، وليست فاعلت وكقولهم في زجر البغل:

عَدَسْ مَا لِعَبَّادٍ عَلَيْكَ إِمَارَةٌ أَمْنَتِ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ

فعدس صوت يزجر به البغل، وقد يسمى البغل به، والتقدير على التسمية به: يا عدس، فحذف حرف النداء. وإمارة - بكسر الهمزة - أي: حكم.

ب - ما حكى به صوت مسموع، والمحكي صوته قسمان: حيوان

وغيره، فالأول كغاق بالغين المعجمة والقاف لصوت الغراب، والثاني نحو: طاق حكاية لصوت الضرب، وطق بفتح الطاء حكاية لصوت وقع الحجارة بعضها على بعض.

هذا؛ وسيرد المزيد من بحث أسماء الأصوات في هذا الكتاب.

نبذة من أسماء الأصوات:

وفيما يلي طائفة مختارة من أسماء الأصوات:

الصَّريـر: صوت القلم، والسرير، والباب، والطست، والنعل.
والنشيش: صوت غليان القدر والشراب. الرنين: صوت الثكلي، والقوس.
القصيف: صوت الرعد، والبحر، وهدير الفحل. النقيق صوت الدجاج،
والضفدع. القعقعة: صوت السلاح، والجلد اليابس، والقرطاس.
الغرغرة: صوت غليان القدر، وتردد النفس في صدر المحتضر. العجيج:
صوت الرعد، والنساء، والشاء. الزفير: صوت النار، والحمار، والمكروب
إذا امتلأ صدره غماً فزفر به. الخشخشة والشخشخة: صوت حركة
القرطاس، والثوب الحديد، والدرع. الجلجلة: صوت السبع، والرعد،
وحركة الجلاجل. الخفيف: صوت حركة الأغصان، وجناح الطائر، وحركة
الحية. الصليل والصلصلة: صوت الحديد، واللجام، والسيـف، والدراهم،
والمسامير. الطنين: صوت البعوض، والذباب، والطنبور. الأيطيط: صوت
الناقة، والمحمل، والرجل إذا أثقله ما عليه. اسرصررة: صوت البازي،
والبط. الدوي: صوت النحل، والأذن، والمطر، والرعد. الانقاض:
صوت الدجاجة، والفروج. التغريد: صوت المغني، والحادي، والطائر،
وكل صائت طرب الصوت فهو غرد. الززمة والزهزمة: صوت الرعد،
ولهب النار، وحكاية صوت المجوسي إذا تكلف الكلام وهو مطبق فمه.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

أَعْمَى ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ۝ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۝ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ۝ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۝ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَلَقَبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ۝ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِي ۝ قُلْ كُلُّ مُرْتَبَضٍ فَتَرَبَّصُوا فَمَسْأَلُكُمْ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ۝

☆ اللفظة:

﴿ضَنْكًا﴾ : - بالتنوين - مصدر بمعنى ضيقة، ولهذا لم يؤنث بأن يقال ضنكة على حد القاعدة التي ذكرها صاحب الخلاصة :

ونعتوا بمصدر كثيرًا فالتزموا الإفراد والتذكير
وفي القاموس : الضنك : الضيق في كل شيء للذكر والأنثى . يقال : ضنك ككرم، ضنكاً، وضناكة، وضنوكه : ضاق . وقرىء : ضنكى على فعلى .

﴿يَهْدِي لَهُمْ﴾ : أي : يهتدي لهم، فهو لازم، ومعناه : يتبين .

﴿ءَانَاءِ اللَّيْلِ﴾ : جمع إنى - بكسر الهمزة والقصر - كيمى - بكسر الميم - . وفي المختار : آناء الليل : ساعاته، قال الأخفش : واحدها إنى، مثل معى، وقيل : واحدها أنى وأنو، يقال : مضى من الليل أنوان، وأنيان .

﴿مُتَرَيِّضٌ﴾ : منتظر ما يؤول إليه الأمر.

○ الإعراب:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ الواو عاطفة على جواب الشرط المتقدم، وهو ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ﴾ ومن اسم شرط جازم مبتدأ، وأعرض فعل ماض في محل جزم فعل الشرط، وفاعله ضمير مستتر تقديره: هو، وعن ذكري متعلقان بأعرض، فإن الفاء رابطة للجواب؛ لأنه جملة اسمية، وإن حرف مشبه بالفعل، وله خبرها المقدم، ومعيشة اسمها المؤخر، وضنكاً صفة، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه خبر من ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى﴾ ونحشره: الواو استئنافية، ونحشر فعل مضارع مرفوع، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والهاء مفعول به، ويوم القيامة ظرف متعلق بنحشره، وأعمى حال من الهاء في نحشره، وقد قرئ بالجزم عطفاً على محل: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾. ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ رب منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة، ولم اللام حرف جر، وما الاستفهامية في محل جر باللام، وقد حذفت ألف ما الاستفهامية كما هي القاعدة، والجار والمجرور متعلقان بحشرتني وحشرتني فعل وفاعل ومفعول به، وأعمى حال، والواو للحال، وقد حرف تحقيق، وكنت: كان واسمها، وبصيراً خبر كنت. ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ إِنْ تَبْتَئِنَا فَنُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ يُنَبِّئْكَ وَالْيَوْمَ لَكُمُ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ﴾ وكذلك نعت لمصدر محذوف، أي: حشراً مثل ذلك، أو: خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك، وأنتك آياتي فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر، فنسيتها: الفاء عاطفة، ونسيتها فعل وفاعل ومفعول به، وكذلك نعت لمصدر محذوف، واليوم ظرف متعلقان بتنبئ. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ وكذلك نعت لمصدر محذوف، ونجزي فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: نحن، ومن موصول مفعول به، وجملة أسرف صلة، ولم يؤمن عطف على أسرف، فهو داخل في حيز الصلة، وبآيات متعلقان بيؤمن، وربّه مضاف إليه، ولعذاب: الواو

حالية، أو عاطفة، واللام للابتداء، وعذاب مبتدأ، والآخرة مضاف إليه، وأشد خبر وأبقى عطف على أشد. ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾ الهمزة للاستفهام، وهي داخلة، على محذوف عطف عليه بالفاء، وقد تقدم تقريره كثيراً، وأعدناه الآن للتذكير، والتقدير: أغفلوا فلم يتبين لهم، وفاعل يهد المصدر المفهوم من أهلكنا، أي: أفلم يتبين لهم إهلاكنا، ويحتمل أن يكون فاعل يهد ضميراً عائداً على الله تعالى، أي: يبين الله، والأول أولى؛ لأن يهدي معناه: يتبين، فهو لازم، فالفاعل هو الجملة المنسوبة مصدرأ لأهلكنا. وقد أنكر البصريون وقوع الجملة فاعلاً، وجوزوه غيرهم. قال القفال: جعل كثرة ما أهلك من القرون مبيناً لهم، قال النحاس: وهذا خطأ لأن كم استفهام، فلا يعمل فيها ما قبلها. وقال الزجاج: المعنى أولم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكناه، وحقيقته تدل على الهدى، فالفاعل هو الهدى. ولهم متعلقان بيهدي، وكم خبرية مفعول مقدم لأهلكنا، ومن القرون نعت لتمييزكم الخبرية، أي: كم قرن من القرون، والمراد: الأمة، وجملة يمشون في مساكنهم حال من مفعول أهلكنا، أو من الضمير في لهم، وفي مساكنهم متعلقان بيمشون، والضمير يعود على المهلكين بفتح اللام، يريد: أن قريشاً يتقلبون في بلاد عاد وثمود، ويعاينون آثار هلاكهم وفيها ما يدعو إلى العبرة، والاتعاظ. وقد رmq أبو الطيب سماء هذا المعنى كما سيأتي في باب البلاغة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ إن وخبرها المقدم، واللام المرحلقة، وآيات اسمها المؤخر، ولأولي صفة لآيات، والنهي مضاف إليه، وهي جمع نية بمعنى العقل. ﴿وَلَوْلَا كَيْدُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ الواو استئنافية، ولولا حرف امتناع لوجود، وكلمة مبتدأ محذوف الخبر، وجملة سبقت من ربك صفة لكلمة، ومن ربك متعلقان بسبقت؛ لكان اللام واقعة في جواب لولا، وكان فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر تقديره: هو، يعود على الإهلاك، ولزماً خبرها، وأجل مسمى عطف على كلمة أي، ولولا أجل مسمى لكان الإهلاك لازماً لهم، ويجوز

- كما يرى الزمخشري وأبو البقاء - أن يكون معطوفاً على الضمير المستتر في «كان»، أي: لكان الإهلاك العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود، ومن العجيب أن معظم المفسرين كالجلال والبيضاوي وغيرهما جروا على هذا الوجه؛ رغم ما فيه من تكلف، وقالوا: إن الفصل بالخبر قام مقام التأكيد؛ لأنه كان من حق العطف أن يؤكد الضمير المستتر في كان بالضمير المنفصل، فكان يقال: هو لازماً وأجل مسمى، ولا داعي لكل هذا التكلف، وعطفه على كلمة أسهل وأسرع في تأدية المعنى المراد. ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ الفاء الفصيحة، أي: إذا كان الأمر على ما ذكر من أن تأخير عذابهم ليس بإهمال، بل إهمال، وهو واقع بهم، وآت عليهم فاصبر. واصبر فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، وعلى ما: متعلقان باصبر، وجملة يقولون صلة، وسبح عطف على اصبر، وبحمد ربك في موضع نصب على الحال، أي: وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح، وأعانك عليه، وسيأتي المراد بالصبر في باب الفوائد.

وقبل متعلق بسبح، وطلوع الشمس مضاف، وقبل غروبها عطف على قبل طلوع الشمس ﴿وَمِنَ آيَاتِي اللَّيْلُ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ الجار والمجرور متعلقان بسبح، والفاء هي الفصيحة أيضاً، وسبح فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، وأطراف النهار نصب عطفاً على محل ﴿وَمِنَ آيَاتِي﴾ المنصوب، ويجوز عطفه على قبل طلوع الشمس، ولعل حرف ترج ونصب، والكاف اسمها، وجملة ترضى خبرها، ومتعلق ترضى محذوف مفهوم من السياق، أي: بما تعطاه من الثواب، وجملة لعلك ترضى حالية من فاعل سبح، أي: صل حال كونك راجياً في أن الله تعالى يرضيك بما يعطيكه من الثواب. ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ﴾ الواو عاطفة، ولا ناهية، وتمدن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وهو في محل جزم بلا، وفاعله ضمير مستتر تقديره: أنت، وعينيك مفعول به، وإلى ما: متعلقان بتمدن، وجملة متعنا صلة، وبه متعلقان

بمتعنا، والهاء هي العائد، وأزواجاً مفعول متعنا، أي: أصنافاً منهم، ومنهم صفة، ويجوز أن يعرب نصباً على الحال من هاء الضمير، فيكون منهم متعلقاً بمتعنا، وزهرة الحياة الدنيا توسع المعربون في إعرابها، فأوصلوا أوجه نصبها إلى تسعة، وقد محصناها فرأيناها كلها سائغة، ولهذا نعرضها كما ذكروها للتوصل إلى الترجيح:

١ - أن تكون مفعولاً ثانياً إذا أعربنا أزواجاً هو المفعول الأول؛ لأن معنى متعنا: أعطينا.

٢ - أن تكون منصوبة على الحال من ما الموصولة.

٣ - أن تكون منصوبة على البدلية من أزواجاً على المبالغة، كأنهم نفس الزهرة.

٤ - أن تكون منصوبة بفعل مضمر دلّ عليه متعنا، تقديره: جعلنا لهم زهرة.

٥ - أن تكون منصوبة على الذم، أي: أذم زهرة الحياة الدنيا.

٦ - أن تكون منصوبة على الاختصاص.

٧ - أن تكون منصوبة على البدلية من محل «به».

٨ - أن تكون منصوبة على الحال من الضمير في «به».

٩ - أن تكون منصوبة على التمييز لـ «ما» أو للهاء في «به».

ومن تمحيص هذه الوجوه، ومراعاة جانب السهولة يتبين أن نصب زهرة يترجح في نصبها على الذم، أو المفعولية على تضمين متعنا معنى أعطينا، وبهما بدأ الزمخشري، وغيره.

ولفتنهم: اللام للتعليل، وفتنهم مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بمتعناهم، والهاء مفعول به، وفيه متعلقان بفتنهم. ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ الواو للحال، ورزق ربك مبتدأ، وخير خبر، وأبقى عطف على خير ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا﴾ واؤمر: الواو استئنافية، أو عاطفة، واؤمر فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، وأهلك مفعول به، وبالصلاة متعلقان بفعل الأمر، واصطبر

فعل أمر، وفاعله مستتر، وتقديره: أنت، وعليها متعلقان باصطبر، وجملة لا نسألك استئنافية، ونسألك فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ورزقاً مفعول به ثان. ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ نحن مبتدأ وجملة نرزقك خبر، والعاقبة مبتدأ، وللتقوى خبر، وهاتان الجملتان مستأنفتان أيضاً. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَأَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ لولا حرف تحضيض، أي: هلا، ويأتينا فعل وفاعل مستتر ومفعول به، وبآية متعلقان بيأتينا، ومن ربه متعلقان بمحذوف صفة لآية، اقترحوا جرياً على ديدنهم المعروف، وعادتهم في التعنت واللجاج، أولم الهمزة للاستفهام الإنكاري، والواو عاطفة على مقدر يقتضيه السياق، والتقدير: ألم تأتهم البينات ترى، ولم تأتهم بصورة خاصة بينة ما في الصحف الأولى، وبينه فاعل لتأتهم، وما موصول مضاف لبينة، وفي الصحف متعلقان بمحذوف صلة الموصول، والأولى صفة للصحف، وفيها ما يكفي المنصف، أما المكابر المتعنت، فهيهات أن يقنعه شيء! ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ تقدم إعراب مثل هذا التركيب، أي: لو ثبت إهلاكنا، فأنا وما بعدها فاعل لفعل محذوف، والجملة مستأنفة، سيقى لتدعيم ما تقرر من تعنتهم، وصلفهم، ومجادلتهم، وبعذاب متعلقان بأهلكناهم، ومن قبله صفة لعذاب. لقالوا: جواب لو، والجملة لا محل لها، وربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء، ولولا حرف تحضيض، وأرسلت فعل وفاعل، وإلينا متعلقان بأرسلت، ورسولاً مفعول به، والجملة مقول القول. ﴿فَتَنَبَّحْ بِآيَتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِي﴾ فتنبع: الفاء هي السببية، وبتبع منصوب بأن مضمرة في جواب التحضيض، والفاعل مستتر تقديره: نحن، وآياتك مفعول به منصوب بالكسرة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، ومن قبل متعلقان بتنبع، وأن وما بعدها في تأويل مصدر مضاف لقبل، ونخزي عطف على نذل ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصَّرِطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ كل مبتدأ، ساغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم، ومتربص خبر، والجملة مقول القول، والفاء الفصيحة، وتربصوا فعل أمر، فستعلمون: الفاء استئنافية،

والسين حرف استقبال، وتعلمون فعل مضارع مرفوع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، ومن اسم استفهام مبتدأ، وأصحاب الصراط السوي خبر، ومن اهتدى عطف على من أصحاب، والجملة من أصحاب مفعول تعلمون المعلقة عن العمل، ويجوز أن تكون من موصولة مفعول تعلمون، وأصحاب الصراط خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم أصحاب.

□ البلاغة:

١ - المجاز المرسل، فقد ذكر القرون، وأراد الأمم التي تعيش عبرها، والاعتبار بآثار الأمم البائدة، والقرون الخالية، كان مثاراً لأخيلة الشعراء، وخاصة في مقام الرثاء، وأبرع من سما بخياله إلى هذا المعنى أبو الطيب المتنبي والبحري، فنكتفي بهما، وسنورد أبياتاً مختارة من قصيدتين لهما.

يقول عبد الله بن المعتز الشاعر العباسي الخليفة: لو لم يكن للبحري إلا قصيدته في إيوان كسرى، وقصيدته في وصف بركة المتوكل لكان أشعر الناس. فقد زار البحري بعد أن سئم الحياة في بغداد بعد مقتل المتوكل على الله المدائن، وهي مدينة يقع فيها إيوان كسرى، وقد أبدع في وصف الإيوان إبداعاً فريداً زاده روعة أنه من شعراء العرب أول من وصف الآثار القديمة الخالدة واستوحاها، وصب عليها من روحه، وهذه مختارات منها:

صنْتُ نَفْسِي عما يُدْنَسُ نفسي
وترَفَعْتُ عن جِدا كلِّ جِبي
وتماسكْتُ حيث زعزعني الدَّهْد
رُ التماساً منه لتعسي ونكسي
حضرت رَحلي الهموم فوجَّه
سْتُ إلى أبيض المدائن عني
ذُكرتهم الخطوبُ التوالِي
ولقد تذكّر الخطوبُ وتني

حلل لم تكن كأطلالٍ سعدى
 في قفارٍ من البسابيِ ملس
 فكأنَّ الجرمَازَ من عَدَمِ الآنِ
 سِ وإخلاله بنية رمس
 لو تراه علمتَ أنَّ الليالي
 جعلتُ فيه مآتماً بعد عرس
 فإذا ما رأيتَ صورةً أنطا
 كية ارتعتَ بين رومٍ وفُرس
 والمنايا موائِلٌ وأنوشر
 وان يُرْجى الصُّفوفَ تحت الدَّرَفَس
 في اخضرارٍ من اللباسِ على أصد
 فريختالٌ في صبيغة ورس
 عمرتُ للسُّرور دهرًا فصارتُ
 للتعزّي رِباعهم والتَّأسّي
 فلها أن أعينها بدموع
 موقوفات على الصَّبابةِ حبس

ولا يتسع المجال لإيراد القصيدة بكاملها، فهي نموذج حيّ معبر من أدبنا العربي، كما لا يتسع المجال لدراستها، فنكتفي بإيراد بعض الملاحظات السريعة عليها:

١ - تشعر حين تقرأ السينية بروعة موسيقاها الناتجة عن خفة البحر وجماله (الخفيف) وتلاؤمه مع العواطف، والمعاني، والألفاظ، والروي المهموس، وهو السين، وترداد الحروف المهموسة كالسين، والصاد، والتاء.

٢ - تشعر بتأثر الشاعر بالعظمة حين قدم لوصف الإيوان، ثم ما تعتم أن تأسى وتحزن حين تقرأ أن الليالي جعلت فيه مآتماً بعد عرس، وهذا التجاوب النفسي بين ما يصفه الشاعر وبين ما يصف ميزة فنية بحتة.

٣ - تشعر أن الشاعر يعجب بكل ما هو عظيم في الدنيا، ولو كان من غير قومه فنراه هنا معجباً بالفرس، فبكاهم أصدق بكاء، ورثاهم أحرّ رثاء، وهكذا الفن يسمو ليستحيل إنسانية صرفاً.

٤ - وأخيراً تعجب من أن الشاعر يطرق في الأدب العربي فناً جديداً لم يطرقه أحد من قبله، وهو رثاء الممالك الزائلة والآثار الباقية، ولم يشر إليه قبل القرآن أحد، فيقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَسْتُونَ فِي مَسْكِئِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾

وننتقل إلى عينية أبي الطيب المتنبّي، وهي القصيدة التي رثى بها أبا شجاع فاتكاً، وفيها تحدث عن شعور الإنسان حيال الآثار المتخلفة عن أصحابها، فقال منها:

وَتُحِسُّ نَفْسِي بِالْحِمَامِ فَأَشْجُعُ	إِنِّي لِأَجْبُنُ مِنْ فِرَاقِ أَحَبَّتِي
وَيُلِمُّ بِي عَتَبُ الصَّدِيقِ فَأَجْزَعُ	وَيَزِيدُنِي غَضَبُ الْأَعَادِي قَسْوَةً
عَمَّا مَضَى فِيهَا وَمَا يُتَوَقَّعُ	تَصَفُّو الْحَيَاةَ لِلْجَاهِلِ أَوْ غَافِلِ
وَيَسُومُهَا طَلَبُ الْمَحَالِ فَتَطْمَعُ	وَلَمَنْ يُغَالِطُ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ
مَا قَوْمُهُ؟ مَا يَوْمُهُ؟ مَا الْمَصْرَعُ؟	أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ
حِيناً وَيُذَرِّكُهَا الْفَنَاءُ فَتَتَّبِعُ	تَتَخَلَّفُ الْآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا

ويظهر أن أبا الطيب كان يحب القائد فاتكاً أبا شجاع حباً خالصاً، قائماً على الإعجاب، فهو يرثيه بقصيدتين، يجعل منهما وسيلة إلى الإبانة عما في نفسه من هموم ومحن، وترى من خلالهما بعض النظرات الفلسفية، فهو كما ترى يرى الحياة لا تصفو إلا للجاهل أو الغافل، أما الشجاع الأبي فقلماً تخطئه سهامها، ونراه - هنا - معاني مظلمة قائمة في نفسه، حتى ليكاد يلقي سلاحه أما عوادي الزمان لولا بقية من قوة يستمسك بها:

المَجْدُ أَحْسَرُ وَالْمَكَارِمُ صَفْقَةٌ

مِنْ أَنْ يَعِيشَ لَهَا الْهُمَامُ الْأَرْوَعُ

وَالنَّاسُ أُنْزِلُ فِي مَكَانِكَ مَنْزِلًا

مِنْ أَنْ تُعَايِشَهُمْ وَقَدْرُكَ أَرْفَعُ

٢- وفي قوله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ...﴾ الآية فن المناسبة، وهي على ضربين: معنوية ولفظية، والمعنوية هي أن يتبدى المتكلم بمعنى، ثم يتم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ، فالآية موعظتها سمعية، فختمها بأشد مناسبة معنوية بقوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾^(١) وقال في الآية التي موعظتها مرئية، وهي آية السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فقد ختمها بقوله: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ لأن ذلك مما يتبين بالرؤية، وما فوق هذه المناسبة مناسبة. ومن بدیع ما ورد فيها شعراً قول القاضي الفاضل:

وبدر بأفلاك الخواطر طالع

وغصن بريحان الغدار وريق

لئن بت في بحر من الفكر سابحاً

فإنسان عيني في الدُموع غريق

فالمناسبة في الشطر الأول في البدر والأفلاك والطلوع، وفي الشطر الثاني بين الغصن والريحان ووريق، وفي الثالث بين البحر وسابحاً، وفي الرابع بين إنسان العين والدموع وغريق، ففي كل شطر من البيتين مناسبات عديدة، وأما المناسبة اللفظية فهي دون رتبة المعنوية، وهي الإتيان بكلمات مترنات، وهي أيضاً على ضربين: تامة وغير تامة، فالتامة تكون الكلمات مع الاتزان مقفاة، والناقصة موزونة غير مقفاة، فمن شواهد التامة من القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿تَوَالَّقَلِمٌ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا عَظِيمًا وَمَنْ الشَّعْرُ قَوْلُ ابْنِ هَانِيءِ الْأَنْدَلِسِيِّ:

(١) كذا في الأصل، والآية المشار إليها خُتِمت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [طه: ١٢٨].

وعوابس وقوابس وفوارس وكوانس وأوانس وعقائل
ومن غير التامة قول ابن خلوف المغربي:

كالورد خدأ والغزالة بهجة والغصن قدأ والغزال مقلدا
وقد اجتمعت التامة والناقصة في قول أبي تمام:

مَهَا الْوَحْشِ إِلَّا أَنْ هَاتَا أَوَانِسُ
قَنَا الْخَطِ إِلَّا أَنْ تَلَكْ ذَوَابِلُ

فبين قنا ومها مناسبة لفظية تامة، وبين الوحش والخط وأوانس وذوابل
مناسبة غير تامة.

* الفوائد:

☆ النسخ في القرآن:

في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مبحث هام جدير بالتأمل، وهو
أن معظم المفسرين درجوا على القول: إن هذه الآية منسوخة بآية القتال،
والصواب أنها ليست منسوخة، بل هي أمر بالصبر المحمود على كل حال،
وهو عدم الاضطراب، ومساورة الجزع لما يقولون، ولما يصدر عنهم من
الأذية، وليس فيها آية إشارة، أو تلميح إلى عدم القتال حتى يكون الأمر
بالقتال ناسخاً لها.

وموضوع النسخ في القرآن الكريم من الموضوعات الشائكة الصعبة،
والاختلاف حوله كثير، وما علم في هذا الباب من استقراء كلام الصحابة
والتابعين أنهم كانوا يستعملون النسخ بإزالة المعنى اللغوي الذي هو إزالة شيء
بشيء لا بإزاء مصطلح الأصوليين، فمعنى النسخ عندهم إزالة بعض
الأوصاف من الآية بآية أخرى إما بانتهاء مدة العمل، أو بصرف الكلام عن
المعنى المتبادر إلى غير المتبادر، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقياً، أو تخصيص
عام، أو بيان الفارق بين المنصوص، وما قيس ظاهراً عليه، أو إزالة عادة
الجاهلية، أو الشريعة السابقة، فأتسع باب النسخ عندهم، وكثر جولان

العقل هنالك، واتسعت دائرة الاختلاف.

أما المنسوخ باصطلاح المتأخرين فهو قليل جداً، وقد ذكر الشيخ جلال الدين السيوطي في «الإتقان» بتقرير مبسوط، كما ينبغي، بعض ما ذكره العلماء، ثم حرر المنسوخ الذي فيه رأي المتأخرين على وفق الإمام الحافظ القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الأندلسي، فعنده قريباً من عشرين آية، وأتى في العصر الحديث الشيخ الإمام محمد عبده فأنكر النسخ في القرآن، وقال: إن كل ما زعموا أنه منسوخ يمكن تأويله كما رأيت في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وهو ظاهر في هذه الآية يطيح بالقول القديم أن الآيات المنسوخة تبلغ حوالي خمسمئة آية، وهو قول ظاهر البطلان بالبداهة.



فهرس الآيات

سورة يوسف

٥	تفسير الآيات (٥٤-٥٧)
٧	تفسير الآيات (٥٨-٦٢)
٩	تفسير الآيات (٦٣-٦٧)
١٣	تفسير الآيات (٦٨-٧٣)
١٨	تفسير الآيات (٧٤-٨٠)
٢٣	تفسير الآيات (٨١-٨٦)
٣٢	تفسير الآيات (٨٧-٩٢)
٣٧	تفسير الآيات (٩٣-١٠١)
٤٤	تفسير الآيات (١٠٢-١٠٧)
٥١	تفسير الآيات (١٠٨-١١١)

سورة الرعد

٦٢	تفسير الآيات (١-٤)
٦٧	تفسير الآيتين (٥-٦)
٦٩	تفسير الآيات (٧-١١)
٧٥	تفسير الآيات (١٢-١٤)

٨٣	تفسير الآيات (١٥-١٨)
٩٠	تفسير الآيات (١٩-٢٤)
٩٣	تفسير الآيات (٢٥-٢٩)
٩٥	تفسير الآيتين (٣٠-٣١)
٩٩	تفسير الآيات (٣٢-٣٤)
١٠٣	تفسير الآيات (٣٥-٣٧)
١٠٥	تفسير الآيات (٣٨-٤٣)

سورة إبراهيم

١١١	تفسير الآيات (١-٤)
١٢٤	تفسير الآيات (٥-٦)
١٢٩	تفسير الآيات (٧-١٢)
١٣٣	تفسير الآيات (١٣-١٨)
١٤٣	تفسير الآيات (١٩-٢٢)
١٤٩	تفسير الآيات (٢٣-٢٧)
١٥٢	تفسير الآيات (٢٨-٣٤)
١٥٨	تفسير الآيات (٣٥-٤١)
١٦٣	تفسير الآيات (٤٢-٥٢)

سورة الحجر

١٧١	تفسير الآيات (١-١١)
١٧٨	تفسير الآيات (١٢-٢٠)
١٨٥	تفسير الآيات (٢١-٢٥)
١٨٨	تفسير الآيات (٢٦-٤٤)
١٩٧	تفسير الآيات (٤٥-٥٠)
١٩٩	تفسير الآيات (٥١-٦٤)
٢٠٤	تفسير الآيات (٦٥-٧٧)

٢٠٨	تفسير الآيات (٧٨-٨٥)
٢١١	تفسير الآيات (٨٦-٩٩)

سورة النحل

٢١٨	تفسير الآيات (١-٩)
٢٢٤	تفسير الآيات (١٠-١٧)
٢٣١	تفسير الآيات (١٨-٢٣)
٢٣٣	تفسير الآيات (٢٤-٢٩)
٢٣٩	تفسير الآيتين (٣٠-٣٤)
٢٤٢	تفسير الآيتين (٣٥-٣٦)
٢٤٥	تفسير الآيات (٣٧-٤٢)
٢٤٨	تفسير الآيات (٤٣-٤٧)
٢٥٢	تفسير الآيات (٤٨-٥٢)
٢٥٨	تفسير الآيات (٥٣-٦٠)
٢٦٤	تفسير الآيات (٦١-٦٤)
٢٦٧	تفسير الآيات (٦٥-٦٩)
٢٧٣	تفسير الآيات (٧٠-٧٢)
٢٧٦	تفسير الآيات (٧٣-٧٦)
٢٨١	تفسير الآيات (٧٧-٨٢)
٢٨٥	تفسير الآيات (٨٣-٨٦)
٢٨٨	تفسير الآيات (٨٧-٩٠)
٢٩١	تفسير الآيات (٩١-٩٣)
٢٩٥	تفسير الآيات (٩٤-٩٧)
٢٩٨	تفسير الآيات (٩٨-١٠٢)
٣٠٠	تفسير الآيات (١٠٣-١٠٦)
٣٠٤	تفسير الآيات (١٠٧-١١١)

٣٠٧	تفسير الآيتين (١١٣-١١٢)
٣١٠	تفسير الآيات (١١٧-١١٤)
٣١٢	تفسير الآيات (١٢٣-١١٨)
٣١٥	تفسير الآيات (١٢٨-١٢٤)

سورة الإسراء

٣١٨	تفسير الآيات (٨-١)
٣٢٨	تفسير الآيات (١٥-٩)
٣٣٣	تفسير الآيات (٢١-١٦)
٣٣٨	تفسير الآيات (٢٥-٢٢)
٣٤٨	تفسير الآيات (٣١-٢٦)
٣٥٤	تفسير الآيات (٣٩-٣٢)
٣٦٦	تفسير الآيات (٤٤-٤٠)
٣٦٩	تفسير الآيات (٤٧-٤٥)
٣٧١	تفسير الآيات (٥٢-٤٨)
٣٧٦	تفسير الآيات (٥٧-٥٣)
٣٧٩	تفسير الآيات (٦٠-٥٨)
٣٨١	تفسير الآيات (٦٥-٦١)
٣٨٧	تفسير الآيات (٦٩-٦٦)
٣٩٠	تفسير الآيات (٧٢-٧٠)
٣٩١	تفسير الآيات (٧٧-٧٣)
٣٩٦	تفسير الآيات (٨١-٧٨)
٤٠٥	تفسير الآيات (٨٤-٨٢)
٤٠٦	تفسير الآيات (٨٧-٨٥)
٤٠٧	تفسير الآيتين (٨٩-٨٨)
٤٠٨	تفسير الآيات (٩٣-٩٠)

٤١٣	تفسير الآيات (٩٤-٩٦)
٤١٤	تفسير الآيات (٩٧-١٠٠)
٤١٨	تفسير الآيات (١٠١-١٠٤)
٤٢١	تفسير الآيات (١٠٥-١١١)

سورة الكهف

٤٣٣	تفسير الآيات (١-٨)
٤٤٤	تفسير الآيات (٩-١٢)
٤٤٩	تفسير الآيات (١٣-١٥)
٤٥١	تفسير الآيات (١٦-١٨)
٤٥٥	تفسير الآيتين (١٩-٢٠)
٤٥٧	تفسير الآيات (٢١-٢٦)
٤٧٥	تفسير الآيتين (٢٧-٢٨)
٤٨٠	تفسير الآيات (٢٩-٣١)
٤٨٨	تفسير الآيات (٣٢-٤٤)
٥٠٤	تفسير الآيات (٤٥-٥١)
٥١٠	تفسير الآيات (٥٢-٥٩)
٥١٥	تفسير الآيات (٦٠-٦٣)
٥١٨	تفسير الآيات (٦٤-٧٠)
٥٢٦	تفسير الآيات (٧١-٨٢)
٥٣٨	تفسير الآيات (٨٣-٨٨)
٥٤٣	تفسير الآيات (٨٩-٩٨)
٥٤٩	تفسير الآيات (٩٩-١٠٦)
٥٦٠	تفسير الآيات (١٠٧-١١٠)

سورة مريم

٥٦٤	تفسير الآيات (١-٦)
-----	--------------------

٥٧٥	تفسير الآيات (١٥-٧)
٥٨٢	تفسير الآيات (٢١-١٦)
٥٨٧	تفسير الآيات (٣٣-٢٢)
٦٠٤	تفسير الآيات (٤٠-٣٤)
٦٠٧	تفسير الآيات (٥٠-٤١)
٦١٩	تفسير الآيات (٥٨-٥١)
٦٢١	تفسير الآيات (٦٣-٥٩)
٦٢٥	تفسير الآيتين (٦٥-٦٤)
٦٢٨	تفسير الآيات (٧٢-٦٦)
٦٣٧	تفسير الآيات (٧٦-٧٣)
٦٤٠	تفسير الآيات (٨٤-٧٧)
٦٤٧	تفسير الآيات (٩٨-٨٥)

سورة طه

٦٥٥	تفسير الآيات (٨-١)
٦٦٠	تفسير الآيات (١٦-٩)
٦٦٦	تفسير الآيات (٢٣-١٧)
٦٧٥	تفسير الآيات (٣٥-٢٤)
٦٧٨	تفسير الآيات (٤٠-٣٦)
٦٨٢	تفسير الآيات (٤٧-٤١)
٦٨٦	تفسير الآيات (٥٥-٤٨)
٦٩٠	تفسير الآيات (٦٣-٥٦)
٦٩٥	تفسير الآيات (٧٠-٦٤)
٧٠٣	تفسير الآيات (٧٦-٧١)
٧٠٦	تفسير الآيات (٨٢-٧٧)
٧١١	تفسير الآيات (٨٦-٨٣)

٧١٤	تفسیر الآيات (٨٧-٩٨)
٧٢٢	تفسیر الآيات (٩٩-١٠٤)
٧٢٦	تفسیر الآيات (١٠٥-١١٤)
٧٣١	تفسیر الآيات (١١٥-١٢٣)
٧٤٠	تفسیر الآيات (١٢٤-١٣٥)